عبدالرقيب يوسف

الدولة الدوستكية

الجزء الثاني - القسم الحضاري

دار ئاراس للطباعة والنشر



السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

***

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر - حي راپەرين - اربيل- كوردستان العراق

ت: ٢٢٣٢٠٢١ ص.ب: رقم ١

عبدالرقيب يوسف

الدولة الدوستكية في كُردستان الوسطى

الجزء الثاني - القسم الحضاري

اسم الكتاب: الدولة الدوستكية في كُردستان الوسطى- الجزء الثاني
تأليف: عبدالرقيب يوسف
من منشورات ئاراس رقم: ٨٠
التصميم والإخراج الفني: شاخوان كركوكي وعبدالرزاق عبدالله
الغلاف: شكار عفان النقشبندي
خطوط الغلاف: الخطاط محمد زاده
تنضيد: عبدالرزاق عبدالله
تصحيح: عبدالرزاق عبدالله
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن محمود
الطبعة الثانية: اربيل ٢٠٠١
رقم الإيداع في مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون في اربيل: ٣١٥ لسنة ٢٠٠١

مقدمة الطبعة الثانية

طبع الجزء الأول من هذا الكتاب سنة ١٩٧٢، ثم طبع ثانية من قبل السيد (هوشنگ كرد داغي) في بيروت سنة ١٩٩٦. أما هذا الجزء فبعد موافقة رقابة المطبوعات العراقية على نشره، طُبع من قبل مديرية الثقافة الكُردية العامة ببغداد عام ١٩٧٥ بـ(٣٠٠٠) نسخة. لكن الحكومة وضعت يدها على الكتاب في المطبعة ومنعته من الإنتشار وأحالته الى لجنة لدراسته من جديد، فكان تقريرها في صالح الكتاب لكنها لم تقتنع بتقريرها وأحالته ثانية الى لجنة أخرى مؤلفة من ثلاثة مؤلفين كان تقرير إثنين منهم وأحدهم المؤلف الكُردي المرحوم مصطفى نريمان في صالحه أيضاً، وأما الثالث فلا، لكن الحكومة لم تقتنع بتقريرها أيضاً. وقررت إحالته الى لجنة ثالثة مؤلفة من أساتذة من جامعة بغداد، غير أن الأجهزة الأمنية طلبت من الوزارة عدم السماح بنشره مطلقاً وكانت حجتها أنه سيكون للكتاب تأثير كبير بين الأوساط الكُردية وغيرها لأنه (إحياء لكيان سياسي كُردي مندثر). فصدر كتاب رسمي في خريف عام ١٩٧٦ بتوقيع مدير رقابة المطبوعات داود الفرحان، الذي أصبح فيما بعد مدير الأمن العام، يقضي بإرسال الكمية المطبوعة منه الى (معمل صناعة الورق في البصرة) ليستفيد منها في مجال عمله، فقام المعمل بعجنها وتحويلها الى ورق أبيض.

هكذا خاف نظام البعث من تأثير كتاب يثبت أنه كان للشعب الكُردي دولة حقيقية في العهد الإسلامي تجمعت فيها كافة مقومات الدولة، متحلية بالنظم السياسية والإدارية المعروفة في عصرها، أي في القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد. وامتازت الدولة من بين كافة دول وإمارات عهدها بالوقوف الى جانب السلم والصداقة مع الدول والإمارات الأخرى، وإبتعادها عن الفتن والمنازعات والمعارك التي كانت تعصف ببلدان الشرق الأوسط، التي كان يحكمها حكام ظالمون جلبوا الكوارث على شعوبهم بما زرعوه فيهم من قتل وسلب ونهب ونهب وتدمير وخلق الفقر والجوع والخوف الذي تنطق به صفحات التاريخ. كانت السياسة الداخلية لهذه الدولة الكُردية منصبة على توفير الأمن والإستقرار والرخاء والسعادة لشعبها، وإرساء العدل والمساواة بين طوائفها الدينية حتى كان مدير الأوقاف فيها، وهي مؤسسة دينية إسلامية (إبن شليطا) رجلاً مسيحياً شغل المنصب طوال فترة حكم إثنين من أمراء الدولة، ما يشهد على حكمها الديمقراطي، الأمر الذي أدى برمته الى أن تتقدم البلاد إقتصادياً وعمرانياً وإجتماعياً ومن ناحية عدد السكان كذلك. وكل ذلك بشهادة تاريخية من أبي العلاء المعري الذي مرّ ببلادها عن طريق زاخو (الحسنية) - آمد قادماً من بغداد فوصفها بأنها: "يتساوى فيها حامل المال وحامل الرمال، فالمسافر فيها آمن على ماله وروحه لايتعرض له أحد أينما بات ونام". وذكر بأن المسافة من بغداد الى حدودها وكذلك من حدودها الغربية الى حلب مليئة بالمخاوف والرعب ومخاطر اللصوص وقطاع الطرق، وبشهادة كذلك من الطبيب الشهير (إبن بطلان) الذي أشار الى ما حصل في بلادها من التقدم العمراني والإقتصادي وتوسع أعمال البناء وكثرة

الرخاء وتظاهر السكان بالغنى. حتى إن ذلك أثّر على رفع مستوى المعيشة وتقدم الأوضاع الصحية (حيث قلّ عدد الوفيات وأصبح الأطباء وحفاروا القبور بلا عمل). لقد كتب إبن بطلان هذا وهو مقيم بضاحية العاصمة البيزنطية (قسطنطينية)، بعيداً عن البلاد الدوستكية وبعيداً عن التزلف والرياء ونصراً للحقيقة التاريخية ليس إلا. أما شهادات المؤرخ (الفارقي) فكثيرة وسيجدها القاريء وغيرها من الشهادات بين ثنايا كتابنا هذا. لقد كانت هذه الدولة الكُردية في عصرها كدولة (سويسرا) في القرن العشرين. إن الدول المحتلة لكُردستان تبث أنواع الدعايات للتقليل من شأن الشعب الكُردي وحركاته التحررية في الداخل وفي الخارج، ومن ذلك أن الإدعاء بأنه لم تكن للكُرد يوماً دولة في التاريخ وهم غير جديرين لذلك بالحكم وبإقامة دولة قومية لهم. ولما كانت الدولة الدوستكية قد أثبتت جدارة الكُرد للحكم ومشاركتهم في الحضارة، قام نظام الحكم في العراق بمنع نشر هذا الكتاب الذي يفند تلك الإدعاءات، ويحيي ذكرى كيان كُردي مندثر منسي كانت له إسهامات حضارية مهمة. لم تضم الدولة الدوستكية كافة أقاليم كُردستان مثلما لاتوجد الآن دولة عربية تحوي كافة أقطار بلاد العرب. إن الدولة الدوستكية وإن لم تكن من الدول الكبرى كالدولة العباسية والفاطمية والبويهية والسلجوقية، إلا أنها كانت كبيرة بقيمها وسياساتها السلمية والعادلة وحكمها الديمقراطي. لقد خاف النظام العراقي من تأثير هذا الكتاب المؤلَّف بأسلوب علمي، فأعدمه بتلك الطريقة المشينة. بينما كان النظام يكافيء كُرداً آخرين من مؤلفي القصص والكتب الأخرى بالجوائز النقدية والعينية، ذلك أن نتاجاتهم كانت تعتبر قليلة أو قليلة التأثير على المجتمع الكُردي. وكان الأحرى بأولئك الكتاب الكُرد رفض تسلك تلك الجوائز كما فعل (مانديلا) العظيم في أقصى جنوب المعمورة، حينما عرضوا عليه تسلم جائزة (أتاتورك) من الحكومة التركية قائلاً: "إنها، أي الحكومة التركية تضطهد الكُرد".

إن ما آل إليه مصير الكتاب، والذي كلفني أتعاباً كثيرة دون أن يؤثر ذلك على عزيمتي ذبولاً أو خمولاً، بل زادها رفعةً وصلابة كصلابة أبراج ديار بكر. فشددت الرحال في صيف عام ١٩٧٧ الى:

بلاد بها حل الشباب تمائمي   وأول أرض مس جلدي ترابها
مرابعُ يُزري بالعبير رَغامُها   وتهزأ بالظبي النَّفور كَعابُها

ذلك لمشاهدة وتصوير الآثار الحضارية للدولة الدوستكية التي لم تعفُ رسومها بنوائب الدهر. فكانت سفرة مبهجة غنّاء، كسفرة الشاعر (المنازي) كاتب (ديوان الإنشاء) في عهد الملك الدوستكي نصرالدولة – الى (وادي بزاغا). فزرت مدينة آمد (دياربكر)– سقاها مُضاعف الغيث العميم – التي يقال ان سورها المتين هو أول سور من نوعه في العالم بعد سور الصين. ووجدت سورها وأبراجها متحفاً زاخراً بالكتابات والرسوم الرومانية والعديد من الدول الإسلامية، وشاهدت عليها كتابات كوفية مورّقة ورسوماً موثّقة بأسماء الأمراء الدوستكيين. وكانت الأبراج متجندلة شاهقة عتيدة وهي تنتظم حول دورة السور كالعقد العظيم، ومنها ما يزيد إرتفاعها على عشرين متراً، وهي تزهو في عُتو ونُفور، ولكنها حنّت على آلة تصويري حنو المرضعات على الفطيم معتقدة أن تلك الالة الصغيرة

تبعثها بمعنى جديد وتعيد إليها عزها ومجدها التليد وتحيي ذكرى بُناتها وعظامهم رميم.أما العاصمة فارقين، فإن الجهلاء من سكانها هدموا أسوارها ونقضوا أبراجها وإستخدموا أحجارها المهندمة الناصعة في بناء دورهم الحقيرة. ولهذا لم يبق منها سوى رمق من نتوءات وشواهد من الماضي المجيد مما لم يستطيعوا قهره مثل (برج الطبالين) الضخم و(قلعة زه مبيل فروش) الباسقة التي تحكي قصة عفة طريفة مازالت تُنشد بالنظم الكُردي في معظم أنحاء كُردستان. كانت القلعة المذكورة جزءً من (المنظرة) العالية التي شيدها نصرالدولة، الذي حكم أكثر من نصف قرن، ليتنزه فيها مع ندمائه غارقاً في أسباب الترف والنعيم كأنه خالد لاتناله اظفار المنون . أما البرج المخمسة أضلاعه، فقد ظل سالماً لم تنل منه أيدي الجناة وكأنما خافوا من صورة الأسدين المنقوشين عليه وبينهما شمس ساطعة لايغشاها سحاب كأنهما يحرسانه، أو كأنهما مع الشمس المرسومة طلسم يصونه آماداً على آماد. يحمل البرج بكتابتيه ذكرى ملكين كرديين، أحدهما ملك هادئ الطبع مسالم هو نظام الدين بن نصرالدولة، وآخر في منتهى الشجاعة والإقدام وهو الملك الكامل الأيوبي الذي قاوم في فارقين قوات المغول لسنتين، ثم لما أُحضر أمام هولاكو أسيراً أهان هولاكو وحقّره تحقيراً حين قال له الملك الكامل: "أنا خير منك، أنت لا عهد لك ولا ذمة ولادين". فأدخل هولاكو سيفه في بطنه مبقراً، فذهب شهيداً الى جنات النعيم، وأجزل له التاريخ سطوراً من خلود. ثم زرت آثار الجسر الذي شيده نصرالدولة على نهر باطمان وحاولت إكتشاف موقع مدينة (النصرية) التي بناها على ضفة النهر المذكور، كما زرت قلعة (هتاخ) التي أُغتيل فيها ممهد الدولة وسافرت الى قرية كورماس (كورماص) وقرية مروان أبي الأمراء في منطقة (شيروان)، فوجدت آثار الطاحونة (ئاشي مه روانان) التي ذكر الفارقي أن مروان أبا الأمراء كان قائماً عليها. كما قمت بتصوير آثار مدينة ئەرزەن (غرزان). اني أضيف الآن هذه المعلومات الى الكتاب مما يزيد في أهميته توثيقاً مع إضافة معلومات من مصادر لم أطلع عليها سابقاً، فزادت مصادر الكتاب على (٣٠٠) مصدر وتعمقت بصورة أكبر في دراسة أنظمة الدولة والحالة الإقتصادية من زراعة وتجارة وغيرهما وكذلك في آثارها العمرانية.

إستقر رأيي مؤخراً على أن لقب مؤسس الدولة هو (پاد/ PAD) بالباء المفخمة وليس (باد) بالباء الموحدة غير المفخمة. فـ(پاد) بعنى الكبير والحاكم أو الملك. وقد دخل في تركيب لفظ(پادشاه). لقد كتبنا بعض الكلمات (الأسماء) بالإملاء الكُردي تسهيلاً للقراء الكُرد وحددتها بأسمائها الحالية أيضاً.

في سنة ١٩٩٨ ترجم الأخ السيد أبوبكر كارواني معلومات من هذا الجزء ونشرها باللغة الكردية في كتيب مشكوراً.

ختاماً في الساعة (١٢,٤٥) من ظهر اليوم الثاني من أيلول الجاري تسلط عليَّ بكاء لم أستطع رده وذلك عندما يئست من وجود مصادر أخرى متيسرة حالياً للإستفادة منها. عندها علمت بأن البحث قد إنتهى وشعرت كأنما الحياة بالنسبة لكائن عزيز قد توقفت وأن القلم قد جف وأن دوري قد إنتهى، فلم أستطع أن أضع بين يدي القارىء الكريم سوى جزء يسير من تاريخ هذه الدولة ومازال

القسم الأكبر منه مفقوداً أو لم يُدوَن أصلاً. فكان البكاء بكاء يأس وعجز ولعل في المستقبل من يأتي بعدي فيعثر على مخطوطات مازالت منسية كمؤلفات الأخوين يحيى بن جرير والفضل بن جرير من أطباء الدولة الدوستكية، حيث ألف الأول كتابين في التاريخ تناول في أحدهما تاريخ هذه الدولة بالتأكيد. أما الثاني فقد ألّف في التاريخ كتاباً واحداً. وتعد الكتب الثلاثة حالياً في عداد المفقودات، حيث إتصلت بجملة من المكتبات الشهيرة في الشرق والغرب للحصول عليها فلم يكن لها فيها وجود.

أهدي ثواب كتابي هذا بجزءيه الى المؤرخ العربي الجليل أستاذي سعيد الديوه چي الذي وجهني الى التاريخ:

وهو الذي أفادنا الآدابا والبحث والسؤال والجوابا

عبدالرقيب يوسف

١٩٩٩/٩/٦

مقدمة الطبعة الأولى

يعتبر القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) عصر نهضة بالنسبة للشعب الكُردي، حيث ناضل

هذا الشعب من أجل الحصول على حريته وتمكن من تأسيس حكومات كُردية أسوة بإستقلال شعوب أقاليم أخرى في المنطقة مع إعتراف بالزعامة الروحية للخليفة العباسي وتلك الحكومات الكُردية هي: الحكومة الهذبانية والشدادية والبرزيكانية والدوستكية، وكانت الأخيرة التي أسسها الأمير الكُردي أبو شجاع باد بن دوستك في (٣٧٢هـ=٩٨٢م) والتي عاشت الى (٤٧٨هـ=١٠٨٦م)، والتي إجتمعت فيها كافة مقومات الدولة. وكنت أنوي طبعه كله في مجلد كبير ولكن حالت دون ذلك ظروف قاسية فرأى الأول النور وظل هذا القسم الأخير يخاطبه شاكياً بلسان الأديب الكُردي (البيتوشي):

وطالما كنا كغصني بان   لكن نما وزدت في النقصان

وقد لقي الأول إستحسان القراء وإعتبره بعضهم أول دراسة من نوعها في المكتبة الكُردية بالطابع الذي تميز به، ألا هو طابع النقد والتحليل والإستنتاج، أي مناقشتنا لآراء المؤرخين والعثور على أخطاء ومواقع الضعف فيها وقيامنا بتحليلات وإستنتاجات كثيرة في المناسبات العديدة. وكذلك أبدينا رأينا بصدد مسائل متعددة وكان هدفي تنقية تاريخ هذه الدولة من الأخطاء والشوائب التي تسربت اليه وعلقت به وتثبيت الصحيح والتأكيد عليه. فجاء هذا تعبيداً للطريق وتسهيلاً بالنسبة للجزء الثاني، فلا حاجة بنا الى التنبيه على الخلافات الموجودة حول مسألة ما من جديد إلا ما لم نشر أو لم نهتد إليه . وبقي الجزء الثاني دراسة مرنة وشيقة مع كونها دراسة عميقة في قلب المجتمع الكُردي في فترة بعيدة وفي قلب الدولة الدوستكية تحدد طبيعة سياستها الداخلية والخارجية وأبعاد علاقاتها مع الدول والإمارات المجاورة لها ولاسيما الدول الكبرى الثلاث؛ الدولة العباسية والفاطمية والبيزنطية. وما تلك العلاقات إلا تعبير عن علاقات الشعب الكُردي بالشعوب المجاورة، علاقات تميزت بالسلم والصداقة.

يتناول هذا الجزء أنظمة الدولة الدوستكية، من النظام السياسي والإداري والمالي والعملة الدوستكية. ولم نغفل عن التطرق رغم المعلومات القليلة الى الحياة الإجتماعية والبشرية أما الحياة الإقتصادية فقد إهتممنا بها أيضاً سواء الزراعة أو الصناعات أو التجارة. وقد إزدهرت الحركة التجارية في عهد هذه الدولة وإمتازت حالة الشعب بالسعادة والرخاء قياساً للعهود السابقة. ويلمس القاريء من خلال هذا الكتاب اهتمام الدولة بالحالة الثقافية وتقديرها للعلماء وتشجيعهم للهجرة الى بلادها. فإزدهرت الثقافة ونشأ من كُردستان الكثير من العلماء الأفاضل، كما قدم إليها من الخارج أساتذة للإقامة فيها وطلبة لتلقي العلوم في مراكزها الثقافية، فكانت الصلات الثقافية على أشدها

بين كُردستان وبلاد الشام ومصر. وأبرز ما حصل في مجال الفقه هو إنتشار المذهب الشافعي وإستقراره في البلاد على يد الشيخ أبي عبداللّه الكازروني وتلامذته وانتشاره إنتشاراً من مدرسة فارقين. وفي مجال الطب حصل تقدم ملحوظ، حيث شيدت الدولة مستشفى في عاصمتها كان يحتوي على مدرسة للطب، وكان يعمل فيه عدد من الأطباء الماهرين الذين تشهد على فضلهم مؤلفاتهم القيمة في الطب وغيره. وقد ألف هولاء الأطباء في الطب والرياضة البدنية والفلك والتنجيم والتاريخ والحيوان، فألف الطبيب عبيداللّه بن بختيشوع كتاباً في الحيوان للأمير نصرالدولة، كما ألف له أيضاً الطبيب المشهور إبن بطلان كتابه (دعوة الأطباء). ومن آثار الحركة الثقافية أيضاً وجود مكتبات في البلاد تضم كثيراً من الكتب وكذلك تطور الكتابة الكوفية المزخرفة، فالأشرطة والأفاريز الكتابية الدوستكية توجد الآن على سور دياربكر، وهي تعتبر أرقى ما وصلت إليه الكتابة الكوفية ذات الزخارف النباتية في العالم الإسلامي، وقد فازت بإعجاب المستشرقين والباحثين المختصين.

تقدم في العهد الدوستكي أيضاً فن العمارة والزخرفة وغير ذلك من الأمور الهامة التي تبرهن على معالم النهضة التي شاهدها ذلك الجزء من كُردستان في ظل الحكم الدوستكي.

ولاريب أن القاريء سيلاحظ ما يحتوي عليه هذا الجزء من المواضيع الهامة والمعلومات الغزيرة التي كلفتنا سنوات من العمر وبحثاً متواصلاً في مراجعة المصادرالكثيرة في المكتبات المختلفة، وهذا هو شأن الدراسات التاريخية، إذ أنها ليست مواضيع فكرية محضة غير محتاجة الى هذه المراجعة.

إن عمل المورخ ليس كعمل الشاعر المحظوظ الذي يكفيه وهو يؤلف قصيدته قلم وورقة كيفما كانا ثم جولة في الخيال الدافيء، أو جولة بين المآسي والآلام التي عاناها أو سمع بها، فخزينة الخيال أو الذاكرة هي المكتبة التي تغنيه عن شد الرحال وراء المصادر. وفضلاً عن هذا ان المؤرخ يكتب عن عصور لم يعش فيها وأمم لم يعاصرها، وعن سالف زمن بينه وبين حاضره بون بعيد وفرق شاسع في الأنظمة والأوضاع الإجتماعية والإقتصادية والثقافية، مع ملاحظة تباين أو إختلافات في طبائع وأخلاق الشعوب وكل ذلك مما إقتضته حتمية التطور. وإذا كان لايصح للمؤرخ ان ينظر الى تلك العصور والشعوب والطبائع والأوضاع بمنظار عصره في كثير من المجالات، او أن يقيسها على ما يشاهده ويألفه في عصره، او ان يحكم عليها حسب ذوقه وهواه. فعليه أن يدرس العصر الذي يكتب عنه دراسة دقيقة من كافة الجوانب ويُلم بما يتعلق به وكأنه عاش فيه وعاصر شعوبه حتى يكون سديداً في إستنتاجاته وصائباً في أحكامه. ولا يتأتّى له ذلك إلا بمراجعة كثير من المصادر التاريخية وغير التاريخية أيضاً، وجمع المعلومات منها بصورة صحيحة، ثم انه يعكف على دراستها دراسة ناقدة وغربلتها وتحليلها مطبِّقاً منهجه وخطته ومحققاً هدفه ومبتغاه. وان تحليله يجب أن يأتي بإستنتاجات قيمة وأحكام صائبة اضافة الى تنظيم المعلومات في أبواب ومواضيع لم يكن لها ذلك الشكل المستقل في تلك المصادر. وهذه العملية شبيهة بصهر مادة لتحويلها الى مادة أخرى وبشكل آخر.

لعلنا وُفقنا الى هذا في هذه الدراسة في ضوء المنهج التاريخي الحديث الذي ساهم في بنائه كل من

فوكو وسان سيمون، أوگست كنت، وفوستل دي كولانج، وبولين يونگ وفي ضوء منهج المفكر العظيم إبن خلدون في نقد المصادر والكشف عن الأخطاء.

هذا ولما كانت المعلومات قليلة بالنسبة الى بعض المواضيع، إلتجأنا الى الإستدلال بنص واحد من مصدر واحد في مواضع متعددة لعدم العثور على نص مماثل من مصدر آخر إو على معلومات أكثر، مثل ذكر الدينار (الأرمانوسي) البيزنطي الوارد في تاريخ الفارقي. فقد إستدللت به في موضوع العلاقات الدوستكية البيزنطية، و النظام المالى، وفي التجارة وبنيت عليه إستنتاجات. وكذلك عبارة الفارقي بصدد ربح (التاجر ابن بهات)، فقد إستفدت منها في موضوع التجارة، والأوقاف، والقوات المسلحة، والعلاقات الدوستكية البيزنطية، والعدول.

وصادفت في تاريخ الفارقي (مصطلحات) كانت لي بمثابة جُفَر لم أتفطن لمدلولاتها وأهميتها مدة، وكثيراً ما وقعت تحت نظري الى أن إهتديت اليها، فوجدتها عظيمة في معانيها الحضارية منها؛ مصطلح (العدول) و(شيخ سوق الطعام) و(عارض الجيش) الواردة في تاريخ الفارقي بدون إشارة الى مدلولاتها. فإستنتجت من المصطلح الأول موضوع (العدول) ومن الثاني (الحسبة) أي النقابات ومن الثالث (وظيفة العارض) من الأنظمة العسكرية وكذلك مصطلح (رسم الإستعمال) الوارد في سيرة (المؤيد في الدين الشيرازي) ممثل الدولة الفاطمية في حركة البساسيري، وذلك في إستعراضه وإنتقاده موقف الأمير الدوستكي نصرالدولة. وتوصلت بعد أن تمكنت من معرفة مصطلح (رسم الإستعمال) الى أنه كانت تُصنع سنوياً بإسم نصرالدولة الثياب(الرسمية) في مصر في مدينتي (تنيس و دمياط) والتفاصيل في موضوع العلاقات مع الدولة الفاطمية. وبسبب قلة المعلومات جاءت دراستنا هذه على هذا النمط من البحث ومثلنا في هذا كمثل أجدادنا القدامى الذين كانوا ينحتون لهم من الصخور كهوفاً.

يمكن أن يلاحظ مدى التحقيق الذي قمنا به في هذه الدراسة في الحضارة من ذلك العدد الضخم من المصادر التي إعتمدنا عليها والبالغة أكثر من (٣٠٠) مصدر، وقلما يوجد كتاب يعتمد على مثل هذا العدد الكثير، علماً اننا راجعنا أضعافاً مضاعفة ولكن بدون أن نستفيد منها شيئاً.

إن صادف القراء مواضيع ضحلة فليصفحوا الصفح الجميل، وذلك لأنني لم أمر عليها إختصاراً للوقت أو تهرباً من صعوبة البحث، بل لما لم أجد حولها معلومات أكثر. فعلى سبيل المثال ان موضوع العلاقات مع الشعب الأرمني رغم ضحالته من حيث المادة، قد كلفني كثيراً من البحث والوقت. فقد أرسلت مرتين بإستفسارات الى مجلس الإستشراق في أرمينيا بصدد تحديد موقع الإمارات الأرمنية ولاسيما إمارة السناسنة وبصدد علاقاتها مع الدولة الدوستكية. ولكن لم أتلق منه جواباً علماً ان المعلومات بهذا الخصوص قليلة في المصادر الإسلامية. واني اعتقد ان المؤرخين الأرمن القدماء دونوا في مؤلفاتهم معلومات غير قليلة عن العلاقات والروابط المتشابكة بين الشعبين الكُردي والأرمني في القرنين العاشر والحادي عشر، وأخص بالذكر تاريخ العالم للمؤرخ آسوليك وتاريخ أرزرونيا لتوماس الأرزروني وتاريخ ڤاردان المتضمن الفترة (٨٨٩-١٢٦٩م)، وكذلك تاريخ قرياقوس الكنجي (٣٠٥-

١٢٦٥م) ووقائع نامه لميكائيل السرياني المنتهي بسنة (١١٩٥م). وللمصادر الأرمنية القديمة (بل لكل الفترات) أهمية بالنسبة للتاريخ الكُردي.

أما المصادر الكنسية فإنها تحتوي على قسم غير قليل من تاريخ البلاد الكُردية، لأنها تعالج تاريخ الديانة المسيحية والمسيحيين في كُردستان. وهذا بحد ذاته جزء من تاريخ هذا الوطن، الذي أقسمه من حيث الديانة المدونة المعترف بها الى القسم الزرادشتي والقسم الإسلامي و القسم المسيحي. فلا فرق في نظري بين حياة عالم مسلم وعالم مسيحي عاشا في العصر الدوستكي ولا بين مدرسة إسلامية كمدرسة فارقين ومدرسة مسيحية في كُردستان كمدرسة (ديرقرتمين) في طورعبدين ومدرسة (دير زقنين) في دياربكر، وكذلك بين مكتبة جامع دياربكر ومكتبة دير قرتمين، وإنما الفرق بالأهمية فقط.

إن تاريخ هذه الدولة الكُردية يجب أن يكون شاملاً بالنسبة للمسلمين والمسيحيين الذين عاشوا في ظل هذه الدولة. ولهذا وجدتني بحاجة الى المصادر الكنسية، لأن المصادر الإسلامية لم تهتم كثيراً بالجانب المسيحي، فراجعت عدداً من كنائس الطوائف المسيحية ببغداد لهذه الغاية. وبالإضافة الى المكتبات العامة إستفدت من عدد من المصادر الكنسية ولاسيما مؤلفات البطريرك السرياني (أفرام برصوم) وبالأخص "تاريخ طورعبدين". ففي المصادر الكنسية معلومات غير قليلة عن كُردستان ومدنها وقلاعها وحتى عن الكُرد المسلمين أيضاً، وذلك لأن العلماء المسيحيين دونوا تاريخ كنائسهم وأديرتهم وحياتهم الدينية والثقافية، ويمتازون بهذا عن العلماء الكُرد المسلمين. غير أن كثيراً من المصادر الكنسية مازال مخطوطاً أو باللغة السريانية بحيث يصعب الإستفادة منها. وكذلك إستفدنا من مصادر فارسية وتركية أهميتها غنية عن البيان.

وللحصول على معلومات أكثر إتصلنا بعدد من المكتبات والمتاحف في الشرق الأوسط وفي الغرب فحصلنا على صور لنماذج من النقود الدوستكية زودنا بها المتحف البريطاني بلندن وعلى مخطوطات ثمينة.

أخيراً أرجو أن ينال هذا الكتاب رضى القراء وإستحسانهم.

عبدالرقيب يوسف

الأمراء الدوستكيون ومدد حكمهم

١- باد بن دوستك ٣٧٢-٣٨٠هـ = ٩٨٢-٩٩٠م

٢- أبو علي حسن بن مروان ٣٨٠-٣٨٧هـ = ٩٩٠-٩٩٧م

٣- ممهد الدولة سعيد بن مروان ٣٨٧-٤١٠ هـ = ٩٩٧-١٠١١م

٤- نصرالدولة أحمد بن مروان ٤٠١-٤٥٣ هـ = ١٠١١-١٠٦١م

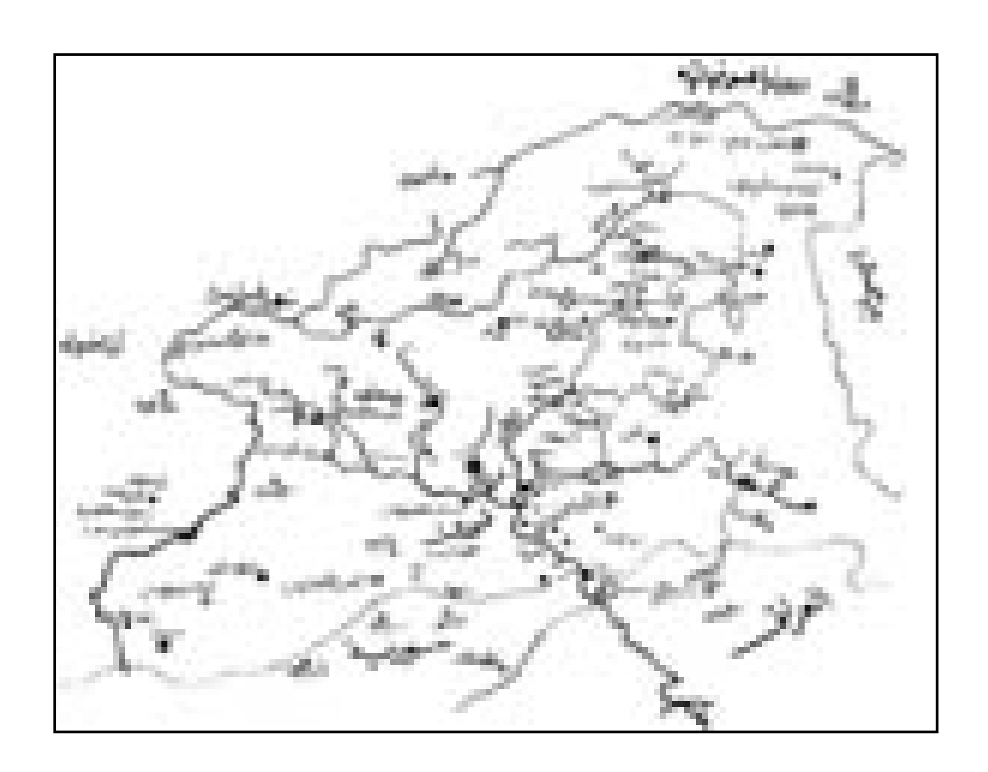
٥- نظام الدين نصر بن نصرالدولة ٤٥٣-٤٧٢ هـ = ١٠٦١-١٠٨٠م

٦- ناصرالدولة منصور بن نظام الدين ٤٧٢-٤٧٨ هـ = ١٠٨٠-١٠٨٦م وكانت الدولة قد أسست سنة (٣٧٢ هـ = ٩٨٢م) وعاشت الى سنة (٤٧٨ هـ = ١٠٨٦م). وأحياها ناصرالدولة سنة ٤٨٥ هـ -١٠٩٣م ودامت خمسة أشهر أو ستة أشهر فقط.

إمتدت حدود الدولة الدوستكية في أوج توسعها من نهر الفرات حتى جنوب الموصل وشمال تكريت، ومن شمال شرق بحيرة وان حتى أورفا (الرها) أي الى الحدود التركية - السورية الحالية أو بالقرب منها. وذكرنا التفاصيل في الجزء الأول موضوع حدود الدولة. ومما تجب الإشارة إليه هنا هو إنني إعتبرت هناك (موش) داخل حدودها وزاخو (الحسنية) خارجها، وظهر لي فيما بعد أن منطقة زاخو كانت ضمن بلادها مع إحتمال إمتداد حدودها حتى منطقة (نيروه) في شرق العمادية. ولما كانت نصيبين من مدنها في فترات، فإن معظم الأراضي الواقعة في قضاء القامشلي السوري أو قسم غير قليل منه كان تابعاً لنصيبين. كما إن قضاء ديرك (المالكية) السوري كانت معظم أراضيه تابعة لمدينة الجزيرة الدوستيكة. أي إن قسماً من محافظة الجزيرة السورية كان داخلاً ضمن البلاد الدوستيكة كخط متصل دون فاصلة. أما منطقة (هكاري) فمن المحتمل أن قسماً منها كانت ضمن بلادها، وخاصة القسم الجنوبي والغربي، بينما كان قسمها الآخر تابعاً للدولة الهذبانية الكُردية في آذربيجان. أما (موش) فمن المحتمل جداً أنها كانت ضمن إمارة السناسنة الأرمنية. ولما كانت الحدود الدولية آنذاك غير دقيقة كدقتها الآن، فلا يمكن لنا تأشير الحدود الدوستكية ضمن خط محدد على خارطة الدولة الدوستكية هنا. وقد وضعنا على الخارطة أسماء مدن خارجة عن سيطرتها توضيحاً لعموم المنطقة.

أما تعبير (كُردستان الوسطى) الذي إستخدمته في عنوان الكتاب، فإنه بالنسبة لجغرافية كُردستان الحالية، التي إتسعت فيما وراء البلاد الدوستكية شمالاً وغرباً الى مسافات شاسعة جداً حتى منابع الفرات والى القرب من سيواس وولاية الإسكندرونه، فكُردستان الوسطى ماعدا ذلك الجزء من بهدينان تُسمى الآن من قبل الكُرد مع المناطق المشار إليها بـ(كُردستان الشمالية) التي هي تحت السيطرة التركية.

خريطة الدولة الدوستكية
مقياس الرسم: ١ : ١٥٠٠٠٠٠



الفصل الأول

العلاقات الخارجية للدولة الدوستكية

أسس وطبيعة سياستها الخارجية

قبل أن نخوض في تفاصيل علاقات الدولة الدوستكية مع العديد من الدول والإمارات المعاصرة لها كل على حدة وبشكل مسهب بقدر ما توصل اليه البحث والتدقيق، نبدأ بتحليل سياستها الخارجية كي يلمس القاريء أسس وطبيعة سياسة هذه الدولة الكُردية في المجال الخارجي. وهي أسس تمثل تجسيداً حياً لطبيعة علاقات الشعب الكُردي في فترة مهمة من القرون الوسطى بالشعوب المجاورة له.

ان السياسة الخارجية للدولة الدوستكية في عهد مؤسسها الملك (باد بن دوستك) كانت تتمثل فيمايلي:

١- تمتين علاقات الصداقة مع الإمبراطورية البيزنطية.

٢- تقوية العلاقات مع الشعب الأرمني.

٣- تقوية العلاقات مع الشعب العربي في شمال سورية.

٤- تمتين العلاقات مع الشعب الكُردي في كُردستان الشرقية وأقصد بذلك(الدولة الهذبانية).

٥- توسيع مساحة الدولة في كُردستان الجنوبية والموصل والعراق، اي في البلاد التي كانت تحت سيطرة الدولة البويهية(الديلمية) إلا في فترة صلح (نصيبين). وكان الملك باد يعمل لتحقيق هذا الجانب من سياسته الخارجية الى أن ضحى بنفسه في سبيل ذلك بزحفه على الموصل. وبإنتهاء عهده إنتهى الدور الأول من الأدوار التاريخية للدولة، ألا وهو(دور الإنتزاع). وفي عهد (أبي علي حسن بن مروان) حدث تحول في سياستها بصورة عامة حيث أصبحت تتمثل في:

١- الإكتفاء بمساحة الدولة والحفاظ عليها.

٢- الإبتعاد عن المشاكل الخارجية والإصطدام المسلح مع أي من جاراتها. أي إنتهاج سياسة سلمية مع كافة دول وإمارات المنطقة وبضمنها الدولة البويهية.

٣- الإنصراف التام الى الشؤون الداخلية، توفير أسباب حياة الرفاه والأمن والإستقرار لأبناء الشعب.

وقد سار الملوك الذين أتوا من بعد ابي علي حسن على السياسة التي رسمها للدولة، والتي بفضلها تمتعت دولتهم بإستقرار لم تحظ بمثله أية دولة أخرى في ذلك العصر. وتمتع شعبها بحياة هادئة لم ينعم بمثلها شعب آخر من شعوب المنطقة، والبرهان على ذلك قلة مشاكلها الخارجية والداخلية أيضاً. أي ان المشاكل التي حدثت لها كانت قليلة جداً، إذا ما قورنت بمشاكل غيرها من دول وإمارات المنطقة. فمثلاً لم نجد للدولة الدوستكية مشكلة تؤدي الى صدام مسلح مع جاراتها منذ إنتهاء القتال

مع القوات البيزنطية سنة (٣٨٢هـ = ٩٩٢م) الى سنة (٤١٧ هـ = ١٠٢٦م)، حيث حدثت مصادمة مع النميريين في الرها في أول سنة ٤١٨ هـ . أي لم يحدث للدولة إصطدام مسلح واحد خلال سبع وثلاثين سنة كاملة سوى قتال مع أمير عقيلي سنة (٤٠٤هـ). ثم أقبلت (فترة المشاكل) من المصادمة مع النميريين وبدران العقيلي الى سنة (٤٢٧هـ = ١٠٣٦م) أي الى نهاية الإشتباكات مع القوات البيزنطية اثناء النزاع على أورفا (الرها). ففي هذه الفترة توترت علاقات الدولة الدوستكية مع جاراتها: مع الدولة البيزنطية والأرمن والنميريين والعقيليين وحدثت مصادمات مسلحة معها كانت معظمها دفاعية، ومن هذا التاريخ الى سنة (٤٧٦هـ = ١٠٨٤م) أو السنة التي تلتها أي بداية الزحف السلجوقي لإحتلال الدولة- لم تحدث أية معارك خلال (٤٩) سنة بينها وبين جاراتها سوى مصادمة مسلحة واحدة مع قوات الأمير العقيلي (قريش بن بدران) الزاحفة على الأراضي الدوستكية في مقاطعة بوتان سنة (٤٤٧هـ = ١٠٥٥م)، إثر مقتل واليها الأمير أبي الحرب سليمان بن نصرالدولة.

وهكذا نرى إن المشاكل الخارجية التي حدثت للدولة الكُردية، والتي رافقها القتال كانت قليلة جداً بفضل سياستها الخارجية السلمية الناجحة، علماً أنه حدثت مشكلتان أخريان بيد أنهما لم تكونا من هذا الباب. وهما عبارتان عن إغارة (الغز) السلاجقة المهزومين أمام طغرل وأخيه إبراهيم ينال، وحادثة سلار خراسان. فالأولى ليست بشكل مشكلة بين دولة ودولة، واما الثانية فإعتداء من قبل دولة قوية بحيث لايمكن الطعن بالسياسة الدوستكية بسببها.

أما المشاكل الداخلية التي أُريقت فيها الدماء، فهي عبارة عن مشكلتين هما؛ مؤامرة شيروه بن مم وتمرد كُرد بوتان سنة (٤٤٧هـ = ١٠٥٥م). أو ربما هي ثلاث مشاكل، إذا ما أضفنا إليها إغتيال عبدالبر للأمير أبي علي سنة (٣٨٧هـ = ٩٩٧م). أما خلاف الأمير سعيد مع أخيه نظام الدين فقد ذكر بعض المؤرخين انه أدى الى قتل بعض الناس خارج مدينة فارقين ولكن لم يؤد الى قتال فعلي بين الأخوين. وكان الخلاف الوحيد داخل الأسرة الدوستكية كثيرة الرجال، وهذه ميزة شاذة تقريباً بالنسبة للأسر الحاكمة في ذلك العصر. فوحدة رجال الأسرة الدوستكية وسياسة دولتهم السلمية والعادلة أدتا الى بقاء الدولة مدة (١٠٦) أعوام لم تعش مثلها دول أكبر وأقوى منها. وقد مرت تفاصيل ذلك في الجزء الأول.

هكذا قللت سياسة الدولة الحكيمة من المشاكل الخارجية والداخلية ومنحتها إستقراراً لم تشهده دولة أخرى. ولكن قلة المشاكل الخارجية والداخلية لهذه الدولة أصبحت سبباً لقلة المعلومات التاريخية المدونة حولها إذا ما إستثنينا ما دونه الفارقي، وذلك لأن المؤرخين كانوا يصبون إهتمامهم على تسجيل أنباء القتال والمعارك وعلى حوادث السلب والنهب، ويتركون (نسبياً) البلد الهادىء في هدوئه. فكان نصيبه من التاريخ الأقل. أما الجوانب الإقتصادية والعمرانية... وأهمية الهدوء فلم يعيروا لها الإهتمام اللائق.

هذا وإذا أجَلنا الطرف تارة أخرى في السياسة الدوستكية الخارجية، نرى إنها تمتاز بالإستقرار

والإستقامة، حيث إن الدولة حددت طبيعة علاقاتها مع الدول والإمارات المعاصرة وحددت سياساتها من النزاعات الدولية وخاصة من الدولتين العباسية والفاطمية، المتنازعتين على الخلافة الإسلامية. كما حددتها من النزاع البويهي- السلجوقي والنزاع السلجوقي- البيزنطي.

ولا نغالى إذا ما عبّرنا عن سياستها بـ(سياسة الحياد)، إذا ما أردنا تقريبها من المفاهيم أو التعابير الحديثة لزيادة الإيضاح. فبالرغم من أن الدولة الدوستكية كانت مرتبطة من الناحية المذهبية والرسمية بالخلافة العباسية، إلا أنها من الناحية العملية كانت محايدة بين المعسكرين العباسي والفاطمي وإزاء نزاعهما، الذي تأثر به الأمراء وأصحاب الأطراف في بلاد الشام والجزيرة والعراق وإشتركوا فيه عملياً، لاسيما في فترة إشتداده وتأزمه من سنة (٤٤٨هـ - ٤٥١هـ). فمنهم من إنضم الى هذا الجانب مرة، والى ذلك الجانب مرة أخرى، بينما إلتزمت الدولة الدوستكية جانب الحياد، بالرغم من ضغط المعسكر الفاطمي عليها وتهديد القوات الموالية للفاطميين والمتجمعة في منطقة الجزيرة، إستعداداً للزحف على بغداد، للأمير نصرالدولة. إلا أن هذا الأخير لم يشترك في الزحف على بغداد سنة (٤٥٠هـ = ١٠٥٨م) ولا دافع عنها، كما لم يقطع الخطبة للسطان السلجوقي بالرغم من الإلحاح الفاطمي وتحذيره من البقاء محايداً. كما لم يعاد هذا الأمير الجانب الفاطمي أيضاً، بل دخل وهو دبلوماسي بارع في مخابرات طويلة مع ممثل هذا الجانب (المؤيد في الدين هبة اللّه الشيرازي) ومع الخليفة الفاطمي نفسه، وأرسل مندوبه (الشيخ أبا الحسن بن بشر) الى مصر، وكل ذلك إنتظاراً لجلاء الموقف، كما يصارحه الشيرازي في رسائله إليه. وبفضل هذه السياسة او الموقف إستطاع نصرالدولة أن يحافظ على سلامة بلاده من الكوارث التي حلت جراء ذلك النزاع بالقسم الأكبر من بلاد الجزيرة والعراق، كما سيأتي بالتفصيل في موضوع العلاقات الدوستكية - الفاطمية.

لما كانت السياسة الدوستكية مستقرة وثابتة، فإنها لم تتسم بالتذبذب وراء الأطماع والمكاسب الآنية كسياسة الكثير من الأمراء في المنطقة، والتي إتسمت بالتذبذب وعدم الإستقامة. فقد كان (قريش بن بدران) أمير دولة بني عقيل قد أقام الخطبة في بلاده للسلطان السلجوقي طغرل وقدم له ولاءه سنة (٤٤٨هـ) أو السنة التي سبقتها، ولكنه إنضم الى الجانب الفاطمي في السنة المذكورة بعد معركة سنجار مباشرة، إلا أنه عاد وتراجع مرة أخرى مع (إبن مزيد) أمير الإمارة الأسدية في الحلة في السنة التي تلتها، ولكن قريشاً عاد فإنضم الى الجانب الفاطمي في سنة (٤٥٠هـ) وساعد أبا الحارث البساسيري على إحتلال بغداد وإقامة الدعوة الفاطمية فيها. غير أنه قدّم ولائه في السنة التالية لطغرل إثر وصوله الى العراق وقضائه على البساسيري[1].

كل هذا التذبذب حدث في تلك الفترة القصيرة ولم يجنِ (قريش) من سياسته غير الثابتة هذه غير النكبات لبلاده وشعبه، حتى إن عاصمته الموصل قد إحتُلت مرتين في تلك المدة من قبل السلاجقة.

(١) راجع إبن الأثير، الكامل ج٨ ص٧٧، ٧٨، ٨٠ -٨٣. وخاشع المعاضيدي، دولة بني عقيل في الموصل، ص١٠١- ١٠٥. ذكر المؤيد في سيرته: ان قريشاً لم يفارق البساسيري وانما أرسل ابنه الى طغرل سنة ٤٤٩هـ نتيجة مفاوضات فأعطاه طغرل بعضاً من بلاد أبيه.

إن سياسة الحياد لاتعني إن الدولة الدوستكية عاشت في عزلة سياسية وإقتصادية عن بلدان النزاع، بل بعكس ما يمكن أن يُتصور. فالحياد أبعد عنها العزلة وساهم في تنشيط علاقاتها مع دول وإمارات المنطقة وجعلها متينة مستقرة، إلا في أثناء مشاكلها الخارجيبة التي أشرنا إليها والتي كانت قليلة وقصيرة الأمد بالنسبة لعمر الدولة البالغ أكثر من قرن من الزمن.

وقد عرفت هذه الدولة الكُردية بسياستها السلمية وكان نصرالدولة مثالاً للملك السلمي والرجل المحب للسلام. فقد كان يبغض القلاقل والمشاكل وإراقة الدماء ويتجنب الحرب بالوسائل السلمية، ويعمل على حل المشاكل والحيلولة دون نشوب القتال بينه وبين طلاب الحرب عن طريق التفاوض والتفاهم وأحياناً عن طريق إقناع عدوه بالمال، مع قدرته على المجابهة وصد العدوان. (وكان إذا قصده عدو يقول: كم يلزمني من النفقة على قتال هذا، فإن قالوا خمسون ألفاً بعث بهذا المقدار ومايقع عليه الإتفاق وقال: إدفعوا هذا الى العدو وأكفه بذلك وآمن على عسكره من المخاطرة)(٢).

وبهذه الطريقة السلمية التي ذكرها وخلدها التاريخ نجح نصرالدولة أحياناً في إبعاد شبح القتال عن بلاده أو الحد منه وحل خلافاته مع أعدائه، وقد مر التفصيل في موضوع (سياسة نصرالدولة السلمية في الجزء الأول). أما الأمير نظام الدين الذي حكم تسع عشرة سنة بدون ان تتوتر علاقاته مع احدى الدول أو الإمارات المجاورة، فقد أراد أن يسير على سياسة والده المذكورة في صرف العدو عن طريق المال دون إراقة الدماء. فعندما حاصر (سلار خراسان) مدينة فارقين، وكان قد أرسل مع قوات عسكرية من قبل السلطان السلجوقي سنة (٤٥٨هـ = ١٠٦٦م) للتحرش بالدولة الدوستكية، تفاوض معه نظام الدين على إعطائه (٣٠٠) ألف دينار مقابل رجوعه عن بلاده، غير أن وزيره الأنباري أشار عليه بإلقاء القبض على سلار وقتله بحيلة مر ذكرها، وبيّن له خطأ هذه السياسة فقال له: "يجيء غداً آخر مثله ويفتح عليك باباً لاتقدر أن تسده أبداً"(٣)، فقبض عليه نظام الدين وقتله مع من دخلوا معه المدينة، ثم شتت جيشه. فأصبحت حادثة سلار الأولى والأخيرة ولم يتكرر مثلها.

إن سياسة الحياد والسلمية التي إنتهجتها الدولة الكُردية اثّرت تأثيراً إيجابياً على تقدم البلاد في المجال الإجتماعي والإقتصادي والثقافي، لأن مثل هذا التقدم مرهون كما لايخفى بالسلام وإستقرار الأوضاع وتأمين طرق المواصلات، إذ أن تلك السياسة قد جنبت كُردستان الوسطى من مثل تلك الغزوات والغارات التي كانت تُشن عليها من هنا وهناك في العهود السابقة وتترك فيها الخراب والدمار.

وإذا أردنا أو نوضح السياسة الدوستكية الكُردية بصورة أجلى، فلنقارن بين وضع البلاد في العهد الدوستكي ووضعها في العهد الحمداني، الذي إنتهى قبله بأقل من خمس سنوات. ولنضرب بسياسة الحمدانيين الداخلية جانباً، لأن الحديث عن مساوئها وفسادها مسألة طويلة أوفت بها المصادر القديمة،

(٢) إبن الجوزي، المنتظم ج٨ ص٣٢٢. إبن الأثير. البداية والنهاية. ج١٢ ص٨٧. الخزرجي. العسجد المسبوك ورقة ٢٨ مخطوط.

(٣) الفارقي ص١٨٣.

وبالأخص (صورة الأرض) لإبن حوقل. كانت قد دخلت كُردستان الوسطى وقسم من كُردستان الجنوبية (كُردستان العراق) تحت حكم الحمدانيين مدة حوالى خمسين سنة او أكثر، وقد تعرض الحمدانيون الى إنتقادات شديدة من قبل بعض المؤرخين، كالدكتور حسين مؤنس أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة القاهرة الذي قال: "لا ينبغي ان نتصور آل حمدان مثلاً أنشأوا دولتهم إنتصافاً للعرب من غير العرب... بل هم من حيث الإدارة أسوأ الدول التي عرفها الإسلام على الإطلاق. فقد كان ظلمهم وعسفهم ونهبهم أموال الناس مضرب المثل"(٤). أما آدم متز فقد وصفهم باللصوص الرسميين (٥). لهذا لايُستغرب أن يضيف حسين بن حمدان الى جرائمه إحراق بلدة (تل فافان) الكُردية سنة (٣٠٣هـ = ٩١٥م) وهو ينهزم أمام القوات العباسية(٦).

لقد بالغ الحمدانيون في إغتصاب الأملاك من السكان وفرض الضرائب الثقيلة عليهم وأخذ الأتاوات منهم وأدى ظلمهم هذا الى تأخر بعض المدن وتقلص عمرانها كمدينة رأس العين التي قال بصددها معاصرهم إبن حوقل: "وكان في داخل السور لهم (أي لسكانها) المزارع والطواحين والبساتين وماكان يقوتهم لولا ما مُنوا به من الجور الغالب والبلاء الفادح ممن لا رحم اللّه منهم شعرة"(٧).

وقال أيضاً بصدد مدينة الرقة والرافقة: "إنه ساء وضعهما وتأخر بسبب ضرائب سيف الدولة المختلفة ومصادرة أهلها مرة بعد أخرى".

أما المصائب التي لاقتها مدينة نصيبين ومنطقتها على أيدي الحمدانيين فقد كانت قاسية جداً بحيث أدى ظلمهم الشديد الى تشريد كثير من السكان، وأخص بالذكر بني حبيب الذين هاجروا الى البلاد البيزنطية وإعتنقوا الديانة المسيحية في نحو عشرة آلاف فارس ولحق بهم اخرون. ثم إنهم كانوا يشنون الغارات سنوياً على كُردستان الوسطى حتى وصلوا أحياناً الى نصيبين، وكانوا يتلفون المزارع ويقطعون الأشجار المثمرة ويخربون القرى"(٨).

أما الغارات البيزنطية فكانت تتوالى على كُردستان الوسطى وشمال سورية، بسبب سوء سياسة الحمدانيين الخارجية وتأجيج نار العداء مع الدولة البيزنطية وحبهم للسلب والنهب. فإذا كان الأمير الحمداني يواصل غاراته المتتالية على الحدود البيزنطية محرقاً المدن والقرى وسابياً النساء والأطفال،

(٤) تاريخ التمدن الإسلامي، ج٢ ص٢١٦، تعليق الدكتور حسين مؤنس.

(٥) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج١ ص٢٣ و ج٢ ص١٩٦.

(٦) إبن الأثير . الكامل. ج٨، ص٣٠، تل فافان هي الآن قرية تسمى (تلانيف روان) وهي تقع عند إلتقاء نهر بوتان بنهر دجلة ولها تاريخ قديم يرجع الى العهد الآشوري، حيث ورد إسمها في وثائقهم (تله) على ما جاء في (دائرة المعارف الإسلامية في مادة دجلة). ووصفها المقدسي في أوائل العهد الدوستكي أو قبيله بكونها بلدة ذات أسواق مغطاة بالبضائع والأسعار بها رخيصة وحولها البساتين. راجع (أحسن التقاسيم ص١٣٩). أما في الوقت الحاضر فلا تزال آثار قلعتها شاخصة على الضفة اليمنى لنهر بوتان (الرزم) وتقابلها من الضفة اليسرى في بوتان قرية (سيفيه).

(٧) إبن حوقل. صورة الأرض. ص٢٠٠.

(٨) إبن حوقل. صورة الأرض ص٢٠٣، ٢٩١-٢٩٢.

فلاشك أن البيزنطيين يكيلون لهم الصاع صاعين لأنهم أقدر على مثلها.

وهكذا أغرقت البلاد في بحر من الكوارث والمآسي، بحيث أن الغارات الإنتقامية البيزنطية كانت تتوالى على البلاد الكُردية الخاضعة للحمدانيين وأعني بها كُردستان الوسطى(٩).

نعم لقد زحف الجيش البيزنطي مرات عديدة أخرى على كُردستان، كزحفه عليها سنة (٣٥٥هـ)، حيث "خرج الروم الى آمد وقتلوا وأسروا عدداً كثيراً وإنصرفوا الى دارا وقربوا نصيبين وهرب أهلها"(١٠).

ولنسمع الخطيب المشهور(إبن نباته) الفارقي (نسبة الى فارقين)، الذي عاصر تلك الأحداث المرة، وهو يصف لنا بكلمات وجيزة مأساة البلاد وما عم سكانها من الجوع والخوف والحيرة. حيث قال في مقدمة خطبته التي ألفها ليلقيها يوم الجمعة وهو يحرض الناس على الجهاد: إن جيوش سيف الدولة توجهت سنة (٣٥٢هـ) الى إقليم دياربكر و"ذلك على فاقة شديدة من أهل دياربكر الى الغوث وإشفاق وخوف من العدو... "(١١).

وهكذا كان ذلك الجزء من البلاد الكُردية وكذلك شمال سورية، يعيش بين ناري ظلم الحمدانيين وجورهم وبين الغارات البيزنطية المدمرة. ولاشك أن ذلك الوضع السيء راجع الى سياسة فاشلة لم تخدم مصلحة البلاد. ألم يكن بإمكان الحمدانيين التفاهم مع البيزنطيين لوضع حد للمعارك، كما تفاهم بعدهم الكُرد الدوستكيون. وكان ذلك ممكناً ولكنهم لم يفعلوا ولم يريدوا السلم والسلامة

(٩) لسنا هنا بصدد ذكر أو تعداد كل الغارات الحمدانية والبيزنطية المتقابلة، ولكن ندرج هنا نماذج منها مع ذكر بعض نتائجها التدميرية: ففي سنة (٣٣١هـ = ٩٤٢م) زحفت القوت البيزنطية على إقليم دياربكر وتوغلت فيه وإستولت على مدينة أرزن (غرزان) وبلغت الى قرب نصيبين أو حتى جنوب ماردين. وفي نفس السنة هاجمت الإقليم مرة أخرى وإحتلت مدينة دارا في جنوب شرق ماردين كما إحتلت بلدة رأس العين وسبت منها زهاء ألف نسمة. وكان سيف الدول الحمداني قد أغار سنة (٣٢٨هـ = ٩٣٩م) على الحدود البيزنطية من السواحل الشمالية لبحيرة وان وخرّب مدينة (موش). وفي سنة (٣٣٨هـ = ٩٤٩م) أغار البيزنطيون (الروم) على المناطق الواقعة في شمال البحيرة وإستعادوا قاليقلا (أرضروم). وكان سيف الدولة قد هاجم في نفس السنة على (حصن برزويه) في شمال إقليم دياربكر وكان محتفظها أبو تغلب الكُردي، كما أغار في السنة التالية على الأراضي البيزنطية وهاجم البيزنطيون إقليم دياربكر وعطف سيف الدولة الى دياربكر و"حارب الروم وخرّب الضياع وإنصرف". وفي سنة (٣٤٥هـ = ٩٥٦م) "سار سيف الدولة في جيوش الى بلاد الروم وغزاها وسبى وأحرق وخرب وأكثرَ القتل فيهم.... فلما سمع الروم بما فعل أجمعوا وساروا الى ميافارقين وأحرقوا سوادها ونهبوا وخربوا وسبوا أهلها ونهبوا أموالهم" كما في الكامل لإبن الأثير حوادث السنة المذكورة. راجع الذهبي. تاريخ الإسلام، ج١، ص١٦٣. وسامي الكيالي، سيف الدولة وعصر الحمدانيين، ص٢٠٧-٢٠٩. والشيخ محمد الخضري، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، ص٣٩١ وقبلها وبعدها. وتاريخ الرهاي المجهول، ص٢٠-٢١ مطبوع بالآلة الطابعة بمجمع اللغة السريانية ببغداد، ترجمه الى العربية الأب ألبير أبونا الزاخويي.

(١٠) ماريوس كانا. نخب تاريخية وأدبية جامعة لأخبار سيف الدولة. ص١٩٦.

(١١) نفس المصدر .ص١٦٧.

للبلاد ، حتى إن سيف الدولة رفض طلب الجانب البيزنطي الى عقد هدنة بين الطرفين. ففي سنة (٣٣٩هـ) "أرسل الدمستق الى سيف الدولة يطلب الهدنة فلم يجبه سيف الدولة وبعث يهدده ثم جهز جيشاً فدخلوا بلد الروم من ناحية حران ففتحوا وأسروا خلقاً..."(١٢).

أما في العهد الدوستكي، فقد ساد السلام ولم يقع إعتداء بيزنطي على حدود كُردستان، سوى حوالى مرتين أو ثلاث. لقد قدّر الإمبراطور(بسليوس) سياسة ممهد الدولة ومحافظته على الإستقرار وحماية الحدود ، وإجتمع به سنة (١٠٠٠م) وإعتبره معلماً أي رجلاً حكيماً وجلعه ماجسترس ودوق المشرق، كما سيأتي في موضوع العلاقات بين الدولتين. وهذا كله يدل على مدى جدارة الأسرة الدوستكية للحكم وتقديرها لقيمة الإنسان. ويدل كذلك على مسالمة شعب كُردستان الوسطى وحبه للسلام وجدارة الحكم الكُردي.

لقد شغلت الدولة الدوستكية حيزاً على الصعيد العالمي ولعبت دورها في المجال السياسي والإقتصادي والثقافي وحصلت على مكانة دولية لائقة، ومما يشير الى ذلك الوساطة التي قام بها الملك الكُردي نصرالدولة بين الدولتين البيزنطية والسلجوقية سنة (٤٤١هـ = ١٠٤٩م) بطلب من الإمبراطور البيزنطي قسطنطين التاسع، فأطلق طغرل بهذه الوساطة سراح (قاريط) ملك (الأبخاز) ، الذي أسره إبراهيم ينال أخو طغرل في زحفه على شعوب القفقاس(١٣).

وقد سُر بذلك الإمبراطور البيزنطي وأهدي الى طغرل هدايا كبيرة جداً، كما أهدي الى نصرالدولة عشرة أمنان من المسك(١٤).

لقد إعتبر المؤرخون هذه الحادثة نصراً كبيراً لطغرل، الذي كبر شأنه حتى أقيمت له الخطبة في العاصمة البيزنطية، إلا أنها من جهة أخرى تعد نصراً لسياسة الملك الدوستكي المحنكة ودلالة على مكانة الدولة الكُردية. فعلى إثر وفاة قريش بن بدران سنة (٤٥٣هـ = ١٠٦١م) ظهر خلاف على السلطة في الدولة العقيلية، فعرض نصرالدولة وساطته لحسم الخلاف. فأرسل وزيره إبن جهير الى نصيبين (نسيبين) وحل الخلاف، وأجمع كلمة امراء بني عقيل لمسلم بن قريش، مما أدى الى تسنمه

(١٢) الذهبي. دول الإسلام، ج١، ص١٦٣. كانت الغارات البيزنطية رداً على غارات سيف الدولة الحمداني الكثيرة التي شنها في أعوام: ٣٢٧، ٣٣١، ٣٣٨، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥٢ وغيرها.

(١٣) الأبخاز في دائرة المعارف الإسلامية ج١، ص٢٠، أن الأبخاز قبيلة من قبائل القوقاز الغربية على شاطيء البحر الأسود. وتشمل بلاد أبخازيا المنطقة الممتدة من سلسلة جبال القوقاز الأصلية الى شاطيء البحر بين جاجري في الشمال ومصب الأنگور في الجنوب. كان الأبخازيون يعرفون قديماً بإسم "أبسكوي". وقد أخضع جوستانيان الأبخازيين، فإعتنقوا المسيحية وإستطاعوا أن ينالوا إستقلالهم بمساعدة الخزر عام ٨٠٠م. وشهدت مملكة الأبخاز أزهى عصورها بين عامي (٨٥٠-٩٥٠م) وتوسعت وتدخلت في شؤون أرمينيا، ومنذ ذلك العهد أصبحت لغة جورجيا لغة الأدب ولغة الطبقات المثقفة في أبخازيا. وبعد زوال أسرتهم المالكة في أواخر القرن العاشر، إنتقل الملك الى عائلة البجراتونيين ملوك الأبخاز.... وُقدر عدد الأبخازيين عام ١٨٨١م بما يقرب من ٢٠ ألف نسمة.

(١٤) إبن الأثير، الكامل، ج١٠. ص٢٨، طبعة بيروت.

الحكم(١٥).

بعد هذا العرض السريع لأسس وطبيعة السياسة الخارجية للدولة الدوستكية، نبدأ في إستعراض علاقاتها مع الدول والحكومات المعاصرة لها.

العلاقات مع الدولة العباسية والبويهية

لما كانت الدولة البويهية مسيطرة على العراق مركز الخلافة العباسية ولم تترك للخليفة العباسي سوى سلطة إسمية فقط، فلا يمكن إذن فصلها في مثل هذه المناسبات والمواضيع عن الدولة العباسية. إن علاقات الدولة الدوستكية في دور الإنتزاع والنشوء مع الدولة العباسية والبويهية كانت علاقات عدائية، ماعدا فترة صلح (نصيبين). لأن معظم كُردستان الوسطى التي نشأت فيها الدولة كان تحت السيطرة البويهية منذ أن قضى الملك البويهي عضد الدولة على نفوذ (أبي تغلب الحمداني) سنة (٣٦٨هـ = ٩٧٨م). وفي هذه السنة وبينما كان هذا الملك في(الموصل) قدم إليه الأمير باد بن دوستك بعدد تردد وبواسطة القائد الديلمي البارز(زياد بن شهراكويه) ليقدم إليه ولاءه كسائر الأمراء، غير إن عضد الدولة أراد القبض عليه حينما لاحظ فيه علامات الرجولة والشجاعة والطموح، وقال في حق باد:"... له بأس شديد وفيه شر لايجوز الإبقاء عليه".

لكن الأمير باد قد لاحظ بذكائه وفراسته (حسب تعبير الروذراوري) أن عضد الدولة يكنُّ له نوايا سيئة إما بإعتقاله أو بقتله، فخرج بمن معه من رجاله من الموصل سراً ولم يظفر به عضد الدولة حينما طلبه(١٦).

وهكذا زالت الثقة نهائياً بين الطرفين. وبعد أن رجع الأمير باد، أخذ يستعد لتحرير كُردستان الوسطى من السيطرة البويهية. فزحف سنة (٣٧٢هـ = ٩٨٢م) على إقليم دياربكر وإحتله بسرعة كما إحتل نصيبين والجزيرة، وشرع في التوسع نحو الموصل والعراق. ولما تولى الحكم الملك صمصام الدولة بعد وفاة والده عضد الدولة في هذه السنة وشعر بخطورة توسع هذا الملك الكُردي الناشيء، أرسل إليه وفداً برئاسة (زياد بن شهراكويه) صديق باد، للتفاوض معه على أساس أن يقدم الأمير باد الطاعة لصمصام الدولة وتكون البلاد التي فتحها إقطاعاً له من الأخير. غير إنه رفض شروط الملك البويهي طمعاً في التوسع. فأرسل الملك الجديد جيشاً لصده فهزمه الجيش الكُردي في نصيبين، كما هزم جيشاً آخر أقوى منه عند قرية باجلى (باجلا) الحالية الواقعة على نهر الخابور (زاخو) في شرق زاخو،

(١٥) إبن الأثير، الكامل، ج١٠. ص٩١، طبعة القاهرة- مطبعة الإستقامة.

(١٦) الروذراوي، ذيل تجارب الأمم، ص٨٤. إبن الأثير، الكامل. إبن خلدون، العبر، ج٤، ص٣١٦. محمد أمين زكي، الدول والإمارات الكُردية. ص٩٦.



وادي باجلـي

وكانت آنذاك مدينة كما كانت مركز المنطقة قبل ذلك بدلاً من الحسنية (زاخو) وتقع على الضفة الجنوبية لنهر خابور وهذه صورة موقع المعركة على ما صورناه. وسيطر الأمير پاد على منطقة بهدينان المنطقة الجبلية الكُردية الواقعة شمال الموصل، كما إحتل مدينة الموصل سنة (٣٧٣هـ = ٩٨٣م) بترحيب من سكانها وإستوزر (أبا المطرف)، وكان عاملاً على الموصل من قبل البويهيين. وهكذا وصل نفوذ الدولة الدوستكية الى حدود تكريت من العراق، والتي تجمعت فيها القوات البويهية المنهزمة وظلت الموصل في يده مدة سنة. وبينما كان الأمير الكُردي يستعد للزحف على بغداد والقضاء على الدولة البويهية في العراق(١٧).

زجت الدولة البويهية بمعظم إمكاناتها الحربية في معركة حامية جنوب الموصل، فحلت الهزيمة بقوات الأمير وتراجع نحو إقليم دياربكر. ولكنه أخذ يجمع الرجال وينظم قواته لصد التقدم البويهي في البلاد. ولما تمردت القوات البويهية في الجزيرة ونصيبين على قادتها وإمتنعت عن خوض معارك أخرى، ولما إنهزم سعد الدولة الحمداني صاحب حلب أمام القوات الكُردية وكان قد تحالف معه البويهيون بالإضافة الى نجاة الأمير من محاولة إغتيال دبرها البويهيون، رغب الطرفان في التصالح. فتم عقد صلح بينهما في نصيبين سنة (٣٧٥هـ = ٩٨٥م) أو التي قبلها. وبموجب بنود هذا الصلح

(١٧) راجع الروذراوي (محمد بن الحسين)، ذيل تجارب الأمم، ص٨٥. فيه أن پادا عندما فرت القوات البويهية من باجلا عقَبَها ومن أدركه قتله وقتل أسراهم. راجع أيضاً: إبن العبري، مختصر تاريخ الدول، ص٣٠٠. محمدأمين زكي- الدول والإمارات الكردية، ص٩٨. إبن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٣.

إعترفت فيه الدولة البويهية بسيادة الدولة الدوستكية على كافة المناطق التي بحوزتها الى النصف من منطقة طورعبدين(طورى)، بينما أعطيت الجزيرة ونصيبين(١٨) للدولة البويهية.

والذي يظهر من رسالة الملك صمصام الدولة الى قائده وممثله في إبرام الصلح أبي القاسم سعد بن محمد الحاجب، هو أنّ الأمير باد أطاع الملك البويهي وأصبح نائباً له على البلاد، ولعل المقصود بالبلاد هو الجزيرة ونصيبين. حيث إن الملك أعطاه المدينتين على سبيل الإقطاع، فلم تخرجا من النفوذ الدوستكي الفعلي. والظاهر أن كلاً من الملك البويهي والخليفة العباسي قد إعترفا بدولة الأمير باد، وإعتراف الأول بحكمه واضح من نص رسالته الى ممثله المذكور. وبهذا أصبحت الدولة الدوستكية دولة شرعية معترف بها(١٩).

هذا وفي فترة الصلح ساد الهدوء والإستقرار في المنطقة وتحسنت علاقات الدولة الكُردية بالدولة العباسية والبويهية. غير إن الفترة كانت قصيرة لم تكمل ثلاث سنوات، إذ ساءت العلاقات بعد وفاة والى الموصل سعد الحاجب سنة (٣٧٧هـ = ٩٨٧م)، وتجددت أطماع الأمير الدوستكي في التوسع نحو الجنوب. فتقدم بقواته نحو نصيبين كما جمع القائد الديلمي البويهي(أبو نصر خاشاده) قوات عرب بني عقيل، حيث كانت قواته النظامية ضعيفة، وتوجه الى نصيبين لإيقاف تقدمه. فدارت معركة بين الطرفين قُتل فيها الأمير (أبوالفوارس) بن دوستك أخو باد(٢٠).

بعد وفاة الملك شرف الدولة بن عضد الدولة وتسنم أخيه بهاء الدولة الحكم سنة (٣٧٩هـ = ٩٨٩م)، نشأت ظروف جديدة في الموصل كان لها تأثير في وضع الدولة الدوستكية ووضع الموصل أيضاً. فقد إنحسر النفوذ البويهي الفعلي من الموصل بعد أن سمح الملك الجديد لأبي طاهر وأبي عبداللّه إبني ناصرالدولة الحمداني المبعدين الى بغداد بالعودة الى الموصل، غير أنه ندم على إرتكابه هذا الخطأ بعد أن بين له القادة البويهيون وجه الخطأ(٢١).

ولما وصل الحمدانيان الى الموصل طردا الوالى البويهي بقواته الضعيفة. ولما وجد الأمير باد ان الظروف الجديدة ملائمة للتوسع نحو الموصل وكُردستان الجنوبية، لضعف الحمدانيين وخلو المنطقة من القوات البويهية، زحف بقواته نحو الموصل. ولكن الحظ لم يكن حليفه إذ قتل في المعركة التي نشبت على أبواب الموصل سنة (٣٨٠هـ = ٩٩٠م).

وبتفاعل تلك الظروف نشأت الدولة العقيلية في الموصل في نفس الوقت، حيث قتل محمد بن المسيب أمير بني عقيل أبا طاهر الحمداني، بعد أن سحق الأمير الكُردي أبو علي حسن بن مروان إبن

(١٨) الروذراوي. ذيل تجارب الأمم. ص٨٧ .

(١٩) راجع نص رسالة صمصام الدولة وتفاصيل الصلح في الجزء الأول ص١٠٤ -١٠٦ .

(٢٠) الروذرواي،ذيل تجارب الأمم، ص١٤٣ أو ١٤٥. الفارقي ص٥٦. إبن الأثير- حوادث السنة المذكورة.

(٢١) إبن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٤. الروذراوري، ذيل تجارب الأمم ص١٧١.

أخت پاد جيشه الزاحف على بلاده وأسره كما أسر أخاه أبا عبداللّه للمرة الثانية(٢٢).

بنشوء تلك الدولة العقيلية، التي أصبحت حاجزاً بين الدولة الدوستكية والبويهية، إنتهى النزاع بينهما وبدأت صفحة جديدة من العلاقات في عهد الأمير أبي علي. فقد إعترف الخليفة العباسي والملك البويهي بحكمه، بينما أصبح هو تابعاً لهما من الناحية الرسمية. وأكبر دليل على هذا هو وجود إسم الخليفة القادر باللّه والملك بهاء الدولة على نقوده كما سيأتي.

ونظراً لعلاقات الصداقة بين الدولة الدوستكية والدولة العباسية، أرسل الخليفة العباسي والملك بهاء الدولة الهدايا الى ممهد الدولة(٢٣). فكان الطرفان لذلك يتبادلان الوفود وإستمرت العلاقات على نفس الوتيرة في عهد الأمير نصرالدولة (أحمد بن مروان)، الذي تلقى سنة (٤٠٣هـ = ١٠١٣م) من القادر باللّه والملك البويهي سلطان الدولة (شاهنشاه) بن بهاء الدولة، إعترافهما بحكومته. وقد وصل وفدهما الى فارقين في اليوم السابع من ذي الحجة من السنة المذكورة، حاملاً الخلع والتشريف والمنشور بجميع دياربكر. وكان الوفد يتألف من خادم للخليفة وأبي الفرج محمد بن أحمد بن مزيد حاجب الملك البويهي. وكانت الخلع سبع قطع: العباءة، الفرجية، الجبة، العمامة السوداء، سوارين من الذهب المرصع، فرس بمركب من ذهب، والتوقيع بجميع دياربكر وحصونها وقلاعها، بالإضافة الى اللقب الذي لقبه به الخليفة وهو"نصرالدولة ومجدها ذي الصرامتين" (٢٤).

وقُريء كتاب الإعتراف (التوقيع) في إجتماع كبير حضره الشهود والأكابر وسكان العاصمة. كما قُرئت المناشير في الإحتفال الكبير، الذي أقيم في اليوم الرابع من عيد الأضحى، والذي حضره كبار رجال الدولة والشعراء والقراء وسكان العاصمة ووفود الدول الكبرى الثلاث. وجلس نصرالدولة في مكان الإحتفال على (التخت)، أي عرشه الملكي، وأجلس على يمينه رئيس وفد الدولة العباسية والبويهية، وعلى شماله رئيس وفد كل من الدولة الفاطمية والإمبراطورية البيزنطية(٢٥).

ولما كان نصرالدولة تابعاً للدولة العباسية البويهية، فإنه كغيره من الملوك التابعين لها، كتب على بعض نقوده إسم الخليفة العباسي والملك البويهي كما سترى في موضوع (العملة الدوستكية).

وهكذا ظلت العلاقات قائمة مع الدولة البويهية، الى أن دخلت في دور الإنحلال وأقبلت على الأفول، فحذف حينئذ نصرالدولة إسم الملك البويهي من الخطبة وأحل محله إسم الملك السلجوقي(٢٦).

وتحت الضغط السلجوقي أنهت الدولة الدوستكية تبعيتها للدولة البويهية، بينما بقيت على

(٢٢) خطأ هنا الدكتور علي أكبر في كتابه تاريخ إسلام، ص ٢٣٦. حيث ذكر أن بني مروان هم الذين قضوا على الحمدانيين في الموصل.

(٢٣) الفارقي، ص ٨٦ .

(٢٤) الفارقي، ص ١٠٨. إبن الجوزي، المنتظم، ج٧، ٢٦٢.

(٢٥) الفارقي، ص١١٠.

(٢٦) إبن الأثير، الكامل، ج٩، ص ١٩٢.

تبعيتها للدولة العباسية حتى عهد الأمير نظام الدين والأمير منصور، حيث كان على كافة الدول الإسلامية مهما كانت كبيرة وقوية الإعتراف بالخليفة، حتى تعتبر سلطتها شرعية من الناحية الدينية. وأن هذه التبعية لم تكن تقلل من السلطة الفعلية والمطلقة للدولة التابعة.

العلاقات مع الدولة الفاطمية

إن أول إتصال رسمي حدث بين الدولتين الدوستكية والفاطمية في مصر وبلاد الشام كان في عهد الأمير أبي علي حسن، إذ لم نجد في المصادر التاريخية ذكراً لأي إتصال سابق. ففي سنة (٣٨٠هـ = ٩٩٠م) أو بعدها أرسل الخليفة الفاطمي (العزيز باللّه) بن المعتز وفداً من قبله الى الأمير حسن. أما مهمة الوفد حسبما ذكره عدد من المؤرخين، فكانت عرض شفاعة الخليفة عليه لإطلاق سراح أبي عبدالله الحمداني، الذي أسره الأمير أبو علي حسن للمرة الثانية أثناء زحفه مع أخيه أبي طاهر على البلاد الدوستكية، إثر مقتل الأمير باد. فرحب الأمير الكُردي بشفاعة الخليفة وأطلق سراح أسيره(٢٧).

هذا ومع أن المؤرخين لم يزيدوا على هذا شيئاً آخر، إلا أن هناك إحتمالاً قوياً بأن الوفد كان يحمل إعتراف الخليفة بالدولة الدوستكية وتأييده لها، وشملت المهمة أيضاً إبداء رغبته في إنشاء علاقات الصداقة معها كما كانت تقتضيه السياسة الفاطمية المنافسة للسياسة العباسية على الخلافة الإسلامية. إذ كانت سياستها تهدف الى التقارب مع الإمراء وأصحاب الأطراف وكسب تأييدهم لها وربطهم بالخلافة الفاطمية. ولاشك أن الدولة الفاطمية رحبت بقيام الدولة الدوستكية وإنفصال هذا الجزء من كُردستان عن الحكم العباسي المباشر، وحاولت ضمه الى معسكرها. وفي الوقت نفسه كان التقارب والتأييد الفاطمي في صالح الدولة الكُردية، التي أحدقت بها المخاطر عقب مقتل مؤسسها الأمير باد، حيث هاجمها الحمدانيون والأرمن ثم البيزنطيون. وفضلاً عن هذا فقد ورد في بعض المصادر ان الأمير حسن بايع الخليفة الفاطمي مدة من الزمن كما قال جرجي زيدان(٢٨).

بينما قال المؤرخان أبو الفداء الأيوبي وإبن الوردي أن أبا علي قد سافر الى مصر وتقلد من الخليفة ولاية حلب وتلك النواحي(٢٩). أما العالم الكُردي رشيد الياسمي والمستشرق لانجر، فقد ذكرا بأن سيطرة هذا الأمير الكُردي قد وصلت حتى حلب نفسها(٣٠). في الوقت الذي لا أستبعد فيه ما ذكره

(٢٧) إبن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٥. محمدأمين زكي، الدول والإمارات الكردية، ص ١٠٠-١٠٢.

(٢٨) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي. ج٤. ص ١٨٧.

(٢٩) أبو الفدا، المختصر في تاريخ البشر، ج٢، ص ١٣٢. تاريخ إبن الوردي ج١، ص٣٠٩ .

(٣٠) رشيد الياسمي، كورد وبيوستكي نژاد، أو: لانجر، موسوعة تاريخ العالم. ج٢، ص ٥٢٣

جرجي زيدان أؤكد عدم صحة ماذكره الآخرون لما إن حلب كانت في أيدي الحمدانيين، الى أن أطاح بحكمهم خادمهم لؤلؤ بعد وفاة أبي الفضائل بن سعد الدولة(٣١).

أما العلاقات في عهد حاكم وكبير الكُرد الملقّب بياد، فلم أجد حولها نصاً ولكن لا أستبعد أن تكون بين الطرفين إتصالات للأسباب المذكورة. ولعل عدم إستجابة ياد وهو في حالة حرب مع الدولة البويهية لطلب (بكجور) بالإنضمام إليه سنة (٣٧٧هـ = ٩٨٧م)، إنما كان مراعاةً لعلاقاته مع الخليفة الفاطمي (العزيز باللّه)، حيث أن بكجور كان والياً على دمشق ثم عزله الخليفة، فأصبح يثير القلاقل في شمال سورية(٣٢).

في عهد الخليفة (الحاكم بأمر اللّه) ابن العزيز (٣٨٦هـ -٤١١هـ) أصبحت العلاقات بين البلدين أوضح من السابق، حيث إهتم هذا الخليفة بالصداقة الكُردية، فأرسل الهدايا الى ممهد الدولة(٣٣).

كما وصل وفد من قبله الى العاصمة فارقين في اليوم السابع من ذي الحجة (٤٠٣هـ = ١٠١٣م). وكان الوفد المصري يحمل بالإضافة الى الهدايا الغالية إعتراف الخليفة (الحاكم) بحكومة نصرالدولة، حيث أرسل إليه لقب "عزالدولة ومجدها ذي الصرامتين"(٣٤) رغبة في كسب صداقة نصرالدولة وإجتذابه الى جانبه. ولكن نصرالدولة تلقب باللقب الذي قدمه له في نفس الوقت الخليفة العباسي وهو "نصرالدولة". ولكن هذا التفضيل او الإنحياز لم يترك تأثيراً سلبياً على العلاقات بين مصر وكُردستان. كما إستمرت العلاقات في عهد الخليفة (الظاهر) ابي حسن على إبن الحاكم، الذي تولى الحكم بعد فقد والده سنة (٤١١هـ)، والذي أرسل الى العاصمة الدوستكية وفداً بالخلع والتوقيعات والتشريف الى الملك الدوستكي(٣٥).

لقد تحدث نصرالدولة في رسالته الى المؤيد في الدين، التي وصلت اليه وهو يتوجه من حلب الى الرحبة، عن العلاقات المتينة في عهد كل من الخليفة (الحاكم) والظاهر. وذكر كيف أنهما ينظران إليه بعين التقدير ويبعثان إليه الدهايا و"يريانه له... ويسوقان اليه بالتحف والألطاف من الحسنى وما كان جعل له بتنيس ودمياط في كل سنة من رسم الإستعمال"(٣٦).

(٣١) راجع موضوع العلاقات مع الإمارة الحمدانية.

(٣٢) محمد الخضري، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، ص ٤٠٢.

(٣٣) الفارقي، ص ٨٦.

(٣٤) الفارقي، ص ١٠٩.

(٣٥) الفارقي. ص ١١٧.

(٣٦) سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، ص ١١٢. أخذ المؤيد هذه الفقرة من رسالة نصرالدولة وأدخلها في رسالته الى نصرالدولة سنة ٤٤٧هـ، أما الشطر الأخير من العبارة وهو"وما كان جعل له .... الخ"، فلم أعلم ما المقصود به. ولكن وبعد تفكير طويل في هذه العبارة وبعد مراجعة مصادر عديدة لمعرفة خصائص المدنيين، علمت أن المقصود من عبارة أو مصطلح (رسم الإستعمال) تعني الملابس الرسمية الخاصة بأمراء الدولة وقادتها، والتي عليها شعار الدولة مع إحتمال شعارات أخرى تميز بين رتب الأمراء وكبار المدنيين كالوزير والقادة العسكريين. كانت هذه الملابس وكميات من الثياب بإسم الدولة الدوستكية تُصنع في كل سنة في كل من تنيس ودمياط. علماً أن مدن بحيرة تنيس وهي تنيس ودمياط وشطا ودبيق كانت من أهم المراكز المصرية للنسيج، وكانت تنسب الى الأخيرة الأقمشة الدبيقية.=

وغرض نصرالدولة من التطرق الى موقف هذين الخليفتين وعلاقاتهما المتينة به هو إنتقاد الخليفة المستنصر على موقفه منه. أما المؤيد فإنه يردف هذا المقطع من رسالة نصرالدولة بالتعليق عليه وإنتقاد نصرالدولة على موقفه وخضوعه للسلاجقة. فيقول في رسالته الجوابية وهو يوجه الكلام الى نصرالدولة: إن هذا إنما هو إعتراف بالفضل للدولة الفاطمية وأما الهدايا والألطاف، فقد "أخذ الى التركمانية فنادى بشعارهم وغالى في رفع منارهم"، ويقصد أن نصرالدولة نسي تلك العلاقات والتقدير من الجانب الفاطمي، فأخذ يقدم ولاءه للسلجوقيين وينادي بشعارهم بدل أن يقدم الولاء للدولة الفاطمية.

=وكانت تنيس تتفوق في صناعة نوع من الثياب يسمى بالبدنة يصنع للخليفة خاصة، ويكون الثوب الواحد من هذا النوع من أوقيتين من الغزل ثم ينسج بالذهب فكان ثمنه يبلغ ألف دينار.

وقد كتب إبن دقماق بحثاً مهماً عن نسيج هذه المدن الصغيرة وقال أنه كان يُصدر منها سنوياً الى العراق ما قيمته عشرون الى ثلاثين ألف دينار. وكان يُصنع في تنيس خاصة ثياب رقيقة مهلهلة ملونة تسمى بالقصب وتستعمل لعمائم الرجال وملابس النساء، وذلك في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). وفي القرن التالي ظهر نوع جديد من القماش يسمى "أبو قلمون" يظهر للرائي في ألوان متقلبة وكان يصنع في تنيس خاصة. ولاتزال نماذج أثرية من نسيج تنيس ودمياط والمدن الفاطمية الأخرى في العهد الدوستكي باقية وموجودة في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، وهذه صورة قطعة منها (الصورة في الصفحة السابقة).

راجع بخصوص نسيج تنيس ودمياط: إبن دقماق، الإنتصار لواسطة عقد الأمصار، ص ٧٩ - ٨٢. والمقدسي ص ٢٠٢ و٢٠٣ و٢١٣. آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج٢، ص ٢٤٥-٢٤٨. حسن أحمد وأحمد إبراهيم، العالم الإسلامي في العصر العباسي ص ١١٩. كتب إبن حوقل عن نسيج تنيس ودمياط وقال ليس على وجه الأرض ما يدانيه في القيمة والحسن... راجع صورة الأرض ص ١٤٣ . هذا وبعد أن علمنا ان تنيس ودمياط كانتا من أهم مراكز النسيج في الشرق الأوسط في عصر الدولة الدوستكية وفي العهد الفاطمي، أعود فأقول ان المقصود بهذه العبارة "وماكان جعل له بتنيس ودمياط في كل سنة من رسم الإستعمال" الواردة في رسالة المؤيد، والتي هي في الأصل مقتبسة من رسالة الملك الدوستكي نصرالدولة المرسلة الى المؤيد، هو أنه كان يُصنع لنصرالدولة في المدنتين المصريتين كميات من الأقمشة او الثياب. والمقصود بـ"رسم الإستعمال" هو المستعملات السلطانية، اي الملابس التي تعرف في المصادر احياناً بهذا التعبير، أي الملابس الرسمية التي يُنقش عليها الطراز أى شعار الدولة أو الخليفة أو الملك. وقد جرت العادة كما قال الدكتور حسن الباشا في (الفنون الإسلامية ج٢، ص ٦٨٦-٢٨٧) أن تتخذ كل دولة لنفسها طرازاً (أي شعاراً) أو عبارة مميزة. وكان طراز العرب في الشام منذ عهد عبدالملك بن مروان هو "لا إله إلا اللّه " وكان الطراز يُنسج على الخلع التي يهديها الخلفاء الى رجال الدولة من باب التشريف... ولذلك سميت دور النسيج بـ"الطراز" وأضاف: "في العصر الفاطمي كان الطراز من الوظائف المدنية وكان يتولاه الأعيان... وكان مقامه بدمياط وتنيس وغيرهما من مواضع الإستعمال، ومن عنده تحمل المستعملات الى خزانة الكسوة". وهكذا نقل العبارة من (صبح الأعشى، ج٣، ص ٤٩٤) للقلقشندي.

أقول أيضاً إنه إستعمل في التعبير لفظ (الإستعمال) مكان لفظ "الطراز" كما أطلق لفظ الطراز على دور النسيج مجازاً، فيقصد بالإستعمال أحياناً شعار الدولة الذي يرسم أو ينقش على الثياب. وحسبنا دليلاً وثيقة عباسية رسمية، وهي كتاب (عهد) الخليفة الطائع للّه الى الملك البويهي فخرالدولة بن ركن الدولة مؤرخ بشهر جمادى الأول سنة (٣٦٦هـ) وهو من إنشاء ابي إسحاق الصابي، فقد ورد في الوثيقة مايلي: ".... وأن يتقدم (أي فخر الدولة) الى ولاة الطراز بأن يجروا الإستعمال في جميع المناسج على أتم النيقة.... وأن يثبتوا إسم أمير المؤمنين على طرز الكساء والفرش والأعلام والبنود...". فالمقصود بالإستعمال هنا الشعار. راجع نص الوثيقة في (صبح الأعشى، ج١٠، ص٢٩-٣٠). وأخيراً هل ان تلك الملابس او الاقمشة كانت تصنع للدولة الدوستكية بشعارها وعلى نفقتها، او كانت على نفقة الدولة الفاطمية وهدية منها. أما كيف كان شعار الدولة فلا نعلمه. بخصوص الطراز، راجع ايضاً محمد عبدالعزيز مرزوق، الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني، ص٩٨-٩٩.

توتر العلاقات والحلف الثلاثي

رغم أن العلاقات الفاطمية- الدوستكية ظلت قائمة مدة غير قليلة من الزمن، إلا أنها توترت في فترة من عهد الخليفة (المستنصر)، الذي تولى الخلافة بعد والده (الظاهر) في سنة (٤٢٧هـ)، وذلك بسبب تهديد نائبه في بلاد الشام (أنوشتكين الدزبري) بغزو البلاد الدوستكية سنة (٤٣٠هـ = ١٠٣٨م)، بعد أن عادت السيطرة الفاطمية الى شمال سورية. حيث إحتل الدزبري حلب وأطرافها في السنة التي قبلها، بعد أن إنتصر على أميرها نصر بن مرداس بن صالح، الذي قتل في المعركة. وكانت السيطرة الفاطمية قد غابت في المرة الأولى عن شمال سورية سنة (٤١٤هـ ١٠٢٣م)، عندما إستولى صالح بن مرداس على حلب وأسس فيها إمارته المرداسية. ثم أصبحت سيطرة المرداسيين عليها تزول وتعود. وقد إنتشى الدزبري بسيطرته على حلب وإقتراب نفوذه من كُردستان، فأخذت أطماعه التوسعيه تحدو به الى غزوها. ولكن الدولة الدوستكية لم تكن كفقاعة على الماء، بل كانت دولة راسخة الكيان لها قوتها المالية والعسكرية والسياسية ولها أصدقاوها، وكان نصرالدولة دبلوماسياً محنكاً.

لما علم نصرالدولة بنوايا الدزبري العدوانية إستعد لمواجهته عسكرياً وسياسياً، فقد حشّد قواته وكوّن ما نسميه (الحلف الثلاثي) مع الدولة العقيلية في الموصل والإمارة النميرية في الرقة وحران وسروج. فقد كان شبيب بن وثاب النميري تابعاً للفاطميين، فخوفه نصرالدولة من سياستهم التوسعية وأقنعه بالإنضمام إليه وقطع الخطبة الفاطمية وإقامتها للخليفة العباسي(٣٧).

وهكذا وقفت الدولة العقيلية والإمارة النميرية الى جانب تلك الدولة الكُردية ودخلتا معها في حلف ثلاثي أدى الى تعادل ميزان القوى في بلاد الشام (الفاطمية) وكُردستان الوسطى وبلاد الجزيرة. أما النائب الفاطمي، فقد شعر بأنه إرتكب خطأً كبيراً بتهديد الأمير الكُردي بغزو بلاده، وذلك حينما وجد أن الظروف تنقلب ضده وهو يواجه التحديات والمشاكل التالية، التي إستنتجتها من دراسة الموضوع وهي:

١- الحلف الثلاثي.

٢- مطالبة ثمال بن صالح بن مرداس بمدينة حلب (وقد إحتلها فعلاً سنة ٤٣٤هـ = ١٠٤٢م).

٣- الإتصالات المستمرة بين البيزنطيين وثمال، الذي طلب تأييدهم ومساندتهم لإسترجاع حلب وهم يريدون إستمالته.

٤- إستفزازات البيزنطيين للجانب الفاطمي، مما يشير الى أنهم سينقضون المعاهدة التي إبرمتها معهم الدولة الفاطمية منذ سنوات قليلة. وقد نقضوا تلك المعاهدة فعلاً، فنشب القتال بينهم وبين الدزبري

(٣٧) إبن الأثير، الكامل، ج٩ ، ص ١٦٠.

وإنتصر فيه الأخير وذلك في سنة (٤٣٢هـ = ١٠٤٠).

٥- لعل الدزبري شعر في هذه الأثناء بأن مركزه القوي لدى الخليفة (المستنصر) قد أقبل على التدهور عن طريق وزيره.

ولما رأى النائب الفاطمي قوة الدولة الدوستكية على الصعيد السياسي والعسكري وتكوينها الحلف الثلاثي، إضافة الى المشاكل المذكورة. لم يتراجع عن خطته العدوانية نحوها فحسب، بل أقدم على التقارب منها أيضاً وإنشاء علاقات متينة معها ولاسيما المصاهرة. ولأجل ذلك عرض على نصرالدولة تزويج إبنته لإبن نصرالدولة فرحب الأخير بهذا التقارب وبهذه المصاهرة. فأرسل الدزبري الى مصر ليحضر زوجته وإبنته ولما سمع المصريون ذلك غضبوا عليه، ولم يرضوا بهذا الزواج ولم يسمح لهما الوزير بمغادرة مصر(٣٨).

لقد قال إبن العديم إن المصريين لم يرضوا أن يتقوى الدزبري بنصرالدولة، وأضاف أن قصده من تلك التقوية هو الحيلولة دون قيام ثمال بن صالح بن مرداس بمهاجمة حلب. ولعل المصريين قد فسروا تقرب نائبهم التركماني من الدولة الدوستكية، بكونه تمهيداً لمحاولة إنفصالية ويحتمل أنه كان يحاول أن يجد له حلفاء ويتقوى بالحلف الثلاثي، كي يستقل ببلاد الشام. فسحب منه الخليفة ثقته بإفساد من الوزير أبي القاسم الجرجرائي، الذي كان يكرهه وأثار عليه الجيش الفاطمي في الشام سنة (٤٣٣هـ = ١٠٤١م)، التي توفي فيها الدزبري وإضطربت الأوضاع بعده في بلاد الشام.

(٣٨) إبن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ص٢٥٩. صرح إبن الأثير في الكامل، ج٧، ص ٢٦١. بعصيان الدزبري، أي إستهدافه اليه وكذلك الدكتور محمد حمدي المناوي في الوازرة والوزراء ص ٢٠٠.

موقف الدولة الدوستكية من حركة البساسيري

أو النزاع الفاطمي العباسي

الموقف قبل معركة سنجار

حدثت في الفترة الممتدة من سنة (٤٤٧هـ = ٤٥١هـ) أحداث وتطورات هامة في منطقة الشرق الأوسط. فقد عبر نفوذ السلاجقة الفعلي جبال زاگروس ووصل الى العراق وسهول كُردستان الجنوبية والموصل، وأصبح السلاجقة التركمان أكبر قوة عسكرية وسياسية.

وفي هذه الفترة أيضاً زالت الدولة البويهية من الوجود، إذ سلم آخر ملوكها (الملك الرحيم) نفسه سنة (٤٤٧هـ = ١٠٥٥م) الى السلطان (طغرل) السلجوقي، الذي سجنه في قلعة (سيروان) إحدى قلاع كُردستان الشرقية، ثم نقله الى قلعة الري وتوفي فيها(١).

ظهرت في العراق حركة مسلحة تهدف الى السيطرة على العراق وربطه بالخلافة الفاطمية. وكان يقود هذه الحركة أبو الحارث أرسلان البساسيري، الذي كان أحد قادة الجيش البويهي إزداد نفوذه حينما عينه الخليفة قائداً للجنود الأتراك ببغداد وأخذ لاينفذ أمراً هاماً بدورن رأيه. ولكن الوزير أبا

(١) سيروان: بالسين المهملة كانت مدينة تقع في منطقة (ماسبذان) أي منطقة (پشتكوه) الكُردية. ويقع (تل سيروان) على الجهة اليمنى من وادي صيمره (سيّمەرِە) في بقعة يتعرج فيها النهر من الجنوب الغربي الى الجنوب الشرقي. قال (دمرگان) أنها كانت المدينة العيلامية (هارداپانو). ومدينة سيروان كانت تقع في مضيق من جبل (مينشت) أمام (كيوة گەورة). وينبع نهر سيروان من هذا المضيق ويصب في نهر صيمره. وفي خرائب سيروان من الحجر والجص مايعود الى العهد الساساني وهي الآن خربة. أما(ماسبذان) فليست مدينة سيروان، بل إسم المنطقة التي كانت مدينة سيروان مركزها. هذا حسبما حدد مكانها الدكتور (بهمن كريمي) في بحث له بالفارسية بعنوان (لُرستان)، الذي ترجمه الى الكُردية الأخ خالد رسول من السليمانية وذلك في عام ١٩٩٥، علماً إنه ورد في الترجمة الكُردية إسم(شيروان) بالشين ولعل هذا الخطأ أحدثه المترجم. في المسالك والممالك ص٢٤٤ لإبن خرداذبه: ان (سيروان) و(إربجان) مدن (ماسبذان) وجبايتها، اي في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) مليون ومائة ألف درهم. أما الإصطخري، فقال (في مسالك الممالك، ص ٢٠٠) ان صيمره وسيروان مدينتان صغيرتان، وأن معظم أبنيتهما من الحجر والجص، تنبت فيها النخيل وأشجار الجوز. وفي صورة الأرض لإبن حوقل .... أن أبنيتها كأبنية الموصل وتكريت من الحجر والجص. وفي مختصر كتاب البلدان للهمداني، ص ٢١٢، معلومات أكثر بخصوصها. وقد ورد خطأً في أحسن التقاسيم ص٣٩٤ للمقدسي: أن صيمرة هي ماسبذان، والصحيح أن سيروان كانت قصبة ماسبذان وأن مدينة صيمره التي هي بإسم (سيّمەرِە) عند الكُرد تبعد عنها بمسافة يوم من المشي، كانت قصبة منطقة (مهرجان قذق) أي منطقة (پیّشكوه). وقد خربت صيمره بالزلزال في أواخر العهد البويهي، أي في القرن الحادي عشر، على ما جاء في بحث (لرستان). مما تجدر الإشارة إليه هو إنه ورد خطأً في الجزء الأول من كتابنا ص٢١٩، أن سيروان من مدن كُردستان الجنوبية، والصحيح ما جاء هنا في الجزء الثاني من أنها إحدى قلاع كُردستان الشرقية، التابعة لإيران، وإن بعضاً من الناس يلتبسون بين إسم (سيروان) بالسين المهملة وبين (شيروان- قلعة شيروانه) بالشين المعجمة (أي المنقوطة)، الواقعة في مدينة (كلار) على ضفة نهر سيروان من محافظة السليمانية. وقد شيد محمد پاشا الجاف قصراً ذا هندسة بديعة على (تل شيّروانه) الأثري، فإشتهر القصر بـ(قلعة شيروانه- قةلآي شيروانة)، وكان بناؤه في القرن التاسع عشر ولعله حوالى سنة (١٨٨٠م).

القاسم (علي بن مسلمة) أفسد بينه وبين الخليفة وعمل على إضعاف نفوذه. فترك بغداد وسار الى الحلة عند أميرها دبيس بن علي بن مزيد، وإتصل هناك بالمستنصر الفاطمي طالباً شد أزره مادياً للسيطرة على العراق وربطه بدولته. فأبدى له تأييده وصعد البساسيري الى إقليم الجزيرة أمام ضغط السلاجقة ومعه قوات دبيس الأسدي وقوات الأمير الكُردي (أبي الفتح بن ورام) رئيس كُرد جاوان في الحلة مع قوات أخرى إلتفت حوله، وإنضم إليه أيضاً الأمير النميري إبن وثاب. وبدأت الدولة الفاطمية بمساندة الحركة بالمال والسلاح وأرسلت ممثلها داعي الدعاة المؤيد في الدين هبة اللّه بن موسى الشيرازي للإشراف عليها والإتصال بأمراء المنطقة لتأييدها.

إنتصرت الحركة وسيطرت على العراق وقبضت على الخليفة العباسي (القائم بأمر اللّه)، وذلك سنة (٤٥٠هـ = ١٠٥٨م)، ولكنها تلاشت أمام السلاجقة في السنة التالية. وهذه الحركة أو الصراع العباسي الفاطمي، هي التي نريد أن نوضح موقف الدولة الدوستكية منها. ولقد ذكرنا سابقاً أن الحياد كان من صلب السياسة الخارجية الدوستكية، حيث لم ترغب الدولة في أن تلقي بنفسها في المشاكل الخارجية للصراع، فتجر على بلادها وشعبها الكوارث بعد أن غابت عنها مدة طويلة من الزمن، فلم يكن يهمها لذلك إنتصار هذا الخليفة أو ذلك. غير أنها واجهت واقعاً مراً تمثل في الضغط الفاطمي لجرّها الى جانبها ومطالبتها بضرورة تحديد موقفها الصريح والنهائي من ذلك الصراع وضرورة الإنضمام الى أحد الطرفين، كي تعرف الدولة الفاطمية عدوها من صديقها.

وأزاء هذا الضغط، لجأ الملك الدوستكي نصرالدولة الى سياسة المراوغة والدخول في مخابرات ومفاوضات طويلة مع الدولة الفاطمية، لإغفالها والتخفيف من ضغطها، إنتظاراً لإنتهاء الموقف بإنتصار أحد الطرفين. ولهذا أرسل مندوبه (الشيخ أبا الحسن بن بشر) الدياربكري(٢) الى مصر بإسم التفاوض، كما أرسل رسائل عديدة الى المؤيد الشيرازي بعد وصوله الى حلب فالرحبة مركز قيادة حركة البساسيري. وقد أوضح الشيرازي موقف نصرالدولة من الصراع أثناء إحتدامه في كتابه (سيرة المؤيد)، الذي دون فيه سيرته بنفسه وخلد فيها ثلاث رسائل كان قد أرسلها الى نصرالدولة. ويقول المؤيد أن إبن مروان أي نصرالدولة لما أحس إن السلاجقة يطمعون في بلاده، كونه أول من أطاعهم في المنطقة، ضاقت نفسه وحين رآنا مجدين في مجابهتهم (أنعشت نفسه لأن يقوم معنا في إيهان كيدهم وهدم كُنُّهم قياماً بما يكون عليه غاشية من اللبس ولاينقسم جسمه الى صفتي اللين والخشن عند اللمس)(٣).

(٢) يحتمل أن يكون الشيخ أبو الحسن بن بشر هذا هو القاضي أبو الحسن الآمدي، الذي ذكره الفارقي (ص١٨٢) من أنه أحد أكابر مدينة آمد (دياربكر) وكانت له أملاك وأموال كثيرة، هاجر الى مصر بسبب العداوة القائمة بينه وبين التاجر (أبي بكر بن جري)، ولم يرجع من مصر إلا بعد وفاته. تولى أبو الحسن قضاء فارقين سنة (٤٥٣هـ) ووصفه الفارقي بكونه "ذا رأي وعقل وسياسة". فالقاضي أبو الحسن بحكم مكانته وبقائه في مصر مدة وتعارفه مع بعض المسؤولين، كان أليق بأن يكون وسيطاً بين الدولتين في إستئناف علاقاتهما. لعل قول الشيرازي في وصف رسول نصرالدولة: بـ"الجامع في ذلك بين قضاء حق صحبته وخدمة الدولة العلية" إشارة الى كونه قاضياً.

(٣) سيرة المؤيد ص١٣٧.

ويشير الشيرازي في رسالته التالية، التي أرسلها الى نصرالدولة قبل معركة سنجار، الى أن أول إتصال حدث بين نصرالدولة والجانب الفاطمي كان بواسطة شخص لم يذكر إسمه، ولكنه وصفه بالمبارك والأستاذ الجليل، وذلك بعد أن قطع علاقاته بالدولة الفاطمية مغاضباً بدون سبب على حد تعبيره. كما يشير الى وصول رسالة من نصرالدولة الى يد الوزير الفاطمي (أبي حسن محمد بن عبدالرحمن اليازوري)، وأن الوزارة أمرته بالإتصال بنصرالدولة ومراسلته، ثم إطلاعها على سير الإتصالات ونتائجها. كما يشير أيضاً الى أن أولى رسائل الأمير الكُردي التي وصلت إليه، كان يحملها حاجب مقرّب من نصرالدولة. ويضيف الشيرازي في رسالته، أن نصرالدولة تهرب في رسالته من الجواب المطلوب والشيرازي يضع أمامه أحد أمرين لا ثالث لهما؛ إما الوقوف بجانب الفاطميين وإما بجانب السلجوقيين والعباسيين. ويؤكد له بأنه لايمكن له الوقوف محايداً، لأنه في مدرجة طريق السلجوقيين الى البلاد التي تقع تحت السيطرة الفاطمية. فإما أن يسمح لهم بالعبور عليه، وبهذا يصبح نصرالدولة من أنصارهم ومن أعداء الفاطميين، وإما أن يمنعهم من العبور ويعتصم بقلاعه وحصونه، وفي هذه الحالة يصبح من أعداء السلاجقة ومن أنصار الفاطميين. وهكذا لايتمكن نصرالدولة، كما يراه المؤيد، من الخروج من المأزق والوقوف على الحياد بين المعسكرين. ثم يحذره المؤيد، من الإعتماد على صداقة السلاجقة، ويضع أمامه تجربة (الملك الرحيم) البويهي، الذي لم يكن يملك سوى قوته اليومي، بخلاف نصرالدولة الذي يملك الأموال والخزائن والقلاع والحصون، التي هي من أمهات الحصون في الشرق الأوسط ويملك البلاد المعمورة والمأهولة بشكل يجعله موضع طمع السلاجقة وهدف عدوانهم إن لم يكن اليوم فغداً. وهكذا يشير المؤيد في الدين الى ثروات وأموال الدولة الدوستكية الضخمة والى ستراتيجية كُردستان من ناحية الموقع الجغرافي ومن الناحية الدفاعية، لما فيها من أمهات الحصون والقلاع. كما يشير الى أهمية كُردستان الوسطى من الناحية الإقتصادية أيضاً.

رسالة ممثل الدولة الفاطمية الى نصرالدولة

أدرج فيما يلي نص رسالة داعي الدعاة الفاطمي المؤيد في الدين الشيرازي والتي أرسلها الى نصرالدولة في النصف الأخير من سنة (٤٤٨هـ = ١٠٥٦م)(٤) وفي شهر رمضان بالذات، لما لهذه الرسالة ورسالتيه الأخريتين من أهمية تاريخية كبيرة. إذ أنها تعتبر من الوثائق الهامة بصدد العلاقات الدوستكية - الفاطمية، أي الكُردية - المصرية في ذلك الوقت. ورغم ذلك، فقد إكتفينا برسالتين منها وتركنا الرسالة الطويلة علماً أنه يشير الى نصرالدولة عامة بضمير الغائب.

نص الرسالة:

"ولم أزل أراصد حالةً تفتحني للمواصلة وتهمزني للمخاطبة، حتى ورد كتابه الى مجلس الوزارة السامي بما ورد، وأُمرتُ بمكتابته ومكاتبة مجلس الإمارة. فكأني نشدتُ في ذلك ضالةً وأصبت غنيمة. وكاتبتهما جميعاً بما ورد جوابه على يد حاجب متقرب وأنا - علم اللّه - مسرور بما وشجه اللّه بيننا في المواصلة، من الحرمة وكشفه رتاج الحشمة. ولما إستقر علمه عندي من تعصبه وتدينه(٥) بدين الولاء لأهل البيت صلى اللّه عليه وسلم، وحرصه من خدمة الدولة العلوية -أدامها اللّه تعالى- التي من لبس حللّها وتفيأ ظلالها، فقد إتخذ مع الرسول سبيلاً ووجد الى قصد النجاة دليلاً. وبعد فإنني أريد الأخذ معه في الحقائق، التي لايشوبها شيء من الإدهان. وذلك أن مجلس الإمارة كان حدث له رأي في مهاجرة الحضرة العلوية، كمثل رأيه في مواصلة الجهة التركمانية(٦)،

وكان التعجب من الإثنين يكثر، والقلب عن مصدر مثلهما عن معدن الفضل والرأي والقيام في الرياسة ينفر. فلما كان في هذه المدة القريبة، ورد كتابه بما هو بمثله أخلق وبفضله أليق، مظهراً للعتبى

(٤) يظهر أن المؤيد حينما كتب هذه الرسالة كان متأهباً للسفر بدليل قوله: "مع عجلة خمرتني ومسير لزّني وأمر يكاد ينكشف عنه الغطاء من دون شهر...". ويحتمل أنه كان يسير الى حلب ومن ثم الى الرحبة فإقليم الجزيرة. وقد ذكر الدكتور محمد جمال الدين سرور في كتابه (سياسة الفاطميين الخارجية ص١٩٢)، أنه بينما كان المؤيد يتجه من حلب الى الرحبة وصله في الطريق كتاب نصرالدولة إبن مروان.

هذا ويحتمل أن المؤيد كتب رسالته هذه قبيل رمضان أو في رمضان نفسه، حيث يشير إليه في جملته المذكورة. كما يظهر أيضاً أن هذه الرسالة كانت الرسالة الثانية التي أرسلها الى نصرالدولة رداً على رسالته الجوابية. أما عدم وجود إسم نصرالدولة الصريح في رسائله الثلاث، فإما أن المؤيد وعند إدخالها في (سيرته)حذف مقدماتها، التي تشمل عادة إسم المرسل إليه وذكر التحيات والأدعية والمدح. وهذا هو الراجح. أو أنه لم يذكر إسمه في الرسائل حفاظاً على سريتها. غير أنه صرح بأن هذه الرسائل وجهها الى إبن مروان. وكان حتى القرن التاسع عشر يُكتب إسم المرسل إليه وتاريخ الرسالة على ظهر أو ظرف الرسالة في كثير من الأحيان لا في متن الرسالة. ولذلك توجد الآن الكثير من الرسائل الشخصية والرسمية خالية من إسم المرسل إليه ومن التاريخ، لأن ظروفها فُقدت ولم يُنقل الإسم والتاريخ من ظهرها عند درجها في كتاب ما مما أحدث نقصاً كبيراً في هذه الوثائق وكان ذلك عادة سيئة.

(٥) يقصد نصرالدولة، ويذكره بصيغة الغائب تعظيماً.

(٦) يقصد بالتركمانية السلاجقة.

قائلاً للحسنى، ومشيراً بما يشير به الألمعي والمكين في مشورته والرأي القوي. فعلم أن الذي فاء به الى الحق، بعد أن ثنى عنه عطفه جانباً وكساه كسوة الرضا، عقيب أن ذهب بلا سبب مغاضباً، فهو الوسيط المبارك الأستاذ الجليل الجامع في ذلك بين قضاء حق صحبته وخدمة الدولة العلوية أدامها اللّه تعالى من لبس جميلها في صميمته(٧).

ثم إنني كوتبت من مجلس الوزارة بمكاتبته متشكراً لذلك على حميد الرجعى، وله فيه على مشكور المسعى.

وأسوق الكلام الى ما أنا متوجه فيه من الأمر، الذي أستعين باللّه تعالى فيه وأتوكل عليه، وكون ذلك متعلقاً بالصغير والكبير والحاضر والبادي "ولكل إمريء يومئذ شأن يغنيه" في خلوص الضرر اليه إن قعد عن النصرة، وسلك في وادي الغفلة والغرة. فورد الكتاب بما نكب فيه عن القصد الذي أردته والمعنى الذي قصدته، وهل له معنا يد تطول الى مكاشفة القوم ومناجزتهم، ومساعدة على ما لعل اللّه يتعس جدهم ويفلّ معه حدهم أم لا؟ وعدل في الجواب الى معاتبات ومشاورات وأمور قد ضاق الأمر عنها وإختنق الزمان فيما نحن بصدده دون الإعادة والإبداء فيها.

ولما كانت الصورة هذه ووجدتني لم أحصل على بيان من جهته، مع عجلة حفزتني ومسير لزّني وأمر يكاد ينكشف عنه الغطاء من دون شهر، عظم اللّه للإسلام والمسلمين عائدته وصرف الى المفسدين في الأرض عاديته(٨). أجبت عن كتاب حضرته بما هو واصل بوصول هذه المخاطبة. فتقدم الأستاذ الجليل بشرح مضمونه له.

والذي أقول له في هذا الجواب أن مجلس الإمارة، إن قبض عن ممالاة الجماعة في هذا الوقت يد نصرته، وهم قوم حركتهم القرائح والنحائز لملابسة هذا الخطر وممارسته، وبعيد أن يجمع الزمان أمثالهم ويؤلف بين المتفرقين منهم من كان على عين الغلط. ثم أقول في هذا الفصل قولاً يجلوه برهان العقل، هب أن التركمانية لكم على ما يظهرون سلم والتواصل بينكم وبينهم حق وصدق، فما هنالك عدو يقصد غيرنا ولا مملكة تطلب سوى مملكتنا. ألستم في مدرجة طريقهم إلينا، وعبورهم عليكم إذا أرادوا قصدنا؟ وأنتم بين أمرين إما أن تلقوهم تلقي الخادم لمخدومه والصديق لصديقه، وتمكنوهم أن يجوسوا خلالكم، أو لاتأمنوهم فتعتصموا بحصونكم عنهم وتتمنعوا منهم. فإن كانت العزيمة الخدمة والتلقي، فقد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين

ومعلوم ما جرى بالأمس على إبن الملك (أبي كاليجار) الملقب (بالرحيم)، عند تلقيه لهم واحفأنَّ بهم وقصده لخدمتهم، من بعد توثق مدعي الخلافة له بالإيمان المغلّظة والمواثيق المؤكّدة(٩).

فحين دخل مخيمهم نشب في الشبكة من فوره، فما رعي فيه دين ولا يمين ولا عرف للخليفة، الذي

(٧) يظهر من قول المؤيد في نهاية الرسالة "وصلاح صاحبه أيضاً": أن الوسيط كان عالماً من الدولة الدوستكية ومتقرباً من نصرالدولة له نفوذ ديني وإنه كان قاضياً من قضاتها.

(٨) يشير بذلك الى شهر رمضان.

(٩) يقصد الخليفة العباسي.

توسط الحال قدراً مع المعلوم من حال الرحيم-المرحوم اليوم-(١٠) خلصه اللّه في كونه لايأوي الى سبد ولا لبد، وإنما له قوت لايميته ولا يحييه. فكيف من يؤذن بالأموال والخزائن ووراءه الحصون، التي هي من أمهات الحصون والبلاد المعمورة المأهولة فهذا باب.

وإن كانت العزيمة الباب الثاني في الإعتصام منه، فقد دمر اللّه تعالى اذن على المهاداة والمشابكة تدميراً وصار كما قال اللّه تعالى "وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً". وإذا كان مفضي الأمر الى ذلك، فمالكم لاتستقبلون من الأمر ما توجب الضرورة أن لاتستدبروه، فتكون كما قال القائل:

رأى الأمر يفضي الى آخر فصير آخره أولاً

ولم لاتستغنمون هذا الوقت والأيدي معكم مجتمعة، ولكم في الأرض من أهل الموافقة والمرافقة مراغم كثيرة وسعة، ووراءكم من الدولة العلوية -أدامها اللّه تعالى- ردء عظيم وقد قيل:

إنتهز الفرصة إما مرت فربما طلبتها فأعيت

وهذا مما لاخفاء به على عاقل ووجه العقل الذي لايحجبه حجاب باطل والسلام. وأما نحن فنعتقد اننا الى أن نرث ديار الظالمين أقرب منهم الى أن يرثوا ديارنا، بحجة من قوله: "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الأرض يرثها عبادي الصالحون". وما أرى وسم الصالحين أليق بأحد ممن جده محمد صلى اللّه عليه وسلم وأبوه عليّ عليه السلام ودياره روضة العدل والأمن، والحرمات متماسكات به وصدقاته فائضة على الكبير والصغير.

فإذا كانت النصبة هذه فلا خلاف لوعد اللّه سبحانه، فهذا باب من حيث الثقة باللّه والتصديق لقوله وتجنب الشك في وعده ووعيده. فأما من حيث الرأي: فإن الذي أقدره اللّه سبحانه وله الحمد على أن يلبي دعوة الأجل أبي الحارث(١١) ومن صحبه لقبض المال والعدد والخيل بلا حساب ولا كتاب أقدر، أن ضغطه والعياذ باللّه أمر ودنا من تلقائه شر، أن يفتح من خزائنه وخزائن آبائه عليهم السلام خلجان الأموال ويستجر بها من الخيل والرجال مايذر فضاء البراري بالقنا مشجراً وينشيء سحاب السيوف للدماء ممطراً. وأسأل الأستاذ تأمل ما ذكرته بعيني بصيرته وتصور الأمر فيه بصورته. فإن علم تزييداً مني فيما أوردته، أو عدولاً عن حد نصفه فيما سردته فندني فيه، وإن تكن الأخرى أشار فيه بالواجب الذي يتقرب الى اللّه بصلاح المسلمين فيه أولاً، وصلاح صاحبه ثانياً، والإستحماد الى الدولة أدامها اللّه ثالثاً، والإنتداب في ذلك لإعلاء بنيان ما أسسه وإستثمار ما غرسه إن شاء اللّه تعالى(١٢).

(١٠) لعل بعض القراء يفهم من هذه الجملة الدعائية المعترضة -المرحوم اليوم- أن الرسالة كتبت بعد وفاة الملك الرحيم سنة ٤٥١هـ، غير أن جملة "خلّصه اللّه " أي خلصه اللّه من أيدي السلاجقة تدل على إن المؤيد لم يقصد بالجملة الأولى المعنى المتعارف المستعمل للموتى، بل إستعار به لزوال مملكته ودولته. فالمرحوم اليوم بمعنى الذي زال ملكه.

(١١) يقصد أبا الحارث البساسيري.

(١٢) سيرة المؤيد، ص ١١٣-١١٦.

الموقف بعد معركة سنجار

أحرزت القوات الموالية للفاطمين، التي كان يقودها البساسيري، إنتصاراً باهراً في معركة سنجار سنة (٤٤٨هـ = ١٠٥٦م) على القوات السلجوقية والعقيلية بقيادة (قتلمش) إبن عم (طغرل) وقريش بن بدران أمير الموصل. وقد إندفعت تلك القوات الى الأمام حتى إحتلت الموصل بعد أن إنضم إليها قريش نفسه(١٣).

فزاد تأييد الحركة في العراق، حيث أقيمت الدعوة الفاطمية في الكوفة و(واسط) بالإضافة الى الموصل. وإثر هذا الإنتصار وإستفحال القوات الموالية للفاطميين، تقدم الملك الدوستكي نصرالدولة نحو الجانب الفاطمي بخطوة عملية بعد أن خرج الأمر عن مجرد كونه إتصالات ومراسلات لاتقنع هذا الجانب إثر هذا التقدم والإنتصار. فأرسل قوة من جيشه الى منطقة الجزيرة للإشتراك في الحركة، ولكنه في الوقت نفسه لم يقطع علاقاته نهائياً مع السلاجقة، حيث لم يقطع خطبتهم ولم يقم الخطبة للفاطميين رغم إلحاحهم. فأراد نصرالدولة بذلك التناقض أن يبقي له طريقاً للإنسحاب لدى كل من الطرفين المتنازعين، غير إن الفاطميين لم يرضوا بهذه اللعبة. وعندما طالبه الممثل الفاطمي المؤيد الشيرازي بإلغاء الخطبة السلجوقية، إعتذر بأنه لايستطيع أن يقرر أمراً كهذا قبل رجوع مندوبه (أبي الحسن بن بشر) من مصر بالضمانات اللازمة.

وكان نصرالدولة يهدف مما فعل لأن يكسب الوقت إنتظاراً لجلاء الموقف وإنتهاء الأزمة بإنتصار أحد الطرفين النهائي. وكان نصرالدولة يعلم أن السلاجقة، كقوة قوية ناشئة لابد أن يقوموا بهجوم مضاد من الصعب أن تصمد أمامه القوات الموالية للفاطميين. وقد تحدث المؤيد عن سياسة نصرالدولة هذه وإنتقده عليها بشدة، فقال: "ولما تكاثفت الجيوش من الأعراب والأكراد والأتراك بالجزيرة جرد (أي نصرالدولة) النجدة من رجاله، وتكلّف عليهم الكلف من أمواله. وهو مع فعله هذا لايقطع خطبة التركمانية عن منابر دياره... ويجعل الحجة فيه رسولاً أرسله الى مصر لأمر يبرمه وتقرير يقرره، وأنه لا قبل له بأن يتعرض بغير نصبة حاله، حتى يعود رسوله. واضماره (أي غرضه) عن ذلك أن يكون معه إمهال حتى تخرج الأرض أثقالها في أمر الفريقين: فإن كان لنا كان وقوفه على إنتظار الرسول عذره في شأن الخطبة، وإن كان علينا إمتنَّ على التركمانية (أي السلاجقة) بتفرده من دون الناس كلهم بحفظ النصبة وإعتذر عن النجدة التي أنفذها، لم ينفذها إلا رداً عن نفسه ومنافاة للجموع الكبيرة، التي لو لم يفتح لها باب المساعدة لأُخذ عليه باب بيته. فكأنه أعد لكل المقامين مقالاً ورتب

(١٣) سبط إبن الجوزي، مرآة الزمان، حوادث سنة ٤٤٨هـ. قال سبط إبن الجوزي: إن معركة سنجار وقعت في آخر شهر رمضان المبارك سنة ٤٤٨هـ. بينما ذكر إبن الأثير: أنها كانت في آخر شوال من السنة المذكورة. راجع الدكتور محمد حمدي المناوي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، ص ٢٠٧. راجع أيضاً المقريزي، إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ص ٢٣٤.

سؤالاً وجواباً(١٤).

ولما كان هذا هو موقف نصرالدولة وجه إليه المؤيد رسالة أخرى يحثه على الإنضمام الى الدولة الفاطمية، ويشيد فيه بقوة هذه الدولة مالياً وعسكرياً ويحذره من الإعتماد على السلاجقة(١٥).

هذا وإذا نظرنا الى طبيعة تركيب القوات التي تكونت منها الحركة أو الى نفسية قادتها بصورة دقيقة، لظهر لنا أن نصرالدولة لم يكن خاطئاً في موقفه منها. لأنه كان يعلم جيداً بنفسية معظم قادتها المتقلبة وعدم قدرتهم على الإستمرار على المجابهة مع السلاجقة، لاسيما وأن الدولة الفاطمية لم تساند الحركة عسكرياً وإنما قامت بتمويلها فقط. كما إن نصرالدولة وجد أن الأموال التي تنفقها الدولة الفاطمية في هذا السبيل قليلة قياساً لجسامة الأمر، كما صرح المؤيد في رسالته عن إعتقاد نصرالدولة هذا حين قال: "فإنه (أي نصرالدولة) سمع إن الذي وصل معي من المال يقل عن ما يُبلغ به غرض..."(١٦).

(١٤) سيرة المؤيد. ص ١٣٧.

(١٥) نظراً لأهمية الرسالة التاريخية ندرج هنا نصها التالي، ويظهر أن مقدمتها قد حذفها المؤيد عند درجها في مذكراته (سيرته): "وأما إعتذاره عند التوقف في معنى الدولة الشريفة واقامتها وقوع التربص بها الى حين عودة الشيخ (أبي الحسن بن بشر) بالتقريرات التي تطمئن بها القلوب وتنشرح معها الصدور، فعذره في هذا الوجه يحتاج الى عذر. وذلك أنه قام في غيره من الأمور التي هي أشد وطأً وأثقل محملاً وأنكا نكاءً القيام المشهور وسعى السعي المشكور. وإرجاء هذا الأمر فطواه في مطاوي الفتور، فإن كان التربص به توقع ما يحدثه الزمان. فإن كان لنا فتح من اللّه (قالوا ألم نكن معكم)، وإن كان للكافرين نصيب قالوا (الم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين) الذي هو نص قوله تعالى ومثل الخبر. فكذلك إن كان لنا فليس يفوتهم اذ ذلك إقامة الخطبة، وإن كان علينا والعياذ باللّه كانوا إستبقوا مع العدو (خذله اللّه) في الأمر بقية وجعلوا الأمر على جملته لديهم مأنة.

فهذا رأي ينافي الصواب وطريق يباين الإستقامة، فهو يعلم يقيناً أن إقامة الدعوة لنا ونداءه لشعارنا لا يعظم موقعهما إلا مع اشراف العدو وإستوائه على مركب العتو. فأما إذا تفضل اللّه بفك أنيابه وقطع أسبابه وإستجابة الديار وأسعد على تذليل الصعب المقدار، فأي طعم يبقى لخطبته إذا خطب وقد غار ماء رونقه ونضب. وأما ما يخرجه حساب التوهم الذي لا يثبت مثله العقل ويمحوه لطف اللّه وجميل صنعه، من انه ربما وقف الأمر والعياذ باللّه فكان عنده مرموقاً بعين من إقتصد في الفعل ولم يمل معنا كل الميل. فذلك أيضاً قصد غير صحيح، لكون ذلك متعلقاً بإمتداد باع العدو (خذله اللّه تعالى إليهم واللّه يعيذهم منه) أو قصرها. فإن قصرت باعه كان الفكر بإقامة الدعوة شفعاً للفكر بالإنجاد وتجريد العسكر الذي ليس يخاف أمره، وإذا لم يخلص ضرر من ذلك لم يخلص من هذا أيضاً. وإن طالت باعه (لا أطالها اللّه) فهم الذين قال اللّه فيه "لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة".

كان هذان الأمران أم لم يكونا ومع هذا كله فمعلوم أنه إن تفضل اللّه بالدفع في وجه هذا العدو المضلّ المبين، فما إلا جرثومته التي قُطعت وأنيابه التي قُلعت، لكون ذلك أمراً هو بنفسه حاضره وبخيط رقبته مباشرة. وإن (والعياذ باللّه) كان على أصحابنا (نصرهم اللّه)، فإن صاحب الأمر ولي النعمة (خلّد اللّه ملكه) على مسيرة خمسمائة فرسخ لا يحل به كثرة وهن، على تكاثر عدده ووفور عُدده وإتساع نطاق قدرته بحمد اللّه ومنه، لأن يردف جيشاً بجيش ومالاً بمال، فليس الحرب مما تضع أوزارها بوقفة تجري وكلا، بل هناك لزمت ملازمها وتعيّن على الناس عامة وعلى المجلس الأميري خاصة، أن يتعلقوا بأذيال الدولة العلوية أدامها اللّه كل التعلق، ويتحققوا بخدمتها كل التحقق، عالمين علم اليقين أن الناس إذا عدموا (والعياذ باللّه) منها سنداً ومن ظلها ملتحداً، صاروا ملكةً لهؤلاء الأشرار وصُلوا في ظلهم وعدوانهم أحرّ ما يكون من النار والسلام.

(١٦) سيرة المؤيد، ص ١٠٨، الرسالة الأولى.

كما يشير المؤيد إثر هزيمة القوات من (القيارة) سنة (٤٤٩هـ = ١٠٥٧م)، رغم أن قوامها كان ثمانية آلاف فارس، الى ما تتصف به من "الخلاف والخذلان"(١٧)، في حين إن المعركة لم تكن ذات شأن في الموقع المذكور. كما إنه يتبادل مع قادة القوات رسائل مليئة بالمعاتبات. ويقترح فيها عليهم التوجه نحو بغداد وواسط والإلتقاء بجيوش واسط المؤيدة للفاطميين، بدلاً من التوجه الى دياربكر والتحصن بقلاعها. حيث يقول في رسالته الى الأمير (أبي الفتح بن ورام) رئيس كُرد جاوان، في الحلة والمشترك في الحركة:

"وبلغني إستقرار العزائم المباركة الآن على قصد الحصون الآمدية والتحصن بها ريثما يتفرق الجمع الذي هو معكم اليوم، فتزدادون ضعفاً وتصل نجدة عدوكم فيتضاعف قوة فوجدت ذلك من الآراء الفاسدة..."(١٨).

وهكذا يظهر أن قادة الحركة كانوا يوجهون أنظارهم الى ستراتيجية كُردستان ويريدون التحصن بالقلاع الكُردية في إقليم دياربكر، وإتخاذ البلاد الدوستكية ميداناً للقتال والدمار. ولكن لا ندري هل كان نصرالدولة سيسمح لهم بذلك، أو هل حصلوا على إذن منه في ذلك، أم إنهم كانوا سيحاولون التحصن بها رغم إرادته؟ أو هل إن هذه الفكرة حدثت أثناء إستنجاد نصرالدولة بالمؤيد حينما توجه طغرل نحو بلاده للإنتقام منه؟ والذي أرى إن الفكرة حدثت قبل هذا. ثم يأتي المؤيد فيهاجم الخيانات التي ظهرت في الحركة بعد الهزيمة، وإتصال الوزير الكُندري وزير طغرل ببعض من قادتها كإبن مزيد وإبن ورام وإقناعهم بالإقطاعات، حتى إنهم كانوا يريدون القبض على زعيمهم البساسيري وتسليمه الى طغرل القريب منهم بمسافة حوالى يوم واحد فيما وراء نصيبين. فشعر البساسيري بذلك ففارقهم وتراجع الى الرحبة(١٩). وكذلك ذكر المؤيد خيانةً إرتكبها حليفهم عطية بن صالح المرداسي تمثلت في إخفائه مبلغاً كبيراً من المال، أرسلته الدولة الفاطمية للحركة وسُلم إليه ليوصله الى المؤيد، وأعتبرت من أكبر أسباب تفرق القوات من حوله لأنه بذلك قطع رزقها. وفضلاً عن هذا فإن الوزارة المصرية لم تكن مخلصة في مساعدتها الحركة، ولما أعتُقل الوزير اليازوري عُثر على مخابرات له مع العباسيين في بغداد. ومن بعده تولى الوزارة أبو الفرج عبدالله بن محمد البابلي لشهور فقط، ثم تولى أبو الفرج بن جعفر المغربي. فجمد الأخير مخابرات البساسيري لأنه كان يحقد عليه بسبب هروبه منه الى مصر(٢٠).

ورغم أن البساسيري سيطر على بغداد بقواته القليلة في فرصة إنشغال طغرل بإخماد تمرد أخيه إبراهيم ينال في إيران، وأقام الدعوة للمستنصر الفاطمي، إلا أنه تلقى مدة من الخليفة الفاطمي البرودة والإهمال. وسبب ذلك هو نفاق وزير المستنصر أبي الفرج محمد بن المغربي، الذي كان يكره

(١٧) نفس المصدر، ص ١٤٤. رسالة المؤيد الى أبي الفتح.
(١٨) سيرة المؤيد، ص١٥٧.
(١٩) سيرة المؤيد، ص١٥٢.
(٢٠) إبن الأثير، الكامل، ج٨، ص٨٣.

البساسيري وكان قد فرّ منه الى مصر. فحثّ المستنصر على عدم الإهتمام بالبساسيري وخوَّفهُ منه، على ما قاله المقريزي في (إتعاظ الحنفا ص٢٥٥). كما إن الأمراء الذين أيدوه تفرقوا من حوله في السنة التالية، عندما زحفت جحافل السلاجقة نحو العراق، بعد القضاء على تمرد إبراهيم ينال، الذي كان على إتفاق سري مع الدولة الفاطمية. وكانت النتيجة مغادرة البساسيري بغداد ومقتله في معركة مع قوة سلجوقية في منطقة الفرات. تلك كانت طبيعة الحركة وحقيقتها، الحركة التي لم تشترك فيها الدولة الدوستكية متخذة منها ومن الدولة الفاطمية موقفاً محايداً، وبذلك حافظت على سلامة شعبها من المآسي . ويرجع فضل هذا النجاح الى أميرها المحنك نصرالدولة، الذي لايستبعد أن يُنتقد في موقفه هذا من قبل المشتركين في تلك الحركة المشروعة، التي قام بها أبناء المنطقة ضد غزو وتوسع السلاجقة القساة الغرباء، الذين وضعوا أيديهم على بلدان واسعة لم تكن لهم فيها ناقة ولا جمل.

وأخيراً كانت للدولة الدوستكية علاقات سياسية وإقتصادية وحضارية مع الدولة الفاطمية، كعلاقاتها مع الدولة العباسية. وقد تأثرت هذه الدولة الكُردية بالأنظمة الفاطمية، لاسيما عن طريق الوزير أبي القاسم المغربي(٢١).

أما إيفاد الملك الدوستكي نصرالدولة بعثة من الطباخين من كُردستان الوسطى الى مصر لتعلّم فن الطبخ(٢٢) المتداول في مطابخ الفاطميين، فليس سوى مثال حي للروابط الحضارية بين البلدين. كما إن كميات من النسيج المصري الفاخر المصنوع في مدينتي تنيس ودمياط كانت تصل سنوياً الى الدولة الدوستكية(٢٣).

(٢١) الفارقي، ص١٣٨.

(٢٢) الكامل، ج١، ص٦. في حوادث سنة (٤٥٣هـ). وأبو الفدا، المختصر في أخبارر البشر، ج٢ ص١٨٩. إبن خلدون، العبر، ج٤ ص٣١٩. راجع الجزء الأول من الدولة الدوستكية ص٢٤٨-٢٥٠. تاريخ إبن الوردي. ج١، ص٣٦٧. و (Basri Kunyar / Diyarbakir Tarihi).

(٢٣) راجع تفسيرنا لعبارة المؤيد السابقة في ص١٧٣.

العلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية

كانت الإمبراطورية البيزنطية[١] إحدى الدول الكبرى الثلاث في ذلك العصر، وكانت بينها وبين الدولة الدوستكية علاقات وروابط سياسية وإقتصادية وحضارية. وتتجلى علاقاتهما من خلال المعاهدات والإتفاقيات، والتي كان لبعضها أهمية كبيرة للدولة الكُردية في مرحلة نشوئها، ولبعضها الآخرأثر فعال في تمتع كُردستان الوسطى بالسلام والإستقرار . وكان الأمير الذي لقّب نفسه بـ« باد » أي حاكم أو ملك الكُرد، في الفترة التي سبقت تأسيس الدولة، والتي عبّرنا عن توسع نفوذه فيها بـ"الإمارة الدوستكية"، يعادي الدولة البيزنطية المسيحية ويشن الغارات على حدودها المتاخمة لكُردستان، سعياً وراء الشهرة والمال والسلاح وإلتفاف المقاتلين حوله. وقد إشتهر فعلاً بكونه رجلاً غازياً في سبيل الدين وفاز بمحبة الناس وعطفهم، كما شهد عليه تقدير سكان الموصل له ومظاهرتهم ضد الحمدانيين، إستنكاراً للتمثيل بجثمانه وقولهم: "هذا رجل غاز لاتحلُّ المُثلة به"[٢].

ولما إصطدم الأمير (باد) بعداء الملك البويهي عضدالدولة أثناء وفادته إليه بالموصل سنة ٣٦٨هـ = ٩٧٨م) وعزمه بعدها على تحرير البلاد من السيطرة البويهية، حدث تحول في موقفه نحو الدولة البيزنطية. فإقترب منها وحسّن علاقاته معها ووقع معها معاهدة عدم الإعتداء. فكان يرسل سنوياً الى الإمبرطور (بسليوس) الثاني (باسيل) (٩٦٣هـ = ١٠٢٥م) الهدايا والألطاف على سبيل الملاطفة.[٣] وقد إعتبرت (دائرة المعاف التركية) تلك الهدايا خراجاً سنوياً مفروضاً، لأنه كان تحت حمايتها[٤]. وكذلك إعتبرها خراجاً الدكتور مصطفى جواد في رأيه، الذي وافانا به في رسالة خطية نشرناها في الجزء الأول في موضوع (معاهدة مع الإمبراطورية البيزنطية).

لقد كان لهذه المعاهدة أو الإتفاقية وقع سيء على الدولة البويهية، حيث خافت أن تساند الدولة البيزنطية الأمير باد في محاولاته التوسعية المرتقبة في الأراضي الواقعة تحت سيطرتها، أو أن تحميه

(١) إنقسمت الإمبراطورية الرومانية الى قسمين بعد وفاة الإمبراطور (ثيودوسيوس) سنة ٣٩٥م، حيث قسمها إبناه أركاديوس وهنوريوس وأصبحت مدينة القسطنطينية (إستانبول)، التي بناها قسطنطين سنة ٣٣٠م عاصمة القسم الشرقي الذي عُرف بالدولة الرومانية الشرقية، بينما ظلت مدينة روما عاصمة القسم الغربي. أما بلاد الدولة الشرقية، فكانت تتألف من آسيا الصغرى (أناضول) واليونان وبلغاريا وبلاد أخرى. وقد دخلت كُردستان الوسطى تحت حكم الدولة الرومانية الشرقية فترات عديدة وكانت ميداناً للنزاع بين الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية لقرون عديدة. وقد ترك الرومان آثاراً كثيرة في كُردستان من قلاع ومدن. ولا يزال إسم "الروم" أي الرومان حياً، ولكن الكُرد يطلقونه حالياً على الجنود الأتراك، حيث حل الترك محل الروم البيزنطيين . والبيزنطيون ينسبون الى(جوز نطه)، وكانت مع مدينة خلقيدون تقعان على ضفاف بسفور الأولى في الجانب الغربي والثانية في الجانب الشرقي وإبتلعتهما مدينة القسطنطينية ووحدتهما.

(٢)الروذراوي، ذيل تجارب الأمم. ص١٧٦. الكامل، ج٩. ص٢٤و٦٣.

(٣) الروذراوي، ذيل تجارب الأمم، ص٣٦ و٣٩.

(٤) TURKIYE .ANSIKLUPEDIS

في حالة إندحاره. ولهذا فقد طالب الملك عضدالدولة سنة (٣٧٢هـ = ٩٨٢م) من بسليوس، في المفاوضات التي جرت بينهم، بإدخال الأراضي الواقعة تحت سيطرة الأمير باد ضمن أراضي الدولة البويهية والإعتراف بكونها جزءً منها. وطالبه كذلك بالتخلي عن حماية باد (في حالة كونه تحت الحماية البيزنطية)، أو بقطع علاقاته معه. وقد وافق الإمبراطور بسليوس على هذا الشرط بعد مناقشة طويلة جرت بينه وبين (إبن شهرام) ممثل عضدالدولة في العاصمة البيزنطية. غير أن الدولة البويهية تنازلت عن هذا الشرط بعد وفاة عضدالدولة، حينما إستؤنفت المفاوضات في عهد الملك صمصام الدولة، ولكنها إشترطت على الإمبراطور عدم تقديم المساعدة للأمير باد وعدم إعطائه حق اللجوء في حال إندحاره أمام قواتها في المعارك المرتقبة. وطالبت بإدخال هذا الشرط في بنود الهدنة بين الجانبين ليصبح بنداً من بنودها(٥).

وهكذا يظهر لنا مما جرى في مفاوضات الدولتين البويهية والبيزنطية، سواء كان الأمير باد تابعاً للدولة البيزنطية وتحت حمايتها (بحيث ربط نفسه بها عن طريق التبعية للإستفادة منها في تأسيس دولته الكُردية) أو لم يكن تابعاً لها، مدى أهمية علاقاته بهذه الدولة وأهميتها في المجال الدولي، وتدويل شأن الأمير باد أو الإمارة الدوستكية أو في مجال تأسيس الدولة الكُردية. ولهذا فقد إعتبرنا هذا التقارب والعلاقات من عوامل تأسيسها وإعتبرناه من العوامل العشرة لنشوئها التي مضت في الجزء الأول(٦).

هذا وإستمرت العلاقات الكُردية - البيزنطية متينة في عهد الأمير باد. أما في عهد الأمير أبي علي حسن بن مروان وفي السنة الثالثة من حكمه، فقد أطاحت بها أطماع الدولة البيزنطية في الأراضي الدوستكية الواقعة في شمال (بحيرة وان). حينما إستغلت الأخيرة الظروف الحرجة التي أحاطت بالدولة الدوستكية، بعد مقتل مؤسسها من مهاجمة الحمدانيين ثم الأرمن . فقد هاجمت القوات البيزنطية سنة (٣٨٢هـ = ٩٩٢م) الأراضي المذكورة وحاصرت المدن الواقعة فيها، وهي مدن ملازگرت (منازجرت - مانيزكرد) وخلاط وأرديش. وقد أبدى جنود الحاميات الكُردية فيها دفاعاً مجيداً، الى أن وصل الأمير حسن بقوات كبيرة فهزم البيزنطيين. وكان للحملة الأعلامية التي قام بها الأمير المذكور تأثير على هزيمة القوات البيزنطية، حيث أشاع أن القوات الإسلامية ستصل غداً الى أرض المعركة. فأثّر بذلك على معنويات القوات البيزنطية، وتفاوض البيزنطيون معه على هدنة لمدة عشر سنين(٧).

(٥) راجع ذيل تجارب الأمم ص٣٦ و٣٩. وراجع ماذكرناه من التفاصيل في الجزء الأول ص٦٢-٧١.

(٦) راجع الجزء الأول: موضوع عوامل نشوء الدولة الدوستكية.

(٧) إبن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٥٦. الفارقي، ص٦١. إبن خلدون، العِبَر، ج٤. ص ٣١٦.

زيارة الإمبراطور بسليوس الى الأراضي الدوستكية

في سنة (٣٩٠هـ = ١٠٠٠م) عندما إقترب الإمبراطور بسليوس من بلاد الدولة الدوستكية في مهمة، زارها وإستقبله ملكها ممهد الدولة، في مكان غير معلوم لنا، وإنما قال الفارقي في (ص٨٤) أنه قدم الى نواحي آمد وميافارقين وإجتمع بممهد الدولة أبي منصور وتحالفا وتعاقدا، وعاد من غير إضرار.

لقد تحدث عن هذه الزيارة أيليا النسطوري أشهر مطارنة الدولة الدوستكية، والذي حدثت تلك الزيارة في عهده، وكان عمره آنذاك ستاً وعشرين سنة. فقال لما مات داود ملك الغورزانيين، توجه الإمبراطور الى ناحية (غورزان) و"دخل ممهد الدولة وداس بساطه وقبله ملكاً بفرح، فإعتبره معلماً وكان أمّن في البلاد"(٨). أي أنه أعجب بممهد الدولة وبسياسته وعقله، فإعتبره معلماً(حكيماً). ويجدر بالذكر أن إيليا نفسه وصف ممهد الدولة بـ"الأمير المبارك"(٩). أما سعيد بن بطريق الأنطاكي، فقد قال إن بسليوس "جعل أمير الأكراد أبا منصور سعيد بن مروان ماجستطرس ودوقس المشرق"(١٠)، إي أنه منحه لقبين بيزنطيين هما لقب (ماجسطرس) و(دوق)، أي (مجملاً) حاكم

(٨) تاريخ إيليا، ص ٢٠١. تعريب الدكتور يوسف حبي من السريانية.

(٩) تاريخ إيليا. ص ٢٠٤. قال ذلك عند البحث عن قتله، والذي حدده في ليلة الخميس الخامس من جمادى الأولى في السنة الواحدة بعد الأربعمائة للّهجرة، وكانت السنة الثالثة من مطرانية إيليا. وذكر تاريخ تولي الأمير نصرالدولة في نفس السنة. وقد وجدت صعوبة في تحديد سنة تسنمه الحكم. فكانت بنفس السنة في الجزء الأول، وذلك قبل إطلاعنا على كلام إيليا. وذكر أيضاً أنه عندما قُتل أخوه أبو علي كان حاكماً على مدينة الجزيرة، فأسرع الى ميافارقين وأصبح ملكاً فيها يوم الخميس السابع من ذي القعدة سنة (٣٨٧هـ).

(١٠) سعيد بن بطريق، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، ص١٨٤. ذكر إن الإجتماع كان في سنة (٣٨٩هـ)، وأن هدف الإمبراطور كان إحتلال بعض البلاد الإسلامية، غير إنه عاد لما سمع بوفاة داود القربلاط ملك الجزر. ويلاحظ هنا خلاف بينه وبين (إيليا)، ولا يُفهم من كلام إيليا وكذا الفارقي أنه جاء يقصد إحتلال الأراضي الإسلامية. ومن المحتمل أن لفظ الجزر تصحيف (خزر) ولفظ غورزان قريب منه، ولكن يظهر من كلام إيليا أن منطقة غورزان كانت قريبة من البلاد الدوستكية، بينما تبعد بلاد الخزر عنها كثيراً. فهل يمكن أن يكون داود هذا الأمير الأرمني داود الموالي للبيزنطيين.

أما لفظ (ماجسطرس) فهو ماجستر (Magister)، وهو الشخص الذي كان يترأس الإدارة المدنية البيزنطية ويقوم بعمل وزير الخارجية. وقد أصبح اللقب في وقت ما أعلى لقب غير ملكي. وقد حدثت تغييرات على هذا المنصب. راجع رنسيمان (المدنية البيزنطية «و» الحروب الصليبية ص٥٨ و٦١). أما في عهد الرومان قبل الميلاد، فكان الـ(ماجستر) واحداً من أربعة حكام من أصحاب السلطة العليا، و الذين أعتبروا حكاماً فوق العادة ولهم حق الجلوس على كرسي خاص في الدولة. وكان هؤلاء الحكام أحد العناصر الأساسية الثلاثة في النظام الجمهوري الروماني آنذاك وهي: الحكام ومجلس الشيوخ والهيئات الشعبية. والحكام هم: القنصل والبريتور (القاضي) والدكتاتور وماجستر وقد كان الأخير نائباً للدكتاتور، وكانا يُعينان لمدة ستة أشهر. راجع (مدخل الى تاريخ الرومان وأدبهم وآثارهم، ص٥٦ و٦٠). أما (دوقس) فهو (دوق) أي أمير وأحد حكام الأقاليم (البنود) البيزنطية. وفي القرن الثاني عشر لما فُتحت أنطاكية وُضعت تحت إمرة دوق كان له سلطان نائب الملك، حيث كانت له سلطة جباية الضرائب. راجع ستيفن رنيسمان. ص٦٧.

وأمير الشرق. ولاشك أن زيارة الإمبراطور الى الدولة الدوستكية والإجتماع بملكها، قد زاد في تحسين العلاقات بين كُردستان والبلاد البيزنطية. وقد كانت لتلك الزيارة أهمية تاريخية. وفي سنة (٤٠٠هـ = ١٠١٠م) طلب ممهد الدولة من بسليوس إرسال الأمير أبي الهيجاء الحمداني إليه ليسانده في إسترجاع إمارته حلب، حيث كان خادمه لؤلؤ قد أخذها منه وإلتجأ أبو الهيجاء الى الدولة البيزنطية.

لقد حافظ بسليوس الذي كان من أقوى الأباطرة البيزنطيين على علاقاته بالدوستكيين في ظروفهم الحرجة إثر إغتيال ممهد الدولة في قلعة هتاخ (أنتاخ - عتاق) سنة (٤٠١هـ = ١٠١٠م) من قبل حاجبه (شروه - شيروين). فلم يلتفت الى طلب شروة بحمايته وإرسال قواته الى مدينة فارقين العاصمة ليسلمها، وكان نصرالدولة يضيق الحصار عليه[١١].

وأما الحديث عن الوفد البيزنطي، الذي وصل الى العاصمة فارقين في السابع من ذي الحجة سنة (٤٠٣هـ = ١٠١٣م) والذي أرسله بسليوس بالهدايا والتحف، فقد مر في مناسبات أخرى من هذا الكتاب. وأما إيفاد الدولة الدوستكية للعالم والشاعر أحمد بن يوسف المنازي، كاتب ديوان الإنشاء الى العاصمة البيزنطية مراراً في مهمات رسمية، فمما أكد عليه المؤرخون[١٢].

كانت الدولتان تتبادلان الوفود وتحترمان علاقاتهما الودية وما بينهما من معاهدات وإتفاقيات، الى أن حدثت مشكلة الرها (أورفا) نتيجة بسط البيزنطيين سيطرتهم عليها سنة (٤٢٢هـ = ١٠٣١م). وأدى ذلك الى تهديد السلام في مناطق الحدود والى إشتباكات عديدة بين القوات الكُردية والبيزنطية... كانت مدينة (الرها) صاحبة المقام المرموق في التاريخ المسيحي في يد رجل من بني نمير يدعى (عطير)، فأخرجتها من يده القوات الدوستكية بقيادة (زنك) بن أوان، وذلك في سنة (٤١٦هـ

(١١) راجع ترجمة حياة المنازي في موضوع الحياة الثقافية.

(١٢) راجع إبن الأثير،ج٩، ص١٤٣. وإبن خلدون ٣٧١/٤. وإبن الوردي ٢٣٩/١. وأبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ١٦٥/٢. وإبن أبيك: كنز الدرر، ٣٣٣/٦. وإبن بطريق، ص٢٦٣. وإبن شداد الحلبي عزالدين أبو عبدالله محمد بن على بن إبراهيم المتوفي سنة ٦٨٤هـ (١٢٨٥- ١٢٨٦م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (قسم الجزيرة نسخة في مكتبتي مصورة على نسخة مكتبة بودليان المخطوطة المرقمة (٣٣٣)، كان هذا القسم يعرف سابقاً بـ"مخطوطة مارش/ لمؤلف مجهول" حيث لم يُعرف إسمها وإسم مؤلفها ثم عُرفا بعد ذلك وطبعت في سورية لذلك ذكرتهما في الطبعة الأولى بإسم "مخطوطة مارش"). ألف إبن شداد كتابه سنة ٦٧٩هـ وكتبت النسخة سنة (٧٨٩هـ = ١٣٨٧م) من قبل (سليمان بن غازي بن محمد بن أبي بكر الأيوبي)، على ماهو مكتوب في نهايتها. وسليمان هذا هو أحد الأمراء الكُرد من الفرع الأيوبي الحاكم في مدينة حصن كيفا (حسنكيف - ئەسكيف). وكان هذا الأمير عالماً وشاعراً، حكم إمارة حصن كيفا من سنة (١٣٧٤ - ١٤٢٤م). وفي (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ص ٤٧٠ - ٤٧٧) لأحمد بن إبراهيم الحنبلي، ترجمة لهذا الأمير الكُردي وقال له علوم غزيرة وديوان شعر توفي(٨٢٧هـ = ١٤٢٤م)، وذكر بعض قصائده، وكان يلقب بالملك العادل أبي المفاخر. وقد ألف الحنبلي كتابه هذا للملك الأشرف أحمد بن سليمان. أما الموسيقار مظفر بن حسين الحصكفي (من سكان حصن كيفا)، فقد ألف للأمير كتابه في الموسيقى والأنغام المسمى (رسالة الكشاف في علم الأنغام) وهو مخطوط عندي نسخة مصورة منه. نظراً لأهمية معرفة كاتب مخطوطة قسم الجزيرة من(الأعلاق الخطيرة) زودت مكتبة بودليان بهذه المعلومات لتضيفها الى النسخة. للأمير سليمان ترجمة في (تاريخ طورعبدين ص ٣٥٦) للبطريرك أفرام برصوم، وله ذكر في (تاريخ الدول والأسرات الحاكمة ص ١٥٢) للدكتور أحمد السعيد (والأسرات الحاكمة) لزامباور وفيه خطأ في وضع تاريخ (٨٧٠) أمام إسمه.

= ١٠٢٥م) بناءً على طلب من سكانها للخلاص من ظلم عطير. ثم إن نصرالدولة سلم المدينة الى إبن عطير وإبن شبل، وذلك بتوسط من صالح بن مرداس. ولما باع إبن عطير حصته للبيزنطيين، وضع هؤلاء أيديهم على المدينة كلها، وذلك في عهد الإمبراطور رومانوس الثالث (١٠٢٨- ١٠٣٤م). فإضطرت الدولة الدوستكية الى الدفاع عن (الرها- أورفه) وإخراج البيزنطيين منها، مع ما هناك من إحتمال كونها كانت تحت السيطرة الدوستكية. ولوأنها سلمت المدينة الى إبن عطير، والراجح عندي أن إبن شبل كان نائباً لنصرالدولة في الرها وإنه هو أبو الفوارس أحمد بن شبل بن إبراهيم الذي كان أميراً بارزاً في الدولة، فكانا يحكمان المدينة(١٣).

وفضلاً عن هذا، فإن سيطرة الدولة البيزنطية على الرها شكلت تهديداً على الدولة الدوستكية، لأن إمتداد نفوذها الى هذه المسافة جنوب وشرق نهر الفرات يودي الى تطويق الدولة الدوستكية من الغرب، إضافة الى كونها كانت مطوقة أصلاً من الشمال والشمال الشرقي بالدولة البيزنطية. فالإمارات الأرمنية المحيطة بها كانت مرتبطة بالدولة البيزنطية، كما إن سيطرتها عليها كانت تشكل حاجزاً بين الدولة الدوستكية وشمال سورية وتهدد الطريق الرئيسي، الذي كان يربط بين العراق وكُردستان الجنوبية وموصل وبين سورية، والذي سيأتي البحث عن وصفه وأهميته في موضوع "التجارة". وكذلك إن بقاء الرها (أورفا) في أيدي البيزنطيين كان خطراً يهدد الإمارة النميرية ومنطقة الجزيرة كلها وشمال سورية، إذا ما إتخذوها قاعدة عسكرية أمامية قوية.

ولهذا السبب أرسل الملك الدوستكي نصرالدولة الى الرها في السنة المذكورة جيشاً إستطاع بمساندة بعض من النميريين أن يفتحها سوى قلعتين إعتصم بها الجنود البيزنطيون. بيد أن الدولة البيزنطية أرسلت جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل الى الرها وإنتصر على القوات الدوستكية في المعركة التي دارت بينهما وأحكم سيطرته على المدينة. بعدها تصالح الأمير النميري (إبن وثاب) مع البيزنطيين على حران وسروج. ثم هاجم الطرفان الأراضي الدوستكية سنة (٤٢٦هـ)، إلا أنهما تراجعا أمام القوات الدوستكية. كما إتخذ نصرالدولة إستعدادات كبيرة للزحف على الرها مرة أخرى، حيث حشد قواتاً ضخمة وتجمعت لديه نجدات عسكرية من أصدقائه كالأمير العقيلي قرواش بن المقلد. ولكنه تراجع عن خطته إثر تقديم الإمبراطور البيزنطي (ميخائيل الرابع) (١٠٣٤-١٠٩١م) الإعتذار إليه مع الهدايا لتطييب قلبه وذلك رداً على رسالته. ولكن تلك الإتصالات لم تجد في وضع حد للأزمة، حيث تذكر المصادر التاريخية ان قوات نصرالدولة وإبن وثاب النميري، الذي رجع فإنضم الى نصرالدولة، هاجمت مدينة (السويداء) أي (سوێرەک)(١٤)، وإحتلتها في سنة (٤٢٧هـ = ١٠٣٦م).

كما إنها حاصرت مدينة الرها وحطمت القوة البيزنطية المتكونة من خمسة آلاف مقاتل، والتي

(١٣) ذكره الفارقي، ص١٨٠، وقال إنه كان زوج الست زبيدة بنت نصرالدولة، وإن مدينة أرزن إقطاع له. وذكر في (ص ١٨٨) إنه كان لزبيدة ولد إسمه أحمد.

(١٤) إبن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٥٥، حوادث سنة ٤٢٦هـ. محمد أمين زكي، الدول والإمارات الكُردية. إبن الوردي، تاريخ إبن الوردي، ج١، ص٤٢٧.

جاءت لفك الحصار دون أن تتمكن من تحريرها، حيث أقبل إحسان بن جراح الطائي على رأس قواته العربية وقوات بيزنطية للحيلولة دون ذلك(١٥).

والجدير بالذكر أن كنيسة (الرها) التي إعتبرت من عجائب الدنيا السبع قد أُحرقت في هذه الأحداث، فكانت خسارة تاريخية لكونها بناية دينية قديمة كانت روعة في فن العمارة والزخرفة.

هذا وقبيل الفترة التي توسع فيها نفوذ البيزنطيين الى مسافة في شرقي الفرات بإقليم الجزيرة، كان نفوذهم الفعلي قد توسع الى الشرق من بحيرة (وان). حيث سلمت (إمارة واسبوركان) الأرذرونية الأرمنية عام (١٠٢١-٤١٢هـ) بلادها إليهم وهاجر قسم من سكانها الى غرب الفرات، فإزداد النفوذ الأرمني فيما وراء نهر الفرات وإقليم (كبادوكيا)(١٦).

كما إستولى البيزنطيون سنة (٤٢٥هـ = ١٠٣٤م) على مدينة مرادية (بەرگری)، التي كانت تابعة للدولة الروادية الكُردية، غير أن الأخيرة إسترجعتها سنة (٤٣٠هـ = ١٠٣٩م)(١٧). ويظهر أن التفاهم والسلام قد حلا بين الدولتين وعادت العلاقات الى مجراها الطبيعي. فبعد أن فشلت محاولات نصرالدولة لتحرير الرها رضخ للأمر الواقع. ولم نجد أي إصطدام مسلح بين الطرفين بعد إنتهاء مشكلة الرها. ولكن حدث إعتداء بيزنطي على الحدود الدوستكية أدى الى إحتلال ملازگر، ولكن لا أستطيع أن أحدد تاريخ ذلك، فكل ما نعلمه هو إن الإحتلال حدث قبل سنة (٤٤٦هـ = ١٠٥٤م)، بدليل إن الملك السلجوقي طغرل حاصر هذه المدينة في هذه السنة وكانت تحت السيطرة البيزنطية(١٨). كما إستولت الدولة البيزنطية على مدينة دوستكية أخرى وهي مدينة أرديش (أرجيش)، وهذا إن صح ماقاله سعيد بن بطريق من أن بسليوس إستولى على هذه المدينة سنة (٤١٥هـ = ١٠٢٤م)(١٩)، ولكني غير مقتنع من صحة قوله.

هذا وفي عهد الإمبراطور قسطنطين التاسع قام أصفر التغلبي من منطقة رأس العين أو سروج بغارات على الحدود البيزنطية المتاخمة لُكردستان، مما أدى الى إزعاج الإمبراطور وتوجيهه كتاباً شديد اللّهجة الى نصرالدولة سنة (٤٣٩هـ = ١٠٤٨م)، جعله فيه مسوولاً عن أعمال أصغر وقال في كتابه: "إن كنت قد رجعت عن المهادنة فعرفنا لندبّر أمرنا بحسبه"(٢٠). فإهتم نصرالدولة بالأمر وإستطاع أن يعتقل أصفر بواسطة جماعة من النميريين ويتخلص منه، وكان أصفر يدعي بأنه مصلح ديني ومن المذكورين في الكتب السماوية(٢١).

(١٥) الكامل، ج٩، ص١٥٥.

(١٦) راجع موضوع العلاقات مع الشعب الأرمني. الكامل، ج٩، ص٤٣٧. طبعة بيروت. راجع التفاصيل في الجزء الأول من الدولة الدوستكية ص١٨٥-١٨٨ وص ٢٠٢-٢١١. وهناك صورة لمدينة أورفا وبرجها الأثري مع صورة لمقام إبراهيم الخليل وصورة لآثار حران.

(١٧) و(١٨) إبن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢٠٧. مدينة (مرادية) وإسمها الحقيقي الكُردي (بەرگری) وهي مركز قضاء تابع لولاية (وان) حالياً. إبن الوردي، ج١، ص٣٥٤.

(١٩) إبن بطريق، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، ص٢٤٤.

(٢٠) إبن الأثير، ج٩، ص١٨٦. راجع إبن الجوزي، المنتظم، ج٨، ص ١٣٨.

ويُستفاد مما تقدم أن الدولة الدوستكية كانت وبموجب هدنة بينها وبين الدولة البيزنطية (ولعلها عُقدت بعد حوادث الرها)، مسوولة عن حفظ الأمن في الأراضي الواقعة شرقي الفرات، أو بتعبير آخر في منطقة حدود الدولتين. لقد عظُمَ شأن نصرالدولة عند الإمبراطور قسطنطين، حينما أطلق الملك طغرل سنة (٤٤١هـ = ١٠٤٩م) سراح أسيره ملك (الأبخاز) بتوسط نصرالدولة، الذي أرسل الى طغرل مندوبه شيخ الإسلام (أبا عبدالله بن مروان) لعرض وساطته عليه. وكان الإمبراطور إتخذ نصرالدولة وسيطاً لهذه الغاية(٢٢). وعندما هاجم طغرل الحدود البيزنطية شمال بحيرة وان وحاصر ملازگر (منازجرد)، أرسل إليه نصرالدولة قوة عسكرية، إلا أن ذلك لم يكن موجهاً في الحقيقة الى العلاقات الودية القائمة بين الدولتين الدوستكية والبيزنطية، وإنما كان خوفاً من نقمة الملك السلجوقي.

وهكذا إستمرت العلاقات الطيبة بين الدولتين في عهد الملكين نظام الدين وإبنه ناصرالدولة منصور، إذ لم نجد في المصادر التاريخية ما يلمح الى أي توتر في العلاقات سواء كان تصادماً مسلحاً أو إعتداءاً من أحد الطرفين، بل المتوقع إزدياد التعاطف بينهما حينما طغى النفوذ السلجوقي في كُردستان العراق وأصبح يهدد الدولتين. فالدولة البيزنطية لم تكن تطمع بعد في أي توسع في أراضي الدول الصغيرة المجاورة لها، أو الدخول في عداء معها، لأن الدولة السلجوقية أصبحت عدوها اللدود ومصدر مخاوفها، لاسيما بعد وقعة(ملازگر) التاريخية، التي حطم فيها (آلب أرسلان) السلجوقي سنة (٤٦٣هـ = ١٠٧١م) خيرة القوات البيزنطية وأسر الإمبراطور رومانوس الرابع.

أما العلاقات والروابط الإقتصادية بين كُردستان الوسطى والبلاد البيزنطية، فكانت هي الأخرى على مستوى رفيع. فقد كانت ترد الى كُردستان كميات غير قليلة من المنتجات والبضائع البيزنطية التي كان قسم منها يُصرف في كُردستان، بينما كان التجار ينقلون القسم الآخر الى أسواق الموصل وبغداد وغيرها عن طريق (نهر دجلة) بشكل رئيسي وذلك بواسطة الأكلاك.

وكانت مدينة دياربكر(آمد) الواقعة على ضفة نهر دجلة، وبحكم موقعها الجغرافي ومركزها التجاري، محطةً مهمة لنقل المنتجات الكُردية والشرقية الى آسيا الصغرى. وكانت تلك المدينة سوقاً رئيسية في كُردستان لإستقبال التجارة البيزنطية، حيث كان التجار الكُرد وغيرهم ينقلون المصنوعات والبضائع البيزنطية من دياربكر الى أسواق بغداد في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، حسبما

(٢١) أورد أبو العلاء المعري ذكر أصفر التغلبي في ديوانه (لزوم ما لايلزم، ج٢، ص٦٤٣) في قصيدة بعنوان (كل عقل نبي)، وأشار الى الأعمال السيئة التي كان يقوم بها وتغريره بالناس البسطاء، وقد ورد في قصيدته:

غرَّكم بالخلاف أصفر قيس برهةً ثم أصفر تغلبي

ومطلعها:

صفريء من بعد رجبي فأنظرن أين جاء ذاك الحبي

والجدير بالذكر أنه ورد في الديوان "ثعلبي" بدل تغلبي، وهو خطأ مطبعي وإسم "أصفر" بالفاء.

(٢٢) إبن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٢٠٨.

ذكره المقدسي الذي عاش في القرن المذكور، حيث قال بصدد أموال التجارة التي كانت تصل الى بغداد: "... ومن آمد ثياب الصوف والكتان الرومية على عمل الصقلي"(٢٣). وقد أشار (إبن حوقل) معاصر المقدسي الى التجارة البيزنطية (الرومية)، التي كانت ترد الى كُردستان. فقد ذكر أثناء حديثه عن أهمية جزيرة بوتان (جزيرة إبن عمر) التجارية: إن هذه المدينة الواقعة على ضفة (دجلة) محطة للتجارة البيزنطية والأرمنية...(٢٤).

أما مدينة نصيبين (نسيبين)، فحديثها مشهور في كونها محطة لنقل التجارة الشرقية الى البلدان الغربية قبل الميلاد، وقد ورد إسمها في الإتفاقيات التجارية بين الفرس والرومان(٢٥).

ولا بد إن التجارة البرية من والى البلاد البيزنطية قد نشطت عن طريق كُردستان وسورية في العهد الدوستكي، لاسيما عن طريق كُردستان. والسبب كون ذلك الطريق أسلم الطرق للقوافل التجارية لإستتباب الأمن والإستقرار في الدولة الدوستكية وعلاقاتها الودية مع الدولة البيزنطية. في حين أن هذين العاملين لم يكونا بنفس المستوى في شمال سورية أي نصيبين - حلب - الرقة - آسيا الصغرى (الأناضول) كما هو معلوم من تاريخ المنطقة في القرنين الرابع والخامس الهجريين.

هذا فضلاً عن إن الذي ذكرناه ينطبق على ما قبل سنة (٤٢٢هـ = ١٠٣٢م)، أي قبل سيطرة الدولة البيزنطية على الرها. فبعد إمتداد نفوذ تلك الدولة إليها أصبحت طريق نصيبين - الرها أقرب الطرق التجارية وأقصرها. كما ينطبق ذلك على فترة توسع السلاجقة في عهد آلب أرسلان في بلاد الشام وإحتلالهم بعض الأراضي البيزنطية المجاورة لشمال سورية، لأنهم بعد تغلغلهم هناك عرقلوا المواصلات وشلوا الحركة التجارية مع الدولة البيزنطية. وأخيراً فإن التعامل الواسع بالدينار البيزنطي في كُردستان الوسطى في العهد الدوستكي لهو خير دليل على الروابط والعلاقات الإقتصادية بين الدولتين الدوستكية والبيزنطية(٢٦).

(٢٣) محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٤٠.

(٢٤) إبن حوقل محمد بن علي النصيبي، صورة الأرض، ص٢٢٤.

(٢٥) نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية، ص ٢٧٠. ستيفن رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ١٩٦.

(٢٦) راجع موضوع النظام المالي.

العلاقات مع الدولة السلجوقية

إن تاريخ وصول أولى طلائع السلاجقة(١) الى كُردستان الوسطى كان في عام (٤٣٣هـ = ١٠٤١م)، حيث دخلت القبيلة السلجوقية المعروفة بالغز (أوغوز) الى البلاد الدوستكية وقامت فيها بأعمال السلب والنهب، وكان من نتائج تلك الغارة بداية الإتصالات بين الدولة الدوستكية والسلجوقية. فقد أرسل نصرالدولة كتاباً الى السلطان طغرل يشتكي من إغارة الغز على بلاده وإقترافهم أعمالاً شنيعة في السلب والنهب والتخريب... فرد طغرل على رسالته بأخرى رقيقة أظهر فيها العطف والتقدير نحو رسالته وجاء فيها:

"بلغني أن عبيدنا قصدوا بلادكم وأنك صانعتهم بمال بذلته لهم وأنت صاحب ثغر ينبغي أن تعطى ما تستعين به على قتال الكفار"(٢)، ووعده بأنه سيرسل من يطرد الغز من بلاده. ولم نعثر على إتصال آخر بعد التاريخ المذكور الى سنة (٤٤١هـ = ١٠٤٩م). ففي هذه السنة أوفد نصرالدولة مندوبه الشيخ أبا عبداللّه بن مروان لعرض وساطته عليه في إطلاق سراح ملك الأبخاز (قاريط)، وكان إبراهيم ينال قد أسره في إحدى حملاته على قفقاسيا، فأطلق طغرل سراحه دون مقابل(٣) إحتراماً لنصرالدولة وإستجلاباً لصداقته، ولعله كان ينوي تكليفه بالإنضمام إليه وربطه بحمايته. وقد تحقق له ذلك حيث أعلن رسمياً في نفس السنة تبعيته له. وشعار ذلك هو إقامة الخطبة لطغرل في بلاده(٤). أما الأسباب التي دفعت بنصرالدولة الى ذلك، في الوقت الذي كان نفوذ السلاجقة بعيداً عن بلاده ولم يعبر بعد جبال (زاگروس) ولم يصل حتى الى كُردستان الجنوبية والعراق وأذربيجان، فمجهولة بالنسبة إليّ. ورغم إهتمامي بهذه النقطة الحساسة من تاريخ الدولة الدوستكية وتاريخ علاقاتها مع الدولة السلجوقية، إلا أنني لم أستطع أن أستنتج لها سبباً مقبولاً من خلال دراسة

(١) السلاجقة شعب طوراني نزح في القرن الربع الهجري (العاشر الميلادي) من أواسط آسيا الى الشرق الأوسط وإعتنق الإسلام وعُرف بهذا الإسم نسبة الى زعيمه (سلجوق). كان السلاجقة قوماً ذوي بأس شديد متصفين بالشجاعة والصلابة، إستولوا على إقليم خراسان (أي أفغانستان) وإيران والعراق وكُردستان وبلاد الشام. وتوسعوا في آسيا الصغرى ومهدوا السبيل للأتراك العثمانيين للقضاء على الدولة البيزنطية. وقد لعب السلاجقة دوراً مهماً في سياسة الشرق الأوسط، ويعتبر (طغرلبگ بن ميكائيل بن سلجوق) المؤسس الحقيقي للدولة السلجوقية، التي بلغت أوج عزها في عهد آلب أرسلان وإبنه ملكشاه. وبعد وفاة الأخير كثرت الخلافات العائلية على الحكم مما أدى الى ضعف الدولة الى أن زالت عن الوجود في إيران والعراق وكُردستان.

(٢) إبن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٣٤. إبن خلدون، العبر، ج٤، ص ٢٦٠. محمد أمين زكي، الدول والإمارات الكُردية ص١٣٦-١٣٩.(الثغر) الحدود أي يقصد بها حدود بلاد إسلامية متاخمة لحدود دولة غير إسلامية، كالمناطق الكُردية المتاخمة للدولة البيزنطية.

(٣) الكامل، ج١٠. ص ٢٨. راجع أيضاً بصدد أسر قاريط زيني دحلان، الفتوحات الإسلامية. ص ٣٣٨.

(٤) الكامل، ج١٠, ص ٥٥٦، طبعة بيروت. وفي Turkiye Anasiklopedisi ج١٣, ص ٣٨٤. ان الخضوع للدولة السلجوقية كان في سنة ١٠٤٧م (٤٣٩هـ) وهو غير صحيح.

الظروف الداخلية والخارجية للدولة الدوستكية. إذ لم أجد في أي من المصادر التاريخية ما يلمح الى وجود خطر خارجي على الدولة الدوستكية من قبل الدولة البيزنطية أو إحدى جاراتها في التاريخ المذكور، حتى يصح القول بأن نصرالدولة إضطر بسببه الى ربط دولته رسمياً بالدولة السلجوقية للإحتماء بها. وهذا على الرغم من إعتذاره للشيرازي بأنه أطاع السلاجقة "درءً لنفسه ومداراة لوقته".

أما توجيه الإمبراطور قسطنطين التهديد الى نصرالدولة قبل ذلك بسنتين بسبب أعمال (أصفر التغلبي) في الحدود البيزنطية وتوتر العلاقات بينه وبين الأمير قرواش سنة (٤٤٠هـ = ١٠٤٨م)، فلا أظن بأنهما دفعا بنصرالدولة لأن يكون أول من يقدم الطاعة للسلجوقيين بين ملوك المنطقة الصغار كإبن عقيل وقرواش والأميرين الكُرديين الروادي والشدادي، وذلك لأنه كان قد حل خلافاته مع قسطنطين وقرواش. فأما أن يكون إستباق نصرالدولة الى تقديم الطاعة للدولة السلجوقية بعد نظر منه وتنبوءً بالمستقبل القريب الذي سيجعل من السلاجقة سادة الشرق ويخسف بالدولة البويهية الى الزوال، أو أنه أراد أن يتقوى أمام الدولة البيزنطية وغيرها، أو أن ذلك خطأ إرتكبه إعترف به في كتابه الذي أرسلة سنة (٤٤٨هـ = ١٠٥٦م) الى (المؤيد في الدين الشيرازي) ممثل الدولة الفاطمية في حركة (أبي الحارث البساسيري). فقد أشار الشيرازي الى بعض محتويات كتاب نصرالدولة في كتابه الجوابي الطويل، إذ ذكر نصرالدولة في كتابه: "انه كان في جملة من أجاب التركمانية الطاغية درءً لنفسه ومداراةً لوقته ظناً أنهم من أجناس البشر الذين يرعون حرمة ويرقبون في مؤمن إلاً وذمة، فكشف له الزمان عن شرهم وظلمهم وجورهم وإطلاقهم الأيدي في الأموال والحريم...ما إقتضى التخلي عنهم والبراءة... منهم"(٥).

قد وأكد المؤيد إن نصرالدولة كان أول من قدم الطاعة في المنطقة للسلاجقة ومد نفوذهم الى بلاده، ثم ندم لما علم أنهم يطمعون في الإستيلاء على بلاده، حيث قال:

"وكان إبن مروان أول من إستجاب للدولة التركمانية في الديار وشرع في سطوع دخان هذا النار، فشخصوا بأبصارهم الى معاقله وحصونه ينصبون عليها في حيلة التملك الإرصاد وسلم المكر والفساد. وطار كرى الطمأنينة لما أحس ذلك من عينيه وعلم أنهم يحسنون المناغصة (المخاصمة) فيما يؤدي الى حينه، فنفض عن الرصد أمر مرابطها من الأعاجم قدمهم والأحداث ولم يدع بها إلا من لاتطول اليه يد الشبهة ولا يقع في كفة ميزان الظنة"(٦).

هذا وإنما أتيت بهذا المقتطف من كلام المؤيد الشيرازي لأنني أستنتجت منه نقطة هامة لم يشر إليها أي مصدر تاريخي، إذ يشير بقوله: "ينصبون عليها في حيلة التملك الإرصاد... " وقوله "فنفض (أي نصرالدولة) عن الرصد أمر مرابطها من الأعاجم... ."الخ". هو أن نصرالدولة جاء بمرتزقة من السلاجقة وجعلهم حراساً في المناطق الحدودية، أو أن الدولة السلجوقية أقنعت نصرالدولة بالسماح لقوات

(٥) سيرة المؤيد، ص١٠٨. خطاب المؤيد الى نصرالدولة.

(٦) سيرة المؤيد، ص ١٣٧.

سلجوقية بالمجيء الى بلاده لحراسة الحدود الدوستكية المتاخمة للدولة البيزنطية. غير إن نصرالدولة لما عرف بسوء نوايا السلاجقة وأطماعهم في بلاده قام بحملة تطهيرية في (الأعاجم)، أي في صفوف أولئك السلاجقة، فطرد من إشتبه بهم منهم أو طردهم كلهم ولكن لا نعلم متى أرسلت الدولة السلجوقية تلك القوات أو متى قدم أولئك السلاجقة الى الحدود الدوستكية - البيزنطية. وهذا يذكّرني بما قاله إبن الأثير من أن الملك البويهي (أبا كاليجار) توجه سنة (٤٣٩هـ = ١٠٤٧م) الى دياربكر لطرد السلاجقة الموجودين هناك، وإن الملك طغرلبگ أخذ يهدد الملك البويهي لإيقاعه بأصحابه في دياربكر(٧).

بعد أن تبين لنصرالدولة ظلم السلاجقة ونواياهم السيئة تمنى التخلص من نفوذهم وتبعيته لهم، ولكنه كان يخاف من قوتهم وبطشهم. فقد كان غير واثق من نجاح حركة البساسيري وصمودها أمامهم، ولهذا فإنه في الوقت الذي أرسل فيه مندوبه (الشيخ أبي حسن بن بشر) الى مصر وتوالت إتصالاته بممثل الدولة الفاطمية المؤيد في الدين، لم يقطع إتصالاته نهائياً بالدولة السلجوقية. إذ لم يقطع خطبة الملك السلجوقي رغم ضغط الجانب الفاطمي متخذاً بذلك طريقاً للإنسحاب في حالة إنتصار السلاجقة. فكان موقفه من النزاع ما مر ذكره بإسهاب، غير إن طغرل لم يقبل من نصرالدولة إتصالاته وتفاوضه مع الجانب الفاطمي وإرسال بعض قواته بعد (معركة سنجار) للإشتراك في الحركة، ولهذا فإنه إثر نجاحه في شلّ القوات الموالية للدولة الفاطمية، أي قوات البساسيري سنة (٤٤٩هـ = ١٠٥٧م) وإلقائه مئات من الأسرى العرب تحت أرجل الخيل وقتلهم بهذا الأسلوب الشنيع في نصيبين، توجه نحو البلاد الدوستكية للإنتقام من نصرالدولة وحاصر مدينة الجزيرة(٨).

أما نصرالدولة، فقد إستخدم إمكانيته المالية والدبلوماسية لإقناع الملك السلجوقي بأعذاره والخروج من بين يديه سالماً. فأرسل إليه مبالغ نقدية ضخمة وهدايا. ولكنه كان قد إتخذ أيضاً تدابير للمقاومة إذا ما دعت الضرورة، وذلك في حال عدم نجاح طريقته السلمية وفي حالة تصميم الملك السلجوقي على إحتلال كُردستان الوسطى. فقد إتصل نصرالدولة بالممثل الفاطمي وطلب منه المساعدة العسكرية، فأمر الأخير (إبن الوثاب) النميري بحشد قواته وأرسل الى أبي الحارث البساسيري للتهيؤ لمساعدة نصرالدولة، كما أطلع نصرالدولة على تلبية طلبه. غير أنه نجح في مفاوضاته مع طغرل بقوة المال، ففك هذا الحصار عن (جزيرة بوتان) ورجع عن البلاد الدوستكية. ولنسمع من المؤيد، وهو في غمرة الأحداث، يسرد علينا ما كتبه في هذا الصدد وهو ينتقد نصرالدولة على موقفه إنتقاداً لاذعاً:

(٧) إبن الأثير، الكامل، ج٨، ص٤٦. طبعة القاهرة. يحتمل أن نصرالدولة إستخدم في سلك قواته المسلحة مرتزقة سلجوقيين لا عن طريق إرسال الدولة السلجوقية إياهم إرسالاً مباشراً.

(٨) إبن خلدون، العبر، ج٤، ٣١٩. إبن الأثير، الكامل، ج٩، ص ٢١١. تاريخ إبن الوردي، ج١، ص ٣٥٧. الدكتور علي أكبر، تاريخ إسلام ،ص٢٤٧ باللغة الفارسية. من الجدير بالذكر هنا التنبيه الى أن إبن الأثير ذكر الحادثة في حوادث سنة ٤٤٨هـ، ولكنه نبه على أنها كانت في السنة التالية. أما على أكبر، فقد ذكرها في سنة ٤٤٧هـ وأضاف الى أنه توجه الى دياربكر بعد أن أخذ الموصل من المروانيين فوقع هنا في خطأين.

"... وكان التركماني (أي طغرل) بعد أن فلَّ الجمع بحد مكرهِ لا بحد سيفه، أصعد الى دياربكر ليعصر (إبن مروان) عصرةً يستخلص بها دهنه، فإتصلت كتبه ورسله يقول: "أدركوني من قبل التمزيق وخلصوني من هذا المضيق". فأصعدت الى تلقاء (الرقة) فإستدعيت إبن وثاب ووافقته على الإحتفال والإحتشاد وجمع العشيرة ليرحل أبو الحارث في أتراكه وعربه وأكراده ويعبروا الفرات وتجمع الجموع لميقات يوم معلوم في مكان معلوم، لينفروا الى التركماني خفافاً وثقالاً مستظهرين عليه بحول اللّه وقوته ومتكلين عليه إتكالاً.

ولما تحرر هذا الأمر كاتبت إبن مروان بمشروع هذا التقرير، وأبا الحارث في معنى الحث على المسير. فورد الكتاب على إبن مروان وقد علقت النار ذيله ونال منه الدعك (أي الخصم) نيله، ولم يكن له جنان يصابره على الخسف والتوقع لأن يغسل عنه العار بالسيف، فجعل يمسك رسلنا على تواليهم عنده ويعقد للسلم مع التركماني عقده، بأن يخرج كرائم ما يملكه إتاوة ولا يباشر كريهة الحرب ما يجعل على بصره غشاوة، وذلك دأب طلاب السلام وأصحاب الزاوية والعافية"(٩).

ولما علم أبو الحارث البساسيري الذي تهيأ لمساعدة نصرالدولة بمفاوضاته مع طغرل، رجع من الرحبة الى (بالس) على مسافة يومين شرق حلب ومعه قريش بن بدران العقيلي. ورجع المؤيد الى حلب ومنها عاد الى مصر. أما السلاجقة فقد عاثوا في المنطقة فساداً وإلتفوا حول البلاد الدوستكية جنوباً وغرباً وشمالاً ووصلوا الى مدينة ملاطية ونهبوها وقتلوا فيها عشرة آلاف شخص(١٠).

وفي عهد الأمير نظام الدين تدخلت الدولة السلجوقية في الخلافات التي نشبت بينه وبين أخيه الأمير سعيد الذي لجأ إليها. ففي المرة الأولى أرسل طغرل قواتاً سلجوقية مع الأمير سعيد الى فارقين، ثم رجعت تلك القوات إثر حل الخلاف وبعد أن دفع نظام الدين مبلغ (خمسين ألف) دينار لقائدها. وفي المرة الثانية عاد الأمير سعيد بمعية السلطان آلب أرسلان سنة (٤٦٣هـ = ١٠٧١م)، وكان السلطان قد وعده بإزاحة أخيه عن الحكم وجعله في مكانه، غير إن الوزير نظام الملك الطوسي أقنع السلطان بالعدول عن رأيه، وكان السلطان نازلاً في الحرشفية بقرب دياربكر وإنتهى الخلاف بإقطاع الأمير سعيد مدينة دياربكر(١١). وكان السلاجقة يطمعون في خيرات كُردستان الوسطى وأموال ومجوهرات العائلة الدوستكية الحاكمة، وكانوا يستحصلون من الدولة الدوستكية بين حين وآخر مبالغ من النقود. فقد قدم نصرالدولة الى طغرل مرة (١٠٠) ألف دينار. كما أرسل السلطان السلجوقي الأمير الكُردي أبا الهيجاء إبن موسك صاحب أربيل الى الأمير نظام الدين او إبنه

(٩) سيرة المؤيد، ص ١٦٩.

(١٠) تاريخ الرهاوي المجهول، ص ٢٣. نسخة مطبوعة بالآلة الطابعة بمجمع اللغة السريانية ببغداد. رنسيمان، الحروب الصليبية، ج١،ص ٩٤.

(١١) الفارقي، ص ١٨١. في تاريخ دولة آل سلجوق، ص٣٩، لعماد الدين الأصفهاني. إختصار الفتح بن علي البنداري، أن نظام الدين قدم الى آلب أرسلان مائة ألف دينار فقبلها. وقيل أنه لما علم أن نظام الدين جمع ذلك المبلغ من الناس لم يقبله ورده إليه.

ناصرالدولة، طالباً منه مبلغ (٣٠) ألف دينار(١٢).

وحينما قطع عنهم ناصرالدولة ببخله الشديد الهدايا والأموال، التي تعودوا إستلام مثلها من أسلافه. إشتد غضب السلطان ملكشاه لاسيما بعد رفض الإستجابة لطلبه بإهدائه سبحة جده نصرالدولة التي كانت أثمن وأغلى سبحة في التاريخ والتي تبلغ قيمتها (٢٢٥) ألف دينار وسيف الأمير البوتاني موسك بن المجلي المشهور(١٣). فما كان من ملكشاه إلا أن أرسل جيوشه الى كُردستان الوسطى سنة (٤٧٦هـ = ١٠٨٤م) لإحتلالها والقضاء على الدولة الدوستكية، وأخذ يعزز جيشاً بجيش الى أن إنتهى الدفاع المجيد، الذي لم يكن في حسبان السلطان ووزيره وذلك في سنة (٤٧٨هـ = ١٠٨٦م). وإثر وفاة ملكشاه في(شوال ٤٨٥هـ = ١٠٩٢م) وصل الأمير ناصرالدولة الى كُردستان من منفاه بالعراق وإسترجع العاصمة فارقين وأحيا الدولة، ولكن السلاجقة قضوا عليها بعد خمسة أو ستة أشهر وذلك في سنة ٤٨٦هـ = ١٠٩٤م)(١٤).

وكانت هذه هي حقيقة السياسة السلجوقية، التي تميزت بالقسوة إزاء شعوب البلدان التي وقعت تحت سيطرتهم من الحدود الصينية (تقريباً) الى البحر الأبيض المتوسط. وقد تميزت تلك السياسة بجعل خيرة المناطق المحتلة إقطاعات عسكرية للقواد السلاجقة، ولكن سياسة الب أرسلان وإبنه ملكشاه كانت لينة الى حد ما.

في ضوء هذه الحقيقة أرى بأن ما قاله المقدم عبدالوحيد الپاكستاني بصدد العلاقات السلجوقية – الكُردية غير صحيح. فقد ذكر في كتابه (الأكراد وبلادهم) أن فترة حكم السلاجقة...حقبة عظيمة من تاريخ الشعب الكُردي. وفي خلال حكم ملكشاه أخذ الحكام السلاجقة يتوددون الى القبائل الكردية. كما قال إنه خلال العصر السلجوقي لم تُشن أية حملة ضد الأكراد ما عدا المناوشات بين الفينة والفينة، وإن الوزير نظام الملك قد أقطع أغوات الأكراد أراض مستقلة وتمتع هؤلاء بالإستقلال التام

(١٢) أسامة بن المنقذ، الإعتبار، ص ٨٧، ٨٨. تحدث بذلك لأسامة الأمير فضل بن أبي الهيجاء وقال إن ملكشاه هو الذي أرسل والده الى إبن مروان لما وصل الى بلاد الشام. ولكنه لم يذكر من هو إبن مروان صاحب دياربكر، هل كان نظام الدين أم منصوراً؟ علماً بأني لم أجد في أي مصدر من المصادر التاريخية قيام ملكشاه بالسفر الى بلاد الشام في عهد نظام الدين أومنصور، ولعله كان غيره من السلاجقة البارزين أو تُتُش بن آلب أرسلان أو آلب أرسلان نفسه. وقال أسامة الذي ذكر الحادثة بعنوان: (تعقل صاحب دياربكر) أن إبن مروان أخّر أبا الهيجاء عنده لعدة أيام ثم سلمه المبلغ وقال له إني أخرتك إذ لو إستقبلت السلطان بهذا المبلغ لطلب مني حينما دنا من بلادي أضعاف ذلك فأردت أن يتجاوز السلطان من بلادي ثم تلحقه بالمبلغ كي لا يطلب المزيد.

(١٣) الفارقي، ص ٢١٨. راجع ذكر الأمير موسك في الدولة الدوستكية، ج١، ص٢٢٧. ورد في تاريخ الفارقي في وصف سيف موسك "يدب به البعير"، والصحيح يُقد به البعير أي يُقطع كما في مخطوطة الأعلاق الخطيرة (ورقة ٩٤).

(١٤) ذكر الفارقي في ص٢٣٤، أن الأمير ناصرالدولة دخل فارقين في أول سنة (٤٨٦هـ) وكانت مدة ولاية الأخير خمسة أشهر. بينما قال في (ص٢٣٦) أن (تُتُش بن آلب أرسلان) إحتل فارقين في ربيع الأول من نفس السنة. فعلى هذا أن مدة ولاية ناصرالدولة لاتبلغ خمسة أشهر. وقد ظهر لي أن تاريخ إحتلال تُتُش ورد خطأً، لأن إحتلاله لفارقين كان بعد إحتلاله لنصيبين في ربيع الأول من نفس السنة.

في شؤونهم الداخلية. ويضيف المقدم عبدالوحيد نقطة أخرى غريبة حينما يقول: إن النهضة الثقافية في العصر السلجوقي قد تركت أثراً طيباً على لغة الأكراد(١٥).

(١٥) للرد على هذه النقاط لاحاجة بنا لإعادة الكثير من المعلومات التي أسلفناها في هذا الكتاب، ويكفينا أن نستشهد على حقيقة السياسة السلجوقية نحو الشعب الكُردي، بقضاء السلاجقة على الحكومات الكُردية العنازية والشدادية والدوستكية، وسلخ أجزاء من الدولة الروادية وأهمها (تبريز) وتحديد مناطق نفوذها. وهكذا قضى السلاجقة على إستقلال كُردستان في ظل تلك الحكومات الكُردية وأخضعوا كُردستان لحكمهم المباشر، ماعدا الجزء الكُردي من أذربيجان الذي حكمته الدولة الروادية، والتي لم تعد منذ أواسط العهد السلجوقي تعتبر حكومة في الحقيقة بل إمارة فقط.

لعل الأمير تاج الملوك (هزارسپ بن بنكير بن عياض) المتوفي سنة ٤٦٢هـ هو الأمير الكُردي الوحيد الذي وسعت الدولة السلجوقية وهي في شرخ شبابها نفوذه، الى حد كبير مقابل خدماته وإخلاصه لها، فكان من كبار قادة طغرل وأمرائه المخلصين. ولهذا عينه طغرل سنة (٤٤٧هـ =١٠٥٥م) أميراً على مقاطعة اللور الكبير وخوزستان والبصرة وشيراز وضمنه تلك البلاد بـ(٣٦٠) ألف دينار سنوياً، وسمح له بالخطبة لنفسه في الأحواز فقط دون المناطق الأخرى الداخلة في نفوذه. وهذا على ما قاله إبن الأثير في (الكامل، ج٨، ص٤٤٧). كانت زوجة (هزارسب) أخت السلطان آلب أرسلان، كما ذكره إبن الأثير في حوادث سنة ٤٦٢هـ، وسعيد الديوه چي في تاريخ الموصل، ج١، ص١٦٧، ثم تزوجها بعد وفاته مسلم بن قريش العقيلي.

وبصدد كتاب (الأكراد وبلادهم)، الذي يعد أول كتاب يؤلف عن الكُرد في پاكستان والذي أطلعني عليه في هذه الأيام (آذار عام ١٩٧٢) الأخ السيد محمد نوري فتاح الكركوكي أمين المكتبة العامة في بعقوبة، في نطاق مساعداته المشكورة لنا بالمصادر، نقول إنه ألف سنة ١٩٥٤ وصدر أولاً باللغة الإنگليزية، ثم تُرجم الى العربية وقدم له محمد أيوب خان الرئيس السابق لپاكستان. ورغم وجود أخطاء كثيرة فيه مع ضعف أسلوبه، إلا أنه جدير بالإهتمام ولا سيما ما يذكره بخصوص قبيلتي (باويندا) و(غيلزاي) الكُرديتين على حد قوله في أفغانستان، وكذلك بخصوص تأكيده على أن شعب البلوج في پاكستان وإيران من أصل كوردي. ويقارن المؤلف بين قبائل كوردية وقبائل أفغانستان وپاكستان ويقول بالتشابه الكامل بين الكُرد وشعب (باتان – بختان)، الذي يسكن المنطقة الشمالية الغربية من پاكستان والذي يناضل منذ مدة في سبيل إستقلاله.

العلاقات مع الدولة العَقيلية

كانت الدولة العَقيلية[1] بالموصل دولة صغيرة مجاورة للدولة الدوستكية، وكانت تربط بينهما روابط سياسية وإقتصادية. وإذا ما تصفحنا تاريخ الدولتين لمسنا تلك الروابط. ففي المجال الإقتصادي كانت عاصمتها (الموصل)، مثل مدينة حلب في شمال سوريه، إحدى أسواق كُردستان. إذ كانت ترد إليها التجارة الكُردية والأرمنية عن طريق كُردستان لا في العهد الدوستكي فحسب، بل في شتى العصور التاريخية كذلك. والطرق التي كانت تربط بينهما بشكل رئيسي كانت ثلاثة: طريق دجلة المائي، طريق شرقي دجلة المار بالجزيرة وزاخو، وطريق نصيبين - الموصل هذا من جهة. ومن جهة أخرى كانت الموصل تزود كُردستان بالكثير من البضائع والأموال التجارية.

وأما من الناحية السياسية، فقد إتسمت العلاقات بين الدولتين بصورة عامة بالتعاطف والصداقة والتآزر، رغم ما كان يحدث بينهما أحياناً من التصادم نتيجة لأطماع العقيليين في الأراضي الدوستكية وتجاوزاتهم على حدودها.

ولما كانت للصداقة العقيلية أهمية كبيرة للدولة الدوستكية، فقد قوى الأمير نصرالدولة علاقاته بها عن طريق المصاهرة، حيث تزوج بـ(السيدة) بنت اللأمير قرواش بن المقلد، الذي تولى الحكم من سنة (٣٩١-٤٤٢هـ). وكان كل من الأميرين ينبري لمساعدة الآخر أثناء تعرضه لتهديد خارجي أو داخلي. ففي سنة (٤١٧هـ = ١٠٢٦م) قدم نصرالدولة مساعدة عسكرية لصهره قرواش ضد أخيه بدران المنازع له على الحكم[2]. وقد طمع بدران في نصيبين سنة (٤١٩هـ = ١٠٢٨م) وهاجمها وإشتبك مراراً بالقوات الدوستكية. ولما لم يرق لأخيه قرواش مهاجمة نصيبين وتكوين نفوذ له، فقد تحرك من الموصل لنجدة القوات الدوستكية غير أنه لم يدرك القتال بسبب تراجع بدران. وقد ذكر لنا إيليا برشنايا في تاريخه (ص٢٠٥) ما يدل على أن العلاقات بين الطرفين ساءت ونشب قتال بين

(١) لمع نجم بني عقيل العرب نتيجة مساعدة أميرهم محمد بن المسيب للحمدانيين في حربهم مع مؤسس الدولة الدوستكية الأمير (باد بن دوستك). وكان لمساعدته سنة (٣٨٠هـ = ٩٩٠م) أكبر الأثر في إلحاق الهزيمة بالجيش الكُردي وقتل الأمير باد على أبواب الموصل. وكان الحمدانيون قد وعدوا إبن المسيب مقابل مساعداته بإقطاعات منها مدينة الجزيرة ونصيبين في حالة إنتصارهم على الأمير الكُردي والقضاء على الدولة الدوستكية. ولكن لم تتحقق آمالهم حيث سحق الأمير أبو علي بن مروان جيشهم وأسر للمرة الثانية أبا عبدالله الحمداني. فوجد إبن المسيب فرصة مؤاتية فقتل أبا طاهر الحمداني بنصيبين وتوجه نحو الموصل وإحتلها وأسس دولته العقيلية، التي دامت من سنة ٣٨٠هـ حتى سنة ٤٨٩هـ. ولكن في فترات متقطعة نتيجة إحتلال أعدائهم لبلادهم مراراً. ولم تكن لدولتهم حدود ثابتة عدا حدودها المتصلة في الشمال بالحدود الدوستكية. وكان نفوذها في تمدد وتقلص بين حين وآخر. فقد توسعت حدودها في عهد المقلد بن المسيب (٣٨٦-٣٩١هـ) في الجنوب، كما توسعت في عهد مسلم بن قريش (٤٥٣-٤٧٨هـ) حتى شملت حلب وأعمالها. وكان نفوذها قد وصل نصيبين سنة ٤٢١هـ. وأخيراً قضى السلاجقة على الدولة العقيلية في عهد ملكشاه، كما قضوا على الدولة الدوستكية.

(٢) إبن الأثير، الكامل، حوادث السنة المذكورة.

الجانبين، تمكن خلاله القائد الدوستكي (عيسى بن خلاط) من أسر الأمير العقيلي في طورعبدين وجلبه الى فارقين مكبلاً بالقيود، وذلك في ٢٨ ذي القعدة سنة (٤٠٤هـ = ١٠١٣م). غير إن نصرالدولة قابله بالحسنى وأكرمه وأعاده الى دياره بسلام. هذا ومن المحتمل جداً أن الأمير العقيلي المذكور كان الأمير (بدران)، الذي كان يطمع في نصيبين أو في أراضٍ دوستكية أخرى، حيث كانت نصيبين في يده آنذاك.

وقد ذكر إيليا مطران نصيبين في تاريخه (ص ٢٠٥) ما يدل على أن نصيبين كانت تحت سيطرة أبي الفضل (بدران) بن حسام الدولة (مقلّد) سنة (٤٠٨هـ). حيث قاتل سكان نصيبين وتغلب عليهم وقتل منهم جماعة وصادر جماعة، وذلك بعد أن قتل سكانها (أبا الحسن بن يسرايل) الكاتب النصراني. فسخط لذلك على سكان نصيبين وبدأ في عمارة قلعتها في نفس السنة. ونستنتج مما قاله إيليا أن أبا الحسن كان نائباً لبدران في نصيبين أو كان في وظيفة أخرى من قبله، وأن سكان نصيبين ثاروا عليه وكانوا يريدون إعادة المدينة الى السلطة الدوستكية هرباً من ظلم بدران. ولست أدري كيف إستولي العقيليون على هذه المدينة التي كانت تحت السيطرة الدوستكية سنة (٣٩٧هـ). لأن ممهدالدولة ضرب النقود في تلك السنة، كما سيأتي ذلك في موضوع (العملة الدوستكية). كما توجد نقود للدولة العقيلية مسكوكة بنصيبين أيضاً بعد سنة الأربعمائة الهجرية. ومن المحتمل بأن العَقيليين قد إستولوا على المدينة سنة (٤٠١هـ) عند إضطراب الوضع، إثر مقتل ممهد الدولة. ويتضح من (مجالس إيليا)[٣] إن نصيبين كانت تحت السيطرة الدوستكية سنة (٤٧١هـ)، حيث ورد أن نصرالدولة زارها مرتين في تلك السنة، وكان وزيره أبو القاسم المغربي برفقته في إحداهما، وبأن الوزير أيضاً زار المدينة مرتين كانت زيارته الأولى في ٢٦ جمادى الأولى من تلك السنة، ومكث فيها خمسةً وخمسين يوماً في الزيارة الثانية. وقد خاض الوزير العالم مناقشات علمية مع إيليا، الذي دوّن تلك المناقشات بإسم (الرسائل الجدلية)، على ما مر بالتفصيل في الجزء الأول من ص١٩٠-١٩٥. وزارها أيضاً سنة (٤١٨هـ) لذا فمن المحتمل جداً بأن الدولة الدوستكية قد إسترجعت نصيبين سنة (٤١٧هـ)[٤].

(٣) مجالس إيليا: نسخة مخطوطة في مكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد تحت الرقم (١٠٦٨)، الورقة الأولى. ذكر إبن الأثير في الكامل: حوادث سنة (٤٧١هـ) أنه حدث قتال بين قرواش وبدران في منطقة (بلد)، وكان إبن مروان أي نصرالدولة قد ساند قرواشاً بقوات. وكان لبدران أيضاً مساندة من آخرين . لكن الفريقين تصالحا أثناء المعركة الضارية وسلّم قرواش مدينة نصيبين الى أخيه بدران. ومن المحتمل أن ذلك كان في أوائل السنة المذكورة، وأن نصرالدولة إستولى على المدينة إثر ذلك، حيث زارها الوزير أبي القاسم المغربي في شهر جمادى الأولى من السنة نفسها. أو أن المعركة وتسليم نصيبين الى بدران كانتا قبل السنة المذكورة، والرأي الأول هو الأرجح. لأن الزيارات المتكررة من نصرالدولة ووزيره في نفس السنة ومكوث الوزير فيها مرة ما يقارب الشهرين، توحي بوجود أمر هام ووجود أخطار. لقد نقل هذه الحادثة أستاذي سعيد الديوه چي في تاريخ الموصل، ج١، ص١٦٠. وخاشع المعاضيدي، دولة بني عقيل، ص١٢١. وذلك نقلاً عن إبن الأثير قوله أن نصرالدولة إستولى عليها سنة (٤١٨هـ)، وكان پاد الكُردي أعطاها مع الجزيرة لمحمد بن المسيب ليساعده في الحروب وهو غير صحيح.

(٤) في الأعلاق الخطيرة، ورقة ٤١، ان نصرالدولة إستولى عليها سنة (٤١٨ هـ) وكان پاد الكردي أعطاها مع الجزيرة لمحمد بن المسيّب ليساعده في الحروب ولكن هذا غير صحيح.

وكانت نصيبين تحت السيطرة الكُردية حتى سنة (٤٢١هـ = ١٠٣٠م) حيث جرد الأمير قرواش (من عاصمة الموصل) جيشاً بقيادة أخيه بدران لمحاصرة نصيبين كما جرد جيشاً آخر على مدينة الجزيرة وحاصرها ولكنهما فشلاً في النيل من المدينتين. وإثر هذا الفشل توجه بدران الى العاصمة الدوستكية معتذراً فسلم إليه نصرالدولة مدينة نصيبين كما أرسل خمسة عشر ألف دينار الى قرواش(٥).

وهكذا إنتهت الخلافات وعاد الوئام بين الطرفين حتى نرى الأمير العقيلي قرواش يرسل الى نصرالدولة قوات عسكرية لشد أزره، عندما أغار إبن الوثاب النميري والقوات البيزنطية في أورفا (الرها) على بلاده سنة (٤٢٦هـ = ١٠٣٤م). وأدت مساعدة العقيلي وغيره إضافة الى تحشدات القوات الكُردية الى هزيمة القوات المغيرة وتقديم الإمبراطور (ميخائيل الرابع) إعتذاراً الى نصرالدولة(٦). كما إن الأمير العقيلي وقف الى جانب الدولة الدوستكية عندما هددها نائب الدولة الفاطمية في بلاد الشام (أنوشتكين الدزبري) بالغزو، كما وقفت بجانبها الإمارة النميرية(٧).

فتكون لذلك من الأطراف الثلاث الحلف الثلاثي كما ذكرنا سابقاً. وفي سنة (٤٤١هـ) ساعد نصرالدولة والأمير الكُردي (أبي الحسن بن عيسكان) أمير عقره، قرواش في قتاله مع أخيه أبي كامل (بركة) في معلثايا (ملطا الحالية بجنب مدينة دهوك).

وفي عهد الأمير قريش بن بدران (٤٤٣-٤٥٣هـ) ساءت العلاقات بين الطرفين، فقد قتل قريش في هذه السنة عمه العجوز قرواش، الذي كان نصرالدولة يعطف عليه، وهاجم مدينة الجزيرة أيضاً سنة (٤٤٧هـ = ١٠٥٥م) إثر مقتل الأمير سليمان (أبي حرب) بن نصرالدولة من قبل الأمير الكُردي عبيدالله بن الأمير أبي طاهر البشنوي أمير فنك، متهماً إياه بإعطاء السم لوالده. فقد وجد قريش هذه الحادثة فرصةً للإتصال بالبشنويين والإتفاق معهم ومهاجمة الجزيرة، غير إن الأمير نصر (نظام الدين) بن نصرالدولة إنتصر في معركة حامية على قريش، الذي أصيب بجرح بالغ وألحق الهزيمة به وبمن سانده من الكُرد البشنويين(٨).

أما العلاقات في عهد الأميرين ناصرالدولة منصور وشرف الدولة مسلم بن قريش (٤٥٣-٤٧٨هـ)، فقد إتسمت بالتعاون والدفاع المشترك بين الطرفين ضد الغزو السلجوقي. فعندما زحفت الجيوش السلجوقية على الدولة الدوستكية وقف شرف الدولة بجانبها وخاض معركة عنيفة بالقرب من مدينة دياربكر (آمد)، وذلك سنة (٤٧٧هـ = ١٠٨٥م). بيد أن السلاجقة هزموا جيش الأمير شرف الدولة هزيمة وأسروا قسماً منه وسبوا النساء والأطفال. أما الأمير مسلم، فقد إعتصم بمن نجا من

(٥) إبن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٣٨. إبن خلدون، العبر، ج٤، ٢٦١. إبن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٤، ص ٢٧١. توفي بدران سنة (٤٢٥هـ).

(٦) إبن الأثير، الكامل، حوادث سنة ٤٢٦هـ. محمد أمين زكي، الدول والإمارات الكُردية، ص١١٣.

(٧) الكامل، ج٩، ص١٦٠. العبَر، ج٤، ص٣١٨. سعيد الديوه چي، تاريخ الموصل، ج١، ص١٦٠.

(٨) إبن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢١٠. أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص١٨١. إبن خلدون، العبر، ج٤، ص٣١٩. زاد إبن خلدون على إبن الأثير وأبي الفدا إستمالة قريش للكُرد الحسنية أيضاً، والمقصود بهم كُرد زاخو (الحسنية)، التي كانت جزءً من البلاد الدوستكية. راجع العبر حوادث سنة (٤٤٧هـ).

رجاله بالمدينة ثم خرج منها سراً بعد إتفاق سري مع القائد السلجوقي (أرتُق) على مبلغ من المال(٩).

ولما سمع ملكشاه بنبأ محاصرته لم يشك في أسره وبقاء بلاده بلا أمير كفء. فتوجه على رأس قوات ضخمة من أصفهان في إيران نحو الموصل وكُردستان الوسطى لإحتلال دولة بني عقيل والتعجيل بإحتلال الدولة الدوستكية. وكانت الدولة العقيلية آنذاك تمتد من الموصل حتى (حلب). فإحتلت طلائع جيش السلطان الموصل فعلاً، غير أنه بسماعه تمرد أخته (تكش) في إقليم (خراسان) وإفلات الأمير مسلم من الحصار إضطر الى العودة الى (البوازيج) الواقعة غرب كركوك من كُردستان الجنوبية (كُردستان العراق)، الى إيران والتصالح مع الأمير مسلم وتطييب خاطره(١٠).

ولعل الأمير مسلم لم ينس تأييد الدولة الدوستكية له في تسنمه الحكم إثر وفاة والده في نصيبين سنة (٤٥٣هـ)، وذلك حينما أوفدت وزيرها إبن جهير الى بني عقيل لحل خلافاتهم حول من يتولى الحكم، وجمع آرائهم له(١١).

كما إنه كان يقدر بدون شك مساعدة الكُرد له سنة (٤٧٦هـ = ١٠٨٤م) في محاصرته (دمشق)، التي كانت تحت سيطرة (تُتُش بن آلب أرسلان) أخي ملكشاه(١٢).

وقد إنتهى عهد الأمير مسلم الذي قُتل في معركة مع السلاجقة وكان أميراً مقداماً في سنة (٤٧٨هـ = ١٠٨٥م)(١٣).

وقضى السلاجقة على الدولة الدوستكية أيضاً في السنة نفسها. ولما أحيا ناصرالدولة (الدولة الدوستكية) عقب وفاة ملكشاه سنة (٤٨٥هـ = ١٠٩٣م)، أبدى تعاوناً وثيقاً مع العقيليين كما تشهد به معركة (المضَيَّع) الشهيرة، التي خاضتها القوات العقيلية والدوستكية ضد غزو (تُتُش). لقد أريقت في تلك المعركة الدماء العربية والكُردية بغزارة، حتى قيل إن عدد القتلى من الطرفين المتقاتلين بلغ عشرة آلاف قتيل. وكانت الخسارة الدوستكية العقيلية كبيرة، حيث أُسر فيها عشرون من الأمراء الذين لم يتوان (تُتُش) عن قتلهم بين يديه ومن بينهم الأمير الدوستكي حسين بن نصرالدولة والأمير العقيلي إبراهيم بن قريش(١٤).

(٩) إبن الأثير، الكامل، ج١٠، ص١٣٥. إبن إبيك، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٦، ص٤٧٦. عماد الدين الإصبهاني، تاريخ دولة آل سلجوق، ص٧٥-٧٦. إبن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج١، ص١١. إبن الجوزي، المنتظم، ج٩، ص٦. إبن خلدون، العبر، ج٥، ص٧. الفارقي، ص١٩٣. إبن الوردي، ج١، ص٣٨١. خاشع المعاضيدي، دولة بني عقيل، ص١٠٨.

(١٠) إبن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٤٩. خاشع المعاضيدي، دولة بني عقيل، ص١٠٩.

(١١) إبن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٩١، طبعة مطبعة الإستقامة.

(١٢) نفس المصدر، ج٨، ص١٣٢. إبن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١١٤.

(١٣) قال عماد الدين الإصبهاني في تاريخ دولة آل سلجوق. إختصار البنداري، ص٧٧. إن مشرف الدولة مسلم قُتل بيد خادم الدولة في الحمام.

(١٤) إبن الأثير، تاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٢. إبن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٢٢١. الفارقي، ص٢٣٣.

العلاقات مع الإمارات العربية في شمال سورية

١- الإمارة الحمدانية

٢- الإمارة النميرية

٣- الإمارة المرداسية

إن علاقات الدولة الدوستكية بالإمارات العربية في شمال سورية تمثل جانباً من علاقات الشعب الكُردي بالشعب العربي في القرون الوسطى، علماً بأن علاقات كُردستان الوسطى بشمال سورية وبلاد الشام علاقات قديمة وذات أهمية تاريخية، وهي علاقات إقتصادية أكثر من كونها سياسية. فمدينة حلب كما هو معروف وتكررت الإشارة إليه سابقاً، كانت سوقاً كبيراً للمنتوجات الكُردية حتى نهاية العهد العثماني.

العلاقات مع الإمارة الحمداينة في حلب

في الوقت الذي كان فيه الأمير باد يواصل نضاله ضد الدولة البويهية، وفي خضم ظروفه الحرجة الناتجة من إندحار قواته في جنوب الموصل ووصول القوات البويهية الى الجزيرة ونصيبين (نسيبين)، تم الإتفاق بين الدولة الويبهية والأمير سعد الدولة الحمداني إثر تمرد القوات البويهية على قادتها وإمتناعها عن مواصلة الزحف على البلاد التي بيد الأمير باد ومواصلة القتال مع[(١)] أمير حلب ضد الأمير باد. وكان الوزير البويهي إبن سعدان قد تعهد للأمير الحمداني بإعطائه إقليم دياربكر، إذا ما تعاون مع الدولة البويهية وإستطاع إخراج الإقليم المذكور من قبضة الأمير الكُردي.

وبموجب هذه الإتفاقية أرسل الأمير الحمداني قواته الى إقليم دياربكر، فإشتبكت مع القوات

(١) ينحدر الحمدانيون من قبيلة تغلب العربية، وأول خبر وجدته عنهم هو إن حمدان بن حمدون تمرد على الخليفة العباسي(المعتضد) في قلعة (ماردين) سنة (٢٨١هـ)، ولكنه إنهزم أمام قوات الخليفة، التي قادها بنفسه وبالتالى سُجن في بغداد. وبعد أن تولى (المكتفي) الخلافة جعل أبا الهيجاء عبداللّه بن حمدان والياً على الموصل، ثم إستقل ناصرالدولة بن عبداللّه بن حمدان بالموصل، وإتسع نفوذه. ثم وسع أخوه سيف الدولة نفوذ الدولة حتى شمال بحيرة وان كما شملت معظم كُردستان الجنوبية. ثم إستقل بحلب وقسّم هو وأخوه البلاد بينهما. فكانت شمال سورية وكُردستان الوسطى الى رستاق (أبنين) المجاورة لمنطقة طورعبدين من حصة سيف الدولة والباقي لناصرالدولة. وإنتهى حكمهم في حلب في العقد الأخير من القرن الرابع الهجري بينما إنتهى حكمهم في الموصل ودياربكر سنة (٣٦٨هـ = ٩٧٨م).

الكُردية في قتال ولكنها إندحرت فيه وعادت من حيث أتت. وهكذا فشل الأمير الحمداني ولم يستطع أن يسيطر على إقليم دياربكر، الذي كان في السابق تحت سيطرة والده الى أن توفي والده سيف الدولة بفارقين سنة (٣٥٦هـ = ٩٦٦م)(٢).

هذا ما وجدناه من العلاقات (وهي عدائية) بين الدولة الدوستكية والإمارة الحمدانية في عهد باد الكُرد أي حاكمهم وملكهم وسعد الدولة، اللذان إنتهى عهداهما في سنة (٣٨٠هـ = ٩٩٠م).

أما العلاقات في عهد الأميرين أبي علي بن مروان وأبي الفضائل بن سعد الدولة، فقد تحسنت الى حد كبير وتطورت الى حد المصاهرة. فقد وطد أبو علي علاقاته مع الإمارة الحمدانية عن طريق المصاهرة إذ خطب (ست الناس) أخت أبي الفضائل. ولكن بينما وصل أبو علي الى مدينة دياربكر لإقامة حفل زفافه فيها ونقل عاصمته إليها، ولدى وصول موكب العروس الى المنطقة الواقعة بين دياربكر وأورفا (الرها)، أغتيل أبو علي وأعيدت العروس الى حلب(٣).

أما العلاقات في عهد ممهد الدولة، فقد إستمرت على ما كانت عليه في عهد أخيه وتزوج بالأميرة الحمدانية المذكورة. وفي سنة (٤٠٠هـ = ١٠١٠م) قدم ممهد الدولة يد المساعدة لأبي الهيجاء الحمداني لإسترجاع إمارته في حلب، التي أقصاه عنها لؤلؤ أحد موالي الأسرة الحمدانية(٤)

بعد وفاة أبي الفضائل سنة (٣٩٢هـ = ١٠٠٢م). غير أن مساعدته لم تكن كافية لأنها كانت مقتصرة على مائتي فارس وخزانة (من النقود والخلع...) ومكاتبة بني كلاب أصحاب الحول والطول في حلب للإنضمام الى أبي الهيجاء. ولعل ممهد الدولة إعتمد على بني كلاب ولهذا إكتفى بهذه المساعدة القليلة. والسبب أن بني كلاب هم الذين طلبوا من ممهد الدولة الإتصال بالإمبراطور البيزنطي لإرسال أبي الهيجاء إليهم ليساندوه في إسترجاع حلب. ولكن لؤلؤاً مغتصب الإمارة إتخذ تدابير موفقة. حيث تصالح مع بني كلاب ووعدهم بإقطاعات، كما إنه إتصل بالخليفة الفاطمي بمصر وطلب منه مساعدة عسكرية، فأمده هذا بقوات من طرابلس. ولما نشبت المعركة بين الطرفين تقاعس بنو كلاب عن نصرة أبي الهيجاء، مما أدي الى إندحاره ولجوئه مرة أخرى الى الدولة البيزنطية، حيث توفي بالقسطنطينية(٥).

(٢) الروذراوي، ذيل تجارب الأمم، ص٨٦. إبن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٣. الدولة الدوستكية، ج١، ص٩٧-٩٨.

(٣) الفارقي، ص٧٢-٧٧.

(٤) ورد في الكامل لإبن الأثير، ج٧، ص٢٦٠ "إبن لؤلؤ مرتضى الدولة" وهو غير صحيح.

(٥) إبن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ج١، ص١٩٨. فيه أن أبا الهيجاء هو إبن سعد الدولة بن سيف الدولة، وفي بعض المصادر أنه إبن أبي الفضائل بن سعد الدولة.

العلاقات مع الإمارة النميرية

كانت قبيلة بني نمير العربية ذات النفوذ الطاغي في منطقة ديار مضر من إقليم الجزيرة(١). وإستطاعت هذه القبيلة أن تؤسس إمارة لها في مناطق الرقة، وحران، وسروج، والرها في وقت لا أستطيع أن أحدده ولكنه كان بعد زوال الدولة الحمدانية. أما الأراضي التي كانت تحكمها الإمارة النميرية، فكانت تقع في شريط حدودي بين الدولة الدوستكية وشمال سورية، أو بالأحرى بينها وبين بلاد الشام، فكانت صداقتها مع الدولة الدوستكية لذلك ذات أهمية بالغة.

إن أول ما عثرنا عليه بصدد العلاقات بين الدولة الدوستكية وقبيلة بني نمير، هو أنها ساندت الحمدانيين في زحفهم سنة (٣٨٠هـ) على كُردستان الوسطى. وإثر الهزيمة التي ألحقها الأمير أبو علي بالحمدانيين وحلفائهم وقتل أمير بني عقيل محمد بن المسيب أبا طاهر الحمداني والمزعفر شيخ بني نمير(٢) في نصيبين، فمهد بذلك لتأسيس دولته العقيلية في الموصل.

ولما كان (عطير) النميري صاحب أورفا (الرها) يظلم سكانها ويعسف فيهم، فقد أرادوا العيش في ظل عدالة الدولة الدوستكية، فطلبوا لذلك من نصرالدولة إرسال أحد قادته إليهم ليسلموا إليه المدينة. فلبى الأمير الكُردي طلبهم وأرسل إليهم نائبه (زنك بن أوان)(٣). فتسلم هذا المدينة سنة (٤٦١هـ = ١٠٢٥م).

إن ضم الدولة الدوستكية لمدينة أورفا الى بلادها فتح لها باب العداء مع بني نمير، ثم مع الدولة البيزنطية أيضاً وسبب لها الكثير من المتاعب. فعندما قُتل الأمير عطير بتحريض من زنك، طالب النميريون بثأرهم وقتلوا زنك في كمين نصبوه خارج المدينة. ولا أظن أن هذا الخطأ الذي وقع فيه زنك كان بإشارة من نصرالدولة، إذ لم يكن يرضى بذلك. وحتى إن عطيراً لما زار نصرالدولة في فارقين بعد إستيلائه على الرها أشار البعض على نصرالدولة بأن يقبض عليه، ولكنه رفض قائلاً: "لا أغدر به وإن كان أفسد وأرجو أن أكف شره بالوفاء". وكان عطير قد ذهب الى حلب وإلتمس من أميرها صالح

(١) يتضح من كلام إبن حوقل في صورة الأرض، ص٢٠٤، ٢٢٧ أن نزوح كل من بني نمير وبني عقيل الى منطقة حران وأورفا (الرها) كان في القرن العاشر الميلادي، وحدث نزوح هاتين القبيلتين مع بني قشير وبني كلاب الى إقليم الجزيرة في زمن إبن حوقل أي في القرن المذكور.

(٢) إبن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٥.

(٣) نفس المصدر، ج٩، ص١٤٣. أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص١٦٥. إبن خلدون، العبر، ج٤، ص٣٧١. أظن أن أبا العلاء المعري الذي عاصر هذه الأحداث أشار الى الحادثة، بل إنه قصد بـ(زنك) الوارد في قصيدة له في ديوانه (لزوم ما لايلزم ٢١٥) (زنك بن أوان) حيث قال:

فهوّن عليك الخطب ما فتيء الردى   يجيش على كسرى الجيوش فمن زنك

إذا ألجأتهم ساعة من زمانهم   الى الشر لم يغنو فتيلاً ولم ينكوا

هذا وكتب المعلق في حاشية القصيدة: إن زنك إسم رجل.

بن مرداس وسأله الشفاعة له عند نصرالدولة، فشفع فيه وأعطاه (نصرالدولة) نصف البلد، أي الرها وهكذا تفاهم الطرفان. وبعد مقتل عطير ظلت المدينة كلها لنصرالدولة ثم إنه بتوسط من صالح بن مرداس سلمها الى إبن عطير وإبن شبل(٤).

ولما إستولى البيزنطيون على المدينة كلها، بعد أن باعهم إبن عطير حصته ونشب القتال بينهم وبين القوات الدوستكية، وقفت حينها الإمارة النميرية الى جانب البيزنطيين، الذين صالحهم شبيب إبن وثاب النميري على حران وسروج وحمل إليهم الخراج(٥).

وهاجم شبيب والقوات البيزنطية الحدود الدوستكية سنة (٤٢٦هـ = ١٠٣٥م)، غير إن القوات الدوستكية طاردتهم. كما إن نصرالدولة أخذ في تحشيد قوات كبيرة وتلقى مساعدات عسكرية من أصدقائه، وذلك إستعداداً لشن حملة عنيفة على الرها. ولكن نصرالدولة تراجع عن خطته بسبب إتصالات جرت بينه وبين الإمبراطور البيزنطي (ميخائيل الرابع)، حيث قدم الأخير إعتذاراً وهدايا الى الأمير الكُردي(٦).

وفي السنة التالية تحسنت العلاقات بين الدولة الدوستكية والإمارة النميرية، حيث وقف كل من الأمير شبيب وإبن عطير بجانب نصرالدولة.فقد هاجمت القوات الدوستكية والنميرية سوية الحدود البيزنطية وإحتلت سويره ك (السويداء)، كما هاجمت قوات الطرفين الرها وإشتبكت مراراً مع القوات البيزنطية.

ولما يئس الطرفان من طرد القوات البيزنطية وتحرير المدينة، تصالح الأمير النميري مع البيزنطيين بيد أن علاقاته ظلت متينة مع الدولة الدوستكية. فقد وقف بجانبها عندما هددها نائب الدولة الفاطمية في بلاد الشام (أنوشتكين الدزبري)، كما وقفت الدولة العقيلية بجانبها أيضاً وتكون من الأطراف الثلاثة الحلف الثلاثي لمجابهة الأطماع الفاطمية التوسعية أو أطماع نائبها المذكور(٧).

إستمر التعاون بين الكُرد وعرب بني نمير الى ما بعد هذا التاريخ أيضاً، حيث تعاونوا مع نصرالدولة على تلافي أمر أصفر التغلبي حينما قبضوا عليه وسلموه اليه. وكان الإمبراطور البيزنطي قد هدد نصرالدولة بسبب أعمال أصفر التخريبية في الحدود البيزنطية(٨).

وفي عهد الأمير منيع بن شبيب إستمرت العلاقات الودية بين الجانبين، وقد إستعد هذا الأمير

(٤) راجع موضوع العلاقات مع الإمبراطورية البزنطية وأحداث الرها.

(٥) إبن الأثير، الكامل، ج٧، ص٣٥٣، طبعة مطبعة الإستقامة.

(٦) نفس المصدر، حوادث سنة ٤٢٧هـ. محمد أمين زكي، الدول والإمارات الكُردية، ص١١٣. إبن خلدون، العبر، ج٤، ص٣١٧.

(٧) إبن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٦٠. زيني دحلان، الفتوحات الإسلامية، ص٣٣٥. إبن خلدون، العبر، ج٤، ص٣١٨.

(٨) سعيد بن بطريق، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، ص٢٤٤. إبن الجوزي، المنتظم، ج٨، ص١٣٢. إبن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٨٦. وفي كتابنا المخطوط (الإمارة النميرية في بلاد الجزيرة) معلومات أخرى عن أصفر.

لمساعدة الدولة الدوستكية عسكرياً عندما حاول السلطان السلجوقي طغرل الزحف على بلادها سنة (٤٤٩هـ = ١٠٥٨م). غير إن نصرالدولة نجح في مفاوضاته مع السلطان وكان المؤيد الشيرازي ممثل الدولة الفاطمية في حركة البساسيري هو الذي أوعز الى الأمير منيع بالإستعداد لنصرته[٩]. ولم نجد بعد هذا التاريخ شيئاً عن العلاقات الدوستكية - النميرية الى أن قُضي على هذه الإمارة[١٠] والتفاصيل في كتابنا المخطوط (الإمارة النميرية في بلاد الجزيرة).

العلاقات مع الإمارة المرداسية

أسست الإمارة المرداسية في حلب عندما أزال عنها صالح بن مرداس أمير بني كلاب النفوذ الفاطمي سنة (٤١٤هـ = ١٠٢٣م). وفي سنة (٤٦٣هـ = ١٠٧١م) إحتل الملك السلجوقي آلب أرسلان مدينة حلب مركز الإمارة، ولكنه أعاد الأمير المرداسي الى إمارته. وأخيراً وبسبب مضايقة السلاجقة سلّم سكان حلب مدينتهم سنة (٤٧٢هـ = ١٠٨٠م) الى الأمير العقيلي شرف الدولة مسلم بن قريش، وكان أميرها المرداسي آنذاك نصر بن محمد بن نصر بن صالح.

ولما كانت حلب مطمح أنظار الدولة الفاطمية، التي إشتبكت مراراً مع المرداسيين وفرضت سيطرتها على حلب أكثر من مرة، فقد كان المرداسيون على علاقات حسنة مع الإمارات العربية المجاورة ومع الدولة الدوستكية أيضاً. ورغم قلة المعلومات لدينا عن العلاقات الدوستكية - المرداسية، إلا أن إعادة نصرالدولة نصف مدينة الرها (أورفا) الى عطير النميري، ثم تسليمها كلها بعد مقتله الى إبنه (أي إبن عطير) وإبن شبل بوساطة الأمير صالح بن مرداس في المرتين[١]، ليس سوى مثالاً حياً للصداقة المتينة بين الأميرين الكُردي والعربي، ودليلاً على ما بين بلديهما من علاقات طيبة. ولعل سبب تهديد النائب الفاطمي في بلاد الشام بغزو البلاد الدوستكية سنة (٤٣٠هـ = ١٠٣٨م) كان مرده إستنكار نصرالدولة إحتلاله لحلب وقتل الأمير المرداسي شبل الدولة نصر بن صالح في السنة التي قبلها وإمتعاضه من وصول نفوذ الدولة الفاطمية القوية الى شمال سورية وإقترابه من كُردستان مخافةً من أطماعها التوسعية. كما إمتعض من ذلك الأمير النميري شبيب بن وثاب الذي كانت أخته

(٩) سيرة المؤيد، ص١٦٩.

(١٠) في سنة (٤٦٣هـ = ١٠٧١م) إستولى عطية بن صالح المرداسي على مدينة الرقة، وكانت مركز الإمارة النميرية، ثم أخذها منه شرف الدولة مسلم بن قريش في نفس السنة كما أخذ شرف الدولة مدينة حران من النميريين سنة ٤٧٤هـ. راجع الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٢، ص٥. وإبن الأثير، ج٧، ص٢٦١.

(١) إبن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٦٠، طبعة القاهرة والأعلاق الخطيرة ورقة ٢٨. تاريخ إبن الوردي، ص٣٢٣. أبو الفدا، المختصر في تاريخ البشر، ج٢، ص١٦٥. إبن خلدون، العبر، ج٤، ص٣١٧. محمد أمين زكي، الدول والإمارات الكُردية، ص١١٣.

زوجة الأمير نصر المرداسي. وبطبيعة ما أسميه (الحلف الثلاثي) وبحكم التناقضات بين الحكومات أو الإمارات الصغيرة وبين الدولة الفاطمية، لايُشك في أن نصرالدولة أبدى تأييده المعنوي لـ(ثمال بن صالح) ضد الفاطميين في محاولاته لإسترجاع إمارته، التي إستعادها من الفاطميين فعلاً سنة (٤٣٤هـ = ١٠٤٣م).

وأخيراً أريد أن أشير هنا الى حادثة إستنكار في بعض المدن الدوستكية لما قام به صالح بن مرداس من إعتقال حوالى سبعين شخصاً من سكان معرّة النعمان سنة (٣١٧هـ = ١٠٢٦م). وقد تمثل الإستنكار فيما قام به العلماء أو بالأحرى الخطباء بالدعاء للمعتقلين من على منابر دياربكر والعاصمة (فارقين)(٢).

ولا أعلم هل إن الإستنكار حدث بسبب الجمود في العلاقات الدوستكية - المرداسية (والناشيء عن عدم إرتياح صالح من إنتزاع الرها من النميريين، مع إننا لم نجد إشارة الى هذا من أي مؤرخ) علماً بأن نصرالدولة كان قد سلم المدينة إليهم بتوسط من المذكور. أو إن ذلك الإستنكار والتعاطف مع معتقلي معرّة النعمان (البعيدة عن الأراضي الدوستكية والخاضعة للنفوذ المرداسي) كان بسبب الصداقة المتينة بين الوزير أبي القاسم المغربي والشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري (لأن أخا المعرّي كان من بين المعتقلين)، وكان أبو القاسم آنذاك وزيراً في الدولة الدوستكية. فهو دبّر ذلك الإستنكار تعاطفاً مع المعريين وأبي العلاء بصفة خاصة. وفضلاً عن ذلك، كان الإستنكار عملاً إنسانياً لأنهم إعتُقلوا ظلماً ثم أُفرج عنهم بتوسط من أبي العلاء نفسه، حينما قابل الأمير المرداسي. الجدير بالذكر أن ثمال بن صالح المرداسي كان قد أسكن الكُرد في (حصن السفح) من سهل البقاع، فعرف فيما بعد والى الآن بـ(حصن الأكراد) بمحافظة حمص من سورية، وذلك في سنة (١٠٣١م) لحماية طريق طرابلس(٣).

العلاقات مع الدول الكُردية

لقد أتاح ضعف الدولة العباسية وتفسخها في دورها الثالث الفرصة لولاة الأقاليم وأصحاب الأطراف، أن يعلنوا إستقلالهم في الأقاليم التي كانت تحت سيطرتها. أما الشعب الكُردي الذي يعيش في منطقة إستراتيجية خصبة وواسعة، فقد تأثر بإستقلال تلك الأقاليم وناضل من أجل التحرر من ظلم وإضطهاد الملوك الأجانب. وبرز زعماء كُرد أكفاء ليتصدروا مهمة القيادة. وقد حالف هؤلاء النجاح في تأسيس دول كُردية تضم كل واحدة منها جزءً من الوطن الكُردي، وذلك في فترة القرنين

(٢) ياقوت الحموي، معجم الأدباء. ج٣، ص٢١٦. ومحمد سليم الجندي: تاريخ معرة النعمان، ج١، ص١٣٢.

(٣) راجع المنجد، الأعلام، الطبعة الثانية عشرة في مادة (قلعة الحصن). لم يصرح المصدر بإسم ثمال لكني وجدت ذلك في بعض المصادر الأخرى.

الرابع والخامس الهجريين (القرنان العاشر والحادي عشر للميلاد)، تلك الفترة التي نعتبرها (العصر الذهبي) لكُردستان، التي لم تتمتع في أية فترة أخرى من فترات العهد الإسلامي بمثل ما تمتعت به من حرية وإستقلال في ظل تلك الحكومات الوطنية الكُردية. ومن بين تلك الدول الدولة الدوستكية.

أما الدولة الأيوبية فإنها لاتعتبر حكومة وطنية كُردية لكونها تأسست خارج كُردستان في مصر والجزيرة العربية وبلاد الشام. ويمكن أن نعتبر جناحها الواقع في كُردستان دولة وطنية كُردية، أما (الدولة الرسولية) في اليمن (إذا ما ثبتت كُردية الأسرة الرسولية) فشأنها شأن الدولة الأيوبية لكونها تأسست بعيدة عن كُردستان وأسسها عمر بن رسول أحد قادة الأيوبيين(١).

أما الحكومات الكُردية فهي الدولة الروادية الهذبانية(٢)، والدولة الشدادية(٣)، والدولة الحسنوية(٤)، والعَنازية (أنازية)(٥).

(١) إختُلف في أصل بني رسول، فمن قائل بأنهم من أصل تركماني وآخر ينسبهم الى أصل عربي من بني غسان هاجر أحدهم في زمن مجهول الى بلاد ما وراء النهر (أو خراسان) وسكن هناك وترك ذرية منها عمر بن علي بن رسول، الذي جاء من البلاد الشرقية .... الخ، والتفاصيل في كتاب (العقود اللؤلؤية في الدولة الرسولية) تأليف علي بن حسن الخزرجي، وهي رواية ملفقة. أما المؤرخ تقي الدين المقريزي، فقد ذكر في موضعين من كتابه (الذهب المسبوك فيمن حج من الملوك، ص٧٨ و٧٩) بأن عمر بن علي بن رسول كُردي الأصل ووصفه بالهكاري، ثم ذكر كغيره من المؤرخين: أنه كان أحد الأمراء في الدولة الأيوبية وكان معتمد الملك مسعود بن الملك كامل الأيوبي، ثم إستقل ببلاد اليمن سنة (٦٢٩هـ) بعد وفاة الملك مسعود.... وقد ذهبت جماعات من الكُرد الى اليمن في العهد الأيوبي وسكنت صعد وزمار ونواحي صنعاء، ومازال بعض قبائلهم تحمل حتى الآن إسم الكُرد.

(٢) أسس هذه الدولة في (٣٤٣هـ = ٩٥٤م) في أذربيجان محمد بن حسين الروادي، ثم حكم بعده إبن حسين، ثم أبو الهيجاء محمد بن حسين، ثم وهسوذان بن محمد (مملان) المذكور على ما في الكتاب القيم (لقاء الأسلاف، ص٢١٢) للدكتور جمال رشيد. وبعد مقتل يوسف بن أبي الساج في (٣١٥هـ = ٩٢٧م) سيطر على أذربيجان من أتباعه (ديسم بن إبراهيم الكُردي)، وإعتبره بعض المؤرخين مؤسس الدولة الروادية وهو رأي مشكوك فيه، ومازال أحد جبال تبريز بإسم ديسم الى اليوم كما سمعت مؤخراً. أما عاصمة تلك الدولة فكانت تبريز ثم مراغة. وإنتهت بعد أن تقلصت الإمارة في (٦٢٧هـ = ١٢٢٩-١٢٣٠م) في عهد إحدى الأميرات، التي كانت تقيم في قلعة (روين دز)، غير البعيدة عن مراغة، من ذرية أحمديل الروادي، على ما جاء في (إبن الأثير حوادث سنة ٦٢٧هـ). راجع أيضاً (ص٦٢١) من كتاب (مراغه) بالفارسية ليونس مرواريد، طبع ١٣٦٠ شمسي قمري. ولما كانت القبيلة الروادية فرعاً من القبيلة الهذبانية، فلا حاجة الى تقسيمها الى حكومتين روادية وهذبانية. فبعد أن حكمت الأسرة هذبانية القسم الغربي من بلادها الى الشمال من (وان)، ومن الروادية صلاح الدين الأيوبي من روادبي شمال نهر آراس، حيث ولد والده (أيوب) في مدينة (دوين - دبيل)، التي تُشاهد أنقاضها في الجنوب الغربي من مدينة (يريڤان) عاصمة أرمينيا الحالية، وليس في (دوين) الواقعة شمال أربيل، حسبما ذكر الأستاذ عبدالخالق سرسام بخصوص منطقة أربيل والدولة الأيوبية سنة (٢٠٠٠) في كتاب بإسم (صلاح الدين الأيوبي من جديد). وقد كتبت في رده مقالاً في (٧٩) صفحة نشر في مجلة (هەزارمێرد) العدد(١٢) سنة ٢٠٠٠. ثم كتبت رداً آخر عليه وعلى الأخ الدكتور محسن محمد الذي شجعه في هذا المجال في حوالي (٥٢) صفحة لم يُنشر بعد.

(٣) أسسها سنة (٣٤٠هـ = ٩٥١م) الأمير الكُردي محمد بن شداد في أرمينيا، وإتخذ (دوين-دبيل) عاصمته. ثم توسعت حتى ضمت جورجيا وبلاد (آران - أذربيجان التي كانت من الإتحاد السوڤيتي الى عهد قريب). ووصل نفوذ هذه الدولة الكُردية الى مدينة (آني) جنوب نهر آراس. وفي بعض المراجع أن الأمير المذكور كان من القبيلة الروادية، راجع كتاب (مراغه) ص٦١٦ ليونس مرواريد نقلاً عن (شهريار كمنام) لمؤرخ إيران الكبير أحمد كسروي، و(الشداديون في بلاد آران من سنة ٣٤٠-٥٩٥ هـ) رسالة ماجستير للدكتور إسماعيل شكر من جامعة صلاح الدين.

(٤) أسس هذه الدولة الأمير الكُردي حسنوَيه بن حسين من قبيلة بزرگان سنة (٣٤٤هـ-٩٥٩). ضمت هذ الحكومة جزءً=

العلاقات مع الدولة الروادية

رغم أنه كانت هناك دون شك روابط جغرافية وقومية وإجتماعية وإقتصادية قائمة بين الدولة الدوستكية والدولة الروادية والروادية فرع من القبيلة الهذبانية الكبيرة، إلا أن المعلومات التاريخية

=غير قليل من كُردستان، حيث شملت منطقة شهرزور (منطقة السليمانية الحالية) وكرمانشاه (قرميسين) ونهاوند من (الورستان) و (كَنكوَر-كَنگاوَر- قصر اللصوص) الى القرب من همدان حتى حدود أذربيجان، أي كافة مناطق سنه وسقز. وكانت قد إزدهرت في عهد الأمير (بدر) بن حسنويه، الذي له في المصادر التاريخية أخبار طريفة في البر والعدل والسياسة الإقتصادية. كانت عاصمتها أولاً مدينة (سَرماج) بجيم معجمة، وهي الآن تابعة لناحية جمجال التابعة لقضاء (صحنه) من محافظة كرمانشاه وفيها آثار من العهد الساساني. ثم نقل (بدر) العاصمة الى مدينة (دَينور) الشهيرة التي تُشاهد آثارها بين قريتي (شيرخان) و(زيبا جوب) بخمسة وعشرين كيلومتراً شمال غرب مدينة (صحنه)، وبكيلومتر واحد غربي طريق (سنقر) وطريق كرمانشاه - صحنه، وقد نُهبت آثارها وما زال إسم بدر حياً ومقروناً بقلعة بدر (قەلای بەدر) في قرية (بالآجو) و(كوه بەدر) ومضيق بدر (تەنگ بەربان = بدربان)، وغيرها والتفاصيل عن دينور تجدها في كتاب (كرمانشان - كُردستان - الجزء الأول للدكتور مسعود گولزاري). هذا وفي سنة (٤٠٦هـ = ١٠١٦م) قضت الدولة البويهية على هذه الدولة الكُردية في عهد طاهر بن هلال بن بدر. لقد وضع المؤرخ الفاضل الأستاذ الملا جميل الروژبياني كتاباً في تاريخ هذه الدولة ودولة بني عناز باللغة الكُردية بإسم (مێژووی حەسنەوەیهی وعەیباری) وفي (ص٩٦) صورة قلعة سەرماژ (سرماج).

(٥) أسس الدولة العنازية (الآنازية) أبو الفتح محمد بن عناز رئيس قبيلة (شاذنجان) الكُردية الساكنة في منطقة حلوان (زهاب - زهاو)، وذلك في أواخر ثمانينات القرن العاشر الميلادي، أو في سنة (٣٨١هـ = ٩٩١م) بالذات. وكانت (حلوان) عاصمتها وتوسعت شمالاً حتى شهرزور وغرباً حتى مدينة خانيجار (طوز) و(دقوقا) حتى مدينة كركوك، وإمتدت حتى مندلي (بَندنيجين) وتجاوزت الى شرق كرمانشاه حتى مدينة كنكور وقضت عليها الدولة السلجوقية في النصف الأول من القرن الثاني عشر. ولكن حتى القرن الرابع عشر كان لقبيلة (آنازي - شاذنجان) حول وقوة في شهرزور، كما أشار الى ذلك منصور بن صادق بن بلال من أجداد سادات سەرگەت(سرگت) في شهرزور، وذلك في ملاحظات بخصوص تاريخ هذه الأسرة سنة (٧٧٠هـ = ١٣٦٩م). ثم كتبت هذه الملاحظات مجدداً على نسخة خطية من مصحف هي الآن في مكتبة المتحف العراقي تحت رقم (١٦٤٢٥). ذكر منصور هذه القبيلة بإسم (آنازي)، ولا أستبعد أن يكون إسم (عناز) (عنازية) تعريباً لـ(آناز) أنازي. حيث ورد إسم (عنّاز) و(بني عناز) في المصادر العربية بالنون المشددة والزاء المفخمة، وفي بعضها بإسم (عيّار) بالياء المشددة تصحيفاً، وفي الدول والإمارات الكُردية بإسم (بني عنان) (ص٤١٧) باللغة الكُردية. وذكر الأستاذ الملا عبدالكريم المدرس في كتابه (بنەماڵەی زانیاران، ص٣٦٨- ٣٨٠) الآنازيين حسبما جاء في نص تلك الملاحظات أو المذكرات وأدخل بين قوسين (عناز). وقال إن قرية (گرده نازێ) القريبة من (سيد صادق) بينها وبين نهر (زَلم) تحمل إسم قبيلة (آناز)، والانازيون في تلك القرية من شهرزور وقرى أخرى يُسمون الآن (برازي). علماً أني زرت القرية وأجريت مقابلة صوتية مع (برازين)، وبهذا ظهر أن عشيرة برازي الكُردية الكبيرة المقيمة في ولاية (أورفا- الرها) من كُردستان تركيا وفي الجانب السوري أيضاً هم آنازيون (بنو عناز- قبيلة شاذنجان). ولا ندري في أي زمن شردت الى (أورفا) وبقي القليل منها الآن في شهرزور. هذا وإن قسماً آخر منها موجود حالياً في منطقتين من محافظة كُردستان (محافظة سنه) في كُردستان إيران، قسم في منطقة (مەریوان) وآخر في (هوباتوقراتوره). وقال (علي أكبر وقايع نگار) في كتابه الفارسي (حديقهء ناصريه، ص٣١٨-٣١٩) أن تيمورلنگ هجّر رئيسها (كهيا صالح) مع ألفي أسرة من برازي من البلاد العثمانية الى منطقة (سنه)، وإن رجالها الشجعان ذوو همة وظهرت من بينهم شخصيات بارزة منهم حاجي يعقوب الذي، قاوم آزادخان الأفغاني وأخيراً أسره آزادخان وقتله. وبمرور الأيام تفرقت هذه العشيرة ورجع قسم منها الى البلاد العثمانية. هذا ويحتمل جداً أن القسم الأكبر قد تشرد أيضاً أمام تيمورلنگ الوحش الى أورفا ولعبت هذه القبيلة الكُردية دوراً سياسياً في التاريخ. وقد ألف الأستاذ المؤرخ الملا جميل الروژبياني كتاباً بعنوان (مێژووی=

قليلة. وقد ذكرت سابقاً أن حدود الدولتين كانت متصلة قبل سنة (٤٢٥هـ = ١٠٣٢م) في السواحل الشرقية لبحيرة وان، أي في الجزء الواقع بين مدينتي أرديش ومرادية (بركرا)، وإننا قلنا قبل السنة المذكورة أنّ البيزنطيين، كما ذكر إبن الأثير، إحتلوا مدينة بركرا (بەرگری)(٦) التي تسمى الآن مرادية أيضاً وهي من أقضية (وان)، أو أنهم إحتلوها في الفترة الواقعة بين (٤١٠-٤٢٥ هـ). وكانت المدينة تحت سيطرة أبي الهيجاء بن ربيب الدولة الهذباني، الذي أخذها سابقاً من الأرمن. وأكثر الإحتمالات أن حدود الدولتين كانت متصلة في المنطقة الواقعة جنوبي شرق (بحيرة وان) وأيضاً من مقاطعة هكارية من بلدة (مكس) الى الحدود الإيرانية-التركية الحالية. وفي الوقت الذي لم أجد فيه معلومات عن وضع هذه المنطقة في العصر الدوستكي، فإني أستبعد أن تكون المنطقة غير مرتبطة بإحدى الحكومتين أو مقسمة بينهما. وإن كان إبن الأثير يقصد إن التوسع الذي حصل للإمارة البختية (إمارة القسم الشرقي من بوتان التي مركزها جَردَقيل = گورگيل) في وادي گويان الى منطقة خوشاب،(٧) كان في عهد الأمير موسك بن المجلى، فلا يُشك إذن أن حدودهما قد إتصلا فيما وراء خوشاب الداخلة ضمن الدولة الدوستكية، بإعتبارها كانت داخلة ضمن الإمارة البختية من إمارات الدولة الدوستكية.

لقد ذكرت بعض المصادر التاريخية وصول وفد رسمي من قبل الدولة الروادية الى الدولة الدوستكية في عهد الأمير باد. فقد ذكر المؤرخ الإيراني أحمد كسروي أن: الأمير أبا الهيجاء الروادي أوفد أميراً كُردياً كان إبن أمير مدينة (خوي) الى (أباهونيك) سنة (٣٧٨هـ = ٩٨٨م)، أي الى الأمير باد. ولما عاد الوفد وإقترب من خوي وجد رئيس الوفد في طرف إحدى القرى طفلاً أرمنياً جميل الصورة فأخذه، ولكن رجلاً أرمنياً يدعى (سركيس) جرد سيفه وقتله وأخذ الطفل الأرمني. فأعلم والد رئيس الوفد الأمير أبا الهيجاء بذلك وطلب منه مدينة خوي عن دم إبنه كما طالبه بأخذ ثأره من الأرمن. فجمع أبو الهيجاء الجيوش وزحف على منطقة (واسبوركان) الأرمنية، بيد إن أبا

=حەسنەوەیهی وعەییاری) أي (تاريخ الحسنويهيه والعيّارية)، وقد رجح فيه إسم (العيّاريه) بالعين المهملة والياء المشددة والراء المهملة على (العنّازية) بالنون والزاء المعجمة والتي تعني بالعربية كثيرة العنز. وإستبعد الملا جميل وجود إسم بهذا المعنى لرجل كوردي (أو قبيلة كوردية خاصة في ذلك العهد)، ورأيه هذا سديد ولهذا رجح العيارية. وأظن أنه لو إطلع على إسم (آناز) في المخطوطة المشار إليها، لقال إن (عناز) تعريب للأسم الكُردي (آناز). ويحتمل أن (آناز) كانت بطناً من شاذنجان وظهر منها حكام بني عناز أو إنه إسم حقيقي لوالد أبي الفتح محمد مؤسس تلك الحكومة، الذي هو والد الأمير أبي الشوك (فارس) الشهير، الذي ورد ذكره في الجزء الأول من كتابنا هذا. بخصوص إسم (عناز)أيضاً راجع هامش في موضوع (الزردشتية).

(٦) بركرا (بەرگری) راجع إبن الأثير، ج٨، ص٧ طبعة مطبعة الإستقامة. زيني دحلان الفتوحات الإسلامية، ص٣٣٣. مدينة بركري (بەرگری) تقع في شمال مدينة (وان) وهي مركز أحد أقضيتها وهي تتاخم قضاء أرديش (أرجيش) وكانت أرجيش تحت السيطرة الدوستكية. أما سبب ذلك فهو أنه حدث تنافر بين أبي الهيجاء وخاله وهسوذان فطلب الأخير من البيزنطيين إحتلال المدينة ثم صالح بينهما الخليفة العباسي لكي يستعيدا المدينة لكنهما رغم مساندة المتطوعية لهما لم يتمكنا من إستعادتها.

(٧) راجع ياقوت الحموي، معجم البلادن، ج٤، ص٤٦١. خوشاب الآن مركز لقضاء تابع لولاية وان وهي تقع في القسم الجنوبي الشرقي لوان.

الهيجاء توفي أثناء حملته وكان كبير السن فإضطر جيشه الى التراجع(٨)، علماً إن كسروي قال: إن الأرمن كانوا يسمون پاد الكُردي بـ"آباهونيك"، مع إنهم يطلقون هذا الإسم في الأصل على إقليم دياربكر والموصل، ولكنهم أطلقوه على پاد لكونه حاكم المنطقة.

أما العلاقات مع الدولة الشدادية، فكانت متينة وتشهد على ذلك المصاهرة ين الأسرتين الدوستكية والشدادية، حيث تزوج نصرالدولة بالأميرة "فضلونية" بنت أحد الأمراء الشداديين(٩).

من الجدير بالذكر أن الحدود الدوستكية والشدادية لم تكن متصلة، إذ أن الإمارات الأرمنية كانت تفصل بينهما.

أما عن العلاقات مع الدولة الحسنويهية، فلم نجد حولها أية معلومات ويحتمل جداً حدوث إتصال بين الأمير (پاد بن دوستك) والأمير بدر بن حسنويه، وذلك في سنة (٣٧٣هـ = ٩٨٣م). وحينما إستولت الدولة الدوستكية على الموصل والمنطقة التابعة الى حدود تكريت وظلت تحت سيطرتها سنة وتقاربت حدودهما أو إتصلت (وكان الملك پاد يستهدف إحتلال بغداد وإخراج العراق من السيطرة البويهية) فلا يستبعد إذن حدوث الإتصال بأمراء المنطقة ومنهم الأمير (بدر) للحصول على تأييدهم.

أخيراً إن هذه الحكومات الكُردية ليست بمنأى عن الإنتقاد اللاذع بسبب عدم إندماجها وإتحادها في دولة كُردية شاملة. فلو كانت تلك الدول قد إتحدت في دولة واحدة، لأمكن لها الحفاظ على إستقلالها مدة أطول والتوسع الى خارج الوطن الكُردي. فللشعب الكُردي قوة جبارة إذا ما إتحد، غير إن الخلافات وعدم المناصرة والإتحاد هما اللذان أبقياه في جحيم التسلط والإستعباد من قبل الشعوب المجاورة. وهو ما عبّر القاضي (شهاب الدين إبن فضل اللّه العمري) المتوفي سنة (٧٤٩هـ) عنه خير تعبير حين قال: "الأكراد خلائق لاتُحصى وأمم لاتُحصر، فلولا أن سيف الفتنة بينهم مسلول يستحصد قائمهم وينبه نائمهم، لفاضوا على البلاد وإستفاضوا إليهم الطارف والتالد(١٠) ولكنهم رُموا بشتات الرأي وتفرق الكلمة. ولا يزال بينهم سيف مسلول ودم مطلول وعقد نظام محلول وطرف باكية بالدماء مبلول"(١١).

(٨) أحمد كسروي، شهرياران كمنام، ج٢، ص٤٢ نقلاً عن المؤرخ الأرمني آسوغيك.

(٩) الفارقي، ص١٢١-١٢٢. راجع موضوع (أولاد نصرالدولة.....).

(١٠) الطارف: المال الجديد الذي يكسبه الشخص. والتالد: المال القديم أي الذي خلفه آباؤه. وتستعمل الكلمتان للدلالة على المجد الحديث والقديم.

(١١) إبن فضل اللّه العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص٣٧ طبعة مصر، سنة ١٣١٢هـ. أبو العباس أحمد يوسف القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٧، ص٢٨٣، نقلاً عن العمري.

العلاقات مع الشعب الأرمني

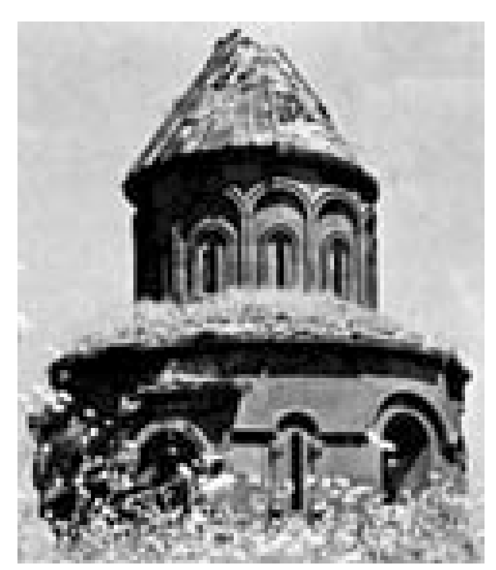
لقد صادف نشوء الدولة الدوستكية العصر الذهبي للشعب الأرمني. فرغم أن البلاد الأرمنية لم تكن موحدة، إلا أنها كانت في أوج نهضتها وقوتها، لاسيما بعد إنتقال العاصمة الى "آني"(١)، وكانت أرمينيا آنذاك مقسمة الى إمارتين كبيرتين وهما الإمارة البكرادونية(٢)، التي كانت تعتبر الحكومة الشرعية لأرمينيا. وكانت حدود الإمارتين تمتد حتى إقليم (كرين) وعاصمته قاليقلا أي (أرضروم)، وكانت تلتقي بحدود الدولة الدوستكية في منطقة ملازگر (منازجرد). ولعل نهر موراد (أرسناس) كان يشكل الحدود بينهما في هذه المنطقة.

أما الإمارة الثانية فكانت الإمارة الأرزرونية(٣)، وتعرف أيضاً بإمارة (ڤاسپورگان). وكانت في

(١) توسعت مدينة آني وإزدهرت بعد أن إتخذها الأمير البكرادوني آشوت الثالث (٩٦١-٩٧٧م) عاصمة لأرمينيا أو لإمارته. وتُشاهد الآن أطلال هذه ا لمدينة على ضفة نهر آراس في الجانب التركي وبمسافة حوالي (٤٠كم) الى الجنوب الشرقي من مدينة(قرص)، وتحولت الى قرية (آني) الحالية. ولا يزال بعض من اثارها خالدة مثل الكاتدرائية والكنيسة الصغرى والقلعة وأجزاء من السور.

(٢) لا نعلم بالتأكيد في أي سنة أسست الأسرة البكرادونية (البغرادونية) هذه الإمارة أو الحكومة. ولعل مؤسسها هو الأمير (آشوت الأول) الذي عاش في النصف الأخير من القرن التاسع الميلادي، حيث كسب ود الخليفة العباسي الذي لقبه بأمير الأمراء وإعترف به حاكماً على أرمينيا. ولما توفي تولى بعده إبنه (سباط)، ثم إبنه آشوت (آن شوط)، ثم أخوه عباس الأول، ثم آشوت الثالث. ومن أمرائها سنباط الثاني (٩٧٧-٩٨٨م) وجاجيق - غاغيك الأول (٩٩٠-١٠٢٠م) أخو سنباط الثاني. ولما توفي هذا حدث نزاع بين وارثه الشرعي وآشوط الرابع، وزاد في حراجة الموقف تدخل الگُرج (الجورجيون) وغارات السلاجقة على أرمينيا. فإنتهز الإمبراطور البيزنطي (بسيليوس) الفرصة لإستعادة نفوذه في الشرق (أرمينيا)، ونجح في بسط نفوذه على أجزاء منها وخلع بعض أمرائها. ولما توفي آشوط الرابع سنة (١٠٤٠م)، وكان قد تغلب على (يوحنا) بمساعدة البيزنطيين، حاول الإمبراطور (ميخائيل الرابع) ضم أرمينيا الى الإمبراطورية البيزنطية. فهاجم إمارة بكرادوني وحاصر (آني) ولكنه لم يستطع أن يحتلها. غير إن الإمبراطور (قسطنطين التاسع) أنهى هذه الإمارة سنة (١٠٤٤م)، وأعطى الأمير جاجيق الثاني أراض واسعة في إقليم كبادوكيا. وكانت الدولة البيزنطية قد وجدت من الضرورة بسط سيطرتها المباشرة على أرمينيا وتحصينها لتصبح ترسانة بيزنطية أمام الخطر السلجوقي. راجع: پول آميل، تاريخ أرمينيا، ص٢٧. راجع أيضاً رنسيمان، الحروب الصليبية، ص١٢٨. ودائرة المعارف الإسلامية، مادة أرمينيا. فيها أن (آني) تقع في الجانب الروسي وهو خطأ. وراجع أيضاً ستيڤن رنسيمان، الحروب الصليبية، ج١، ص٥٧. و ك. ل. إستاجيان، تاريخ الأمة الأرمنية، ص١٩٤-١٩٦.

(٣) كانت أرمينيا متحدة في حكومة واحدة الى أن حدث إنشقاق بتأسيس الأسرة الأرزرونية إمارة في إقليم ڤاسبوركان، وحدث هذا في عهد سنباط الأول البكرادوني ملك أرمينيا. ودامت هذه الإمارة حتى سنة (٤١٢هـ= ١٠٢١م) أو الى هذه السنة بالذات، حيث لم يستطع آخر أمراءها سنحاريب (سنكريم) أن يحافظ على بلاده نتيجة المشاكل الخارجية، فسلمها الى الدولة البيزنطية وهاجر الى إقليم كبادوكيا ماوراء الفرات، حيث أعطاه بسيليوس أراض هناك مقابل بلاده. ولا نستطيع أن نحدد بلاد هذه الإمارة تحديداً دقيقاً، وفي دائرة المعارف الإسلامية، ج١، ص٦٤٧-٦٤٨ إن إقليم (ڤاسبوركان) يمتد من نهر (موراد) الفرع الشرقي لنهر الفرات الى آرارات ونهر آراس والى مرند في شمال تبريز. وفي بعض المصادر الإسلامية أن (بسفرجان) وورد أيضاً (إسفرجان) وهو تعريب (ڤاسپورگان)، كورة من أرض آران ومن مدنها نشوى. راجع معجم البلدان، ج١،ص٤٢٢. ولعل حدود هذه الإمارة كانت تتصل بحدود=



كنيسة آني

أرمينية إمارات أخرى(٤)، منها إمارة السناسنة. وقد توصلت بعد بحث طويل الى أن السناسنة الأرمن كانوا يسكنون موش ومشارف الجبال الواقعة في جنوبها وغربها، والتي سماها الفارقي وغيره من الجغرافيين والمؤرخين بإسم السلسلة التي هي جزء من سلسلة طوروس(٥).

=الدولة الدوستكية في الشمال الشرقي من أرديش. وعلى كل إن منطقة (بايزيد) الى آراس كانت ضمن هذه الإمارة. وفي كتاب تاريخ الأمة الأرمنية تأليف الدكتور ك.ل. إستاجيان (ص١٩٣)، أن واسبوركان هي ولاية وان الحالية وكانت تشمل مدينتي (وان) و(وسطان). وقد شيد الأمير الأرزروني (جاجيك) دير آختمار وزيّنه بأكثر من (٤٠٠) تمثال ورسوم آدمية وحيوانية ونباتية، وذلك في جزيرة آختمار الواقعة في بحيرة وان في غرب وسطان في فترة (٩١٥-٩٢١م). وقد زرته في آب عام ١٩٧٧ ونشرت بحثاً جيداً بخصوصه في مجلة (دهوك) العدد (٧) سنة ١٩٩٩.

(٤) ذكر بو آميل في تاريخ أرمينيا (ص٢٧): أن أرمينيا كانت الى أوائل القرن الحادي عشر الميلادي مقسمة الى أربع إمارات وهي: الإمارتان المذكورتان وإمارة قار (ولعلها قارس) وإمارة لوري. غير إنه لم يحدد مناطق الإمارتين الأخيرتين ولعل إحداهما كانت إمارة السناسنة. وفي(الحروب الصليبية، ج١، ص٥٧) قال رنسيمان أنه في سنة ١٠٦٤م سلّم أمير قارس إمارته الى الدولة البيزنطية.

(٥) الفارقي، ص٤٦. بصدد السلسلة راجع مقدمة إبن خلدون، ص٦٧ . ٦٨ . ٦٩. راجع أيضاً إبن الأثير، الكامل، حوادث سنة (٤٢٧هـ)، حيث ذكر أن بلاد السناسنة مجاورة لخلاط وقريبة من الروم (البيزنطيين). ولهذا ظننت (وأخطأت) في الجزء الأول بقولي أن السلسلة التي ذكرها الفارقي هي جبل سيپان (سبحان داغ) وإن غاب الجوز هي مدينة (الجواز) الواقعة في سفح هذا الجبل العظيم والواقعة على شاطيء بحيرة وان. ولكن حسين سراج أوغلو الجغرافي التركي حدد مملكة غاب الجوز بمنطقة ساسون وموتكي في غرب بدليس وهو الصحيح، راجع كتابه: Dogho Anadolo ج١ ،ص٧٢. وفي شتاء ١٩٩٥-١٩٩٦ سمعت من بعض سكان ساسون من عشيرة (شيگو) أن مدينة ساسون تسمى أيضاً حالياً بغاب الجوز، وسنذكر السلسلة وغاب الجوز في موضوع الحياة البشرية: العرب.

أما علاقات الدولة الدوستكية مع الإمارات الأرمنية، فكانت علاقة طيبة منذ نشوئها في عهد الأمير باد بن دوستك. ولاشك أن علاقاته قبل تأسيس دولته لم تكن جيدة مع الأرمن، لأنه كان يشن الغارات على حدود الإمبراطورية البيزنطية المتاخمة لحدود الأرمن وكُردستان. ولهذا أتوقع أن علاقاته لم تكن حسنة مع الأرمن المرتبطين بالدولة البيزنطية الى حد كبير، ولعل بعض الأرمن في تلك الحدود كانوا يتعرضون لغاراته. ولكنه ومنذ أن عزم على تحرير كُردستان الوسطى من سيطرة الدولة البويهية قام بتحسين علاقاته مع الشعب الأرمني، لكي يتفرغ لمجابهة الدولة البويهية القوية. هذا فضلاً عن أن تغيير سياسته العدائية مع الدولة البيزنطية وعقده إتفاقاً ومعاهدة معها كان له بدون شك تأثير طيب على علاقاته مع الشعب الأرمني والإمارات الأرمنية المرتبطة بالدولة المذكورة. فتأييدها للأمير الكُردي ضد الدولة البويهية لايُتوقع بعده بقاء الأرمن في موقف عدائي منه. كما إن صداقة الأرمن له كانت على جانب كبير من الأهمية، إذ أن عداءهم له كان يتطلب تجميد قسم كبير من قواته في مناطق أرديش وخلاط وملازگر المتاخمة لأراضيهم خوفاً من إعتداءاتهم. و لم نعثر في الواقع على أي إشارة على سوء علاقة بين الطرفين أو أي إعتداء من الإمارات الأرمنية على حدود الدولة الدوستكية، في حين أنه كان منشغلاً بمجابهة البويهيين(٦).

إثر مقتل الملك باد على أبواب الموصل، وفيما كانت فيه الدولة الدوستكية في ظروف حرجة بسب المخاوف المتعلقة بإحتمال تعرض البلاد للهجوم من الجنوب أو من الحمدانيين بمساعدة من العقيليين على بلادها وإجتياحها الى أبواب فارقين ودياربكر، وفي هذا الوقت هاجم الأمير الأرمني (داود) مدينة ملازگر (منازجرد) الواقعة شمال بحيرة وان وإحتلها في سنة (٣٨٠هـ = ٩٩٠م) بداية عهد الأمير حسن (أبي على بن مروان) إبن أخت باد(٧).

في رأيي أن العلاقات الكُردية-الأرمنية تحسنت فيما بعد، ولعل للهدنة التي أبرمها الأمير حسن مع الدولة البيزنطية بعد ذلك بسنتين تأثير في تحسين تلك العلاقات(٨).

أما علاقة المصاهرة فيمكن إعتبارها أمراً حيوياً في العلاقات الدوستكية-الأرمنية، حيث تزوج الأمير حسن ببنت (سنحاريب) ملك السناسنة، وبعد مقتله تزوجها نصرالدولة على ما قاله الفارقي في ص١٦٩.

لقد ظلت العلاقات في جو من الصداقة أكثر من أربعين سنة على ما يبدو، إذ لم نعثر على حادثة إعتداء واحدة من كل من الجانبين. وكان للسياسة الديمقراطية الدوستكية إزاء المسيحيين وبضمنهم

(٦) راجع الجزء الأول من موضوع معاهدة مع االإمبراطورية البيزنطية، ص٦٢-٧١.

(٧) حسين حزني موكرياني، كُردستان موكريان، ص٢٤٥-٢٤٧، في هذا المصدر أنه كانت لداود إمارة في (دايك) الواقعة في شرق ملازگر. وفي سنة (٣٨٨هـ) هاجم الأمير الكُردي مملان الهذباني أرمينية بجيش كثيف إستهدف بالدرجة الأولى إحتلال منطقة دايك إنتقاماً من داود لهدمه جامع ملازگر ومستهدفاً تجديد عمارة مدينة گارن (أرضروم) التي هدمها البيزنطيون. ومن المحتمل أن داود هذا كان تابعاً للإمارة البكرادونية.

(٨) راجع الفارقي ص١٦٩موضوع: العلاقات مع الإمبراطورية البيزنطية.

الأرمن دور كبير في ترسيخ العلاقات بين الشعبين الكُردي والأرمني. أما توتر العلاقات مع السناسنة، فكان أثناء النزاع الكُردي - البيزنطي على الرها (أورفا) في سنة (٤٢٧هـ = ١٠٣٥م). فقد إعتدى السناسنة على الحجاج المسلمين القادمين من البلدان الشرقية والمارين بكُردستان. ووقع الإعتداء أثناء مرور الحجاج بالمنطقة الواقعة بين أرديش وبدليس، حيث سلبوا ما بحوزتهم إضافة الى قتل بعضهم. فإستاء نصرالدولة من ذلك وأخذ يتخذ الإستعدادات اللازمة لغزو بلادهم، ولكن السناسنة خافوا العواقب الوخيمة وبدأو في التفاوض معه على أن يترك غزو بلادهم مقابل إعادة ما أخذوه من الحجاج، وإتفق الطرفان على ذلك وتصالحا(٩).

في رأيي أن هذا الإعتداء وقع بإشارة من الدولة البيزنطية لتهديد الدولة الدوستكية من الشمال الشرقي أيضاً بتحريك الأرمن ضدها وللضغط عليها للتنازل عن الرها. ونستدل على هذا بما قاله إبن الأثير من أن السناسنة سلموا ما أخذوه من الحجاج الى الملك البيزنطي. ووقعت حادثة أخرى يعود سببها الحقيقي في رأيي الى السياسة البيزنطية. والحادثة هي قيام الوالي الدوستكي في الجزيرة بحملة تأديبية على الأرمن الذين كانوا تحت السيطرة الدوستكية في جنوب بحيرة وان على أغلب الإحتمالات. وحدثت هذه الحادثة أيضاً أثناء النزاع على الرها. ولذا نعتقد أن الدولة البيزنطية هي التي أشارت عليهم بالقيام ببعض الأعمال التي كانت السبب وراء الحملة المذكورة، وكان ذلك أيضاً أثناء النزاع على أورفا.

هذا وكانت إمارة السناسنة على جانب من القوة، فقد كان شعبها يثير مخاوف الدولة الدوستكية. ولهذا نرى مثلاً أن نصرالدولة صادر التاجر أبا بكر بن جري وإعتقله بتهمة التواطؤ مع ملك السناسنة. كما شيّد نصرالدولة حصناً على حدوده مع السناسنة ليصبح سداً أمامهم. كما أن وفد فارقين المطالب بعزل الوالي أبي علي البلخي خوّف ملكشاه من أن إقليم دياربكر متاخم للسناسنة والسكان متذمرون من البلخي على ما ذكره الفارقي في (ص٢٢٣). والجدير بالذكر أن نفوذ السناسنة قد توسع نحو الجنوب إثر سقوط الدولة الدوستكية، حيث إستولوا على ثلاثين قرية من منطقة (غاب الجوز)(١٠)، أي من منطقة ساسون وموتكي في غرب وشمال غرب بدليس وجنوب موش.

(٩) إبن الأثير، الكامل، حوادث سنة ٤٢٧هـ.
(١٠) الفارقي، ص ١٦٨، ٢٨٤. مخطوطة الأعلاق الخطيرة، ورقة ٩١.

الفصل الثاني

النظام السياسي والإداري

الإمارة، ولاية العهد، الوزارة، الحجابة، ديوان الرسائل والإنشاء، الحسبة، الأوقاف،

القضاء، الخطابة، النظام المالي، العملة الدوستكية، القوات المسلحة

النظام السياسي والإداري

إن الدولة الدوستكية الكُردية كأية دولة متقدمة في عصرها كانت لها أنظمتها السياسية والإدارية والعسكرية. وكانت أنظمتها بطبيعة الحال متأثرة أو مستمدة من الأنظمة المتعارف عليها في الدول المعاصرة لها، ولاسيما الدول الإسلامية وفي مقدمتها الدولتان العباسية والفاطمية. فكما معروف أن الدول وفي أي عصر كان، حتى في عصرنا هذا، تتأثر بأنظمة وقوانين الدول المعاصرة لها وتستمد منها ما تراه مناسباً وذو فائدة لها ولشعبها. وقد ذكر الفارقي أن الوزير أبي ا القاسم المغربي وكان عالماً وفاضلاً: "قد جمّل ولاية نصرالدولة وجعل لها الشأن العظيم ورتبها وقررها على قرار مصر والعراق"(١).

أي إن هذا الوزير بالرغم من قصر مدة وزارته نظّم شؤون الدولة الدوسكية الإدارية وإرتقى بها الى مستوى الدولة الفاطمية في مصر والدولة العباسية في العراق. فأدخل فيها من النظم والقوانين الفاطمية والعباسية ما لم يكن فيها سابقاً. يذكر أن الوزير المغربي كان ذا خبرة واسعة في الشؤون الإدارية والدولية والنظم والقوانين السياسية والعسكرية في عصره. وقد إكتسب تلك الخبرة بحكم ممارسته العملية وتوليه المناصب العالية، حيث كان رئيساً لديوان الزمام في الدولة الفاطمية عندما كان أبوه وزيراً فيها وتوليه الوزارة في الدولتين البويهية والعقيلية. ولكن ذلك لايعني أن الوزير المغربي أدخل كافة النظم والقوانين الموجودة في الدولتين الفاطمية والعباسية الى الدولة الدوستكية، وأن هذه الأخيرة قد أخذت حتى القوانين الجائرة أو أنها فرضت على شعبها الضرائب التي كانت موجودة في مصر والعراق. فلاشك أنه كانت للدولة الكُردية قوانين وأعراف خاصة بها مستمدة من بيئة كُردستان الإجتماعية والإقتصادية والعقائدية (الدينية). أي كانت لها قوانين وسياسة خاصة تجاه المسلمين والمسيحيين والزردشتيين (البرسيين) واليهود والأقليات القومية، ولاسيما القوميتين الأرمنية واليونانية غير الموجودتين في مصر والعراق. كما كانت للدولة الدوستكية نظم وأعراف تختلف في جوانب عديدة عن الموجودة في الدول الأخرى، كسياستها المالية والإقتصادية. فالتعامل بالدينار

(١) الفارقي، ص١٣٨.

البيزنطي على نطاق واسع في الدولة الدوستكية من أبرز أمثلة ذلك الإختلاف، الذي إتسم بوجود أنظمة وقوانين خاصة مرنة وديمقراطية ومنسجمة مع سياستها الداخلية، التي لم يكن لها مثيل في سياسات الدولة الفاطمية أو العباسية أو البويهية وكذلك السلجوقية، لاسيما في عهد الأمير نصرالدولة وإبنه نظام الدين البالغ مدة (٧١) سنة.

هنا تبرز مسألة يجب شرحها بشكل موجز، ألا وهي أن الدولة الدوستكية كانت تابعة للدولة العباسية وشعار التبعية التقليدي والقانوني هو إقامة الخطبة للخليفة العباسي، أي ذكر إسمه والدعاء له في خطبة الجمعة من قبل الخطيب بجانب إسم الأمير الحاكم وكتابة إسم الخليفة كذلك على النقود. وكانت الدولة الدوستكية تقيم شعار التبعية إذ نجد مثلاً إسم الخليفة العباسي على النقود الدوستكية. ولكن هذه التبعية لم تكن من الناحية الشرعية والقانونية الإسلامية سوى تبعية نظرية. فالدولة لم تكن تخضع للخلافة أو الدولة العباسية في تخطيط سياستها وإدارة شؤونها. وتفسير ذلك أن الشريعة الإسلامية كانت تلزم المسلمين كافة، بمن فيهم أمراء وولاة الأقاليم، تقديم الطاعة لإمام المسلمين الذي كان يمثله الخليفة، ولو أن شروط الخلافة لم تكن موجودة فيه.

في الواقع كان الملوك والأمراء المسلمون في شتى أرجاء البلاد الإسلامية يعتبرون طاعة الخليفة بعد تأسيس الدولة العباسية أمراً شرعياً من الناحية الدينية، وكانوا يقيمون شعار الطاعة. وبخلاف ذلك كان الملك أو الأمير وحكمه يعتبر خارجاً على الشرع وحكمه غير شرعي. ولهذا فإن الدول التي نشأت في البلدان الإسلامية كانت تقيم الخطبة للخليفة وتعترف بزعامته من الناحية الروحية، ولو كانت غير خاضعة له في إدارة شؤون بلادها. ومن هذه الدول: الدولة السلجوقية والغزنوية والطولونية والأيوبية من الدول الإسلامية القوية. فهذه الدول إضافة الى إقامتها الخطبة للخليفة العباسي، كانت تنقش إسمه على نقودها. وكان إرسال الخليفة بدوره اللقب والتوقيع والخلع الى ملوك وأمراء الأقاليم الإسلامية، يعد إعترافاً منه بشرعية حكوماتهم. وكانت تلك الدول والإمارات تكتب على آثارها أحياناً إسم الخليفة أو صفة "أمير المؤمنين" فقط. فبالقرب من باب الربض في فارقين مثلاً كتابة لصلاح الدين وصف نفسه فيها بـ(مغيث الخلافة) و(محيي دولة أمير المؤمنين) أى دولة الخليفة العباسي(٢).

وهناك في كتابات دياربكر وفارقين أمثلة كثيرة من هذا، وعلى هذا الأساس كانت تبعية الدولة الدوستكية للدولة العباسية. فالأولى وإن لم تكن من الدول كبيرة الحجم، إلا أنها كانت دولة مستقلة وذات سيادة كما مر التفصيل في بداية الفصل الأول. والجدير بالذكر أن الملوك الدوستكيين أطلق

(٢) نص الكتابة وهي كوفية مزخرفة جميلة: "بسم اللّه الرحمن الرحيم، لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه مما أمر بعمله مولانا الملك الناصر العالم العادل المؤيد المظفر المنصور المجاهد المرابط..... صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين باسط العدل في العالمين مجد الأمة مغيث الخلافة صاحب ديار مصر وزبيد وعدن ويمن والشام ودياربكر أبو المظفر يوسف بن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين". الكتابة من (ص٣٦٦) من Diarbakir Tarikhi، لبيسان أوغلو.

عليهم لقب (الأمير)، مثل كثير من ملوك الدول المختلفة كالطولونيين والإخشيديين في مصر والغزنويين، رغم تلقب (السلطان) محمود الغزنوي بملك الملوك وكذلك السامانيين والحمدانيين والأمويين في الأندلس. إلا أن مؤسس الدولة الدوستكية أطلق على نفسه لقب پاد (PAD) بمعنى الملك أو الحاكم.

الإمارة

كان الأمير الشخص الأول في الدولة والحاكم الأعلى المهيمن على السلطة وله أوسع السلطات، وله الحق وحده في إقرار أمور عديدة هامة: كإعلان الحرب وعقد الصلح وتعيين ولي العهد وإيفاد الممثلين الى الدول ورسم سياسة الدولة بصورة إجمالية وينتهي اليه حسم ما يعرض عليه الوزير من القضايا الهامة. وكان الإعلان عن تنصيب الأمير الدوستكي في الإمارة يتم في إجتماع كبير واسع يحضره الوزير، وقائد الجيش، والأمراء، وكبار شخصيات العاصمة، وأبناء الأسرة الدوستكية الحاكمة كما كان يحضره القاضي، والشهود، وكذلك الشعراء والقراء لينشدوا أناشيد التهنئة بالولاية والحكم(١).

أما المنجمون فكانوا يحضرون مراسيم تنصيب الأمير في بعض الأحيان، ويكون للمنجم رأي بعد أن يأخذ الطالع في تحديد يوم الإعلان الرسمي وجلوس الأمير في الحكم، كما حدث في تنصيب الأمير ناصرالدولة منصور. حيث أخذ المنجم الشهير (إبن عيسون) الطالع، فلم ير الإعلان عن تأميره وتعيينه في الإمارة إلا بعد ثلاثة أيام من وفاة والده نظام الدين(٢). فتم فعلاً إرجاء جلوس الأمير على التخت (حسب تعبير الفارقي) الى اليوم الذي حدده المنجم إعتقاداً برأيه.

وكان الوزير أو الحاجب (أي للملك السابق) هو الذي يعلن عن تأمير الأمير الجديد ويخلع عليه زي الإمارة ويجلسه على التخت أي عرش الإمارة. ثم كان المجتمعون يسلمون عليه بالإمارة ويوسم بالملك، كما أجلس الحاجب مَم (ممم) (ممهد الدولة) في الإمارة(٣)، والوزير إبن جهير (نظام الدين)، والوزير أبو طاهر الأنباري (ناصرالدولة) منصور، ثم إن الأمير كان يغير ثيابه ويلبس ثياب العزاء ويترك السرير ويجلس على الأرض بدون بساط، فيعود الشعراء والقرّاء من غناء أناشيد الهناء الى إنشاد المراثي(٤)، ثم يُشيع جثمان الأمير المتوفي الى مثواه الأخير. والراجح أن الأمير كان يؤدي

(١) تاريخ الفارقي، ص١٢٨، ٢٠١، ٢٠٢.

(٢) تاريخ الفارقي، ص٢٠١.

(٣) بين لنا إيليا برشنايا مطران نصيبين اليوم الذي تولى فيه ممهد الدولة الحكم، وهو يوم الخميس السابع من ذي القعدة من سنة (٣٨٧هـ). وذكر إنه كان حاكماً في مدينة الجزيرة، ولما سمع بنبأ إغتيال أخيه (في أوائل ذلك الشهر) أسرع منها الى فارقين. أما الفارقي فذكر انه كان يرافقه أثناء سفره الى دياربكر (آمد) ولم يشر الى أنه كان حاكماً في الجزيرة. ولعل ما قاله إيليا هو الصواب لأن الحادثة وقعت في زمنه. راجع ص٢٠٠-٢٠١ من تاريخ إيليا ترجمه من السريانية الى العربية الدكتور يوسف حبي.

(٤) الفارقي،ص٧٧، ١٢٨، ٢٠١، ٢٠٢. من المحتمل ان يكون المقصود بالقرّاء في كلام الفارقي (ص٢٠٢) ما هو=

اليمين أمام الحاضرين بضمنهم القاضي والشهود، الذين كانوا يسجلون كما أرى كتاباً بتولي الأمير، على أن يكون مخلصاً للدولة والشعب وأن يعمل لخيرهما. وكذلك أدى (نصرالدولة) في مدينة (أرزن – غرزن) اليمين أمام خواجه أبي القاسم الأصفهاني وبحضور والده مروان وأمه (فهم)، كما أداها أمام الجموع المحتشدة في أرزن والمتكونة من سكانها والأمراء وقادة وأفراد الجيش الحاضرين هناك، ورؤساء ورجال العشائر المسلحين الذين تقاطروا على أرزن لنصرة الأمير على (شيروه). كما إن أبا القاسم والحاضرين أدوا اليمين أيضاً وحلفوا أن يكونوا مخلصين للأمير والدولة(٥).

هكذا كانت مراسيم تنصيب الأمير الدوستكي أميراً على كُردستان الوسطى، وقد خلدها لنا المؤرخ الكُردستاني أحمد بن يوسف الفارقي. وقد ذكرنا نص ما قاله بصدد تنصيب كل من الأمير ممهد الدولة ونصرالدولة ونظام الدين ومنصور، فراجع هذه المواضيع في الجزء الأول. يذكر أن أثنين فقط من الملوك الدوستكيين توليا الحكم في ظروف إعتيادية إثر وفاة الأمير السابق وهما نظام الدين ومنصور. أما أبو علي حسن وممهد الدولة سعيد ونصرالدولة، فقد أخذوا بزمام الحكم في ظروف غير إعتيادية أي إثر إغتيال الأمير السابق. يذكر أن الأمير الدوستكي كان يُلقب أحياناً من قبل الخليفة أو الوزير أو الحاجب كالأمير أحمد بن مروان بن كَك (كەک) الذي لقبه الخليفة العباسي القادر باللّه سنة (٤٠٣هـ = ١٠١٣م) بنصرالدولة، كما لقّب الحاجب مَم (مەم) الأمير سعيد بن مروان بممهد الدولة. وقال الفارقي أن الأمير سعيد هو أول من لُقِّب من بني مروان(٦). وتجدر الإشارة الى أن كل من تولى الحكم من الدوستكيين وصف بـ(الأمير) سواء في المصادر التاريخية أو في الوثائق، أي كما ورد في الكتابات الموجودة على الآثار العمرانية مثل سور دياربكر وجسر دجلة عند دياربكر، كما سيأتي نص الكتابات في موضوع الاثار العمرانية(٧).

ونستثني من التعميم المذكور نظام الدين فإنه وبالإضافة الى وصفه بالأمير، فقد وصفه الفارقي بـ"السلطان" وذكر أن الوزير نظام الملك الطوسي لقبه بسلطان الأمراء، وذلك حين قدم الى فارقين سنة

=متفق مع ما قاله القلقشندي في صبح الأعشى، ج٣، ص٤٨٨، أي أن المقصود بهم من يسمون قراء الحضرة، إذ كان للخلفاء العباسيين قرّاء يرافقونهم في سفراتهم ومجالسهم، وكان هؤلاء يأتون في مجالس الخلفاء بآيات قرآنية مناسبة للمقام.

(٥) الفارقي، ص٩٥.

(٦) نفس المصدر، ص٧٧.

(٧) وُصف العديد من ملوك الدول الإسلامية بالأمراء، فقد أطلق لقب (الأمير) على الطولونيين والإخشيديين، رغم تمتع مصر بالإستقلال في عهدهم. كما أطلق اللقب على الغزنويين رغم تلقب محمود الغزنوي بملك الملوك، وكذا أطلق على السامانيين والحمدانيين وكذا على الأمويين في الأندلس الى القرن الرابع الهجري/ القرن العاشر الميلادي. راجع حسين الباشا، الفنون الإسلامية، ج١، ص١٢١و١٣٢، ومادة (الأمير) من ص١١٥-١٩١. الجدير بالذكر إن أول من تلقب بلقب (الملك) كان عضد الدولة البويهي. لقد وصف الأمير الدوستكي بـ(الملك) من قبل بعض المؤرخين، ولكن لم يقرنوه مع إسم الأمير وإنما قالوا مثلاً "كان نصرالدولة ملكاً حازماً". وعلى سبيل المثال راجع عبارة الخزرجي التي أدرجناها في الجزء الأول ص٢٦٥. ولهذا وصفناه أحياناً بالملك مثل قولنا "الملك الدوستكي".

(٤٦٣هـ = ١٠٧١)(٨).

لم يكن نظام الحكم في الدولة الدوستكية كما يظهر وراثياً في عهد كل من الأمير پاد بن دوستك مؤسس الدولة والأمير أبي علي والأمير ممهد الدولة. ولكن الملاحظ أن حكم كل واحد من هؤلاء لم ينته بظروف إعتيادية، بل إنتهى بقتل كل واحد منهم. هذا فضلاً عن أن ممهد الدولة لم يعقب ذرية، أما الأمير پاد فلم أجد إشارة فيما إذا كان قد ترك ذرية أم لا؟ أما الأمير أبو علي حسن فقد خلف إبنه الفضل أو (سنحاريب) الذي لم يتولَّ الحكم بعد مقتل والده، لأنه عمه ممهد الدولة هو من تولى الحكم، وأغلب الظن أنه كان غير قادر على الأخذ بزمام الحكم لصغر سنه(٩).

أما الأمير الرابع نصرالدولة بن مروان، فإنه جعل الحكم وراثياً. إذ أنه عهد بالحكم من بعده الى إبنه الثالث نصر (نظام الدين) وجعله ولياً للعهد، لأنه كان "ذا عقل ورأي وحزم وتدبير فولاه عهده من بعده لعقله ورأيه"(١٠). وقد عهد نظام الدين بالحكم الى إبنه الأكبر منصور(١١)، الذي تولى الحكم سنة (٤٧٢هـ = ١٠٨٠م) والذي سقطت الدولة في عهده.

لقد إقتدت الدولة الدوستكية بالدول المعاصرة لها كالدولة العباسية والفاطمية في إستحداث الحكم الوراثي المتمثل في (ولاية العهد). ولعل نصرالدولة وجد أن من الضروري إستحداث ولاية العهد، لذلك عهد بالحكم الى أحد أبنائه ورشحه ليحكم من بعد وفاته، وذلك خوفاً من إحتمال نشوب نزاع على الحكم بين أبنائه لكثرتهم، لأنه وكما قال الفارقي رُزق أكثر من أربعين ولداً ذكر وخلّف أكثر من عشرين منهم عند وفاته.(١٢)

الوزارة

إستحدث منصب الوزارة في الدولة الدوستكية في السنة الثانية من تأسيسها. فعندما إحتل الأمير (پاد) مدينة الموصل سنة (٣٧٣هـ = ٩٨٣م) إتخذ (أبا المطرف) عامل الدولة البويهية على الموصل، وزيراً له، وكانت لهذا مخابرات سرية مع الأمير پاد(١).

(٨) الفارقي، ص١٨٨.

(٩) بين المطران إيليا برشنايا اليوم الذي تولى فيه ممهد الدولة الإمارة وهو اليوم السابع من ذي القعدة من سنة (٣٨٧هـ) وكان يوم الخميس. راجع تاريخ إيليا، ص٨٣.

(١٠) الفارقي، ص١٧٧، ١٧٩.

(١١) الفارقي، ص٢٠١، ٢٠٢.

(١٢) الفارقي، ص١٧٨.

(١) الروذراوي، ذيل تجارب الأمم، ص٨٥.

فأبو المطرف هو أول من تولى الوزارة في الدولة الدوستكية، ولكننا لا نعلم عن مصيره شيئاً بعد إندحار القوات الدوستكية في السنة التالية. إذ لا نعلم هل رافق پاد أم إنه وقع في أيدي البويهيين؟ ومن هذا التاريخ الى نهاية عهد ممهد الدولة لا نجد ذكراً لمنصب الوزارة أو للوزير، ما يدفعنا للإعتقاد بأنهما قد ألغيا. وخلال تلك الفترة كان الأمير أبو الفوارس بن دوستك (أخو پاد) يقوم بالمهمات التي كانت من إختصاص الوزير عادة. أي كان يشرف على شؤون الدولة بعد الأمير، فكان يدير الشؤون الإدارية للدولة، كما كان والياً على العاصمة فارقين، بينما "كان پاد منشغلاً بفتح البلاد والعساكر، وبقي أبو الفوارس بميافارقين"(٢). كما قام بنفس تلك المهمة في تلك الفترة الحاجب مَم (ممم)(٣).

ومن بداية عهد نصرالدولة من نهاية سنة (٤٠١ هـ = ١٠١١م) وحتى سقوط الدولة للمرة الثانية في سنة (٤٨٦ هـ = ١٠٩٤م)، تولى الوزارة على التوالي: أبو القاسم الأصفهاني، وأبو القاسم المغربي، وإبن جهير، وكذا أبو نصر المنازي عند معظم المؤرخين. غير أن الفارقي ذكر أن (إبن بركة ناظر ديوان الجباية)، هو الذي قام مقام الوزير بعد وفاة المغربي الى أن تولى الوزارة إبن جهير(٤)، وتولى هؤلاء الوزارة لنصرالدولة.

وتولى الوزارة لنظام الدين أيضاً إبن جهير، وأبو الفضل بن عبدالكريم الأنباري المتوفي سنة (٤٥٨هـ)، ثم إبنه زعيم الدولة أبو طاهر سلامه. بينما شغل الوزارة أيضاً أبو طاهر مدة لناصرالدولة منصور، ثم شغلها الطبيب المسيحي أبو سالم (الفضل)، وأخيراً تولاها العالم والشاعر إبن الأسد الفارقي(٥).

أما الوزارة من حيث سلطتها ودائرة أعمالها، فإنها وكما وردت في المصادر التاريخية على نوعين:

١- وزارة تفويض

وهي أن يفوض الملك الى الوزير سلطات واسعة جداً في إدارة شؤون البلاد، فلوزير التفويض مثلاً الحق في تعيين الولاة والموظفين وعزلهم وصرف الأموال والرواتب لمن يحب ومنعها وقطعها عمن يريد. وله كذلك إطلاق سراح المسجونين ومصادرة الأموال (وله حق النظر في المظالم، وتقليد متولّ، وإقامة متصرف، وتدبير جيش وحرب، والتصرف في بيت المال) ولكن لا بد من عرض كل هذه الأمور على السلطان للموافقة وله رفض ما يشاء. ويرى قاضي القضاة الماوردي أن هذه الوزارة أفضل كي يشارك الوزير الإمام في إدارة الشؤون، وأصح من أن يتفرد الإمام (الملك) برأيه فيكون بهذه الوزارة أبعد عن الوقوع في الخطأ(٦).

(٢) الفارقي، ص٥٢.

(٣) الفارقي، ص٦١ . ٧٧.

(٤) الفارقي، ص١٤٧.

(٥) راجع التفاصيل في مواضيع وزارات هؤلاء كل على حدة في الجزء الأول.

(٦) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص٢٢.

٢- وزارة تنفيذ

ليس لهذه الوزارة سوى تنفيذ أوامر الملك. وليس لوزير التنفيذ سلطات واسعة كوزير التفويض ووزارته ضعيفة، لأن الوزير ليس إلا واسطة بين الملك والناس. كما إن وزير التنفيذ واسطة بين الملك وبين الولاة، فهو لذلك معين على تنفيذ الأمور وليس بوالٍ عليها. ويجب أن تجتمع في وزير التنفيذ سبع صفات وهي: الأمانة والصدق وقلة الطمع وأن يسلم فيما بينه وبين الناس من عداوة وشحناء وأن يكون يذكر ما يؤديه ويعلم الخليفة أو الملك لأنه شاهد وعليه أن يكون ذكياً فطناً وأن لايكون من أهل الأهواء(٧).

هذا وكان البعض من وزراء الدولة الدوستكية وزراء تفويض، كما يفهم من كلام الفارقي بصدد وزاراتهم كأبي القاسم الأصفهاني، الذي منحه نصرالدولة سلطات واسعة "وردَّ الأمور كلها إليه وحصل الأمير لايفعل شيئاً إلا بأمره ورأيه"(٨).

فهذا الوزير الذي لم يكن نصرالدولة يقدم على أمر هام أو يقره إلا بموافقته ليس إلا وزير تفويض. وكان الأمير الدوستكي يثق به ويعتمد عليه الى أبعد الحدود، وكيف لا فالأصفهاني كان صاحب الفضل الأول في إنقاذ الحكم الدوستكي من الزوال على يد (شيروه بن مم)، كما مر بالتفصيل في الجزء الأول. أما الوزير أبو القاسم حسين بن علي المغربي، فقد ذكر الفارقي أن نصرالدولة "ردَّ الأمور جميعها إليه"(٩). ولكن لم تكن ثقته به في مستوى ثقته بالأصفهاني، لاسيما أن المغربي كان معروفاً بحبه لإثارة القلاقل والفتن، لذا لا أستطيع أن أقول بأنه كان وزير تفويض ولا أستطيع أن أجزم بذلك. أما فخر الدولة محمد بن محمد بن جهير الموصلي، فقد قال الفارقي أيضاً أن نصرالدولة "ردَّ إليه الأمر فحصل العقد والحل وفوضت إليه جميع الأشغال.."(١٠). مع العلم إن ورود كلمة "فوَّضَ" ومشتقاتها ليست دليلاً على أن الوزير وزير تفويض، حتى وإن قال الملك للوزير عند تعيينه"فوضتك وزارتي". لأن وزارة التفويض تحتاج الى كتابة عقد بذلك بين الملك والوزير(١١).

(٧) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٢٥-٢٦. راجع أيضاً الوزير أبو سالم النصيبي، محمد بن طلحة، العقد الفريد للملك السعيد، ص١٤٦، طبع سنة ١٣١٠هـ. وأبو يعلي محمد بن الحسين الحنبلي (ت ٤٥٨هـ) الأحكام السلطانية، طبع ١٩٣٨: موضوع الوزارة. وإبن خلدون، مقدمة، ص٢٣٩. وراجع كذلك: جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج١، ص١٣٧. حسن إبراهيم وعلي إبراهيم، النظم الإسلامية، ص١٥٣. ناجي معروف، المدخل الى الحضارة العربية، ص٣٥. توفيق اليوزبكي، الوزارة ونشأتها وتطورها في الدولة العباسية، ص٢٨٦. حسن أحمد وأحمد إبراهيم، العالم الإسلامي في العصر العباسي،ص١٤١.

(٨) الفارقي، ص١٠٢.

(٩) الفارقي، ص١٣٠.

(١٠) الفارقي، ص١٥١.

(١١) الوزير أبو سالم، العقد الفريد للملك السعيد، ص١٤٦.

وعلى هذا فإن ما نقوله في كون الوزير وزير تفويض أو تنفيذ، إنما هو رأي نستمده من سلطات الوزير دون أن يكون لدينا دليل قاطع على ذلك. وهنا وصلت الجولة الى الوزير الطبيب أبي سالم، الذي قال الفارقي أن الأمير ناصرالدولة: "ولّى الأمور كلها أبا سالم الطبيب نال ثقة الأمير وزوجته والدولة كلها بحكم أبي سالم وزوجته"(١٢).

ولما سمع ناصرالدولة منصور بإقتراب الجيوش السلجوقية من البلاد لإحتلالها سنة (٤٧٦هـ = ١٠٨٤م)، سلم أمر الدولة الى وزيره وجعله نائباً عنه وتوجه الى بلاط السلطان (ملكشاه) في أصفهان للتفاوض معه "...رتب أمر البلاد وسلمها الي أبي سالم وزوجته وأمر الجند والناس بالإنقياد الى أمره وألا يُخالف"(١٣).

وأخيراً كانت الدولة تختار لمنصب الوزارة شخصيات إدارية وسياسية كفوءة. وكان كل من الوزير أبي القاسم المغربي وإبن جهير من الشخصيات المعروفة في التاريخ وقد تولى كلاهما الوزارة في بغداد. وقد أثنى الفارقي على الوزير أبي القاسم الأصبهاني وأبي الفضل الأنباري وأبي طاهر الأنباري. وكان أبو الفضل قد مارس وظيفة إدارية في الدولة العقيلية، وأما الأصبهاني فكان يُلقب بـ"شيخ الدولة" حتى قبل أن يتولى الوزارة وكان ذا رأي وكفاءة. وأما الشاعر (إبن الأسد الفارقي) فكان شهماً جسوراً محبوباً من قبل الطبقة الوسطى والكادحة في فارقين وبين المعنيين بالأدب والعلوم العربية، وكان له تلاميذ يشدون أزره. أما أبو سالم فكان من أطباء الدولة، ولكن الفارقي ينتقده على سياسته. ولعل ذلك غير خالٍ من تعصب الفارقي الديني، حيث إن أبا سالم كان مسيحياً. إلا أن الفارقي كان صائباً في إنتقاده ذاك، وذلك بسبب تقدير الوزير الخاطيء في مقاومة الجيوش السلجوقية الى مدى أبعد، حتى إذا دام الحصار السلجوقي عشر سنين أخذ الأمير ناصر بتقديره فرفض إقتراح السلطان ملكشاه بتقسيم البلاد الدوستكية(١٤).

وكان أبو سالم يكره السلاجقة مثل سيده، لأنهم كانوا يضطهدون المسيحيين ويحرمون عليهم إشغال الوظائف في دولتهم.

٣- الحجابة

يدعى صاحب هذه الوظيفة بـ"الحاجب" وهو الواسطة بين الملك والناس، وهو الذي يعد مواعيد مقابلات الملك وماهو من هذا القبيل، وربما يستشيره الملك في قضايا هامة ويوسع سلطاته. لقد إتسعت سلطات الحاجب الى سلطات الوزير في بعض الدول في القرون الوسطى. وقد وجدت بأن هذه الوظيفة قد تطورت في دول مختلفة حتى صارت في فترة من فترات العهد السلجوقي واسطة بين

(١٢) الفارقي، ص٢٠٦.

(١٣) الفارقي، ص٢٠٨.

(١٤) راجع الجزء الأول، ص٣٠١ و٣٠٥. والأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (ورقة ٩٤) لإبن شداد الحلبي.

السلطان والوزير، حيث كان الحاجب يتلقى الأوامر منه رأساً ويبلغه الى الوزير(١٥). ويقابل الحاجب في عصرنا هذا السكرتير أو رئيس التشريفات.

لقد إعتبر المفكر إبن خلدون هذه الوظيفة مثل الوزارة والوظائف الأخرى من حضارة الدولة. فقال إنه لم يكن "في دول المغرب وأفريقيا ذكر لهذا الإسم (أي الحاجب) للبداوة التي كانت فيهم"(١٦).

وكانت ظيفة "الحجابة" موجودة في الدولة الدوستكية الكُردية، ولعل أول حاجب فيها هو (عبدالله) الملقب بـ(عروس الخيل). وكان هذا كما يظهر من لقبه من خيرة الفرسان الكُرد ومن خيرة قادة الجيش الدوستكي. وقد صرح الوزير أبو شجاع الروذراوي بأنه كان حاجب باد وجزع عليه الأمير لما سمع بمقتله في معركة الموصل سنة (٣٨٠هـ = ٩٩٠م)، وأثّر عليه مقتله وكان من نتائج المعركة الفاشلة قتل الأمير باد نفسه، بعد سقوطه على الأرض أثناء إنتقاله من ظهر فرس الى أخرى وكسر ترقوته(١٧) وكان ضخيم الجسم.

وفي عهد الأمير حسن (أبي علي) كان الحاجب (مَم-ممم) و"كان شيخاً قد حنّكته التجارب"(١٨)، ويُفهم من كلام الفارقي أن إبنه (شيروه) كان حاجباً هو الآخر للأمير حسن(١٩). أما في عهد الأمير ممهد الدولة، فقد ذكر الفارقي أنه لما تولى الحكم إستحجب شيروه، أما َمم الذي "أجلس الأمير سعيد في الإمارة ولقبه بممهد الدولة"(٢٠)، فيُحتمل أنه ظل حاجباً أيضاً. علماً إنه حدث أن كان للأمير أو الملك الواحد أكثر من حاجب. فقد كانت وظيفة (حاجب الحجاب) موجودة في الدولة العباسية(٢١)، أي إن أحد الحجاب كان يصبح في مركز أعلى، خلافاً لما ذكرته في الجزء الأول (ص١٣١) من الدولة الدوستكية.

أما في عهد كل من الأمير نصرالدولة ونظام الدين ناصرالدولة، فلم نجد ذكراً للحاجب ما عدا إشارةً وردت في إحدى رسائل المؤيد في الدين الشيرازي المرسلة الى نصرالدولة، وفيها إنه إستلم

(١٥) الدكتور حسن باشا، الفنون الإسلامية، ج١، ص٣٨٥.

(١٦) مقدمة إبن خلدون، ص٤٤١. بخصوص الحجابة راجع إبن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، جج١، ص٢٦٩-٢٧٤.

(١٧) الروذراوي، ذيل تجارب الأمم، ص١٧٦. معنى عروس الخيل بالكُردية (بوكاسواران) يحتمل أن لقب عروس الخيل تعريباً للقب الكُردي (بوكاسواران) الذي يطلقه الكُرد على من هو أكثر كفاءة من كافة الفرسان وهو لقب مازال حياً في كردستان تركيا حتى الآن.

(١٨) الفارقي، ص٦٦ و٦٧.

(١٩) نفس المصدر، ص٧٥ و٧٦. ذكره إيليا برشنايا بإسم (شيروين). راجع تاريخ إيليا برشنايا، ص٨٤، المسمى (كتاب الأزمنة).

(٢٠) الفارقي، ص٧٧.

(٢١) حسن الباشا، الفنون الإسلامية، ج٣، ص٣٨٠.

رسالته أي رسالة نصرالدولة من أحد حجّابه المقربين(٢٢). مع أن هذا لايعني هنا الحجابة الرسمية وأنه كان حاجباً رسمياً.

أما إذا نظرنا الى سلطة الحاجب في الدولة، فسنرى بأنها كانت واسعة كسلطة الوزير بحيث يصعب التمييز بينهما. فالفارقي قال مثلاً أن مَم "بقي يسوس دولة أبي علي ويدبرها أحسن تدبير"(٢٣). وهذا الوصف يطابق وصف المؤرخين عادة لمجمل سلطات الوزير بكونه مدبراً لسياسة الدولة. ويطابق كذلك وصف الفارقي نفسه للوزير الأصبهاني والمغربي، ولهذا ظننت أولاً أنه كان وزيراً لأبي علي ووصفته بالوزير ولكن مع وضع علامة الإستفهام(٢٤). لقد كان لشيروه بن مم أيضاً سلطة واسعة كسلطة الوزير، كما يظهر من كلام الفارقي الذي قال إن:"ممهد الدولة إستقر في المملكة وشيروه صاحب الرأي والمشورة ونديم الأمير وصاحبه وأقرب الناس عنده والدولة بأسرها والبلاد بأمره"(٢٥). ولعل كلام الفارقي لايخلو من مبالغة. وأخيراً يُحتمل أن الدولة ألغت وظيفة الحجابة إبتداءً من عهد نصرالدولة، حيث لم نجد ذكراً لهذا المنصب بعد ذلك أو أنها حددت من شأن الحجابة.

٤- ديوان الرسائل والإنشاء

من دواوين (دوائر ووظائف) الدولة المهمة ديوان الإنشاء الخاص بكتابة الرسائل. ويُعرف بديوان الرسائل والإنشاء وكذلك بديوان الرسائل والكتابة أيضاً. وسمي في الدولة السلجوقية بإسم (ديوان الطغراء) ولم يكن موجوداً في مصر قبل العهد الفاطمي. أما الموظف المختص والإنشاء فيعرف بصاحب ديوان الرسائل والإنشاء وبكاتب الإنشاء أيضاً. من شروط هذه الوظيفة أن يكون صاحبها أديباً لامعاً وكاتباً بارعاً يجيد فن الإنشاء والتراسل متقناً لأساليب البلاغة وفنونها. وأن يكون من أهل المروءة ومتصفاً بالإحتشام والأمانة لأنه كاتب سر الملك. أما أهمية ومكانة هذه الوظيفة فقد، إعتبرها الوزير أبو سالم ثاني وظيفة في الدولة، أي أنها تأتي بعد الوزارة من حيث الأهمية. وقال أبو سالم في ذلك: "وكتابة الإنشاء من مقومات الدولة وقواعد المملكة وصاحبها المباشر لها في خدمة السلطان معدود من أكابر الأعضاء والأعوان.... نازل منزلة القلب واللسان من الإنسان، فإنه المطلع على الأسرار والمجتمع لديه خفايا الأخبار(٢٦).

وقد إقتبس أبو عبدالله بن الأزرق في (بدائع السلك في طبائع الملك، ج١، ص٢٧٦) قولاً لأرسطو (موجهاً الى الملك) بخصوص أهمية دور الكاتب، فقال: "إنه يترجم عن إرادتك ويطّلع على أسرارك"،

(٢٢) سيرة المؤيد، ص١١٣. راجع نص الرسالة في موضوع العلاقات مع الدولة الفاطمية.

(٢٣) تايخ الفارقي، ص٦١.

(٢٤) راجع الدولة الدوستكية، ج١، ص١٣١.

(٢٥) الفارقي، ص٨٠.

(٢٦) أبو سالم محمد بن طلحة النصيبي، العقد الفريد للملك السعيد، ص١٤٧.

ووصاه بتقدير الكاتب وإحترامه. ولهذا يرى البعض أن مركز صاحب ديوان الإنشاء لايقل عن مركز الوزير(٢٧).

وقد إستغنت " كثير من الدول عنها رأساً كما في الدول العريقة في البداوة، التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا إستحكام الصنائع..."(٢٨).

أما واجبات صاحب ديوان الرسائل وأعماله حسبما حددها المؤرخون في القرون الوسطى، فتتمثل في: القيام بكتابة رسائل الملك الرسمية الى الملوك والأمراء وكبار رجال الدولة، وكتابة الإتفاقيات والمعاهدات بين دولته والدول الأخرى. وكان صاحب ديوان الإنشاء في العصر العباسي "يكتب في آخرها إسمه ويختم عليها بخاتم السلطان، وهو طابع منقوش فيه إسم الملك أو السلطان أو إشارته، ويغمس في طين أحمر مذاب بالماء ويسمى طين الختم ويطبع به على طرفي السجل (أي الرسالة) عند طيه وإلصاقه"(٢٩).

وربما كان صاحب ديوان الإنشاء يقوم بمهمة السفارة الى الدول الأجنبية لمهمات رسمية تتعلق بالسياسة الخارجية للدولة. وهكذا نرى أن صاحب هذه الوظيفة كان بمثابة وزير الخارجية أيضاً. وكان هذا الديوان يتسلم الرسائل من ديوان البريد، وكان لصاحب الديوان كاتب يرتب الكتب(٣٠).

لقد كانت هذه الوظيفة المهمة موجودة في الدولة الدوستكية، فقد أعطانا الفارقي إسم صاحب ديوان إنشاء الرسائل في عهد نصرالدولة والوزير أبي القاسم الأصبهاني، وهو أبو السعيد الكبير الكاتب إبن بختيشوع الخازن، الذي تولى تجديد جامع فارقين سنة (٤١١هـ = ١٠٢٣م). أما صاحب هذه الوظيفة في عهد الوزير أبي القاسم المغربي، فكان الأديب الشاعر أبا نصر أحمد بن يوسف المنازي، وعنه قال الفارقي: "وبقي الوزير في الوزارة... وكان نظر الديوان مردوداً الى بن بركة بين يدي الوزير وكاتب الإنشاء والرسائل المنازي الشيخ أبو نصر وكان من أهل منازجرد وكان فاضلاً شاعراً فيه الكفاية وترسل الى القسطنطينية مراراً الى ملك الروم..."(٣١).

وصلنا إسم شخص ثالث تولى هذا المنصب وهو أبو (الفرج الزهرجي) الذي كان كاتباً لامعاً. ويُفهم من رسالة إبن القارح الى أبي العلاء المعري أن أبا القاسم كان كاتباً لنصرالدولة حوالي سنة (٤٢٤هـ) على ما سنذكره.

وهكذا نجد أن هذه الدائرة المهمة (ديوان الرسائل والإنشاء)، التي إعتُبرت من مقومات الدولة ومن أوجه الحضارة، كانت موجودة في الدولة الكُردية وأن المنازي تولاها في عهد الوزير المغربي، وأن الدولة أرسلته في مهمات دبلوماسية الي الدولة البيزنطية. وقام المنازي كما قال المؤرخون بزيارة لبلاد

(٢٧) الدكتور حسن إبراهيم وعلى إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، ص١٨٠.

(٢٨) إبن خلدون، مقدمة، ٢٤٣.

(٢٩) إبن خلدون، مقدمة، ص٢٤٣.

(٣٠) الدكتور حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم شريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص١٤٤.

(٣١) الفارقي، ص١٣١.

الشام وأخرى لبغداد(٣٢). وزار بلاد الشام مرتين على الأقل قبل عهد الأمير نصرالدولة، وكانت الأخيرة في عهد الأمير ممهد الدولة والأولى في عهد الأمير حسن، وذلك على ما يظهر من إشارة المؤرخين الى إجتماعه في الزيارتين بأبي العلاء المعري، الذي أبدى إعجابه بالمنازي كما سيأتي في موضوع الحياة الثقافية. وكان بين الزيارتين مدة خمس عشرة سنة، ومن المحتمل أنه أرسل بمهمة دبلوماسية الى الدولتين الفاطمية والعباسية.

٥- الحسبة (النقابات)

دعي صاحب وظيفة الحسبة (بكسر الحاء سكون السين وفتح الباء) بـ(المحتسب)، وتنقسم واجبات هذه الوظيفة الى قسمين:

١- ما يتعلق بالأمور الدينية؛ كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢- ما يتعلق بحقوق الناس والمعاملات ومراقبة السوق والإشراف عليها ومراقبة المكاييل والموازين لمنع الناس من الغش فيها وتحديد أسعار بعض المواد، ومراقبة كل ما يكون عرضةً للغش والتلبيس من أنواع المركبات وأصناف المخلطات كالأشربة والمعاجين... والأدهان والحلويات والشموع وأنواع الوبر وأصناف المأكولات والأطعمة والكسوات..."(٣٣).

وكان المحتسب ورجاله يعملون على: "حفظ أموال التجار والغرباء الواردين من الأمصار، الرعايا فيما تدعوهم إليه حاجة الإضطرار بإقامة الضمان للسماسرة والدلالين والباعة والنقلة والحمالين والمكارية والجمالين..."(٣٤). ومن واجبات وظيفة الحسبَة أيضاً مراقبة نظافة شوارع المدينة، ومراقبة البنايات المتداعية المشرفة على السقوط لهدمها تجنباً من سقوطها على الناس وما ينشأ من ذلك من أضرار. ولهم أن يمنعوا الحمالين من حمل الشيء الثقيل ومنع أصحاب الدواب من تحميلها بأحمال ثقيلة، ومنع معلمي صغار الأولاد من ضربهم ضرباً مبرحاً(٣٥).

(٣٢) إبن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٤٤. العماد الأصبهاني، خريدة القصر، ج٢، ٣٤٨. الحموي، معجم البلدان، ج٧، ١٦٧. إبن الوردي، ج١، ص٣٤٩. إبن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٥٤. إبن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٣، ص٢٥٩. فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، ج١٠، ص٢٥٣. حسن الباشا، الفنون الإسلامية، ج٢، ص٣٦٧.

(٣٣) أبو سالم النصيبي، العقد الفريد للملك السعيد، ص١٨٠.

(٣٤) نفس المصدر، ص١٨٠. راجع أيضاً إبن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، ج١، ص٢٦٢-٢٦٣. والدكتور عبدالعزيز الدوري، مقدمة في التاريخ الإقتصادي العربي، ص٦٩.

(٣٥) إبن خلدون، مقدمة، ص٢٢٥. راجع المصادر الآتية: الدكتور حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي، ج١، ص٥٧٨. جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج١، ص٢٣٣، الطبعة الثانية ١٩١٤. الدكتور ناجي معروف، المدخل الى الحضارة العربية، ص٤٦. الدكتور حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثارا العربية، ج٣، ص١٠٣١.

ويراقب المحتسب أيضاً الأطباء والصاغة والنساجين والصباغين والقصابين وأصحاب السفن(٣٦)، والمعلم والحاكة والمختص بمعاملة النساء في مجال ما، وتجاوزات الأبنية على الطرقات العامة في المدينة، وله أن يهدمها حتى وإن كانت مسجداً. كما يمنع المحتسب إخصاء الآدميين والبهائم ومن خضاب الشيب بالسواد، إلا في حالة الحرب (الجهاد)، وكذلك تصبّغ النساء. كما يمنع المحتسب من التكسب بالكهانة واللّهو. وقد وردت خلاصة مهام المحتسب في عدد من الوثائق الرسمية، منها مرسوم صادر عن الخليفة العباسي الطائع (٣٦٤-٣٨١هـ) سنة ٣٦٦هـ يضم إعترافه بسلطة الملك البويهي فخر الدولة(٣٧). ومنها وثيقة رسمية مصرية من إنشاء القاضي الفاضل (تولى الوزارة لصلاح الدين الأيوبي) عبارة عن مرسوم بتعيين شخص في الحسبة(٣٨).

أما سلطات المحتسب فتتدرج من التعريف والبيان الى العظة والتخويف الى الضرب وحبس المخالف، إن لم تنفعه محاولاته السابقة(٣٩). وللمحتسب أن يستعين بقوات الشرطة في تنفيذ أوامره عند الضرورة. كما إنه يساعد القاضي في تنفيذ الأحكام بسرعة لدى الحاجة. وكانت الحسبة في بعض الدول تابعة للقضاء، لاسيما في الفترات الأولى من نشوئها.

هذا وكان المحتسب يعين له نواباً، أي نقباء في سائر المدن، ويعين لكل سوق رئيساً يدعى بـ"شيخ السوق" أو رئيس السوق يقوم بمراقبة سوقه في المجالات التي مر ذكرها، ويحل مشاكل السوق ويبلغ المحتسب أو نائبه بالمشاكل المستعصية عليه كبعض السرقات والخصومات والجرائم، وذلك ليحلها المحتسب نفسه.

أما الشروط الواجب توفرها في المحتسب ورجاله فمنها؛ التحلي بالورع والأمانة والنزاهة وليس شرطاً أن يكون كل واحد منهم عالماً، بل يكفي أن يكون مجرد قاريء. أما تاريخ نشوء هذه الوظيفة، فقد تحددت معالمها في نهاية القرن الثاني للّهجرة، وذلك بعد ظهور المذاهب الفقهية وإزدهار التجارة وتقدم الصناعات وظهور الحاجة الى مراقبة التجار والصنّاع ومختلف العاملين في الأسواق. وذهب البعض الى أن الحسبة هي إستمرار لوظيفة (الأجورانوم) الموجوة في الدولة البيزنطية. وحاول البعض إيجاد صلة بين كتب الحسبة الإسلامية، أي المؤلفة في قوانينها، وبين كتب أخرى مشابهة عند البيزنطيين. أما الباحث الدكتور حسن الباشا، فيرى خلاف ذلك ويقول بأنها وظيفة إسلامية صرفة، ولعلها إنتقلت الى بيزنطة عن طريق الحروب الصليبية(٤٠). ولكن ذلك غير صحيح فالعرب المسلمون

(٣٦) القاضي أبو يعلي، الأحكام السلطانية، ص٢٩٠-٢٩١ وفيه بحث مطول في الحسبة من ص٢٦٨-٢٩٢. قاضي القضاة الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص٢٥٥-٢٥٦ و٢٥٨.

(٣٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص٣٠ نص المرسوم.

(٣٨) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص٤٦٠-٤٦٢: نص المرسوم.

(٣٩) الموسوعة العربية، ص٧١٧، بإشراف محمد شفيق غربال.

(٤٠) الدكتور حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ج٣، ص١٠٢٨ -١٠٢٩. راجع أيضاً الدكتور حمدان عبدالمجيد الكبيسي، أسواق بغداد، ص٣١٤-٣١٩.

أخذوا تنظيم الحرف والأسواق من الدولتين البيزنطية والساسانية وخاصة من الأولى(٤١).

وكانت دائرة أو وظيفة الحسبة موجودة في الأنظمة الحضارية والإدارية الدوستكية، كما كانت موجودة في الدولتين العباسية والفاطمية. وكانت نظم الوظيفة وقوانينها في هذه الدولة الكُردية مشابهة لتلك الموجودة في الدولتين المذكورتين. فقد نظمت الدولة الكُردية ووزعت المهن والحرف على أسواق مختلفة ومختصة. ونحن نستند الى وجود هذه الوظيفة في الدولة الدوستكية على ما أورده المؤرخ الكُردستاني أحمد بن يوسف الفارقي من أن (عبد البر)، الذي ترأس مؤامرة إغتيال الأمير أبي علي في مدينة دياربكر، كان "شيخ سوق الطعام"(٤٢).

ولا يخفى بأن مصطلح "شيخ السوق" إصطلاح معروف في نظام الحسبة، ويُطلق على رئيس السوق العامل في الحسبة. ونحن نستدل في تفسيرنا هذا لـ"شيخ سوق الطعام" بما ورد في بعض المصادر في هذا الصدد. حيث قال الدكتور حسن الباشا مثلاً في مادة (شيخ): "... ومن جهة أخرى استخدم (الشيخ) كإسم وظيفة مدنية كان يطلق على رؤساء طوائف الحرف والصناعات. ذلك أنه جرت العادة في العصور الوسطى أن يعين لكل حرفة أو مهنة رئيس يسمى الشيخ... وكان هذا الشيخ يهيمن على أصحاب هذه الحرفة، وهو الذي يجيز للصانع مزاولة صناعته بعد إختباره. وكان يتخذ له معاونين. وكان يساعد المحتسب في رقابة الصناع... وهكذا وجد لكل حرفة أو صناعة شيخ مثل شيخ النجارين وشيخ الدباغين"(٤٣). وكان فوق شيوخ الأسواق نقباء وفوق النقباء المحتسب.

لم يرد في تاريخ الفارقي ذكر لإسم أحد المحتسبين في مدينة ما من مدن الدولة الدوستكية إلا مرة واحدة، حيث قال في (ص٢٤٧): "إن قاضي فارقين أبا بكر بن صدقة عين أبا الحسن علي بن محمد بن صافي في الحسبة". ولكن لا نعلم بالتأكيد هل إنه تولى الحسبة في العهد الدوستكي، أو كان تعيينه في العهد السلجوقي، أوإنه مارس هذه الوظيفة في الدولتين؟ وكان والد المذكور عبداً لبني نباته. كما نعلم أن أبا الحسن تولى الحسبة في فترة قضاء إبن صدقة الممتدة من (٤٦٨-٤٩٠هـ) والمقسمة بين العهدين المذكورين. ويذكر الفارقي في (ص٢٤٧) أنه لما أصبح وزيراً للأمير آلتاش السلجوقي أمير فارقين، آذى سكان فارقين كثيراً حتى أنه هدم بيوت عدد منهم، ثم قتله الرئيس أبو عبداللّه إبن موسك.

(٤١) راجع صباح إبراهيم سعيد الشيخلي، الأصناف في العصر العباسي: نشأتها وتطورها، ص ٧٠-٧٢ و١٤٢. وهو كتاب قيم في التنظيمات الحرفية في المجتمع العربي الإسلامي.

(٤٢) الفارقي، ص٧٥.

(٤٣) حسن الباشا، الفنون الإسلامية، ج٢، ص٦٠٣-٦٣١ و٦٣٦. وفي هذا المصدر كتابات أثرية على المنشآت تحمل إسم بعض المحتسبين. في (الأصناف في العصر العباسي، ص١٠٨) لصباح إبراهيم الشيخلي، شرح لإصطلاح "الشيخ" قال فيه بأن لكل صنف من (الحرف والمهن) شيخ. فللبزازين شيخ وللنحّاسين شيخ وللملاحين شيخ وللأطباء شيخ. ويسمى الشيخ بالرئيس أيضاً، حيث نجد للخياطين رئيساً وللتجار رئيساً وللخدم رئيساً. والشيخ أو الرئيس هو أحد أفراد الصنف. وأما إنتخابه، فيكون من قبل أعضاء الصنف وتعترف السلطة بتعيينه أو يعينه المحتسب. وهو الموظف الحكومي المسول عن الأصناف، فهو يمثل الصنف في كافة القضايا العامة ويتدخل في تحديد الأسعار بالتشاور مع المحتسب.

ومن الباحثين من يعتبر (الحسبة) نقابة عامة تضم في نظامها نقابات شتى. فتفويض كل سوق الى رئيس "شيخ" يشرف عليها وينظم شؤونها الإقتصادية والعلاقات القائمة بين أصحاب الحرف في كل سوق، مثل اسواق الحدادة والتجارة والنجارة والبز وسوق الطعام... إنما هو نقابة في حد ذاتها . فمثلاً كان التجار ينخرطون في تنظيمات مهنية خاصة بهم، فكانوا يؤلفون نقابات بحسب السلع أو يتجمعون في طوائف حسب السلع أو الأسواق أو المدن. وكان لكل نقابة رئيسها أونقيبها ولكل طائفة شيخها..."(٤٤). وهكذا كان "الصناعيون ينتظمون في نقابات تشبه النقابات الحديثة تحمي حقوقهم وتشرف على تأية واجباتهم على الوجه الأكمل... إذ كان رئيس كل حرفة أو شيخ الصنعة هو المهيمن على أفراد مهنته"(٤٥).

وهكذا نرى الباحثين يجزمون في دراساتهم بوجود النقابات في كل من الدولة العباسية والفاطمية، بل في معظم الدول الإسلامية (كالدولة الدوستكية) في القرون الوسطى. ومن المؤرخين من يُرجع نشوء النقابات الى عصور أبعد. ومن هولاء (ويل ديورانت) الذي يقول بأنه كانت في الهند في القرن الخامس قبل الميلاد نقابات لصناع المعادن والعاج والجلود وغيرها. وكانت النقابات تفض النزاع بين الصناع وحتى بينهم وبين زوجاتهم(٤٦).

والدولة الدوستكية كدولة متقدمة وذات أنظمة حضارية لم تختلف عن مثيلاتها في هذا المجال، بل وضعت جهازاً للتنظيم الإقتصادي وتنظيم العلاقات الإنتاجية بين مختلف أصحاب الحرف والصناعات والعاملين في السوق. ونشأت في المدن الكُردية، لاسيما الكبيرة منها كدياربكر والعاصمة فارقين نقابات مختلفة. وكانت المدن تضم أسواقاً عديدة يشرف على كل واحدة منها رئيس مثل عبد البر "شيخ سوق الطعام" في مدينة دياربكر (آمد) ذات الأسواق الكثيرة. وقد ذكر الدكتور(أديب معوض) في كتابه (الأكراد بين الأمس واليوم)، أنه كانت في هذه المدينة في العهد الدوستكي بضعة وستون سوقاً مختلفة ومنظمة. وسنذكر في موضوع الطب أن زاهد العلماء منصور بن عيسى كان رئيس الأطباء، وهو كإصطلاح الشيخ (شيخ السوق ورئيس السوق) يعبّر عن نفس التنظيم الحرفي. وكانت في فارقين كذلك أسواق مختلفة ذكر الفارقي أسماء ثلاثة منها هي: سوق القبة التي تقع في وسط المدينة بالقرب من الجامع الكبير من جهة الغرب، وسوق البز أي سوق القماش، وسوق العطارين. وكان في السوق الأخير حانوت (صيدلية) للطبيب أبي سالم الوزير للعقاقير والأدوية الطبية(٤٧). وأن نظام الحسبة كان موجوداً في هذه الدولة الكُردية.

وكانت الأسواق تعنى بتنظيمها ونظافتها، وبعضها الى حد بعيد. ويتجلى هذا فيما قاله الفارقي من أنه "كانت سوق البز (في فارقين) لها من الحرمة والناموس شيء كثير، بحيث أنه لايُدخل إليها

(٤٤) حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف، ج١، ص٣٣١.
(٤٥) الدكتور محمد عبدالعزيز، الفن الإسلامي تاريخه وحضارته، ص١٧٠.
(٤٦) ويل ديورانت، قصة الحضارة، ج٣، ص٢٦.
(٤٧) الفارقي، ص٦٦، ١٠٠، ١٦٥ و٢٠٦.

راكباً البتة"(٤٨).

وأضاف أن أحداً من بني عم الأمير أبي علي دخل سوق البز (أي سوق القماش) راكباً، فشق ذلك على أصحاب السوق. ثم عاد بعد أيام ودخلها راكباً مرة ثانية "فراث فرسه في السوق، فأنزلوه من الفرس وألزموه حتى حمله في ذيله ورمى به خارج السوق". ولما سمع أبو على بهذه الإهانة غضب فإستشار حاجبه العجوز "ممم" في وضع خطة للإيقاع بهم وبغيرهم من المعارضين. فبطش بهم فعلاً يوم العيد سنة (٣٨٤هـ = ٩٩٤م) (٤٩).

أخيراً إن نظام الحسبة نظام قديم، فقد كان موجوداً في العهد الجمهوري الروماني قبل الميلاد. وكان المحتسب (Aedile) و(الرقيب) والمدعي العام والقسطور (موظف المالية)، هم من طبقة (الحكام) من الدرجة الثانية. وكان زي المحتسب ورداؤه الرسمي يسمى (توكا پريتكستا) الذي تنتهي أطرافه بشريط أرجواني(٥٠). وكان موجوداً في الدولة الساسانية أيضاً ولعلهم أخذوها عن الرومان وأخذها المسلمون كذلك عن الدولتين البيزنطية والساسانية والأولى منهما خاصة.

٦- الأوقاف

كانت الأوقاف دائرة هامة من دوائر الدولة الدوستكية ومؤسسة دينية إقتصادية ذات شأن كبير. لما كانت تمتلكه من قدرة مالية واسعة والكثير من الأراضي والعقارات في مختلف المناطق، التي جعلها أصحابها وقفاً على الفقراء وأهل العلم والمباني الدينية والجسور وحراس المناطق الحدودية وأسوار المدن. وقد توسعت الأوقاف في عهد الدولة، فأصبحت تمتلك قرى بكاملها. وكان نصرالدولة يشجعها ويهتم بتوسيعها وتحسين إدارتها، وقد جعل شخصياً كثيراً من العقارات والأراضي وقفاً على الفقراء والجسور والمنشآت الدفاعية وعلى مستشفى فارقين.

ففي سنة (٤٠٨هـ = ١٠١٧م) أو التي قبلها أمر نصرالدولة وزيره أبا القاسم الأصبهاني ومدير الأوقاف الشيخ أبا محمد (الحسن بن محمد بن المحور)، أن يختارا قرية ذات دخل كبير بحيث تبلغ وارداتها السنوية من الحنطة ثلاثمائة وستين جريباً(٥١)، ليجعلها وقفاً على الفقراء والمساكين. فإختارا له قرية (العطشا) فوقفها. وكان نصرالدولة يفرق وارداتها في جامع فارقين كل سنة على الفقراء والمساكين، وكان قد نذر في سنة قحط وغلاء في عهد ممهد الدولة، إذا تولى الحكم أن يتصدق بجريب من الحنطة كل يوم. فكان يفي بنذره أي يتصدق يومياً بالمقدار المذكور في جامع فارقين الى

(٤٨) الفارقي، ص٦٦.

(٤٩) الفارقي، ص٦٦ نص الحادثة في الجزء الأول من الدولة الدوستكية، ص١٣٣.

(٥٠) راجع آ. بتري، المدخل الى تاريخ الرومان وأدبهم وآثارهم، ص٥٦، ٥٨، ٦٠.

(٥١) الجريب: مكيال قدره أربعة أقفزة، والقفيز ثمانية مكاكيك، كما قال إبن منظور في (لسان العرب، ج١، ص٢٦١). والبستاني في (محيط المحيط، ج١، ص٢٣٠).

حوالي سبع سنوات. وخشي أن يغفل عن ذلك في يوم من الأيام، فوقفها في السنة المذكورة(٥٢)، أي إتخذها وقفاً. وكذلك جعل نصرالدولة وقفاً على سور مدينة فارقين عدداً من القرى والعقارات، حيث قال الفارقي: "... وفعل الخير وعدل في الناس وقف على سور ميافارقين ضياعاً ومواضع وفعل الخير ما لم يفعله أحد من بيته وأهله"(٥٣)، "ووقف على السور القرايا وغيرها"(٥٤). ووقف نصرالدولة أراض وعقارات على سبعة من الجسور في كُردستان، هي جسور "الحسنية و الحميدية وتل بنان وقطينيتا وبابودين والإبراهيمية وبرسدى"(٥٥). وبنى نصرالدولة حماماً أو حمامي العقبة، ووقفهما على السور. كما إنه بنى حمام الجديد في صحراء الشورجان ووقفها على السور أيضاً(٥٦).

كما إنه وقف على "جامع المحدثة" خارج سور العاصمة وقد جدد عمارته سنة (٤٢٣هـ = ١٠٣٢م)، أما مستشفى فارقين (بيمارستان) الذي شيده نصرالدولة سنة (٤١٤هـ = ١٠٢٣م)(٥٨) فقد "وقف له أملاكاً تقوم بكفايته"(٥٧).

ووقف التاجر (إبن البهات) قرية (بني نوح) الواقعة في سلسلة فتراثا والتي إشتراها بمبلغ (٥٠٠) دينار بيزنطي الذي ربحه في يوم واحد، وقفها على حراس ثلاثة من الحصون الواقعة في منطقة دياربكر وهي حصون آكل وجاتره واليماني(٥٨).

أما إدارة الأوقاف، فقد أعطانا الفارقي معلومات قيمة عنها. فقد ذكر أن الموظف الذي تولى إدارتها في عهد كل من الأمير أبي علي وممهد الدولة، كان رجلاً مسيحياً يدعى (إبن شَلّيطا)(٥٩) وذكر إسمه في عدة مناسبات. ولما تولى نصرالدولة الحكم عيّن الشيخ أبا محمد الحسن بن محمد بن المحور مديراً للأوقاف(٦٠).

(٥٢) تاريخ الفارقي، ص١١٥. وفيه قال إن القرية تقع في غرب فارقين وإنها لا تزال وقفاً الى عهده أي في النصف الأخير من القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي). وما زالت هذه القرية موجودة بنفس الإسم الى القرن العشرين. فقد ورد إسمها في (ج٣، ص٣٢٣ من كتاب Diyarbikir من تأليف (بسري كونيار Besri Kunyar). وورد فيه أيضاً ذكر قرية بإسم (تلمين) وأعتقد أنها قرية (ترمين) التي ورد إسمها في الفارقي، ص١٨٤ ومضى ذكرها في الجزء الأول من الدولة الدوستكية، ص٢٧٥.

(٥٣) الفارقي، ص١١٠.

(٥٤) الفارقي، ص١٦٤.

(٥٥) الفارقي، ص١٤٣ ورد في إحدى النسخ بابوزين وبرشدى وقطنيتا.

(٥٦) لم أستطع تحديد مكان الحمامين، الفارقي، ص١٦٤.

(٥٧) الفارقي، ص١٣٨.

(٥٨) إبن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج٢، ص٢٥٨.

(٥٩) الفارقي، ص١٦٧. من المحتمل أنها قلعة الجبابرة واليماني. تقع (آكل) في شمال مدينة دياربكر بمسافة حوالي ٤٠ كلم، كما إنها تقع على الضفة الغربية لنهر دجلة. وهي الآن مركز ناحية تابعة لقضاء مركز دياربكر تتبعها سبع عشرة قرية.

(٦٠) تاريخ الفارقي، ص١٦٤.

وفي سنة (٤٠٩هـ = ١٠١٨م) عين في إدارتها بجانب إبن محور القاضي (أبا عبداللّه الحسين بن سلمه المالكي)(٦١)، وذلك إهتماماً بشؤون الأوقاف وتقوية لإدارتها. وفي سنة (٤٣٥ أو ٤٣٦هـ) فوض نصرالدولة إدارة الأوقاف الى القاضي (أبي منصور محمد بن شاذان الطوسي)(٦٢). وفي سنة (٤٦٨هـ = ١٠٧٦م) أناط الأمير نظام الدين إدارة الأوقاف والسور بـ(أبي الحسن أحمد بن القاضي أبي علي بن البغل)(٦٣).

أما جباة الأوقاف، فلم نطّلع سوى على إسم واحد منهم فقط هو (أبو الحسن على بن محمد بن صافي)، الذي كان جده مملوكاً لبني نباته، ثم صار محتسباً في عهد القاضي أبي بكر بن صدقة، على ما ذكره الفارقي في (ص٢٤٦). وتوليه الوظيفتين يحتمل أن يكون في العهد الدوستكي أو في العهد السلجوقي أو في كليهما. وكان الشيخ أبو سالم يحيى بن الحسن بن المحور عيّنه جابياً. ويُفهم من ذلك أن أبا سالم كان مديراً للأوقاف بعد أبي الحسن بن البغل في عهد الأمير منصور، والإحتمالات المذكورة جارية بخصوص أبي سالم أيضاً.

وهكذا نستنتج من المعلومات التي وصلت إلينا حول الأوقاف بفضل الفارقي، أنه كان للأوقاف في كُردستان الوسطى في العهد الدوستكي طابع يختلف في بعض الوجوه عن طابعها في العصر الحالي. فالوقف على الشخصيات الدينية أو المشايخ لم يكن موجوداً في ذلك العهد، بل كان الوقف على الفقراء وذوي الحاجة الماسة، وكذلك على المنشآت الدفاعية كأسوار المدن والقوات المسلحة (حراس الحصون)، وعلى الجسور والمنشآت الدينية كالمساجد والربط. أما الوقف على الشخصيات الدينية ومشايخ الطرق الصوفية، فقد نشأ بعد العهد الدستكي، عقب طغيان التصوف وإنتشار الطرق الصوفية في كُردستان، مثل الطرق القادرية والعدوية والسهروردية والخلوتية والنقشبندية. ولاتزال هناك في كُردستان أوقاف كثيرة للمساجد وللمدارس الكبيرة، ولكن بصورة أقل. لأن تلك الأوقاف قد أصبحت على العموم خربة مهجورة. وكانت تلك المدارس تعتبر فيما مضى معاهداً للعلم في كُردستان، كمدرسة (مير آڤدلي) و(مدرسة سور) أي المدرسة الحمراء في جزيرة بوتان. وفي المدرسة الأولى يقع قبر العاشقين (مهم وزين)، وفي الثانية قبر الشاعر الكبير "مەلای جزیری".

كانت حتى العشرينات من هذا القرن توجد قائمة قديمة بأسماء أوقاف المدرستين المذكورتين أعلاه لدى العالم المرحوم (الملا عبدالسلام) الجزري، وكانت تضم عدداً من القرى بكاملها، والتي تقع الآن وراء الحدود السورية ومنها قرية "عين ديوەر". وما زالت هناك أملاك غير قليلة من بقايا أوقاف مدرسة طانزه "مدرسة مير ناصر" في بوتان ومدرسة (مير حسني ولي) في مدينة (مكس). أما مدرسة (شرفيه) وجامع شرفيه، اللذين بناهما في مدينة بدليس الأمير شرفخان (جد الأمير شرفخان

(٦١) الفارقي، ص١١٥ كان بنو المحور من كبار أغنياء ورؤساء فارقين.

(٦٢) الفارقي، ص١١٦.

(٦٣) نفس المصدر، ص١٦٢.

المؤرخ)، فما زالت أوقافهما موجودة وكذلك زاوية "تكيه" الجامع منذ أن شيدهما الأمير في النصف الأول من القرن العاشر الهجري (القرن السادس عشر الميلادي)(٦٤).

مازالت الأسرة الشرفخانية في بدليس تحتفظ بسجل الأوقاف المذكورة، والذي يضم أسماء أملاكها والذين تولوا إدارة تلك الأملاك من سلالة شرفخان جيلاً بعد جيل حسب وصيته. وقد سمعت بمسألة الإحتفاظ بالسجل عن طريق السيد ضياء شرفخان اللاجيء السياسي حينها، والذي توفي في قبرص.

الجدير بالذكر أن وقف الكثير من الملوك والأمراء مثل نصرالدولة الأملاك على آثارهم العمرانية، يعود الى صفة البقاء للوقف. لأن المُلك الموقوف يحرم بيعه وشراؤه بموجب الشريعة الإسلامية، ولهذا فإن واردات الوقف كانت تبقى لقرون تُصرف على الموقوف عليه أو في طريق الخير. إن تأمين وقف كاف للمساجد والمدارس الدينية والجسور معناه تأمين البقاء لها مدة طويلة. وذلك لأن الموارد المالية لتلك الأوقاف كانت تُصرف على تلك المنشآت وتُرمم بها عند الحاجة مما يوفر لها سبباً من أسباب البقاء قروناً طويلة في الغالب.

تجربة الدولة الدوستكية في السيطرة المباشرة على الأوقاف

رغم أن الأوقاف تعتبر أموالاً دينية لاتباع ولا تشترى، إلا أنها لم تكن في الدولة الدوستكية مستقلة إستقلالها اليوم في الدول الإسلامية. فقد كانت الأوقاف تحت إشراف الدولة المباشر وتستخدمها كمصدر من مصادرها المالية الأخرى تقريباً في أمور غير دينية أيضاً، كالمشاريع العمرانية والمنشآت الدفاعية. كما كانت تصرفها على القوات المسلحة المرابطة في الحدود الكُردية - البيزنطية. وعلى سبيل المثال شرع نصرالدولة سنة (٤٢٥هـ = ١٠٣٤م) أو ما يقاربها بحفر قناة مائية عظيمة من (رأس العين) الى العاصمة، ووزع ماءها على جداول فرعية في مدينة فارقين. وكان نصرالدولة قد حفر سابقاً قناة أخرى. وذكر الفارقي أن تكاليف هذه القناة كانت "مالاً كثيراً" وكلها من أموال الأوقاف الفائضة(٦٥).

ومن هذا نستدل بأن أموال الأوقاف لم تكن تصرف في الأمور الدينية فقط، بل كانت تصرف في مصالح الشعب العامة وفي خدمة البلد أيضاً كالقناة الثانية. هذا علاوة على أن طبيعة الوقف على الجسور السبعة ومستشفى فارقين، وعلى القوات المسلحة في الحصون المتاخمة لحدود الدولة البيزنطية، ليست ببعيدة عن قولنا أن الدولة الكُردية كانت تصرف الأوقاف في مصالح البلاد العامة... وهكذا كانت تسيطر على الأوقاف سيطرة مباشرة.

ونعلم من هذه الحقيقة بأن وضع الأوقاف في الدولة الكُردية كان يختلف عن وضعها حالياً في

(٦٤) راجع، ص٥٢٥-٥٦١ من "شرفنامه" طبعة القاهرة باللغة الفارسية، وفيه تفاصيل عن حياة الأمير شرفخان الذي قُتل سنة (٩٤٠هـ في معركة مع قوات الدولة العثمانية التركية). وتاريخ بناء الجامع الذي بجواره قبة شرفخان يعود الى سنة (١٥٢٨م) كما في: Hayat Turkiye Ansiklopedisi .

(٦٥) تاريخ الفارقي.

الدول الإسلامية كالعراق مثلاً. حيث إن الأوقاف مستقلة الآن عن سيطرة الدولة المباشرة، فمالتيها غير خاضعة لوزارة المالية وميزانية الدولة. ولهذا لاتستطيع الحكومة أن تستخدم أموال الأوقاف في مشاريعها العمرانية والصناعية وفي مصالح البلاد العامة غير الدينية. وبإمكان الحكومات الإسلامية الآن الأخذ بتجربة الدولة الدوستكية، وإحيائها في السيطرة المباشرة على الأوقاف التي تملك في كل دولة إمكانيات مالية واسعة، لإستخدامها في مصالح البلاد العامة وفي الأمور الدينية. وبالسيطرة المباشرة على الأوقاف والإستخدام المباشر لوارداتها المالية تكون الإستفادة منها أكبر وأوسع.

أخيراً إن تعيين موظف مسيحي هو (إبن شَلّيطا) مديراً ولمدة طويلة لهذه المؤسسة الدينية الإسلامية (الأوقاف)، لهو خير دليل على مدى ديمقراطية الدولة الدوستكية وتسامحها الديني ومساواتها بين المسلمين والمسيحيين في ظل الحكم الكُردي.

٧- إدارة السور

كانت إدارة السور وظيفة من وظائف الدولة الدوستكية. ولشدة الإعتناء بأسوار المدن الكُردية وإعتبارها من أهم المنشآت الدفاعية وحاجتها الى الترميمات وما تتطلبه من أشغال (ولاسيما سور فارقين وذلك لأنه أصبح متداعياً عندما أخذ الشعب الكُردي بمقاليد الحكم في كُردستان الوسطى)، أفردت الدولة الدوستكية لإدارة شؤونها دائرة خاصة. ولهذا إضطرت الدولة الدوستكية الى ترميم سور فارقين وإعادة بناء معظمه. وعن ذلك قال الفارقي: "وإتفق إن سور ميافارقين مسك نفسه في جميع الدول وإنهدم منه أقرب شيء وبقي الى ولاية بني مروان (أي الدوستكيين)، فإستهدم فيه مواضع كثير، فبنى الأمير أبو الفوارس بن دوستك أخو باد بعضها (وإسمه على السور في مواضع كثيرة)"(١).

أمّا الأمير أبو علي فقد بنى فيه مواضع وإسمه عليها، وبنى نصرالدولة ونظام الدين مواضع كثيرة من أبرجة وبدانات وغيرها وعمّرت أحسن عمارة(٢).

وقد وجد الفارقي إسم ممهد الدولة على إثنين وخمسين موضعاً بناها في السور ظاهراً وباطناً(٣).

وعدّد الفارقي أيضاً الأقسام التي بناها نصرالدولة في سور العاصمة، فكانت أكثر من أربعين قسماً من ظاهره وداخله وقد وجد عليها إسمه(٤).

إن الحاجة الى الترميمات لم تكن مقتصرة على سور فارقين وحده، لأن الدولة الدوستكية رممت وبنت أقساماً من أسوار مدن أخرى. ولدينا الآن صور لأربعة عشر موضعاً من سور مدينة دياربكر يعود الى الدولة الدوستكية ويحمل أسماء بعض من ملوكها، مثل نصرالدولة وناصرالدولة منصور،

(١) الفارقي، ص٥٦.
(٢) نفس المصدر، ص١٦٣ وفي ص١٩٩، أن نظام الدين زاد في إرتفاع مواضع عديدة في سور فارقين ودياربكر.
(٣) نفس المصدر، ص٨٦.
(٤) نفس المصدر، ص١٦٣-١٦٤.

كما سيأتي بالتفصيل في موضوع العمران.

أما الموظف المسؤول عن إدارة السور، فإنه إذا وجد ضرورة في ترميم وإعادة بناء بعض الأقسام أو زيادة إرتفاعها، كان يعرض ذلك على الأمير ويهيىء العمال والبنائين والمواد الإنشائية ويشرف على الأعمال ويقوم بصرف الأجور وما إلى ذلك ما يدخل ضمن واجباته.

لقد كانت إدارة السور تُفوض أحياناً الى مدير الأوقاف نفسه وأحياناً الى القاضي. وقد ذكر الفارقي أن أبا حسن أحمد بن القاضي أبي علي بن الحسن بن علي البغل، كان أحد المرشحين لقضاء فارقين، ولكن بعد فوز أبي بكر بن صدقة بالقضاء عيّن أبو الحسن "في الوقف والسور"(٥)، وذلك سنة (٤٦٨هـ = ١٠٧٦م). وهذا دليل على إن إدارة السور كانت تعتبر من الوظائف المدنية. وكان إسم المشرف على ترميمات السور يُكتب أحياناً بجانب إسم الأمير الدوستكي، إذ يوجد الآن على سبيل المثال إسم القاضي أبي علي الحسن بن علي بن أحمد (بن البغل) على موضعين من سور دياربكر أشرف على بنائهما بتاريخ (٤٣٧هـ = ١٠٤٦م و٤٤٤هـ = ١٠٥٢م)(٦).

والكتابتان الموجودتان على هذين الموضعين تعتبران من أجود الأفاريز الكتابية الكوفية المزخرفة الموجودة على سور دياربكر، تناولها الباحثون، وفي مقدمتهم العالم السويسري (فلوري)، بالدراسة والتحليل كما سيأتي ذكره بالتفصيل في موضوع الكتابة الكوفية المزخرفة وموضوع الآثار العمرانية. كما يوجد إسم القاضي أبي الحسن المذكور على ما شيّده في أيام نظام الدين من البرجين الصغيرين داخل الباب الشرقي لميافارقين أي باب (قلوفح)، وكان إسمه في الجامع المذكور فوق طهارة الحدادين وعلى البناء المخمس في فارقين كما سيأتي. وكذلك يوجد إسم القاضي أبي الحسن عبدالواحد بن محمد بن علي على موضع من سور دياربكر، حيث تولى بناءه من قبل الأمير نظام الدين سنة (٤٦٠هـ). كما تولى المذكور في سنة (٤٥٧هـ = ١٠٦٥م) الإشراف على تشييد الجسر الكبير الواقع على نهر دجلة عند مدينة دياربكر، والذي نشرنا صورته في الجزء الأول. ويوجد إسمه الآن على الجسر أيضاً كما سيأتي في موضوع العمران. ويوجد إسم القاضي أبي الحسن عبدالواحد على قلعة دياربكر(٧).

وفي سنة (٤٧٦هـ = ١٠٨٤م) تولى القاضي أبو نصر محمد بن عبدالواحد من قبل الأمير منصور بن نظام الدين إعادة بناء قسم من سور دياربكر في منطقة باب خربوت كما يوجد عليه إسمه. وإضافة لذلك يوجد إسمه على ثلاثة مواضع أخرى من السور أعيد بناؤها بعد سقوط الدولة وفي العهد السلجوقي. والموضع الأول تولى بناءه سنة (٤٨٢هـ = ١٠٨٩م) في عهد ولاية أبي علي البلخي، والثاني سنة (٤٨٤هـ = ١٠٩١م) في عهد ولاية عميد الدولة محمد بن الوزير إبن جهير،

(٥) تاريخ الفارقي، ص١٩٨.

(٦) ڤان برشم، ص٣٢. بسري كونيار Diar Bakir Tarihi AMIDA، ج٢، ص٣١ . ٣٥. الدكتور حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ج٢، ص٨٣٨. ورد فيه خطأ إسم أبي الحسن بن عبدالواحد.

(٧) الدكتور حسن الباشا، الفنون الإسلامية، ج٢، ص٣٨٩.

والثالث سنة (٤٨٥هـ = ١٠٩٢م) في عهد ولاية كافي الكفاة جهير بن الوزير إبن جهير(٨).

وبهذه المناسبة نقول إن إسم أبي الفتح عبدالواحد بن محمد (أي حفيد عبدالواحد الأول) يوجد على موضع من نفس السور، أُعيد بناؤه سنة (٥١٨هـ = ١١٢٤م). هذا ويمكن لنا أن نستنتج مما تقدم أن إدارة السور في دياربكر كانت منوطة بالقضاة بصورة دائمية وفي أغلب الأحيان. والخلاصة أننا نعلم بالإستناد الى كلام الفارقي المذكور، أنه كانت لشؤون السور دائرة خاصة. أما حقيقة إناطة مسؤولية إدارة السور مع إدارة الأوقاف في وقت واحد الى شخص واحد، وهو أبو الحسن أحمد بن القاضي أبي علي في التاريخ المذكور، فلا تغير من الأمر شيئاً. إذ أن تعيين شخص واحد في إدارة وظيفتين مستقلتين شيء مألوف. هذا علاوة على أنه لم تصل إلينا معلومات مفصلة عن بعض مجالات التاريخ الدوستكي، ما إضطرنا الى دراسة الإشارات الواردة عنها في بعض المصادر، وبالأخص تاريخ الفارقي، كي نبني عليها أحكامنا. فكنا نعتبرها تارةً جزئيات ننتقل منها الى التعميمات عن طريق (الإستقراء)، وتارة أخرى نعتبرها تعميمات نستنتج منها معلومات جزئية، أي نستنتج جزئيات عن طريق (الإستنباط).

٨- القضاء

القضاء هو الحكم بموجب الشريعة الإسلامية، لكن الذي نريد أن نبحث عنه في هذا الموضوع هو المحاكم الشرعية في كُردستان في العهد الدوستكي وذكر العلماء الذين تولوا القضاء فيها. إن القاضي عادة يكون من العلماء البارزين ومن ذوي الإطلاع الواسع على الكتاب والسنة وعلى الفقه الإسلامي وعلوم الدين كلها، إضافة الى العلوم العربية وغيرها . ومن صفات القاضي التحلي بالأخلاق الفاضلة وبالعدل كما هو مفصل في كتاب الفقه وغيرها، مثل كتاب (الأحكام السلطانية) للقاضي أبي يعلي بن الفراء، و(أدب القاضي) للخصّاف، و(أدب القاضي) للماوردي. أما مهمة القاضي فهي الفصل بين الخصوم والحكم في الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث وغيرها. وكان للقاضي كاتب يساعده في تنظيم جلسات القضاء وتدوين الأحكام كما ينوب أحياناً عن القاضي في حالة مرضه أو غيابه. وقد ذكر الفارقي الشاعر (الفطيري) وعدّه من شعراء الدولة الدوستكية، وكان كاتباً للقاضي أبي المرجي(١).

وكان يساعد القاضي أيضاً (العدول) كما سيأتي. أما (الشروطي) فكانت وظيفة مرتبطة بالقضاء، حيث إن الموظف الشروطي كانت له واجبات متقاربة لواجبات الكاتب، إن لم يكن هو الكاتب نفسه. وقد أورد إبن الصابوني إسم أحد الشروطيين في الدولة الدوستكية وهو (أبو الحسن

(٨) ڤان برشم، AMIDA، ص٣٥-٣٨-٩١. الدكتور حسن الباشا، الفنون الإسلامية، ج٢، ص٣٨٩. وأضاف انه يوجد أسمه على موضع من الجامع الكبير في دياربكر. بسري كونيار Diar Bakir Tarikhi، ج٢، ص٣٨-٤٠.

(١) الفارقي، ص٦١. بصدد الشروط الواجب توفرها في كاتب القاضي، راجع وثيقة تاريخية صادرة من قبل الخليفة العباسي الطائع، ومرسوم آخر للخليفة المسترشد بالله. الوثيقتان في صبح الأعشى للقلقشندي، ج١٠، ص٢٨٢ وحوالي ص٢٧٤.

علي بن السند) الفارقي الشروطي. وقد عرّف العلامة الدكتور مصطفى جواد في الحاشية (الشروطي) نقلاً عن (كشف الظنون) لحاجي خليفة بأنه "علم الشروط والسجلات وهو علم كيفية ثبت الأحكام الثابتة عند القاضي على وجه يصح الإحتجاج به عند إنقضاء شهود الحال..."(٢). وعلى كل، إن وظيفة الشروطي كانت موجودة في الدولة الدوستكية.

هذا وكان لكل مركز من مراكز ولايات الدولة قاضٍ يعين من جانب الدولة الدوستكية بموجب مرسوم خاص يُقرأ يوم الجمعة على الحاضرين من قبل خطيب الجامع، كما قرأ إبن عقيل خطيب دياربكر عهد القاضي أبي القاسم بن القاضي أبي علي بن البغل على منبر الجامع الكبير بفارقين(٣).

إن المسألة التي تطرح نفسها هي كيف كان القضاء في البلاد الدوستكية وعلى أي مذهب كان يحكم القاضي من المذاهب الإسلامية الأربعة الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية؟ وما هو المذهب الرسمي بالنسبة للقضاء؟

في الحقيقة لم تصل إلينا معلومات حول المذهب الفقهي السائد في كُردستان الوسطى قبل العهد الدوستكي وحتى النصف الأول من عهدها، أي الى فترة من القرن الحادي عشر الميلادي. ولكن مع هذا فلي رأي أبديه، وهو أنه لم يكن في كُردستان الوسطى مذهب سائد ورسمي من المذاهب الفقهية الأربعة،. إذ لم يستقر أي منها بين الشعب الكُردي حتى النصف الأول من القرن الخامس الهجري (القرن الحادي عشر الميلادي). أما المذهب الشافعي، فلم يستقر في هذا الجزء من البلاد الكُردية قبل سنة (٤٢٨ أو ٤٢٩هـ = ١٠٣٧م). وان (الشيخ أبا عبدالله الكازروني) هو الذي نشر المذهب الشافعي في كُردستان الوسطى من مدرسة فارقين ودياربكر الفقهية بعد التاريخ المذكور. ويُحتمل أن أول قاض شافعي كان أبا بكر صدقة السعردي، الذي تولى القضاء بفارقين سنة (٤٦٨خ = ١٠٧٦م). وكان المذكور من كبار تلامذة وأصحاب (الكازروني). ولعل القضاء على المذهب الشافعي أصبح رسمياً من عهد هذا القاضي. أما قبل هذا التاريخ، فلم يكن القضاء كما يظهر لي مقتصراً على مذهب واحد، بل كان القاضي حراً بين المذاهب الفقهية الأربعة وغير مقيد فيحكم بما يراه أرجح وأقوى. أو أن كل قاض كان يحكم بالمذهب الذي ينتمي إليه هو. وفي رأيي أن القضاء في معظم العهد الدوستكي كان كالقضاء في مصر في العهدين الطولوني والإخشيدي، حيث لم يكن القضاة تابعين لمذهب واحد، بل كان كل منهم يحكم وفق المذهب الذي ينتمي هو إليه(٤).

لهذا من المحتمل أن القاضي المالكي (أبا عبدالله الحسين بن سلمه) كان يحكم بالمذهب المالكي والقاضي أبا منصور محمد بن شاذان الطوسي بالمذهب الشافعي.

(٢) إبن الصابوني، تكملة إكمال الإكمال، ص٢٠٢: تعليق العلامة مصطفى جواد في حاشية هذه الصفحة. راجع أيضاً بصدد الشروطي (لب الألباب) ص١٥٣ للسيوطي. وفيه إن الشروطي منسوب الى كتابة الشروط وهي الوثائق.

(٣) الفارقي، ص١٩٨.

(٤) بصدد القضاء في مصر، راجع الدكتور حسن إبراهيم وعلى إبراهيم، النظم الإسلامية، ص٣٤٥. نذكر التفصيل في موضوع الحياة الثقافية.

في الوقت الذي نجد فيه ذكراً لعدد من قضاة الدولة الدوستكية، فإننا لم نجد أي ذكر لقاضي القضاة، والراجح عندي أن منصب قاضي القضاة لم يكن موجوداً في هذه الدولة، بينما كان موجوداً في دول إسلامية أخرى. ولكن القاضي الدوستكي لم يكن محصوراً ضمن القضاء فقط، بل كانت تناط به أحياناً واجبات ووظائف أخرى. حيث كان بعضهم يعمل في دائرة الأوقاف ويشرف على إدارة السور ويقوم ببعض المنشآت العمرانية.

إن أول من عثرنا على ذكره من القضاة هو القاضي (علي بن أحمد النسوي)، الذي كان في القضاء بفارقين في عهد الأمير أبي علي حسن وتوفي سنة (٣٨٧هـ = ٩٩٧م). وتولى القضاء من بعده أبو القاسم حسن بن حسن بن منذر وإستمر في القضاء الى أن توفي سنة (٤٠١هـ = ١٠١١م)، وكان عالماً صادقاً وعلامةً في علم الفرائض روى عن إبن البختري وإسماعيل الصفار(٥).

بعد وفاة هذا القاضي تولى قضاء فارقين علي بن حامد، وكان ينوب في القضاء عن القاضي النسوي. وبعد عزل المذكور أو وفاته تولاه أبو عبداللّه حسين بن سلمه المالكي، والذي فُوض إليه النظر في الأوقاف بجانب الشيخ أبي محمد. وكان هذا القاضي عالماً جليلاً مخلصاً وعادلاً ودقيقاً في أحكامه وقراراته(٦).

بالنظر لكفاءته العالية حصل على تقدير فائق من نصرالدولة، فأناط به القضاء في مدينة دياربكر (آمد) أيضاً إضافة الى وظيفتيه السابقتين، وذلك سنة (٤١٥هـ = ١٠٢٤م). فكان ذلك القاضي يحكم بفارقين شهراً وبدياربكر شهراً. وكان يحب الغناء حباً جماً، على ما ذكره الفارقي في برنامج تنقله الشيق بين المدينتين(٧).

ظل القاضي المالكي في قضاء المدينتين الى أن توفي سنة (٤٢٨هـ = ١٠٣٧م) أو التي بعدها، ثم تولى القضاء بعده (أبو المرجي سعادة بن الحسين بن بكر) وكان عالماً بارعاً في الفقه(٨)، ولكن

(٥) الفارقي، ص١١٦ و١٢٧ و٧٩ وقع في كلام الفارقي إضطراب بصدد علي بن حامد، إذ يُفهم مما ذكره في (ص١٠٩) أنه تولى القضاء مرتين. راجع بصدد القاضي أبي القاسم تعليقاً للشيخ عبدالوهاب النجار على ما ذكره إبن الأثير في(الكامل حوادث سنة ٤١١هـ). ذكر النجار أنه توفي في هذه السنة وزاد له نسبه البغدادي، ولكن يظهر من كلام الفارقي ص٧٩ أنه لم يكن من أهل بغداد، ولكن سكن فيها ثم عاد وتولى القضاء بفارقين الى ما يقارب سنة (٤٠٠هـ)، وذكره بكنية أبي علي.

(٦) الفارقي، ص١١٦ و١٢٧.

(٧) الفارقي، ص١٢٧ قال بصدد برنامج تنقل القاضي المالكي: "وكان يحكم بميافارقين شهراً وبآمد شهراً وكان له قرار مليح، وذلك أنه كان يخرج من ميافارقين ليلة الرابع عشر من الشهر عند كمال القمر ويخرج كل الشهود (أي العدول) من ميافارقين والمغنيين ومعهم كل ما يحتاج إليه من المأكول والشمع والطيب وغيره. فيصل الى (القاسمية) في وسط الطريق فيصادفون عدول آمد (دياربكر) قد خرجوا بأسرهم ومعهم المغنون وما يحتاجون إليه فيجتمعون ليلتهم في أطيب عيش الى غدوة، ثم يسير مع عدول آمد ويرجع الفارقيون ويبقى في آمد الى مثل ذلك الوقت. ويخرج من آمد ومعه جميع مقدمي آمد ومعهم ما يحتاجون إليه، فيصادفون الفارقية قد خرجوا الى القاسمية فيجتمعون ليلتهم في أطيب عيش ويسير هو (أي القاضي) مع الفارقية. وكان هذا قانونه في مدة ولايته قضاء البلدين".

(٨) الفارقي، ص١٤٦.

إتهموه بمراسلة الأمير قرواش أمير الموصل، في وقت كانت العلاقات بينه وبين نصرالدولة متوترة، فعاقب نصرالدولة هذا القاضي البريء عقاباً فظيعاً حتى مات. وقد أصبح هذا الأمر نقطةً سوداء في تاريخ نصرالدولة(٩).

تولى القضاء بعد القاضي أبي المرجي (أبو منصور محمد بن شاذان الطوسي)، الذي كان فقيهاً عالماً فُوضت إليه إدارة الأوقاف أيضاً سنة (٤٣٥هـ = ١٠٤٤م) أو التي بعدها. وكان هذا القاضي من أهل مدينة طوس الواقعة في إيران كما يظهر من نسبته إليها ولا يعلم تاريخ قدومه الى كُردستان، وقد كان أحد المدرسين البارزين في فارقين ومن أساتذة القاضي أبي بكر بن صدقة. وبقي الطوسي في القضاء الى أن عُزل بمحاولات الوزير فخر الدولة بن جهير سنة (٤٤٩هـ = ١٠٥٧م)(١٠).

ثم عُيِّن في قضاء العاصمة أبو القاسم على بن القاضي أبي علي بن البغل الآمدي (الدياربكري) وإستمر في القضاء الى أن عُزل سنة (٤٥٣هـ = ١٠٦١م)(١١). ثم تولى القضاء أبو الحسن الآمدي وعُزل سنة (٤٥٥هـ = ١٠٦٣م) و"كان من البيوت الكبار والمقدمين وكان رئيساً وفي نفسه كريماً، وكان له المال الكثير والأملاك الكثيرة، وكان بينه وبين التاجر إبن جرى عدواة. فسار الى مصر وأقام بها ولم يرجع الى ميافارقين حتى مات إبن جرى. وعاد وأقام الى هذه المدة وُلّي القضاء، وكان ذا رأي وعقل وسياسة"(١٢).

ويحتمل أن يكون القاضي أبو الحسن هذا هو الشيخ أبي الحسن بن بشر، الذي أوفده نصرالدولة الى مصر سنة (٤٤٨هـ = ١٠٥٦م) للإتصال بالوزير أو الخليفة الفاطمي. وذلك أثناء حركة البساسيري وإلحاح ممثل الدولة الفاطمية في الحركة، وهو داعي الدعاة المؤيد في الدين هبة اللّه الشيرازي على نصرالدولة، كما مر بالتفصيل في موضوع (العلاقات مع الدولة الفاطمية). وأظن أيضاً أنه هو المقصود بالوسيط والأستاذ في رسالة المؤيد فراجع هناك.

والقاضي أبو الحسن الآمدي هذا هو غير أبي الحسن الآمدي على بن محمد بن عبدالرحمن الحنبلي البغدادي الأصل، الذي قدم الى كُردستان سنة (٤٥٠هـ = ١٠٦٨م)، وسكن آمد (دياربكر)، ودرس

(٩) ذكر الفارقي تفصيل الحادثة في ص١٦١-١٦٢ فقال: أمر القاضي أبو المرجي كاتبه الشاعر إبن الفطيري أن يكتب له رسالة الى أحد أصدقائه في الموصل ليرسل إليه كتاباً في الفقه غير موجود في فارقين. فكتب الرسالة وسلمها الى رجل يسافر الى الموصل ووعده بخمسة دنانير إذا رجع بالجواب. وكانت بين نصرالدولة وقرواش وحشة في ذلك الوقت. فرأى أحد جنود نصرالدولة ذلك، وأخبر بأن القاضي قد كاتب الى الموصل. فأحضره وسأله عن الرسالة، فأنكر وأحضر كاتبه فقال كاتب الى فلان في الموصل ليرسل الى القاضي كتاباً في الفقه. فلم يصدق منه ووقعت الشبهة لإنكار القاضي ويمينه، فأخذ أبو المرجي الى القصر وأجلس في برج وطيّن عليه بابه حتى مات. إن هذا العقاب بهذا الأسلوب الفظيع الذي سبق وإن أقدم على مثله الخليفة العباسي (القاهر) يعتبر نقطة سوداء في تاريخ نصرالدولة.

(١٠) الفارقي، ص١٧٥.

(١١) الفارقي، ص١٧٦.

(١٢) الفارقي، ص١٨٢.

بها الى أن مات سنة (٤٦٧هـ = ١٠٧٥م). وهو صاحب كتاب "عمدة الحاضر وكفاية المسافر" الواقع في أربع مجلدات في الفقه(١٣).

من قضاة الدولة الدوستكية أيضاً القاضي (إبن جرجور) وهو (أبو نصر هبة اللّه إبن جرجور الشاذي المشرقي)(١٤)، الذي لم يذكر الفارقي تاريخ توليه قضاء فارقين. ولكن يحتمل أنه تولاه بعد عزل القاضي أبي الحسن الآمدي في التاريخ المذكور. وفي سنة (٤٦١هـ = ١٠٦٩م) فوّض السلطان نظام الدين (حسب تعبير الفارقي) الى هذا القاضي الإشراف على بناء الطبقة الرابعة من برج الملك(١٥)، أي القصر الدوستكي. وإستمر إبن جرجور في القضاء الى أن توفي فجأة سنة (٤٦٨هـ = ١٠٧٦م). فأنتُدب للقضاء جماعة من العلماء في فارقين، منهم إبن عامر والشيخ أبو عبداللّه بن زيدان وأولاد القاضي أبي علي بن البغل. وقد عنى الوزير أبو طاهر الأنباري بالقاضي (أبي بكر بن محمد بن صدقة)، وكان عالماً من أصحاب الفقيه الكازروني وقرأ على القاضي أبي منصور بن شاذان الطوسي. وكان ينوب في القضاء عن القاضي أبي نصر إبن جرجور فرتبه (أي الوزير) في القضاء. وكان الناس يميلون إليه بحكم نيابته عن القاضي أبي نصر بن جرجور ومعرفته بالناس، فوُلي الموضع. ونظر إليه الوزير وإستقر في المنصب وخرج منه رجلاً جلداً مقداماً من الرجال، ودخل دركات السلطان (أي ملكشاه السلجوقي) وناظر "المشطب" مدرس أصفهان وحضر ديوان الخلافة"(١٦).

إستمر القاضي أبو بكر في قضاء فارقين حتى بعد سقوط الدولة، أي في العهد السلجوقي وزار بلاط السلطان ملكشاه في أصفهان مرتين. الأولى كان ضمن وفد مكون من عدد من كبار أهالي فارقين منهم أبو الهيجاء الروادي والرئيس أبو عبداللّه بن موسك (الدوستكي) وبنو غالب وأبو القاسم بن نباته وعلي بن الأزرق جد مؤرخنا (الفارقي)(١٧)، وكان ذلك في سنة (٤٨٢هـ = ١٠٩٠م). وكان الوفد قد طلب من السلطان عزل (أبي علي البلخي) عن ولاية إقليم دياربكر فعزله. أما المرة الثانية، فكانت حينما رافق جماعة من رؤساء فارقين وجد الفارقي الوالي على مدينة أرزن (غرزان)، الذين ذهبوا بصحبة عميد الدولة إبن فخر الدولة إبن جهير (وكان والياً على كُردستان الوسطى بعد البلخي فإستدعاه السلطان الى أصفهان سنة ٤٨٤هـ = ١٠٩١م). فناظر القاضي هذه المرة "المشطب" في مدرسة أصفهان وإزداد القاضي بذلك شهرة، حيث إستطاع أن يدخل في مناقشة علمية عنيفة مع العلامة (مشطب بن أحمد بن أسامة). وكان مشطب هذا من بلاد ما وراء النهر (تركستان) ورد مع الوزير خواجه نظام الملك الطوسي الى بغداد وناظر أئمتها وجرت له معهم قصص

(١٣) لإبن الحسن البغدادي الآمدي ترجمة في شذرات الذهب لإبن عماد الحنبلي، ج٣، حوادث سنة ٤٦٥هـ، التي توفي فيها وله ترجمة أيضاً في الأعلام للزركلي، ج٥، ص١٤٧.

(١٤) الفارقي، ص١٩٧.

(١٥) الفارقي، ص١٩٧.

(١٦) الفارقي، ص١٩٧-١٩٨. في مخطوطة الأعلاق الخطيرة (ورقة ٩٣) أن إبن صدقة كان من سكان (سعرد).

(١٧) الفارقي، ص١٩٨. قال الأستاذ الدكتور بدوي عبداللطيف محقق. وناشر تاريخ الفارقي في تعليق له على كلام الفارقي: إن المشطب ولد سنة ٤١٤هـ وتفقه ببلاد فرغانة على مذهب الإمام (أبي حنيفة) والخلاف والجدل.

من المناظرات العلمية(١٨).

كان القاضي أبو بكر عميد المذهب الشافعي في كُردستان الوسطى بعد أستاذه أبي عبدالله الكازروني، وكان له أنصار. وقد ذكر الفارقي أن القاضي أبا المرجي يحيى بن الضرير الفقيه الجيد كان من أصحابه.

مما يجدر بالذكر أنه بعد وفاة ملكشاه سنة (٤٨٥هـ = ١٠٩٢م) أرسل رؤساء فارقين الى إبنه (بَركياروق) ليرسل إليهم من يتولى البلاد. ولما لم يرسل الأخير أحداً... إنقسم سكان فارقين الى فريقين؛ فريق مؤيد للحكم السلجوقي وآخر مؤيد لإعادة الحكم الوطني الدوستكي. كان الفريق الأول يتكون من كبار رجال الدين وبعض وجهاء فارقين المتدينين يتزعمهم القاضي أبو بكر. فكلف الشيخ أبا سالم يحيى بن حسن المحور بتسلم مفاتيح البلدة رغم رفض الأخير. ثم توجه مع جماعة الى تاج الدولة (تُتُش) بن آلب أرسلان، وكان قد وصل من بلاد الشام الى نصيبين يريد فتح البلاد ليحل محل أخيه ملكشاه وطلب منه القاضي الحضور الى فارقين وتسلمها. بينما كان الفريق الثاني المؤيد لإعادة الحكم الدوستكي عبارة عن معظم سكان المدينة من الطبقات الشعبية والمتعلمين والشباب، الذين نشأوا أحراراً في ظل الدولة الدوستكية. وكان يتزعم هؤلاء الشاعر الجسور (حسن بن أسد) الفارقي، الذي سيطر على المدينة أثناء غياب القاضي وأرسل الى ناصرالدولة منصور للحضور الى فارقين. وكان في مدينة الجزيرة فقدم وتسلم المدينة وأحيا الدولة(١٩).

ولكن تُتُش جاء بعد ستة أشهر وبرفقة القاضي المذكور وإحتل فارقين وذلك في سنة (٤٨٦هـ = ١٠٩٣م)، وخلع على القاضي وجماعته وأعطاه قرية (قلوفح) إقطاعاً منه زيادة على إقطاعه(٢٠)

مقابل ما بذله من نشاط في إعادة الحكم السلجوقي الى كُردستان الوسطى. وفي سنة (٤٩٠هـ = ١٠٩٧م) توفي هذا القاضي المتنفذ وهو غير متزوج(٢١).

من قضاة الدولة الدوستكية الذين تولوا القضاء في غير العاصمة فارقين، أبو علي الحسن بن علي المعروف بـ(إبن البغل)، الذي كان من أكابر مدينة امد (دياربكر) و"كان له من الأملاك والأموال

(١٨) سمع ببخارى وأصفهان والري. كان حنفي المذهب وقال إبن الأثير في الكامل، حوادث سنة ٤٨٦هـ: أنه توفي في هذه السنة بالكحيل بالموصل وكان الخليفة قد أرسله الى السلطان بركيارق وقال: كان شيخاً كبيراً مكرماً عند الملوك.

(١٩) الفارقي، ص٢٣٢.

(٢٠) نفس المصدر، ص٢٣٦ راجع أيضاً الجزء الأول: أسباب سقوط الدولة ص٣٢٦-٣٢٩.

(٢١) الفارقي، ٢٦٦. أضاف الفارقي أنه لما توفي القاضي، شق "المحتسب" والي فارقين ثيابه ونشر عمامته وسار خلف جنازته حافياً ونشر أكابر فارقين عمائمهم أيضاً. وأنتدب للقضاء جماعة منهم أبن مساعد والشيخ أبو عبدالله (إبن زيدان) وشريف بن أبي السخا، ولكن فاز به أبو القاسم يحيى بن طاهر (بن نباته). وكان هذا خطيباً في فارقين منذ حوالي خمسين سنة وعُزل سنة (٥٠٣هـ). وتولى القضاء قاضي الجزيرة المعزول فخر الدين أبو علي إبن عمر. وفي السنة التالية عين هذا القاضي والياً على الجزيرة من قبل خاتون زوجة الأمير سگمان القطبي، وكانت عاصمتها مدينة (خلاط). ثم تولي قضاء فارقين علم الدين أبو الحسن بن القاضي أبي القاسم بن نباته، وعزل في نفسة السنة أي سنة (٥٠٧هـ). ثم تولى القضاء أبو المرجا يحيى بن ضرير، ولكنه قبض عليه وقتل في السنة التالية، وتولى القضاء بعده أحمد بن عمار بن مظفر البدليسي وإثر عزله في نفس السنة تولى القضاء مرة ثانية علم الدين بن نباته.

والعقارات ظاهر البلد وباطنه ماليس لغيره، فأكرمه نصرالدولة إكراماً كثيراً وكانت له من الحرمة والمنزلة عند الأمير وأرباب الدولة ما لايوصف". تولى القضاء في مدينة دياربكر بعد وفاة القاضي المالكي في سنة (٤٢٨هـ)، وإستمر في القضاء الى أن أعتقل من قبل نصرالدولة سنة (٤٥١هـ = ١٠٥٩م) ومات في السجن. وسبب إعتقاله حسبما يفهم من كلام الفارقي(٢٢) هو مخافة نصرالدولة من طغيان نفوذه في مدينة دياربكر. ولكن و بوشاية من وزيره المنافق وناكر الجميل إبن جهير الموصلي، الذي كان لهذا القاضي فضل كبير عليه لتوسطه عند نصرالدولة كي يسمح له بالمجيء الى بلاده، غير أن نصرالدولة رفض ذلك أولاً وقال: "... ولو كان فيه خير لما خرج من بلاده". ولكنه وبعد مدة طلب من القاضي أبي علي إخباره بالحضور الى فارقين، فجاء الى دياربكر وأعطاه القاضي هدايا كبيرة وإستوزره نصرالدولة(٢٣).

لم يذكر الفارقي من قضاة آمد (دياربكر) سوى القاضي المالكي والقاضي أبي علي، ولكن إستناداً الى الكتابات الموجودة حالياً على سور دياربكر، نعلم بأنه أنه تولى قضاءها كل من القاضي أبي الحسن عبدالواحد بن محمد وإبنه القاضي أبي نصر محمد. ولعل أحداً غيرهما لم يتول القضاء في الفترة الواقعة بين وفاة القاضي أبي علي وسقوط الدولة. وقد وصل إلينا إسم قاض آخر من قضاة الدولة الدوستكية وهو (أبو العلاء المتكلم)، الذي كان في سنة (٤١٧هـ = ١٠٢٦م) قاضياً لمدينة نصيبين (نسيبين). وقد إجتمع بالوزير أبي القاسم المغربي أثناء زيارته للمدينة، وعرض الوزير عليه ما دار بينه وبين المطران مار إيليا النسطوري من النقاش العلمي في الجلسات الأربعة(٢٤).

ويوجد إسم قاض آخر في كتابة على أثر من آثار نصرالدولة بتاريخ (٤١٦هـ) في فارقين هو (أبو... الحسن بن محمد). ويحتمل أنه الشيخ أبو محمد الحسن بن محمد بن المحور مدير الأوقاف الذي ذكرناه في موضوع الأوقاف.

وأخيراً يظهر أن منصب قاضي القضاة لم يكن موجوداً في الدولة الدوستكية، حيث لم نجد أية إشارة الى وجوده. أما وظيفة "نائب القاضي" فكانت موجودة ووصلتنا أسماء بعض النواب كما مر ذلك.

(٢٢) الفارقي، ص١٧٦، أضاف الفارقي أن نصرالدولة أخذ من القاضي أموالاً عظيمة وأطلق سراح أولاده إثر وفاته، مما ينص على أنه سجن أولاده أيضاً. ولم يذكر هنا أية إشارة الى سبب نكبة هذا القاضي، ولكنه ذكر في (ص١٧٥) بصدد تولي إبنه قضاء فارقين، مما يدل على أن الوزير هو الذي خوّف نصرالدولة من نفوذه. ولكن الفارقي حمل ذلك على حسن نية من الوزير، لأنه حاول أن يعين أبا القاسم في القضاء. فلجأ الى تخويف نصرالدولة من نفوذه ليقنعه بالموافقة على تعيينه في القضاء وإعتباره رهينة عنده بهذه الطريقة. ولا نعلم ماحدث بعد ذلك ويظهر أن نصرالدولة فقد الثقة من ذلك الوقت بالقاضي.

(٢٣) الفارقي، ص١٤٧ و١٥١.

(٢٤) مجالس إيليا، مخطوط في مكتبة الدراسات العليا بكلية الاداب جامعة بغداد تحت الرقم (١٠٦٨). التفاصيل في الجزء الأول من الدولة الدوستكية ص١٩٠، ١٩٣.

٨- العدالة

العدالة وظيفة تابعة للقضاء والذين يتولون هذه الوظيفة يسمون بالعدول، ومهمتهم القيام بإذن من القاضي بالشهادة بين الناس. ولهم سجلات خاصة يسجلون فيها أملاك الناس وديونهم ومعاملاتهم وفق أحكام الشريعة الإسلامية، ولهم دكاكين خاصة يراجعهم الناس من أصحاب المعاملات والعقود. وقال إبن خلدون بصدد هذه الوظيفة: "ومن شروط العدول أن يتصفوا بالعدل والأمانة، وبالإطلاع والمعرفة بقسط من أحكام الشريعة والمعرفة بتنظيم السجلات. والعدول يساعدون القاضي ويمدونه بالمعلومات أثناء النزاع والمرافعات، حيث يتفحصون أحوال الناس في مدينتهم ويعلمون بسلوك الكثيرين منهم وبحقوقهم. كما يجب على القاضي في نفس الوقت أن يكون مطلعاً بسلوك العدول ويراقبهم رعايةً لشرط العدالة فيهم، وأن لايهمل ذلك لما يتعين عليه من حفظ حقوق الناس... وإذا تعين هؤلاء (أي العدول) لهذه الوظيفة عمت الفائدة في تعيين من تخفي عدالته على القضاة، بسبب إتساع الأمصار وصعوبة إطلاعهم على أحوال الناس فيستعينون بالعدول"(٢٥).

وقد عُرفت هذه الوظيفة في مختلف الدول الإسلامية، كالدولة العباسية والإخشيدية والسلجوقية والفاطمية وفي الأندلس. وقد جرت العادة (أن يجلس العدول حول القاضي يمنة ويسرة بمجلس الحكم على ترتيب الأقدمية في تعديله لهم). (٢٦) وكان بعض هؤلاء يتولى مناصب هامة كالحسبة ووكالة بيت المال. (٢٧)

إن هذه الوظيفة، التي هي من مستلزمات توفر العمران وإتساع المدن وتقدمها حضارياً ومن متطلبات العدل ودقة وصواب الأحكام والقرارات التي تصدرها المحاكم الشرعية، كانت موجودة في الدولة الدوستكية. وقد إستنتجنا ذلك مما ذكره الفارقي من أن كلاً من (أبي الحسن أحمد بن وصيف البزاز) و(إبن البهات) كانا من العدول(٢٨)، ومن كبار تجار مدينة فارقين وأغنياءها. وكان إبن وصيف أحد مقدمي سوق القماش (سوق البز) ووجهاء المدينة البارزين. تولى رئاسة فارقين مدةً أثناء محاصرة نصرالدولة لها بعد إغتيال ممهد الدولة، وتفاوض مع نصرالدولة وسلم إليه المدينة. فعينه

(٢٥) إبن خلدون، مقدمة، ص٢٢٤-٢٢٥.

(٢٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص٧٠. فيه نص مرسوم (المسترشد بالله) بتعيين القاضي الزينبي. بخصوص هذه الوظيفة راجع أيضاً إبن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك، ص٢٥٨-٢٦٢ من الجزء الأول.

(٢٧) الدكتور حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ج٢، ص٧٧٦. فيه أن الخطوة الأولى لنشوء وظيفة العدالة كانت من قبل القاضي المفضل بن فضاله في القرن الثاني الهجري (القرن الثامن الميلادي) حين عيّن عشرة رجال شهود. والخطوة الثانية من قبل القاضي مالك أبو نعيم إسحاق بن الفرات قاضي مصر. راجع أيضاً آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج١، ص٣١٨.

(٢٨) الفارقي، ص١٠٠، ١٦٦. ذكر الشهود بدل العدول عدة مرات لترادفهما كما في ص٩٥، ١٠٨، ١٧٧، ٢٠٢. وأطلق على العدول أيضاً إسم الشهود في وثائق رسمية، مثل المرسوم الصادر عن الخليفة العباسي المسترشد، راجع نصه في صبح الأعشى، ج١٠، ص٧٠.

والياً في بلدة طانزه (طنزه) على القسم الشمالي من بوتان. ولكنه إنهزم من هناك الى بغداد، إثر مقتل شيروه وبعض الذين ساندوه في مؤامرته وقتل الممهد كما مر بالتفصيل في الجزء الأول. أما إبن البهات، فهو التاجر الذي حطم الرقم القياسي في الربح، حيث ربح في يوم واحد (٥٠٠) دينار بيزنطي، ثم إشترى بها قرية (بني نوح) وجعلها وقفاً على حراس ثلاثة من قلاع دياربكر. ولدينا إشارة ثالثة حيث ذكر الفارقي إن عدول فارقين ودياربكر كانوا يرافقون القاضي أبي عبدالله المالكي أثناء تنقله بين المدينتن(٢٩).

مما هو حريّ بالذكر ايضاً أن العدول كانوا من هيئة المحكمة يعمل برأيهم القاضي فيما له علاقة بالمتقاضين. وكان من إختصاصهم أيضاً الشهادة على ما يصدره القاضي من الأحكام وأنها غير مخالفة لأحكام الشريعة الإسلامية. وهذا النظام (أي نظام العدالة) أشبه بنظام المحلفين في أوروبا في العصور الوسطى وما زال في إنكلترا الى اليوم، وإن كانت أعمال المحلفين تختلف الآن بعض الإختلاف عما كانت عليه في العصور الوسطى(٣٠).

ويمكن الإطلاع على واجبات العدول ومدى العلاقة بينهم وبين القاضي من الوثائق الرسمية، مثل المرسوم الصادر من الخليفة العباسي (الطائع للّه) بتعيين القاضي أبي محمد عبيداللّه بن أحمد(٣١).

٩- الخطابة

الخطابة وظيفة دينية معروفة وذات أهمية كما هي اليوم، والخطيب يلقي خطبة دينية على المسلمين الذين يحضرون الى الجامع لأداء فريضة صلاة الجمعة من كل أسبوع. وكان الخطيب يذكر في خطبته إسم الأمير الدوستكي ويدعو لبلاده وشعبه بالخير والتقدم. وفي سنة (١٠٤٦م) دخل الرحالة الفارسي ناصر خسرو كُردستان الوسطى في العهد الدوستكي، فوجد أن الخطباء يذكرون إسم سلطان الولاية في الخطبة هكذا "الأمير الأعظم عز الإسلام سعد الدين نصرالدولة شرف الملة أبو نصر أحمد"(٣٢).

ولما كانت الخطبة من شارات الحكم كالسكة والطراز، فإن إدراج هذه الوظيفة في مؤسسات الدولة أمر في محله. وقد وصلت إلينا أسماء بعض ممن تولوا الخطابة في المدن الكُردية في العهد الدوستكي وهم (إبن عقيل) خطيب الجامع الكبير في دياربكر(٣٣).

وقد حضر الى فارقين بمناسبة تعيين أبي القاسم علي بن القاضي بن أبي علي إبن البغل في قضاء فارقين، فصعد منبر جامعها يوم الجمعة وقرأ مرسوم تعيين القاضي(٣٤).

(٢٩) الفارقي، ص١٢٧.
(٣٠) الدكتور حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي، ص٥٧٦.
(٣١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٠، ص٢٨٢: نص المرسوم.
(٣٢) ناصر خسرو، سفرنامه، ص٤٢. وصل الى فارقين يوم الجمعة المصادف ٢٦ جمادي الأول ٤٣٨هـ = ٢٣ تشرين الثاني ١٠٤٦م.
(٣٣) الفارقي، ص١٧٥.
(٣٤) نفس المصدر والصفحة.

أما الخطيب أبو طاهر محمد بن الخطيب عبدالرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباته الفارقي، فكان خطيباً عندما توفي الوزير أبو القاسم المغربي سنة (٤١٨هـ = ١٠٢٧م). ومنهم الخطيب أبو القاسم يحيى بن طاهر، أي حفيد الخطيب أبي طاهر. تولى أبو القاسم الخطابة سنة (٤٤٠هـ = ١٠٤٩م) أو التي بعدها، وإستمر خطيباً لجامع فارقين حوالي خمسين سنة الى أن تولى القضاء سنة (٤٩٠هـ = ١٠٩٧م). أما الخطابة فتولاها إبنه علم الدين أبو الحسن علي. وكان أبو القاسم أول من تولى القضاء من أسرة بني نباته(٣٥) التي أشتهرت بخطبائها.

وكانت الخطابة في فارقين مقصورة على هذه العائلة منذ أكثر من قرن وفي العهد الدوستكي كله. وتولى عبدالرحيم إبن نباتة الخطابة في عهد سيف الدولة الحمداني في حلب أولاً، ثم في فارقين وتوفي فيها سنة (٣٧٤هـ = ٩٨٤م). ويُحتمل جداً أنه إستمر خطيباً في أوائل عهد الدولة الدوستكية. وكان عبدالرحيم من أشهر الخطباء في التاريخ الإسلامي، حيث أوتي قوة في البلاغة وبراعة في الأدب، وإتفق المؤرخون على أنه لم يُؤلف مثل خطبه(٣٦).

وكان ولد في فارقين سنة (٣٣٥هـ) وتثقف وتلقى الأدب حتى صار إماماً في الأدب. ومازالت خطبه المدونه والمطبوعة مستعملة ومتداولة في كُردستان تركيا الى اليوم. حيث يختار الخطباء منها ما يريدونه ويلقونها يوم الجمعة.

أخيراً ظلت الخطابة في فارقين مقتصرة على بني نباته مدة لاتقل عن قرن ونصف ثم أخذت عنهم، حيث نرى في القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي) كلاً من يحيى بن سلامة الحصكفي الطانزهي (الطنزي) وإبنه مجد الدين أبي عمران موسى، يتوليان الخطابة فيها(٣٧).

(٣٥) تاريخ الفارقي، ص٢٦٧.

(٣٦) إبن خلكان، وفيات الأعيان، ترجمة حياة (عبدالرحيم). في الأساس في الأدب العربي للصفوف الرابعة الإعدادية (ص٣٨٥) تأليف الدكتور مصطفى جواد ومحمد بهجة الأثري وكمال إبراهيم، وفيه بحث مستقل عن إبن نباته مع نموذج من خطبه. ورد في الأساس إسم شخص آخر من بني نباته نقلاً عن إبن الفوطي، وهو الخطيب علم الدين أبو الفضل عبدالرحيم بن إبراهيم بن يحيى بن عبدالرحيم. وفي تاريخ الفارقي (ص٢٤٧) إسم شخص آخر منهم هو القاضي تاج الدولة أبو طاهر علي بن نباته. وقال أنه ولد سنة (٤٨٦هـ) ولم يذكر شيئاً من أحواله. وورد خطأً في الأساس في عبارة إبن الفوطي وهو أنه بعد وفاة الخطيب أبي القاسم تولى إبنه علم الدين القضاء والخطابة، وهذا يناقض المعلومات التي ذكرناها نقلاً عن الفارقي، وهو أعلم من غيره بأحوال بني نباته من سكان مدينته، لكونه عاصر شخصيات منهم ورآهم، مثل أبي الفتح محمد بن علي بن نباته قاضي ماردين وخطيبها بهاء الدين بن علي بن نباته.

(٣٧) راجع ترجمة حياة الحصكفي في موضوع "التشيع".

النظام المالي والنقد المتداول

إن التعامل في الدولة الدوستكية كان بالدرهم والدينار، وكانت المقايضة أيضاً شائعة في المعاملات الداخلية الصغيرة، لاسيما بين سكان الأرياف. وكان الدرهم متداولاً على نطاق واسع وقد تكرر ذكره في تاريخ الفارقي، حيث رود فيه مثلاً: إن الأمير أبا علي حسن بن مروان قد تزوج ست الناس بنت سعد الدولة الحمداني على صداق قدره (٢٠٠) ألف درهم، وإن عبد البر المستولي على دياربكر تصالح مع ممهد الدولة على خراج سنوي قدره (٣٠٠) ألف درهم وأن تكون السكة والخطبة بإسمه. ثم تفاوض معه إبن دمنة على نفس المبلغ والشروط(١).

أما الدينار الذهبي، فكان عملة متداولة في التجارة والمعاملات الداخلة والخارجية، وقد تكرر ذكره في تاريخ الفارقي أيضاً، فقد ذكر مثلاً: أن التاجر إبن جرى حفر قناة ماء الى فارقين كلفته الى أن أوصلها الى السور (٥٠) ألف دينار، وأن نصرالدولة صادره على أربعمائة ألف دينار(٢).

وذكر في(ص٩٢) أنه حدث قحط في إحدى سنوات حكم ممهد الدولة (٣٨٧-٤٠١هـ = ٩٩٧-١٠١١م) حتى بلغ سعر الجريب من الحنطة "عشرة دنانير حمراء". ولعل الدينار المتداول والأكثر شيوعاً كان الدينار البيزنطي، حيث تكرر ذكره من قبل الفارقي، حيث أشار الى أن الخمسمائة دينار التي ربحها التاجر إبن البهات في يوم واحد كانت أرمانوسية(٣). كما إن الراتب اليومي الذي خصصه نصرالدولة للسيدة أم الخليفة العباسي (القائم) وإبنه الذخيرة اللاجئَين لدى الدولة الدوستكية كان خميسن ديناراً أرمانوسية(٤).

هذا في الوقت الذي لم يورد فيه أي ذكر للدينار العباسي وكذلك الفاطمي المعروف بالدينار المغربي. ولكن عدم ذكره لهما لاينفي إحتمال تداولهما، بل يحتمل جداً أنهما كانا متداولين أيضاً نظراً لما تطلبته العلاقات التجارية بين كُردستان والعراق من جهة، وبينها وبين بلاد الشام ومصر من جهة أخرى. يضاف الى ذلك أن حجم التبادل أو العلاقات التجارية بين كُردستان الوسطى والبلاد البيزنطية هو الذي تحكم في شيوع الدينار البيزنطي في التعامل. والذي يحتمل جداً على ما يلاحظ من الإشارتين السابقتين، أنه كان في قوته الشرائية أقوى من الدينار العباسي والفاطمي أيضاً. وفي

(١) تاريخ الفارقي ص٧٢ . ٧٩. ثم إتفق أبو طاهر يوسف بن دمنة مع نصرالدولة على نفس الشروط.

(٢) نفس المصدر، ص١٦٥، ١٦٨.

(٣) أرمانوس (رومانوس) إسم لثلاثة من أباطرة الدولة البيزنطية من الأسرة المقدونية: رومانوس الأول (٩١٩-٩٤٤م)، رومانوس الثاني حكم حوالي (٩٥٩-٩٦٤م)، رومانوس الثالث أرجيروس (١٠٢٨-١٠٣٤م) وكان معاصراً للملك الدوستكي نصرالدولة. وأرجح أن تكون الدنانير الأرمانوسية البيزنطية منسوبة الى رومانوس الثالث. راجع نورمان بينيز، الإمبراطورية البيزنطية حوالي ص٣٣٨.

(٤) الفارقي، ص ١٥٩، ١٦٧.

الصفحة (١٠٣) ذكر الفارقي أنه أثناء فتنة (شروه) سنة (١٠١١م) ثار سكان فارقين عليه وإحتلوا دار الإمارة ونهبوا ما فيه. ولما إسترجع نصرالدولة المدينة إسترجع ما أمكنه من الذهب المنهوب من خزينة الدولة. فمن المحتمل أن يكون ذلك الذهب دنانير وعينات ذهبية أخرى. ولكننا لم نجد أيضاً ذكراً للدرهم العباسي الفضي والنقود النحاسية البيزنطية كالـ(أس) مثلاً وهو عشر الدينار، ولكن ذلك لايعني عدم وجودها للسبب المذكور. وهناك إحتمال أن تكون النقود النحاسية التي وجدها ناصر خسرو متداولة في مدينة خلاط نقوداً بيزنطية(٥).

أما حساب الدولة الدوستكية، فقد كان في رأيي بالدرهم حتى عهد ممهد الدولة، ثم أصبح حسابها بالدينار في عهد نصرالدولة وما بعده. وهو ما إستنتجته من الإتفاق الرسمي بين ممهد الدولة وعبدالبر على المبلغ المذكور المقدر بالدرهم. يضاف الى ذلك تكرر ذكر الدرهم حتى عهده وعدم وجود أي ذكر للدينار. أما الدينار فنجده بعد عهده هو الشائع في التعامل وقد تكرر ذكره.

إن شأن الدولة الدوستكية في التعامل بالدرهم ومن ثم بالدينار شأن الدولة العباسية، التي كان حسابها بالدرهم لفترة طويلة قبل أن يتحول الى الدينار في القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي). ولكن التعامل به لم يصبح شائعاً إلا في القرن الحادي عشر، الذي شاع فيه الدينار في كُردستان أيضاً. وقد طبقت الدولة الدوستكية ذلك النظام النقدي في حسابها مواكبة لذلك التطور الذي حصل في المجال النقدي، ونظراً للتوسع التجاري في عهد نصرالدولة وبعده.

معلوم أنه كان لدار الضرب (أي لسك) النقود دائرة خاصة، فيها موظفون يحددون العيار ويراقبون النقود في الأسواق للحيلولة دون تسرب النقود المغشوشة إليها. وكان في دار الضرب موظف يتأكد من صحة المعدن من الغش والشوائب الى جانب سبّاك يحضّر وزن المعدن قبل طرحه في البوتقة، ونقّاش يحفر الكتابات المزمع إبرازها على النقود ويتولى الضرّاب الضرب على السبيكة والختم على السكة. وهناك موظف آخر مختص بحفظ جميع محتويات دار ضرب العملة من معدن وآلات صنج العيار، سواء كان الصنج زجاجاً أو حجراً يقرر به وزن السكة ويحفظ ختم الأقداح. وفوق كل هؤلاء الموظفين المدير (المتولي). وكان القاضي يشرف رسمياً على دار الضرب لضمان شرعية النقود.

كانت دور الضرب تدر أموالاً للدولة (لذلك كانت عليها ضريبة)، حيث كانت تقوم بسك ما يقدمه الأفراد من سبائك طبقاً للوزن المقرر وتحويلها الى نقود وذلك مقابل أخذ رسوم معينة منهم. وكان سك النقود غالباً ما يبدأ، كما في الدولة العباسية، في عيد النوروز في بداية الربيع، حيث تبدأ السنة المالية وكذلك في عيد (مهرجان) في بداية الخريف(٦)، وهما من الأعياد القديمة في كُردستان وإيران.

(٥) ناصر خسرو، سفرنامه، ص٤٧.

(٦) كانت الدول تراقب سك النقود المزيفة وتمنعها من التداول وتوقع على المزيّف عقوبات. قال الدكتور محمد باقر الحسيني في، النقود الإسلامية، ص٥ من سلسلة الموسوعة الصغيرة ١٦٨: أن العقوبات على مدى العصور هي الإعدام أو الحرق بالنار أو السجن المؤبد أو الأشغال الشاقة المؤبدة أو مصادرة الأموال وغيرها في أسواق بغداد الى بداية العصر البويهي، ص٢٢٧ و٢٥٦ موضوع مهم عن النظام النقدي إستفدنا منه بخصوص الحديث عن دار ضرب النقود.

العملة الدوستكية

لم تصلنا من نقود الدولة الدوستكية لحد الآن سوى الدراهم الفضية، لذا سيقتصر بحثنا عليها. لقد ضُربت النقود المختلفة في أوزانها وأحجامها وتواريخها لتكون العملة المتداولة من قبل أبناء الشعب. وكانت في البلاد عدد من دور الضرب، أي الدور والمنشآت الخاصة بسك النقود. لقد سكّت الدولة الدوستكية النقود في عدد من المدن والأماكن وهي: ميافارقين وآمد (دياربكر) والجزيرة ونصيبين (نسيبين) وخلاط ودنيسر (قزل تەپە)(٧) وأنبر(٨).

(٧) كانت دنيسر مدينة واقعة في السهل الكائن في الجنوب الغربي من مدينة ماردين بمسافة حوالي (٢٠) كلم وتسمى الآن (قزل تەپە)، كما سميت بـ(قوچ حصار) وهي الآن مركز قضاء تابع لولاية ماردين تتبعها (٩٦) قرية. كان نفوسها (٦٦٠٠) نسمة بموجب الإحصاء التركي لسنة ١٩٦٥. أما إسم دنيسر، فهو كوردي مركب من "دنیٚ" و"سەر" بفتح السين أي رأس الدنيا. وكانت هذه المدينة تمتاز بموقعها الجغرافي لخصوبة أراضيها ووقوعها في السهل الزراعي الواقع بين أورفا وماردين وأورفا ونسيبين، وكذلك لوقوعها على طريق القوافل الرئيسي الذي كان يربط بين العراق وبلاد الشام وبين العراق وآسيا الصغرى. ولم أجد ذكراً لمدينة دنيسر قبل العهد الدوستكي، إذ لم يذكرها البلدانيون القدماء كالإصطخري والمسعودي والهمداني والمقدسي وإبن حوقل، علماً أن الأخير كان أعلم من غيره بهذه المنطقة، لكونه كان من سكان نسيبين (نصيبين) أصلاً. ولهذا أظن أن الدولة الدوستكية هي التي إختطتها وإهتمت بنهوضها وضربت فيها النقود، ولكنها بلغت أوج توسعها في النصف الأخير من القرن الثاني عشر الميلادي، حيث إهتم بها الأرتقيون (حكام ماردين) ومازال عدد من آثارهم باقياً فيها حتى الآن من جامع ومنارة وخان وغيرها.

نشأ منها علماء لهم تراجم في مصادر تاريخية. وقد زارها الرحالة الأندلسي إبن جبير سنة (٥٨٠هـ = ١١٨٥م)، فأعجب بأسواقها ومزارعها وبساتينها وسائر مرافقها إضافة الى أزدحامها بالسكان. وقال أنها محطة لأهل بلاد الشام ودياربكر وبلاد الروم. وأضاف أن أسواقها تقام أيام الخميس والجمعة والسبت والأحد. وزارها ياقوت الحموي أكثر من مرة، ووجدها في صباه متقلصة الى قرية. ولما زارها بعد ثلاثين سنة وصفها بكونها مصراً لا مثيل لها في الكبر وكثرة السكان وعظم الأسواق. وقال الحموي أنها تسمى أيضاً بقوچ حصار ووصفها أيضاً في حوالي سنة (٥٨٠هـ) ناسخ كتاب (صورة الأرض) لإبن حوقل في تعليق له بأنها: كان في السابق قرية تقام في سوقها كل يوم أحد، ثم توسعت في وقته وإنغمرت بالعمارة والخانات والفنادق والحمامات والأسواق. ثم تأخرت هذه المدينة مرة أخرى الى أن أصبحت قرية لا أهمية لها في عهد الرحالة التركي أوليا چلبي في القرن السابع عشر. ونهضت مرة أخرى في القرن العشرين. راجع رحلة إبن جبير، ص١٩٣-١٩٥. ومعجم البلدان، ج٢، ص٦١٣. وصورة الأرض لإبن حوقل، ص٢٠٢. ودائرة المعارف الإسلامية، ج٩، ٣٠٣. وأوليا چلبي: سياحتنامه، ص٦٠، ١٣٥ و-Hayat An siklopidisi لسنة ١٩٧٠.

(٨) أنبر، هكذا ورد هذا الإسم على بعض نقود الدولة الدوستكية، كما ورد في (مسكوكات قديمة إسلامية، ص٢٦٧ لإسماعيل غالب) الذي قال إنها مدينة الأنبار العراقية. أما ستانلي پول، فقد ذكرها "بانبر" كما يأتي. وهذا خطأ لأن الباء ليست من أصل الكلمة، بل هي حرف جر والعبارة على النقود هكذا "ضرب بأنبر". مع إني لم أجد ذكراً لأنبر في أي مصدر تاريخي أو جغرافي قديم، سواء كانت مدينة أو قلعة أو مجرد قرية، فإني لم أقتنع بما قاله إسماعيل غالب، لأن مدينة الأنبار لم تكن تحت السيطرة الدوستكية حتى تسك فيها نقودها ولا حاجة لها بمدينة أجنبية لتسك فيها نقودها. وقد كتبت هذا الإنتقاد في حينه وواصلت البحث عن أنبر الى أن عثرت على هذا الإسم في الخرائط التركية الحديثة إسماً للنهر القادم من مدينة الحاني، والذي يمر في شرق دياربكر بمسافة (٢١) كلم، ويسمى الآن بـ(Anbarcayi). فلابد أن أنبر كانت بلدة صغيرة أو قرية مهمة في ذلك العهد، وهي قرية (عنبار) الشهيرة هناك اليوم. ويوجد إسم Anbarcayi في كتاب Dogho Anadolu (ص٤٦٨) تأليف حسين ساراج أوغلو ويسمى النهر بإسم القرية. ومن الجدير بالذكر أن نهر أنبر هو نهر "سالات"، حسبما في الكتب الجغرافية القديمة=

وقـد عُثـر على نماذج عـديدة من نقـود الدولة الدوسـتكيـة، وفي كل من المتـحف البـريطانـي بلندن ومتـحف موزهء همـايون في إستـانبول نماذج عـديدة منهـا. ويتناول ستـانلي لان پول بعض النـماذج الموجودة في المتحف الأول(٩). بينما يتناول إسماعيل غالب ما في المتحف الثاني(١٠).

لقد إتصلت بهذين المتحفين، فزودني المتحف البريطاني بصور لثلاثة نماذج منها من الوجه والظهر، بينما إعتذر متحف إستانبول عن تزويدنا بها، مدعياً أنها قديمة وكتابتها غير واضحة. في حين إن كتابتها قد قُرئت من قبل ذوي الإختصاص قبل الحرب العالمية الأولى، كما نجدها في (مسكوكات قديمة إسلاميـة). وقد إتصلت أيضـاً بمتحف اللوڤر بفرنسا ومتاحف أخرى في العراق وسورية ومصر، فكانت كلها خالية من النقود الدوستكية.

أما النقود التي زودنا بصورها المتحف البريطاني مشكوراً، فكانت عبارة عن ثلاثة دراهم الأول منها ضُرب في مدينة الجزيرة سنة (٣٨٥هـ = ٩٩٥م) وعليه إسم الأمير أبي علي الحسن بن مروان، وهو أقدم النماذج التي نتطرق إليها في بحثنا هذا.

أما الدرهم الثاني فإنه ضُرب بمدينة نصيبين (نسيبين) سنة (٣٩٧هـ = ١٠٠٧م) وعليه إسم الأمير ممهد الدولة أبي منصور (سعيد بن مروان). بينما ضُرب الدرهم الثالث بالجزيرة أيضاً في سنة (٤١٢هـ = ١٠٢١م)، وهو يحمل إسم نصرالدولة أبي نصر (أحمد بن مروان). وقد عرضت الصور على الأستاذ الدكتور محمد باقر الحسيني الباحث العلمي والمسؤول عن قسم المسكوكات الإسلامية بمديرية الآثار العامة ببغداد، فقرأ لنا مشكوراً كتاباتها، أي الكتابات المنقوشة على الدراهم الثلاث كما وجهني الى تنظيم جدول النقود. أما الدرهم الرابع، فمن إسماعيل غالب من نماذج (موزهء همايون) وندرج فيما يلي صورها مع الكتابات المنقوشة عليها:

=ونهر "حو" على ما في تاريخ الفارقي(ص٧٤). راجع موضوع التجارة. وفي (ص٣٤٨) من Dyarbakir Tarikhi لشوكت بيسان أوغلو، نقلاً عن الفارقي أن نصرالدولة شيد جسراً على هذا النهر في طريق فارقين سنة (٤٣١هـ = ١٠٤٠م)، ثم جدده مودود الأرتقي. ثم جدده في سنة (٦٢٠هـ) (محمد بن أحمد...) والبناء عثمان بن طاكاك غلام الأستاذ (أي البناء) جعفر بن محمود الحلبي، حسب الكتابة الباقية لـ(محمد بن أحمد) المذكور وصورة الكتابة في المصدر المذكور. وفي تاريخ الفارقي كلف نصرالدولة القاضي أبا علي الآمدي (إبن البغل) ببناء الجسر، وبناه أحسن بنية وعليه إسم نصرالدولة وإبنه الأكبر سعد الدولة أبي الحسن محمد وذلك سنة (٤٣١هـ) راجع الفارقي ص١٤٦ و١٤٧.

(٩) Lane Pool, Catalogue Of Oriental Coins In The British Museum, VolT 1/8, P.27.274

(١٠) راجع إسماعيل غالب، مسكوكات قديمة إسلامية قتالوغي، ص٣٦٥، ٣٧٣.




درهم رقم (١)






درهم رقم (٢)






درهم رقم (٣)







درهم رقم (٤)

جدول المسكوكات:

درهم رقم (١) ضُرب بالجزيرة سنة ٣٨٥هـ

الوجه	الظهر
المركز	المركز
-------	----------
لله	
محمد رسول الله	لا إله إلا الله
صلى الله عليه وآله	وحده لا شريك له
القادر بالله	الملك بهاء الدولة
الأمير أبو علي	أبو نصر
الحسن بن مرون	حرب
الهامش	الهامش
--------	------------
... ولو كره المشركون	ضرب هذا الدرهم بالجزيرة سنة خمس وثمنين وثلث مائة.

وزنه ٧٥,٨ حبة

قطره ١,٠٥ إنج

درهم رقم (٢) ضرب في نصيبين سنة ٣٩٧هـ

الوجه	الظهر
المركز	المركز
----------	-------------
لا إله إلا اللّه	للّه
وحده لا شريك له	محمد رسول اللّه
ممهد الدولة	صلى اللّه عليه وآله
أبو منصور	القادر باللّه
	الملك بهاء الدولة
	وضياء الأمة
الهامش	**الهامش**
---------	--------------
... نصيبين	ممسوح
سنة سبع وتسعين وثلث مائة	

وزنه ٩٩,٦ حبة

قطره ١,٠٥ إنج

درهم رقم (٣) ضرب بالجزيرة سنة ٤٢١هـ

الوجه	الظهر
المركز	المركز
-------	----------
لا إله إلا اللّه	للّه
وحده لا شريك له	محمد رسول اللّه
نصرالدولة	صلى اللّه عليه وآله
أبو نصر	القادر باللّه
	الملك شاهنشاه
	أبو شجاع
	(d)
الهامش	**الهامش**

-------	------------
بسم اللّه ضرب هذا	محمد رسول اللّه
الدرهم بالجزيرة سنة	أرسله بالهدى ودين
إثنتين عشر وأربع مائة	الحق ليظهره على الدين
وزنه ٧٩ حبة	كله ولو كره المشركون
قطره ١,٠٥ إنج	

يحتوي هذا النموذج على زخرفة كتابية نتكلم عنها فيما بعد.

درهم رقم (٤) ضرب في ميافارقين سنة ٤١٠هـ

الوجه	الظهر
المركز	المركز
------	----------
لا إله إلا اللّه	للّه
وحده لا شريك له	محمد رسول اللّه
نصرالدولة	صلى اللّه عليه وآله
أبو نصر	القادر باللّه
	الملك شاهنشاه
	أبو شجاع
	ص
الهامش الداخلي	**الهامش الداخلي**
----------	-----------------
بسم اللّه ضرب هذا الدرهم	محمد رسول اللّه أرسله
مافرقين سنة عشر وأربع مائة*	بالهدى ودين الحق
الهامش الخارجي	ليظهره على الدين كله ولو
للّه الأمر من قبل ومن بعد	كره المشركون
ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر اللّه	
الهامش الخارجي ممسوح*	

وبعد أن أدرجنا هذه النصوص والصور لأربع قطع مختلفة، نرى من الأفضل وضع جدول عام

* ورد إسم مدينة ميافارقين (سليفان) على النقود الدوستكية بشكل ميافارفين ومافرقين ومفرقين. الصورة من إسماعيل غالب، مسكوكات قديمة إسلامية لوحة (٥).

بالنقود الدوستكية الكُردية، التي وصل إليها بحثنا. علماً أننا بخصوص ما هو موجود منها في (موزهء همايون) بإستانبول إعتمدنا على (مسكوكات إسلامية قديمة قتالوغي) لإسماعيل غالب باللغة التركية، وهو دليل هذا المتحف الخاص بالمسكوكات الإسلامية. وقد تناولها هذا الدليل من الصفحة ٣٦٥ الى ٣٧٣.

أما النقود التي أشرنا إلى وجودها في المتحف البريطاني بلندن، فما عدا النماذج التي حصلنا عليها من هذا المتحف مباشرة، فقد إعتمدنا على دليل هذا المتحف لـ(لان پول) وهو: Catalogue Of Oriental Coins In The British Meuseum. الذي تناول نقود بني مروان (الدوستكيين) في المجلد التاسع صفحة ٢٧٢-٢٧٤. كما تناول أحمد عطية ذكر درهم ضُرب بالجزيرة لأبي علي سنة (٣٨٥هـ)، وأورد صورته وهو مطابق في تاريخه الدرهم رقم (١) الذي مر البحث عنه، وأورد أيضاً ذكر وصورة درهم لنصرالدولة ضُرب في خلاط سنة ٤٠٢ هـ[(١١)].

أما المستشرق زامبارو، فقد أشار الى درهم بإسم نصرالدولة وقال إنه ضُرب سنة (٤٠١هـ)،[(١٢)] ولعل الصحيح هو (٤١٠هـ).

جدول النقود الدوستكية

مدينة الضرب / التاريخ	إسم الأمير	الوزن	القطر	المصدر
آمد				
٤١٠هـ	نصرالدولة أبو نصر أحمد بن مروان			المتحف البريطاني
٤١٢هـ		١م٥ط	٢٥ ملم	موزهء همايون
أنبر				
٤٠٩هـ				المتحف البريطاني
٤١١هـ		١م ١٣ط	٢٥ ملم	موزهء همايون
الجزيرة				
٣٨٥هـ	أبو علي حسن بن مروان	٨,٧٥حبة	١,٠٥ إنج	المتحف البريطاني
٤١٠هـ	نصرالدولة	١ ملم ٤/١ ١٠ط	٢٦ ملم	موزهء همايون
٤١٢هـ		٧٩ حبة	١,٠٥ إنج	المتحف البريطاني
٤١٢هـ			٢٨ ملم	موزهء همايون
مدينة الضرب				
التاريخ	إسم الأمير	الوزن	القطر	المصدر

(١١) راجع أحمد عطيه، القاموس الإسلامي، ج٢، ص٨٨ وص٢٦٧.

(١٢) زامبارو، الأسرات الحاكمه، ج٢، ص٢٦٥.

خلاط				
٤٠٢هـ	نصرالدولة			القاموس الإسلامي ج٢، ص٨٨
٤٠٦هـ				المتحف البريطاني
٤١٠هـ				المتحف البريطاني
دنيسر				
٤٠٨هـ	نصرالدولة أبو نصر			المتحف البريطاني
٤١٠هـ١		١م ١/٢ ٤ ط	٢٤ ملم	موزهء همايون
٤١١هـ			٢٧ ملم	موزهء همايون
٤١٢هـ			٢٧ ملم	
ميافارقين				
٤٩٦هـ	ممهد الدولة أبو منصور	١م ١/٤ ١٤ط	٢٧ ملم	
٤٠١هـ	نصرالدولة أبو نصر			المتحف البريطاني
٤٠٢هـ				زاميارو/الأسرات الحاكمة
٤٠٥هـ				
٤٠٧هـ			٢٥ ملم	موزهء همايون
٤٠٨هـ			٢٤ ملم	
٤٠٩هـ			٢٥ ملم	
٤١٠هـ		١م ١/٤ ٨ط	٢٧ ملم	موزهء همايون
٤١٠هـ	نصرالدولة		٢٥ ملم	
٤١٠هـ			٢٧ ملم	
٤١١هـ		١م ٧ط	٢٧ ملم	
٤١١هـ				المتحف البريطاني
٤١٢هـ		١م ١٤ط	٢٩ ملم	موزهء همايون
٤١٢هـ				المتحف البريطاني
٤١٣هـ		١م ١/٢ ١٤ط	٢٦ ملم	موزهء همايون
نصيبين				
٣٩٧هـ	ممهدالدولة أبو منصور	٩٩,٦ حبة	١,٠٠٥ إنج	المتحف البريطاني
بعد سنة ٤٠٠هـ				المتحف البريطاني

***

بعد إدراج نصوص لنماذج من النقود الدوستكية وبعد تنظيم جدول بنقودها، علينا الآن دراسة تلك النقود دراسة تتمثل فيما يأتي:

١- إن النقود التي سكتها الدولة الدوستكية لم تكن كلها من حيث المجموع نقوداً تذكارية مسكوكة بخصوص مناسبات وطنية، مثل مناسبة تولي بعض أمرائها الحكم، أو بمناسبة الإنتصارات أو غيرها، بل أصدرت تلك النقود لتكون العملة الكُردية المتداولة في البلاد لأغراض التعامل

والتجارة، كما كان الدينار الأرمانوسي البيزنطي متداولاً في البلاد كما ذكرنا. والدليل على ما نقول هو أن الدولة الدوستكية سكت نقوداً مختلفة في تواريخ إصدارها لا نجد فيها أية إشارة الى مناسبة وطنية تستحق إصدار نقود تذكارية. بينما نجد مناسبات ولا نجد نقوداً، مثل مناسبة الإنتهاء من تشييد القصر الدوستكي سنة (٤٠٣هـ = ١٠١٢م)، والذي كان محتوياً على فنون معمارية وزخرفية(١٣).

وقد صادفت هذه المناسبة وصول وفود الدول الكبرى الثلاث العباسية والفاطمية والبيزنطية الى البلاط الدوستكي للإعتراف بحكومة نصرالدولة. وقد قدم إلى نصرالدولة كل من الخليفة العباسي والخليفة الفاطمي لقباً فتلقب بلقب الخليفة الأول وهو نصرالدولة وأقام الأمير إحتفالاً كبيراً بالمناسبة(١٤).

ومع أننا لم نجد نقوداً دوستكية سُكت بهذه المناسبة أي بتاريخ السنة المذكورة، إلا أن من المحتمل جداً أن الدولة سكّت فيها نقوداً رغم إننا لم نطلع على كافة نماذج نقودها. ونستدل أيضاً على أن نقودها كانت عملة لغرض التداول، بإصدارها النقود في سنوات متتالية أحياناً. فمثلاً إن جدولنا يتضمن نقوداً مسكوكة في العاصمة فارقين (ميافارقين) من سنة (٤٠٥هـ) حتى سنة (٤١٣هـ) بدون إنقطاع، وحتى في دنيسر غير المهمة لسنوات متوالية أيضاً.

٢- إذا ألقينا نظرة على محتويات جدولنا المتقدم، نرى إن الدولة كانت حريصة على تنويع نقودها من حيث الأحجام والأوزان وأماكن السكّ. فمثلاً أنها سكّت في العاصمة فارقين في تاريخ واحد أي في سنة (٤١٠هـ) أحجاماً مختلفة، وسكّت في نفس التاريخ نقوداً أخرى في أربع مدن أخرى وهي الجزيرة ودنيسر وخلاط وآمد. وفي الوقت الذي لم نطلع فيه على أحجام المسكوكات الأخيرة، نجد إن مسكوكات الجزيرة ودنيسر مختلفة الأحجام، أي إن مسكوكات كل مدينة تختلف في حجمها عن مسكوكات المدينة الأخرى. إن سكّ النقود في تاريخ واحد وفي خمسة أماكن مختلفة وبسبعة أحجام مختلفة أو بخمسة أحجام على أقل تقدير كان كما هو متوقع لأجل جعل العملة صعبة التزوير. ولهذا لم تكتف الدولة بجعلها مختلفة في أماكن ضربها فحسب، بل في أحجامها، وأغلب الظن في أوزانها أيضاً. فمثلاً إن مسكوكات الجزيرة ودنيسر مع مسكوكة فارقين من التاريخ المذكوركانت مختلفة الأوزان، في حين لم نطّلع على أوزان البقية من مسكوكات ذلك التاريخ. وهناك وسائل أخرى للتمييز بين بعض النماذج، كالكتابات وتقييد أماكن بعض كتابات النقود التقليدية والرموز التي سنتحدث عنها. أما أوزان النقود الدوستكية الموجودة في متحف إستانبول وحسبما بيّنها إسماعيل غالب، فإنها تقع بين (١م١/٢ ١٤ط) وبين (١م ١/٣ ١٤ط)، أي بين مثقال واحد وأربعة قراريط ونصف قيراط(١٥)، وبين مثقال واحد وأربعة عشر قيراطاً

(١٣) راجع التفاصيل في الجزء الأول، ص١٧٠. والفارقي، ص١٠٧.
(١٤) راجع الفارقي، ص١٠٨-١١٠، والجزء الأول، ص١٧٣-١٧٧.

ونصف قيراط، عدا قطعة واحدة كان وزنها (١/٢ ١٤ط) ولعل الرقم ورد مبتوراً في (مسكوكات إسلامية لإسماعيل غالب) ويكون الصحيح (١م ١/٢ ١٤ط). أما أحجام النقود من حيث القطر وحسبما في المصدر المذكور، وكما يلاحظها القارىء من الجدول، فإنها تقع بين (٢٤ و٢٩ ملليمتراً) أي إن قطر أكبر درهم منها هو (٣سم) إلا ملليمتراً واحداً.

٣- توجد رموز على بعض تلك النقود الدوستكية، وهي عبارة عن حروف منقطعة في الغالب وواقعة في نهاية كتابة الوجه أو الظهر ومن تلك الرموز (ر، د، ن، ص، ف، "ج سم"؛ (I)، و(D) والرمز الأخير ليس حرفاً عربياً وإنما هو حرف الدال اللاتيني أو ما يشبهه. ويُشاهد هذا الرمز الأخير على الصورة رقم (٣). وتوجد رموز مشابهة على نقود بعض الدول الإسلامية الأخرى، وأخص بالذكر الدولة البويهية. ولم يستطع الباحثون المختصون بالمسكوكات الإسلامية حل هذه الرموز، فمنهم من يقول أنها رموز دالة على وزن السكة. وكذلك إن الرمز (I) ليس حرفاً عربياً، بل الحرف اللاتيني المعروف بهذا الشكل أو ما يشبهه. ومن المحتمل أن الغرض من الرمز هو للتمييز بين مسكوكة وأخرى متطابقتين في التاريخ أو الكتابات، مثل الدرهم رقم (٣) والدرهم رقم (٤)، فإنهما ورغم إختلافهما في التاريخ متطابقان في كتاباتهما. ونلاحظ من صورتيهما وجود الرمز (D) تحت كتابات ظهر الرقم (٣)، ورمز(ص) تحت كتابات مركز الظهر من الرقم (٤).

٤- إن النقود الدوستكية ليست خالية من العنصر الزخرفي الكتابي فنهاية بعض الحروف من كتابات الهامش الداخلي الداخلي تمتد من الى داخل الوجه من أربعة جهات متقابلة وبنسب متساوية تنتهي بزخرفة حيوانية على هيئة رأس بطة. وكل من الدرهم رقم (٣ و٤) مزخرف بهذه الزخرفة وفي الدرهم رقم (٣) ينتهي حرف الراء من كلمة (أبو نصر) بزخرفة تمثل رأس (الوز) تمتد بإتجاه رأس البط، في حين إن حرف الراء من نصرالدولة لاينتهي بالزخرفة الأخيرة. ونلاحظ هذه الزخرفة من صورة الدرهمين المذكورين بشكل واضح.

أما الكتابة التي إستعملتها الدولة الدوستكية على نقودها، فهي من نوع الكتابة الكوفية البسيطة أي غير المورقة أو المخمّلة أو المضفّرة من الأنواع الكوفية. علماً أن الدولة إستعملت الكتابة الكوفية المورقة والمخملة على آثارها العمرانية، وإستعملت بجانب زخرفتها النباتية زخرفة حيوانية كما سيأتي ذكره في موضوع "تطور الكتابة المزخرفة في الدولة الدوستكية".

(١٥) المثقال درهم وثلاثة أسباع الدرهم، والدرهم ستة دوانق، والدانق قيراطان، والقيراط طسوجان، والطسوج حبتان من شعير. وهذا حسب ما في كتب اللغة والموازين مثل، الصحاح للجوهري، ج٤، ص١٦٠٩. وعقد المنير، للسيد موسى المازندراني راجعه بصدد الأوزان من ص ١٣٠-١٤٢. وعلى هذا الأساس فإني شخصياً قد أجريت تحديداً للمثقال فبلغ (١٦٩) حبة شعير متوسطة، ووزنت الحبوب هذه عند الصاغة فكانت غرامان. فالمثقال إذن غرامان أما القيراط فثمان حبات شعير. راجع موضوع الأوزان والمكاييل. ومن الجدير بالذكر أن الحبة كانت مستعملة في العهد السومري بإسم (شي)، وكانت (٤٦،٧٥) ملليغراماً كما في مقال (التجارة والصناعة قديماً) للدكتور فوزي رشيد المنشور في جريدة (الإتحاد) العراقية العدد الصادر في ١٩٨٨/٦/٥. في مقال محمد الخطيب بعنوان (الأحجار الكريمة والمجوهرات) المنشور في مجلة (الفيصل) العدد (١٠٨) سنة ١٩٨٦: القيراط = ٢٠٠ ملليغرام والحبة ربع قيراط- (٥٠) ميلليغراماً.

٥- يوجد في عدد من النماذج إسم "محمد" في نهاية مركز الوجه بعد لقب وكنية "نصرالدولة أبو نصر"(١٦)، مما يوهم أنه إسم هذا الأمير، في حين إن إسمه هو (أحمد). وقد علّق على هذا كل من زامباو وإسماعيل غالب ومحمود ياسين(١٧).

حيث قال الأول بأن محمداً هو إسم الأمير الذي ولد سنة (٣٧٦هـ)، بينما قال إسماعيل غالب أن هذا الإسم يتعارض مع ما ذكره المؤرخون من إن إسمه أحمد. وقال يحتمل أن يكون المؤرخون على خطأ فيما ذكروه. أما السيد محمود ياسين، فقال بإحتمال كون الخطأ واقعاً في نقش الدرهم، حيث كُتب محمد بدلاً من أحمد خطأ وليس على سبيل التزوير. والثلاثة مجتمعون على أن "محمد" قُصد به الأمير نصرالدولة.

أما أنا، فأرى من المحتم أن إسم محمد الموجود على عدد من النماذج من عهد نصرالدولة لم يُقصد به هذا الأمير، بل قُصد به النبي محمد والغرض من كتابة إسمه هنا هو التيمّن. ولعل ما يؤيد ما نقوله هو كتابة كلمة (للّه) على نماذج عديدة من النقود الدوستكية في أعلى مركز الظهر، مثل الدارهم المرقمة ٢ و ٣ و ٤ أو في أعلى مركز الوجه مثل الدرهم رقم -١-. ولعل كلمة (للّه) كتبت على كافة الدراهم، أما محمد فعلى بعضها والغرض جعل إسم الأمير أي لقبه وكنيته بين لفظتي (للّه) ومحمد للتيمّن والإستحفاظ. أما إحتمال وقوع الخطأ في نقش الدرهم فبعيد جداً لأنه:

- أولاً؛ إن وقوع هذا الخطأ في كتابة قليلة ومهمة للغاية من قبل الكاتب أو النقاش بعيد جداً.
- ثانياً؛ في حال وقوع هذا الخطأ تمنع الدولة إنتشار النقود التي تحمل ذلك الخطأ الفاحش.
- ثالثاً؛ إن وجود إسم محمد في نماذج متعددة ومختلفة في تواريخها... لايمكن أن يكون خطأ. إذ كيف يتكرر هذا الخطأ، أو كيف تسمح الدولة بإنتشار نقود تحمل إسم الأمير الحاكم خاطئاً المرة تلو المرة وخاصة في ثلاث سنوات أو دفعات متتالية؟ هذا في حين ليس هناك شك أو خلاف على أن إسم هذا الأمير هو (أحمد) كما إتفق عليه المؤرخون وكما هو موجود على آثاره في دياربكر وكما

سنأتي على ذكره في موضوع (الآثار العمرانية). وقد تم الإكتفاء بلقب وكنية الأمير دون إسمه لإشتهاره بهما، كما أكتُفي بلقب وكنية الأمير ممهد الدولة على نقوده، حيث لم يصرح بإسمه (سعيد). وكان معظم الملوك يكتفون بألقابهم في مراسلاتهم ونقودهم. وهناك إحتمال آخر وهو أن يكون للأمير المذكور إسمان أحمد ومحمد، فإختار الثاني غير المشهور على نقوده مفضلاً إياه على الأول لمطابقته إسم النبي، وهو إحتمال بعيد نوعاً ما.

٦- يوجد على النقود الدوستكية إسم الخليفة العباسي القادر بالله(١٨)، والملكين البويهيين بهاء الدولة(١٩)، والملك شاهنشاه أبي شجاع(٢٠)، وهذا دليل على أن الدولة الدوستكية كانت تابعة

(١٦) من النماذج التي عليها إسم "محمد" النموذج المضروب في آمد سنة (٤١٢هـ) والذي قطره (٢٥ملم) ونموذج دنيسر لسنة (٤١١هـ) والمضروب في ميافارقين سنتي ٤٠٨ و٤٠١هـ.

(١٧) راجع زامباو، الأسرات الحاكمة، ج٢، ص٥٦٥. وإسماعيل غالب، مسكوكات قديمة إسلامية: موضوع نقود بني مروان. ومحمود ياسين، الإمارة المروانية، ص١٦٩-١٧٤.

للخلافة العباسية والدولة البويهية في العراق، وهي تبعية من الناحية الشرعية أو النظرية فقط. إذ أنها كانت مستقلة في كافة شؤونها شأنها في التبعية العباسية شأن معظم الدول الإسلامية، التي نشأت في العصر العباسي حتى الدولتين الكبيرتين السلجوقية والأيوبية، حيث توجد أسماء الخلفاء منقوشة على بعض من نقودهما. فعلى سبيل المثال يوجد إسم الإمام المقتدي على دينار ملكشاه مسكوك في سنة (٤٨٦هـ)(٢١).

هذا وقد ناقشت هذه المسألة بتفصيل أكبر في موضوع النظام السياسي فراجع هناك. وأخيراً إن النماذج التي إطلعنا عليها من النقود الدوستكية تعود الى ثلاثة أمراء فقط ومن المتوقع أن الدولة سكّت النقود في عهود الأمراء الآخرين.

ديوان الجباية (المالية)

هو الدائرة التي تقوم بجمع واردات الدولة وإستيفاء أموالها السنوية وصرفها في رواتب الموظفين ورواتب وأرزاق القوات المسلحة والخدمات الإجتماعية والأوجه الأخرى. ولدى هذه الدائرة سجلات بأسماء الجنود والشرطة والموظفين ومقدار الراتب الذي يستحقه كل فرد منهم.

"... وهذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهي القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج، وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف عطاءاتهم في إباناتهم، والرجوع في ذلك الى القوانين التي يرتبها القيّمون على تلك الأعمال وقهارمة الدولة، وهي كلها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل والخرج، مبني على جزء كبير من الحساب لايقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال، ويسمى ذلك الكتاب (أي السجل) بالديوان مكان جلوس العمال المباشرين لها"(١). وإعتبر المفكر واضع علم الإجتماع إبن خلدون هذه الدائرة والوظيفة ثالث أركان الدولة، بينما إعتبرها الوزير أبو سالم الركن الرابع(٢). وهذه الدائرة تمثلها في عصرنا وزارة المالية، أما الموظف الكبير الذي كان يشرف عليها أو يديرها، فكان يعرف في الدولة العباسية والدوستكية ودول أخرى بـ(ناظر الديوان)، بينما كان يُعرف بـ(رئيس ديوان النظر) في الدولة الفاطمية(٣).

(١٨) القادر بالله هو أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر، تولى الخلافة بعد القبض على الخليفة الطائع سنة (٣٨١هـ = ٩٩١م).

(١٩) تولى بهاء الدولة بن عضد الدولة الحكم في العراق سنة (٣٧٩هـ = ٩٨٩م) بعد وفاة أخيه شرف الدولة.

(٢٠) تولى الملك شاهنشاه الملقب بسلطان الدولة الحكم بعد وفاة والده بهاء الدولة سنة (٤٠٣هـ = ١٠١٢م)، وإستولى أخوه مشرف الدولة على الحكم وخُطب له رسمياً في السنة التالية، ونتيجة للتفاوض بينهما إنتقل شاهنشاه ملكاً الى إقليم فارس. وتوفي سنة (٤١٥هـ = ١٠٢٣م).

(٢١) راجع مجلة "سومر" مجلد ٢٥ لسنة ١٩٦٩ الجزء الأول: مقال الأستاذ الدكتور محمد باقر الحسيني بعنوان دراسة تحليلية للعناصر الزخرفية على النقود السلجوقية.

(١) إبن خلدون، مقدمة، ص٢٤٣.

(٢) الوزير أبو سالم محمد بن طلحة النصيبي، العقد الفريد للملك السعيد، ص١٥٨.

وكان لديوان الجباية في الدولة الدوستكية كغيرها من الدول فروع، أي دوائر تابعة له في الولايات. لقد كان ديوان الجباية موجوداً في الدولة الدوستكية، حيث أشار الفارقي في موضعين الى وجوده وذكر لنا إسم "ناظر الديوان" وهو "إبن بركة"(٤). وكان إبن بركة بمثابة وزير المالية في الدولة في عهد الوزير المغربي، وإستمر في منصبه بعد وفاة هذا الوزير. كما أناط به نصرالدولة القيام بشؤون الوزارة الى أن تولاها أبن جهير.

أما في ولايات الدولة، فكانت فيها أيضاً دواوين جباية تابعة للديوان (العام) في العاصمة فارقين. فمثلاً تولى ديوان الجباية في دياربكر سنة (٤١٥هـ = ١٠٢٤م) موظف مسيحي يعرف بـ(إبن الخمّار) وتولاها في عهد واليها الأمير أبي الحسن سعد الدولة محمد بن نصرالدولة(٥). أما في دياربكر، فقد تولى ديوان الجباية أيضاً الشاعر إبن الأسد الفارقي آخر وزراء الدولة الدوستكية(٦).

وتجدر الإشارة الى أن الموظفين التابعين لديوان الجباية من الذين كانوا يجبون أموال الدولة من وجوهها المختلفة في الدولة الدوستكية، كانوا يدعون بـ(العمال) كما في الدول الأخرى. ولعل لفظ (النواب) كان يطلق عليهم وعلى غيرهم من الموظفين الكبار وإستعمله إبن الأثير، حيث قال إن معظم "نواب بني مروان" في دياربكر كانوا من المسيحيين(٧).

هذا وكان العمال يقومون بأعمال إضافية أخرى، كالإشراف على بناء المنشآت العمرانية إذ يوجد مثلاً إسم أحد عمال الدولة الدوستكية، وهو أبو طاهر العلاء بن (كاغد؟)، على إحدى تلك المنشآت بجانب إسم الأمير نصرالدولة. وفيما يلي صورة للأثر العمراني وهو قسم من سور دياربكر مع نص الكتابة الموجودة عليه:

نص الكتابة:

"بسملة... مما أمر بعمله مولانا الأمير السيد الأجلّ المؤيد المنصور عز الإسلام سعد الدين نصرالدولة وركن الملة ومجد الأمة شرف الأمراء أبو نصر أحمد بن مروان (؟) شهور سنة (؟) عشرين وأربعمائة وجرى ذلك على يدي عامله أبي طاهر العلاء بن كاغد(؟) بن سهل".

الصورة والكتابة من (Amida– ص٢٥) لڤان برشم. وموجودتان أيضاً في بسري كونيار،

(٣) الدكتور محمد حمدي المناوي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، ص٥١. ذكر القلقشندي في صبح الأعشى، ج٣، ص٤٩٣ أن: صاحب (نظر الديوان) هو رأس لكل ولاية وله الولاية والعزل وإليه عرض الأرزاق على الخيلفة والوزير.

(٤) الفارقي، ص١٣١ و١٤٧ قصدنا بالإسم الكنية أما إسمه الحقيقي فلم يذكره الفارقي وذكر أيضاً في ص١٤٧ أنه كان "إبن بركة ناظر الديوان".

(٥) الفارقي، ص١٤٧، ذكر هنا أن إبن الخمار تولى أمر الديوان بينما قال في (ص١٢٦) أن نصرالدولة عينه كاتباً للأمير محمد. ويمكن الجمع بين القولين بكونه كان مدير المالية وكاتباً للأمير المذكور في وقت واحد.

(٦) محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٢٩، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي. بغية الوعاة في طبقات النحاة، ص٢١٨، الزركلي، الأعلام، ج٢، ص١٩٨. لا نستطيع أن نحدد تاريخ تولي إبن أسد ديوان الجباية.

(٧) إبن الأثير، الكامل،ج١٠، ص٤٥.

ج١،ص٢٥ من (Diyarbakir Tarihi).

من الجدير بالذكر أنه لم نعثر على معلومات حول المصادر المالية للدولة الدوستكية، إلا أن تلك المصادر كانت بلاشك تتكون من ضريبة الأرض وبعض العقارات والواردات الزراعية والجزية والگمارك والمكوس وغيرها. كما لم نعثر أيضاً على معلومات حول الضرائب المختلفة ومقاديرها والمتوقع بالنظر لسياستها العادلة، إنها لم تفرض ضرائب ثقيلة على الشعب، كالتي فرضتها سابقاً الدولة الحمدانية، والموجودة في قائمة إبن حوقل، وكذا الضرائب الكثيرة التي فرضتها الدولة البويهية مثل ضريبة الحيوانات والمنسوجات والطواحين والأسواق والحوانيت والمراعي والملح والإرث. هذا بالإضافة الى مواردها المستحصلة من الجزية والمكوس وغيرها، مما تجده في (العراق في العصر البويهي ص١٢-١٣ للدكتور محمد حسين الزبيدي). ولكن مع هذا، فقد أشار الفارقي الى بعض الضرائب في أواخر أيام الدولة، حيث قال إن تاج الدولة (تُتُش) لما إحتل فارقين أسقط عن سكانها "المؤن والأعشار والأقساط والكلف وجميع البوائق"(٨).

وكان من عادة الملوك أن يسقطوا بعض الضرائب إذا تولوا الحكم، ولكنهم (بإستثناء من عدَل) سرعان ما يعودون لفرضها أثقل من قبل، وخاصة أمثال الملك تُتُش المعروف بظلمه وقسوته. ولا يخفى أن الدولة الدوستكية قد ورثت من الدولة العباسية والبويهية أراض أميرية وإقطاعات غير قليلة إنتقلت ملكيتها الى تحت تصرفها، وأصبحت مصدراً من مصادر ماليتها.

في الوقت الذي لم نعثر فيه على أرقام إحصائية لإيرادات الدولة الدوستكية، فإن لدينا أرقاماً لمقدار الخراج السنوي لعدد من مناطق ذلك الجزء من كُردستان. إذ تبين مقادير الأموال التي كانت تجبى من ضريبة الأرض الزراعية والجزية (التي كانت تؤخذ من أهل الذمة) وضريبة السوق والطواحين والعصير وغيرها. ولدينا بهذا الصدد ثلاث قوائم الأولى قائمة قدامة بن جعفر المتوفي سنة (٣٣٧هـ)،

(٨) الفارقي، ص٢٣٦. المؤن: أصلها هدايا ثم إكتسبت مثل رسوم مقررة. راجع ص٢٣ من تاريخ الضرائب العراقية لعباس العزاوي. الأعشار: الضريبة التي تؤخذ من الأموال التجارية في الطرق التجارية في أماكن معينة وفي الأسواق، وهي (المكس) ولا تعني الكلمة أن مقدار الضريبة هو العشر، أي عشر قيمة المال التجاري، بل كان يؤخذ مقدار ما من الدراهم ويسمى بـ(المآصر)، إذا أخذ من الأموال التجارية التي تنتقل عن طريق الأنهار. والمأصر هو السلسلة الحديدية التي تربط على جانبي النهر ممتدة في النهر لسد الطريق على السفن والأكلاك من العبور، إلا بعد أخذ الأعشار أي الضريبة منها. راجع أيضاً نفس المصدر، ص٢٣.

الرصد، المرصد، المراصد: هي النقاط والمعابر البرية التي كانت تؤخذ فيها الضريبة من القوافل التجارية وبالكُردية (باجگه). وكان نصرالدولة قد وضع قوة مرتزقة من السلاجقة في (الرصد)، على ما ذكرناه في موضوع العلاقات مع الدولة السلجوقية. وقد فسّرت الرصد هناك بمنطقة الحدود مع الدولة البيزنطية، أي مراقبتها كحراس حدود لا بمعنى نقطة الضريبة (الگمرك) نظراً لأن المقام إقتضى ذلك.

الأقساط: الوارد في كلام الفارقي هو نوع من الضريبة التي كانت تؤخذ من الموائع كالزيوت ودهن السمسم والدبس. وفي كتاب الخراج لأبي يوسف أن عياض غنم، عندما فتح القسم الذي كان بيد الفرس من ديار ربيعة من سهل ماردين ونصيبين حتى سنجار، فرض على كل رجل سنوياً ديناراً و(مدياً) قمح و(قسطي) زيت و(قسطي) حل أي دهن السمسم. والقسط مكيال وهو نصف صاع أي حوالي نصف كيلوگرام. راجع الرحبي، فقه الملوك. ومفتاح الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج، ج١، ص٣٠٤.

وتعود الى زمن المعتصم، أي الى النصف الثاني من القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي). والثانية قائمة الوزير على بن عيسى، التي وضعها لخراج الدولة العباسية لسنة (٣٠٦هـ = ٩١٨هـ)، أي قبل الدولة الدوستكية بـ ٦٦ سنة. والثالثة قائمة إبن حوقل النصيبي وهي أهمها بإعتبارها قريبة العهد من الدولة الدوستكية، إذ أنها تعود الى سنة (٣٥٨هـ = ٩٦٨م) حين زار إبن حوقل مدينة نصيبين (نسيبين) والموصل من إقليم الجزيرة، أي قبل العهد الدوستكي بأربع عشرة سنة في عهد الحمدانيين.

إن إدراج قائمة إبن حوقل وما ورد في القائمتين المذكورتين هنا في الحاشية لايخلو من فائدة، إذ يمكن عن طريقهما أخذ فكرة تقريبية عن مالية الدولة الدوستكية ومصادرها، وكذلك فكرة عن تلك المناطق نفسها من حيث الإنتاج، وعلى الخصوص بالإطلاع على قائمة إبن حوقل[٩]. مع العلم أن الأخير ذكر بعض الأرقام بالدرهم والبعض الآخر بالدينار، فحولنا الدرهم الى الدينار مع العلم أن الدينار في وقته كان (١٥)درهماً[١٠].

(٩) مقدار الخراج السنوي بالدرهم من قائمة قدامة بن جعفر الموجودة في مؤلفه: كتاب الخراج، ص٢٥١:

٣،٢٠٠،٠٠٠ (أي ثلاثة ملايين ومائتا ألف درهم) قردى وبازبدى (أي القسم الجنوبي من بوتان والمنطقة الواقعة في غرب وجنوب غرب مدينة الجزيرة، وتوجد حالياً ثلاثة مدن في منطقة بازبدى وهي الجزيرة وهەزەخ ضمن الحدود التركية ومدينة ديريك في الجانب السوري.

٤،٢٠٠،٠٠٠ أرزن وميافارقين (أي منطقة غرزان وفارقين). أي أربعة ملايين ومائتا ألف درهم.

٢٠٠،٠٠٠ آمد (دياربكر). أي مائتا ألف درهم

٩،٦٣٥،٠٠ ديار ربيعة. أي تسعة ملايين وستمائة وخمسة وثلاثين ألف درهم.

١٩،٠٣٥،٠٠٠ درهم أي ١،٢٦٩،٠٠٠ دينار مقدار الخراج السنوي بموجب قائمة على بن عيسى حسبما ذكرها جرجي زيدان في (تاريخ التمدن الإسلامي) ج٢، ص١٠٩ - ١١٦. فالحساب كان بالدينار وهي:

٥٤٧٨	آمد سوى ما جمع في إقطاع كاسه وبعد الإحتسابات
٨٢٤٢٢	مال (من آمد)
٥٦٧٥٠	أرزن وميافارقين بعد الإحتسابات
٨٢٤٢٢	مال
٢٢٧٩٧	ديار ربيعة بعد الإحتسابات

المجموع: ٥٥٣٩٦٢ ديناراً

والجدير بالذكر أن كلاً من قدامة وعلي بن عيسى أدخلا كغيرهما عدداً من مناطق كُردستان الوسطى تحت إسم أرمينية، معتبرين إياها جزءً منها مثل مناطق بدليس وخلاط وملازگر وأرديش، التي كانت ضمن الدولة الدوستكية. فيمكن إذن أن نقدر خراج هذه المناطق بحوالي مليوني درهم، إذا ما أخذنا بقائمة (إبن خرداذبه) العائدة الى القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي). حيث ذكر بأن خراج أرمينية أربعة ملايين ونصف مليون درهم. راجع قائمته في تاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان، ج٢، ص١٠٩-١١٦ وراجع المجموع الكلي في المسالك والممالك لإبن خرداذبه، ص١٢٥.

إن خراج المناطق المذكورة يعادل ثلث خراج أرمينية حسب قائمة إبن خلدون الموجودة في مقدمته ص١٨٠ وهو ثلاثة عشر مليون درهم، عدا ورادت أخرى غير داخلة ضمن هذا المبلغ، وهو مطابق لما ورد في كتاب الوزراء للجهشياري ص٢٨٦ وهما قائمة واحدة مختصةج بزمن هارون الرشيد.=

وإن القدرة الشرائية للدينار الواحد آنذاك كانت تعادل حوالي خمسين ديناراً عراقياً في سبعينيات القرن العشرين.

=هذا وقد إعتبرنا ديار ربيعة ضمن كُردستان هنا، لأن قائمة قدامه حصرتها في منطقة نسيبين (نصيبين) وماردين ودارا وكفرتوثا ورأس العين من المناطق الكُردية. وفصل على بن عيسي في قائمته أيضاً بين ديار ربيعة والموصل ومردين، وبهذا فهي تشمل زاخو ودهوك أو من ألقوش الى ماوراء زاخو. مع العلم إن مردين غير ماردين وبهذا يطابق تحديده لديار ربيعة تحديد قدامة لها.

والمقصود بعبارة "بعد الإحتسابات" في قائمة على بن عيسى، هو بعد خصم مبلغ من أصل الخراج من المجموع الكلي. إذ كان يخصم من مجموع إيرادات الدولة مبلغ يرصد لرواتب الموظفين والجنود وللخدمات الإجتماعية العامة للمنطقة. ومن ثم يرسل الباقي الى خزينة الدولة ببغداد وهذا الباقي هو الذي ينظم بقائمة الخراج. أما المقصود بكلمة "المال" الواردة في القائمة فيحتمل أنه مال (الضياع السلطانية) والإقطاع وتعرف الضياع السلطانية الخاصة بالخلفاء بالضياع الخاصة.

(١٠) قائمة إبن حوقل حسبما ذكرها في كتابه صورة الأرض ص١٩٣-١٩٤، ١٩٦، ١٩٧ وكانت هذه الضرائب موجودة في العهد الحمداني. وهي كما يلي بالدينار:

نصيبين وأعمالها

٣٣٣ . ٣٣٣	وارداتها الزراعية من الحنطة والأرز والشعير والحبوب خمسة ملايين درهم.
٥٠٠٠	الجزية.
٥٠٠٠	ضريبة الشراب وهي العشر.
٥٠٠٠	ضريبة السوق، أي ما يؤخذ عن الغنم والبقر والبقول والفواكه.
١٦٠٠٠	ضرائب الطواحين في القصبة والضياع المقبوضة والمشتراة والعقارات المسقفة كالخانات والحمامات والدور في رستاق أبنين (الواقعة في الشمال الغربي من نصيبين، وهي المنطقة التي فيها الآن قرية (بنيبين) الواقعة بمسافة حوالي عشرين كيلومتراً الى الشرق ماردين والتي تحمل إسم (أبنين) وكانت تمتد الى قرية (محصرتي) الكبيرة الحالية.
٦٦ . ٦٦٦	من الحبوب مليون درهم.
٣٠ . ٠٠٠	من الضرائب المفروضة على العصير (أي الدبس) والطواحين وغيرها، والجزية.

قردى - باعيناثا - طنزه - شاتان

١٠٠ . ٠٠٠	من الحنطة والشعير.
٣٠ . ٠٠٠	من الأموال التي تجبى من الجزية ومن ضرائب الطواحين.

بازبدى

٦٦ . ٦٦٦	من الحنطة والشعير مليون درهم.
٢٠٠٠	من الجزية والضرائب

باهدرا

١٠٠ . ٠٠٠	من الحنطة والشعير.
٣٠ . ٠٠٠	وبها من المال عن وجوه إسقائها ومياهها.
٧٨٩ . ٦٦٥	دينار مجموع إيرادات الدولة من المناطق الكُردية المذكورة.

ومن الجدير بالذكر أن عبارة إبن حوقل بصدد قيمة واردات الدولة الزراعية من نصيبين وردت "خمسة آلاف درهم" والصحيح "خمسة آلاف ألف درهم" أي خمسة ملايين درهم قيمة لعشرة آلاف (كرّ) والخطأ مطبعي أو إستنساخي وقد وقع في نفس الخطأ المذكور الدكتور فيصل السامر إذ لم ينتبه الى معرفته وتصحيحه وذلك في كتابه الدولة الحمدانية، ج١، ص٣٢٩. وقال إبن حوقل أن قيمه (الكرّ) كانت خمسمائة درهم.

الخازن

كانت وظيفة الخازن هي الإشراف على الأموال الخاصة بالملك، وأن هذه الوظيفة كانت موجودة في أنظمة الدولة الكُردية. فقد ذكر الفارقي عند البحث عن تجديد جامع فارقين في عهد نصرالدولة في سنة (٤١٤هـ)، أنه أشرف على التجديد أبو السعيد الكبير بختيشوع الخازن وذلك في (ص١٢٣) من تاريخه. وقد ذكر إبن الجوزي في المنتظم، حوادث سنة (٤٥٥هـ) إسم خازن آخر هو (أبو الفرج الخازن) بمدينة آمد (دياربكر)، والذي يحتمل أن يكون (أبا الفرج الزهرجي). راجع موضوع (الأدب).

الطِّراز

الطراز كالخطبة والسكة من شارات (علامات) الدولة، وهي العلامات التي تنسج على شعار الدولة وعلى ملابس الملوك والأمراء ورجال الدولة لتدل على مناصبهم، من خيوط ملونة ورسوم أو كتابات كإسم الملك أو نحو ذلك. ويطلق لفظ الطراز على نفس الملابس وعلى الدار (أي المعمل) الذي ينتجها أيضاً. وكان للطراز دائرة خاصة يشرف عليها موظف يسمى (صاحب الطراز).

كان الطراز موجوداً في الدولة البيزنطية والساسانية قبل الإسلام، وأول من أدخله الى الإسلام كان عبدالملك بن مروان، حيث كتب عبارة (لا إله إلا الله) بدلاً من عبارة (بإسم الأب والإبن والروح القدس)، التي كانت تكتب على الملابس الرسمية للدولة الأموية المصنوعة في مصر. وكان الصناع مسيحيون وكان التقليد بيزنطياً. ولما علم عبدالملك بمعناها غيّرها بالعبارة المذكورة، وإستنكر الإمبراطور البيزنطي (ملك الروم) ذلك، لأن الطراز كان من حق الدولة البيزنطية وهي التي تختار ما تريده من العبارات المنسوجة على الملابس.

كان لكل دولة إسلامية طرازها الخاص بها، كالدولة الفاطمية التي كانت تمتلك في عهدها (دار الكسوة) الخاصة بالطراز وكانت قيمة ما يخرج منها في السنة (٦٠٠) ألف دينار. وفي سنة (٥١٦هـ) بلغ عدد القطع التي صدرت منها (١٤٠٣٥) قطعة من ملابس الطراز. أما الدولة العباسية، فكانت تصنع ملابس طرازها في مصر. ثم أنشأ خلفاؤها في قصورهم دوراً خاصة بنسج ملابس الطراز، ثم سُمح للنسّاجين في الأسواق بصنعها. وكانت ملابس الخلفاء والملوك من الحرير، وكان الطراز ينسج على الستائر أيضاً.

أما الدولة الدوستكية، فكان لها أيضاً طرازها الخاص بها، وكان شعار الدولة يُنسج على الملابس وعلى منسوجات أخرى. وكانت ملابس الطراز الدوستكي على الأقل في عهد نصرالدولة تصنع في مصر كل عام في معامل (تنّيس) و(دمياط). وقد وردت الإشارة الى ذلك في رسالة لداعي الدعاة الفاطمي(المؤيد في الدين الشيرازي)، الذي إقتبسه من رسالة نصرالدولة وهو يشيد بتقدير كل من



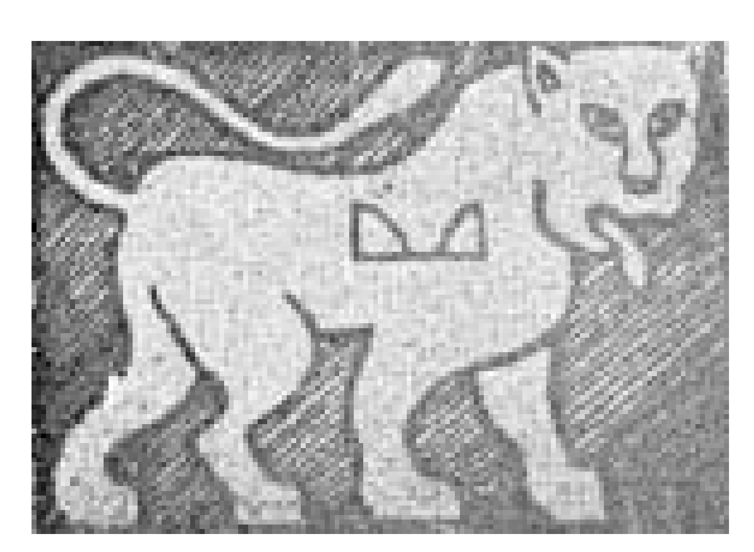
نموذج من نسيج تنيس- المتحف الإسلامي بالقاهرة

الخليفة الحاكم وإبنه الظاهر له وإرسالهما الهدايا والألطاف إليه، من قوله: "وما كان جعل له بتنيس ودمياط من رسم الإستعمال". وقد ذكرنا ذلك في موضوع العلاقات مع الدولة الفاطمية. وقد شرحنا هناك مصطلح "رسم الإستعمال" و"الإستعمال". وكان يُطلق على تلك الملابس إسم "المستعملات" وقد إستعمل الخليفة العباسي لفظ "الإستعمال" بدلاً من (الطراز)، أي الشعار في كتاب إعترافه بحكم فخر الدولة البويهي سنة (٣٦٦هـ). حيث سمح له الخليفة بنسج "الإستعمال في جميع المناسج على أتم النيقة... وأن يثبتوا إسم أمير المؤمنين على طرز الكساء والفرش والأعلام والبنود".

شعار الدولة

كان لكل دولة شعارها الخاص المنقوش على علمها وعلى غيره. أما شعار هذه الدولة الكُردية، فلم نجد نصاً مؤكداً بخصوصه، ولكن يوجد رسم لصورة أسد مازال باقياً على جسر آمد (دياربكر)، الذي شيده نظام الدين بنصر الدولة سنة (٤٧٢هـ = ١٠٧٩-١٠٨٠م) وسيأتي ذكره في موضوع الآثار العمرانية. الصورة عبارة عن رسم (أسد) لبوءة قد أخرجت لسانها ومنقوش على الصورة مثلثان قاعدتاهما مرتبطان بخط واحد. تناول الصورة بالدراسة (ڤان برشم) في كتابه القيم (Amida، ص٣٤) وتساءل عما إذا كان هذا شعار (بني مروان). وذكر أنه يوجد رسم مماثل على برج عند باب خربوت في آمد، كان الأمير ناصرالدولة منصور بن نظام الدين قد بنى وجدّد (أو عمّر) هذا البرج سنة (٤٧٦هـ)، وعليه كتابة بإسمه. كما ذكره أيضاً بسري كونيار (ج٢، ص٣٦) وأكد على أن هذه الصورة مماثلة للصورة الموجودة على الجسر.

إن تكرار الصورة في أثرين من آثار الدولة الدوستكية يعطي ترجيحاً لملاحظة ڤان برشم، بكونها



شعار الدولة الدوستكية

شعاراً لها، مع أن ملامح الأسد بصورة عامة تعبّر عن القوة (كما إن الأسد رمز للقوة والشجاعة). إلا أن نقطةً واحدة توحي بالضعف الذي لاينسجم ووظيفته التي هي شعار الدولة. وتلك النقطة هي لسان الأسد الخارج من فمه، إن كان تعبيراً عن حالة اللهث والنظر الى الماء وهو عطشان. ولكن تكرار اللسان الطالع في الصورة الموجودة على برج باب خربوت (باب الجبل) لايشير الى هذا المعنى، إذ لا وجود للماء هناك. فيحتمل أن يكون لذلك معنى آخر نجهله، إن لم يكن إشارة الى المعنى التنجيمي وهو: أن لبرج الأسد الفلكي الفم و اللسان أي أن ما يتعلق بالفم واللسان له علاقة بهذا البرج من الناحية الطبية القديمة. كما إن لبرج الجوزاء العينين، ولبرج الثور الجبهة وبرج الجدي البطن. أما الرمز المنقوش على الجنب الأيمن للأسد وهو مثلثان ربط بين قاعدتيهما بخط، فيحتمل أنه رمز تنجيمي آخر. فالشكل المثلث في التنجيم القديم (وكذلك التنجيم في العهد الإسلامي) رمز للسعد كالشكل السداسي. بينما كان الشكلان المربع والمستطيل علامتي نحس. كما كان للشكل المثلث علاقة ببرج الأسد وبرج الحمل أيضاً. وهذا على ما كتبه (ماني) في كتابه (كفالايا)(١) أن برج الأسد الذي هو بطبيعته (ناري) من نوع الأبراج التي لها صفة (السعد)، وهو مرتبط بفلك السماء الرابعة أي أن الشمس سلطان الكواكب، وهي من كواكب (السعد) لا النحس ونسبتها للإنسان القلب(٢).

والمثلث يعود أيضاً الى كوكب المشتري السعيد، الذي هو أكبر كوكب في المجموعة ورمز (آهورامزدا) عند الزردشتيين.. فضلاً عن هذا، إن المثلث أصل الأشكال الهندسية وأقواها في

(١) پرويز ورجاوند، مرصد مراغه، ص٥١-٥٢.

(٢) ذيل تذكرة أولي الألباب لداود الأنطاكي، ص١٠١ و١٠٢ و١٠٤ والذيل لأحد تلامذة الأنطاكي لم يُعرف إسمه.

العمارة، ولذلك إختاره الفراعنة في بناء أهراماتهم. أي أن الشكل المثلث تعبيرعن الخير والحظ السعيد وعن القوة وله إرتباط بالأسد. أما في علم (السيمياء) فالمثلث هو رمز له علاقة بالماء. وهو يرمز الى إخضاع الماء لسيطرة الإنسان حتى إمكانية المشي عليه، كالمشي على الأرض عن طريق (السيمياء). ففي ذيل تذكرة أولي الألباب الصفحة (٦٣) أن فرخ طائر الخطّاف إذا أُحرق وكُتب برماده رموز معينة ثم خط الشخص على الماء "فإنك تمشي على الماء ويُري منك ذلك عياناً". والكتابة عبارة عن إثنين وثلاثين رمزاً، إثنى عشر منها مكتوبة بأوضاع مختلفة مشابهة للرمز المنقوش على الأسد، ولكنها أصغر في الكتاب طبعاً مما هو منقوش على حجر الجسر أي على رسم الأسد. فيُستفاد منه أن ذلك الرمز هو من جملة الرموز السيميائية، التي تستخدم في العملية المذكورة مع قراءة دعاء معين لإخضاع الماء لسيطرة الإنسان والمشي عليه بدون خوف من الغرق. وهذا الرمز بمعناه السيميائي منسجم مع مدلول الجسر والغرض منه وكذلك مع الماء. ومما هو قمين بالذكر، أن الملوك الدوستكيين كانوا يعتقدون بالتنجيم كما سيجد القاريء ذلك أكثر من مرة في كتابنا هذا. وبناءً على ما تقدم من الرموز والمعاني المتعددة السامية التي ترمز إليها هيئة الأسد ونظراً لتكرار الصورة بنفس الهيئة على أثرين من آثار الدولة أرجح ايضاً أن الأسد بتلك الهيئة كان شعار هذه الدولة الكُردية.

القوات المسلحة

أ- الجيش

كان للدولة الدوستكية جيش نظامي يتسلم أفراده أرزاقهم ورواتبهم من الدولة. وكان يساند الجيش النظامي في حالات الطواريء وأيام القتال متطوعون من أبناء الشعب دفاعاً عن الوطن. وكانت للجيش قيادة عليا في العاصمة فارقين تتكون من عدد من كبار القادة والقائد العام، الذي ذكره الفارقي بإسم "صاحب العسكر". وقد أطلق هذا الإسم على القائد العام في عدد من الدول الإسلامية في القرون الوسطى، غير إن الفارقي لم يذكر إسم القائد العام للجيش الدوستكي. وهذا في الواقع شيء غير مهم. فقد قال ذلك حينما ذكر أنه لما توفي نصرالدولة أرسل الوزير "صاحب العسكر الى الأمير نظام الدين فأحضره من داره بالمدينة"(١).

وأعطانا أيضاً مورخنا الجليل (الفارقي) إسم وظيفة هامة في قيادة الجيش الدوستكي وهي وظيفة (عرض الجيش)أو (إستعراض الجيش). وكان صاحب هذه الوظيفة يدعى بـ(عارض الجيش). وكان العارض هو (أبو الحكيم بن الحديثي)، وذلك في فترة من عهد نصرالدولة. وقال بصدد ذكر الأسباب التي دفعت بنصرالدولة لإناطة منصب الوزارة بفخر الدولة إبن جهير: "أن أبا الحكيم بن الحديثي الذي كان عارض الجيش جلس ذات يوم يلعب بالشطرنج مع بعض الخدم فتشاجرا فضرب أبو الحكيم رأس

(١) الفارقي، ص١٧٨.

الخادم فشجّه..."(٢).

يظهر مما قاله الفارقي أن نصرالدولة عزله بسبب هذه الحادثة، ثم أعاده الى وظيفته. أما وظيفة العارض فهي القيام بإستعراض الجيش في كل فترة معينة ليدفع الى كل من الجنود والقادة راتبهم وأرزاقهم، وعندما يمرون أمامه يتفقد ملابس كل واحد منهم وسلاحه ودابته إن كان خيّالاً، وكان إستعراض الجيش على هذه الصورة في العهد العباسي(٣).

كانت للجيش دائرة عسكرية خاصة تسمى (ديوان الجند) تشرف على الشؤون العسكرية من تنظيم سجلات بأسماء الجنود، ونوعهم من المشاة أو الفرسان ونوعية سلاح كل واحد منهم وما إلى ذلك. هذا بالإضافة الى واجبات التموين والتسليح وغيرهما، وهي عموماً تشابه واجبات وزارة الدفاع في العصر الحالي.

أما بالنسبة لتنظيمات الجيش الدوستكي، فقد وصلت إلينا إشارات قليلة عنه، منها أن الجيش كان ينقسم الى مشاة (رجّالة) والى خيالة، كما يتضح من كلام الفارقي عن عارض الجيش والحادثة التي ذكرناها بإختصار(٤).

وكانت للجيش أيضاً وحدات (رماة السهام)، كما يظهر من كلام الفارقي بصدد ثورة سكان فارقين على شيروه، وكيف أنه أمر الجنود الكُرج بأن يرشقوهم بالنشاب، فرشقوهم بالسهام وقتلوا منهم جماعة(٥).

ومن ناحية أخرى يُتوقع أن الجيش كان ينقسم، كما في الدول ذات الجيوش في القرون الوسطى أو معظمها، الى وحدات مؤلفة من عشرة جنود ومئة وألف وعشرة آلاف. وكان القادة أي الضباط وضباط الصف بالترتيب عريف ونقيب وقائد وأمير(٦).

أما سلاح الجيش، فكان السيوف والرماح والخوذ والدروع والتروس (مەتال). وأسلحة الرماة هي السيوف والتروس وأقواس النشاب (تير وكەڤان). وكانت هذه الأسلحة التقليدية للجيوش في القرون

(٢) الفارقي، ص١٤٩-١٥٠ ندرج هنا بعضاً من كلام الفارقي لما لا يخلو من فائدة وهو إن أبا الحكيم بعد أن إشتكى عليه الخادم لدى نصرالدولة، إنهزم وإلتجأ الى الأمير مرزبان بن پلاش بن كك، وكان إبن عم نصرالدولة وزوج بنت عمه هند بنت علي بن منصور بن كك... فطلبه نصرالدولة فلم يسلمه. فنفذ جماعة فلم يلتفت إليهم. فأعلم الأمير فنفذ خياله ورجاله. فلبس الأمير مرزبان السلاح وخرج لقتالهم. فعادوا وأعلموا الأمير فخرج بنفسه... الى دار الأمير مرزبان. فلما سمع خرج إليه وقال: أحسنت يا إبن عمي قد جئت تأخذ أبا الحكيم وهو عند بنت عمك وفي دار إبن عمك كأنك قصدت (خرشنة) أو بعض حصون الروم فإستحى الأمير وعاد...".

(٣) راجع جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج١، ١٦٣.

(٤) الفارقي، ص١٤٩.

(٥) الفارقي، ص٩٨.

(٦) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج١، ص ١٩١، الطبعة الثانية. كان ذلك نظام الوحدات في الدولة العباسية وفي (الفنون الإسلامية والوظائف، ج٢، ص٨٨٠). أن القائد في العصر العباسي يطلق على من يتولى إمرة (١٠٠) جندي ولعل الصواب (١٠٠٠) جندي وقال: لم يقصر إستعمال لفظ القائد على الدولة العباسية، بل إستخدم في الولايات المتفرعة عنها.

الوسطى، علماً أنه كانت هناك أسلحة أخرى لايمتلكها بعض من جيوش المنطقة، كالمنجنيق والدبابات والنفط. حيث كان النفط يستخدم في الحروب أيضاً، إذ تُعجن به المواد لتُقذف بها القلاع والى ما وراء الأسوار.

أما عناصر الجيش الدوستكي، فكانت متكونة من الكُرد ومن غيرهم. فكان في صفوفه جنود غير قليلين من الكُرج – الجورجيين. ولما قام حاجب شيروه بن مه م بمؤامرته وإغتال ممهد الدولة سعيد بن مروان في قلعة هتاخ سنة (٤٠٠هـ = ١٠١١م) وإستولى على عاصمة الدولة، أصبح هؤلاء الجنود قوة مخلصة له. ولكن لا نعلم ما آل إليه مصيرهم بعد أن إسترجع نصرالدولة العاصمة وقضى على شيروه. وقد ذكر الفارقي بأن هؤلاء الجنود وكانوا "جماعة كثيرة"، قد أتوا الى البلاد مع أمير كُرجي يدعى (إبن أبي الليث)، كان قد إنهزم أمام ملك الكُرج، وقال: إن نسلهم (أي نسل هذا الأمير) "الى الآن بتفليس بخدمة ملك الكُرج[٧]، علماً أن الفارقي قد زار جورجيا سنة (٥٤٨هـ) وأقام في تفليس مدة عند ملكها (ديمتري بن داود) وسافر برفقته الى ولاية دربند خزران وغيرها[٨].

لقد إستخدمت الدولة الدوستكية في جيشها أيضاً (إبن خان) التركي مع قوته البالغة ألف فارس من الأتراك (التركمان)، ثم إستدعاه أمير حلب عطية بن صالح بن مرداس وإستفاد من قواته في منازعة إبن أخيه وفي قتال القوات البيزنطية. ولكن عطية غدر به، فإلتحق إبن خان التركي بقوات إبن أخيه محمود وساعده على إحتلال حلب سنة (٤٥٧هـ = ١٠٦٥م)[٩].

هذا ونستنتج من عبارة مغلقة من كلام داعي الدعاة الفاطمي (هبة الله الشيرازي)، بصدد علاقات الملك الدوستكي نصرالدولة بالسلاجقة، أنه كانت ضمن القوات المسلحة الكُردية قوة سلجوقية إستخدمتها ووصفها بـ(الأعاجم). ولما شعر نصرالدولة بسوء نية السلاجقة، قام بحملة تطهيرية. فأبعد بذلك كافة أو معظم تلك القوة التركمانية من المراكز التي كانت تتمركز فيها[١٠] ولا يُستبعد أن تكون هذه القوة هي قوة إبن خان.

كانت في صفوف الجيش الدوستكي عناصر عربية ومسيحية من الأرمن والسريان، الذين كانوا في البلاد الدوستكية، إذ يستبعد جداً عدم إنخراط عناصر من الأقليات القومية، التي كانت تعيش مع الشعب الكُردي في الجيش الدوستكي. علماً بأن الفارقي ذكر أن المسيحيين إستولوا على أجهزة الدولة وتمكنوا منها في الفترة الواقعة بين وزارة أبي القاسم المغربي ووزارة فخر الدولة إبن جهير[١١].

وإن ذلك الإستيلاء أو الإنخراط الواسع في أجهزة الدولة لم يكن مقتصراً على الأجهزة الإدارية فقط، بل تعداها الى الأجهزة العسكرية أيضاً. وقد أشار إبن الأثير الى ذلك الإنخراط بقوله، إن معظم عمال بني مروان كانوا من المسيحيين[١٢]، حتى إن عارض الجيش الدوستكي (أبا الحكيم بن

(٧) الفارقي، ص ٩٧، ٩٨.

(٨) الفارقي، ص٤٢: مقدمة الناشر.

(٩) إبن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ج١، ص ٢٩٤.

(١٠) المؤيد في الدين، سيرة المؤيد، ص ١٣٨. راجع كلامه في موضوع العلاقات مع الدولة السلجوقية.

(١١)الفارقي، ص ١٤٩.

الحديثي) كان مسيحياً، على ما يظهر من سياق كلام الفارقي، الذي يردف كلامه بصدد إستيلاء المسيحيين على أجهزة الدولة بذكر أبي الحكيم والشجار الذي وقع بينه وبين خادم لنصرالدولة. أما عدد القوات الدوستكية الزاحفة على الموصل فلم يصل إلينا بصددها الرقم النهائي. إلا أن ذلك لايمنعنا من أن نذكر أن عدد القوات الدوستكية الزاحفة على الموصل سنة (٣٨٠هـ = ٩٩٠م) بقيادة الأمير باد بن دوستك كان ستة آلاف مقاتل(١٣)، بينهم متطوعون كثيرون من الكُرد البشنويين التابعين لإمارة فنك في بوتان(١٤).

أخيراً إطلعنا على إسم قائد آخر من قادة الجيش الدوستكي هو (عيسى بن خلاط)، الذي تمكن من أسر أحد أمراء بني عقيل، وهو شرف الدين قرواش أو أحد إخوته في القتال الدائر في منطقة طورعبدين (طورى)، وذلك سنة (٤٠٤هـ = ١٠١٣م)(١٥).

ب - الشرطة

كانت للدولة الدوستكية بجانب قوات الجيش قوات الشرطة، التي كانت واجباتها كما هو معروف المحافظة على الأمن داخل المدن ومنع وقوع الجرائم والقبض على المجرمين، ومساعدة القاضي في تنفيذ الأحكام ومساعدة المحتسب أحياناً في جمع الضرائب وما إلى ذلك. وقد ورد نص في تاريخ الفارقي بخصوص الشرطة ما ذكره أن (إبن فليوس) كان مدير الشرطة أو أحد ضباطها وكانت أعماله غير محبذة لدى الأمير ممهد الدولة ولذا أراد قتله مراراً غير إنه كان يتراجع عن ذلك حباً لشيروه(١٦).

وقد أطلق الفارقي إسم (الحراس) على القوات المسلحة المرابطة في حصون آكل وجاتره واليماني من حصون دياربكر، حيث ذكر أن التاجر بهات إشترى قرية بني نوح في سلسلة فتراثا وجعلها وقفاً على حراس هذه الحصون الثلاثة(١٧).

ولا نعلم هل إن الحراس كانوا من قوات الجيش النظامي، أم كانوا يعتبرونهم قوة خاصة مستقلة

(١٢) إبن الأثير، الكامل، ج١٠، ص ٤٥.
(١٣) الروذراوي، ذيل تجارب الأمم، ص١٧٦.
(١٤) إبن الأثير، ج٩، ص٤٢.
(١٥) إيليا برشنايا، تاريخ إيليا، ص٨٤.
(١٦) الفارقي، ص٨٧. في الأعلاق الخطيرة إبن فيلوس بتقديم الياء على اللام.
(١٧) نفس المصدر، ص١٦٧. تقع قلعة آكل في شمال مدينة دياربكر بمسافة حوالي (٥٠كلم) على ضفة نهر دجلة الغربية، وآكل (ئاگل) الآن مركز ناحية تابع لقضاء مركز دياربكر وفيها الكثير من المواقع الأثرية، في مقدمتها القلعة المشرفة على دجلة التي جُعلت قرية بني نوح وقفاً على حراسها. وهذه القلعة موجودة آثارها الآن وتعود الى تاريخ أقدم من العصر الدوستكي، بل الى ما قبل الإسلام. وعلى الجانب الشرقي من القلعة صورة لرجل طوله متران مع كتابة مسمارية تعود الى العهد الآشوري. وتوجد في آكل أيضاً قبور منحوتة في الصخور. وفيها كذلك آثار=

عن الجيش والشرطة؟

=إسلامية منها مزار النبي ذي الكفل (حسب إعتقاد السكان)، وهو مزار قديم توجد فيه كتابات كوفية ببناء المزار تعود الى سنة (٤٨٧هـ) من قبل أبي بكر بن مودود. وفي آكل أيضاً مزار هارون بن پيري جان، وقبة عالية لأحد أمراء بني نيسان، الذين حكموا دياربكر وأطرافها فترة من القرن السادس الهجري. أما مزار (ذي النون)، فهو عبارة عن كهف فيه كتابة مشوهة. كما يوجد كهف آخر عند قرية (حاجي) القريبة من آكل فيه كتابة لاتينية قديمة. ومن آثارها أيضاً مدرسة قديمة متروكة عليها كتابة وقفية بتاريخ ١٠١٦هـ وجامع على قبته كتابة كوفية. راجع بسري كونيار، ج٣، ص٢٧٠-٢٨٤ من Diyarbakir Tarihi. وراجع أيضاً أوليا چلبي، سياحتنامه، ج٤، ص٢١-٢٢. أما قلعتا الجاترة واليماني، فلم أتمكن من تحديد موقعيهما. وفي فتوح الشام للواقدي، ج٢،ص٨٩ أن إسم الحصن الأخير كان (انكل) وسميت باليماني بعد أن فُتح على يد حذيفة بن اليمان بعد فتح فارقين. ولعل انكل هي آكل وهو غير حصن اليماني.

الحياة البشرية والإجتماعية

كان سكان كُردستان الوسطى في العهد الدوستكي يتألفون من عناصر قومية هي: الكُرد، الأرمن، السريان، العرب، اليهود والروم.

الكُرد

كان الكُرد هم العنصر السائد في كُردستان الوسطى، وكان يعيش معهم أبناء القوميات الأخرى في أخوة وسلام. ورغم أنه لم تصل إلينا معلومات مفصلة وكافية عن القبائل الكُردية العائشة في نطاق الدولة الدوستكية، إلا أن أسماء بعضها قد وصلت إلينا منها قبيلة (حاربختي)، التي كانت تعيش في المنطقة الواقعة بين سعرد وهيزان أي في منطقة شيروان، وهي التي أسست الدولة الدوستكية. وقد ذكر الفارقي أن باد بن دوستك ومروان أبا الأمراء كانا من هذه القبيلة، وأن مروان كان من قرية كرماص،(١) التي ما زالت حتى الآن موجودة بإسم (كورماس). أما إسم حاربختي فيظهر أنه مندثر. ويظهر من الإسم إنها طائفة من كُرد (بختى) أي بهتان وهذا معروف حتى اليوم بين كُرد بهتان وشيروان، مثل إسم (دنبلي بخت) الذي ورد في (الشرفنامه، ص٤٠٠، طبعة القاهرة). ومنها أيضاً قبيلة (الجوبية)، التي لم تكن إلا قبيلة كبيرة ذات قوة إستطاعت تأسيس إمارة لها في القسم الجنوبي من إقليم دياربكر كان مركزها قلعة (شاتان). ودام حكم تلك الإمارة حتى أوائل النصف الأخير من القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي). وقد ورد ذكرها في عدد من المصادر التاريخية، ولكن دون أن تعطينا معلومات مفصلة عنها. ولكن في الإمكان الأخذ عن أصالتها ونفوذها ومكانتها بين القبائل الكُردية، ودورها في المجال الثقافي. ونستطيع بفضل المعلومات القليلة التي جمعناها من هنا وهناك أن نحيي إمارة كُردية منسية ونضيفها الى قائمة الإمارات الكُردية. فالإمارة الجوبية (الشوبيه)، هي إحدى الإمارات الموجودة ضمن الدولة الدوستكية، كالإمارة البشنوية والإمارة البختية. ومن بين المؤرخين الذين أوردوا ذكراً لهذه القبيلة إبن الأثير الجزري حين قال: "الجوبي قبيلة من الأكراد نسبة الى جوب الكردي وهم قبيلة كثيرة الخلق"(٢)، وذكرها إبن

(١) الفارقي، ص٤٩، ٥٩، ورد إسم حاربختي في تاريخ الفارقي المطبوع والذي حققه الدكتور بدوي عبداللطيف بالحاء المهملة وأورده بصيغة (چاربوختي – Charbokhti) المؤرخ Kirzioglu في كتابه (Kurorler/ ص٥٤)، وفسر الكلمة الكُردية "چار" بالأربع تأكيداً على ضبط الإسم المذكور، علماً إنه إعتمد على مخطوطة تاريخ الفارقي. وفي صيف عام ١٩٧٧ سافرت الى تركيا وتجولت في معظم المناطق التي كانت ضمن الدولة الدوستكية وزرت قرية (كرماص)، التي ينحدر منها أبو الأمراء مروان بن كك (كەک) وشاهدت آثار الطاحونة التي كان يشغّلها.

(٢) إبن الأثير، اللباب في الأنساب، ج١، ص٢٤٧.

الصابوني أيضاً فقال: "الجوبية قبيلة من الأكراد ويقال لها الشوبية أيضاً".(٣) وقد سمع ذلك من صديقه العالم الجوبي أبي عمران موسى. وذكرها أيضاً ياقوت الحموي وسيأتي كلامه.كما ورد إسمها أيضاً بين أسماء عدد من القبائل الكُردية في تعليق النسخة الخطية من كتاب (السلوك، ج١، ص٣٠) للمقريزي. أما أقدم من أتى بإسمها، فهو عماد الدين الاصبهاني والمؤرخ الكُردستاني أحمد بن يوسف الفارقي وكلاهما من القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي).

أما المنطقة التي كانت تسكنها القبيلة وأسست فيها إمارتها الجوبية، فكانت منطقة (شاتان). غير أن المؤرخين الذين أوردوا ذكراً لقلعة شاتان، مركز الإمارة لم يحددوا موقعها ومن هؤلاء: عماد الدين الاصبهاني، وإبن الأثير، والحموي، وصفي الدين البغدادي، وإبن خلكان، وجلال الدين السيوطي، وتاج الدين السبكي، والزركلي والباحث الكبير المرحوم الدكتور مصطفى جواد. فكل ما قاله هؤلاء الأعلام في تحديد موقع شاتان هو أنها قلعة بدياربكر أو بنواحيها(٤).

وهذا التحديد غير كاف، لاسيما إذا علمنا أن المؤرخين لايقصدون بدياربكر ولاية دياربكر الحالية، وإنما يقصدون إقليماً واسعاً لاتقل مساحته عن (٥٠) ألف كيلومتر مربع يشمل ولايات: دياربكر، ماردين، سعرد (سيرت) وخربوت وأجزاء أخرى. فلا ندري أهي منطقة (شوفان) في بوتان الواقعة خلف سلسلة طنزى (طانزه) التي تسكنها الآن عشيرة (شوڤي - شوڤان) وهي تابعة لقضاء (أروه) من ولاية سعرد مع التقارب بين إسمي (شوبي) و(شوڤي)؟ ويُفهم من عبارة إبن حوقل في الصفحة (١٩٧) أن (شاتان) كانت مجاورة لطنزى وواقعة وراءها أو غربها، حيث قال: "وقردى هي الجزيرة المعروفة بإبن عمر وجبل باسورين ونواحيه الى باعيناثا الى طنزى الى شاتان...". ويلاحظ التسلسل الجغرافي من الجنوب الى الشمال في كلامه. أو هل إن قلعة شاتان كانت تقع في شرق دجلة في المنطقة الواقعة في غرب آڤابوتان (نهر الرزم كما في المصادر القديمة) الى نهر غرزان (أرزن) أي المنطقة الواقعة في شمال دجلة؟ وتقع هذه المنطقة في شمال وشمال شرق حسنكيف(٥).

أما تاريخ تأسيس هذه الإمارة فغير معلوم، لأن كل ما نعلمه هو أنها كانت موجودة في العهد الدوستكي وعقد الدوستكيون معها علاقات المصاهرة. فقد ذكر الفارقي أن كلاً من الرئيس أبي عبدالله محمد بن موسك بن محمد بن كك وموسك بن مَنگلان بن آفشين قد تزوج بإمرأة جوبية(٦).

أما الأمراء الجوبيون فلم يصل إلينا من المعلومات سوى القليل عن إثنين منهم فقط، هما الأمير

(٣) إبن الصابوني، تكملة إكمال الإكمال، ص١٠٤.

(٤) الاصبهاني، خريدة القصر، ص٥١٠. ياقوت الحموي، معجم البلدان مادة (شاتان)، ج٣، ص٣٠٤. صفي الدين البغدادي، مراصد الاطلاع، ج٢، ص٨٣. إبن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٥١. السيوطي، لب اللباب في تحرير الأنساب، ص١٤٧. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٤، ص١١٠. الزركلي، الأعلام، ج٢، ص٢٠٦. إبن الفوطي، مجمع الألقاب، ج٤، القسم الأول، ص٥٧٥. تعليق للدكتور مصطفى جواد.

(٥) بين لجيّ وخطو قرية بإسم (شاتح) على جبلها قلعة ودير قديمين بإسم ديرا سپي و(ديْرا شاتح)، وهي قرية من هتاخ وإسمها قريب من شاتان.

(٦) الفارقي، ص٢٦٢-٢٦٣.

(أبو منصور حسين بن شبل) وإبنه الأمير (بهاء الدولة محمد). وكانا من ذوي العلم والفضل وكانا شاعرين. وقد أورد الإصبهاني مقطوعات شعرية للأمير بهاء الدولة أفاده بها صديقه الشاعر الكُردي الشهير علم الدين الشاتاني(٧).

كان للإمارة الجوبية دور في المجال الثقافي، حيث كانت ترعى العلماء وأصبحت شاتان في عهدها مركزاً للعلم. وقد نشأ منها علماء أفاضل منهم: علم الدين حسن بن سعيد بن عبدالله بن بندار(٨) وأخوه أبو إسحاق إبراهيم، الذي أصبح وزيراً لشاه أرمن بن سگمان في خلاط وكان من السلاجقة. أما نهاية الإمارة الجوبية فكانت على يد الأمير الأرتُقي قره أرسلان، الذي جرّد حملة قوية على شاتان وإحتلها وخرّبها وذلك سنة (٥٥٦هـ = ١١٢١م).(٩)

بشنوي (بەژنۆیی)

كانت القبيلة البشنوية من القبائل الكُردية القوية وتمكنت في تاريخ لا نستطيع تحديده من تأسيس إمارة قوية لها في بوتان (بهتان)، كان مركزها بلدة (فنك) في شمال الجزيرة وقلعتها الحصينة. وكانت هذه الإمارة تحكم القسم الشمالي منها وساهمت في تأسيس الدولة الدوستكية بإعتبارها شدت أزر الأمير پاد بكل قواها، ولها تاريخ حافل ودامت الى القرن (٧ هجري = ١٢ ميلادي). وإمتدت بعد هذا القرن أيضاً الى أن تمكن أمراء بوتان من أسرة (آزيزان) من بسط نفوذهم على (فنك) وبوتان بأجمعها، وشرّدوا البشنويين الى منطقة حصن كيف (حسنكيف). وقد ذكر أخبارها الأمير شرفخان

(٧) الاصبهاني، خريدة القصر، ص٥٤٥، قسم الأكراد الفضلاء. راجع أيضاً ص٣٦١-٣٨٤ منه.

(٨) ولد علم الدين في شاتان سنة (٥١٠هـ). نشأ ودرس فيها ثم سافر في طلب العلم الى الموصل وبغداد ورجع الى شاتان وأقام فيها. ثم غادر الى الموصل ودمشق ومصر. كان علم الدين من كبار شعراء عصره وكان يقدره ملوك ووزراء مثل نورالدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي والوزير إبن هبيرة وجمال الدين الاصبهاني. مدح نورالدين بقصيدة عزاء أولها:

ما نال شأوك في المعالي سنجر   كلا ولا كسرى ولا إسكندر

كما قصد صلاح الدين ومدحه بقصيدة رائعة أولها:

أرى النصر معقوداً برايتك الصفرا   فسر وأملك الدنيا فأنت له أحرى

وكان الشاتاني صديقاً حميماً لعمادالدين الاصبهاني وزوده بمعلومات كثيرة عن شعراء وأدباء كُرد ومات بالموصل سنة (٥٧٩هـ).

(٩) تقطن قبيلة (شوڤێ - شوڤان) منطقة بوتان شرقي (نهر الزرم - ئاڤا بۆتان)، أي الفرع الشرقي لدجلة وخلف السلسلة الجبلية الواقعة خلف طانزه (طنزة) وسهل مشار. وتقع جنوب غرب مدينة دەهێ (ئەروە) ومنها (خەلەفێ شوڤێ) أشهر قادة الأمير بدرخان الذي ما زال يُضرب به المثل في الشجاعة. كما أُعتبر بعض المؤرخين (بهرام چوبين - بهرام شوبين) الذي ثار على كسرى وحتى قيل فيه أنه رستم الحقيقي شجاعةً - من هذه القبيلة الكُردية. وكانت لبهرام أخت بإسم (كرديه) كانت شجاعة أيضاً، وكانت زوجة كسرى مسترجلة. ومن قرى شوڤان (ديراود) و(سپەندكا) وقد درست فيها على العالم الفاضل الملا عمر العيني، كما درس عليه والدي أيضاً والذي قتله الأتراك حوالي سنة ١٩٧٢. علماً أن شرفخان لم يذكر إسمها بين أسماء قبائل بوتان، وخاصة قبائل ذلك الجزء من بوتان وكانت إثنتي عشرة قبيلة، ولكن ذكر منها (شيرويان). فمن المحتمل أنها شوڤان وفي (شرفنامه) المخطوطة نسخة مكتبة بودليان التي بخط المؤلف ورد (شيرويان) أيضاً.

البدليسي.[١٠] وفي الجزء الأول من كتابنا هذا ذكرنا معلومات عن هذه الإمارة وعن بوتان في مواضع متعددة، فلا حاجة بنا لإعادتها هنا.[١١]

يسمي الكُرد حالياً البشنوية (بەژنۆیی)، والبشنوية هي الصيغة العربية لها أي الواردة في المصادر العربية، مع إن حرفي (ژ) و(ش) متقاربان في الكُردية ويتبادلان مكانهما[١٢].

بختي - بوهتي

كان المورخون حتى القرن (٧ الهجري = ١٣ الميلادي) يطلقون إسم بختي، أو الأكراد البختية، على الكُرد القاطنين في القسم الشرقي من منطقة بوتان. وكانت لهم إمارة مركزها قلعة (جردقيل)، أي گورگيل، الواقعة في وادي (گۆيان) شرقي الجودي. بينما كانوا يذكرون كُرد القسم الاخر من بوتان بالأكراد البشنوية بإعتبار أن القبيلة البشنوية كانت هي الحاكمة على القبائل الأخرى في ذلك القسم.

وكانت الإمارة البختية من الإمارات القوية في الدولة الدوستكية، ووصلت إلينا معلومات عن أمير واحد من أمرائها هو الأمير موسك بن المجلى، الذي سجنه الأمير أبو الحرب سليمان بن نصرالدولة في الجزيرة وتوفي في السجن أو قُتل من قبله[١٣].

وكانت هذه الإمارة باقية حتى زمن المؤرخ إبن الأثير (المتوفي سنة ٦٣٠هـ). ويتضح مما ذكره القلقشندي أن الإمارة الهكارية قد إستولت على الإمارة البختية، حيث كان أمير گورگيل في فترة من القرن (٨ الهجري = ١٤ الميلادي) هو بهاء الدين عمر بن إبراهيم الهكاري، وكان يُكاتب من قبل دولة المماليك في مصر[١٤]. وفي تاريخ لاحق تمكنت إمارة بوتان في الجزيرة من بسط سيطرتها على

(١٠) راجع (شرفنامه) ص٢٠٨ طبعة القاهرة الفارسية.

(١١) راجع (شرفنامه) ص٢٠٨ طبعة القاهرة الفارسية.

(١٢) في شرفنامه (بجنوي) بالجيم ولعله بچنوي بـ(چ) الكُردية. ومازالت أسر من قبيلة (بەژنۆیی) في مواطنها الأصلية متفرقة بين قرى قبيلة (ولاتي) التي حلت محلها، وهي القرى الواقعة شرقي دجلة وفي سفوح وأودية السلسلة الواقعة في شرقه حتى قرية (هيتما) نفسها في سهل هارونان جنوب (باسا). وكان عدد من تلك القرى عبارة عن كهوف. في سنة ١٩٧٧ لقيت بعضاً من البشنويين في قرية (خەندەک - خندق) قبالة (فنك). وفي (هيتما) عدد من الأسر أيضاً. وفي الثامن من تموز من السنة المذكورة سافرت الى قرية (بانا) من قرى عشيرة (ولاتي)، المنسوبة الى (ولاتێ فنك)، وكنت ضيفاً مع فقيد التراث الكُردي في كُردستان الشمالية الملا خلف البافەیی ومع الملا عثمان الفندكي والمرحوم الملا أحمد بن فقه رسول بن محمد بن عرب الفندكي إمام (بانا). فسألت رجال القرية عن البشنويين، فقالوا أن هذه القرية كانت لهم قديماً، وكانوا يسكنون آنذاك (گەلیۆكان) عند منبع نهر (بانا) في شرق القرية وقد وجدنا هناك آثار دور. وأضافوا بأنه توجد لهم حالياً أملاك عندنا، وكان بعض من البشنويين يأتون من ماردين إلينا حتى السنوات القليلة الماضية، فهم الآن يسكنون حي (داشێ) من مدينة ماردين التي كانت قريتهم، وقد دخلت الآن ضمن المدينة وسموها بإسمها القديم (داشێ) إحدى بطون بەژنۆیی. بعد التشرد سمّوا القرى التي أقاموا فيها بماردين بنفس قراهم السابقة هنا، مثل قرية (عەوینا) و(بۆنسرا) والتفاصيل في كتابنا (گەشتەکی ئەرکیۆلۆجی دکورستانا باکوردا).

(١٣) راجع الجزء الأول من الدولة الدوستكية، الطبعة الأولى، ص٢٢٧، ٢٣٠، ٣٠٩.

(١٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٧، ص٢٨٩.



قلعة فنك

گورگيل والأراضي التابعة لحدود هكاري(١٥).

أما قبيلة (كيكان)، فكانت أيضاً موجودة في كُردستان الوسطى في العصر الدوستكي وقبله. وقد ذكرها المسعودي من بين القبائل الكُردية ولكنه لم يحدد مكانها. كما لم يرد ذكرها بين قبائل كُردستان الشرقية والجنوبية، التي ذكرها إبن خرداذبه والأصطخري وإبن حوقل وإبن البلخي والمقدسي(١٦).

ولهذا فنحن نرجح أنها كانت في كُردستان الوسطى وعلى الأغلب في منطقة ماردين، حيث أنها لم تزل منذ زمن غير قليل فيها. ويقيم فرع منها الآن في السهل الواقع شمالي الموصل وفي أماكن أخرى

(١٥) في شرفنامه، ص١٩١-١٩٦ بحث خاص عن إمارة گورگيل وهي فرع من إمارة الجزيرة، حيث ذكر المؤلف شرفخان أن أول من تولى إمارتها من أسرة آزيزان هو الأمير حاجي بدر، ومن أبرز أمرائها الأمير سيد أحمد بن الأمير شمس الدين، الذي إشتهر بالشجاعة والإقدام. وقال إنه لما رجع سليمان القانوني من فتح بغداد سنة (٩٤١هـ = ١٥٣٤م) إستقبله المذكور فأناط به إمارة الموصل. ولكن أجد بأن ما قاله شرفخان بعيداً ومن المحتمل أن هذه الإمارة عاشت مع تضاؤل شأنها الى أوائل القرن التاسع عشر، ثم ألحقت بإمارة بوتان التي مركزها الجزيرة وإنتقل بعض من سلالة أمراء گورگيل الى الموصل، وعائلة شريف باشا المعروفة حتى الآن في الموصل هي من سلالة گورگيل. وكان لأحفاده زيارات الى منطقة (گۆيان)، وفي الموصل مسجد بإسمه أي بإسم شريف باشا.

(١٦) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص٨٨. أورد في مؤلفه هذا أسماء قبائل أخرى لم يوردها في مروج الذهب وهي: جروغان، هذباني، جلالي، لُر، بوذيكان، نشاورة، باذنجان وهذه الأخيرة هي ماذنجان، وكانت في منطقة بهدينان. بينما كانت باذنجان من القبائل الكُردية في إقليم فارس. وأوردها بإسم بازنجان (بالزاء) الإصطخري في مسالك الممالك ص١٤٥، وإبن خرداذبه في المسالك والممالك ص٤٧، والهمداني في مختصر كتاب البلدان ص٢٠٣، وإبن البلخي في فارسنامه ص١٦٨، وذكرها خطأ إبن حوقل ص٢٣٩ بإسم ماذنجان.

من كُردستان وهي من قبائل ماردين القديمة.

وقد أورد إبن خلدون ذكر "الأكراد الحسنية" في حادثة حملة الأمير قريش العقيلي على البلاد الدوستكية، حيث ذكر أنه إستمال الكُرد البشنوية(١٧). ومن المحتمل أن تكون الحسنية إسم قبيلة كُردية كانت تقطن زاخو أو في شمالها، على أنه توجد الآن قبيلة كُردية بإسم حسنان (هەسنان). ومن المحتمل أيضاً أن القصد من الحسنية هم الكُرد المنسوبون الى مدينة (الحسنية)، أي زاخو أي كُرد زاخو وأطرافها(١٨).

ولاشك بأن قبيلة (دُنُبُلي) كانت هي الأخرى في كُردستان الوسطى في أيام الدولة الدوستكية وقبلها. وقد أورد الفارقي ذكر عبدالرحمن بن أبي ورد الدنبلي، وقال إن (شيروه) إثر إغتياله للأمير ممهد الدولة أوفده الي أبي القاسم الاصبهاني والى أرزن (غرزان) يدعوه الى تأييده(١٩). وهو ما يفيد بأنه كان شخصية بارزة. ومن المحتمل أن إسم "الدبابلة" الذي ذكره المسعودي بين أسماء القبائل الكُردية هو تصحيف للدنابلة أو خطأ نشأ من قبل النساخ(٢٠). ولم يذكرها غيره من جغرافيي القرن العاشر الميلادي، علماً إن قسماً من الدنبلية تقطن ولاية دياربكر وأورفا. وقد ذكر الفيروز آبادي أن هذه القبيلة تقطن في منطقة جبل المقلوب في شرق الموصل(٢١). وكان فرع منها يقيم في بوتان وكان يزيدياً، ومنها أنتقل الى هكاري ثم الى منطقة (خوي) في غربي آذربيجان(٢٢) وإستقر فيها (الإمارة الدنبلية).

(١٧) إبن خلدون، العبر، ص٣١٩. راجع موضوع علاقات الدولة الدوستكية مع الدولة العقيلية.

(١٨) تقطن هذه القبيلة في غربي دجلة في منطقة زمار المتاخمة لمنطقة زاخو ودهوك. والمعروف أنها قدمت من (دەشتا هەسنان)، الواقعة غرب مدينة الجزيرة المنطقة التي لا زالت تحمل إسمها. وهي قبيلة قديمة أورد إسمها العمري في القرن (٨ الهجري = ١٤ الميلادي) في مسالك الأبصار.

(١٩) الفارقي، ص٩٣، ورد "الديلمي" بدل الدنبلي في إحدى نسخ الفارقي المخطوطة.

(٢٠) المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص١٢٢ وأضاف أن الدنابلة من الكُرد الذين نزلوا ببلاد الشام ولعله يقصد بذلك شمال سورية. وورد "ديابلة" بالياء في طبعة أخرى من مروج الذهب، وهي طبعة مطبعة دار الرجاء. وأورد العمري ذكر الدنبلية في مسالك الأبصار. راجع أيضاً إبن الصابوني نكملة إكمال الإكمال، ص١٠٥ تعليق للدكتور مصطفى جواد.

(٢١) الفيروز آبادي محمد بن يعقوب، الذي ذكر المؤرخ المرحوم الملا جميل الروژبياني في (ص١١) من كتابه (چوار دەوڵەتی کورد)، أن الفيروز آبادي من أبناء عشيرة شبانكاره الكُردية، ذكر الفيروز آبادي في قاموس المحيط، ج٣، ص٣٧٧ أن من القبيلة الدنبلية العالمين أحمد بن نصر وعلى بن أبي بكر بن سليمان. وكان الأول من علماء القرن الثاني عشر الميلادي، كما في طبقات الشافعية للسبكي، ج٤، (ص٥٧)، وتولى نيابة القضاء ببغداد عن القاضي الشهرزوري. وذكر إبن الفضل العمري أن القبيلة الدنبلية تقطن جبل مقلوب والمختار شرقي الموصل. راجع محمد أمين زكي، تاريخ الكُرد وكُردستان، (ص٣٦٨) تعليق للمرحوم محمد علي عوني الدنبلي. وفي سنجار الآن قسم من الدنابلة وهم يزيديون. وكانت هذه القبيلة الكبيرة يزيدية في غابر الزمن.

(٢٢) في شرفنامه، ص١٥٩، ١٩٩، ٤٠٨، أن الهجرة حدثت في القرن الخامس عشر. وفيه معلومات غير قليلة عن الإمارة الدنبلية في خوي، التي دامت الى القرن التاسع عشر. وألف في تاريخ هذه الإمارة ميرزا حسين الخويي كتابه المنظوم رياض الجنة في ثمانية مجلدات، وتوجد نسخة مخطوطة منه لدى بعض متولي مسجد (كوهرشاه) بمدينة مشهد الإيرانية. إهتم المورخ الكُردي المرحوم الأستاذ ملا جميل الروژبياني بتاريخ الإمارة الدنبلية، وأصدر في سنة (٢٠٠٠) كتابه (چوار دەوڵەتی کورد) أي الدول الكُردية الأربع منها دولة الدنابلة في تبريز وأطرافها.

أخيراً، أن القبائل الكُردية إنتشرت قبل العهد الدوستكي في إقليم دياربكر وشمالي سورية. وقد ذكر المسعودي الشام والثغور من بين المناطق التي كانت توجد فيها القبائل الكُردية، وأشار الى وجود لهجات عديدة للغة الكُردية في عهده (أي في القرن العاشر الميلادي الذي نشأت فيه الدولة الدوستكية) حيث قال: "ولكل نوع من الأكراد لغة لهم بالكردية"(٢٣). هذا ويجب أن لا ننسى أن العهد الدوستكي قد أتاح فرصة أكبر لتوسع الكُرد نحو الغرب، علماً أن الهجرة الكُردية كانت غالباً متجهةً من الشرق الى الغرب.

السريان

إن وجود السريان في كُردستان الوسطى أمر لا جدال فيه وتشهد عليه المصادر المسيحية والإسلامية على حد سواء. وكانت كثافة القومية السريانية تقع في منطقة ماردين ونصيبين وطورعبدين والسريانيون هم من أحفاد الآراميين القدماء.

الأرمن

كان في كُردستان الوسطى في العهد الدوستكي وقبله وبعده كذلك قسم غير قليل من الشعب الأرمني، ولاسيما في منطقة أرديش وخلاط وبدليس وملازگرد (منازجرد). وقد ذكر الرحالة الفارسي ناصر خسرو، الذي مر بالبلاد الدوستكية، أن سكان مدينة خلاط يتكلمون بالفارسية والأرمنية والعربية(٢٤).

وعند البحث عن أرديش (أرجيش)، قال ياقوت الحموي بعد العهد الدوستكي بأكثر من قرن، إن أكثر أهلها أرمن نصارى(٢٥)، وكذلك قال صفي الدين البغدادي(٢٦). بينما قال القزويني بصدد خلاط: أن سكانها مسلمون ونصارى وأنهم "يتكلمون بالعجمية والأرمنية والتركية"(٢٧)، وذلك في القرن الثالث عشر الميلادي. وقد إنتشر التركمان في خلاط إثر إحتلال الدولة السلجوقية للبلاد الدولة الدوستكية. وكان في أورفا (الرها) كثير من الأرمن، ويرى رنسيمان أنهم إستقروا فيها قبل مستهل العصر المسيحي(٢٨).

وبصدد ملازگر قال ياقوت: "أن أهلها أرمن وروم"(٢٩). هذا علماً بأن وجود الأرمن في المدن

(٢٣) مروج الذهب، ج٢، ص١٢٢.
(٢٤) ناصر خسرو، سفرنامه، ص٤١. يساند قوله ما ذكره المقدسي من أن لهجة إقليم الرحاب قريبة من اللهجة الخراسانية علماً أن خلاط إعتبرت ضمن هذا الإقليم.
(٢٥) الحموي، معجم البلدان، ج١، ص١٩٦.
(٢٦) البغدادي، مراصد الاطلاع، ج١، ص٤٣.
(٢٧) القزويني، آثار البلاد، ص٥٢٤.
(٢٨) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص١٩٠.
(٢٩) معجم البلدان، ج٤، ص٤٥٨.

المذكورة في عهد الحموي والقزويني لم يكن طارئاً بعد العهد الدوستكي، بل كان قديماً سيما إذا علمنا أن قسماً غير قليل من الشعب الأرمني نزح من منطقة بحيرة (وان) في العهد الدوستكي الى إقليم كبادوكيا في غربي الفرات، إثر تسليم الأمير سنكريم منطقة ڤاسبوركان المتاخمة للأراضي الدوستكية الى الإمبراطورية البيزنطية، كما مر بالتفصيل في موضوع العلاقات مع الشعب الأرمني.

ولاأستبعد أن تكون نفوس الأرمن في المناطق المذكورة معادلة لنفوس الكُرد أو أكثر. ومن الجدير بالذكر أن الجغرافيين والمؤرخين في القرون الوسطى أدخلوا المناطق المذكورة ضمن أرمينية. وقد بالغ بعضهم فوسع حدودها الى نهر دجلة، وهكذا إعتبروا قسماً غير قليل من البلاد الكُردية ضمن أرمينية القديمة. وكان الأرمن والكُرد يعيشون مختلطين في العديد من المناطق الكردية وفي أرمينيا.

العرب

كانت في بلاد الدولة الدوستكية أقلية عربية. ويعود تاريخ وصولها الى ما قبل العهد الدوستكي، ومن المحتمل جداً أن أسراً قد إستوطنت بعض المدن الواقعة في هذا الجزء من كُردستان من القرن الأول الهجري، أي إثر الفتح العربي الإسلامي. كما إستوطنت جاليات عربية في كثير من المدن الواقعة في الأقطار التي فتحها العرب، كإيران وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر من بخارى وغيرها كما هو معلوم. لقد ساعد العهد الحمداني على إنتشار العرب في بعض مدن مدن إقليم دياربكر، خاصة بعد أن إتخذ سيف الدولة الحمداني مدينة فارقين عاصمة له، وذلك إثر إحتلال الدولة البيزنطية لعاصمته حلب. فلا يُستبعد إذن إنتشار اللغة العربية فيها، وقد ذكر ناصر خسرو الذي مر بمدينة خلاط في العهد الدوستكي أن اللغة العربية كانت إحدى اللغات الثلاثة المنتشرة فيها(٣٠).

لقد ذكر الفارقي أن طائفة من العرب إنهزمت أمام إبراهيم بن الأشتر النخعي الى ولاية ميافارقين. فأرسل لمحاربتهم عبدالله بن مساور، فإنهزموا أمامه الى جبل السناسنة فوق ميافارقين، وقاموا عند الملك سنحاريب ملك السناسنة وهم طائفة من الأمويين. وقال الفارقي أيضاً "أخذت السناسنة مقدار ثلاثين قرية من غاب الجوز وماحوله داخل رأس السلسلة"(٣١)، وكانت تابعة لولاية فارقين في العهد الدوستكي، ولكنهم إستولوا عليها إثر سقوط الدولة الدوستكية.

والسلسلة التي ذكر أن تلك الطائفة من العرب فرّت إليها والتي كانت معقل إمارة السناسنة، إنما هي السلسلة الجبلية العالية الحصينة التي تقع بين موش في الشمال وبين مدينة ساسون في الجنوب. ويسمى القسم الشرقي منها بجبل موتكي وتقع ساسون وبلدة (حزو) في سفوحها الجنوبية. وهي جزء من (السلسلة) التي سماها بها الجغرافيون المسلمون، والتي تمر في شمال شرق وشرق ولاية دياربكر

(٣٠) ناصر خسرو، سفرنامه، ص٤١.

(٣١) الفارقي، ص٤٦. أضاف إن طائفة أخرى من العرب إنهزمت مع هذه الطائفة أي أمام العباسيين، وأنها وصلت الى الدربند (داغستان) من قفقاسيا وأن الفارقي عندما سافر الى هناك وجد أحفادها ودوّن الحديث الذي دار بينه وبينهم.

وتنتهي في شرق بدليس بالقرب من النهاية الغربية لبحيرة وان. وتقع في سفوح السلسلة وإمتداداتها الجنوبية مدن حزو وساسون وقلپ (كولب) ولجى، وتقع في شمالها مدن موش وبنگول وگەنج. أما (غاب الجوز) فإنها كانت مدينة ساسون نفسها ومازالت تسمى بـ(غاب الجوز) أيضاً(٣٢).

والراجح أن إسم (ساسون) قد جاء من إسم (السناسنة)، وكان هناك أرمن الى أواخر العهد العثماني حينما تعرضوا للمذابح. ويؤيد الفارقي ما ورد في شرفنامه (ص٣٤٠ و٣٤٨) من أن طائفة من العرب هاجرت مع ثلاثة من أبناء (مروان الحمار)، آخر الخلفاء الأمويين، أي في القرن الثامن الميلادي الى منطقة (قلپ)، وإستقرت في وادي (خوخ) التابع لناحية (غزالي)(٣٣).

هذا مع العلم بأن قضاء قلپ التابع لولاية دياربكر يجاور قضاء ساسون من الشمال الغربي. وفي قضاء ساسون التابع لولاية سعرد أربع قبائل عربية حالياً. وقد وجدت بعضاً منهم في إستنبول في شتاء (١٩٩٥-١٩٩٦)، وهي قبيلة بلكان (بەلەكان) وشيگو وصارمي وبدري، وهم يتكلمون العربية والكردية أيضاً. وهذه القبائل تماماً مثل القبائل الكُردية تشارك في الحركة القومية الكُردية. فقد شاركت تلك القبائل سابقاً في الثورة الكُردية سنة (١٩٢٥) بقيادة الشيخ سعيد، ثم في (حركة ساسون) التي كانت إمتداداً للثورة المذكورة، حيث لم تستطع تركيا أن تقضي على المقاومة في منطقة ساسون الجبلية الوعرة وإستمرت حتى سنة (١٩٢٩). ومن ثم إستؤنفت من ١٩٣١-١٩٣٨ وكانت بقيادة محمد آغا بن (عەلييێ يونس). ثم قاد الثوة بعد وفاته أخو عبدالرحمن آغا الى أن إضطروا الى اللجوء الى سورية أثناء الإحتلال الفرنسي. وقد زودني المعمر حسين بن أحمد بن محمد آغا بن عەلييێ يونس، بتفاصيل هذه الحركة والمقاومة البطولية وما إرتكبته القوات التركية من فظائع ضد سكان ساسون والتي كان يتذكرها.

أما السنة التي نزحت فيها هذه القبائل العربية فأرجحها أن تكون سنة سبع وستين من الهجرة، حيث قدم إبراهيم بن أشتر النخعي من الكوفة الى منطقة الموصل والجزيرة لقتال الأمويين وكان من أكبر قادة المختار الثقفي(٣٤).

فعلى هذا أن القبائل المذكورة نزحت من منطقة الجزيرة، التي كانت تشمل أيضاً منطقة الموصل. وأما ما قاله شرفخان في شرفنامه، فيحتمل أنها كانت جماعة أخرى من العرب أو أن تاريخ نزوحهم

(٣٢) في DUGO ANADULU ص٧٢ وكتاب خاص بجغرافية شرق أناضول: أن منطقة ساسون وموتكي هما مملكة غاب الجوز. في شتاء ١٩٩٥-١٩٩٦ عندما كنت في أستنبول تحدثت الى عدد من سكان ساسون وذكروا لي أنها تسمى أيضاً من قبلهم بغاب الجوز.

(٣٣) وفي ج٣، ص٣٧٥ من DIARBAKIR TARIHI لبسري كونيار: أنه يوجد قبر في منطقة باديكان من قولپ في الجزء المسمى بالغزالي، يدعي السكان أنه قبر الإمام الغزالي الذي يقدسونه. لا أعلم بحقيقة صاحب القبر كما أن الإمام الغزالي دُفن في بغداد.

(٣٤) كان المختار قد ولّى إبراهيم على الموصل والجزيرة وأرمينية وأذربيجان. وكان المختار يطالب بدم الحسين. ولما قُتل المختار في هذه السنة من قبل مصعب بن الزبير بن العوام، الذي أرسله أخوه عبدالله بن الزبير المستولي على الحجاز للإستيلاء على العراق، إنضم إبراهيم الى مصعب حيث قُتل الإثنان في المعركة الفاصلة بين مصعب وعبدالملك بن مروان في سنة إحدى وسبعين الهجرية، وكانا من خيرة أبطال العرب.

مع ثلاثة من أبناء مروان الحمار غير صحيح وأن النازحين كانوا من القبائل المذكورة. وما قاله الفارقي هو الصحيح.

سكن العرب في مدينة سعرد وأطرافها منذ عهد بعيد لا أستطيع أن أحدده. وحسبما سمعته منهم فإن أجدادهم قدموا من لبنان، وليت شعري هل إنهم نزحوا الى هناك إثر سقوط الدولة الأموية أو أثناء الحروب الصليبية، وما زالوا في سعرد وأطرافها. ويحتمل أنهم شُردوا الى سعرد مع القبائل العربية الأربع في ساسون إثر سقوط الدولة الدوستكية.

هذا ومع إن ما قاله شرفخان من وصول طائفة من العرب الى هذه المنطقة متفق مع قاله الفارقي، إلا أن تفاصيل ما ذكره شرفخان غير مقبولة عندي. والسبب لأنه إعتبر مثلاً بعض القبائل الكُردية اليزيدية الخالصة في المنطقة المذكورة (منطقة سليڤان)، أي منطقة فارقين من جملة العرب الذين حلوا هناك. وأضاف شرفخان أن الطوائف المذكورة أخذوا تلك المنطقة من الكُرج والأرمن.

أما ياقوت الحموي فقد نص على أن نزوح العرب كان من قبائل من تنوخ وغيرها الى أرمينيا، وذلك بسب القتال الذي نشب بينهم وبين سكان حلب وبسبب عداوات أخرى، وكذلك أثناء فتنة الأمين بن هارون الرشيد (حسب تعبيره)، أي في القرن التاسع الميلادي وقال منهم قوم بأرمينية(٣٥).

وذكر أيضاً في مادة "باجنسيا": أنها ديار بني سليم(٣٦)، وذلك نقلاً عن مسعر بن مهلهل. وفي دائرة المعارف الإسلامية الجزء الأول الصفحة ٦٥٨: أن فرعاً من قبيلة قيس قد نزل في منطقة باجانوس. علماً أن باجنسيا - باجانوس هي باتنوس الحالية(٣٧). وفي نفس المصدر أن العرب قد تغلبوا وأصبحوا كثرة في المدن (الحواضر) من أرمينية، مثل دبيل (أي دوين الواقعة خلف نهر آراس) وقاليقلا (أي أرضروم) وبرذعة وآران وتفليس، وإستوطنت القبائل العربية بنوع خاص "الجنوب الغربي من إقليم الزنبق أرزنان وذلك إبان الفتح الإسلامي"(٣٨).

لقد ذكرنا سابقاً بأن أرمينية عند الجغرافيين المؤرخين القدماء كانت تشتمل على قسم غير قليل من كُردستان. ذكر اليعقوبي: أن سكان نصيبين في أواخر القرن التاسع الميلادي كانوا من عرب ربيعة من بني تغلب(٣٩). لقد حدث نزوح قبيلة بني نمير وبني عقيل الى منطقة حران والرها وسروج في القرن العاشر الميلادي. ونزح الى إقليم الجزيرة كذلك في نفس الفترة كثير من بطون قيس عيلام وبني قشير وبني كلاب، وذلك في عهد الجغرافي إبن حوقل(٤٠).

(٣٥) الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص١٨٥.

(٣٦) نفس المصدر: مادة باجنسيا.

(٣٧) باتنوس هي الآن مركز قضاء تابع لولاية آگري التي مركزها مدينة (قەرەكۆسە) من كُردستان تركيا، وتتبع هذا القضاء إربع نواح هي ناحية المركز ونواحي (دەدەلى، وساريسو، وسلطان موت). ومجموع القرى التابعة لها ثمانون. أما نفوس مدينة باتنوس فيبلغ (٣٤٨٧) نسمة حسب الإحصائية التركية لسنة ١٩٦٠. وهي تبعد عن بحيرة وان بمسافة حوالي (٦٠) كلم من الجهة الشمالية، كما إنها تقع في شرق ملازگر (منازجرد) بحوالي (٥٠) كلم.

(٣٨) دائرة المعاف الإسلامية، ج١، ص٨٥٨.

(٣٩) اليعقوبي أحمد بن واضح، كتاب البلدان، ص١١٣.

(٤٠) إبن حوقل، ص٢٠٤، ٢٢٧.

والجدير بالذكر أن سكان مدينة سعرد وعدد من القرى في أطرافها كقرية تلوة الكبيرة يتحدثون باللغة العربية، كما يتكلم بها قسم من سكان بعض القصبات في ولاية ماردين، وأخص بالذكر (كەرجوس) إضافة الى بعض من سكان ماردين نفسها، حيث كان العرب قد إنتشروا فيها. في الوقت الذي يحتمل أن يكون قسم كبير من هؤلاء من أصل عربي، هاجر أجدادهم في فترة أو فترات (الى هذا الجزء من كُردستان)، فإن هناك إحتمالاً لأن يكون بعضهم كُرداً إنتشرت اللغة العربية بينهم تحت تأثير الدين. فمن الثابت تاريخياً أن اللغة العربية إنتشرت في العديد من المدن والقصبات الكُردية، كما إنتشرت في إيران وغيرها من البلدن الإسلامية في القرون الإسلامية الأولى. ونذكر على سبيل المثال مدينة أربيل التي إنتشرت العربية فيها وأخذ سكانها يتكلمون بها في عهد ياقوت الحموي، أي الى العقد الثالث من القرن الثالث عشر. فقد قال ياقوت عند البحث عن أربيل "... وأكثر أهلها أكراد قد أستعربوا وجميع ساكنيها وفلاحيها وما يُضاف إليها أكراد"(٤١). وهكذا نعلم بأن اللغة العربية قد إنتشرت بين سكان بعض المدن الكُردية من الكُرد المسلمين الذين فضلوا لغة الدين على لغتهم القومية، مثلما إنتشرت السريانية لغة الكنيسة الشرقية بين الكُرد المسيحيين وبين المسيحيين من غير السريانيين (الآراميين) في جنسياتهم.

ويجب أن لانستغرب مما ذكرنا إذا علمنا مدى إنتشار اللغة العربية في الأقطار الإسلامية الى درجة إستعربت بعضها كلياً وتعد الآن من البلاد العربية مثل مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب. فاللغة العربية كانت هي اللغة السائدة والمتداولة في المدن الكبيرة في شتى أو معظم البلدان الإسلامية حتى زمن العلامة إبن خلدون، أي حتى أوائل القرن التاسع الهجري (القرن الخامس عشر الميلادي)، الذي قال مستعرضاً ومعللاً لذلك الإنتشار: "... كانت لغة الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية... والسبب في ذلك ما وقع للدولة الإسلامية من الغلب على الأمم... والدين إنما يستفاد من الشريعة وهي بلسان العرب... فلما هجر الدين اللغات الأعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربياً هجرت كلها في جميع ممالكها لأن الناس تتبع السلطان... وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك، وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغةً في جميع أمصارهم ومدنهم وصارت الألسنة العجمية (أي غير العربية) دخيلة فيها وغريبة"(٤٢).

وأضاف إبن خلدون أنه بعد الغزو المغولي والتتري للبلاد الإسلامية الشرقية فسدت اللغة العربية (المضرية الفصحى) وضعفت حتى إن الكتب كانت تؤلَف بغير اللغة العربية.

والحاصل أن سقوط الدولة العباسية كان ضربة عنيفة سببت تقلص اللغة العربية وإنحسارها في كُردستان وإيران وبلاد السند وغيرها حتى لم يبق لها سوى أثر قليل. وعلى ضوء هذه الحقيقة إنتشرت اللغة العربية في بعض مناطق كُردستان، ثم إنحسرت عنها كمدينة خلاط التي كان بعض

(٤١) الحموي، ج١، ص١٨٧.

(٤٢) مقدمة إبن خلدون، ص٣٧٩- ٣٨٠ تحدث عن إنتشار اللغة العربية في أذربيجان وأرمينية كل من الإصطخري وإبن حوقل. راجع على الترتيب مسالك الممالك، ص١٩٢. وصورة الأرض، ص٢٩٩.

سكانها يتكلمون العربية في العهد الدوستكي كما ذكرنا، ولكنها إنحسرت عنها. فلم يذكر القزويني لها أثراً فيها بينما ذكر أن اللغة التركمانية كانت مستعملة فيها في القرن الثالث عشر الميلادي، كما لاتوجد فيها الآن غير اللغة الكُردية.

اليهود

كانت في الدولة الدوستكية جاليات أقلية يهودية تقيم في المدن، وكانت في العاصمة فارقين محلة بإسم (زقاق اليهود) تقع في النصف الغربي منها وفي غرب (سوق القبة). وكان كنيس اليهود في هذه المحلة وكانت فيها أيضاً البيعة الكبرى للمسيحيين(٤٣).

والجدير بالذكر أنه بعد سقوط الدولة الدوستكية بأقل من قرن زار الرحالة اليهودي الأندلسي بنيامين مدينة نصيبين وقال: إن فيها نحو ألفي يهودي(٤٤). أما الجزيرة فإنه وإن لم يزرها، ولكنه قال أن فيها (٤) آلاف يهودي. وكنا قد ذكرنا في الجزء الأول من الدولة الدوستكية في الصفحة ٣٣٥، بأن آخر الملوك الدوستكيين قد سُجن في دار أحد اليهود في الجزيرة وتوفي فيها سنة (١٠٩٦م). ومن المحتمل جداً أن اليهود في العهد الدوستكي كانوا يقيمون في المحلة المعروفة الآن بإسم "مەحەلا جوهيا" الواقعة في الجزء الشرقي من الجزيرة وفي يسار السوق. وكان يسكنها يهود الى أن هاجروا الى فلسطين.

ذكر بنيامين أيضاً أن في رأس العين نحو ألفي يهودي، أما في العمادية فنحو (٢٥) ألف يهودي، وهم جماعات منتشرة في أكثر من مائة موقع الى خفتيان وتخوم مادى ويتفاهمون بلسان الترجوم(٤٥)، أي السريانية الشرقية.

لقد ذكرنا رأس العين والعمادية هنا لأنهما كانتا ضمن الدولة الدوستكية في أوج توسعها على أقل تقدير ووصول نفوذها اليهما بعد ذلك، كما ذكرنا في الجزء الأول (ص٢٢ و٢٥). والخلاصة أن عدد اليهود في الجزيرة ونصيبين وكذلك في رأس العين والعمادية في العهد الدوستكي لم يكن أقل من العدد الذي ذكره بنيامين حسب التخمين. أما أصل هولاء اليهود، فهم أخلاف اليهود الذين أجلاهم الآشوريون الى كُردستان في القرن الثامن قبل الميلاد، حينما غزا الملك الآشوري (تجلات بلاصر) مملكة إسرائيل في فلسطين وإحتلها عام (٧٣١ ق.م). فقد أجلى الملك الآشوري المذكور عدداً كبيراً من اليهود الى (كُردستان الجنوبية) كُردستان العراق. وفي عام (٧٢٢ ق.م) قضى الآشوريون نهائياً على مملكة إسرائيل وشردوا قسماً آخر من اليهود الى كُردستان (الى منطقة حران وخابور وجبال ميديا). ثم غزا نبوخذ نصر مملكة اليهود مرتين في سنتي ٥٩٧ و٥٨٦ قبل الميلاد وأسر الكثير من

(٤٣) الفارقي، ص١٦٥. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٤، ص٧٠٥. القزويني، آثار البلاد، ص٥٦٥. راجع الجزء الأول من الدولة الدوستكية ص٧٩.

(٤٤) رحلة بنيامين، ص١٢٥.

(٤٤) الدولة الدوستكية، ص٧٩.

(٤٥) رحلة بنيامين، ص١٢٦، ١٥٤.

اليهود ونقلهم الى منطقة بابل حسبما ورد في (ص٩٠١ من مفصل العرب واليهود في فلسطين للدكتور أحمد سوسة، الذي كان يهودي الأصل وله زوجة كُردية من عشيرة ساله يي "صالحي").

ظل اليهود منتشرين في كُردستان وقلما وجدت مدينة أو قصبة كُردية تخلو منهم، بينما كانت قلة منهم في بعض القرى أيضاً. ولا أستبعد شخصياً قيام بعض الكُرد بإعتناق الديانة اليهودية، وخاصة في الجبال الواقعة بين كرمانشاه وزهاو وشهرزور. وظل اليهود في كُردستان الى أن نُقلوا الى فلسطين خاصة سنة ١٩٤٨. كان اليهود بصورة عامة يشتغلون بالتجارة والصناعات بعيدين عن الحيلة والغش في معاملاتهم والصناعات التي يعملونها.*

* في نفس كتاب أحمد سوسة في الصفحات (٥٩٣-٦٠٣) بحث عن اليهود في كُردستان يقول فيه أن (اليهود الكُرد) كانوا يتكلمون بلغتهم وهي اللهجة الآرامية الغربية القديمة لغتهم الأصلية ويتكلمون اللغة الكُردية أيضاً. وقد ذكر أيضاً أن قسماً من يهود كُردستان إعتنقوا المسيحية وإعتقد المبشر الأمريكي الطبيب گرانت الذي سكن بين النساطرة، أي الآثوريين المسيحيين عدة سنوات وألف كتاباً بالإنگليزية بعنوان "النساطرة أو الأسباط المفقودة" الآثوريين من اليهود، أي القبائل العشرة (الأسباط العشرة) التي شردها الآشوريون الى كُردستان وكذلك الإيزيديين. وفي زيارة لي لأحمد سوسة في داره ببغداد أبدى لي رأيه هذا وقال: إن إسم (آثوري) حديث أحدث من قبل الإنگليز والفرنسيين. فقلت إن ذلك غير صحيح بدليل أن إسم (آسوري) قد جاء مراراً في (شرفنامه). وطلب مني معلومات عن الآثوريين واليهود ليستفيد منها في كتابه هذا الذي كان يؤلفه. فقلت: إن أول من دخل المسيحية من سكان أربيل، ثم أصبح أول أسقف لها كان يهودياً يدعى (بقيدا). فسُرَّ الدكتور أحمد سوسة بذلك وكتب إسمه لديه لكي يعقب الموضوع، ثم عقّبه كما يتضح من هامش (ص٦٠٠). وفي نفس الصفحة قال أن اليهود الذين كانوا يؤمنون بالمسيحية يُطلق عليهم إسم (مين – Min) من قبل اليهود. وقد ذكّرني هذا أن اللفظ مستعمل حالياً بين الكُرد (في اللهجة الكرمانجية الشمالية) حيث يطلق الكُرد لفظ (مسلمين/ مسلميني) على اليهود والمسيحيين الذين دخلوا الإسلام. فالكلمة إذن مخفف من (مسلم مين). وأعتبر أَحَمد سوسَةَ من حيث الديانة لا القومية (دولة أديابين) إمارة يهودية وكانت عاصمتها مدينة أربيل. وكانت دولة أديابين تابعة للدولة الأشكانية وشملت كُردستان الجنوبية حتى (الفرات) في أوج توسعها. وقال [إن «إيزاط» الأول من أمراء أديابين «حدياب» كان يهودياً وإعتلى عرش الإمارة سنة (٣٦ م)، وإعتنق اليهودية في صباه كما إعتنقت أمه «هيلانة» اليهودية. وكانت أمه قد تزوجت من أخيها «مونوباسس»، فولدت من أخيها «إيزاط الأول»، وكان حاكم الإمارة الأول «مونوسس» وثنياً. والظاهر أن الوثنيين كانوا يحللون الزواج من الأخت. وحسب إعتقادي فقد كان آرامياً وثنياً وإن سكان إقليم حدياب (أي منطقة أربيل) من الآراميين لغةً وجنساً. وقال إشتهرت «هيلانة» عندما جلبت القمح من مصر ووزعته على سكان أورشليم أثناء المجاعة. وقد أيدت هذه الإمارة ثورة اليهود ضد الرومان سنة (٦٦ و٧٠م). هذا وإن صح أن إيزاط كان من حيث الديانة يهودياً، فإن بعضاً من ملوك أديابين من هذه الأسرة قد إعتنقوا المسيحية ومنهم «رقبخت»].

أما الوثنية التي ذكرها سوسة ناقلاً عن المصادر الكنسية، فإنها (الزردشتية) التي كثيراً ما إستخدمت لفظ (الوثنية). فكانت (الزردشتية) توصف بعبادة (الشياطين). أما سكان أربيل آنذاك فكانت أكثريتهم من الكُرد أو نقول من العنصر الآري. وفي (الآشوريون في التاريخ، ص١٠٤) لمؤلفه إيشو مالك خليل نقلاً عن الدكتور منكانا أن: "الأكثرية الساحقة لسكان حدياب كانت نصارى وغالبية أولئك النصارى تنتمي الى أصل فارسي وليس الى أصل آرامي، وكان بينهم أيضاً أناس ينتمون الى أبوين مسيحيين كانا في الأصل ينتميان الى الزرادشتية".

لقد نشرنا بالعربية مقالاً مفصلاً بخصوص حكومة أديابين في جريدة (خەبات) العدد الصادر في ١٩٩٢/١٠/٢١، وذلك بعنوان (حكومة كُردستان الجنوبية -حكومة أديابين- في العهد الأشكاني). وبخصوص أصل حكام أديابين قال المرحوم الأستاذ توفيق وهبي في كتابه (سفرة من دەربەندى بازيان الى ملەي تاسلوجه، ص٢٦) وفي بحثه المنشور في مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد الرابع بخصوص آلتون كوپري، أنهم من القبيلة السيكائية. ويقصد (ماسگت – اسگت) من القبائل الآرية التي تكون منها ومن الميديين والمنائيين وسكان كُردستان الأقدمين الشعب الكُردي. ولا أستبعد أن تكون قبيلة ماسكي (ماسك) الإيزيدية الكُردية، والتي أسلم قسم منها (وأنا من أبنائها) تحمل إسم تلك=

الروم (البيزنطيون)

لم أقتنع في السابق بما ذكره ياقوت الحموي من وجود قسم من الروم (البيزنطيين) في مدينة (ملازگر)[٤٦]، وإستبعدت ذلك لأني لم أجد في مصدر آخر ما يؤيد قوله. ولكني الآن مقتنع بذلك، بعد أن إطلعت على ما ذكره الرحالة الأندلسي إبن جبير والعالم الروسي مينورسكي وهو يؤيد ذلك. ولم أشك في أن قسماً من الروم قد سكن قبل العصر الدوستكي في مناطق تعتبر الآن من البلاد الكُردية، وذلك بسبب إحتلال الدولة الرومانية والبيزنطية لها مراراً وبقائها تحت سيطرتها فترات عديدة، وخاصة في العصور المسيحية. وقد كان في المناطق الواقعة شمال دياربكر كمنطقة شمشاط وملاطية طائفة من الروم حتى أواخر القرن الثالث الهجري أو أوائل القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي)، وكانت موالية للمسلمين تقف الى جانبهم بسبب خلافات عقائدية بينها وبين الروم الآخرين. غير أن هذه الطائفة إضطرت الى الجلاء عن تلك المناطق بسبب سوء تصرف المسلمين إزاءهم، على ما قاله قدامة بن جعفر (ت٣٢٠هـ = ٩٣٢م) وإنتشر الأرمن في أماكنها[٤٧].

ويظهر أن أقليةً بيزنطية ظلت في كردستان الى عصر الدولة الدوستكية، بل حتى النصف الأول من القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر الميلادي) وحتى القرن التاسع عشر. وتفصيل ذلك أن إبن جبير بات ليلة في قرية الجسر الواقعة بين بلدة دنيسر (قزل تپة) ورأس العين، وهو في طريقه الى بلاد الشام سنة (٥٨٠هـ = ١١٨٦م)، فوجد إن سكانها من الروم[٤٨].

إن إبن جبير لم يتوهم في قوله المذكو، لأنه إضافة الى مبيته ليلة في قريتهم ذكر أنه مر بين دنيسر وقرية الجسر بقرية تل العقاب، الشبيهة في جمالها بقرى الأندلس (أسپانيا)، وكان يسكنها النصاري. فلم يقل أنهم من الروم، بينما نبه على سكان القرية الأخرى كانوا فرقة من فرق الروم.

أما مينورسكي، فقد أشار الى وجود أقلية يونانية في كُردستان في القرن التاسع عشر، حين قال: إن حركة إيزدين شير أمير بوتان لم تكن ضد المسيحيين، لأن النسطوريين واليونانيين الذين كانوا يعيشون في كُردستان حاربوا تحت راية إيزدين شير[٤٩].

وكذلك قال ميجر سون عند ذكر زيارته لمدينة دياربكر: "إن من بين مسيحيي دياربكر بقية إغريقية من أيام حكم البيزنطيين"[٥٠]، علماً إن مدينتي آمد (دياربكر) وفارقين بنيتا من قبل الروم ماعدا

=القبيلة أو مجموعة القبائل الماسگتية.

أما ما قاله گرانت ونقله عنه الدكتور سوسة من أن القبائل الإيزيدية (الكُردية) كانت من أولئك اليهود، فإنه لا يستحق الرد عليه. وكان (گرانت) عنصر التخريب بين الآثوريين والثورة الكُردية بقيادة بدرخان في إربعينيات القرن التاسع عشر ورجلاً غير منصف ويكره الكُرد.

(٤٦) الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص١٠٢.

(٤٧) قدامة بن جعفر، كتاب الخراج، ص٣٥٤.

(٤٨) رحلة إبن جبير، ص١٩٥.

(٤٩) مينورسكي، الأكراد ص٢٦، ترجمة الدكتور معروف خزنه دار، كانت حركة إيزدين شير ضد الأتراك سنة ١٨٥٥م.

(٥٠) ميجر سون، رحلة متنكر الى بلاد ما بين النهرين كُردستان، ص٨٧.

قلعة دياربكر (إيچ قلعه) فإنها تعود الى العهد الحثي كما سيأتي.

وهكذا يتضح لنا بأن أقلية من الروم كانت تعيش في كُردستان الوسطى أيام الدولة الدوستكية، وأنها كانت تشكّل إحدى أقلياتها القومية آنذاك كالأرمن والسريان والعرب، وإنها ظلت في كُردستان وعاشت مع الشعب الكُردي الى أواسط القرن التاسع عشر بل الى أوائل القرن العشرين، لحين قيام الحكومة التركية بتشريد المسيحيين وإرتكاب المذابح التي لن ينساها التاريخ بحقهم.

الحياة الإجتماعية

طبقات المجتمع

يمكن لنا أن نقسم مجتمع كُردستان الوسطى في العهد الدوستكي الى الطبقات التالية:

الطبقة الغنية:

وكانت تتكون من ذوي الدخل الكبير كأبناء الأسرة الدوستكية والأمراء والقادة الكبار وكبار الموظفين من وزراء وكتّاب وقضاة وبعض من رجال الدين وكذا تجار وإقطاعيين. وكانت توجد في العهد الدوستكي طبقة من الأثرياء من كبار التجار والأسر البارزة في العاصمة فارقين، أمثال التاجر أبي بكر بن جري، وإبن بهات، وأبي الحسن بن وصيف، وبني المحور، وإبن أبي الريحان، وأبي طاهر بن الحمامي، وبني غالب، والقاضي أبي بكر بن صدقة السعردي، وبني عيسى وبني نباته.

وكانت في دياربكر أيضاً طبقة من الأثرياء، منها القاضي أبو علي إبن البغل، والقاضي أبو الحسن الآمدي الذي سكن فارقين، والشيخ عبد البر، وإبن دمنة، والقائد مرتج، وبيت النخوار المسيحي(١)، وكذلك بيت سابا المسيحي في باسبرينا من طورعبدين(٢)، وبنو وهبان في الجزيرة(٣)، وآل توما

(١) كان بيت النخوار أسرة مسيحية في دياربكر منها إبن الخمار، الذي كان من أبرز أبنائها ومن أبرز شخصيات دياربكر في وقت ما من العهد الدوستكي، وكان كاتب الأمير محمد بن نصرالدولة والي المدينة المذكورة. وذكر الفارقي أن إسم أسرة الخمار الأصلي والقديم كان (بيت الخمار) حيث جرى تبديل الإسم لإبعاد صفة الخمّارة عنها، وظلت الأسرة تتمتع بمركزها الإجتماعي حتى عهد الفارقي. راجع تاريخ الفارقي، ص١٢٦ و١٤٧. وورد ذكر بيت النخوار أيضاً في كتاب أخبار بطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل، ص١٣١ لماري بن سليمان.

(٢) تكرر ذكر آل سابا (أي آل الشيخ) في (تاريخ طورعبدين) وفي(اللؤلؤ المنثور) لأفرام برصوم. راجع على سبيل المثال، ص٢٩ من الأخير. أما (باسبرينا) - والنسبة إليها السبريني - فإنها قرية تقع في شرق مديات في منطقة طورعبدين. لهذه القرية تاريخ حافل لما نشأ منها كثير من رجال الدين المسيحيين. زارتها أوائل هذا القرن مس (گرترود بيل) وكتبت عنها وعن بعض آثارها: راجع كتابها Amorath To Amorath. فصل من زاخو الى دياربكر.

(٣) راجع إبن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٤٩.

المسيحي الشرقي في بلدة حصن كيفا(٤). وكانت هذه الطبقة تعيش عيشة رخاء وترف. أما الأمراء الدوستكيون ومعهم بنو أعمامهم، فقد ملكوا الأراضي والعقارات والقصور والجواري والخدم وتفننوا في أسباب الترف، ولاسيما نصرالدولة الذي بلغت قيمة مسبحته (٢٢٥) ألف دينار(٥)، أي ربع مليون دينار، علماً أنها تعتبر أكبر وأثمن سبحة في التاريخ. وبلغ فن الطبخ حداً كبيراً من التقدم، إقتضاه إرتفاع مستوى المعيشة، ولاسيما بعد أن عاد الطباخون الذين أرسلهم نصرالدولة الى مصر لتعلم فن الطبخ المتداول في مطابخ مصر، وخاصة مطابخ الخليفة الفاطمي وأمرائه وأرباب الترف هناك(٦).

الطبقة المتوسطة

كانت هذه الطبقة تتكون من الموظفين الصغار والتجار المتوسطين وأصحاب الملكيات الصغيرة من الأراضي الزراعية، وكذلك من أصحاب الحرف التي تدر دخلاً متوسطاً.

الطبقة الكادحة

كانت تتكون من ذوي الدخل المتدني من الفلاحين، الذين لايملكون أرضاً زراعية، ومن العمال الذين يشتغلون بأجرة قليلة في الأعمال المختلفة. وكانت تتكون أيضاً من أصحاب الحرف كالحدادة والنجارة والباعة المتجولين من ذوي الدخل الواطيء. وفي سنة (٤٨٥هـ = ١٠٩٣م) إثر وفاة ملكشاه وفراغ السلطة في فارقين، ظهر أن هذه الطبقة ومعها الشباب كانت أخلص الطبقات وأشجعها وأصدقها وطنية وأبعدها نظراً. فقد إلتفّت حول الشاعر الوطني الجسور (إبن الأسد) الفارقي، الذي أخذ قيادة المدينة من الأغنياء، وفي مقدمتهم القاضي أبو بكر بن صدقة السعردي، الذين كانوا يحفظونها ليسلموها الى السلاجقة مرة أخرى.

فقد أرسل الأغنياء وفداً الى الملك (بَركيارق) بن ملكشاه ليرسل معهم والياً كي يسلموا المدينة إليه. ولما يئسوا منه أرسلوا وفداً برياسة القاضي المذكور الى (تُتُش) أخو ملكشاه، وهو يحاصر مدينة نصيبين، ليحضر هو أو يرسل أحد رجاله ليسلموا المدينة إليه. لكن الطبقة الكادحة بزعامة إبن الأسد كانت ضد الإحتلال السلجوقي الأجنبي وعملت على إحياء الدولة الدوستكية. فقد أرسل الشاعر الخالد إبن الأسد الى الأمير ناصرالدولة منصور، وكان قد قدم من قرية (حربى) القريبة من بغداد الى مدينة الجزيرة وإفتتحها- للمجيء الى فارقين ليسلم إليه المدينة. فحضر وإستلمها، وإستوزر إبن الأسد وأحيا الدولة. ثم إحتلها تُتُش ومنح قرية (قلوفح) للقاضي إبن صدقة السعردي المذكور مكافأة لإخلاصه للحكم السلجوقي ولخيانته البلاد وشعبها الذي عاش سعيداً خلال الحكم الوطني الدوستكي،

(٤) أفرام برصوم، تاريخ طورعبدين، ص٣٤٨. حدد تاريخ إشتهار هذه الأسرة بالفترة ١٠٥٠-١٢٩٢م.
(٥) التفاصيل في الجزء الأول من الدولة الدوستكية، ص٣١٠ وتاريخ الفارقي، ص٢١٤-٢١٦.
(٦) راجع التفاصيل في الجزء الأول أيضاً، ص٤٤٨ - ٢٥٠ موضوع نصرالدولة يوفد بعثة من الطباخين الى مصر.

كما ذكرنا بالتفصيل في الجزء الأول. وقد ذكر الفارقي في الصفحات ٢٣٢-٢٣٣ أنه كان لإبن الأسد "جمع وتلامذة وجماعة إلتقوا به وإجتمع إليه جماعة من السوقة والشباب والجهال وجعل يدور في المدينة ويحفظ السور والبلد...". وقال في الصفحة (٢٣٨): أن إبن الأسد عندما إحتل تُتُش فارقين إنهزم وإختفى، ثم توجه الى تُتُش في حرّان لعله يعفو عنه، ولكن بعض الحاضرين حرّضوه عليه وقالوا إنه هو الشخص الذي "جمع الغوغاء والجهال وإستدعى إبن مروان وسلّم إليه فارقين فأمر بضرب عنقه بحرّان في سنة سبع وثمانين وأربعمائة".

إن حركة إبن الأسد هذه كانت حركة فتوة شعبية شبيهة بحركة الفتوة الشعبية التي ظهرت في العهد العباسي في بغداد وكانت تعادي الإحتلال الأجنبي، والتي وصف المؤرخون رجالها آنذاك بالسوقة والغوغاء والجهال والعيارين، والتي سحقها المغول بعد مقاومة عنيفة منها. وكان الغزاة والمحتلون يستهدفون سحق هذه الحركات الشعبية بالدرجة الأولى.

الجدير بالذكر أنه كان يوجد في الدولة الدوستكية الرقيق الذين لايملكون أي شيء ويباعون ويُشترون كما في سائر الدول في ذلك العصر. وكانوا يجلبون الرقيق من الخارج، وكان نصرالدولة نفسه يمتلك الكثير من الخدم الرقيق والجواري، حتى قيل أنه كان يملك ألف جارية للأغراض المختلفة. وكان يشتري بعضاً منهن بآلاف الدنانير فقد إشترى إحداهن بـ(١٤) ألف دينار[٧].

وكانت بعض الأسر الغنية تملك الخدم المملوك مثل بني نباته في فارقين، فقد كان (صافي) جد المحتسب على بن محمد بن صافي الذي أصبح الأمر والنهي في يده في فارقين لسنوات بعد سقوط الدولة الدوستكية- كان مملوكاً لبني نباته[٨]. وكان إبن فليوس، الذي إرتقى الى منصب كبير في الشرطة غلاماً مملوكاً لشيروه بن ممم[٩].

ومع هذا كانت نسبة الرقيق قليلة في الدولة الدوستكية مقارنة بالدول بالأقطار الأخرى، حيث كانت بعض الأسر الغنية تملك عبداً أو جارية للإستخدام، عدا نصرالدولة أو عدد قليل من الأمراء أو من الأغنياء، الذين يحتمل تملّكهم لعدد أكثر من هذا حسب توقعنا.

المرأة

لم تصلنا معلومات كافية عن حياة المرأة الكُردية في العهد الدوستكي. لذا لا نعلم عن عاداتها وتقاليدها وزيها، عدا التقاليد الدينية أي ما له علاقة بالإسلام وروابطها العائلية مع زوجها وأطفالها... حيث إنها لم تتغير حتى الآن. ولكن هناك أمور أخرى مجهولة بالنسبة لنا، إذ لم نجد حولها نصوصاً تاريخية. ولو أننا نعتقد بأن المرأة الكردية في الوقت الحاضر قد ورثت من جدتها زيها الشعبي والكثير من تقاليدها وعاداتها، وكذا الحال بالنسبة للمرأة غير الكُردية مسلمة كانت أو

(٧) راجع الجزى الأول، ص٢٦٣-٢٦٥.

(٨) الفارقي، ص٢٤٦. هناك إحتمال تمليكهم إياه قبيل العهد الدوستكي أيضاً.

(٩) نفس المصدر.

مسيحية. إن بعض نساء الأسرة الحاكمة شاركن في الحكم وتدخلن في أمور الدولة وفي مقدمتهن الأميرة الديلمية زوجة الأمير پاد بن دوستك. فقد كانت المذكورة في قلعة حصن كيفا (حسنكيف) عندما زحف زوجها الى الموصل سنة (٩٩٠م)، ولما عاد الأمير أبي علي حسن بن مروان بجيشه المندحر وخشي أن تتمرد عليه إذا أخبرها بمقتل خاله قبل دخوله القلعة. ولما دخلها أخبرها بالأمر وطلب منها مساعدته في تسليم كافة المدن والقلاع التي كانت تحت سيطرة خاله ووعدها بالزواج منها وإشراكها في الحكم والإستشارة برأيها في أمور الدولة. فوافقت على شروطه فذهبا معاً بالجيش الى فارقين ودخلاها وتسلما باقي المدن والقلاع بدون أي تمرد من أحد. وهكذا وجدت هذه الأميرة لها دوراً في توطيد حكم الأمير حسن وفي سلامة الدولة. وهناك أيضاً الست عزيزة بنت (زنك) بن (أوان)، التي إحتفظت بمدينة دياربكر بعد وفاة زوجها الأمير سعيد بن نصرالدولة سنة (٤٦٤هـ = ١٠٧٢م)، الى أن أقنعها الأمير نظام الدين ووعدها بالزواج منها وبإحترامها فسلمت إليه المدينة(١٠).

كما ذكر الفارقي بعض الأعمال التي قامت بها المرأة، فذكر أن (ست الملك) بنت نصرالدولة وكبرى أختيها الست زينب والست زبيدة، قد شيدت القبة المروانية في ضاحية فارقين التي ضمت قبر والدها(١١)، ثم قبر الأمير نظام الدين وإبنه الأمير أحمد، والأمير سليمان بن الأمير بهرام بن نظام الدين (ت ٥٥٦هـ)، والأمير إبراهيم بن أبي الفوارس بن إبراهيم بن نصرالدولة (ت ٥٥٩هـ). كما شيّدت (ست الناس) بنت الأمير سعيد قبة بدياربكر على ضريح زوجها ناصرالدولة منصور تطل على دجلة عند رأس القصر(١٢). وإعتزلت في بلدة فنك بعد وفاة زوجها وإشترت ديراً حولته الى مسجد، وأقامت فيه متعبدة ومتزهدة الى أن توفيت ودفنت في القبة التي شيدتها بجانب زوجها(١٣).

وكانت فريحة بنت فلسطين، زوجة الوزير أبي سالم الطبيب، إمرأة مسيحية ذكية لبقة ساعدت زوجها في الوصول الى منصب الوزارة في الدولة. حيث إستطاعت أن تتقرب الى (ست الناس) زوجة الأمير ناصرالدولة منصور وتؤثر عليها. وقد إنتقد الفارقي الأمير وزوجته لخضوعهما لفريحة وأبي سالم، وقال أنه لما سافر الى أصبهان وسلّم البلاد إليهما. وذكر ابن العماد الأصبهاني أن هذه المرأة وذكرها بإسم "رحيمه" قابلت الوزير نظام الملك الطوسي، وزير السلطان آلب أرسلان السلجوقي، لما قدم الى فارقين سنة (٤٦٣هـ = ١٠٧١م). وقال لها الوزير وقد بلغته شهرتها: أنت ألست رحيمة؟ فأجابته على الفور: بل الأمَة المرحومة. ففرح بجرأتها الأدبية وحاضر بديهتها(١٤)، وعبارته تدل على ان خبر قابلية هذه المرأة قد وصل إليه سابقاً.

وقد وصل إلينا من عادات المرأة في العهد الدوستكي عادة تجميل النساء في حفلات الزفاف من قبل إمرأة ممتهنة خاصة تدعى (ماشطة). وقد ذكر ذلك أبو العلاء المعرّي حين قال بأنه: "كانت في

(١٠) الفارقي، ص١٩١-١٩٢.
(١١) نفس المصدر.
(١٢) نفس المصدر، ص٢٧٣.
(١٣) إبن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٨٨.
(١٤) عماد الدين الأصبهاني، خريدة القصر، ج٢، ص٣٤٩. الفارقي، ص٢٠٦، ٢٠٨.

مدينة آمد (دياربكر) في زمنه إمرأة مقينة ماشطة تمتهن تزين النساء في الأعراس. وكانت زوجة رجل أعمى ينجم للناس وكان لهذه المرأة ذوق أدبي في معرفة أوزان الشعر وحينما يخلُّ زوجها بأبيات شعرية كانت تحس بذلك وتنبهه وتحدث بينهما مناقشة"(١٥).

الأعياد والمناسبات

كان الشعب في البلاد الدوستكية يحتفل كباقي الشعوب بالأعياد والمناسبات الدينية. وكان سكان فارقين يخرجون في العيد للنزهة الى خارج المدينة كما هو معلوم من (الفارقي، ص٦٨). ويحتمل أن هذه العادة كانت عامة في المدن الأخرى أيضاً. ومما يتوقع أن الإحتفال بعيد نوروز كان يقام في كُردستان على النطاقين الرسمي والشعبي، وذلك أن الدول الإسلامية كانت تحتفل به آنذاك. وللإحتفال بعيد نوروز في الدولة العباسية حديث طويل في المصادر التاريخية، حتى أن المؤرخين إعتبروا هدايا نوروز الكثيرة الى الخليفة من جملة المصادر المالية. ومن المعلوم أن الدولة العباسية إتخذت عيد النوروز بدايةً للسنة المالية، وكانت تسك النقود في نوروز وكذلك في عيد (مهرجان) في بداية الخريف، حينما كانت الدولة تحتفل بالمهرجان أيضاً. وكانت الدولة الفاطمية في مصر أيضاً تحتفل بنوروز، وإستمر هذا عيداً كبيراً معروفاً في مصر الى أن ألغاه الملك الظاهر برقوق في القرن الرابع عشر(١٦).

وعلى الأغلب فإن الدولة الدوستكية، التي كانت تقتبس النظم المدنية والعسكرية من دول عصرها ولاسيما الدولتين العباسية والفاطمية، إقتدت بهما في الإحتفال بهذين العيدين على نطاق رسمي، علماً بأن نوروز ظل مستمراً في كُردستان الى الآن. وقد ذكر العالم والمفكر الشاعر الكُردي أحمدى خانى بأن أمراء بوتان مع سكان الجزيرة كانوا يحتفلون به. وقد حدث في يوم نوروز اللقاء الأول بين (مهم وزين) وذلك في القرن الخامس عشر الميلادي، فإلتهب بينهما الحب الصادق(١٧).

(١٥) المعري، رسالة الغفران، ص٥٧٢. النسخة التي حققتها الدكتورة بنت الشاطيء، وفيها زيادة حوالي ثلاث صفحات على النسخة التي حققها ونشرها كامل گيلاني وتبدأ الزيادة بالعبارة التالية"وحدث رجل ضرير من أهل آمد..." أي بقصة الماشطة وزوجها، علماً إن المعرّي ألّف رسالة الغفران في أواسط العهد الدوستكي دفاعاً عن وزيرها أبي القاسم المغربي كما سيأتي في موضوع الحياة الثقافية.

(١٦) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج١، ص٢٨٩.

(١٧) أحمد خانى، مه م وزين، ص٥٢-٥٤ طبعة هەولير ١٩٦٨. علماً إن ذلك كان في سنة (٨٥٤هـ = ١٤٥٠م) أو التي قبلها، حيث أن العاشقين مەمێ ئالان والأميرة زين توفيا في السنة المذكورة، حسبما هو مكتوب على شاهد قبر زين. وقد بقي لقبرها شاهد واحد كُتب عليه ما يلي حسبما قرأته: "توفيت في سنة أربعة وخمسين وثمانمائة رحمة الله عليها وعلى جميع المسلمين". وقد ذكرنا التاريخ في كتابنا ديوانا كرمانجي (ص١٤٥-١٦٠). هذا وأشار الى النوروز أيضاً الشاعر الكُردي ملاي جزيري الذي عاش ما بين القرنين ١٦ و١٧ الميلاديين وقد قال:

ئەو نارو سيڤالا دله   دائم دنيڤ داڤـا دلـــــه

نەورۆز و سەر سالا دله   وەختێ كو هلبت ئەو سيراج

راجع ديوانه، ص٥٨ طبعة هه ولير١٩٦٤. وقد ورد ذكر نوروز أيضاً في دعوة الأطباء للطبيب بن بطلان، وقد ألفه للأمير الدوستكي نصرالدولة. ولكن هذا لا يكون دليلاً قاطعاً على إحتفال الدولة به. راجع مقدمة دعوة الأطباء.

ومعروف أن الكُرد يعتبرون نوروز الآن عيدهم القومي، حيث ذكر المؤرخون أن كاوة الحداد الذي قاد الثورة على الملك (الميدي) الضحاك في الحادي والعشرين من آذار كان كردياً. ولكن ذلك غير صحيح. إذ ليس لنوروز أي علاقة بالضحاك (أزي دهاك - أستياك) بن كيخسرو آخر ملوك الدولة الميدية الكُردية وليس لكاوه أي وجود. وقد صححنا هذا الخطأ التأريخي في كتابنا (شوێنەوارەکانی نوێ لە شاخی سورێن). والإحتفال بنوروز إحتفال بسقوط الدولة الكُردية (دولة ماد)، وعيد نوروز إنما هو عيد الربيع فقط.

وبصدد الإحتفال بالأعياد الدينية ذكر الفارقي أن نصرالدولة جلس لهناء العيد على التخت في اليوم الرابع من عيد الأضحى لسنة (٤٠٣هـ = ١٠١٣م) وحضر الشعراء والقراء، وجلس على يمينه مندوبا الخليفة العباسي والملك البويهي وعلى شماله مندوب الإمبراطور البيزنطي، وكان يوماً عظيماً وعيداً مشهوداً(١٨). ومعلوم إن مهمة الشعراء كانت إلقاء القصائد في مدح الأمير بهذه المناسبة ومهمة القرّاء قراءة آيات من القرآن والأناشيد الدينية.

وكان للمسيحيين في كُردستان أعياد ومناسبات دينية يحتفلون بها ويحضرها المسلمون أيضاً، مثل عيد (دير مرقوما) القريب من فارقين. وقد ذكر الشابشتي المتوفي في العهد الدوستكي بأن: "لهذا الدير عيداً يحتفل به الناس ويقصده أهل البطالة والخلاعة للشرب فيه"(١٩).

وكان لدير الكَلب أيضاً عيد في يوم معلوم من السنة، وكان المسلمون من الرجال والنساء يشاركون فيه المسيحيين للإحتفال ويستمتعون بالأغاني والملاهي، على ما ذكره العمري في (مسالك الأبصار، ج١، ص٢٥٤). وذكره الشابشتي في (الديارات، ص٢٦٢)، والمقدسي في (أحسن التقاسيم، ص١٤٦) وغيرهم. ويعود الدير الى ما قبل الإسلام ويسمى الآن بـ(دير مار ياقو)، وفي ١٩٩٥/٦/٢٣ إكتشفته في قرية (قەشەفر)، الواقعة في الجبل الأبيض بمسافة حوالي عشرين كيلومتراً أو أكثر شمال غرب دهوك. فصورت آثاره وعشرات من الصوامع والكهوف المنحوتة في الصخور، بينما كان مكانه مجهولاً للمؤرخين المعاصرين. ويعد (دير الكلب) بصوامعه من أهم أديرة كُردستان وسأنشر بحثاً بخصوصه.

ومن المناسبات الأخرى تنصيب الأمير الدوستكي في إحتفال يحضره الأمراء والقادة ورؤساء العشائر والشعراء والمنجمون ووجهاء العاصمة إضافة الى القاضي والشهود، أي هيئة المحكمة الشرعية أي القضاء إضافة الى العلماء. وكان الوزير يخلع على الأمير الملابس الرسمية ويقبل الأرض بين يديه ويخاطبه بالإمارة، أي يعلن تأميره، ثم يبدأ الشعراء والقرّاء بقراءة أشعار وأناشيد التهنئة.

أما العزاء بمناسبة وفاة الأمير، فكان يعلن عنه الوزير وسط الجماهير التي تحضرت مراسم التأمير. فيبدأ بشق ثيابه ونشر عمامته والبكاء، كما يخلع الأمير الجديد ملابسه الرسمية بعد ساعة من لبسها، ويلبس ثياب العزاء ويجلس على الأرض ويبدأ القرّاء بقراءة المراثي.

(١٨) الفارقي، ص١٠٨ و١٠٩ و١١٠.

(١٩) راجع الشابشتي، الديارات: دير برقوما.

لقد أعطانا الفارقي صورة صادقة عن تنصيب الأمير نظام الدين والأمير منصور، كما أعطانا صورة عن تنصيب نصرالدولة وكذا عن العزاء بوفاة الأخير ونظام الدين(٢٠). ويظهر لي إن الضرب على الصدور وخاصة من قبل النساء بصورة جماعية لم يكن شائعاً في كُردستان الوسطى في ذلك العصر، حتى إن الكُرد ينسبون هذا النوع الى العرب ويسمونه "شينا عەرەبان"، ولكنه إنتشر بين الكُرد المجاورين لهم في كُردستان العراق، مثل كُرد مندلي وخانقين. وهذا النوع من العزاء بمناسبة وفاة الأمراء إنتشر في لورستان من كُردستان إيران منذ قرون. وقد ذكر إبن بطوطة في القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي) صورة حية للعزاء بمناسبة وفاة إبن الأمير الكُردي أفراسياب بن السلطان أحمد، وذلك بمدينة (إيذج) عاصمة لورستان وكان إبن بطوطة حاضراً فيه(٢١).

وكان من المناسبات المسرّة السفر الى قلعة هەتاخ ومدينة النصرية. كان الأمير ممهد الدولة قد إتخذ قلعة هەتاخ (عقاق، أتاق، إيتاخ)(٢٢) مربعاً له. إذ كان يسافر في الربيع مع حاشيته وبني عمه

(٢٠) الفارقي، ص٩٥، ١٧٨، ٢٠٢. وراجع ايضاً الأعلاق الخطيرة ورقة ٩٣.

(٢١) رحلة إبن بطوطة، ص١٩٦. أضاف إنه رأي الناس فرقتين في العزاء لابسين جلال الدواب والتلابيس جاعلين فوق رؤوسهم التراب والتبن، وهم يضربون على صدورهم تزحف فرقة الى أخرى. وأما القضاة والخطباء والأشراف، فعليهم ثياب خام غليظ غير محكمة الخياطة يلبسونها مقلوبة ويستمر العزاء أربعين يوماً. وقال إنه لم يشهد منظراً فظيعاً مثل هذا العزاء علماً أن ذلك كان سنة (١٣٢٩م). تقع إيذج (إيذه ج) في شرق مسجد سليمان.

(٢٢) تقع هەتاخ في جنوب شرق مدينة لجى بمسافة حوالي (١٣) كلم ويسميها الكُرد الآن ايتاخ. وهي قرية جميلة واقعة في أحضان جبل والقلعة تقع فوق الجبل. وفي ايتاخ مسجد ومنارة أثريين يعودان الى العهد الأرتقي. أما تاريخ القلعة، فيرتقي الى العهد الروماني على ما في كتاب (Butun Cebheleri Diarbakir، ص٦٦ باللغة التركية والإنگليزية لعادل تكين). راجع أيضاً شوكت بيسان أوغلو: Diarbakir ص٢١٨. وقد حدد لي مكان هەتاخ الشاب المثقف (ملا خالد لجى). أما لجىّ (ليجه)، فمدينة نفوسها كان في سنة ١٩٧١ (٨١٩٠) نسمة، وهي مركز قضاء يبعد عن دياربكر بمسافة حوالي (٩٥) كلم من جهة الشرق. وفي هذا القضاء آثار تاريخية مهمة منها مدينة (دقيانوس) وتشاهد خرائبها في (فيس) بين دياربكر وليجه. وكهف برليان في قضاء لجىّ (ليجه) يضم آثاراً آشورية. ولكن مما يؤسف له أن مدينة لجىّ قد أصيبت يوم السبت المصادف ٦ أيلول ١٩٧٥ بزلزال عنيف دمرها، وبلغ عدد القتلى فيها أكثر من ألف شخص. ويقال أنه بلغ عددهم ما يقارب الـ(٣) الاف شخص. وفي الواحد والعشرين من آب ١٩٧٧ سافرت من دياربكر الى هەتاخ لمشاهدتها وتصويرها، وهي تقع في شرق مدينة دياربكر بمسافة حوالي (٩٥) كلم ويسميها الكُرد (أنتاخ) وإيتاخ. تقع القرية في أحضان جبل غير عال، وكانت تعيش فيها ثلاثين أسرة، وأمامها واد فسيح فيه ينبوعان قليلي الماء ولذلك حُفرت في القرية آبار وبساتينها قليلة. أما القلعة، فعبارة عن سنام صخري حاد وضيق جداً فوق القرية، ولكنه حصين جداً وعليه آثار أبنية قليلة وحوض ماء، ويحتمل وجود حوضين آخرين مطمورين تحت التراب، إلا أن مياههما لاتكفي لمئات المقاتلين إن حوصروا مدة طويلة. والقلعة ليست كبيرة ولضيق مساحتها لا تسع مقاتلين كثيرين. ويمكن من القلعة مشاهدة منطقة واسعة من الجبال ومن مدينة لجىّ سهلها (سهل بامەتنىّ)، الذي ينتهي من الشمال بجبل القلعة. وبالنسبة للنزهة تتمتع هەتاخ بموقع خلاب وكانت إبان العهد الإسلامي مدينة، وكذلك في العهدين الدوستكي والأرتقي. وقد شيّد فيها أمير أرتقي لعله نجم الدين ألبي بن حسام الدين تمرتاش، الذي حكم من (٥٤٧-٥٧٢هـ)، منارة مربعة جميلة لا زالت باقية حتى الآن. وكانت هەتاخ مركز تلك المنطقة في العهود المذكورة. وفي كتاب (فتوح الشام، للواقدي، ب٢، ص١٦٥-١٦٨) أن: "عياض بن غنم بعد فتح مدينة آمد سنة ١٨ هـ توجه بجيشه لفتح قلعة هەتاخ، وكان أميرها المتحصن بالقلعة (يانس بن كليوس)، وهو مسيحي تابع للروم قد جمع رجال القرى المجاورة في بلدة هەتاخ إستعداداً للقتال. وكان عنده مجانيق وعرادات وتحدى عياض بأنه لن يستطيع الإستيلاء على هەتاخ حتى إذا حاول ذلك مدة سنة. ولكن زوجته (ميرونه) سبطة (يريول بن كالوص)، أمير (قلپ) و(الحصن الحديد)، وقعت في يد رجال عياض أثناء عودتها من عند جدها وكانت في غاية الجمال، فجزع لها=

إليها، ليقضي فيها أحلى الأيام بين المروج والمناظر الطبيعية الخلابة ملازماً الصيد والشرب هناك في ضيافة حاجبه شيروه، الى أن أغتيل فيها بيده(٢٣).

أما نصرالدولة فلم يتخذ من هەتاخ مربعاً له بسبب تلك الذكرى الأليمة، أي ذكرى مقتل أخيه. ففكر في إختيار موقع آخر يمتاز بحلته القشيبة أيام الربيع. فإختار موقعاً على الضفة الشرقية من نهر باطمان الكبير، وبنى فيه مدينة بإسم (النصرية) تضم القصور والأسواق والبساتين وأحواض المياه. فكان نصرالدولة يسافر في فصل الربيع سنوياً إليها مع نسائه وجواريه ومغنياته وغلمانه وأولاده وبني عمه وحراسه. وكان يسافر معه وزيره وكتابه وكبار الشخصيات. كانت (النصرية) لذلك عاصمته الربيعية، وكان يجعل المسافة بينها وبين فارقين أربعة أيام، رغم كونها حوالي (٢٥) كلم، وذلك لأنهم كانوا ينتقلون من بقعة الى بقعة ويقيمون في الفنادق والبنايات، التي شيدها نصرالدولة في الطريق، ليتمتعوا بمناظر الطبيعة والمروج الخضراء. وكانوا يقيمون بالمدينة في فصل الربيع ثم يعودون الى فارقين. ولهذا كانت السفرة الى العاصمة الربيعية من أجمل المناسبات(٢٤).

أما فيما يتعلق بالألعاب، فلم يصل إلينا سوى لعبة الشطرنج وكانت لعبة معروفة في كُردستان. وقد ذكر الفارقي حادثة لعبة الشطرنج بين عارض الجيش (أبي الحكيم) وأحد خدم نصرالدولة التي كادت أن تؤدي الى كارثة(٢٥).

لاشك بأنه كانت هناك في كُردستان ألعاب أخرى كالنرد (كوك) وسباق الخيل، ومازال النرد لعبة شعبية شائعة دخلت كُردستان على أغلب الإحتمالات قبل الإسلام. وكان الصيد كذلك شائعاً بين الكُرد منذ آلاف السنين لكثرة الحيوانات البرية في كُردستان، وأهمها بالنسبة للصياد الأروية أي المعز الجبلي (پەزێ کوڤی)، والذي توجد له صورة منحوتة في كهف (گوندك)، الواقع في شرقي قرية شوش الشهيرة في منطقة (ئاكرێ) في كُردستان العراق. ويرجح علماء الآثار أن مشهد الصيد المنحوت هناك يرجع الى أواخر الألف الثالث قبل الميلاد(٢٦).

ولا يزال هذا الحيوان موجوداً في المناطق الجبلية من كُردستان، وكان يتم إصطياده في العهد الدوستكي بالسهام وبالشبكة التي يمدونها في الأودية الضيقة. وقد شاهد أسامة بن منقذ الصيد في

=(يانس). فطلب من عياض إرسال سبعة من رجاله إليه للتفاوض لعله يكون بينهم خالد بن الوليد. فأرسلهم وعندما دخلوا القلعة وإستقبلهم يانس قتله خالد رأساً لأنه توقع أن يانس يقبض عليهم كرهائن. وحدث قتال وأرسل عياض أربعمائة من رجاله لنجدة خالد وتمكنوا من الإستيلاء على القلعة، وأبقى مولاه (سالماً) مع مائة رجل لحماية هەتاخ ورجع. وفي كتابنا المخطوط (گەشتەکێ ئەرکیۆلۆژی دکوردستانا باکوردا، ص٨٠٦-٨٢٧) معلومات مفصلة بخصوص هەتاخ.

(٢٣) أنظر ص١٤٧ من الجزء الأول من كتابنا هذا.

(٢٤) راجع موضوع الآثار العمرانية.

(٢٥) راجع موضوع: وزارة إبن جهير، ص٢٢٤ من الجزء الأول. والفارقي، ص١٤٦-١٤٨. وموضوع الجيش من الجزء الثاني.

(٢٦) طه باقر وفؤاد سفر، المرشد الى مواطن الآثار والحضارة، الرحلة الثالثة، ص٤٥.



هه تاخ

جبال (حصن كيفا) الواقعة في منطقة ماردين وجنوب دياربكر، حينما خرج للصيد مع الأمير الأرتقي قره أرسلان بعد مرور نصف قرن على إنتهاء العهد الدوستكي. وقال إبن منقذ إن الصيادين هناك يمدون شباكاً في الأودية ويطردون الماعز فتقع في تلك الشباك، وهي كثيرة عندهم وسهلة المنال وكذلك الأرانب. وذكر إبن المنقذ من طيور الصيد في تلك البقعة من البلاد الكُردية الحجل (كهو) والزرخ والدراج وطير الماء الذي يلازم نهر دجلة(٢٧).

أما الغزلان فكانت تكثر في السهول الكُردية آنذاك، ولكنها قليلة الآن وتكاد تنقرض، كما قلّت أعداد الماعز الجبلي لكثرة صيده من قبل الصيادين. وإنقرض كذلك الأسد، الذي كان موجوداً في العصر الدوستكي. وقد روى لنا التاريخ أن الأمير الكُردي بدر بن حسنويه كان شجاعاً قوياً يقتل الأسد بيده، وأنه أخذ يتحذر من قوة وشجاعة إبنه (هلال)، حينما قتل أسداً وكانا قد خرجا معاً الى الصيد(٢٨).

وكان الأمير نصرالدولة يخرج في أكثر الأيام للصيد لمدة حوالي ساعتين(٢٩) تسليةً وتريضاً. ومع حبه للصيد فإنه كان يمنع الناس من صيد الطيور التي كانت تضطر في فصل الشتاء، حينما تغطي الثلوج الأرض، الى النزول الى القرى فيصطادها الناس. ومع هذا فإنه كان يأمر بإلقاء الحب لها من

(٢٧) أسامة بن منقذ، كتاب الإعتبار، ص١٩٦.

(٢٨) إبن الأثير، الكامل، ج٧، ص٢٤٧.

(٢٩) الفارقي، ص١٧٠. راجع الجزء الأول من الدولة الدوستكية: موضوع برنامج نصرالدولة اليومي، ص٢٤٦.

مخازن الحبوب العائدة للدولة (فكانت في ضيافته طوال الشتاء) على ما ذكره بعض المؤرخين(٣٠).

أما ممهد الدولة، فكان هو الآخر يحب الصيد ويمارسه ولاسيما حينما كان يسافر الى هتاخ، وعند رجوعه من الصيد كان يتقدمه فرّاشه (مشرق) ويأمر الحراس بفتح باب المدينة لأنه أمرهم بعدم فتحه لأية جماعة مسلحة أثناء خروجه للصيد، إلا إذا رآوا وجه فراشه (مشرق). ولهذا إقتاده شيروه حينما إغتال الأمير ممهد الدولة، فوجده حراس باب فارقين وفتحوه، ثم شعروا بالخدعة لما لم يجدوا الأمير(٣١).

والنثار كان عادة في كُردستان الوسطى في العهد الدوستكي في مناسبات الزفاف وزيارات الأمراء، حيث كانوا ينثرون النقود على العروس وعلى الأمير. وقد إلتجأ عبد البر الى النثار كجزء من خطته في إغتيال الأمير حسن (أبي علي) حيث نثر عليه كمية من الدنانير وصوبها الى وجهه بقوة فغطى الأخير وجهه بكمه فناوشوه عندئذ بالطعن، وذلك عند دخوله مدينة دياربكر(٣٢).

ومازال النثار في الزفاف عادة جارية في كُردستان الى اليوم. أما إستقبال الضيوف وإحترامهم فإن إكرام الضيف من إحدى الخصال البارزة للكُرد كما أكد عليه المؤرخون. وكان الملوك الدوستكيون يحترمون الضيف ويوفرون له طيب الإقامة في بلادهم، وكانوا يستقبلون الوفود الرسمية بأنفسهم. حيث كان الأمير يخرج مع الوزير وكبار رجال الدولة الى خارج المدينة لإستقبالها، كإستقبال نصرالدولة في اليوم الثالث من عيد الأضحى سنة (٤٠٣هـ) لوفود الدول الكبرى الثلاث: العباسية والفاطمية والبيزنطية(٣٣).

وقد خرج نصرالدولة بنفسه أيضاً لإستقبال السيدة أم الخليفة العباسي (القائم بأمر الله) وإبنه (الذخيرة) ومن معهما، وذلك أثناء قدومهم الى الدولة الدوستكية كلاجئين في سنة (٤٥٠هـ = ١٠٥٨م)، بسبب إحتلال أبي الحارث البساسيري لبغداد وبالغ نصرالدولة في إحترامهم(٣٤).

ووفر أيضاً طيب الإقامة في بلاده للملك العزيز البويهي الملتجيء إليه وأنفق عليه أكثر من عشرين ألف دينار(٣٥).

وما إحترام نظام الدين للأمير الكُردي أبي الهيجاء أمير أربيل إلا مثال بارز لإحترام الضيف وتقديره(٣٦).

(٣٠) إبن الأثير، الكامل، ج١٠، ص١٨. إبن كثير، البداية ولا نهاية، ج١٢، ص٨٧. الخزرجي، المسجد المسبوك، ورقة ٢٨ مخطوطة.
(٣١) أنظر الجزء الأول، ص١٥٦.
(٣٢) الفارقي، ص٧٦-٧٧. إبن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٥. وفيه نثروا عليه الدراهم.
(٣٣) الفارقي، ص١٠٩-١١٠.
(٣٤) راجع الجزء الأول، ص٢٣٤. والفارقي، ص١٥٣.
(٣٥) التفصيل في الجزء الأول، ص٢٣٢-٢٣٣.
(٣٦) أسامة بن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٨٧-٨٨. راجع التفصيل في موضوع الزراعة الاتي.

أما الأمير منصور، فكان من عادته أن لايستقبل شاعراً قدم إليه إلا في اليوم الثالث من قدومه، ويمهله حتى يجمع قريحته ويؤلف قصيدته في مدحه. وقد حدثت له قصة طريفة مع شاعر يدعى بالغسّاني(٣٧).

أخيراً أعتذر للقراء إن لاحظوا عدم تطرقنا الى أمور حساسة بالنسبة للحياة الإجتماعية وليصفحوا بسبب عدم الحصول على معلومات بصددها.

الفنون الجميلة

بلغ الغناء والرقص والموسيقي والتمثيل من (الفنون الجميلة) درجة عالية في كُردستان الوسطى، أو في البلاط الدوستكي، وذلك بسبب إهتمام الدولة بها وخاصة في عهد نصرالدولة. وهو إهتمام إقتضاه الرخاء والإزدهار في البلاد والميل الى الترف. حيث ذكر المؤرخون بأن نصرالدولة، الذي تربع على كرسي الحكم مدة (٥٢) عاماً، إشترى من المغنيات والراقصات وأهل الطرب من الجواري بأثمان عالية بلغت آلاف الدنانير. فقد إشترى إحدى المغنيات بمبلغ أربعة عشر ألف دينار. وكان في بلاطه من "الآلات" (أي الآلات الموسيقية ووسائل التمثيل والزينة) ما يزيد قيمتها عن (٢٠٠) ألف دينار(١)، أي ما يعادل حوالى عشرة ملايين دينار في الوقت الحاضر. وذكر الفارقي بأنه كان لنصرالدولة: "من المغنيات والرقاصات والعمالات وأصحاب سائر الملاهي (كالموسيقى والتمثيل) ما لم يكن لسواه من سائر الملوك والسلاطين وكلما سمع بجارية مليحة أو مغنية مليحة نفذ وبالغ في مشتراها ووزن أضعاف قيمتها... وكان رسمه أن يجلس للجند والعساكر يوماً يأكل ويشرب معهم الى الليل ويجلس يوماً لبني عمه وأولاده وأقاربه وخاصته فيأكل معهم ويشرب الى الليل ثم يخرج للمغنيات والرقاصات وجماعة أصحاب الملاهي... ويرقصون ويلعبون بسائر الملاهي..."(٢).

وكان ممهد الدولة الأمير سعيد يحب الغناء أيضاً، وكان يلازمه المغنون في سفراته الى هتاخ(٣). وكان الغناء يلقى تشجيعاً كبيراً من أحد أكبر قضاة الدولة وأعلاهم منزلة، وهو القاضي حسين بن سلمه المالكي، الذي كان قاضياً للعاصمة فارقين ودياربكر في وقت واحد. وكان هذا القاضي يأخذ معه المغنين أثناء تنقله بين المدينتين(٤).

(٣٧) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج٣، ص٤٧-٥٤. أنظر الجزء الأول، ص٢٣٦-٢٣٧.

(١)راجع إبن الجوزي، المنتظم، ج٨، ص٢٢٢. إبن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٢٦ حوادث سنة ٤٥٣هـ. أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص١٨٩. إبن كثير، البداية والنهاية، ج١٢ ص٨٧. إبن الوردي، تاريخ إبن الوردي، ج١، ص٣٦٧. الخزرجي، العسجد المسبوك، ورقة ٢٨. إبن خلدون، العبر، ج٤، ص٣١٩. بدرالدين العيني السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، ص٧٦. راجع أيضاً الجزء الأول من الدولة الدوستكية ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٦٣، ٢٦٧ التي تضم التفاصيل والمقتطفات من المصادر المذكورة.

(٢) الفارقي، ص١٧٠. ذكرنا التفاصيل في الجزء الأول.

(٣) نفس المصدر، ص٨٩.

(٤) راجع التفصيل في موضوع القضاء.

وبما أن المغنيات والجواري والراقصات قد عشن في بلاد مختلفة مع إنتمائهن الى أكثر من جنسية واحدة، فنظن أن الغناء في العهد الدوستكي كان بلغات مختلفة وأهمها الغناء العربي وكذلك شأن الرقص والتمثيل. أما الغناء الكُردي فكان هو المنتشر في كُردستان، ولكن لم يصل الينا شيء عن الأغاني والرقصات الشعبية الكُردية، أو عن أغاني ورقصات القوميات الأخرى في البلاد الدوستكية. ولا أستبعد العثور على أغانٍ وقصص فولكلورية تمتد جذورها الى العهد الدوستكي، إذا ما بُحث عنها بدقة في مناطق فارقين ودياربكر، مثل قصة زمبيل فروش وقصة زواج الأمير أحمد بن نظام الدين في الأسر(٥). فالقصة الأولى تعود الى العهد الدوستكي، أما الثانية فإنها وإن وقعت بعدها إلا أنها تعد جزءً من التاريخ الدوستكي.

أما الموسيقي، فقد كانت ملازمة للغناء وحظيت بالإهتمام هي الأخرى. ولاشك بأن نصرالدولة قد إشترى كثيراً من الآلات الموسيقية المختلفة المعروفة آنذاك، كالعود، والطنبور، والصنج، والرباب، والأوعر، والقانون، والناي (شمشال – بلور). والآلة الأخيرة، التي تعد من أقدم الآلات الموسيقية ذات الثقوب، عرفتها أغلب المدنيات القديمة(٦)، وكانت موجودة في كُردستان قبل العهد الدوستكي بمئات بل بآلاف السنين. ولا يزال الكُرد يعتبرونه آلتهم الموسيقية الشعبية. أما العود تلك الآلة الشرقية القديمة المعروفة لدى المصريين القدماء والآشوريين والفرس والصينيين، فقد كان من الآلات الموسيقية الموجودة في كُردستان في العصر الدوستكي وقبله. ويرى بعض الباحثين من ذوي الإختصاص في الموسيقى القديمة، بأن العود من إختراع الحوريين سكان كُردستان القدامى وإنتقل من كُردستان الى العراق وغيره. وإستندوا في رأيهم هذا الى آثار لآلة العود تم إكتشافها في كُردستان تعود للحوريين، منها لوحة طينية عليها رسم عازف على عود وقد أمسك عوده بشكل أفقي. لقد إكتشفت هذه اللوحة في (نوزي) القريبة من كركوك، التي كانت عاصمة إقليمية للحوريين في أواسط الألف الثاني قبل الميلاد. ولكن الدكتور صبحي أنور رشيد أثبت بأن العود في العراق كان أقدم من العهد الحوري(٧).

وقد ورد نص تاريخي حول كون العود من الآلات الموسيقية في كُردستان في العهد الدوستكي من قبل الفارقي. فقد ذكر بأنه قدمت من مصر الى فارقين مغنية مع أستاذ لها يسمى فرج: "لم ير مثلها في الحسن والجمال ولا مثل صناعتها الغناء بالعود". وقد إستهامها نصر الدولة وتزوجها، وكانت تعرف بالفرجية(٨). ولاشك أن الآلات الموسيقية المذكورة كلها أو بعضها أو أكثر منها كانت موجودة في البلاد الدوستكية إضافة الى الآلات ووسائل التمثيل، التي كان يستعملها الممثلون "أصحاب

(٥) راجع موضوع الطب: تأسيس مستشفى فارقين: الحاشية.

(٦) يوسف زكريا، الموسيقى العربية، ص٣١.

(٧) صبحي أنور رشيد، الآلات الموسيقية في العصور الإسلامية، ص٥٢.

(٨) في رأي البروفيسور شتاور أستاذ الموسيقى بألمانيا والباحث في تاريخ الآلات الموسيقية القديمة في الشرق القديم، أن العود من إختراع الحوريين وتبعه تلميذه آيجن في ذلك بالإستناد الى آثار العود المكتشفة العائدة لهم في منطقتهم الممتدة من بحيرة وان حتى شمال العراق حسب تحديده. والتفاصيل في تاريخ الآلات الموسيقية للدكتور صبحي أنور. وراجع أيضاً كتابه الآلات الموسيقية في العصور الإسلامية، ص٥١، ٥٥، ١٣٧، ١٣٨ و١٠ و ٧٣ وفيه صورة اللوحة المذكورة شكل (٣٤).

الملاهي" في ذلك العصر.

وفي رأي أن التقدم الذي حصل في الفنون الجميلة لم يكن تأثيره منحصراً على البلاط الدوستكي، بل دخل الى قصور الأغنياء في فارقين ودياربكر وغيرها، وتسرب الى الأوساط الشعبية وخاصة في مجال الرقص. ولعل آثاره قد بقيت في كُردستان حتى بعد زوال البلاط الدوستكي(٩).

ويشير الجغرافي إبن سعيد المغربي الى إشتهار مدينة دياربكر بالفنون الجميلة بقوله: "إنها مشهورة بأغنياء التجار وكثرة الملاهي والمساحر(١٠)". وقد أبدى المذكور إشارته هذه بعد مرور حوالي مائة وستين عاماً على العهد الدوستكي. وإن تفوق الكُرد في كُردستان تركيا الآن في الرقص والغناء على سائر الأقاليم الكُردية، ربما يعود سببه الى تأثيرات العهد الدوستكي.

أما الزخرفة والنحت من الفنون الجميلة في الدولة الدوستكية، فلم نجد لهما أثراً سوى ما كان على سور دياربكر. كما إن الزخرفة توجد على سور فارقين والجامع الكبير في فارقين. وكذلك على قصر نصرالدولة، الذي بناه سنة (٤٠٣هـ = ١٠١٢-١٠١٣م). وقد ذكر الفارقي في الصفحة (١٠٨) أنه زوق القصر (أي نقشها بالزخارف) وأجرى في حيطانه وسقوفه الذهب، أي كانت بعض الزخارف من الذهب. وسيأتي البحث عنهما في موضوع فن العمارة.

الإقطاع

لقد كان الإقطاع موجوداً في الدولة الدوستكية، فمثلاً أن قرية العطشى، التي ما زالت موجودة بهذا الإسم في منطقة فارقين، كانت إقطاعاً إشتراها نصرالدولة من بعض الإقطاعيين لا من الفلاحين وجعلها وقفاً على الفقراء. وكذلك قرية بني نوح، التي إشتراها التاجر إبن البهات وجعلها وقفاً على حصون آكل واليماني والجاتره، كانت من الأراضي الإقطاعية ومعروضةً للبيع(١). أما هتاخ (أنتاخ، عتاق)، فكانت إقطاعاً لشيروه أقطعه إياها ممهد الدولة(٢)، كما أعطى أخاه الأمير أحمد (نصرالدولة) قرية (سعرد) على سبيل الإقطاع(٣). وفي عهد نظام الدين، كانت (أرزن) إقطاعاً للأمير أبي الفوارس أحمد بن شبل بن إبراهيم زوج الأميرة زبيدة بنت نصرالدولة(٤). كما كانت بدليس إقطاعاً من نظام الدين للأمير هبة الله بن موسك بن محمد بن كهك(٥) الذي وكان من العائلة

(٩) الفارقي، ص١٢٢. وفي كتاب للأستاذ محمد توفيق وردي "نماذج التراث الشعبي الكُردي" ذكر لأسماء (٢٤) رقصة كوردية لدى الكُرد الكرمانج. راجع ص١٣٧ منه.

(١٠) إبن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ١٧١.

(١) الفارقي، ص١١٥، ١٦٧.

(٢) نفس المصدر، ص٨٨ ورد إسمه شيروين في كتاب الأزمنة، لإيليا برشنايا ورقة ٤٩ باللغة السريانية. نسخة مخطوطة محفوظ في مكتبتي.

(٣) نفس المصدر، ص٩١.

(٤) نفس المصدر، ١٨٠.

(٥) نفس المصدر، ص٢٠٣.

المروانية الحاكمة. كما منح نظام الدين أخاه الأمير سعيد إقطاعاً كثيراً(٦). وهكذا أعطانا الفارقي نماذج كافية من الملكيات الإقطاعية في كُردستان في العهد الدوستكي. أما طبيعة هذا الإقطاع، فلا بد أنها لاتختلف بصورة عامة عن طبيعة الإقطاعات التي كانت موجودة في الدول الإسلامية في ذلك العصر. وقد كان للإقطاع أنواع مختلفة هي:

١- إقطاع عن طريق إحياء الأرض الموات: أي التي لم تُستغل مطلقاً أو إستغلّت في زمن ما، ومن ثم تُركت بعده ونُسي صاحبها. وقد إختلفت المذاهب الفقهية في تمليك هذا النوع من الإقطاع.

٢- إقطاع إستغلال (الطعمة): وهو أن يقطع الملك أرضاً لأمير أو غيره يستغلها مدى حياته حتى إذا مات إسترجعت بعده..

٣- إقطاع إيغار: وهو عبارة عن ضيعة ممتازة يحميها الملك من العمال بحيث تُعامل بصورة إستثنائية ويُفرض عليها سنوياً مقدار معلوم يؤدى الى خزينة الدولة.

٤- الإقطاع العسكري: كان الإقطاع من حيث التمليك يختلف بعضه عن بعض، فمن الإقطاعات ما كان وراثياً ينتقل الى ورثة الإقطاعي بعد مماته، ومنها ما كان لمدى الحياة تسترجعه الحكومة بعد وفاته، ومنها ما كان وقتياً ومرهوناً بإخلاص صاحب الإقطاع للحكومة وبقائه في منصبه(٧).

لقد نشأ الإقطاع في كُردستان في العهود السابقة، ولهذا فإن بعض الأراضي السلطانية والأميرية التي كانت من نوع (إقطاع الإلجاء)(٨) أمست في حوزة الدولة الدوستكية. فكانت تقطع قسماً منها لمن تشاء ويبقى القسم الاخر تحت سيطرتها المباشرة، وتعطيها للفلاحين كي يستغلوها بطريق (المقاسمة) بالنصف أو بأقل منه في أغلب الأحوال. وقد ورثت الدولة الدوستكية هذه الإقطاعات من الدولة البويهية، علماً أن الكثير من الأراضي الزراعية من الملكيات الخاصة تحولت الى ملكيات إقطاعية في عهد الحمدانيين، الذين إستولوا عليها وأخذوها من الفلاحين بأساليب مختلفة، كقسم من

(٦) نفس المصدر، ص١٨١.

(٧) راجع القاضي أبو يعلي، الأحكام السلطانية، ص٢١٢-٢١٣. مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد ٢٠، مقالة بعنوان نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية للدكتور عبد العزيز الدوري. الدكتور حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص٢١٧. القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص١١٣، وفيه أن لإقطاع الإستغلال حالات ثلاث منها أنه يبقى لورثة الإقطاعي بعد وفاته. علي أمير، مختصر تاريخ العرب، ص٣٧١. جرجي زيدان، التمدن الإسلامي، ج٣، ص١٢٢، مجلة المورد، مجلد٤، عدد١، ١٩٧٥، مقال بعنوان التنظيم العسكري عند البويهيين في العراق. وإيران، بقلم المستشرق س. أي. بوزوورث.

(٨) إقطاع الإلجاء هو أن يسجل الفلاحون أراضيهم بإسم الملك أو أحد الأمراء تخلصاً من ظلم عمال الحكومة، الذين يجمعون الخراج السنوي ويأخذون منهم معظم حاصلاتهم. وبهذا كانوا يصبحون مزارعين بدون أرض، كما سجل أهل زنجان أراضيهم بإسم الوالي القاسم بن الرشيد، فكانوا يدفعون له العشر. وكما سجل سكان مراغة في أذربيجان أراضيهم بإسم مروان بن محمد الأموي. وبسبب ظلم العمال، فإن قسماً كبيراً من الأراضي الزراعية تحولت بهذه الطريقة من أراض زراعية الى ضياع سلطانية خاصة. راجع جرجي زيدان، التمدن الإسلامي، ج٣، ص١٢٢. راجع ما يأتي بهذا الصدد في موضوع الزراعة.

أراضي نصيبين(٩). وإستولت الدولة البويهية على إقطاعات الحمدانيين. ويحتمل أن الإقطاع العسكري(١٠) نشأ في الدولة البويهية وأخذته الدولة الدوستكية عن الدولة البويهية. ومن المحتمل أن الدولة أقطعت بدليس للأمير أبي الفوارس وأرزن للأمير هبة الله على سبيل الإقطاع العسكري.

(٩) راجع ما يأتي بهذا الصدد في موضوع الزراعة.

(١٠) الإقطاع العسكري هو أن يقطع الملك ضياعاً أو مقاطعة كبيرة أحياناً لأحد الأمراء مقابل إرساله مقداراً من المال الى خزينة الدولة سنوياً، ومقابل إعطائه رواتب ونفقات الجنود، الذين يقودهم لنصرة الحكومة عند الضرورة، في تلك المقاطعة. ومن هذا الإقطاع تلك الأراضي التي تعطى للجنود أنفسهم. وكان الإقطاع العسكري موجوداً في الدولة الساسانية قبل الإسلام،.أما في العهد الإسلامي، فتذكر المصادر التاريخية بأن الإقطاع العسكري نشأ في العهد البويهي وإستكمل في العهد السلجوقي في القرن العاشر والحادي عشر للميلاد، حيث كانت الدلة السلجوقية توزع المناطق التي تحتلها على الأمراء وقادة الجيش وتصبح المدن والمناطق إقطاعات لهم يتصرفون بها تصرفاً مطلقاً بالسلب والنهب، كما فعلوا ذلك بالبلاد الدوستكية إثر إحتلالها.

الفصل الرابع

الديانات

الديانة الإسلامية

الديانة المسيحية

الديانة اليهودية

الديانة الزردشتية

كانت هذه الديانات الأربعة موجودة في كُردستان الوسطى في عهد الدولة الدوستكية. وبالنظر لوضوح كيفية إنتشار الديانة الإسلامية، لا حاجة بنا الى البحث عنها، ولكن نبحث عن التشيع فيها. أما الديانة اليهودية، فقد دخلت كُردستان مع المهاجرين من اليهود، الذين رحّلتهم الدولة الآشورية من فلسطين الى كُردستان كما سلف في موضوع الحياة البشرية، فلا حاجة بنا لهذا الى البحث عنها أيضاً. أما الديانتان المسيحية والزردشتية، فأرى البحث عنهما ذا فائدة غير قليلة، علماً أن البحث عن الديانة الزردشتية في كُردستان الوسطى في العهد الدوستكي غير مطروق أيضاً.

التشيع

كان التشيع كمذهب موجوداً في كُردستان الوسطى في عهد الدولة الدوستكية، ولو على نطاق ضيق، لما نجد له أثراً في عهدها. فالأمير (البهتي) أبو عبدالله حسين بن داود البشنوي، الذي وصفه إبن الأثير بشاعر بني مروان (الدوستكيين)، كان شيعياً من فرقة الإمامية (الإثنى عشرية)(١)،

وله أشعار كثيرة في التشيع. ولهذا إعتبره مؤرخو الشيعة أحد أعلامهم وشعرائهم ودونوا له قصائد عديدة في هذا المجال، لاسيما (إبن شهراشوب) المتوفي سنة (٥٨٨هـ = ١١٩٢م)، والقريب من العصر البشنوي. ولا حاجة أن ندرج هنا قصائده بهذا الخصوص، بل يكفي الإستدلال بالبيت التالي، الذي ورد في إحدى المقطوعات الكثيرة الواردة في كتاب المناقب لإبن شهراشوب، ثم نقله عنه آخرون مثل السيد محسن العاملي في (أعيان الشيعة، ج٢٦، ٢٨-٣٣). والبيت هو:

(١) كانت للشيعة فرق كثيرة مختلفة تزيد على الخمسين، ولكنها تتجمع في خمس فرق رئيسية هي: الإمامية والزيدية والإسماعيلية والكيسانية والغالية. وكل فرقة منها تنقسم الى فرق عديدة. فالغالية مثلاً، أي الفرقة التي تغالي في الأئمة وتحكم فيهم بأحكام الألوهية، تنقسم الى (١١) فرقة عند الشهرستاني و(١٥) عند أبي الحسن الأشعري و(٢٤) عند شاه عبدالعزيز الدهلوي صاحب كتاب التحفة الإثنى عشرية. ولم يبق الآن إلا عدد قليل منها، وأكثرها إنتشاراً الآن هي (الإمامية) التي تعتبر المذهب الرئيسي للدولة الإيرانية.

"أتيت ربي بالهدى متمسكاً بإثني عشر بعد النبي مراتباً

وله مقطوعات في (الذريعة الى تصانيف الشيعة، ج١، ص٢٥٤. تأليف آغا بزرگ الطهراني). ومن الطبيعي أن نتوقع من الأمير الشاعر محاولة نشر عقيدته أيضاً، سيما وأنه كان يمتلك إمكانية نشرها بفضل مركزه الإجتماعي المرموق كأمير بارز وشخصية مقربة من الأسرة الدوستكية الحاكمة، وبفضل مكانته العلمية والأدبية وبفضل قصائده الرقيقة المؤثرة وكان شاعراً مفلقاً.

أما العالم الكُردي يحيى بن سلامة الحصكفي خطيب فارقين، فكان هو الآخر يعتقد بمذهب الشيعة الإمامية وله قصائد في التشيع. وقصيدته الدالّية التي توجد في (المنتظم) وفي (البداية والنهاية) وغيرهما، خير دليل على ذلك. فقد نظم تلك القصيدة في مدح أهل البيت ومقتل الحسين وذكر أسماء الأئمة الإثني عشر. وبعد ذكره لأسماء الأئمة الإثني عشر صرّح بإعتقاده بإماميتهم وكونهم حجة الله على خلقه... حيث قال:

فلا يظن رافضي أنني   وافقته أو خارجي مفسد

ولكن مع هذا كان الحصكفي شافعي المذهب. والجدير بالذكر أن مؤرخي الشيعة يعتبرونه أيضاً من مشاهير الشيعة، ولذا نجد له ترجمة في تواريخهم. ومما تجب الإشارة اليه، هو أن الحصكفي قد أدرك العهد الدوستكي، ولكنه كان تلميذاً وظهر نبوغه بعد سقوطها(٢).

(٢) ولد يحيى بن سلامة بن حسين في قرية طانزه (بلدة طنزة)، الواقعة في القسم الشمالي من بوتان، وذلك سنة (٤٦٠هـ = ١٠٦٨م). وسكن مدينة فارقين وتولى الخطابة فيها وأصبح مفتياً. نشأ في بلدة حسنكيف (حصن كيفا)، ولقب الحصكفي نسبة الى مدينة حصن كيفا في إقليم دياربكر. لقد كان الحصكفي من كبار مشاهير عصره لا في الشعر والأدب والخطابة فحسب، بل في الفقه واللغة وعلوم أخرى أيضاً. وقد وصفه عمادالدين الكاتب الاصفهاني بمعرّي عصره وأطنب في وصفه وأبدى إعجابه به، ودون ترجمة له في (خريدة القصر، ج٢، ص٤٧٢، ٥٤٠)، أي في ثمان وستين صفحة، وأورد كثيراً من قصائده ومقتطفات من رسائله. ولم يكن الحصكفي من الطراز الأول في الشعر والأدب فقط، بل كان مبتكراً لكثير من التعابير في هذا المجال أيضاً. وكان له أسلوب خاص في الشعر ومذاهبه كما قال العماد، وإستدل على ذلك بمقطوعته الخمرية، التي شاعت في حياته في العراق واصفهان وبلاد أخرى والتي أولها:

وخليع بت أعزله   ويرى عزلي من العبث

وله مقطوعة شعرية يقول فيها:

أشكو الى الله من نارين واحدة   في وجنتيه وأخرى منه في كبدي

ومن سقمين سقم أحلّ دمي   من الجفون وسقم حلّ في جسدي

أعطاه المؤرخون مكانته اللائقة في التاريخ ووصفوه بما يستحقه. ومن هؤلاء إبن الجوزي الذي أدرك عصره، حيث قال: "هو إمام فاضل في علوم شتى وكان ينسب الى الغلو في التشيع". وللحصكفي من المؤلفات: عمدة الإقتصاد في النحو، والرسائل، وديوان خطب وديوان شعر. وكان يوجد له ديوان شعر مخطوط في جامع الباشا بالموصل. وله أيضاً كتاب المقامات. وذكر إبن الجوزي أنه لما ورد الى بغداد قرأ شيئاً من مقاماته على أبي زكريا التبريزي، المتوفى سنة ٥٠٢هـ، فكتب التبريزي على كتابه: "قرأ عليّ ما يدخل الأذن بلا إذن" أي إعجاباً منه بمقاماته. ويقال أنه قرأ الأدب على التبريزي تلميذ المعرّي. وذكر الاصفهاني له مقامة طويلة أولها "كنت لفرط الهيام في بعض الأيام صدري ضيق وفؤادي شيّق". أنشأ على لسان "القصار والصياد" وكتبها الى بعض القضاة كرسالة الى الحضرة القاضية والشمائل الرضية، ولعلها هي مقاماته التي ذكرها إبن الجوزي أو جزء منها. هذا وإشتغل الخطيب يحيى =

ونقف بعد العهد الدوستكي بفترة قصيرة على إنتشار المذهب الإسماعيلي الشيعي(٣) في دياربكر، ونرى كثرة معتنقيه. فقد ذكر المؤرخون أن في سنة (٥١٨هـ = ١١٢٥م) حدثت مذبحة في مدينة دياربكر، كانت نتيجتها قتل سبعمائة رجل من الإسماعيلية(٤). وفي الوقت الذي قال عدد من المؤرخين إن الذين قاموا بالمذبحة هم سكان دياربكر(٥)، أي إن القتال حدث بين السنة والشيعة الإسماعيلية، قال الذهبي أن الجيش هو الذي قام بالمذبحة في مدينة دياربكر والمناطق التابعة لها(٦).

وفي نفس السنة مات حسن بن الصباح صاحب قلعة (آلموت) في إيران، ومؤسس الفرقة الإسماعيلية النزارية، وكان هذا ينظم الدعوة الإسماعيلية في إيران وسورية ودياربكر(٧)، أي إنه كان ينظم الدعوة في كُردستان أيضاً. إن الحادثة المذكورة التي وقعت بعد الدولة الدوستكية بأربعين سنة بالضبط تدل على مدى إنتشار الشيعة الإسماعيلية في دياربكر. وأن هذا الإنتشار لم يحدث بين عشية وضحاها. والأكثر توقعاً أن بدايته تعود الى العهد الدوستكي إن لم تكن قبله، لاسيما إذا علمنا أن الدولة الفاطمية في مصر والشام كانت دولة إسماعيلية وعملت على توسيع مذهبها في البلدان الواقعة شرقي الأبيض المتوسط. وكانت لها علاقات صداقة مع الدولة الدوستكية، إلا في فترة أشرنا إليها سابقاً. ولا أرى أن الدولة الدوستكية كانت تكافح مذهبها وإعتناق بعض أفراد شعبها إياه، في حين أنه دخل معظم مدن المنطقة سراً أو علناً. ومن المحتمل أيضاً بأن التشيع قد دخل كُردستان في عهد الدولة الحمدانية الذي سبق العهد الدوستكي، حيث إن الحمدانيين وعلى رأسهم سيف الدولة كانوا يميلون الى التشيع. لذا سمحوا بإنتشاره في البلاد التي تحت حكمهم "ودخل الشيعة حلب قبل عهد الحمدانيين وإنتشر وقوي في عهدهم"(٨).

ومن غير المعقول أن نقول أن الشيعة لم تدخل كُردستان، في حين إنها دخلت الأراضي المتاخمة لها جنوباً وغرباً. فقد "إرتفع شأن الشيعة بالحمدانيين في الموصل وحلب، وكان أهل حلب سنّةً حنفيّه، ولما

=بن سلامة بالتدريس في فارقين أيضاً، فدرس وتخرج عليه كثير من العلماء. ومن تلامذته المشاهير الأعلام سلامة بن قيصر السنجاري، وعسكر بن أسامة النصيبي، وخضر بن ثروان. وتوفي في فارقين سنة (٥٥٣هـ = ١١٥٩م) عند معظم المؤرخين. وكان له إبن فاضل وهو الخطيب (مجد الدين أبو عمران موسى)، ذكره أسامة بن منقذ في (كتاب العصا) وإجتمع به في ضاحية فارقين، وقال أنه توفي في سنة (٥٦١هـ = ١١٦٧م). وكان أخوه أبو محمد حسن بن سلامة أيضاً عالماً. أما والده أبو نصر سلامة، فيظهر من قصيدة يحيى التي أرسلها الى أخيه يعزيه عن أبيه، أنه من كبار العلماء. وهذه القصيدة وقصائد أخرى في (المنتظم) لإبن الجوزي، ج٩، ص١٩٣-١٨٨. وله ترجمة في العديد من المصادر التاريخية، كمشاهير الكُرد وكردستان، ج٢، ص٢٢١ لمحمد أمين زكي وغيره.

(٣) الإسماعيلية فرقة من فرق الشيعة تقول بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق، ومن هنا إفترقت عن الإثنى عشرية. وإشتهر الإسماعيلية بالباطنية أيضاً، لأنهم يقولون أن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً، كما عرفت بالقرامطة والمزدكية. ويوجد الآن معتنقو هذا المذهب في سورية ولبنان وإيران وباكستان وغيرها.

(٥) إبن الجوزي، المنتظم، ج٩،ص٢٤٩. إبن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣١٧. إبن خلدون، العبر، ج٥، ص٢٢٦.

(٦) الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص٣١.

(٧) مصطفى غالب، تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ص١٦٩.

(٨) محمد جواد مغنيه، الشيعة والتشيع، ص٢٢٠.

جاء سيف الدولة صار فيها شيعة وشافعية"(٩). فكما إن حلب والموصل كانتا عاصمتين للحمدانيين، كذلك أصبحت مدينة فارقين عاصمة سيف الدولة، بعد إحتلال البيزنطيين لعاصمته (حلب) ولم يرجع الى حلب، بل ظل في فارقين الى أن مات فيها.

إن الدولة الدوستكية وإن كانت سنية المذهب، إلا أنها لم تكن متعصبة له ولم تكن ضد الشيعة، فأحد وزرائها كان شيعياً، وهو الوزير أبو القاسم حسين بن علي المغربي. وكانت الدولة الكُردية ديمقراطية تجاه الأديان والمذاهب الأخرى. أما مذهب (علي إلهي) الذي كان يعتنقه قسم كبير من الكُرد، وخصوصاً كُرد زازا من كُردستان تركيا من ولاية دياربكر وولاية تونجلي (ديرسم) وألعزيز وغيرها، فراجع ما كتبناه في موضوع الحياة البشرية.

الديانة المسيحية

إن تاريخ إنتشار الديانة المسيحية في كُردستان يعود الى القرن الأول للميلاد، فقد وصلت الى كُردستان في عهد المسيح. والذي قام بالتبشير بها ونشرها هو مار أدي "تداوس" تلميذ المسيح، وذلك حينما أرسله الى مدينة الرها (أورفا) حوالي سنة (٢٩م)، وكانت عاصمة الملك أبجر الخامس، الذي كانت حكومته آنذاك جزءً من الإمبراطورية الفرثية(١).

ولما شفي الملك أبجر المريض على يد أدي، إعتنق الديانة المسيحية مع عدد كبير من سكان عاصمته. واصل مار أدي رحلته شرقاً، فبشّر بالدين الجديد في نصيبين وآشور وحدياب(٢)، التي مركزها مدينة أربيل. وكان لأدي عدة تلاميذ منهم ماري وأكاي. وجاء في تاريخ أربيل لمشيحا زخا (القرن السادس الميلادي)، أن أدي بشّر بالإنجيل في حدياب(٣). وأول من تنصّر، أي آمن

(٩) نفس المصدر، ص١٨٦.

(١) الرها هي مدينة أورفا الحالية، وهي إحدى المدن الكُردية الواقعة في كُردستان تركيا. بلغ نفوسها (٧٣) ألف نسمة حسب الإحصائية التركية لسنة ١٩٦٥. وهي مدينة تاريخية قديمة كان إسمها باليونانية (أدسا - أوديسا) وبالسريانية (أورهاي) وبالأرمنية (أورهي). فإسم أورفا منحدر من الإسم السرياني، وكانت عاصمة لمكلة صغيرة عُرفت ببلاد (أوسرهوين). وقد أسست دولة (أوسرهوين) الصغيرة قبل (١٣٣) سنة قبل الميلاد ودامت (٣٥٢) عاماً وهناك خلاف حول بدايتها ونهايتها وأول ملوكها هو (أورهاي برحويا) وقيل (اريو). وكانت مملكة أوسرهوين تقع في منطقة الحدود، والنزاع بين الفرس والرومان. فكانت تخضع للجانب المنتصر منهما حسب الظروف. وكان لملوكها إرتباط مصاهرة قوية منذ أواخر القرن الأول للميلاد بدولة (أديابين) التي كانت تحكم آنذاك مدينة نصيبين حتى منطقة كركوك وكانت عاصمتها أربيل. وكان اليونان يسمونهم طورباخ أو فولارخ. أما سكان أورفا قبل إعتناقهم المسيحية، كانوا يعبدون الكواكب مثل سكان حران كما كان على نقود دولة أوسرهوين قبل المسيحية رسم القمر والكواكب الثلاثة رمزاً لعقيدتهم. راجع دائرة المعاف الإسلامية، ج١٠، ص٢٦٦ وإيشو مالك خليل، الآشوريون في التاريخ، ص٧١. أدرجنا صورة المدينة وصورة مقام إبراهيم الخليل في الجزء الأول، ص٢٠٤، ٢٠٨.

(٢) أفرام برصوم، المورد العذب في موجز تاريخ الكنيسة، ص٢٩، ٩٣. إيشو مالك، الآشوريون في التاريخ، ٦٩، ٧٠. راجع أيضاً بطرس نصري الكلداني، ذخيرة الأذهان في تواريخ المشارقة والمغاربة السريان، ج١، ص٣٦.

بالمسيحية، في أربيل على يد أدي كان يهودياً إسمه (بقيدا)، الذي أصبح مطراناً عليها بعد أن تنصر أناس من سكانها ومن سكان جبال أربيل(٤).

وسافر أدي وبرفقته تلميذه ماري الى بيت كرماي (منطقة كركوك)(٥) ونشر المسيحية هناك. ولما توفي أدي تداوس خلفه تلميذه أكاى، الذي قتل بأمر من إبن الملك أبجر، الذي تولى الحكم بعد وفاة والده وكان متعصباً للوثنية. وكان (أكاي) أول من تولى أسقفية الرها. أما ماري فقد أصبح أكبر مبشر بالمسيحية في كُردستان بعد وفاة أستاذه، ومما بشر فيها أرزون (أرزن - غرزان)، حيث كانت مركز إقليم دياربكر ونصيبين آنذاك(٦). وجعل ماري أخيراً مركز تبشيره في ساليق، أي عند المدائن في (سلمان پاك) في العراق. وكان له عدة تلاميذ من بينهم (توماس) و(فيليپوس)، وقد فوّض الى الأول مهمة التبشير في داسان(٧)، أي جبال داسن في منطقة بهدينان، وعلى رواية في زوّزان وكوار

(٣) حدياب إسم أطلق على المنطقة الواقعة بين الزاب الكبير والزاب الصغير وبين نهر دجلة وحدود أذربيجان الجنوبية، أي على منطقة أربيل. وسماها العرب (حزة). وحسبما ورد في دائرة المعارف الإسلامية، ج١، ص٥٧١، أن لفظ حدياب متدرج من إسم أديابين التاريخي القديم. وعند بعض المؤرخين القدامى، كالمؤرخ البيزنطي أميانوس، تشمل أديابين أيضاً منطقة الموصل. حيث أطلقها على بلاد آشور وإسم حدياب عنده مشتق من إسم نهر حدياس. راجع مجلة سومر مجلد ٢٦ ج١ ص١٤٣: مقال للدكتور سامي سعيد الأحمدي بعنوان: العراق في كتابات اليونان والرومان. وسعيد نفيسي: تاريخ تمدن إيران ساساني، ص٣٧ باللغة الفارسية. وطه باقر وفؤاد سفر: المرشد الى مواطن الآثار، الرحلة الخامسة، ص٤.

(٤) ميشحا زخا: أحوال كنيسة أربيل، مخطوط سرياني قديم نشره بطرس عزيز مطران زاخو في مجلة النجم، راجع عدد ٩-١٩٢٩ وص ٨ من نسخة إبن المترجم التي أهداها بطرس عزيز للباحث الكبير المرحوم گورگيس عواد وعندي نسخة مصورة عليها.

(٥) بيت كرماي: وباكرما إسم سرياني للمنطقة الواقعة بين الزاب الصغير ونهر ديالى، وبين جبل أوروخ (سلسلة جبل حمرين - جبل بارما) وجبل لارب وشنعار، وقاعدتها كرخ سلوك (كركوك). وورد الإسم أيضاً بصيغة باجرمي وباجرمق وهي تعريب باكرما. ويعتقد أن باجرمي مشتق من لفظ كرمكان، الذي كان يطلق على المنطقة نفسها في لغة فارس الوسطى. وهذه الصيغة مشتقة من إسم كرمو (گەرمۆ)، وهم قوم رحّل ورد ذكرهم في النقوش المسمارية وفي كتاب بطليموس، كما في دائرة المعارف الإسلامية، ج٢، ص٢٥٩. أما جبل لارب فهو (سلسلة جبال بازيان) وأما شنعار فسلسلة جبال (سەگرمە) الحد الجنوبي لمنطقة قەرەداغ. هذا وإذا صح أن الفرس كانوا يطلقون في العصور المسيحية إسم كرمكان - كەرمكان- على منطقة كركوك، فإن هذا الإسم مازال حياً في كُردستان، إذ يطلق الكُرد إسم گەرميان على نفس المنطقة، والحقيقة أنه جاء من إسم القوم (گەرمۆ) وليس من الكلمة الكُردية (گەرم) بمعنى الحار، نقيض (كوێستان - زۆزان) الذي يطلق على المناطق المعتدلة صيفاً والتي ترتادها القبائل الرحّل على ما يتوهمه الكثيرون. راجع بصدد بيت كرماي إيشو مالك خليل، الآشوريون في التاريخ، ص٩٧ وروفائيل بابو إسحاق، تاريخ نصارى العراق، ص١١ وكتابنا، المنهج التاريخي لكتابة تاريخ المدن، مخطوط. هذا وفي المصادر المسيحية أسماء أماكن تاريخية في منطقة باكرما: مثل (شهر قرد - شهر كرد)، (حر بغلال) في ناحية لارب شرق كركوك أو (دراباد) و(لاشوم) قرب داقوق، و(تحل) جنوب غرب كركوك، و(ماحوزأريون- ماحوز أرنون) وهي بوازيج على ضفة الزاب. وبيت نيكاتور في شمال كركوك في خانيجار، و(بوزان) ومحلها مجهول.

(٦) في المورد العذب في موجز تاريخ الكنيسة، ص٩٣ لأفرام برصوم: أن أدي أدخل المسيحية في إقليم دياربكر وحتى حدود الجزيرة أي (بازبدا).

(گەڤەر)(٨)، بينما فوّض الأخير مهمة التبشير في قردو أي (بۆتان) وأرمينيا(٩). وهكذا بدأت الديانة المسيحية تنتشر في كُردستان منذ القرن الأول للميلاد. ونشأت في كُردستان ثلاث مراكز مهمة لنشر الديانة المسيحية، ليس فيها فحسب بل في البلدان الأخرى أيضاً كبلاد فارس، وهي: الرها ونصيبين وأربيل. ولمدينة الرها (أورفا) مكانة مرموقة في التاريخ المسيحي، لما أسلفنا ولأن اللهجة الآرامية السريانية الشرقية، التي أصبحت اللغة الدينية للمسيحيين في كُردستان العراق وإيران والبلدان الشرقية الأخرى، قد إنطلقت من أديسا (الرها). كما إن الكتاب المقدس (الإنجيل) قد كُتب ونُقل بالسريانية السائدة في أديسا أيضاً(١٠). وكان لمدرسة أديسا فضل كبير في هذا المجال، إذ كان يؤمها الطلاب من أقطار شتى. وكان أكثر أساقفة الفرس من خريجيها. وقد تم في تلك المدرسة ترجمة كتب يونانية الى اللغة السريانية(١١)، وأدخلت على منهجها السرياني في القرن الخامس الميلادي تعليم اللغة اليونانية والفلسفة وسميت أثينا سورية(١٢).

(٧) داسان كما تحددها المصادر الإسلامية هي جبال داسن الواقعة شمال شيخان وأطلق على اليزيديين إسم الداسنيين كما سيأتي ذلك. ولا بد من الإشارة الى أن بعض المؤرخين أطلقو إسم جبال داسن على كافة الجبال الواقعة بين شيخان والعمادية. أما المصادر الكنسية فتطلق (دسان - داسان) العليا على الجبال الهكارية الواقعة جنوب (گەڤەر)، وبضمنها منطقة تياري كما في (مجلة الشرق، مجلد ١٢، ص٥٠٠)، فكانت داسان العليا وداسان السفلى. وداسان السفلى هي منطقة بهدينان وهذا التحديد أو التقسيم الكنسي يقابله في المصادر الإسلامية القديمة هكاري العليا - كلها تقريباً - وهكاري السفلى أو الجنوبية، أي منطقة بهدينان الحالية حتى القرن الثاني عشر. أما أصل كلمة (داسان) فمن (ديويسنا، ديوبەسنا) أي عبادة الديو (دئو) أي أهريمن. وكان عند الآريين قبل زمن زردشت ديانتان رئيسيتان هما (مزديسنا) أو(مەزديەسنا) بالإملاء الكُردي، أي عبادة الإله العاقل وإله الخير والنور. وكانت عبادته منتشرة بين الحضر سكان المدن وبين الفلاحين. بينما كانت عبادة (ديو - أهريمن - الشيطان) أي إله الشر والظلام منتشرة بين القبائل المحاربة المتأخرة. ولما كانت ديانة القبائل الكُردية في بهدينان بصورة عامة في وقت ما، أي قبل المسيحية، (ديويسنا) أي يزيديون، فقد سميت المنطقة بإسم (ديويسنا، دسان وداسان) كما سنذكر ذلك في موضوع الديانة الزردشتية. نشأ إسم داسن لتلك الجبال بعد العهد الآشوري وبعد إنتشار (ديويسنا) بين سكانها، أو بعد نزوح قبائل كوردية متدينة بهذه الديانة إليها. لأن إسمها كان جبال مسوري (مسري) على ما جاء في كتابة لسرجون الثاني (٧٢١ - ٧٠٥ ق.م) بخصوص بنائه لمدينة خرساباد (دور شاروكين) ونص الكتابة في ص٢٢-٢٣ من (بلاد آشور) لأندريه بارو، ترجمة الدكتور عيسى سلمان وسليم طه التكريتي، طبع بغداد ١٩٨٠. وما زال إسم (مسوري - مزوري) يطلق على قبيلة كوردية كبيرة هناك.

(٨) الأب ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، ج١، ص١٩.

(٩) إيشو مالك، الآشوريون في التاريخ، ص٧٠. المقصور بـ(كردۆ) هو على ما في المصادر الكنسية (قردۆ - قردا)، وهي منطقة سلوپي والجودي وبوتان، وليست كُردستان كلها.

(١٠) نفس المصدر، ص٦٠.

(١١)دي لاسي أوليري، علوم اليونان وسبل إنتقالها الى العرب، ص٦٥، أفرام برصوم، المورد العذب، ص٣٢٩.

(١٢) أنشأ مدرسة الرها اللاهوتية مار أفرام مدرس مدرسة نصيبين، الذي فر منها بعد إحتلال الفرس لها سنة (٣٣٦م). ونشأ منها كثير من العلماء وإشتهر فيها أساتذة، مثل هيبا وإسمه في اليونانية إيباس، الذي ترجم كتاب (إيساغوجي فور فورسيون) الى السريانية، وكان المدخل الى المنطق، كما ترجم كتاب العبارة لأرسطو، وذلك في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي. بخصوص مار أفرام ومدرسة الرها، راجع (مهرجان أفرام وحنين) من مطبوعات مجمع اللغة السريانية ببغداد ١٩٧٤، والكتاب يحتوي على مجموعة من البحوث التي كتبها مجموعة من الباحثين الشرقيين والمستشرقين بمناسبة مهرجان أفرام حنين، الذي أقامه المجمع المذكور في السنة المذكورة. راجع أيضاً البطريرك يعقوب الثالث، الحقائق الجلية، ص١١.

أما نسيبين (نصيبين)، فقد أصبحت منذ أوائل القرن الرابع مركزاً للكرسي الأسقفي. وتوسع نفوذها بمرور الزمن، حتى صارت المركز الديني الأعلى في كُردستان الوسطى، من سنجار الى مكس وخلاط، أي حتى السواحل الشمالية لبحيرة وان. فقد أصبحت كرسياً ميتروپولياً ومركز أبرشية تدعى (أبرشية بيت عرباي) وكان يتبعها عشرون كرسياً أسقفياً(١٣).

وكانت نصيبين تضم مدرسةً ذات شأن خطير أنشأها الأسقف يعقوب، الذي خلف الأسقف الأول يهوذا بن باثيرا. وقد أنشأ يعقوب المدرسة على نمط مدرسة الإسكندرية، لتكون مركزاً لنشر اللاهوت اليوناني بين المسيحيين. وتوسعت حتى أصبحت في القرن الخامس أكبر مدرسة نسطورية عملت على نشر المذهب النسطوري في كُردستان العراق وإيران وغيرهما من بلدان الشرق. وبلغ عدد طلاب تلك المدرسة أحياناً ما لايقل عن ثمانمائة طالب من أقطار عديدة. وكانت تضم أيضاً مستشفى (بيمارستان) في القرن السادس الميلادي(١٤).

ويظهر أن نصيبين ظلت كرسياً ميتروپولياً للنساطرة حتى عهد الدولة الدوستكية. فقد كان المطران يقيم فيها في عهدها. ولكن لانعلم هل كانت كافة المراكز المسيحية النسطورية في البلاد الدوستكية تابعة لها أم لا؟ وكان مطرانها في عهد نصرالدولة (إيليا بن عيسى)، الذي كان يتمتع بإحترام فائق في الدولة الدوستكية، ولاسيما وإنه كان أخاً للطبيب زاهد العلماء أبي سعيد منصور بن عيسى رئيس أطباء الدولة الدوستكية ومدير مستشفى فارقين، وكان عالماً كبيراً ومؤرخاً أيضاً.

إن البحث عن الديانة المسيحية في كُردستان في العهد الدوستكي يجرنا الى مناقشة مسألة هامة، وهي إن قسماً غير قليل من الكُرد إعتنق الديانة المسيحية ومن ثم إنتشار تلك الديانة في كافة مناطق كُردستان. إذ تذكر المصادر المسيحية القديمة بأن الديانة المسيحية إنتشرت في ماداي وبلاد فارس منذ القرنين الأول والثاني الميلاديين(١٥)، وإن (بقيدا) قضى خمس سنوات في جبال كُردستان، في جبال أربيل، يدعو الناس الى المسيحية(١٦).

ولاشك بأن سكان تلك الجبال لم يكونوا سوى من الكُرد، وإن أغلب المسيحيين في أربيل، كما قال الدكتور منكانا، كانوا منتمين الى أصل فارسي (بل الى أصل كُردي) وليس الآرامي. وكان بينهم كذلك أناس ينتمون الى أبوين مسيحيين كانا في الأصل ينتميان الى الزردشتية(١٧).

وفي عام ١٩٠٩ عندما زار كونراد لويسر (دير عمر) في طورعبدين وصف المسيحيين هناك بـ(المسيحيين الكُرد)، وذلك في (ص ٥٠ و ٥٣) من كتابه (المباني الأثرية في شمال بلاد الرافدين).

والخلاصة أنه كان في كُردستان الوسطى في عهد الدولة الدوستكية قسم غير قليل من المسيحيين

(١٣) راجع دي لاسي، علوم اليونان وسبل إنتقالها الى العرب، ص٦٣. وإيشو مالك، الآشوريون في التاريخ، ص٧٥. راجع أيضاً أفرام برصوم، تاريخ طورعبدين، ص٢٠١.

(١٤) التاريخ السعردي، ص٥٣٠، لمؤلف مجهول، نشره أدي شير.

(١٥) أدي شير، تاريخ كلدو وآشور، ج٢، ص٢. يُقصد بماداي (ميديا) هنا القسم الجبلي الغربي من إيران الذي هو جزء من كُردستان.

(١٦) نفس المصدر.

(١٧) إيشو مالك، الآشوريون في التاريخ، ص١٠٤.



كـنيسـة هَزَخ

من قوميات مختلفة كالكُرد والأرمن والسريان واليونان. وكان هؤلاء حتى القرن العشرين منتشرين في كل منطقة منها. ولا يزال في ولاية ماردين في منطقة طورعبدين وفي (دەشتا هەسنان) في قضاء (هەزەخ) الواقع في غرب الجزيرة، قسم كبير من المسيحيين وهم في غاية من الشجاعة والإقدام، وقد واجهوا ببطولة فائقة الكثير من محاولات الإبادة ولاسيما سكان مدينة (هەزەخ).

أماكن دينية (مسيحية)

كانت توجد في البلاد الدوستكية الكثير من الأديرة والكنائس، نشير الى بعضها ونبدأ بكنيسة آمد، التي كانت كنيسة كبيرة تقع بالقرب من الجامع الكبير. دخل الكنيسة الرحالة الفارسي ناصر خسرو في عهد الأمير نصرالدولة، فوجدها كنيسة غنية بالزخارف فُرشت أرضيتها بالرخام المنقوش، ورأى فيها باباً من الحديد المشبك أعجب به كل الإعجاب، وذكر أنه لم ير مثله في أي مكان آخر(١٨). وكانت في فارقين البيعة الملكية التي وجد فيها المؤرخ الكُردستاني أحمد بن يوسف (بن الأزرق) الفارقي مخطوطة سريانية بإسم (التشعيث) ألفت في تاريخ بناء مدينة فارقين، فإستفاد منها في تاريخه(١٩).

وقد دُفن في هذه البيعة الطبيب زاهد العلماء رئيس مستشفى فارقين وكبير أطباء الدولة الدوستكية وأخوه المطران إيليا برشنايا النسطوري. ولم أجد لها أثراً سنة ١٩٧٧. وكانت تقع شمال

(١٨) ناصر خسرو، سفرنامه، ص٤١.

(١٩) الفارقي مقدمة الدكتور بدوي عبداللطيف، ص١٥ نقلاً عن القسم غير المطبوع من تاريخ الفارقي.

الجامع الكبير. وفي فارقين كنيسة واحدة سالمة تقع في جنوب غرب الجامع الكبير، ولكن لم يبق فيها الآن مسيحيون.

دير أحويشا

كان من الأديرة الكبيرة في كُردستان، وكان قريباً من مدينة سعرد(٢٠). شيّده مار يعقوب، الذي عاش في القرن الخامس الميلادي. وكان من الأديرة الموجودة في العهد الدوستكي (دير مار أوجين)(٢١) ودير الزعفران(٢٢)، ودير قرتمين الذي كان من أشهر الأديرة في كُردستان، والذي تخرج منه كثير من الفضلاء المسيحيين. وكان هذا الدير في العهد الدوستكي يشتمل على مكتبة زاخرة بالمخطوطات. وهو من أديرة اليعاقبة في قرية قرتمين الشهيرة الواقعة شرق (مديات) في طورعبدين(٢٣). أما دير زقنين القريب من دياربكر، فكان ذا مكانة بارزة في العهد الدوستكي أيضاً،

(٢٠) بصدد دير أحويشا، راجع التفاصيل في الشابشتي: الديارات، ص١٢٦، ١٤٢. وإبن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج١، ص٣١٠. وياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٤٩٧. عزيز بطرس، الرعاة الكلدان، ج١، ص١٤ مخطوط. وكتابنا التاريخي لكتابة تاريخ المدن، مخطوط.

(٢١) يقع هذا الدير في جبال طورێ (طورعبدين) الواقعة في سفح جبل أزلا (چیایێ هەلز/ يسميه الكُرد بهذا الإسم لما ينبت فيه من نبات هەلز) على بعد حوالي خمس ساعات مشياً الى الشرق من نصيبين. وقد أُنشيء في القرن الرابع الميلادي ويحمل إسم مار أوجين القبطي، الذي قدم من مصر مع أخته وبعض الرهبان الى كُردستان، الذي نشر نظام الرهبنة فيها وفي البلاد الشرقية الفارسية. ويضم هذا الدير ضريحه وضريح أخته. وقد مرّ الدير بأدوار تجديدية، حيث رممه في أواخر القرن السابع أو أوائل القرن الثامن ناسك بإسم إبراهيم إبن المعريين، وخلفه في رياسته روزبيهان الذي أصبح أسقفاً لنصيبين والمتوفى سنة ٧٢٦م. وجدد عمارته أيضاً في صيف ١٢٧١م من قبل عبديشوع الثالث الجصلوني مطران نصيبين. ثم جدده السريان اليعاقبة وكان قبل ذلك منذ القرن السادس في يد النساطرة. وكانت تُدرّس في هذا الدير الفلسفة واللاهوت والمنطق والجغرافيا والهندسة، حيث كان فيها مدرسة إعتنق نساطرتها الكثلكة في القرن السابع عشر. راجع بحثاً للأستاذ گورگيس عواد في ذيل، ص٢٣٨ من الديارات للشابشتي. والشماس عزيز بطرس، كتاب الرعاة الكلدان، ج٤، ص٣ مخطوط. وفي اللؤلؤ المنثور، ص٥٠٨، لأفرام برصوم، أنه شُيّد في أواخر القرن الرابع أو أوائل القرن الخامس الميلادي. وسبق أن ذكرنا حسب رواية أنه دفن في (دير كمون) تحت الجودي، وفي عصر أوجين هناك شك حول نشره الرهبنة للمرة الأولى في كُردستان. راجع تاريخ الكنيسة الشرقية، ص١٧٥، ١٨٢ من الجزء الأول للأب ألبير أبونا.

(٢٢) يقع دير الزعفران على أنقاض دير وقلعة قديمين وهو مسوّر بسور حصين. الدير مشهور بجمال موقعه حتى قيل فيه أنه أحد متنزهات الدنيا. ولهذا ألف الشعراء: الخالدي والببغاء ومصعب الكاتب في وصفه مقطوعات شعرية. وعظم شأن هذا الدير منذ أن أصبح كرسياً للبطريرك اليعقوبي سنة ١٢٩٣م. فأصبح المركز المسيحي الأول لليعاقبة (أتباع المذهب اليعقوبي). ولأهميته أهدته الحكومة البريطانية سنة (١٣٠٤هـ = ١٨٨٧م) مطبعة يمكن أن نعتبرها أقدم مطبعة في كُردستان. وفي كُردستان دير آخر بهذا الإسم وهو دير الزعفران (الزعفرانية) الواقع في السفوح الجنوبية لجبل بيخير بمنطقة زاخو. وقد زرته وصورت آثاره في ١٩٩٩/٩/٢٢. كانت الزعفرانية معسكراً بيزنطياً مهماً، وقد كتبت مقالاً عنه ولكن لم أنشره بعد. هذا وقد ألف في تاريخ دير الزعفران أفرام برصوم كتاباً بعنوان (نزهة الأذهان في تاريخ دير الزعفران)، وقد طبع بمطبعة الدير نفسه سنة ١٩١٧. وألف أيضاً الراهب أيوب الآمدي (الدياربكري) كتاباً بإسم (تاريخ دير الزعفران) وكان المؤلف حياً سنة ١٧١٧م. وفي ١٩٠٧ زاره كونراد وكتب له وصفاً قيّماً في كتابه (المباني الأثرية في شمال بلاد الرافدين، ص٦٩، ٧٣).

(٢٣) كان دير قرتمين الذي كان يضم في وقت ما (٨٠٠) من النساك، يعود الى تاريخ قديم، ثم أعاد بناءه الملك البيزنطي أنسطاس على طراز جميل. فأرسل سنة (٥١٢ م) المهندسين (تيودا) و(تيودوس) والنحاتين والمعماريين المهرة لبنائه. وأرسل معهم الكثير من الذهب كما أرسل معهم صاغة للذهب والفضة والنحاس والحدادين والرسامين=



دير عمر

وكانت مدرسته مهمة. تم تشييد الدير في سنة (١٠١٨م) في عهد نصرالدولة من قبل المار شمعون، الذي أصبح أسقف الرها للكنيسة الأرثوذوكسة في نصيبين من أموال دير قرتمين[٢٤]. وكان دير عمر (عَمر - عەمر) المشيد في القرن الرابع الميلادي والواقع شرق مدينة مديات في طورعبدين بمسافة حوالي (١٨) كلم، من الأديرة الشهيرة أيضاً[٢٥]. وفي عهد الدولة الدوستكية إنتقلت الكنيسة اليعقوبية (السريانية الغربية)[٢٦] من أنطاكية الى مدينة آمد (دياربكر). ونقلها البطريرك

=ومشاطي الرخام والخبراء في عمل الفسيفساء. فشيد هؤلاء ديراً وزينوه بالزخارف والرسوم الحيوانية والآدمية منها وجوه الأسد والثور والنسر ورسوم آدمية. وفرشت أرض المذبح بالرخام الأسود والأبيض والأحمر والأخضر والأرجواني والأزرق. وصنعت فيه شجرتان من نحاس وبولغ في وصفهما. وظل هذا الدير سالماً الى أن أتلف التتر روائعه. وكان قد تعرض الدير الى النهب من قبل السلاجقة سابقاً. وفي سنة (١١٠٠ م) اي بعد العهد الدوستكي بأربع عشرة سنة (راجع التفاصيل في أفرام برصوم، تاريخ طور عبدين، ص٢١٩٣، ٢٧٥. واللؤلؤ المنثور، ص٢٢، ٢٧١. نقلاً عن التاريخ الكنسي لإبن العبري، أن الدير شيد في السنة الأولى من حكم الأمبراطور أركاديوس.

(٢٤) أفرام برصوم، تاريخ طورعبدين، ص٢٦٧.

(٢٥) ألف حنا دو لاپونو مطران ماردين المتوفي سنة ١٩٦٩ كتاباً خاصاً بتاريخ هذا الدير بعنوان (تاريخ دير عمر) ترجمه الى التركية مار جبرائيل، وطبع طبعة ثانية بإستنبول سنة ١٩٧١. وأشكر صديقي الخوري (إبراهيم القصاب) من مديات على تزويدي بنسخة منه. كما زودني بمعلومات قيمة عن النقاشين والبنائين المهرة لمديات. لقد ألف بسيليوس چاتليك شمعون من رهبان دير عمر كتاباً في الفولكلور الكُردي بعنوان (لاڤژ)، وذلك في النصف الأول من القرن الثامن عشر. ولعله أول كتاب من نوعه. وقد قُتل الراهب بسيليوس من قبل المجرم عبدال آغا سنة (١٧٤٠م)، ودفن في كنيسة (باسبرينا). راجع ترجمة حياته في (تاريخ دير عمر، ص١١٣-١١٤).

(٢٦) اليعقوبية منسوبة الى المذهب اليعقوبي القائل بأن للمسيح طبيعة واحدة جمعت بين اللاهوت والناسوت إمتزج فيه عنصر الإله وعنصر الإنسان. وكانت كنيسة القسطنطينية الرومية تعتقد أن للمسيح أقنوماً واحداً وطبيعتين، أي إن المسيح هو إبن الله وله طبيعة ألوهية مساوية لله وطبيعة إنسانية مساوية للإنسان، وأن مريم هي أم الله. ومؤسس المذهب اليعقوبي هو ديسقورس بطريرك الإسكندرية في القرن الخامس الميلادي، ولكن يعقوب البرادعي هو الذي وطد أركانه في القرن السادس، ولذا ينسب إليه. وقد إنتشر المذهب المذكور في كُردستان وأرمينية وسوريا ومصر.

ديونيسيوس بسبب إنشقاق في الكنيسة، أو بسبب إضطهاد الإمبراطور البيزنطي لليعاقبة وإصداره أمراً بالقبض على البطريرك. وهكذا أصبحت مدينة دياربكر مقراً لكرسي البطريرك اليعقوبي.

مجمع الجزيرة

بعد وفاة البطريرك ديونيسيوس سنة (١٠٤٢م) أو بسنتين بعدها، حدث خلاف بين اليعاقبة الغربيين والشرقيين. وذلك لأن اليعاقبة الغربيين عينوا مكان البطريرك المذكور يوحنا تاودوروس دون أن يأخذوا موافقة بسليوس مفريان (رتبة دينية تلي البطريركية) المشرق والأساقفة الشرقيين. فإستاء من ذلك الشرقيون وإجتمعوا في مدينة الجزيرة ليحدثوا إنشقاقاً. ولكن البطريرك لما سمع بذلك جمع الأساقفة الغربيين وتوجه الى الجزيرة للتفاهم. فعقد الجميع في الجزيرة مجمعاً عاماً وتصالح الطرفان وكتبوا قرارات مجمعية بضمنها وجوب إستشارة البطريرك بالمفريان، وإعطاء الشرقيين مناطق نصيبين وقلت ودارا. وكتبوا ثلاث سجلات مجمعية حفظت نسخها في الجزيرة ودير قرتمين وتكريت.

وبعد وفاة البطريرك في مقره بدياربكر سنة (١٠٥٧م)، عين أثناسيوس (حيا) خلفاً له، ولكن الأساقفة الشرقيين وبعض من الأساقفة الغربيين لم يرضوا بتعيينه. فجاء المفريان الى مدينة دياربكر وعيّن مع الأساقفة (يوحنا بن شوشان) (إيشوعيب) بطريركاً، لذلك حدث إنشقاق في الكنيسة. وفي ملاطية ألقي القبض على أثناسيوس بأمر من الإمبراطور البيزنطي، وتوفي في الطريق الى القسطنطينية. فعاد إبن شوشان الى كرسي البطريركية وكان قد إنعزل الى حران. وفي سنة (١٠٧٤م) أصبح بسليوس بطريركاً خلفاً لإبن شوشان، وتوفي بعد سنة ودفن في كنيسة اليعاقبة في فارقين. ثم عين ديونيسيوس الخامس بطريركاً وتوفي سنة ١٠٧٨م(٢٧).

لقد تمتع المسيحيون في هذه الدولة بسبب سياستها الديمقراطية تجاههم بحرية تامة لم يتمتعوا بمثلها في العهود اللاحقة قاطبة. لقد نشط المسيحيون ودخلوا في وظائف الدولة المختلفة حتى الوزارة، حيث أصبح أبو سالم وزيراً للأمير منصور، وأصبح إبن شلّيطا مديراً للأوقاف في عهد الأمير بن أبي علي وممهد الدولة، كما أصبح أبو الحكيم الحديثي عارض الجيش وهي وظيفة عسكرية مهمة.

لقد خدم المسيحيون الدولة الدوستكية خدمات جليلة وبإخلاص، ومثال ذلك إخلاص الوزير أبي سالم، الذي صمد وكانت في يده القيادة في وجه القوات السلجوقية سنتين. أما خدماتهم في حقل الطب، فكانت كبيرة. فالأطباء المسيحيون كانوا يسيطرون على الطب في كُردستان كما سيأتي ذلك بالتفصيل في موضوع الطب.

لاشك أن المسيحيين ينالون حرية عظيمة في عهد أمير عادل كعهد الأمير نصرالدولة، الذي إمتد

(٢٧) راجع تاريخ الرهاوي المجهول، ص١١٨. أفرام برصوم، اللؤلؤ المنثور، ص٣٦٧. بطرس نصري، الذخيرة، ج١، ص٤٧١-٤٧٧. أ. س. ترتون، أهل الذمة في الإسلام، ص٨٨. طه الهاشمي، مفصل جغرافية العراق، ص١٠٥. راجع أيضاً ترجمة حياة إبن شوشان في موضوع الحياة الثقافية.

لإثنتين وخمسين سنة. وعلى قول الفارقي لم يأخذ هذا الأمير درهماً واحداً من أبناء شعبه سواء المسلمين منهم أم المسيحيين(٢٨). وقد وصف المؤرخون المذكور بأن سيرته في رعيته وشعبه كانت أحسن سيرة(٢٩).

وقد زالت حرية وسعادة المسيحيين بعد سقوط الدولة الدوستكية وأثناء الحكم السلجوقي، حتى هدم إبن جهير البيعة المدورة القريبة من باب الربض في فارقين، على ما قاله الفارقي في (ص٢١٤). كما أن أبا علي البلخي الذي تولى بعد إبن جهير إقليم دياربكر من قبل الدولة السلجوقية حول (دير عباد) المشرف على فارقين الى مسجد سمّاه بمسجد الفتح. وقال حينما سمع ذات صباح صوت ناقوس آت من هذا الدير: "يضرب في بلاد المسلمين على رؤوسهم الناقوس، فإذن نحن بالقسطنطينية"(٣٠)، فحوّله الى مسجد. ودفع له المسيحيون خمسين ألف دينار كي يعدل عن قراره فرفض. وكانت لهذا الدير أوقاف حوّلها الى أوقاف للمسجد. كما أوقف عليه أراضي قرية (باروما) أو ياروما. وكان هذا المسجد باقياً الى عهد الفارقي. وقد ذكر الفارقي أيضاً أن فخرالدولة إبن جهير بعد إحتلال فارقين، حوّل (دير عباد) الى مسجد، ولكن المسيحيين من أهل ميافارقين دفعوا له "ثلاثين ألف دينار أرمانوسية فأعاده ديراً"، أي عدل عن قراره بعد أخذ المبلغ.

ويظهر من كلام الفارقي بأن حرية المسيحيين الدينية قد أزيلت أثناء الإحتلال السلجوقي لكُردستان الوسطى حتى منعوا من ضرب الناقوس، خاصة في عهد الوالي أبي علي البلخي. وكان السلاجقة يضطهدون المسيحيين ويسومونهم سوء العذاب. فعندما أغار السلطان طغرل سنة (٤٤٩هـ = ١٠٥٧م) على البلاد الجنوبية للدولة الدوستكية وحاصر مدينة الجزيرة، سار جماعة من جيشه "الى دير (عمر أكمن) وفيه أربعمائة راهب، فذبحوا منهم مائة وعشرين وإفتدى الباقون أنفسهم بستة مكاكيك ذهباً وفضة"(٣١). وسبق أن ذكرنا أن هذا الدير هو (دێرا كەمونێ) أي دير كمون، وإكتشفه المرحوم الملا خلف البافەيی فقيد التراث الكُردي.

الزردشتية

كان زردشت إبن (پورو شسپ) وأمه (دغدو - دغدودا) بنت فراهيم من الميديين، ولم يحدد عصره تماماً. فبينما تحدده الروايات التاريخية بصورة عامة بالقرن السابع قبل الميلاد، يرى بعض الباحثين أنه عاش في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد. وأما ما قيل من أنه كان قبل ستة أو سبعة آلاف سنة

(٢٨) الفارقي، ص١٦٨. وراجع أيضاً إبن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٥٧. وقد إستثنى الفارقي من ذلك مصادرته للتاجر إبن جرى كما نستثني مصادرته لإبن بغل.

(٢٩) إبن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٦. إبن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٣، ص٢٩. أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ١٨٩. إبن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٨٧.

(٣٠) الفارقي، ص٢٢٢. ومخطوطة الأعلاق الخطيرة، ورقة ٧١ نسخة مصورة في مكتبتي.

(٣١) إبن الأثير الكامل، ج٩، ص٢١١ (حوادث السنة المذكورة) ظن بعض المؤرخين أن الحادثة وقعت في دير أحويشا والصحيح ما قاله إبن الأثير.

فغير صحيح مطلقاً. وأما المنطقة التي ولد فيها، فهناك روايات تاريخية إسلامية تفيد بأنه ولد في (أورميه)(١) من كُردستان التابعة لإيران. ويرى بعض الباحثين أنه ولد في منطقة تقع شرق إيران وحدود خوارزم، وذلك إستناداً الى ما جاء في آبستا، من أنه ولد في (إيريەن ويج) Airyan - Vaeja، حيث حدد (إيريەن ويج) بتلك المنطقة(٢).

أما المؤلف الكُردي محمد أمين هورامي، فقد شرح بالتفصيل معنى (إيريەن ڤاچ) وخلاصته أنه بمعنى اللغة الآرية أو المتكلمين بالآرية، وأن لفظ ڤاچ أصبح في الكُردية (ڤاژ، واژ، بێژ و ماچۆ) بمعنى القول والتكلم. وإن الكتب الكُردية المدونة بلهجة گوران مثل (سرنجام) وهي كتب دينية لـ(مذهب أهل الحق) تُعرف بكونها أُلفت بلهجة (ماچۆ) الكُردية. كما إن الكُرد يطلقون إسم (ماچۆ) على الكُرد الهوراميين بسبب تكلمهم بلهجة ماچۆ (گۆران). وحدد لـ(إيريەن ويج) بالمناطق الكُردية الواقعة في غرب أو شمال غرب إيران، والتي هاجر إليها الميديون. والتفاصيل في كتابه (فەرهەنگی ئیریەن ڤاچ) أي قاموس إيرين ويج.

بعد أن أضطهد زردشت في موطنه بسبب إعلانه الدين الجديد، هاجر الى إقليم (باختر) أي خراسان. ولجأ الى ملكها ويشتاسپ، فآمن بدينه هو ووزيره جاماسپ. وتزوج الأخير بـ(پوروچيستا) إبنة زردشت. وإنتشر دينه هناك وقتل في حرب دينية.

لقد كانت للآريين قبل ظهور زردشت ديانتين رئيسيتين الأولى (مَزديَسنا)، أي عبادة الإله العاقل العارف، وهو إله الخير والنور. وكانت هذه الديانة منتشرة بين الحضر والفلاحين. والثانية ديانة (ديويَسنا) أي عبادة الديو إله الشر وهو (أهريمن – إبليس)، وكانت القبائل المحاربة غير المستقرة وغير المتحضرة تعتنق هذه الديانة. فجاء زردشت نبياً لدين (مزديسنا) وأبطل عبادة الآلهة الآرية الكثيرة غير عبادة الإله الواحد (مزدا – أهورا مزدا). فكان موحِّداً وحرّم ذبح الحيوان للقربان الديني وحرّم حرق جثث الموتى. وكانت الآبستا مكونة من مليوني بيت من الشعر في غاية البلاغة، ولكن وقع فيها تحريف للمرة الأولى في العهد الأشكاني ومرتين في العهد الساساني. حيث أُدخلت فيها الآلهة الآرية القديمة وحوادث تاريخية وقسم غير قليل من التاريخ الخرافي. هذا وساندت الدولة الميدية الديانة الزردشتية وعملت على نشرها وحاربت ديانة (ديويسنا). لقد إنتشرت الزردشتية في البلاد

(١) في دائرة المعارف الإسلامية نقلاً عن البلاذري وإبن خرداذبه: أنه ولد في أورميه. وفي الملل والنحل، ص٢١٦-٢١٧ قال الشهرستاني أن والد زردشت من أذربيجان وأمه من الري (التي تمثلها حالياً طهران). وأضاف بأن المجوس يقولون إن الله جعل روح زردشت في شجرة في أعلى عليين غرسها في قمة جبل (باسمو يذخر) في أذربيجان. وذكر أنه جاء الى مدينة دينور (الكُردية). أما الباحثون فيقولون بأن مكان ولادته غير معلوم أكان في ميديا الشرقية التي تقع فيها مدينة (رغه – ري) أو ما وراءها من خراسان (باختر) أو خوارزم؟ ويقول بعضهم أن نسبته الى (أورميه) نشأت من كثرة الإهتمام بالزردشتية فيها في العهد الأخير. راجع هاشم رضا، آوستا، ص٥٠-٥٢. وكريستنسن، إيران في عهد الساسانيين، ص١٩-٢٠. وقد تحدث لي عدد من الكُرد الذين زاروا في السنوات الماضية الزردشتيين في (يزد)، أنهم يقولون بأن زردشت كان من أورميه وأن نبينا كان كوردياً.

(٢) راجع هاشم رضا، آوستا، ص٢٣.

الميدية أي كُردستان، وكان الشعب الكُردي بصورة عامة زردشتياً، بينما بقيت قلة منهم تدين بالوثنية وديويسنا حتى بعد ظهور الإسلام. أما إعتناق قسم كبير من الكُرد للديانة المسيحية، فقد أوضحناه. وفي عهد الدولة الدوستكية، كان بعض الكُرد لايزالون على الديانة الزردشتية في هذا الجزء من البلاد الكُردية. ولم يزل يحتفظ بهذه الديانة بعد عدة قرون من ظهور الإسلام.

ويُستدل على وجود الديانة الزردشتية في الدولة الدوستكية بكلام الرحالة الفارسي المشهور ناصر خسرو، الذي وجد الزردشتيين (البرسيين) أثناء مروره بالبلاد الدوستكية، وإطلع على سعر العنب الذي كانوا يبيعونه في مدينة (أرزن - غرزان) في الخريف. وقد شاهدهم ناصر خسرو في هذه المدينة الواقعة في قلب البلاد الكُردية، والتي وصل إليها في الثامن والعشرين من تشرين الثاني سنة (١٠٤٦م)(٣).

فقد ذكر وهو قادم من بدليس: "ثم سرنا الى مدينة أرزن وهي مدينة عامرة جميلة فيها أنهار جارية وبساتين وأشجار وأسواق جميلة ويبيع البرسيون هناك مائتي مَنٍ عنباً بدينار واحد في شهري نوڤمبر وديسمبر ويسمون هذا العنب رز أرمانوس"(٤).

إن لفظ "البرسيون" نص على إن قسماً من سكان أرزن أو أطرافها كانوا زردشتيين، لأن لفظ البرسي أو البرسيين كان يطلق على أتباع الديانة الزردشتية. وهذا الإسم ما زال حياً في إيران والهند. ولكي يطمئن القاريء الى صحة ذلك أحيله الى تعليق المترجم الدكتور يحيى الخشاب حيث قال: "البرسيون هم الفرس الذين حافظوا على دين زردشت ولم يسلموا بعد الفتح الإسلامي"(٥).

كما أحيله الى كتاب (فجر الإسلام) حيث ورد فيه البرسيون أكثر من مرة إسماً للزردشتيين. فمثلاً قال المؤلف بصدد الديانة الزردشتية: ويقول البرسيون أن الآڤستا كانت في عهد الدولة الساسانية مؤلفة من إحدى وعشرين سورة(٦).

وتكرر ذكر الكلمة أيضاً في كتاب (الڤنديداد)، ففيه أن الفرس الزردشتيين في الهند يقال لهم البارسيون (البارسي)(٧).

(٣) قطع ناصر خسرو المسافة بين فارقين وخلاط في ستة أيام. فقد خرج من خلاط في عشرين من جمادى الأولى سنة ٤٣٨هـ المصادف ٢٤ تشرين الثاني، ووصل فارقين في ٢٦ جمادى الأولى أي في ٣٠ تشرين الثاني. فكان في أرزن في ٢٩ تشرين الثاني، فوصوله اليها في اليوم الذي سبقه على أغلب الإحتمالات ومغادرته في ٢٩ منه. ومن الجدير بالذكر أنه وردت هنا في سفرنامه الترجمة العربية أخطاء في أرقام تاريخية. ففيه قيل أنه دخل فارقين في ٢٦ جمادى الأولى سنة ٣٣٨ أي ٢٣ تشرين الثاني ١٠٣٦م والصحيح هكذا: ٤٣٨هـ = ٣٠ تشرين الثاني ١٠٤٦م، ولم أفطن الى هذه الأخطاء سابقاً، إذ أدرجتها في الجزء الأول في موضوع تحديد سنة مقتل ممهد الدولة، فأعود لأنبّه القاريء الى هذا.

(٤) ناصر خسرو، سفرنامه، ص٤٠.

(٥) نفس المصدر والصفحة.

(٦) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص١٢٤ وتكرر نفس اللفظ في ص١٤٠.

(٧) كتاب الڤنديداد، ص٣ و١٣، ترجمة الدكتور داود الچلبي من الفرنسية.

وفيه أيضاً يقال لهم الفرسيون وكذلك قال أحمد أمين(٨).

فلفظ برسي أو بارسي أو فـرسي يطلق في وقتنا هذا على الزردشتي، سـواء كـان من القـومـيـة الفارسـيـة أو من قومـيـة أخرى. هذا مع العلم بأن قـومـيـات مـتـعددة قد إعـتنقت الديانة الزردشـتـيـة. فتحديد الدكتور يحيى الخشاب لفظ "البرسيون" الوارد في كلام ناصر خسرو المذكور، بالفرس الذين حافظوا على دين زردشت، هو في غـيـر محله. فهناك برسيون فرس وبرسيـون هنود وبرسيون كُرد... فالزردشتيون الذين شاهدهم ناصر خسرو في غرزان كانوا دون شك كُرداً ولم يكونوا فرساً.

ورغم خضوع الكُرد للفتح الإسلامي سلماً أو حرباً، لم ينتـشـر الإسلام بينهم دفـعـة واحدة، وإنما بالتـدريج. فظل قـسم منهم على الديانـة المسـيـحـيـة حتى الآن، بينـمـا بـقـي قـسم آخـر على الديانة الزردشـتـيـة حتى العـهـد الدوسـتكي في البلاد التي كـانت تحت سـيطرتهـا، ويُحـتمل بـقاؤها في جـبـال هورامان الواقعة في شرقي سهل شهرزور الى القرن الثاني عشر الميلادي(٩).

(٨) أحمد أمين، فجر الإسلام، ص١٢٨.

(٩) نشر الأستاذ الملا عبدالكريم المدرس في كتابه (بنه مالَّهى زانياران، ص٣٥٨ - ٣٧٩) شجرة لسادات قرية (سرگت - سەرگەت): أسرة ملا جلال الخرمالي في شهرزور، وهي فارسية وعربية تشتمل على معلومات من تاريخ الأسرة. والنسخة التي نشرها كانت بخط المرحوم الملا محمود بن عبدالرحمن السرگتي كتبها عندما أراد بيع نسخة من القرآن الكريم كان مكتوباً في أواخرها. وقد باعها لمكتبة المؤسسة العامة للآثار في بغداد بتاريخ (١٩٧٥/٨/٢٥) وهي تحت رقم (١٦٤٢٥) في المكتبة المذكورة حسبما كُتب في نهاية نسخة الشجرة. وقال أن جده محمد بن مصطفى بن الملا جلال كتبها في المصحف سنة (١٢٩٠هـ = ١٨٧٣ - ١٨٧٤م). وما في الشجرة عبارة عن معلومات كتبها جد الأسرة إبراهيم بن عباس الحسيني سنة (٥٤٥هـ = ١١٥٠-١١٥١م) على مصحف بخطه ثم نقلها واحد من أحفاده سنة (٧٧٠هـ). أما القسم الآخر من المعلومات التي في الشجرة، فقد كتبها محمد السرگتي من المعلومات التي وجدها بخط أجداد له ومن معلوماته الشخصية.

جاء في القسم المنسوب الى إبراهيم الحسيني: أنه قدم من قرية (خدر آباد) من منطقة شهربان الى شهرزور ومنها سافر الى قرية آورمان (أي بلدة هورامان مركز منطقة هورامان الجبلية الواقعة في شرق سهل شهرزور) لتحصيل العلم عند مدرّسها السيد مصطفى العريض. وكان رئيس هورامان (شاليار سياه) المجوسي. وقال إن الديانة الإسلامية تتعزز فيما لو أسلم المذكور. (ما زال إسم پير شالياري رەش) حياً حتى اليوم وقد أسلم فيما بعد. وكلامه هذا دليل على قوة الزردشتية آنذاك في منطقة هورامان الوعرة. وفي هذا القسم والقسم الآخر معلومات تاريخية. ومن حيث أن الشجرة تحتاج الى دراسة دقيقة تثبت صحة ما نُسب الى الحسيني كله أو بعضه. طلبت من صديقي المحب للعلم والشغوف بالإطلاع على المخطوطات والمصادر المرحوم جمال مفتي (جمال بن محمد بن الملا عزيز المفتي) الذي توفي في (١٩٩٦/١١/١٠) في السليمانية، طلبت منه أن يصور لي ما هو مكتوب على تلك النسخة من المصحف. فصوّر لي الصفحة الأولى فقط، التي كُتب عليها ما هو خاص بالحسيني. وعندما قابلته بالنسخة التي هي بخط المرحوم الملا محمود من الشجرة، والتي تكرر فيها هذا القسم أيضاً. إتضح لي أنه كُتب حديثاً ومنقول (مع إختصارات) مما في الشجرة وليس قديماً. وذلك إستناداً الى الخط وإملاء بعض الأسماء مثل (خدرآباد) و(سرگرد) و(گورانية) بالگاف (G) الكُردية وتعبيرات عربية حديثة. وفي الشجرة أخطاء وتناقضات شتى، مثل المدة (٢٢٥) سنة بين وفاة الحسيني سنة (٥٤٥هـ) وسنة إستنساخ المذكرات سنة (٧٧٠هـ) من منصور صادق بن بلال أو منصور بن صادق (الإبن) بن صادق (الأب) بن بلال بن إبراهيم الحسيني. فهي طويلة جداً بالنسبة لثلاثة أو أربعة أجيال وهو ما يثير الشك. أما ما ورد في الشجرة من أن نسخة المصحف هذه بخط الحسيني فغير صحيح بالنظر الى رسم خطها.

وقد نشر الأستاذ الملا عبدالكريم الشجرة بكل هذه الأخطاء دون أن يشير إليها مع حذف عبارات منها. وكذلك نشرها محمود أحمد محمد في مجلة (كاروان، العدد ٢٦، أيلول ١٩٨٥)، وأضاف إليها محمود أخطاء كثيرة. ففيما نشره أكثر من أربعين خطأً. وأخيراً لا يمكن دراسة ونقد مذكرات الحسيني والشجرة بصورة كاملة إلا بعد الحصول على نسخة مصورة مما هو مكتوب في آخر المصحف.

في الطبعة الأولى قلت أن أولئك الزردشتيين الذين شاهدهم ناصر خسرو هم الإيزيديون، أي بعد إسلامهم على يد الشيخ عدي بن مسافر ثم إنحرافهم عن الإسلام، وذلك لأن العديد من الذين ألفوا أو كتبوا عن العقيدة الإيزيدية إعتقدوا أن الكُرد الإيزديين كانوا زردشتيين ثم أسلموا على الشيخ عدي بن مسافر(١٠)، ومن هؤلاء صديق الدملوجي مؤلف أضخم وأهم كتاب عن الإيزيديين وعبدالرزاق الحسني. بينما إعتقد أستاذي سعيد الديوه چي الذي ألف في الموضوع أيضاً، أنهم كانوا مسلمين من أنصار الأمويين إنحرفوا عن الإسلام. وهناك آراء أخرى(١١).

أما أنا فكنت أعتقد حتى السبعينات بأنهم كانوا زردشتية ثم تغير رأيي في السنوات الأخيرة، أي بعد إهتمامي بالزردشتية وإكتشافي لعشرات المعابد الخاصة بها. ولهذا فإني أرى الآن أنهم كانوا (ديو يسنيين).

(١٠) ولد عدي بن مسافر في قرية بيت فار من منطقة (شوف الأكراد) من سهل البقاع. أي أنه كان من منطقة يقطنها الكُرد. وهناك رواية أيزيدية تدعي أنه لما جاء الى المنطقة كان يتكلم مع الناس بالكُردية. فلم يكن الكُرد لذلك غريبين عن الشيخ عدي الذي توجه الى جبال هكاري (أي بهدينان) وإختار البقاء بين الكُرد وإستقر هذا المتصوف في قرية (لالش) وإلتف حوله آلاف الكُرد وإنتشرت الطريقة العدوية الصوفية االمنسوبة إليه في كُردستان. ومع هذا فهناك رواية أخرى تقول بأن الشيخ عدي كان كوردي الأصل، وإني لا أستبعد ذلك لكونه نشأ في (شوف الأكراد)، أي بين الكُرد هناك . وقد نُقل عن إبن المستوفي قوله، نقلاً عن لسان الشيخ حسن بن عدي (الثاني) بن أبي البركات، (أن عم جده) الشيخ عدياً "ولد في بلاد الشام في موضع يعرف بشوف الأكراد بالشين المعجمة والفاء من ضيعة تسمى بيت فار"، راجع ج١، ص١١٦ من تاريخ إربل لإبن المستوفي، وفي ج٢، ١٧٠ قال ناشره الباحث سامي السيد خماس الصقار، أن بيت فار من أعمال بعلبك نقلاً عن إبن خلكان. ونقل أيضاً عن إبن كثير أنها تقع في البقاع غربي دمشق. علماً أن بعلبك تقع في لبنان. وقال الحسني في (اليزيديون، ص٢١) وأنها تسمى الآن (أنافار) وهي خربة تقع بين مشغرة وقتب الباس في البقاع الغربي وبها قبر الشيخ مسافر. أما وفاة الشيخ عدي، فالأرجح أنه توفي في سنة (٥٥٧هـ= ١١٦١-١١٦٢م)، وقد روي ذلك عن أبي البركات في سنة (٥٥٥هـ)، التي قالها الشيخ أحمد لإبن المستوفي، كما رجح أستاذي الديوه چي وآخرون غيره التاريخ الثاني على الأول.

(١١) راجع صديق الدملوجي، اليزيدية، ص١٧٣. وعبدالرزاق الحسني، اليزيديون، ص١٤. والديوه چي، اليزيدية، ص٢٤-٢٥ وغيرهم.

الفصل الخامس

الحالة الإقتصادية

لاشك أن كُردستان الوسطى قد شهدت تقدماً كبيراً في عهد الدولة الدوستكية في الحالة الإقتصادية في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة بشكل نستطيع أن نعبّرعنه بـ(النهضة الإقتصادية) بمقاييس ذلك العصر. والسبب الرئيس لذلك التطور يعود الى ما حققته الدولة للشعب من حياة الأمن والإستقرار والإبتعاد عن الحروب وكوارثها. ويمكن أن نلمس هذه الحقيقة بعد إجراء مقارنة بين وضع كُردستان الوسطى في العهد الدوستكي ووضعها في العهد الحمداني السابق. ففي العهد الأول (الحمداني) تعرضت كُردستان الى الدمار جراء الغارات والهجمات البيزنطية المتتالية، بسبب العداء المستحكم بين الحمدانيين والبيزنطيين. فقد دُمرت مدن مثل مدينة أرزن ودارا وأحرقت القرى. أما المزارع فكانت تتلف، وفوق ذلك كله كان السكان يتعرضون للقتل والأسر والتشريد، مما كان يؤدي بدوره الى تحطيم وتدمير إقتصاد المنطقة. فقد ذكر إبن حوقل الذي عاش في عهد الحمدانيين وعاصر تلك الأحداث وذلك الدمار، حينما أشار الى هجومين لجيوش الدولة البيزنطية يساندهما الآلاف من فرسان بني حبيب (من بني تغلب)، الذين شردهم ظلم الحمدانيين من منطقة نصيبين الى البلاد البيزنطية تاركين دينهم وأصبحوا مسيحيين، بقوله: "... فشنوا الغارات على بلاد الإسلام وإقتحموا حصن منصور (أديمان) وحصن زياد (العزيز- ئالازاك) وساروا الى كفر توماثا، ودارا في (سهول ماردين) فأتوا عليه بالسبي والقتل... فصار لهم عادة... يخرجون في كل سنة عند أوان الغلات الى ان أتوا على ربض نصيبين... وتعدوا ذلك الى أن وصلوا الى جزيرة إبن عمر فأهلكوا نواحيها وسحقوا رأس العين... وعادوا الى ميافارقين وأرزن فخربوا قراها وعضدوا أشجارها وزروعها الى أن جعلت كالخاوية على عروشها"(١).

ولاشك إن حالة الحرب والدمار التي عاشتها كُردستان مدة حوالي نصف قرن من العهد الحمداني، قد أدت الى تأخر الزراعة والصناعة والتجارة والعمران والحالة الثقافية أيضاً. وبخلاف العهد الحمداني، فقد أنقذ العهد الدوستكي البلاد من الدمار، حيث أقبل عهد السلام والإستقرار. فبعد إنتهاء المرحلة التأسيسية لم تحدث مصادمة مع دولة أو إمارة مجاورة (من بداية سنة ٣٨٣هـ وحتى نهاية ٤١٧هـ) أي خلال (٣٥) سنة. كما لم تحدث مصادمة من (٤٢٧هـ الى ٤٧٦هـ) أي خلال

(١) إبن حوقل، صورة الأرض: موضوع نصيبين، ص١٩٢، لا نعلم بالتأكيد تاريخ الهجومين، فقد تكررت هجمات البيزنطيين على فارقين وأرزن ودمرتا مرات عديدة، كما شمل التدمير مراراً مناطق نصيبين ودارا وبالس وغيرها، منها هجومان في سنة (٣٣١هـ) وهجوم آخر في السنة التالية وفي سنة ٣٣٩ وسنة ٣٣٥ و٣٣٦ و٣٦١ وغيرها ولعله يقصد بهما ما حدث في سنة ٣٣١و٣٣٢. ومن أراد الوقوف على تفاصيل الهجمات البيزنطية على كُردستان بسبب سوء سياسة الحمدانيين، فليراجع المصادر التاريخية وأخبار سيف الدولة في حوادث السنوات المذكورة والسنوات الأخرى من فترة العهد الحمداني، كما أحيل القاريء الى أوائل هذا الجزء، موضوع أسس وطبيعة السياسة الخارجية للدولة الدوستكية.

(٤٩) سنة، وحتى زحف الجيوش السلجوقية على الدولة الدوستكية للقضاء عليها، هذا عدا إعتداء من مسلم بن قريش العقيلي(٢).

وقد كانت هذه حالة نادرة جداً بالنسبة لدول ذلك العصر المليء بالمعارك والحروب الدامية. فالإستقرار الذي لم تشهده أية دولة أو إمارة أخرى بالمنطقة، أدى الى إنصراف الشعب الى الأعمال الزراعية والتجارية والصناعية والعمرانية. وهو ما أدى بدوره الى إزدهار الوضع الإقتصادي ورفع مستوى المعيشة.

لقد عملت الدولة الدوستكية في الواقع على بناء حياة جديدة في ذلك الجزء من كُردستان. وقد أشار الفارقي في تاريخه مراراً الى ما كان يتمتع به الشعب من الرخاء والرفاهية والحياة السعيدة والغنى فقال: "... وإستغنى الناس في أيامه (أي أيام نصرالدولة) وكان أحسن الأيام ودولته أحسن الدول"(٣).

وقال إن حالة فارقين وسكانها لم ترجع بعد سقوط الدولة الى زمانه، أي الى حوالي قرن كامل، الى (١٪) مما كانت عليه في عهد الملك الدوستكي نظام الدين(٤). ومما يؤكد على هذا التقدم، أن كثيراً من الناس والتجار قدموا الى مدينة فارقين وإستوطنوها، مما أدى الى إزدياد عدد سكانها وعمارتها(٥).

وممن أشار الى هذا التقدم الإقتصادي إبن الجوزي، حيث قال في ترجمة حياة نصرالدولة أحمد بن مروان: "... رخصت الأسعار في زمانه وتظاهر الناس بالأموال"(٦)، وهكذا قال إبن الأثير(٧).

لقد كانت أيام الدولة الدوستكية عصراً ذهبياً لذلك الجزء من البلاد الكُردية من كافة النواحي الإقتصادية والإجتماعية والعمرانية، وبزوالها زال ذلك العصر. وقد اعتبر (أبو طلحة النعماني) زوالها عمىً ونكبة نزلا بسكانها، فقال في مقامة له: "قلت فدياربكر، قال بلد فقر وجبل وعر. عمي إنسانها مذ ذهب مروانها"(٨)، أي منذ ذهبت دولة بني مروان الدوستكية. فرخص الأسعار للمواد الغذائية وغير الغذائية وتظاهر الناس بالغنى والثروة، إنما هو تعبير صادق عن إنتقال البلاد من حالة

(٢) وقعت بعض الحوادث خلال الفترة الثانية عبارة عن إستفزازات وتهديدات السلاجقة، التي أشرنا إليها في موضوع العلاقات مع الدولة السلجوقية، والتي لم يكن لها تأثير على الحالة الإقتصادية للبلاد. وحدثت أيضاً إغارة (الغز) السلاجقة ذات التأثير السيء والتي مر ذكرها بالتفصيل في الجزء الأول، ص٢١٣-٢١٥. كانت غارتهم عامة وشملت شهرزور ومنطقة الموصل وأذربيجان وغيرها.

(٣) الفارقي، ص١٦٦.

(٤) نفس المصدر، ص٢٠٤.

(٥) نفس المصدر، ص١٦٦.

(٦) إبن الجوزي، المنتظم، ج٨، ص٢٢٢.

(٧) إبن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٦.

(٨) العماد الاصبهاني، خريدة القصر، قسم العراق ج٢ ص٦. عن مقامة لأبي طلحة بن أحمد الذي كان حياً سنة ٥١٧هـ.

الحرب والبؤس والمجاعة... وعن تحول مناطق فارقين وأرزن وغيرهما من الخراب والدمار الى الإعمار والبناء.

وبسب التقدم الذي شهدته كُردستان الوسطى في كافة المجالات الإقتصادية والسياسية والإجتماعية وفي مجال السلام والإستقرار وغيرها، قال إبن كثير وبدر الدين العيني، أن بلاد نصرالدولة كانت "آمن البلاد وأكثرها عدلاً"(٩).

والأفضل أن نختتم هذه المقدمة بعبارة للطبيب إبن بطلان، الذي عاش في العراق وتجول في الشام ومصر والبلاد البيزنطية وقد وردت العبارة في مقدمة كتابه (دعوة الأطباء) الذي ألفه للأمير الدوستكي نصرالدولة. فقد أشار الطبيب الى ما شهدته البلاد من التقدم الإقتصادي في مجالات التجارة والزراعة والصناعة والعمارة أيضاً. وأشار الى كثرة الأعمال وفقدان البطالة، مما سبب رفع المستوى المعيشي والحالة الصحية، إضافة الى تقدم الطب فيها، فقال على لسان طبيب فارقين مايلي: "اليوم جمهور الحفارين والحمالين قد بعدوا عن هذه الديار وتشتتوا في القرى والأمصار وإشتغل أكثرهم في الروزجار وسوق العجل والفدان ونقل الجبصين من رؤوس الجبال... الناس متشاغلون بتصفيف الأقداح والقناني وإختيار الملاهي والغواني..."(١٠).

إلا أن عهد الإستقرار والعدل والسعادة هذا أفل بزوال الدولة الكُردية. فجثم على البلاد وشعبها السعيد عهد من الإضطرابات والظلم بكلكله في ظل الحكم السلجوقي. ففي خلال عشرين سنة فقط من زوال الدولة الدوستكية في (٤٧٨هـ الى ٥٠٢هـ) حكم البلاد تسعة ولاة من قبل السلاجقة، كان معظمهم قاسياً، حتى هدمت بيوت جماعة من سكان فارقين وتشردت منها جماعة وتفككت ولاية فارقين. ويشير الفارقي في (ص٢٨٤) الى ذلك بقوله: "وكل قليل يليها واحد وينهب ويصادر ويأخذ لأنه يتيقن أنه ليس بمقيم فأخذوا بلدها من دايرها وصادروا أهلها وخربت بيوتهم وإفتقروا". وفي سنة (٤٨٥هـ) أقام الوحش (تُتُش) بن آلب أرسلان مذبحة فظيعة في نصيبين حتى قال الفارقي في (ص٢٣٤) أنه: "قتل من أهلها ما لايحصى ونهب البلد أجمع وسبى الناس وجرى على أهل نصيبين

(٩) إبن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٨٧.

(١٠) إبن بطلان، دعوة الأطباء، المقدمة. (الروزجار) العمل في البناء والروزكاري عمال بناء الدور أي عمال المباني. وقد ذكر المقدسي في (أحسن التقاسيم، ص١٢١) ان (المنصور) عندما بنيت مدينة السلام كانت أجرة الأستاذ (أي البنّاء) وأجرة الروزكاري (أي العامل) الذي كان يشتغل على بناء المدينة - حبتين. وفي ص٣١: أن روزكاري و (فاعل) مترادفان، ومعلوم أن الفاعل هو (العامل) والروزجار هو تعريب العامل. (روزگار) في المنجد الراز والجمع رازة وهو رئيس البنائين. أما (الفدان) فيقصد به الزراعة كما يقصد بالحفارين والحمالين حفاري القبور وحمّالي جثث الموتى، كما يدل عليه سياق كلامه على لسان طبيب فارقين، الذي يشتكي من قلة الوفيات بسبب ارتفاع مستوى المعيشة وتمتع الناس بالصحة في عهد الأمير نصرالدولة. أي أن حفاري القبور ظلوا عاطلين عن العمل فأخذوا يمارسون أعمالاً أخرى كالإشتغال في أعمال البناء والتجارة بالعجول والزراعة وجمع كبريتات الكلس لبيعها لأغراض صناعية.

(جبصين): ويقال أيضاً جبسين وجفصين، وهو الكلس الحجري المصنوع من الكبريتات المائية الطبيعية المتبلورة. أيضاً راجع المهندس إدوارد غالب، الموسوعة في علوم الطبيعة، ج١، ص٢٥٠. يشير ابن بطلان بنقل الجبصين الى توسع أعمال الإنشاء والبناء أيضاً في العهد الدوستكي.

ما لم يجر مثله على الكفار". وفي سنة (٤٨٨هـ) ثار سكان آمد على حكم (تُتُش) الظالم ولكن الثورة أخمدت. ولكن سياسة ملكشاه كانت بخلاف أخيه لينة كسياسة والده آلب أرسلان الى حد ما.

الزراعة

تعتبر كُردستان أقدم البلدان الزراعية، وقد أكد عدد من علماء الآثار أن قرية (جرمو) الواقعة في شرق چمچمال من محافظة كركوك، والتابعة الآن لمحافظة السليمانية، تعد أقدم القرى الزراعية في العالم. فقد عُثر فيها نتيجة التنقيبات الأثرية على آثار زراعية من الحنطة والشعير والعدس والحمص تعود الى تسعة آلاف سنة(١١).

كما تمثل آثار قرية (زەڤیا چەمێ) في قرية شانەدەر في بارزان أقدم قرية ظهرت فيها بوادر الزراعة وتدجين بعض الحيوانات قبل جرمو بثلاثة آلاف سنة. لقد حدث في كُردستان أول إنتقال للإنسان من مرحلة جمع القوت باليد الى الزراعة(١٢)، وهو يعد تطوراً كبيراً للحياة البشرية. لقد شهدت كُردستان الوسطى إنحطاطاً وتأخراً كبيرين في الزراعة في القرن العاشر الميلادي، أي في الفترة التي سبقت تأسيس الدولة الدوستكية. إذ عايش الفلاح الكُردي وضعاً سيئاً وإستغلالاً لم يشهد لهما مثيل من قبل. وبإمكاني القول بأن هذا الجزء من البلاد الكُردية لم يشهد ذلك التأخر الزراعي في القرون الثلاثة الماضية من الفتح الإسلامي للأسباب التالية:

١- الغارات البيزنطية المتتالية على هذا الجزء من كُردستان، ولاسيما مناطق دياربكر وفارقين وغرزان، وماردين. وكانت تلك الغارات تؤدي الى قتل وتشريد الفلاحين والى إتلاف المزارع والبساتين.

٢- سوء سياسة الحمدانيين: إذ كانوا يستغلون الفلاحين إستغلالاً فاحشاً، وفضلاً عن عدم تشجيعهم على الزراعة رفعوا مقدار الخراج الى نصف المحصول الزراعي والى أكثر من أربعة أخماسه في بعض الأحيان. وهو ما أدى الى فقر الفلاح وحرمانه. وكان كل من الأمير الحمداني ناصرالدولة وإبنه أبو تغلب يتفقان مع المزارع في نصيبين على نصف الوارد، ولكنهما كانا يقدران حصة المزارع حسب تقدير مجحف في البيدر، ويدفع عنها مقابل حصته مبلغاً قليلاً من النقود، بحيث كانت حصة الفلاح تنزل الى أقل من خمس المحصول الزراعي كله(١٣).

والى هذا أشار أيضاً الدكتور عبدالعزيز الدوري، حيث قال: "وفي زمن الحمدانيين قاست الجزيرة (أي بلاد الجزيرة) من كثرة الضرائب، فقد جعل ناصرالدولة نسبة المقاسمة النصف. ثم إنه كان في

(١١) طه باقر وفؤاد سفر، المرشد الى مواطن الحضارة، الرحلة الرابعة، ص١٦. بوشر في سنة ١٩٤٨ بالتنقيبات في جرمو من قبل بعثة تابعة لجامعة شيكاگو.

(١٢) نفس المصدر، الرحلة الخامسة، ص٢٠.

(١٣) إبن حوقل، صورة الأرض، حوالي ص١٩٣. والدكتور فيصل السامر، الدولة الحمدانية في الموصل وحلب، ص٣٣٥.

بعض الأحيان يقدر ثمن الغلة ويعطي الزارع ثمن حصته حسب تقديره فتكون النتيجة أن نصيب المزارع يكون أقل من الخمس"(١٤).

وهكذا كان الفلاح يعاني ظلماً كبيراً على أيدي الحمدانيين خلال حكمهم الذي دام في كُردستان حوالي نصف قرن. إذ كانوا يفرضون ضرائب ثقيلة متنوعة، ويغتصبون من الفلاحين أراضيهم، أو يجبرونهم على بيعها بثمن بخس. حتى إن ناصرالدولة إستملك البساتين والأراضي الزراعية في نصيبين كلها إلا قليلاً، فأصبح بذلك من أكبر الإقطاعيين في عصره. وبهذا الصدد قال إبن حوقل النصيبي: "ولم تزل (أي نصيبين) على ما ذكرته منذ أول الإسلام معروفة بكثرة الثمار ورخص الأسعار، تتضمن بمائة ألف دينار الى سنة ثلاثين وثلاثمائة (٣٣٠هـ)، فأكبّ عليها بنو حمدان بصنوف الظلم والعدوان ودقائق الجور والغشم وتجديد كلف لم يعرفوها ورسم نوائب ما عهدوها الى المطالبة ببيع الضياع والمسقف من العقار". وبعد أن ذكر تشرد بني حبيب فراراً من ظلم الحمدانيين الى البلاد البيزنطية، قال إن: "ناصرالدولة (الحسن بن عبدالله بن حمدان) إكتسح الأشجار المثمرة في بساتين نصيبين وزرع مكانها الحبوب. وإشترى من قوم وإغتصب من آخرين... وسلمها الى من بقي من أهلها ولم يمكنهم النهوض عنها وآثروا فطرة الإسلام ومحبة المنشأ وحيث قضوا لبانات الأيام والشباب على مقاسمة النصف من غلاتها الى أي نوع كان على أن يُقدّر الدخل وقيمته عيناً إن شاء أو وَرِقاً، ويعطي الحرّاث ثمن ما وجب له بحق المقاسمة، فيكون دون الخُمسَين ولم يزالوا على ذلك معه ومع ولده الغضنفر (أي أبي تغلب) الى أن لحقا بأسلافهما الدجالين..."(١٥).

أما الزراعة في فترة السيطرة البويهية القصيرة على كُردستان الوسطى (التي دامت من ٣٦٨هـ - ٣٧٢هـ) فقد ظلت على تأخرها وإنحطاطها، حيث لم تبذل الدولة البويهية جهداً في تقدمها وتحسين وضع الفلاح وتخفيف الضرائب وتخفيض نسبة الخراج (ضريبة الأرض) عنه، بل سارت على الطريقة الحمدانية نفسها. فمثلاً كان عامل البويهيين بنصيبين (إبن الراعي) يطبق ما سار عليه ناصرالدولة وأبو تغلب. فكان يدفع للفلاح ثمناً قليلاً عن حصته ولا يسمح له بأخذ شيء من المحصول إلا للبذار فقط، كما أوضح إبن حوقل (الذي عاصر الحمدانيين والبويهيين) ذلك. فقد قال بصدد البحث عن نصيبين، التي تتاخم الآن مدينة (قاميشلي) السورية الحديثة وكلا المدينتين تقعان على ضفة نهر هرماس (جغجغ): "وأهلها وقتنا هذا على أقبح ما كانوا عليه وفيه من تقدير وليهم عليهم كإبن الراعي لا رحمه الله ومن يشبهه يستغرق أكثر الغلة وتقويم ما يبقى من سهم المزارع بثمن يراه وحمل ما وقع بسهمه الى مخازنهم وأهرائهم ويرضخ له منه ما يسمح به لبذره ويقدر أنه ممسك لرمقه وعيشه في قوته"(١٦).

(١٤) الدوري، تاريخ العراق الإقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص١٩٠.

(١٥) إبن حوقل، صورة الأرض، حوالي ص١٩٣. راجع أيضاً الدكتور فيصل السامر، الدولة الحمدانية في حلب والموصل، ج١، ٣٣٥. وقد قتل أبو تغلب سنة ٣٦٩هـ وكانت الدولة البويهية قد أخرجت كُردستان الوسطى والموصل من يده في السنة السابقة.

(١٦) الفارقي، ص١٦٨.

أما زراعة الحنطة والشعير والعدس والحمص وغيرها وزراعة أشجار الفواكه والخضراوات في العهد الدوستكي، فلا بد بأنها شهدت تقدماً كبيراً. وذلك بسب الإستقرار وسياسة البلاد الناجحة في الداخل والخارج، والتي إتسمت بالمرونة تجاه الفلاحين وغيرهم. وإنطلاقاً من هذا فإنها (أي الدولة الدوستكية) لم تكلّف الفلاحين بالخراج الثقيل الذي كان يؤخذ منهم في العهود السابقة، وهذا هو المتوقع، رغم أنه لم يصل إلينا نص حول مقدار الخراج أو ضريبة الأرض الزراعية. كما ونلاحظ التقدم وتحسين وضع الفلاح في مواضيع عديدة من تاريخ الفارقي، وقد أشرنا في بداية هذا الموضوع الى بعضها مثل كون نصرالدولة لم يظلم طوال فترة حكمه البالغة أكثر من خمسين سنة أحداً، ولم يأخذ درهماً واحداً من أبناء شعبه، سوى قيامه بمصادرة أموال التاجر إبن جرى(١٧)، وأخذه أموالاً كثيرة من القاضي أبي علي بن البغل(١٨) على سبيل المصادرة، حيث شك في إخلاصهما للدولة وذلك بوشاية من بعض المنافقين. ونلاحظ ذلك أيضاً مما ذكره الفارقي وغيره مما شاهدته البلاد من رخص الأسعار وتظاهر الناس بالغنى والأموال كما سلف. ونلاحظ ذلك التقدم الزراعي وغيره أيضاً في مباهاة وتفاخر الملك الدوستكي نظام الدين بكثرة فلاحي بلاده وبضياعها ومزارعها العامرة، وكثرة بساتينها وخيراتها من زراعية وغير زراعية، وسروره بعمارة بلاده وتقدمها. وقد أبدى نظام الدين سروره هذا وتفاخره وذكر مزايا بلاده للأمير الكُردي أبي الهيجاء أمير (أربيل)، الذي بعثه السلطان السلجوقي الى نظام الدين لتزويده بمبلغ من المال. فقال نظام الدين لأبي الهيجاء وظن أن لايسلم إليه المبلغ مما يجلب نقمة السلطان عليه: "... ياولدي ما رأيت عمارة بلادي وكثرة خيراتها وبساتينها وكثرة فلاحيها وعمارة ضياعها؟ أتراني كنت أتلف هذا كله من أجل ثلاثين ألف دينار"(١٩). ثم سلم إليه المبلغ المذكور في اليوم الرابع.

ومما يدل على كثرة الإنتاج الزراعي ووفرة الحبوب ما ذكره عدد من المؤرخين من أن نصرالدولة كان يأمر في الشتاء بفتح الأهراء، أي مخازن الحبوب وإلقاء الحبوب للطيور البرية، فتكون في ضيافته طوال الشتاء(٢٠). وذكر الفارقي في (ص٩٥) مخازن الحبوب في مدينة أرزن (غەرزان) بـ(بيوت الغلال).

(١٧) الفارقي، ص١٧٤.

(١٨) إبن حوقل، صورة الأرض، حوالي ص٢١٣. قتل إبن الراعي سنة (٣٧٢هـ) حيث ثار عليه سكان نصيبين وانضموا الى الأمير باد. وقد مر التفصيل في الجزء الأول: موضوع ثورة نصيبين.

(١٩) أسامة بن منقذ، كتاب الإعتبار، ص٨٧-٨٨، تحدث لأسامة بذلك الأمير فضل بن أبي الهيجاء وذكر أن السلطان كان ملشكاه. ولكني أرى أنه والده آلب إرسلان، الذي توجه سنة (٤٦٣هـ = ١٠٧١م) الى بلاد الشام عن طريق دياربكر. أما ملكشاه فلم يحدث له ذلك وذكر الحديث تحت باب (تعقّل صاحب دياربكر)، فقال إن الأمير نظام الدين أبقى أبا الهيجاء عنده أربعة أيام، وفي كل يوم كان نظام الدين يأمر بإدخال أبي الهيجاء حماماً كانت جميع أدواته من الفضة وتهدى إليه في كل يوم أدوات الحمام الفضية مع بدلة ثياب فاخرة كل منها أفضل من أدوات الحمام وثياب اليوم السابق. أما أبو الهيجاء فهو الأمير الكُردي إبن الأمير (موسك) الهذباني أمير أربيل، الذي قاتل سنة (٤٩٩هـ) بجانب الأمير جكرمش (جگەرمژ) أمير جزيرة بۆتان (جزيرة إبن عمر)، جيش السلطان محمد بن ملكشاه حينما زحف على الموصل.

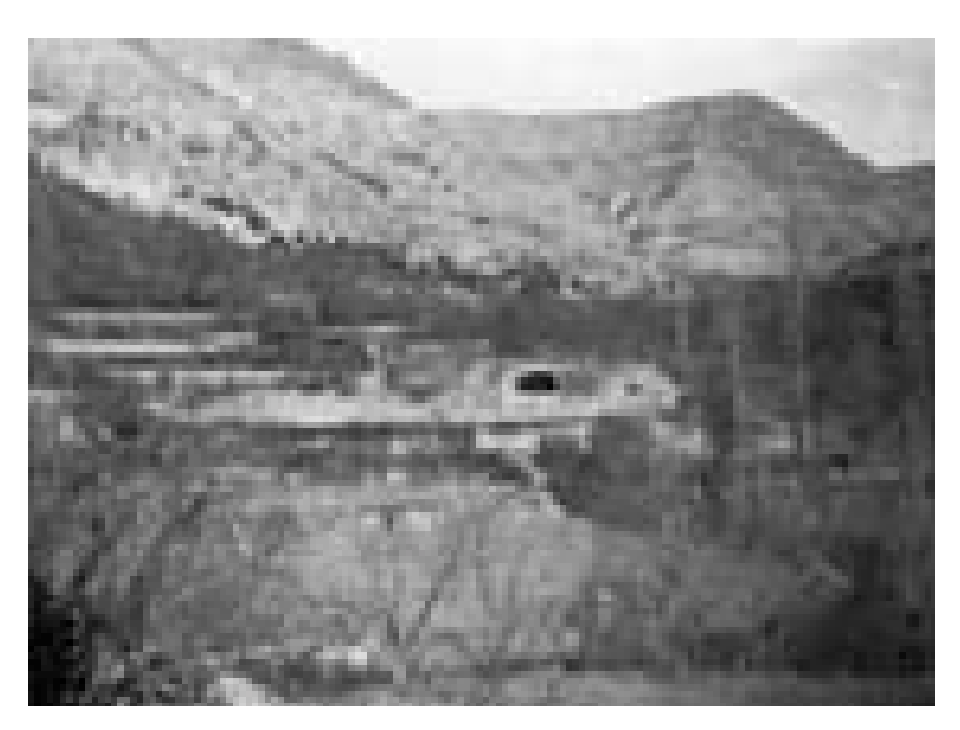
أهم المناطق الزراعية

كانت في البلاد الدوستكية سهول خصبة جداً لزراعة الحنطة والشعير وغيرها من الحبوب، مثل السهول الواقعة في شرق دجلة، وتلك الواقعة بين مدينة دياربكر ومدينة حاني (هێنێ) ولجێ وسهول فارقين وبشيرێ وأرزن الى سعرد، وسهل مشار في شرقي (طنزه) وسهل (قردا) بين دجلة وجبل الجودي (سهل سلوپي)، وسهل (باهدرا) أي سهل سليڤاني الذي يمتد من پيشخابور حتى مدينة دهوك. وفي غرب دجلة سهول فسيحة في ولاية أورفا (الرها) وماردين ورأس العين (سەروكانى)، التي تنبع منها أكثر من (٣٠٠) عين ماء، وسهول نصيبين (نسيبين) وماردين وقسم من سهول قاميشلي السورية، التي كانت ضمن سهول نصيبين والتي كانت تمتد من مدينة نصيبين وحتى الجزيرة بطول (٩٠) كلم، والى جنوب مدينة دێرك (مركز قضاء المالكية) السوري الذي كان يدخل ضمن سهل (بازبدا)، كما كانت مديني الجزيرة و(هەزەخ) ضمن ذلك السهل، والحد الغربي لبازبدا كان جبل إيلم (علم السلطان أو علم الشيطان) في حدود منطقة طورعبدين (طورێ) وحده الشمالي والشرقي نهر دجلة. وهي سهول خصبة جداً بسبب تربتها البركانية. أما سهول خلاط ومنازجرد (مەلازگر) وموش فمعروفة أيضاً بخصوبتها. وتعتمد كافة تلك السهول في زراعة الحبوب على مياه الأمطار، إذ تسقط عليها كميات كافية من الأمطار لمناخها وقربها من الجبال، كما تكثر فيها عيون الماء إضافة الى مجموعة من الأنهار منها: نهر بليخ في أورفا، وخابور رأس العين وهرماس في نصيبين أي نهر (جغجغ) الذي يلتقي بالخابور، وسقلان (سەقلانێ مەما) الذي يتكون من عيون ماء منطقة بازبدا الكثيرة ويصب في دجلة أسفل مدينة الجزيرة.

أما أهم أنهار شرق دجلة فنهر عنبار (أنبر- نهر الحو) شرقي دياربكر بـ(٢١) كم والقادم من مدينة (حاني)، ونهر باطمان (ساتيدما)، ونهر غەرزان (أرزن) وهو نهر (سربط)، ونهر بۆتان (الرزم) ويعرف أيضاً بالفرع الشرقي لنهر دجلة، ثم نهر (رِوسۆر)، ونهر بينات (باعيناثا) في جنوب شرق فندك، ثم نهر فنك، وبورِ (بويار) الذي يصب في دجلة بالقرب من مدينة الجزيرة، ثم نهر نێردۆش (نهر دوشا) الذي يكون الحد الغربي من سهل (سلۆپى) (سهل قردا)، ثم نهر هيزل وخابور زاخو.

ومن المحتمل بأن حراثة الأرض التي شاهدتها أنا بإسم (كوتان) كانت موجودة في العهد الدوستكي في المناطق الواقعة ما وراء بدليس، في سهول موش وخلاط ومەلازگر وأرديش (وان) وغيرها، هي الحراثة بأربعة ثيران أو جواميس أو أكثر وكانت حراثة فعالة. وقد ذكر المقدسي هذا

(٢٠) هؤلاء المؤرخون هم: إبن الأثير، الكامل، ج١٠، ص١٨، حوادث سنة ٤٥٣هـ. وإبن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٨٧. والخزرجي، التبر المسبوك، مخطوطة، ورقة ٢٨. الأهراء: جمع هري وهو بيت كبير تُخزن فيه الحنطة. وهي كلمة لاتينية كما في المنجد مادة (هري). ومن الجدير بالذكر أن الكُرد يحفظون الحنطة والشعير في حفر عمودية بعمق حوالي مترين وبقطر حوالي متر واحد، ثم يغطون فوهة الحفرة بالطين والتبن كيلا يؤثر المطر فيها. وتسمى (چالە گەنم). وفي عام ١٩٧٧ رأيت في منطقة فارقين الزراعية نوعاً اخر لم أجده في أي مكان آخر، حيث كانت الحفرة على شكل خندق بطول حوالي عشرة أمتار أو أكثر يغطى بهيكل جملوني (زنجي) تتم تغطيته بطبقة من الطين.



باعيناثا

النوع من الحراثة في منطقة دبيل من أرمينيا وكانت تحت نفوذ الكُرد آنذاك. وقال بأن الفلاحين كانوا يزرعون ويحرثون بثمانية ثيران وأربعة سواق وذلك في (ص٣٨١، من كتابه أحسن التقاسيم). وكان هذا النوع من الحراثة موجوداً حتى خمسينيات القرن العشرين، وقد شاهدتها شخصياً في بعض تلك المناطق.

هذا وكانت تُزرع في كُردستان في عهد الدولة الدوستكية وقبلها الحنطة والشعير والأرز والسمسم والقطاني (جمع قطنية أي الحبوب ذات الفلقتين) من العدس والحمص والبقول، الى جانب القطن الذي كان يزرع في تلك البلاد.

أما مقدار الإنتاج الزراعي السنوي في البلاد الدوستكية فلم تصل إلينا أرقام إحصائية بشأنه، إذ لم يذكرها المؤرخون حتى الفارقي نفسه. لكن الجغرافي إبن حوقل النصيبي ذكر أرقاماً للإنتاج الزراعي السنوي لعدد من المناطق الكُردية (وهي تعود الى العهد الحمداني والى سنة ٣٥٨هـ = ٩٦٨م بالذات التي زار فيها إبن حوقل الموصل ونصيبين) وتتعلق بمقدار (الحاصل) السنوي أي حصة الدولة حسب نظام المقاسمة بالنصف. فهي إذن لنصف الإنتاج الذي يعلم منه مقدار الإنتاج الكلي لتلك السنة، أي قبل العهد الدوستكي بأربع عشرة سنة، وتلك المناطق هي نصيبين، ورستاق،

و(أبنين)(٢١) الواقعة شمال غرب نصيبين داخل ولاية ماردين والمجاورة لطورعبدين، ومنطقة بازبدى ومنطقة قردى الى حدود باعيناثا(٢٢) الى طنزى(٢٣) وشاتان(٢٤) وباهدرا(٢٥)، أي المنطقة الممتدة من دهوك الى النهاية الشمالية أو الشمالية الغربية من بوتان، أي الى نهر الرزم (نهر بۆتان) الذي يجري في جنوب مدينة سعرد ويلتقي بدجلة عند قرية (تلانيڤ رووا - تل ڤاڤان) وطول المنطقة حوالى

(٢١) يسميها الكُرد حالياً (بنيبين) وهي قرية مسيحية بين مدينة ماردين أي في شرقها وبين محصرتي (مەحسەرتێ) الواقعة بمسافة حوالي عشرين كيلومتراً شرق ماردين بإتجاه طورعبدين. فرستاق (أبنين) تشمل قرى في الجبل والسهل الواقع أمامه وبمحاذاته.

(٢٢) باعيناثا: هي غير باعيناثا الواقعة في غرب دجلة في شمال غرب الموصل، وهذه هي باعيناثا بوتان الواقعة في شمال غرب (فنك)، وفي شرق دجلة بحوالي أربع كيلومترات جنوب شرق (فندك)، وهي تقع عند النهاية الشمالية لواد جميل وتسمى بالكُردية (بينات). ينبع منها عند عەوينا التي بجنبها الأيسر نهر يصب في دجلة مقابل قرية (بافى). وهذه القرية (باعيناثا) كانت في عهد المقدسي مدينة مكونة من خمس وعشرين محلة كما وصفها. ويسمى نهرها حالياً بنهر (زيوى) (ڕوبارا زێوێ) ، وفي واديها غابة كبيرة من أشجار الصنوبر الطبيعية وعلى جانبيه أيضاً، وفيه كذلك الكثير من أشجار الزيتون وبساتين كثيرة لقرى بينات وعەوينا وبۆنسرا وزێوێ. وبالقرب من بينات في الوادي آثار جامع (٥٠ , ١٥×١٢م) ومنارة ومدرسة من القرون الوسطى، مما يدل على صحة قول المقدسي في (ص١٣٩، أحسن التقاسيم). وقد صورت هذه الآثار في التاسع من تموز ١٩٧٧، وكذا كهوف زێوێ (ئۆلێێ شێخان) وهي على شكل أربعة طوابق وإعتبرها (لايارد) مقبرة من العهد الأشكاني في كُردستان (١٢٧ ق.م الى ٢٢٧ ب.م). وتقع قريتي ومسقط رأسي (زڤنگ - زڤنگا حاجی عەلیان) في شمال باعيناثا. وقد سمى بعض الجغرافيين نهرها بـ(نهر باسانفا) وهو خطأ، ولعلهم يقصدون نهير شوي (شەوێ) الذي يجري شرق مدينة قرية (باسا) وبين مصب النهرين أكثر من (٥) كلم. جدير بالذكر أن الطريق يمر في نفق صخري أسفل الكهوف كُتب عليه (هذا ما نقب الحاجي؟ بن محمد).

(٢٣) طنزى - طنزه: هي قرية (طانزه) الحالية الواقعة غرب (سهل مشار) وشرق نقطة إلتقاء نهر الرزم بدجلة. كانت فيها مدرسة شهيرة نشأ منها علماء أفاضل مثل يحيى بن سلامة الحصكفي، مفتي فارقين في القرن الثاني عشر، ومروان إبن سلامة تلميذ الغزالي. زرت القرية في ٩٧٧/٨/١٦ وشاهدت مدرستها القديمة، التي كان فيها في عهد الأمير بدرخان أمير بوتان سنة (١٢٦٣هـ = ١٨٤٧م) بالذات مائة وثلاثون طالباً منهم الشيخ خالد الزيباري على ما كتبه في نهاية مخطوطة بخطه. صورت مدرستها التي فيها قبور بعض من أمراء بوتان فرع طانزه. أما سهل مشار، فيمتد من شرقيها نحو الشرق. وطانزه مشهورة بكثرة بساتينها وكانت مركز هذا الجزء من بوتان في عهد إمارة بوتان، والتفاصيل في كتابي المخطوط (گەشتەکێ ئەرکیۆلۆجی دکورستانا باکوردا- هاڤینا ١٩٧٧).

(٢٤) شاتان: راجع بخصوصها موضوع الحياة البشرية.

(٢٥) باهدرا: حددها إبن حوقل في (ص١٩٧، صورة الأرض) بأنها تمتد من (المغيثة) الى الخابور، ومن معلثايا (ملطا- الواقعة حالياً بالقرب من النهاية الغربية لمدينة دهوك كانت في العهد الآشوري مركز المنطقة وفيها تل أثري وآثار سور المدينة تُشاهد على الجانب الشمالي من وادي دهوك، وقد صورته في ١٩٩٥) الى (فيشخابور) أي پیشخابور حيث مثلث الحدود العراقية التركية السورية. فكل من دهوك وزاخو تدخلان ضمن باهدرا مع جبل (بيخير) وسلسلة الجبل الأبيض (چیایی سپی). والإسم جاء من بيت هدرا- بيت حضرا أي (دار الحضارة). وكان فيها (مرعيث) مسيحي. وكانت توجد في ملطا مدرسة مسيحية نشأ منها علماء أفاضل وكان (نرسي) الملقب بـ(لسان المشرق) من قرية (عين دەلبێ- عين الدالية) الواقعة في غرب ملطا بحوالي خمسة كيلومترات. أما دهوك وهي مركز محافظة دهوك الآن الممتدة من زاخو الى الزاب الكبير، فلم تكن سوى قرية في العهد الإسلامي. وفي ١٩٨٢/٤/١ إكتُشف أصلها للمرة الأولى من قبلي، وهو تل على الجانب الشرقي للنهر داخل المدينة. كانت المدينة في العهد الأشكاني مركزاً للمنطقة. وفي ١٩٩٥/٥/٢٥ إكتشفت آثارها في الجانب الشرقي من مضيق دهوك لأول مرة أيضاً، وإكتشفت أسوارها أيضاً إضافة الى معبدها الزردشتي (شكەفتا چارستون) العظيم، الذي ألفنا كتاباً بخصوصه لم ينشر بعد. وقد نُحتت على واجهة الكهف (المعبد) رموز زردشتية وأعتبر ذلك من أهم إكتشافاتي الأثرية.



تل فافان

(٢٥٠) كيلومتراً وتل فافان كانت موجودة في العهد الآشوري.

نظراً لأهمية إحصائية إبن حوقل التي ذكرها في (صورة الأرض، الصفحات: ١٩٤-١٩٥، ١٩٧-١٩٨. للإنتاج الزراعي للمناطق المذكورة قبل العهد الدوستكي بأربع عشرة سنة، ندرجها فيما يلي بشكل قائمة. علماً أن الإنتاج مقدّر بالـ(كُرّ)، الذي كان أكبر كيل ويساوي طناً وثمانين كيلوغراماً، وكان سعر الكُرّ من الحنطة والشعير (٥٠٠) درهم وتساوي (١٢ ,٣٣) ديناراً، بما أن الدينار كان يساوي حينذاك خمسة عشر درهماً.

المنطقة	حصة الدولة بالكُرّ	الإنتاج الكلي بالكر
نصيبين	١٠٠٠٠	٢٠٠٠٠
رستاق أبنين	٢٠٠٠	٤٠٠٠
بازبدا	٢٠٠٠	٤٠٠٠
قردا-باعيناثا		
طنزي -شاتان	٣٠٠٠	٦٠٠٠
باهدرا	٣٠٠٠	٦٠٠٠

أما بالنسبة للإنتاج السنوي من القمح لبعض القرى، فقد ذكر الفارقي في (ص١١٥) أن إنتاج قرية (عطشا) كان (٣٦٠) جريباً أي ما يساوي (٢٥) طناً و(٩٢٠) كيلوغراماً. وقد جعل نصرالدولة إنتاجها وقفاً للفقراء والمساكين كان مستمراً حتى زمن الفارقي، الذي ألف تاريخه (تاريخ ميافارقين وآمد) سنة ٥٧٢هـ، أي بعد وفاة نصرالدولة بـ(١١٩) سنة. أما إبن حوقل فقد ذكر في (ص١٩٦) أن بعض القرى في قردا وبازبدا تنتج ألف كُرّ سنوياً من الحنطة والشعير والقطّاني أي

العدس والحمص والبقول وغيرها من ذوات الفلقتين، والذي يساوي ألفاً وثمانين طناً.

القطن

كانت زراعة القطن موجودة في العهد الدوستكي وقبله بكثير وقد ذكر إبن حوقل في (ص١٩٣-١٩٦) في منطقة نصيبين على ضفاف هرماس(٢٦) وبازبدا وقردا، وكذلك في رأس العين والمدن

(٢٦) لم يبق حول نصيبين الآن شيء من بساتينها التي إشتهرت بها في القرون الوسطى، بل أصبحت تُستغل لزراعة القطن. وفي ١٩٩٥ و١٩٩٦ مكثت فيها أياماً، فوجدت البساتين تنحصر فقط في الوادي الجميل الواقع خلف المدينة، الذي يجري فيه النهر وينبع من نهايته الشمالية المسماة (سەرەكانی) فرع من النهر وهو صاف رقراق ويلتقي بالنهر في أسفل منبعه فرع آخر ينبع من الوادي الواقع في يمين الوادي الأول ويسمى (گەلی دێرشكێ)، إلا أن ماءه غير صاف فيه بعض المعادن. وفي وادي سەرەكانی شاهدت قناطر في طرفه الشرقي تسمى (بازنێ تاقان)، ولعلها هي نفسها القناطر الرومانية البيزنطية التي ذكرها اليعقوبي في القرن التاسع في كتابه (كتاب البلدان، ص١١٣) وقال فيه أن: "نصيبين مدينة عظيمة كثيرة الأنهار والجنان والبساتين وأهلها قوم من ربيعة من بني تغلب"، وسكان المدينة حالياً جلّهم من الكُرد. وكان أبناء عشيرة (ئومەری) أقوى سكانها، ولكن قسماً منهم تشردوا الى المدن الواقعة على البحر الأبيض المتوسط. كما تشرد الى نصيبين الكثير من سكان بوتان. ولايفصل نصيبين عن القامشلي الكُردية في سوريا سوى خط الحدود. هذا وقد تم إدخال قسم من المدينة ضمن الحدود السورية، ويوجد الآن بعض من آثار سورها في القسم الجنوبي من المدينة الحالية عند الحدود الى جانب وجود جزء آخر من السور المذكور على الضفة الغربية للنهر عند نقطة دخوله الأراضي السورية. كانت المدينة القديمة تبعد بحوالي (١٨) كلم جنوباً عن جبل هرماس، الذي يسمى الآن بجبل (باگوك). وعلى الجبل قلعة تسمى (كەلها دالین) التي تقع شمالي (سەرەكانی). وفي تاريخ الفارقي (ص٢١٠) أن قلعة (بالوصا) على رأس الهرماس، أي على الجبل المطل على منبع النهر. فلا نعلم هل أن المقصود بقلعة (دالين) هي قلعة بالوصا التي كانت تشكل حدوداً بين ديار ربيعة ودياربكر، أم أنها قلعة (بارين) هذا علماً بأن هناك قرية بإسم (مارين) تقع في سلسلة باگوك وبمسافة حوالي (٢٥) كلم الى الشرق من نصيبين، تسكنها حوالي (٥٠-٦٠) أسرة. وهي قرية قديمة حيث يعثر فيها على مواد أثرية إضافة الى كون إسمها قريباً من إسم (بعرين)، التي كانت تعد من ضمن دياربكر لا ديار ربيعة كما ورد في الصفحات المذكورة من تاريخ الفارقي. وبخصوص المعلومات المذكورة إستفدت من المعلومات الشخصية للسيد بشير محمد طاهر من سكان نصيبين في ١٩٩٨/٣/١٥. وفي شباط عام ٢٠٠٠ ذكر لي السيد عبدالهادي محمد نوري شيخ عەتمانی معلومات قيّمة عن القلاع والآثار الموجودة فوق نصيبين، أي على جوانب وادي نصيبين (وادي هرماس-گەلی بۆنسرێ) الذي يبلغ طوله سبعة كيلومترات وينتهي بمنبع النهر. ومن تلك الآثار قلعة بونسرا (كەلها بۆنسرا)، التي تقع على تل مرتفع في قرية بۆنسرا الواقعة على الطرف الغربي من نهر جغجغ (هرماس). وتعتبر القرية المذكورة ثاني القرى بعد قرية (شانشين) في وادي هرماس من الجهة الغربية، سكانها من عشيرة (دەک شوری). وقلعة أخرى هي قلعة (شيخ عتمان) القريبة والواقعة في شمال بونسرا بنفس إتجاه النهر. وتسكن في قرية شيخ عتمان عشرون أسرة من عشيرة هەوێركی، وفي شمالها الغربي قريباً هناك قلعة (قەرە تاژين) المبنية بالحجر والجص. وفي شمالها قلعة (ماساري) المبنية هي الأخرى بالحجر والجص والتي تقع في قرية (ماسار) التي في شمالها واد يسمى (گەلی دێرشكێ) الذي ينبع منه (ئاڤا ڕەش- الماء الأسود) الحاوي على المعادن، ويلتقي هذا بـ(ئاڤا سپی-الماء الأبيض) في أسفل (سەرەكانی- سەری كەهینێ). أما (سەرەكانی - رأس العين) فينبع من نهاية وادي نصيبين الجميل وهو منبع (هرماس) كذلك. وفوق المنبع المذكور قلعة بيري (كەلها بێرێ) في الجبل، حيث يصعد طريق قديم من النبع في الجبل الى دزاه ويتجه الى منطقة طورعبدين (طوری). الطريق المذكورة منحوتة في صخور الجبل في بعض أقسامها وذلك بإستخدام المتفجرات، ولابد بأن ذلك تم في العهد العثماني لغرض توسيعه، كي تسير فيه العربات التي تجرها الخيول. مدينة (مديات) تقع خلف الجبل المذكور بمسافة حوالي (٣٠) كلم. ولنعد الى أسفل الوادي، حيث توجد قرب نصيبين على الجانب الشرقي للوادي قرية (باوەرنێ) وفوقها قرية (گورين) وفوقها (بازنێ تاقان)، حيث توجد على الجانب الشرقي للوادي أقواس لبناية قديمة كنت قد صورتها وقال عنها عبد الهادي بأنها معروفة بـ(دير). وبالقرب من المكان شرقاً ثلاثة كهوف فيها مساطب لوضع الجثث، أي أنها قبور قديمة ربما من=



سەرەكانى

الواقعة على خابورها مثل ماكسين، والمجدل، وعرابان، وحران. وقد ذكر الأصطخري في (مسالك الممالك، ص٨٢) بأن أغلب زراعة رأس العين هي من القطن، مع كثرة أشجار الفواكه فيها لخصب أرضها. معظم الأراضي الواقعة حالياً حول نصيبين تزرع قطناً وتُسقى من مياه (هرماس). وقد إعتبر الأصطخري نصيبين "أنزه بلد بالجزيرة وأكثرها خضرة" وبأن لها "مباخس كثيرة"، ويقصد الأراضي الديمية الكثيرة التي لاتصلها مياه نهر (چغچغ – چقچق) النابع من جبل بالوسا (أي جبل باگوك). وذكر أيضاً بأن مدينة خلاط تستورد كميات كبيرة من قطن مدن خابور. كما أشار حمد الله المستوفي أيضاً في (نزهة القلوب، ص١٠٣) الى زراعة القطن في منطقة أرزن (غەرزان) ووصف قطنها بالجودة.

كانت زراعة القطن في كُردستان قديمة، فقد ذكر أستاذي سعيد الديوەچي المؤرخ الموصلي الجليل في كتابه (أعلام صناعة المواصلة، ص٣٤) أن: الآشوريين جلبوا بذور القطن والكتان من الهند وزرعوها. أما آدم متز فقد ذكر في (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج١، ص٣٥٦) أن القطن حُمل من الهند شمالاً مباشرة قبل أن ينتقل غرباً وشرقاً بزمن طويل، وأنه لم يكن يُزرع في العراق وإنما نُقل إليه من شمال فارس وما بين النهرين (أي من المناطق الواقعة بين دجلة والفرات في شمال العراق ومعظمها مناطق كُردية). ويقصد متز بذلك أن زراعته إنتشرت في القرن العاشر الميلادي وقد نشره الحمدانيون على الفلاحين رغم ما عُرف عنهم من الجور وعدم الإكتراث بالأشجار، كما إنتشر في القرن المذكور في شمال أفريقيا. وأشار الى أن القطن لم يكن معروفاً في الصين في القرن الثالث عشر.

=العهد الأشكاني، وفي شرقها آثار لقرية (عينى) وفيها (١٥) كهفاً. أما جبل (باگوك) فيمثل القسم الشرقي من الجبل المطل على وادي (سەرەكانى) وهو يمتد شرقاً. وكانت (نصيبين الروم) تقع على الجانب الشرقي من الفرات وتابعة لآمد.

أما بالنسبة لزراعة الرز، فكانت موجودة في كُردستان في عهد الدولة الدوستكية وقبله بكثير فقد ذكر عالم الآثار (ليو أوبنهايم) في كتابه (بلاد مابين النهرين، ص٥٧) أن: أهالي فارس على مايقال أدخلوا زراعة الرز الى بلاد بابل. وعلى ذلك يُتوقع وصوله الى كُردستان في ذلك العصر، أي في القرن السادس قبل الميلاد أو قبله. أما السمسم فزراعته قديمة، حيث كان موجوداً في العراق في الألف الثالث قبل الميلاد.

الفواكه

أما الفواكه فكانت كما هي اليوم منتشرة وكانت تجري زراعتها في كافة مناطق الدولة الدوستكية. وأهم مناطق زراعة الكروم هي المناطق الجبلية وبالدرجة الأولى منطقة طورى (طورعبدين) الواقعة في غرب دجلة وشرق ماردين، وفي مناطق بوتان، وشيروان وهيزان ومناطق حاني، ولجى، وكولب (قلپ)، وبدليس وزاخو وغيرها وكانت توجد في كُردستان أنواع عديدة من الفواكه كالعنب بمختلف أنواعه والتين والتفاح والكمثرى والإجاص والخوخ والمشمش والرمان والسفرجل. وقد أشار الفارقي في (ص ٢٢٤-٢٢٥) الى ما كان حول مدينة فارقين من الكروم وبساتين الفواكه والخضروات والبقول. وقد جلبت كثرة العنب ورخص أسعاره إنتباه الرحالة الفارسي ناصر خسرو في مدينة أرزن في العهد الدوستكي. فقد قال المذكور أن البرسيين أي الزردشتيين كانوا يبيعون مائة (مَن) من العنب بدينار واحد في شهر تشرين الثاني (أي في أواخر الخريف). وقال إنهم يسمون العنب بـ(رز أرمانوس)(٢٧). من الجدير بالذكر أن الفاكهة كانت موجودة في كُردستان منذ العهد الآشوري (٩١١-٦١٢ ق.م) لوجود رسوم للعنب وكذا التين على العديد من الآثار الآشورية(٢٨)، وبدليل وجود العنب البري في كُردستان. ويذكر أن الخمر كان يستخرج من العنب في المناطق الكُردية شمال بلاد الرافدين ومنها في منطقة طورعبدين (أسالوا القديمة) ويصّدر الى بابل في القرنين السادس والسابع قبل الميلاد، وكان خمر عنب (كورانو) أغلى سبعة أضعاف من خمر التمور(٢٩). وبهذا الدليل ندحض ما ذكره آدم متز

(٢٧) ناصر خسرو، سفرنامه، ص٤٧. ومن المحتمل بأن ناصر خسرو خطأ في تسمية العنب المذكور، لأن (رَز) بالكُردية تعني بستان الكرم وليس بمعنى العنب، وأظن بأن (رز أرمانوس) هو إسم لبستان أو بساتين كروم معينة في غرزان (ئەرزەن). أما إذا كان حرف الباء من أصل الكلمة، فتكون (برز) فإنها تعني بالفارسية بستان الكرم.

(٢٨) راجع اللوحات ٥٤ ، ٥٥ ، ١١٠ من (D.R. BARNET/ ASSURIAN PALACE RELEIFE. LONDON.) راجع أيضاً جورج كونتينو، الحياة اليومية في بلاد آشور وبابل، ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي، طبعة بغداد ١٩٧٩. وفي ص٩١ أن: أشجار الكروم وصلت حديثاً الى بلاد آشور أي خلال العهد الآشوري. وفي ص١٤٣ و٩٠: كانت فواكه الرمان وثمر المشملة والتفاح والأجاص والمشمش والكمثرى والفستق والرمان والخوخ موجودة في العهد الآشوري بشمال بلاد الرافدين، أي في كُردستان.

(٢٩) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٢٩٨. يعزو آدم متز الى الإصطخري في (مسالك الممالك، ص٢٦٦) قوله بأن العنب الطائفي نُقل بالأصل من الطائف بالجزيرة العربية الى العراق وخراسان في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي. ولكنني راجعت كتاب الإصطخري المذكور، فلم أجد فيه أية إشارة الى ما نسبه إليه آدم متز، الذي أخذ بقوله باحثون في وقتنا هذا. فالإصطخري لا يزيد على قوله (والزبيب الطائفي الذي يُحمل الى الآفاق معظمه يرتفع من مالن وكروخ) من مدن خراسان. ولعل إسم هذا النوع من العنب هو الذي يوهم بأنه إنتشر في الأصل من منطقة الطائف بالجزيرة العربية، والذي يكثر في كُردستان بعدة أنواع.

من أن الذين أدخلوا العنب الى بلاد العراق وإيران هم المقدونيون، وقد عزاه متز الى سترابو(٣٠).

ومن الفواكه النادرة التي كانت موجودة في كُردستان في العهد الدوستكي (شاه بلوط) أو (كستناء) وكانت موجودة في نصيبين، فقد أشار إليها المقدسي(٣١). ولا زالت موجودة الى الآن، ولكن لاندري هل إن الفواكه النادرة الموجودة في هيزان (حيزان)(٣٢) من شاه بلوط وبندق وفستق كانت موجودة في العهد الدوستكي أم لا؟ هذا علماً بأن الأنواع الثلاثة الأولى غريبة عن كُردستان، إذ لم نسمع بوجودها في منطقة أخرى منها ماعدا الشاه بلوط (كستنائي) الموجود في نصيبين آنذاك (علماً أنه غير موجود الآن حيث لم تبق أشجارها) ومن المحتمل أنها نقلت الى كُردستان من بعض البلدان الشرقية أو من أذربيجان أو من آسيا الصغرى حيث يتوفر فيها. وقد صرح كل من ياقوت الحموي والقزويني وعبداللطيف البغدادي بوجود الشاه بلوط والبندق في هيزان(٣٣)، بينما أشار أبو

(٣٠) راجع جورج كونتينو، الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، ص١٦٨.

(٣١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٤٠.

(٣٢) تقع مدينة هيزان في المنطقة الجبلية الواقعة في جنوب شرق بدليس وجنوب غرب بحيرة وان، وتبعد عن سواحلها بحوالي (٤٥) كلم. كانت مدينة صغيرة محفوفة بالبساتين الكثيرة. وفي شرفنامه، ص٢٧٤ يقول المؤلف أن بانيها في عهد المغول يحتمل أن يكون نصيرالدين الطوسي. وقال أيضاً أن كل الفواكه الموجودة في أذربيجان وإيران موجودة فيها، ولكن ما قاله شرفخان خطأ، حيث أنها كانت موجودة قبل ذلك العهد بكثير. فمثلاً ذكرها المقدسي وياقوت الحموي وغيرهما. وقد أورد شرفخان بحثاً لأمرائها وأول من ذكر منهم هو الأمير سليمان، الذي كان حياً سنة ٨٢٤ كما يُفهم من كلامه، ومنهم أيضاً الأمير داود بن الأمير ملك، الذي شيّد في هيزان المدرسة الداودية التي تخرج منها علماء أفاضل. وتولى الإمارة بعده إبنه السلطان أحمد، ثم أبناء الأخير محمد وملك خليل والمير محمود ثم الأمير حسن بن ملك خليل. وذكر أن أمراء هيزان ومكس وأسباير من عائلة واحدة في الأصل.

جدير بالذكر أنه نشأ في منطقة هيزان الكثير من العلماء من ذوي العلم والفضل. وقد نبغ من هؤلاء ملا خليل السعردي صاحب المؤلفات الكثيرة. لقد عظم شأن هذه المدينة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حينما أصبحت إحدى أكبر مراكز العلم والطريقة النقشبندية في كُردستان في عهد الشيخ صبغة الله المعروف عند الكُرد بإسم (غوث هيزان)، الذي أخذ الطريقة النقشبندية من (السيد طه) الكبير الشمزيني خليفة مولانا خالد السليماني. وقد إحتفظت هيزان بشأنها في عهد أبنائه الشيخ شهاب الدين ومحمد شيرين وإبن أخيه السيد علي، الذين أعدموا في مدينة بدليس من قبل الأتراك سنة ١٩١٣ لقيادتهم ثورة كوردية ضد الحكم العثماني التركي إنتهت بإخمادها من قبل القوات التركية وإعدامهم. أما أستاذهم (خليفه سليم) فقد لجأ الى القنصلية الروسية في بدليس. ولما نشبت الحرب العالمية الأولى في السنة التالية أخرجه منها الأتراك وأعدموه. وبهذا فقدت هيزان مركزها العلمي ومدرستها، التي كانت تضم الكثير من الطلبة والأساتذة الذين كانت أسرة هيزان تنفق عليهم من مالها الخاص. ومن أشهر أساتذة المدرسة المذكورة (ملا خالد ئولەکی) وكان من أمثال الملا خليل السعردي ومحمد بن آدم. هذا وقد تفرعت أسرة هيزان من الأسرة الأرواسية المشهورة بالعلم، والتي نبغ منها الشيخ فهيم الأرواسي وإبنه الشيخ محمد أمين الذي ألف كتباً عديدة باللغة الكُردية على ما يذكر. وتجدر الإشارة هنا الى شاعر معاصر وهو ملا أحمد الهيزاني وله ديوان نشر باللغة الكُردية وشعره جيد وهو من أسرة مشايخ هيزان. وفي ١٩٧٧/٨/١٠ زرت هيزان وكانت توجد فيها حينها (١٨) أسرة، وقمت بتصوير آثارها ومنها السور والقلعة وقبر الفتاة (سينمم) التي شاعت بصددها بين الكُرد أغنية مشهورة. وقد كتبت بخصوص هيزان معلومات مفصلة في كتابي المخطوط (گەشتەکێ ئەرکیـۆلۆجی دکوردستانا باکوردا، ١٩٧٧).

(٣٣) الحموي- معجم البلدان ج٢ ص٣٣١. القزويني- آثار البلاد ص٣٦٠. البغدادي- مراصد الإطلاع ج١ ص٤٤١.

الفداء والقلقشندي وسباهي زاده الى وجود البندق فقط(٣٤). وقد قال الثلاثة الآخرون بعدم وجوده في أي مكان آخر من بلاد الجزيرة والعراق والشام. كما لم يشر إبن حوقل الى وجود الشاه بلوط في نصيبين بينما هو من سكانها أصلاً، كما لم يشر اليه غيره من جغرافيي القرن العاشر الميلادي ممن كتبوا عن نصيبين، فمن المحتمل أنه زرع فيها في الفترة الواقعة بين زمن إبن حوقل وياقوت التي تمتد حوالى قرنين، بضمنها العهد الدوستكي، هذا ولم يهتم الكُرد بزراعة البندق والفستق وشاه بلوط وعنب كشميش من الفواكه النادرة الموجودة في هيزان، فلانجدها منتشرة في كُردستان الوسطى.

أما الزيتون، وهو من نباتات البحر الأبيض المتوسط فقد كان موجوداً في كُردستان في العهد الآشوري (٩١١-٦١٢ ق.م) ولكن على نطاق ضيق. أما في العهد الدوستكي فقد كانت موجودة ولكن بقدر قليل أيضاً، رغم وجودها في نصيبين وماردين. هذا بالإضافة الى أشجار الزيتون والبندق والفستق التي زرعت من قبل (مار حنانيا) مطران ماردين في دير الزعفران في أواخر القرن السابع الميلادي(٣٥). وتوجد أشجار الزيتون في شمال غرب مدينة الجزيرة في بوتان في (فنك) ووادي بينات (باعيناثا) وفي قرية دهوك في منطقة (شرنخ) ماوراء جبل الجودي. إلا أن الكُرد بصورة عامة لم يهتموا بزراعة الزيتون.

ومن الفواكه التي كانت الموجودة في كُردستان في العهد الدوستكي (التفاح) وتوجد الآن عدة أنواع محلية منه في كُردستان وهي قليلة المقاومة، ولعل النوع الخلاطي كان موجوداً في عهدها. ويشبه هذا النوع التفاح اللبناني الأحمر ويمتاز عن الأنواع الأخرى بمقاومته للبقاء، حيث يبقى الى الشتاء، ويوجد ايضاً في غير مدينة خلاط من الأماكن الواقعة على سواحل بحيرة (وان) مثل وان وأرتميت (أدرميت)، ويسميه الكُرد أينما وجد هذا النوع بالتفاح الخلاطي نسبة الى مدينة خلاط

(٣٤) أبو الفداء- تقويم البلدان ص٣٧٣. القلقشندي- صبح الأعشى ج٧ ص٢٧٤. سباهي زاده- أوضح المسالك الى معرفة البلدان والممالك ص١١٧- مخطوط. والشاه بلوط يشبه البلوط في قشرته ولبه ولكنه يختلف عنه في طعمه الحلو وحجمه الصغير. ويوجد الشاه بلوط في قبرص والبندقية بإيطاليا.

(٣٥) الشابشتي، الديارات، ص٢٤١، تعليق للأستاذ كوركيس عواد. وقد ذكر المسعودي في مروج الذهب، ج١، ص٢٥٨، بأن الزيتون تم غرسه في العراق أول مرة في عهد الملك الساساني شابور الأول وذلك من قبل أسيره الإمبراطور الروماني ڤاليريان في سنة (٢٦٠م) أو السنوات التي تلتها، وهذا غير صحيح. وتجدر الإشارة الى أنه كانت هناك (٩٠٠٠) شجرة زيتون في عصرنا هذا في الخمسينات في قرية (زفزيک) الواقعة شرقي سعرد وشمال بوتان، كما في (ج١، ص٨٦ من DOGU ANADOLU) تأليف حسين سراج أوغلو، ولعلها غُرست في المنطقة قديماً كما في بوتان. إنتشرت زراعة الزيتون حديثاً في كُردستان تركيا. ففي سنة ١٩٧٠ بلغ الإنتاج من الزيتون (٧٠) ألف طن في ولاية عينتاب المتاخمة لمحافظة حلب السورية. وتوجد في (بينات) غابة طبيعية لأشجار الصنوبر، كما توجد غابتان في زاويته وأتروش من كُردستان العراق، ولم نسمع بوجود تلك الأشجار في مكان آخر من البلاد الكُردية عدا مكان واحد في لورستان. والنوع الموجود في (بينات) يستخدم السكان أخشابه اليابسه في الإضاءة بدلاً من الشمع لإحتوائها على الدهن. وقد ذكر العالم الكُردستاني المشهور أبو حنيفة الدينوري (القرن الثالث الهجري - التاسع الميلادي) أن هذا النوع من الصنوبر يسمى (آزردكرد)، وهو لفظ آري. وذكر بأن الخشبة تستعمل كالمصباح للإضاءة وتسمى (داذين) وقال إنه لفظ رومي (يوناني). راجع القطعة المطبوعة من الجزء الخامس لكتاب النبات، ص٢٠٣ لأبي حنيفة طبع ليدن.

الكُردية، وقد نُقل هذا النوع من كُردستان الى بلاد الشام وزرع هناك. وقد ذكر البدري(٣٦) التفاح الخلاطي (الأخلاطي) من بين أنواع التفاح الموجودة في دمشق. وأضاف حبيب زيات بأنه مازال موجوداً بنفس الإسم لحد الآن(٣٧).

الخضراوات

كانت خضراوات البصل والثوم والكراث والقرع والبطيخ والجزر تزرع في العهد الدوستكي لكونها خضراوات قديمة موجودة في كُردستان منذ العهد الآشوري. أما القثاء فكان موجوداً هو الآخر. وأما (الترعوزي) فقد ذكر ياقوت الحموي المتوفى سنة (١٢٢٩م) بصدد قرية (ترع عوز) الواقعة في منطقة حران (من ولاية أورفا) أنه: يزرع بها نوع من القثاء عذياً (ديماً) يسمى (ترعوزي) نسبة الى هذه القرية. ويلاحظ من كلامه أن ترعوزي الذي كان يزرع ديماً لم يُشاهده في مكان آخر رغم تجواله في كثير من بلدان الشرق الأوسط، وإن زراعته لم تكن منتشرة فيها. ولاندري مدى إنتشاره في الأماكن الأخرى من كُردستان آنذاك، لكني أشك أن الترعوزي لم يكن منتشراً في الشرق الأوسط إذذاك.

أما البطيخ الأخضر (الرقي - وبالكُردية شوتي، زەبەش) فلا ندري هل إنه كان موجوداً في كُردستان في العهد الدوستكي أم لا؟ هذا مع العلم بأن بطيخ دياربكر من هذا النوع حاز إعجاب زوار المدينة لضخامته، حيث كان وزن البطيخة الواحدة منها يبلغ أحياناً سبعين كيلوغراماً، وهو ما لم نسمع بوجوده في البلدان الأخرى(٣٨). أما بطيخ دياربكر الأصفر فكان وزن البطيخة منه يبلغ عشرات الكيلوغرامات أحياناً، ولكن بضخامة أقل من النوع الأول(٣٩). لقد أشار الفارقي في (ص٢٢٥) الى ما كان يزرعه الناس حول مدينة فارقين من "جميع الفواكه والخضر والبقول".

الثروة الحيوانية

قام سكان كُردستان بتربية أنواع الماشية من أغنام وأبقار وماعز قبل عشرة آلاف سنة. وقد بدأوا بالماعز أولاً قبل الكلب ومن ثم الأغنام فالأبقار، وذلك إستناداً الى إكتشاف عظام هذه الحيوانات الداجنة في (زاوي چەمی) والصحيح (زەڤیا چەمێ) في قرية شانەدر الواقعة على الزاب الكبير قرب كهف شانەدر في محافظة أربيل، وكذلك ما عُثر عليه في موقع (چرمو) الواقع في جنوب سلسلة

(٣٦) البدري: هو أبو البقاء أبو بكر بن عبدالله بن محمد بن أحمد له مؤلفات عديدة كما في (الأعلام، الزركلي، ج٢، ص٤١). ورد إسمه في كشف الظنون، ج٢، ١٩٤١ عبدالله بن محمد وهو خطأ، حيث صححه الزركلي إستناداً الى وجود إسمه بخطه على كتابه نزهة الأنام. وتوفي سنة (٨٩٤ هـ = ١٤٨٩م).

(٣٧) حبيب زيات، الخزانة الشرقية، ج٢، ص١٧، نقلاً عن نزهة الأنام في محاسن الشام للبدري.

(٣٨) راجع: HAYAT- TURKIYE ANSIKLUPEDISI

(٣٩) قال أبو الثناء الآلوسي مفتي بغداد في القرن التاسع عشر في كتابه (نشوة المدام، ص٦١) أني شاهدت في حضرة الوزير بدياربكر بطيخة خضراء تكاد تظل القاعة، فإستغربت ذلك جداً وأمرت قباني أن يزنها فوزنها فبلغ وزنها ثمان وعشرين حقة. وقال لي الوزير أنه وزن واحدة مرة فبلغ وزنها أربعين حقة ووزن بطيخة صفراء فكانت ثلاثين حقة.

بازيان (جبل لارب) من محافظة السليمانية[١].

وقد عبّر الطبيب إبن بطلان عن الثروة الحيوانية والتجارة في هذا الباب في الدولة الدوستكية بـ(سوق العجل) والإشتغال فيه، كما مر نص كلامه في أوائل موضوع (الحالة الإقتصادية).

إشتهرت كُردستان بثروتها الحيوانية نظراً لكثرة المراعي الصيفية والشتوية فيها، فقد ذكر إبن الأثير في حوادث سنة (٦٢٤هـ) أن: منطقة (الزوزان) هي سوق لبيع الأغنام والماشية، فالتركمان والكُرد والكيلكان هم رعاة ماشية يتنقلون في فصلي الربيع والصيف من الأماكن التي أشتوا فيها الى الزوزان، فيبيعون الغنم رخيصاً[٢].

وقد وصف الثعالبي الصوف الأرمني بأنه من أجود الأصواف بعد صوف مصر، وهو أحمر على ما ذكره آدم متز في (الحضارة الإسلامية، ص٣٥٤)، وكانت تصنع منه الفرش التي كانت من أجود أنواع الفرش. يشار الى أن معظم الأغنام حالياً في المناطق الكُردية في ولايات بدليس وموش ووان وصولاً الى نهر آراس صوفها أحمر كثيف وقصير، وهو ما يسمى بالصوف الأرمني.

وكانت البغال القوية والحمير والأفراس كثيرة في كُردستان، إذ كانت تستخدم لأغراض النقل. وكانت أعداد البغال والأفراس أكبر لدى القبائل الرحل بسبب إستخدامهم لها في نقل متاعهم من مكان لآخر. وقد ذكر إبن حوقل ذلك بقوله: وبهذه البلاد (أي أرمينية الى فارقين) وفي أضعافها من التجارات والمجالب وأنواع المطالب من الدواب والأغنام. وقال أيضاً: ويجلب من الزوزان ونواحي أرمينية والران من البغال والجياد الموصوفة بالصحة والجَلد والفراهة والصبر - والى العراق والشام وخراسان وغير ذلك ما يستغنى بشهرته عن وصفه. وقال أيضاً: الزوزان ناحية وقلاع لها ضياع الغالب عليها الجبال ويكون بها الشهاري الحسنة الموصوفة بالجمال والفراهة ما يقارب شهاري طخارستان وربما زاد عليها وعلى نتاج الجوزجان[٣].

كما قال في صفحة (٢٠٢-٢٠٣) في بحثه عن مدينة الجزيرة وتجاراتها: وليست الجزيرة كأرزن وميافارقين من قلة الماشية والكراع. أي أن منطقة الجزيرة (منطقة بهتان - بوّتان) تفوق منطقة أرزن وفارقين في كثرة الغنم والماعز والبقر، والكراع أي الخيل والبغال والحمير. وكانت فرس الجزيرة من أجود الأفراس[٤] وكان في فارقين خارج السور من جهة القبلة سوق خاص لبيع وشراء الخيل وقد سمي (سوق الخيل).

(١) راجع طه باقر وفؤاد سفر، المرشد الى مواقع الآثار والحضارة، الرحلة الخامسة، ص٢٠، والرحلة الرابعة.

(٢) زوزان: كلمة كُردية تطلق على المضارب الصيفية الباردة جداً شتاءً والمعتدلة صيفاً. وتمتد منطقة زوزان من القسم الأعلى الشمالي من بوتان من (دەشتا ميرا) و(هەرەكول) الى بحيرة وان وهكاري، وهي المنطقة المحددة بإسم (زوزان) كإسم جغرافي محدد. ولكن إسم (زوزان) يطلق أيضاً على المضارب الصيفية في موش وبنگول. كيلكان: لم أجد الإسم في غير إبن الأثير ومن المحتمل أنها عشيرة أو عشائر أرمنية رحالة. والإسم قريب من إسم (كيلكوين) وكانت مدينة في أرمينية على ما في (صورة الأرض، ص٣٠٠) لإبن حوقل، ويفهم منه أنها كانت تقع في أرمينيا العليا، أي ما وراء نهر آراس (نهر الرس)، وفي إبن الأثير، حوادث سنة (٦١٩هـ). ويفهم بأن (جبل كيلكوين) بفتح اللام يقع في منطقة (كنجه) من أذربيجان السوفياتية سابقاً (بلاد آران) ويحتمل أن يكون هذا بعيداً عن موضوعنا.

(٣) إبن حوقل، ص٢٩٦ و٢٩٧: الشهاري: الأفراس

(٤) راجع الأصطخري، مسالك الممالك، ص١٢٥.

أما الإبل فكانت توجد في مناطق دياربكر والرها، وقد جاء ذكرها أكثر من مرة. ففي تاريخ الفارقي (ص٦٨) أن الأمير أبا علي حسن بن مروان عندما تظاهر سنة (٣٨٤ هـ) بالخروج الى خارج البلد للمشاركة مع سكان العاصمة في الإحتفال بعيد الأضحى: "أخرج من النجائب والزينة ما لم يُر مثله" والنجائب هي الإبل وكانت تستخدم في مواكب الأمراء كما توجد حالياً في دياربكر وأورفا وكما كانت موجودة في سعرد في النصف الأول من القرن العشرين.

النحل والعسل

كان النحل البري يتواجد بكثرة في المناطق الجبلية الكُردية ذات الغابات الكثيفة، وكان يبني خلاياه في جذوع الأشجار وثقوب الصخور في شتى العصور. ولكن وجود ذلك النحل قلّ في الوقت الحاضر بسبب قطع الأشجار بكثرة من قبل السكان وبسب جهل وطمع الذين يجنون العسل، إذ لايبقون منه شيئاً في الخلايا ليقتات عليه النحل شتاءً، مما كان يؤدي الى موته جوعاً.

أما النحل الداجن فكان منتشراً بكثرة هو الآخر، وكان الكُرد يحصلون منه على كميات كبيرة من العسل يصدرونه الى خارج بلادهم. وفي العهد الدوستكي كان كثيراً ورخيصاً جداً فقد ذكر ناصر خسرو (في سفرنامه، ص٤٣) الذي سلك بلاد الدولة الدوستكية في طريقه الى مصر: أن الشخص الواحد في (بدليس) يجني في السنة الواحدة من العسل ثلاثمائة وأحياناً أربعمائة جرة عسل. وكان مائة (مَنٍّ) من العسل تباع بدينار واحد. وقد أشار المقدسي في (أحسن التقاسيم، ص١٤٥) الى وجود العسل في حران، كما أشار إبن حوقل الى العسل في مدينة الجزيرة كمادة تجارية تحملها المراكب (في دجلة) ويُشحن الى العراق مع المواد التجارية الأخرى وذلك في (صورة الأرض، ص٢٠٢).

المعادن

كُردستان بلد غني بمختلف أنواع المعادن، وقد ثبت لدى علماء الآثار معرفة سكانها القدامى بالنحاس وإستخدامه عن طريق الطَرق منذ تسعة آلاف سنة (إذ لم يثبت لحد الآن إكتشاف أقدم من ذلك التاريخ في أماكن أخرى)، وذلك في قرية (جايونو)، الواقعة على مقربة من قرية (هلار) الحالية الواقعة على مسافة (٨) كلم جنوب غرب مدينة (معدن- أرغن) وهي مركز قضاء تابع لولاية دياربكر يقع على مسافة (٥٨) كلم شمال مدينة دياربكر، القريبة من منبع نهر دجلة. كما عرف سكان كُردستان النسيج أيضاً في جايونو[(١)]. وكان يتم تصدير النحاس من منطقتي دياربكر والقفقاس الى أوروپا قبل وصول الآريين الى أوروپا، أي قبل (١٦٠٠) سنة قبل الميلاد[(٢)].

تعود بدايات إستغلال منجم النحاس في مدينة أرغن (معدن) الى العصر الحجري الحديث، وإمتد إستغلاله مروراً بالعصور التاريخية اللاحقة حتى اليوم. ويعتبر المنجم المذكور أكبر منجم للنحاس في

(١) راجع، سيتون لويد، آثار بلاد الرافدين، ص٣٠.

(٢) جورج رو، العراق القديم، ص٣٠٨.

تركيا اليوم. وكان يجري تصدير النحاس من كُردستان كذلك الى العراق من هذه المنطقة في الألف الثالث قبل الميلاد(٣).

يذكر بن الآشوريين إستفادوا هم أيضاً في عصرهم من منجم (معدن-أرغن) المذكور. ومن المرجح أن الدولة الدوستكية قد إستفادت هي الأخرى من هذا المنجم للحصول على النحاس، الى جانب مناجم كثيرة أخرى كانت موجودة في القسم الأعلى من بوتان وحتى منطقة (شاخا هەكاريا) الواقعة في جنوب بحيرة وان، حيث توجد الآن آثار المئات من الـ(كُوَر) التي إستخدمت لصهر الحديد والنحاس في هذه المنطقة والتي لم تكتب عنها المعلومات(٤).

وعندي أنها هي المقصودة بالإشارات التاريخية الواردة حول وجود النحاس في أرمينيا، وكذلك

(٣) يقول الدكتور فوزي رشيد في، نرام سين ملك جهات العالم الأربع، ٣٨، بأن القوافل التجارية في عهد نرام سين (٢٢٦٠-٢٢٢٣ ق.م) كانت تنقل النحاس من آسيا الصغرى. وكانت قرية (باستكى) الواقعة بين دهوك وزاخو، التي عُثر فيها على تمثال لنرام سين، محطة للقوافل التجارية. وقد ذكر في ص٧٣ بأن التجار كانوا يحصلون على القصدير من مناطق تقع على نهر دجلة من بلاد آشور، هذا علماً أن المؤرخين والآثاريين المتأخرين يدخلون كُردستان تركيا ضمن اسيا الصغرى وأحياناً الأناضول، بحسب الحدود التركية الحديثة. وذكر المؤلف أيضاً أن التجار العراقيين كانوا يصدرون القصدير الى الأناضول، لإفتقار المنطقة الى هذه المادة، الى جانب المنسوجات الصوفية. وفي العهد الآشوري كانت نفس التجارة موجودة.

(٤) ذكر لي أخي الملا أحمد يوسف، وهو قوي الذاكرة، وسكن مدة في قرية (خومار) الواقعة في جنوب مدينة (شاخا هەكاريا) مركز إحدى أقضية (وان) في آخر حدود الولاية من الناحية الجنوبية، وتجول في تلك المنطقة المتصلة بأعالي بوتان وله معرفة نوعاً ما بالمعادن- ذكر لي عن مشاهدته (كور) الحديد (كورێن هەسن) على ما يسمى هناك - في خومار ووادي (سكوێت) بين خومار وقرية (فرجينس) وفيها قلعة عليها كتابة مسمارية وتقع في حدود بوتان وهكاري، وكذلك (هەروخ) وسفوح جبل (كور قەنديل) وقرية (هێشەت - هێشەتا بەرێ سپى- براسپيا كانت عشيرة قديمة) وجبل (كاتو) المنيع. وتوجد في الجبل غابات كثيفة من الأشجار كانت تقطع لإستخدامها في إيقاد النار في الكور الموجودة بكثرة هناك لصهر خامات الحديد والنحاس. وأضاف بأن إنتاج الحديد والنحاس كان يتم في تلك المنطقة. وتوجد الآن الآلاف من قطع الحديد والنحاس المبعثرة فيها إضافة الى قطع الرصاص. وأضاف الملا أحمد، الذي تجول في المنطقة مع أحد خبراء المعادن (وإستفاد من معلوماته)، بأن ماوراء حزام الغابات هذا بإتجاه الشمال من مناطق وان وما سمي قديماً بأرمينية، مناطق خالية من الأشجار الطبيعية، ولذلك لم تكن هناك كور لصهر الحديد فيها لإحتياجها الى مقادير كبيرة من الخشب لإيقاد النيران في الكور. وعلى هذا، فإن إنتاج الحديد والنحاس المنسوب قديماً الى أرمينية، كان يتركز في هذه المنطقة المشجرة من بوتان والى حدود مدينة (شاخ) من منطقة هكاري. وزاد الملا أحمد بأن هذا العدد الهائل من الكور قديم، وإن السكان قبل حوالي سبعين سنة كانوا يستخرجون عروق الرصاص من المنطقة في حدود قرية (بيرخو) شمال شرق مدينة (شاخێ) في وادي (كاكان)، حيث كانوا يستخرجون تلك العروق الضخمة من الرصاص ويستخدمونها في صنع الذخائر لبنادقهم. ويحتمل أن الرصاص كان يستخرج قديماً أيضاً من هذه المنطقة.

وقد ذكر أندريه بارو في كتابه (بلاد آشور، ص٢٥١) أن هناك إشارات متواصلة في الألف الثالث قبل الميلاد وفي عهد سرجون الأكدي بالذات (٢٣٤٠-٢٢٨٤ ق.م) في النصوص المسمارية الى "جبال الفضة"، التي تقع في هذه المنطقة على وجه الدقة في أرمينيا وآسيا الصغرى. وذكر ايضاً النحاس والرصاص في أرمينيا وآسيا الصغرى، اللذين كان العراقيون يستوردونهما (ص٢٤٨، ٢٥٠). وقد وجدت في بعض المصادر إشارة الى منجم للفضة في منطقة (شاخ). وفي سنة (١٩٥٥-١٩٥٦) سكنت في منطقة شاخ وتحديداً في قرية (گوران دشت) التي يقال أن الذهب موجود فيها، حيث قامت الحكومة التركية بفحص أطراف القرية للعثور عليه. وكان السكان قد أخفوا عنها الأمر رغم شيوعه بينهم. والخلاصة أن مناجم النحاس والحديد والرصاص، والتي نسبت فيما بعد الى أرمينية إنما هي المناجم الواقعة في هذه المنطقة الكُردية التي كانت تحت سيطرة الدولة الدوستكية وكان الأرمن والكُرد يعيشون مختلطين هناك، لكن الأرمن هم الذين كانوا يستخدمون المناجم.

الحديد والرصاص والفضـة. علماً أنه يوجد منجم للحديد أوالنحاس بالقرب مـن مدينة (مكس) الواقعة في الشمال الغربي من تلك المنطقة. وقد ذكر المؤرخ الملا أنور المائي في (الأكراد في بهدينان، ص٣٩) بأن السكان المحليين في بهدينان كانوا يستخرجون الحديد والنحاس حتى عام ١٨٧٩م، ثم تركوا الأمر حينما فرضت عليهم الدولة العثمانية ضرائب باهضة. ولا تزال آثار إستخراج الحديد موجودة بكثير في جبال المنطقة أي جبال اعمادية وزاخو. وهناك منجم آخر في قرية قەشان (كشان) في شمال شرق زاخو. والجدير بالذكر أن تلك الأماكن كانت كلها تحت السيطرة الدوستكية. هذا وقد تم إكتشاف منجم آخر للنحاس في شمال دياربكر بالقرب من (قلعة ذي القرنين) في سنة (٥١٦هـ = ١١٢٢م)، على ما ذكر إبن الأثير في حوادث تلك السنة وكذلك إبن شاكر الكتبي في (عيون التواريخ، ج١٢، ١٣١)(٥).

وذكر الهمداني في (كتاب البلدان، ص٢٩٧) أن معادن الزئبق والقلند (أي الزاج المائل للخضرة)، والقُلْقُطار (أي الزاج الأصفر الذي فيه حمرة)، والأسرُبّ (أي الرصاص الرديء) موجودة في أرمينية. وقد ألمحنا سابقاً الى أن العديد من الجغرافيين القدماء والمؤرخين أطلقوا إسم (أرمينية) على المناطق الواقعة شرق دجلة، كمنطقة بوتان وغيرها من المناطق الكُردية غير الأرمنية، ولهذا فقد سجلت مصنوعات ومنتوجات تلك المناطق الكُردية بإسم أرمينيا، لكون الكُرد والأرمن لهم تاريخ مشترك. ولاشك بأن إستخراج وإستغلال تلك المعادن لم يتوقف خلال العهد الدوستكي، بل شهد توسعاً بسبب حالة الأمن والإستقرار وإزدياد السكان وتوسع التجارة آنذاك.

أما أحمد بن التيفاشي التونسي فقد شاهد في جبال منطقتي دهوك وزاخو وجبل الجودي الواقعة على الطريق بين الموصل ومدينة الجزيرة (تخوم بلاد أرمينية)، أي حدود أرمينية وذلك على ما مرّ بها، أحجار (بازَهر) من الأحجار الكريمة، وذلك في النصف الأول من القرن الثالث عشر(٦). وفي موضوع (البلّور) ذكر التيفاشي وجوده في أرمينية وهو للصفرة الزجاجية كأنه مطبوخ بالنار وذلك في

(٥) يأتي ذكر حصن ذي القرنين في كثير من المصادر التاريخية والجغرافية القديمة، ويأتي ذكره أحياناً بإسم رباط ذي القرنين. ورغم أني لاأستطيع أن أشخصها، إلا أنها كانت تقع في شمال لجئ بمسافة حوالي (٢٠) كلم، وقد سلكها إبن حوقل في طريقه من فارقين الى ملاطية. وقال إن المسافة من فارقين الى هتاخ Atak (القريبة من لجى) مرحلة ومن هتاخ الى حصن ذي القرنين مرحلة خفيفة. أما لجى Liçe فإنها تقع في شمال شرق مدينة دياربكر بحوالي (٩٠) كلم وفي شرق حاني بمسافة حوالي (٢٥) كلم أو أكثر.

(٦) التيفاشي، أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، ص١١٧-١١٨، تحقيق ونشر الدكتور محمد يوسف حسن والدكتور محمد بسيوني خفاجي. توفي التيفاشي سنة (٦٥١هـ = ١٢٥٣م). زار المذكور كُردستان باحثاً عن المعادن والأحجار الكريمة، وذكر أن حجر (بازَهر) أبيض فيه نقط من ألوان صفر وهو رخو المحك سريع الإنحكاك، تصنع منه قبضات السكاكين كما يستخدم للأغراض الطبية، حيث يحك بالماء ويُطلى به موضع الضربة أو السقطة، فيبرأ المصاب. وقد تناول أنستاس الكرملي (باد زهر) أيضاً في معجمه (المساعد، ص١٠٩) وإعتمد على التيفاشي بالدرجة الأولى ثم على إبن البيطار، وقال إن إسمه العلمي هو (بيزوليثس). في القاموس الفارسي (برهان جامع) لمؤلفه محمد كريم: أن (باد زهر) يذكر من قبل العوام (پازهر) وبالعربية (حجر التيس). ويسمى الكُرد في زاخو هذا الحجر بإسم (بەرێ بازى) أي حجر (بازى).

كتابه (أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، ص١٠٢). وفي القرن العاشر الميلادي الذي ظهرت فيه الدولة الدوستكية، كانت معادن النحاس والمغنيسيا معروفة في باجنسيا (باتنوس) الواقعة شمال شرق بحيرة وان(٧).

كما عرف فيها أيضاً عدد من النباتات الطبية، فقد ذكر ياقوت الحموي نقلاً عن مسعر بن مهلهل، الذي زار هذه المنطقة في القرن المذكور: "أن في باجنسيا معدن الملح الأندراني(٨) ومعدن مغنيسيا ومعدن نحاس وبها الشيح الذي يستخرج الدود من الجوف، إلا أن التركي خير منه وبها أبسنتين وأستوخودوس"(٩).

ويحتمل أن منجم الحديد أو النحاس الواقع في قرية (هلال) في وادي گويان في شرقي الجودي، والذي كان يستغله سكانه المسيحيون حتى وقت قريب، أن يكون مكتشفاً منذ زمن قديم. وهذه القرية قريبة من گورگيل (جردقيل) مركز الإمارة البختية في العهد الدوستكي. أما الرصاص، فكان يستخرج من نصيبين ويصدر الى الخارج على ما ذكره الجاحظ في القرن التاسع الميلادي(١٠).

وفي جبل ماردين كان يوجد حجر زجاج جيد كان يُصدر الى سائر بلاد الجزيرة والعراق والبلاد البيزنطية، وكان مفضلاً على سواه(١١).

(٧) راجع بصدد باتنوس- باجنسيا موضوع الحياة البشرية: العرب.

(٨) في تذكرة أولي الألباب، ج١، ص٣٢٣ لداود الأنطاكي أن الملح الأندراني هو من أجود أنواع الملح، وهو على شكل صفائح بلورية. وفي محيط المحيط للبستاني، ج٢، ص٢٠٥٦، أنه الملح شديد البياض المستعمل في الطعام.

(٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج١، مادة: باجنسيا. الشيح نوعان: الشيح الأرمني الذي ينبت في أرمينية ومن ضمنها باجنسيا من كُردستان، وهو أصفر زهره يشبه السذاب في ورقه، والنوع الثاني هو الشيح التركي وهو أحمر الزهرة عريض الورق. ويستعمل النوعان لأغراض طبية في مجال معالجة أوجاع الظهر والورك وضيق النفس وداء الثعلب والرمد وعسر البول... راجع الأنطاكي، تذكرة أولي الألباب، ج١، ص٢٢٠ وهو كتا مؤلف في الطب.

أبسنتين: يعرف أيضاً بأفسنتين ودمسيسة وشيح رومي وحترق، وهو عشبة معمرة من فصيلة المركبات الأنبوبية الزهر تنبت برياً في الأصقاع المعتدلة. وأفسنتين كلمة يونانية. والنبات معروف بإستخدامه للأغراض الطبية في معالجة آلام الأذن وفي تنقية الرئة والإختناق وسوء الهضم وطرد الديدان وعسر البول وأمراض أخرى. راجع داود الأنطاكي، تذكرة أولي الألباب، ج١، ص٤٩، ٥٢. وإدوار غالب، الموسوعة في علوم الطبيعة، ج١، ص٥.

ويجدر بالذكر أن نبات اسفنتين كما يسميه الكُرد معروف الآن في كُردستان، حيث يجمعه الناس في بعض المناطق ويغلونه ويشربون ماءه لمعالجة أوجاع البطن، ولازال الكُرد يستعملون نباتات كثيرة في طبهم الشعبي. وذكر الأنطاكي نباتاً طبياً بإسم الكُرد وهو (بخور الأكراد)، وهو برياطوده له أزهار صفراء فوق ساق دقيقة، راجع المصدر المذكور، ص٧٠.

أسطوخودوس: كلمة يونانية، ويسمى أيضاً الكمون الهندي وبالعربي الضرم، وهو نوع من الخزامى يبلغ طوله من ٢٠-٤٠ سم، أوراقه خيطية رمداء اللون أزهارها سنابل. وهو نبات طبي أستخدم قديماً في علاج أمراض كثيرة وهو مفيد للقلب وتنقية الكلية والطحال والمعدة والكبد. ويستخدم أيضاً في حالات الربو. ويستعمل بخور الأكراد كذلك في حالات الصداع والصمم. راجع الأنطاكي المصدر السابق، ج١، ص٤٢-٤٣. وإدوار غالب، الموسوعة في علوم الطبيعة، ج١، ص٣٥٥ وفي كتاب النبات للعالم الكُردستاني أبي حنيفة الدينوري، ج٣، ص٢١٠. أن الضرم أي أسطوخودوس طيب الرائحة يتشمم به وكذلك دخانه طيب ويدلك به أجواف الخلايا فتألفه النحل.

(١٠) الجاحظ، التبصر بالتجارة، ص٢٦.

(١١) إبن حوقل، صورة الأرض، ص١٩٤.

وقد ذكر ذلك كل من إبن حوقل والأصطخري في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). أما الزرنيخ فكان يستخرج في نفس القرن من أحد الجبال القريبة في جنوب بحيرة وان، ويجلب منه الى البلدان الخارجية وهو أصل الزرنيخ ومنه الأحمر والأصفر(١٢).

ومن الجدير أن أوليا چلبي تحدث ولو في وقت متأخر عن وجود الزرنيخ في السواحل الشمالية لبحيرة وان(١٣).

لقد كانت للزرنيخ المستخرج من هذه المناطق شهرة عالمية في القرون الوسطى بضمنها العصر الدوستكي نظراً لجودته وأهميته في المجال الطبي(١٤).

وكان الزنجبيل يصدر في القرون الوسطى من منطقة هكاري الواقعة في جنوب بحيرة وان، بنوعيه الأصفر والأحمر الى العديد من البلدان الخارجية(١٥). كما إكتشف في هكاري أيضاً معدن اللازورد(١٦). ومن بين المعادن التي ذكرت أيضاً في القرن العاشر الميلادي البورق، الذي كان يجلب

(١٢) الإصطخري، مسالك الممالك، ص٧٣. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٧٩.

(١٣) ذكر أنه توجد في خلاط وقد زارها في القرن السابع عشر وفي سنة (١٠٦٥م) بالذات، معادن مختلفة منها الزرنيخ الأحمر ويستعمل في الغسل (بطريقة يعرفها السكان) فيجعل البشرة لينة كالقطن، ويستعمل أيضاً دواءً للجذام والبرص، ومرض داء الثعلب وذلك بتناول المريض مقداراً قليلاً منه كالدانق. وذكر أيضاً أنه يوجد الزرنيخ الأصفر في الجبل الواقع شمال خلاط ويصدر الى بلاد العرب والعجم وأوروپا، حيث يستعمله الكيمياويون. كما ذكر أنه يوجد مختلطاً بالماء في أحد الينابيع في الجانب الشمالي الشرقي من جبل الجواز (عادل جواز)، أي جبل (سبحان- سيپانێ خەلاتێ) المطل على بحيرة وان. هذا ومما ذكره أوليا چلبي من إستخدام الزرنيخ في كُردستان في الطب صحيح، لأنه يستعمل الآن في دول مختلفة في الطب لتقوية البنية وفي علاج بعض الأمراض الجلدية بإعتبارة مادة سامة وكذلك في مكافحة الحشرات الزراعية. علماً أن الزرنيخ عنصر شبه معدني، والأحمر منه هو كبريتوز الزرنيخ الطبيعي. راجع موسوعة علوم الطبيعة، ج١، ص٤٨٧، تأليف المهندس الزراعي إدوار غالب.

(١٤) يمكن أن نلاحظ شهرة الزرنيخ العالمية مما مر ذكره داود الأنطاكي في كتابه الطبي، تذكرة أولي الألباب، ج١، ص١٧٧ من أن (كل الزرنيخ يتكون بجبال أرمينية وجزائر البندقية). ومن هذا يتضح أن قسماً كبيراً من الزرنيخ العالمي كان يستخرج من كُردستان. ونكرر الإشارة أيضاً الى أن معظم الجغرافيين والمؤرخين القدماء وغيرهم أدخلوا مناطق كثيرة من كُردستان تحت إسم أرمينيا حتى فارقين وحدود نهر دجلة. راجع على سبيل المثال إبن حوقل، ص٢٩٥. فالمقصود إذن بجبال أرمينيا التي كانت تضم معادن الزرنيخ إنما هي الجبال الواقعة في السواحل الجنوبية أو الشمالية الغربية لبحيرة وان، والتي كانت ضمن الدولة الدوستكية من البلاد الكُردية، ولم نسمع بوجوده في منطقة أخرى من أرمينيا. وكان للزرنيخ في القرون الوسطى أهمية كبيرة كمادة طبية وصناعية. راجع التفاصيل في المصدر المذكور. أرادت الدولة العثمانية على إستخراج الزرنيخ في هكاري في أواسط القرن التاسع عشر، وفي الأرشيف العثماني وثائق بهذا الخصوص كالوثيقة (A.A MD-29: 88 و A.A. M-26:11).

(١٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٣٧٦ نقلاً عن مسالك الأبصار للعمري. الزنجبيل: نبات له أوراق عريضة يفرش على الأرض وأغصان دقيقة. وفي كتاب النبات لأبي حنيفه أحمد بن داود وَنَنْد الدينوري الكُردي: أن للزنجبيل عروقاً تسري في الأرض، يؤكل رطباً ويستعمل يابساً وأجوده ما يأتي من الصين وبلاد الزنج. ويستعمل الزنجبيل في العقاقير الطبية فهو مدرر ويدفع الغازات ومهيج، وهو دواء لأوجاع الرأس وأمراض أخرى. راجع تذكرة داود، ج١، ١٨٠، وكتاب النبات، ج٣، ص٢١٤، طبع بيروت ١٩٧٤. وكانت عمان مشهورة فقط من بين بلدان الشرق الأوسط بنبات الزنجبيل.

(١٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٣٧٦. اللازورد: معدن يتخذ للحلي، أجوده الأزرق الشفاف الضارب الى حمرة وخضرة وهي كلمة فارسية. وأشار الى وجد اللازورد في جبال أرمينيا داود الأنطاكي كذلك كما ذكر فوائده الطبية.=

من سواحل بحيرة وان ويصدر الى العراق وغيره(١٧) من البلاد المجاورة حتى بلاد الشام ومصر(١٨) ولاشك أنه كان يستغل في عهد الدولة الدوستكية وقد أشار الطبيب إبن بطلان الى إستغلال معدن آخر في العصر الدوستكي وهو (جبصين) أي كبريتات الكلس المائي الطبيعي المتبلور، وذكر أنه كان ينقل من المناطق الجبلية(١٩). أما مجال إستخدامه فلم يذكره، ولاشك بأنه كان يستخدم في الأعمال الإنشائية وفي مجال الصناعة.

الفضة

أشار الدكتور جمال رشيد في كتابه القيم (دراسات كُردية في بلاد سوبارتو) الى وجود معدن الفضة في بلاد (تابال) المشهورة التي تقع شمال (كينكوار) مركز (أنزفيجك) في الزوزان أي على منابع نهر (بهتان)، بمعدن الفضة (في التاريخ القديم)، وذلك على ما ورد في أخبار حملة شلمنصر الآشوري عام (٨٣٨ ق.م).

يتضح مما تقدم أن معدن الفضة كان يوجد في المنطقة التي كانت تكثر فيها مناجم الحديد والنحاس. إذ أن (كنكوَر) كانت تقع في منطقة (كوه قەندیل- كور قنديل) وقلعة أروخ وهي قلعة من قلاع البختية، أي قلاع بهتان المجاورة لمنطقة (شاخا هەكارى). وقد ورد ذكر كنكور في معجم البلدان، ج٤، ص٤١٦ وكذلك في الأعلاق الخطيرة، ورقة ٦١ لإبن شداد(٢٠).

ومن المحتمل أن (كنيخوانو) كانت كينكور و(شالاخوانو) هي (شاخ - شاخا هەكارى)، حيث ورد الإسمان في الكتابات الآشورية الخاصة بأخبار الحملة الثالثة لـ(شمس أدد ٨٢٣-٨١١ ق.م). يحتمل أن منجم الفضة هذا، الذي كان معروفاً في القرن التاسع قبل الميلاد، كان معروفاً في العصور التالية

=راجع تذكرة أولي الألباب، ج١، ص٢٧٧. وقد فاتني أن أذكر أن القلقشندي أرخ لإكتشاف اللازورد في هكاري القرن الرابع عشر، وأضاف بأن الأمير الكُردي الهكاري أسد الدين بن عماد الدين بن أسد الدين أخفى معدن اللازورد، كي لا يسمع به ملوك التتر (ولعل الصواب المغول) فيستولوا عليه.

(١٧) إبن حوقل، ص٢٩٧. آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٣١٠. البورق: ملح معدني مركب مع الصوديوم، يكثر وجوده في التبت وإيران وكاليفورنيا. فوائده الإقتصادية كثيرة حيث يستعمل في عدة صناعات. راجع إدوار غالب، الموسوعة في علوم الطبيعة، ج١، ص١٧٤، ذكر أيضاً في ج٢، ص٥١١ نوعاً من البورق وهو المسمى بالبورق الأرمني، وقال إنه كيمياوياً نترات البوتاسيوم يتجمع على الصخور الكلسية ويستعمل في صنع البارود. وقال آدم متز في كتابه المذكور: إن البورق لم يوجد في غير بحيرة وان وكان الخبازون يستعملونه في القرن العاشر في تلميع الخبز. وذكر نوعاً من البورق نقلاً عن إبن حوقل وهو المسمى بورق الصاغة، حيث كان الصاغة يستعملونه في لحام الذهب والفضة. وكان يستخرج من سواحل بحيرة كبوذا أي (بحيرة أورمية) وهو مايستحجر من مياه البحيرة المذكورة الشديدة الملوحة. والبورق الأول نوع من الملح أقوى من الملح العادي. ولعله الملح الأندراني الذي سبق أن ذكرناه.

(١٨) دائرة المعارف الإسلامية، ج١، ص٦٦٢.

(١٩) إبن بطلان، دعوة الأطباء: مقدمة. راجع معنى آخر لجبصين في أوائل موضوع الحياة الإقتصادية.

(٢٠) ورد إسم كنكور في العديد من المصادر والمراجع منها كتاب (عمادالدين زنكي، ص١١٣) للدكتور عمادالدين خليل، وهي غير مدينة (كنكور) التابعة لأستان كرمانشاه والإسم بالكُردية وبالإملاء الكردي الحديث (کەنگیوەر أو كنگيوەر).

حتى العهد الدوستكي أيضاً. وكان في كُردستان الوسطى منجم للفضة في الألف الثاني قبل الميلاد، إذ يلاحظ مما كتبه المؤرخ الدكتور جمال أيضاً أن معدن الفضة كان موجوداً في ساديبار، وإسمها (شالاتوار)، في العهد الحيثي وإسمها في اليونانية (ساردیوارا) وبالأشورية (ساردیواري)، وكانت تقع بين دياربكر و(كوخ توشينيا) وكانت ضمن البلاد الميتانية. ويوجد معدن للفضة عند قرية أتَنان (ئەتەنان) في طرفها الجنوبي الشرقي، والقرية تقع على ساحل بحيرة وان بحوالى كيلومتر أو أقل وفي الطرف الشرقي من مدينة (وسطان) على الطريق العام، وكان الناس يستخرجونه في ستينات القرن العشرين والقرية تعود لعشيرة (بروكي) الكُردية.

الصناعات

النسيج:

لقد تعلم سكان كُردستان صنع النسيج للملابس قديماً، فقد عثر في (جايونو) شمال دياربكر على قطعة من النسيج ملفوفة بقرن أحد الحيوانات، وذلك في الألف السابع قبل الميلاد. وبسبب التطور الحاصل في عهد الدولة الدوستكية كما سلف، شهدت الصناعات التي كان يزاولها السكان تطوراً هي الأخرى. ومن هذه الصناعات: الصناعات اليدوية التي كانت صناعة النسيج القطني إحداها وتمثلت في صناعة الأنسجة الصوفية والقطنية والستائر الفاخرة المطرزة بعضها بالذهب، وكذلك المقارم والمناديل والسبنيات، وصناعة تجفيف الأسمال وصنع الموازين والأقفال والأواني الخزفية والعطور وغيرها. وكان تصنع في مدينة آمد (دياربكر) الستائر الجيدة، وكانت بعض الستائر موشاة بخيوط من الذهب في حين كان بعضها الآخر منسوجة بخيوط الذهب، وكانت الموصل تشاركها في هذه الصناعة[(١)]، فكانت تصدر ثيابها الموشية الى الخارج[(٢)]. وعرفت مدينة فارقين عاصمة الدولة الدوستكية بصناعة السِّبَنيّات والمقارم والمناديل[(٣)].

وكانت صناعة النسيج قديمة أصيلة في مدينة دياربكر، فقد كانت مركزاً هاماً لها وإنتقلت منها ومن مدن إقليم الجزيرة صناعة النسيج الحريري الى بلاد إيران. فقد ذكر المؤرخون وفي مقدمتهم المسعودي أن الملك الساساني شابور الأول غزا في المدة (٢٥٨-٢٦٠ م) بلاد الجزيرة وآمد، حينما كانت في أيدي الرومان، ونقل الكثيرين من صنّاع النسيج الى إقليم خوزستان من إيران، وأسكنهم في السوس (شوشتَر - شوش). فإنتقلت صناعة النسيج من مدينة آمد (دياربكر) الى هناك، وأصبحت تعتبر أكبر مركز لصناعة نسيج الحرير[(٤)] في بلاد الإمبراطورية الساسانية، ثم في البلدان

(١) الدكتور عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الإقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص١٣٤. سعيد الديوەچي، الموصل.

(٢) أحمد ممدوح حمدي، معدات التجميل بمتحف الفن الإسلامي بالقاهرة، ص٢٥. في العهد الأتابكي، ص٤٦. راجع أيضاً الدكتور فيصل السامر، الدولة الحمدانية في الموصل، ج١، ص٣٤٧.

(٣) إبن حوقل، صورة الأرض، ص٣٤٥. السبنية إزار أسود للنساء والمقارم الثياب الرقيقة والستائر الحمراء أيضاً.

(٤) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص٢٥٩. آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٣٥٢. الدكتور زكي محمد حسن، الفنون الإيرانية في العصور الإسلامية. سعيد النفسيي، تاريخ تمدن إيران ساساني، ص٤٤. أضاف الأخير أن الساسانيين ورثوا من الآشوريين تهجير الأمم المغلوبة وإسكانهم في أماكن بعيدة عن أوطانهم.

الإسلامية كافة حتى القرن العاشر الميلادي. وقد نقل العباسيون صنّاع النسيج هؤلاء من تُستَر الى بغداد، لكي تنتشر فيها صناعة نسيج الحرير، وكانت في الجانب الغربي من بغداد محلة بإسم التُستَريين(٥). وقد حدث نقل لسكان كُردستان الوسطى الى خوزستان ولورستان أكثر من مرة(٦). وتشتهر آمد (دياربكر) بعدة صناعات تقليدية كالأقمشة الحريرية ومشغولات الجلود والنحاس(٧)، وهي صناعات قديمة ولعل صناعة الحرير لم تنقطع منها منذ عهد البيزنطيين وحتى القرن العشرين. وتجدر الإشارة الى وجود حرير بري في كُردستان يسمى (قز) والثياب المصنوعة من هذا القز تسمى ثياب القز(٨)، وثياب الصوف وثياب الكتان(٩).

أما مدينة نصيبين فكانت أيضاً مركزاً لبعض الصناعات ومنها صناعة الموازين (جمع ميزان) ودوايات الحبر والكوازين، على ما قاله المقدسي الذي دون معلوماته سنة (٣٧٥هـ = ٩٨٥م)، أي في أوائل العهد الدوستكي(١٠). كما إشتهرت هذه المدينة أيضاً بصناعة الستور والفرش(١١)، وإعتبر الثعالبي الذي عاش في العهد الدوستكي ستور نصيبين من أجود وأشهر أنواع الستور(١٢). ومن صناعات نصيبين أيضاً ماء الورد(١٣). وقد أبدى إبن بطوطه إعجابه بعطور نصيبين وقال لا نظير لها في الطيب، علماً أن وردها كله أبيض بحيث لايوجد فيه ورد أحمر(١٤).

ويظهر أن صناعة ماء الورد قد إنتقلت من نصيبين الى منطقة (الباب) من حلب، حيث ذكر إبن الشحنة أن ما يصنع في الباب من ماء الورد الجيد الذي يستعمل في الطب وأغراض أخرى يسمى بماء الورد النصيبي(١٥).

(٥) ميخائيل عواد، صور مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي،ص٤٠. علماً أن تستر هي مدينة (شوش) في لورستان الكُردية.

(٦) ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان، ج١، ص١٤٣ أن الملك الساساني فيروز بن قباد هجّر سكان دياربكر وفارقين الى إيران، وبنى لهم مدينة أرجّان بين فارس والأهواز. راجع أيضاً، تاريخ الكُرد وكُردستان، ص١١٧ لمحمد أمين زكي.

(٧) أحمد عطية القاموس الإسلامي، ج٢، ص٤١٤.

(٨) في كُردستان شجيرة تسمى (قاژک - ڤاژکێ پەزی و قەرەقاچ) ترتفع عن الأرض بمقدار متر أو أكثر بقليل كثيرة الفروع أوراقها شبيهة بأوراق الريحان وثمارها تشبه الباقلاء وحباتها تشبه حبات الفاصوليا بلون بنفسجي. تأكل دودة القز أوراق هذه الشجرة وتضع عليها شرانقها. كانت النساء تصنع منها ثياباً من الحرير السميك تسمى ثياب القز (كراسێ قەز). وكانت النساء في بوتان تلّون القماش بلون أسود. وهذا الحرير الكُردي بري أي لاتعتمد صناعته على تربية دودة القز وأوراق التوت.

(٩) حمدان الكبيسي، أسواق بغداد، ص١٩١.

(١٠) المقدسي، ص١٤١.

(١١) المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص٢٥٩.

(١٢) الثعالبي، ثمار القلوب، ص٣٥٨.

(١٣) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٣٨٣.

(١٤) رحلة إبن بطوطه، ص٢٣٧.

(١٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٣٢١. راجع أيضاً لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص١٢٥. حمد الله المستوفي، نزهة القلوب، ص١٠٦ باللغة الفارسية.

ومما كان يصنع في نصيبين وأعمالها أيضاً الشراب بكميات كبيرة، وقد فرض عليه الحمدانيون ضريبة بمقدار العُشر، وسموا هذه الضريبة بأموال اللطف. وقد جُبي من ضريبة شراب نصيبين سنة (٣٥٨هـ = ٩٦٨م) مبلغ خمسة آلاف دينار، وهذا يدل على أنه صُنع من الشراب في تلك السنة ما قيمته (٥٠) ألف دينار(١٦).

لانعلم هل إن الشراب ظل خاضعاً للضريبة في العهد الدوستكي أم لا؟ لقد ذكرنا سابقاً أن الخمر كانت تصنع من العنب في منطقة طورعبدين المجاورة لنصيبين، وذلك في العهد البابلي الحديث. ومن المدن الكُردية التي إشتهرت ببعض الصناعات مدينة أرزن (غەرزان)، التي كانت تصنع فيها المنسوجات من الأزر (مفردها إزار) المرفاع والأبراد والبطاين والنصافي، وكانت هذه المنتوجات تصدر الى البلاد الأخرى. أما ماردين فكانت مركزاً لصناعة نسيج (المرعز) على ما قاله إبن بطوطه(١٧).

وكان يُصنع من شعر الماعز من نوع مرعز (چور، مەرەز)، ومنه يصنع الكُرد زيهم الوطني (شال وشەپک-رانک وچۆخه). ويمكن أن يُفهم من إشارة إبن بطوطه هذه أن صناعة الشال والشپك الخاص بالكُرد من بين شعوب منطقة الشرق الأوسط كانت موجودة في القرن الرابع عشر. وهي صناعة قديمة خاصة بكُردستان وغير مستوردة من الخارج، وأغلب الظن أنها كانت ترجع الى تاريخ قديم. هذا مع العلم بأنه تُصنع الآن في ولاية ماردين عدة أنواع من هذا النسيج بألوان مختلفة، منها المطرز بأشكال هندسية والذي يسمى في كُردستان العراق بإسم (شرنخي). وفي بعض المصادر ذكر لـ(النسيج الماريني الأبيض)، وهو الخام القطني السميك المعروف لدى الكُرد بـ(جاو). وتعتبر ولاية ماردين أكبر منتجة لهذا الخام، وخصوصاً القصبات التابعة لها مثل ئيستل، کەرەجوس، حسنكيف (حصن كيفا). وما كان ينسجه الحاكة المهرة هناك أفضل بكثير من حيث المتانة والبياض مما ينسج في مناطق أخرى من كُردستان، ولهذا فإنه كان يُصدر الى المناطق الأخرى مثل بوتان حتى خمسينات القرن العشرين. وصناعة الجاو القطني قديمة جداً في كُردستان، وكانت تعد بلاشك من أهم الصناعات الوطنية في العهد الدوستكي، كما كان يصنع نوع أقل سمكاً يسمى (مەڤروم)، ولاشك بأن صناعة هذا النوع الأخير كانت موجودة في العهد الدوستكي.

أما مدينة خلاط الواقعة على ساحل بحيرة وان، فكانت مركزاً لبعض الصناعات منها الجباب، وذلك في أيام الدولة الدوستيكة. وأشار الى الجباب الخلاطية الأمير الشاعر حسين بن داود البشنوي الفنكي أحد شعراء الدولة الدوستكية(١٨).

وكانت خلاط تستورد في القرن العاشر الميلادي، الذي تأسست فيه الدولة الدوستكية، كميات

(١٦) إبن الشحنة، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، ص٢٥١.

(١٧) رحلة إبن بطوطه، ص٢٣٨. وصل ماردين سنة ٧٢٨هـ. راجع لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص١٢٦. وفريال داود، المنسوجات العراقية الإسلامية، ص١٨٥. وأضافت أن ماردين كانت تنتج نسيجاً قطنياً حسن الملمس كان يستخدم للبطانة عرف بإسم (بوكاسيني) أو بكرام.

(١٨) أشار البشنوي الى ذلك في قصيدة جيمية في البيت التالي:

"ولا عيب فينا غير أن جبابنا   خلاطية ما دبجتها النواسج"

راجع خريدة القصر، ج٢، ص٥٤١: قسم الأكراد الفضلاء.

كبيرة من القطن من القصبات الواقعة على خابور رأس العين(١٩)، لإستخدامها في صناعة النسيج وفي المجالات الأخرى. علماً أن خلاط كانت من أكبر وأهم مدن حوض بحيرة وان. ومن المحتمل أن الصبغ بـ(قرمز) كان معروفاً بين سكان المناطق الشرقية من البلاد الدوستكية. وكان الكُرد بدون شك في منطقة (دبيل) من إقليم آرارات كالأرمن هناك يصبغون الثياب وغيرها بالقرمز الأحمر.

وقد إشتهرت دبيل (دوين) ومنها أيوب والد صلاح الدين الأيوبي وكانت تحت نفوذ الكُرد(٢٠) إبان، وفي، العهد الدوستكي، بإستعمال القرمز في صبغ الثياب المرعزية و بالبسط والأنماط والتكك وغيرها(٢١) من منسوجات دبيل(٢٢). وصنع القرمز كان يتم بتجفيف دود القرمز ثم سحقه لتصبغ به الأقمشة، وإسم (القرمز) شائع الآن في كُردستان. وقد إستعمل الكُرد قديماً كالشعوب الأخرى الزعفران في صبغ المنسوجات باللون الأصفر والبرتقالي لوجود هذا النبات بكثرة في كُردستان. وقد

(١٩) الإصطخري، مسالك الممالك، ص٧٤.

(٢٠) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٣٧٧.

(٢١) الإصطخري، مسالك الممالك، ص١٨٨. إبن حوقل، صورة الأرض، ص٢٩٤. آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٣٠٩. ذكر كال من الإصطخري وإبن حوقل أن سكان دبيل يصنعون القرمز من دودة تنسج حول نفسها كدودة القز، أي تصنع شرانق.

(٢٢) طلبت من السيد ألكساندر خجاتريان الأرمني من سكان أرمينيا أن يحدد لي موقع مدينة ديبل. فكتب الي رسالة مؤرخة في ١٩٧٩/٧/١٢ قال فيها ،أنها الآن خرائب وهي تخضع للتنقيبات منذ الخمسينات وتبعد عن العاصمة يريڤان بحوالي (٢٥) كلم وعن مدينة (أرطاشات) بـ(٥٠؟) كلم، وتسمى الآن بـ(دوڤين) ودبيل أيضاً. وفي الجانب السوڤياتي شيدت حديثاً هناك مدينة بإسم (دوڤين) تحمل إسم تلك المدينة. والنهر الذي بينها وبين (أردشاط) يدعى نهر (جرنى) وعُرف أحياناً بـ(نهر الكُرد). ودبيل إسم مستعرب. وقد كتب لي عنها في رسالة أخرى أيضاً وكان يعد رسالة دكتوراه وقد توفي الدكتور ألكساندر خجاتريان في يريڤان عام ١٩٩٩، حسبما ذكر لي الدكتور شاكرو خدو في ٢٠٠٠/١١/١٢ عندما قدم الى السلميانية. فبكيت لوفاته، وكنا نتبادل المعلومات الأثرية والتاريخية. وفي دائرة المعارف الإسلامية الجزء التاسع بحث بصدد (دبيل) حيث كانت دبيل من كبريات مدن أرمينيا في القرون الوسطى، وكان الكُرد يشكلون قسماً من سكانها، وكانت تحت نفوذ الكُرد في القرن العاشر الميلادي حسبما قاله المقدسي في (أحسن التقاسيم، ص٣٧٧). وقد ذكر إبن حوقل في (صورة الأرض، ص٢٩٤) أنها أكبر من (أردبيل) وإنها عاصمة أرمينية. هذا وكان قسم من قبيلة الروادية الكُردية الكبيرة أو قسم منها (الذي أسس دولة كوردية في أذربيجان في القرن العاشر الميلادي وكانت فرعاً من الهذبانية) يقيم في (ديبل). وكانت في أول الأمر عاصمة للدولة الشدادية الكردية التي قال بعض المؤرخين أن الشداديين كانوا من الرواديين ايضاً. والكُرد يسمونها (دوين). وهناك عدد من القرى بإسم (دوين) في كُردستان ومنها (دوين) الواقعة في شمال أربيل. كانت بليدة ويقول كُردها أن صلاح الدين منها (أي من دوين أربيل)، علماً أن عشيرة روادي (ره‌وه‌ند) التي منها عشيرة (ره‌وه‌ندۆک) التي تقيم في برادۆست حالياً- كانت تتردد بين أربيل وأذربيجان، وكان قسم منها في (دبيل) وإدعاؤهم غير صحيح. راجع صورة الأرض، ص٢٩٠. ومعجم البلدان، ج١، ص١٤٦. ومن الواجب العلمي أن ننبه هنا القراء الكرام الى أن الأستاذ عبدالخالق سرسام، قد ذكر بأن صلاح الدين الأيوبي من قرية (دوين) الواقعة شمال أربيل. وقد نشر ذلك في الجرائد والمجلات وقنوات التلفزيون وفي كتاب بإسم (صلاح الدين الأيوبي من جديد) سنة (٢٠٠٠). فرددت عليه بمقال مفصل نشر في مجلة (هه‌زار مێرد) العدد (١١) الصادر في آذار ٢٠٠٠. وذلك بعد أن قمت بجولة في (دوين) والقرى المحيطة بها ليومين متتاليين وسجلت مقابلات صوتية وصورية مع العديد من سكانها، وصوّرت كذلك آثارها. ويشتمل مقالي على دراسة للرسوم الموجودة على مجموعة من شواهد القبور في دوين وبابا جيجك، كرسوم السيوف والخناجر والبنادق والمسدس وغيرها. وقد قال السيد سرسام بأن صلاح الدين قاتل الصليبيين بتلك السيوف دون أن ينتبه للأسلحة النارية الحديثة المجتمعة مع رسوم السيوف والخناجر... على تلك الشواهد التي تعود الى الفترة الأخيرة من عهد إمارة سوران.

وردت إشارة تاريخية الى أن بلاد ميديا القديمة (أي كُردستان) كانت أكبر موطن للزعفران. وفي القرن العاشر الميلادي كان الزعفران يزرع في بلاد الشام وإيران لإستعماله في الصباغة(٢٣). كما إستفاد الكُرد في صباغة المنسوجات من مجموعة من النباتات كقشور الرمان والعفص ومن ثمرة نفس الشجرة المسماة بالكُردية بـ(گلور) وعرق السوس وكذلك الصباغة ببول وروث الحيوانات(٢٤). لقد ذكرنا في معرض الحديث عن النسيج والأقمشة في موضوع (العلاقات مع الدولة الفاطمية) أنه كانت تصنع في مدينتي (تينيس) و(دمياط) سنوياً في عهد نصرالدولة الملابس الرسمية الخاصة بالأمراء وكبار رجال الدولة، وكان يُنقش عليها أو على بعضها شعار الدولة الدوستكية. وكانت المدينتان تنتجان أفخر أنواع الأقمشة والملابس وهما من الوجه البحري في مصر.

صناعات أخرى

كانت توجد في كُردستان الوسطى في العهد الدوستكي صناعات أخرى كصناعات الأحذية ودباغة الجلود والصابون. ومازال الكُرد يصنعون الصابون حتى الآن بكميات كبيرة في كُردستان تركيا وخاصة في بوتان. إذ يصنعونه من زيت الحبة الخضراء (كەزوان – قەزوان) لوجود تلك الشجرة بكثرة في كُردستان، ومنها ما هو بري وملكيته مشاعة. والمعتقد بأن الكُرد عرفوا صناعة الصابون من الحبة الخضراء المذكورة منذ عهود بعيدة. وتجدر الإشارة الى أن مدينة (الرقة) القريبة من كُردستان الوسطى كانت في العصر الدوستكي من أكبر مراكز صناعة الصابون، وكانت تصدر كميات كبيرة منه الى الخارج. ولا بد بأن الدولة الدوستكية كانت تستورد منها الصابون عند الحاجة وقد جاء إسم صابون (الرقي) من المدينة نفسها. أما بالنسبة للصابون في تأريخ كُردستان القديم، فقد إستعمل سكانها نبات (ئەسپون) في تنظيف الملابس وغيرها كنوع من الصابون. وقد إكتشفت المديرية العامة للآثار في العراق أثناء التنقيب في تل (چراغ) في سهل شهرزور بمحافظة السليمانية (الذي يرجع تاريخ الإستيطان فيه الى الألف الرابع قبل الميلاد) آثاراً لنبات (ئەسپون) من ذلك العصر(١).

(٢٣) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٣١٠.

(٢٤) في ١٩٩٩/٤/٦ سجلت معلومات صوتية للسيد خوشناو أمين عزيز من السليمانية بخصوص مواد الصباغة عند الكُرد، وللمذكور معرفة جيدة بالفرش وكيفية نسجها خاصة في منطقة (بيجار) الكُردية التابعة لسنندج، والتي سمعت من الكثيرين بأن فرشَها تعد من أفضل أنواع الفرش في إيران. وذكر السيد خوشناو بأنه يوجد الآن في بيجار فرش بحجم مترين ونصف بعشرين ألف دينار. وأن صنّاع الفرش الكُردية في (سنه) و(بيجار) كانوا يستخدمون في صباغة أصواف فرشهم روث الحيوانات وبولها وخاصة الأبقار. إذ كانوا يبدلون نوعية علف تلك الأبقار كل شهر لإحداث تغيير بسيط في لون بولها، وكان التغيير حساساً ودقيقاً وذلك للحصول على الدرجات اللونية المطلوبة. كما إستخدم هؤلاء في تلميع المنسوجات نباتاً إحتفظوا بسرية إسمه بحيث لايعرفه الصنّاع الفرس كما لايعرفه قسم من الصناع الكُرد أنفسهم. وتلميعهم للفرش تلميع عجيب يعطيه لمعة الحرير. وقد إستخدموا مع نبات التلميع المذكور قلنسوة البلوط الأخضر. كما إستعملوا في الصباغة أيضاً غدد الحيوانات بعد ذبحها، كما إستخدموا الماء (ماء المطر) الذي يبقى في سيقان الأشجار الهرمة مدة طويلة ويتحول لذلك الى نوع من الحمرة. وتوجد أحياناً سبع درجات (تونات) من اللون الأحمر تطلى به الفرش (مافور)، كما إستفادوا من نباتات أخرى للصباغة.

(١) راجع مقال (Hans Helbeek) من متحف كوبنهاگن والمترجم الى الكُردية من قبل (كُردستان) والمنشور في مجلة (هەزار مێرد) العدد ٣ سنة ١٩٩٨ ص٧٧. علماً أن السومريين كانوا يمزجون رماد نبات الحلفا بالزيت والطين كنوع من الصابون.

هذا وقد إستخدم الكُرد في سهل رانية، والمناطق الأخرى، نبات أسپون في غسل ملابسهم وأجسامهم حتى عشرينات القرن العشرين أثناء فترات شحة الصابون. وكان ناصر خسرو قد رأى أثناء مروره بالبلاد الدوستكية الكُرد وهم يصنعون القطران من الأخشاب الرطبة بالقرب من موقع (أويس القرني) عند مدخل (گەلى بدليس)، وذكر أنهم يصدرونه الى الخارج(٢)، وكان ذلك القطران يستخدم لأغراض طبية مختلفة(٣).

تمليح وتجفيف الأسماك

من الصناعات الموجودة في كُردستان في العهد الدوستكي، صناعة تجفيف وتمليح أسماك بحيرة وان(٤)، وكان لصيد أسماكها من نوع الطريخ(٥) ولتجفيفه أهمية كبيرة، حيث كانت مصدراً من

(٢) ناصر خسرو، سفرنامه، ص٤٠.

(٣) ذكر داود الأنطاكي في كتابه الطبي (تذكرة أولي الألباب الجامع للعجب العجاب، ج١، ص٢٦١) كيفية صنع = القطران فقال: هو نوعان، النوع الغليظ البراق الحاد المعروف بـ(البرقي) ويصنع من شجرة (الشربين- نوع من العرعر) (أي هەڤرست بالكُردية) والتي تتواجد بكثرة في كُردستان، وخاصة في الجبال العالية شبه الباردة. أما النوع الثاني، فيصنع من شجرة الإرز أو السدر. حيث تقطع الأشجار وتجعل في قبة مبنية على بلاط سوي فيها قناة الى الخارج، وإذا ما أوقدت حولها النار فإنها تقطر. أما مجال إستخدامه الطبي، فقد ذكر بأنه يستخدم لعلاج أوجاع الأذن والصدر والسعال والربو وتقوية الكبد وطرد الديدان ووضع الجنين ومنع الحمل وللحساسية (الحكة) والجرب. كما يستخدم لمنع توليد القمل وهو مفيد للبرد والطاعون والوباء ولتحنيط أجساد الموتى حيث يحفظها من التفسخ، ولهذا سمي بـ(حياة الموتى)، بالإضافة الى أغراض طبية أخرى ولغير ذلك من الأمراض.

(٤) بحيرة وان: مثلثة الشكل إرتفاعها (١٧٢٠) متراً ومساحتها (٣٧٦٤) كم٢ وطولها من تطوان غرباً الى بندي ماهي شرقاً (١٢٥) كلم، وعمقها من (١٠-١٠٠) متر. يرى الجيولوجيون أن بحيرة وان وكذلك أورميه والبحيرات المرّة في إيران هي من بقايا بحر (تشس)، الذي غطى كُردستان ثم إنحسر عنها عدة مرات في العصور الجيولوجية. وكان البحر يترك في كل مرة طبقة رسوبية، كانت تمتد في بعض العصور من أسبانيا الى جبال خنكان في الصين. وبعد إنسحاب بحر تشس إنحصرت المياه بين التعاريج الجبلية، التي تكونت بسبب الحركات الأرضية التكتونية وإنعدم وجود منفذ لخروجها. وهكذا تكونت بحيرتا وان وأورميه. وتوجد في أطراف بحيرة وان مجموعة من البحيرات الصغيرة أكبرها بحيرة (آرجاك) الواقعة في شرقها ومساحتها (١٠٠كم٢)، وبحيرة (نازك - نازوك)، وبحيرة (بولانق - بلانوخ). وتقع نازوك في شمال شرق جبل نمرود البركاني، بينما تقع بولانق في غرب ملازگر وماؤها عكر دائماً. وهذه البحيرات الواقعة في أطراف بحيرة وان تتجمد في الشتاء لعدة أشهر فيسير الناس وتسير القوافل فوقه. وتقع على سواحل بحيرة وان مجموعة من المدن الكُردية الجميلة ذات المواقع الجذابة منها: وان، وسطان، أرديش، الجواز، خلاط، تطوان ورشادي. وأكبر تلك المدن وان، وحولها مواقع أثرية منها (قلعة وان) الأثرية المنيعة التي يعود تاريخها الى عهد حكومة أورارتو (الخلديين)، أي الى ما يقارب ثلاثة آلاف سنة، وتوبراق قلعة عاصمة أورارتو التي عثر فيها على كثير من الآثار القديمة. وفي شتاء ١٩٩٥-١٩٩٦ عندما كنت في إستنبول حدثت ظاهرة جيولوجية في بحيرة وان، حيث إرتفع مستوى مائها وغطى أرضية مينائها، وقسماً من شارع الميناء. فخاف سكان وان من غرق المدينة في حالة إستمرار إرتفاع منسوب المياه. وأحدثت الظاهرة ضجة في الصحف والإذاعات ومحطات التلفزة التركية. ولم يُعرف سبب لذلك الإرتفاع، ولكن قيل بأن نهراً إنفجر في قاع البحيرة. إلا أن منسوب مياه البحيرة أخذ بعد فترة بالهبوط. وذكرت وسائل الإعلام بأنه حدث مثل هذا الإرتفاع في منسوب مياهها مرات أخرى في التاريخ، كما أذيع بأن مياه البحيرة قد أغرقت إحدى المدن في التاريخ البعيد. وقد سمعت مرات عدة من كثيرين من سكان منطقة وان في الخمسينات حينما كنت هناك، عن وجود آثار إحدى المدن في قاع البحيرة بالقرب من ساحلها عند مدينة وان، وهو خبر متواتر بين الناس.

مصادر الرزق. وكان السكان يصطادونه بكميات كبيرة ويصدره التجار الى بلاد الشام والعراق وإيران وأفغانستان. وقد ذكر ياقوت الحموي بأنه رأى أسماك بحيرة وان في بلخ، وسمع أنه توجد في غزنه أيضاً(٦)، أي في بلاد أفغانستان. كما ذكر القزويني أنها تصل الى الهند(٧). أما المقدسي فعدّها من بين واردات وصناعات أرمينية، وذكرها ضمن التجارة القادمة من الموصل(٨). هذا مع العلم بأن صناعة تمليح وتجفيف الأسماك كانت موجودة منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد في العراق(٩).

وكان عدد من المؤرخين والجغرافيين القدماء قد ذكروا ذلك بإعجاب ناشيء من كون الأسماك لاتظهر في البحيرة مدة عشرة أشهر، ولكنها تخرج في شهرين وبكثرة تتيح للسكان إصطيادها بأيديهم. وما قاله أولئك المؤرخون صحيح لأن الأسماك لاتظهر هناك إلا في موسم التناسل. فتخرج حينها الى الأنهار التي تصب في البحيرة مثل نهر (حافة سور) الواقع في الزاوية الجنوبية الشرقية للبحيرة. وعندئذ يقوم السكان بإصطيادها بالأيدي وبالزنابيل ويملؤون سلالهم دون عناء يذكر، وكنت قد شاهدت ذلك في الخمسينات. وقد عُرفت أسماك تلك المنطقة بالطريخ في المصادر الإسلامية، حتى إن المصادر الإسلامية ذكرت البحيرة بإسم (بحيرة الطريخ) أيضاً. ومما يدل على الأهمية الإقتصادية لصيد أسماكها، إستملاك البحيرة من قبل محمد بن مروان الأموي والي أرمينية. وظلت البحيرة مستملكة بينما كانت مشاعة سابقاً لكل الناس حتى عهد الخليفة الأموي مروان الثاني، ثم إستولى عليها العباسيون مثل ممتلكات مروان الأخرى(١٠). وفي الحقيقة ظلت البحيرة خاضعة للضريبة العباسية، فقد ورد مقدار ضريبتها في قائمة كل من الجهشياري وإبن خلدون لخراج أرمينية في العصر العباسي الأول. وكانت ضريبتها عشرة آلاف رطل من الطريخ(١١). وتقابل طريخ باليونانية كلمة (Thrissa) وهو يقوم مقام الأسماك المعلبة ويقابله سمك (نن)، الذي كان يتم إصطياده في شواطيء إسپانيا وشمال أفريقية(١٢).

ولاشك أن تمليح وتجفيف أسماك هذه البحيرة للحفظ كان موجوداً في العهد الدوستكي أيضاً، أما الآن فلا يجففها إلا قليل من الناس. وتفيد المصادر التركية بأن ما يتم إصطياده سنوياً من أسماك

(٥) الطريخ : جنس من الأسماك له (١٥) نوعاً منتشرة في بحار العالم، رؤوسها كبيرة مصفحة هرمية الشكل وأجسامها من ١٢-٢٠ سنتيمتراً، ومنها الطريخ الأشهب والرمادي والصغير والكبير. راجع الموسوعة في علوم الطبيعة للمهندس الزراعي إدوار غالب، ج٢، ص٩٧.

(٦) ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٤٥٨.

(٧) القزويني، آثار البلاد، ص٥٢٥.

(٨) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص٣٨٠، ١٤٥.

(٩) ليو أوبنهايم، بلاد مابين النهرين، ص٥٩.

(١٠) الهمداني، مختصر كتاب البلدان، ص٢٩٣. البلاذري، فتوح البلدان، ص٢٠٣. حسن أحمد وأحمد إبراهيم، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص٢١٢.

(١١) الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص٢٨٦. إبن خلدون، مقدمة، ١٨٠.

(١٢) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ص٣٠٦.

بحيرة وان يبلغ (٥٠-٦٠) طناً. أما بحيرة نازوك الواقعة في شمال غرب بحيرة وان، فإنها شبيهة تماماً في موسم أسماكها ببحيرة وان. وقد تحدث عن أسماك نازوك المؤرخ والرسام شرفخان أمير بدليس في (ورقه ١٢١ من شرفنامه، مخطوطة مكتبة بودليان، رقم ٣١٢)، وهي بخط المؤلف وهي النسخة الأولى من الكتاب، حيث ذكر بأنه وضع يده على صيد أسماكها وأجّر صيده لعدة سنوات لصالح مالية إمارته، ولكن صادف ذلك عدم ظهور الأسماك في تلك السنين.

الصناعات المعدنية

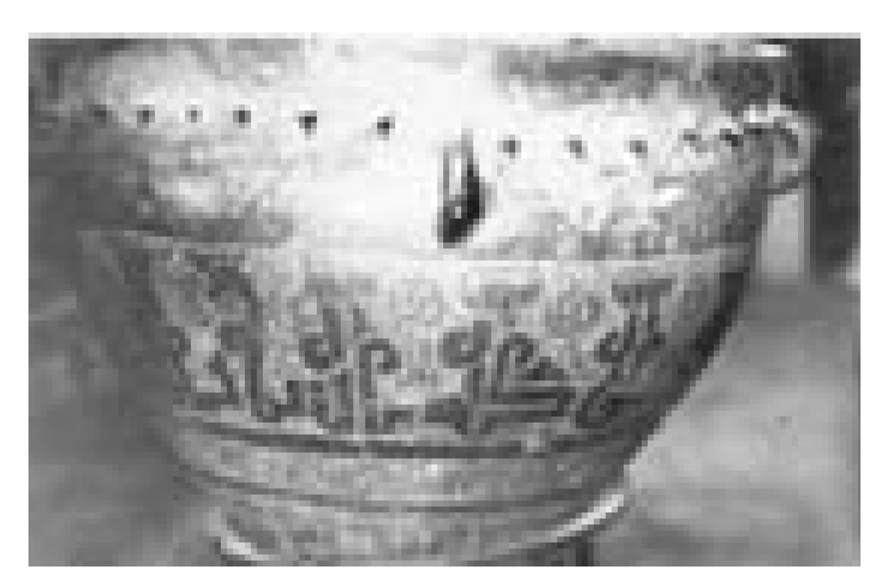
يعود تاريخ الصناعات المعدنية في كُردستان الى تسعة آلاف سنة. فقد كان سكان (جايونو) الواقعة في شمال مدينة دياربكر بـ(٥٠) كلم والقريبة من منبع نهر دجلة، يصنعون أدوات من النحاس على ما سنذكره. ولعل ذلك من أقدم الإكتشافات الأثرية في مجال التعدين والصناعات المعدنية. فقد سبق سكان كُردستان غيرهم في مجالات معرفة المعادن والزراعة والنسيج والعمارة، وجميعها تعد من أسس الحضارة البشرية.

لقد أشار الفارقي في (ص١٤١ و١٤٥) الى باب النحاس الذي تم صنعه بشكل فني بديع لنصر لدولة بمدينة (النصرية)، التي وضع تخطيطها وإختار موقعها على ضفة نهر ساتيدما (نهر باطمان) سنة (٤٢٣هـ = ١٠٣٢م). وقد تم نقل هذا الباب بعد زوال الدولة الدوستكية الى جامع فارقين. وقد وجده الفارقي ووجد إسم نصرالدولة مكتوباً عليه وإعتبره، نظراً لأهميته من الناحية الفنية، من جملة آثار نصرالدولة. ولما قدم ناصر خسرو الى فارقين في عهد نصرالدولة، شاهد باباً حديدياً مشبكاً في كنيسة دياربكر وأبدى إعجابه به على ما ذكره في (سفرنامه، ص٤٨).

وتجدر الإشارة الى أن مدينة دياربكر أشتهرت بصناعاتها وتحفياتها المعدنية، وقد أعجب بها أوليا چلبي، الذي زارها في القرن السابع عشر. وقال إن عدد الحدادين وصنّاع التحفيات الذهبية والفضية والمعدنية المكفتة بالذهب والفضة أكثر من سائر أصحاب المهن والصناعات الأخرى. وأن رساميها ونقّاشيها تفوقوا على (ماني) و(بهزاد)، وأن ما يصنع في دياربكر من السيوف والخناجر والرماح والنشاب وطبرزين والمسدسات مشهورة في العالم. وإن الحدادين يضربون أثناء العمل بمطارقهم على أنغام مقامات (سيگاه) و(الحسيني) وغيرها، وهم بأنفسهم يغنون هذه المقامات أثناء العمل ومن يسمعهم يقف عن الحركة[١].

ولاشك أن صنّاع دياربكر قد ورثوا الكثير من صناعاتهم ومهاراتهم من أسلافهم الذين عاشوا في عهود مختلفة من القرون الوسطى، منها العهد الدوستكي عهد الإستقرار والإزدهار التجاري والصناعي والعمراني الذي أشار إليه (إبن بطلان) وغيره. وقد سبقت الإشارة اليه في أوائل موضوعنا (الحالة الإقتصادية). وتوجد الآن نماذج راقية من تلك الصناعات التي تعود الى القرون

(١) أوليا چلبي، سياحتنامه، ج١، ص٤٩، ٦٢: الترجمة الكُردية لسعيد ناكام.



طبل

الوسطى، وهناك صور لبعضها في كتاب (دياربكر تاريخي) لبسري كونيار. وفي تموز ١٩٧٧ وجدت في متحف الأوقاف بإستنبول طبلاً من الحديد (تورك إسلام صنعتلري موزهسي، رقمه ٢٨٣٢) تزيّنهُ الزخارف الجميلة مع كتابة كوفية، ويعود الطبل الى القرن الثاني عشر على ما جاء في تعريفه. صورة الطبل في الصفحة التالية.

ومما لاشك فيه أن صناعات العالم الفيزيائي والمهندس الميكانيكي والرسام والفلكي إبن رزاز الجزري، الذي عمل في مدينة حصن كيفا ومدينة دياربكر (آمد) في القرن الثاني عشر، وألّف في آمد أعظم كتاب في الميكانيك في العهد الإسلامي على الإطلاق، تركت تأثيرها في صناعات دياربكر وتقدمها وفي مهارة صنّاعها ولا بد أن يكون له تلاميذ فيها منهم على ماأرى الأمير الأرتقي الملك الصالح محمود بن نورالدين بن قره أرسلان. كما إن إبن الرزاز نفسه قد تأثر بالصناعات التي خلفتها الدولة الدوستكية، سواء كانت ساعة بنكام في جامع فارقين، أو الباب الذي عمله نصرالدولة لقصره في مدينة (النصرية)(٢)، الذي ذكره الفارقي المعاصر لإبن الرزاز بإعتباره من أحد الأعمال المهمة لنصرالدولة. وكان هذا الباب في زمن إبن رزاز أمام باب جامع فارقين ويستبعد جداً عدم رؤيته إياه. صنع إبن الرزاز باباً فنياً لقصر الأمير الأرتقي الملك الصالح محمود بن نورالدين في مدينة دياربكر وإفتخر بذلك الباب بقوله: "والى رؤيته تُشد الرحال، إذ كان في الحقيقة الدرة اليتيمة والمتاع نفيس القيمة..."(٣).

(٢) بخصوص مدينة (النصرية)، راجع موضوع الآثارالعمرانية.
(٣) راجع (مقدمة في علم الميكانيك في الحضارة العربية، ج١، ص١٠١، لماجد عبدالله الشمس).

لقد عمل إبن رزاز الباب من النحاس وأذاب النحاس الأصفر وصنع منه أجزاء الباب ونقوشه. وفي أواخر كتابه شرح لكيفية صنع ورسم أجزاء منه، فثمان صفحات من الورقة (٢٢٩-٢٣٢) من كتابه (الجامع بين العلم والعمل في صناعة الحيل) النسخة المخطوطة في أياصوفيا بإستنبول والمرقمة (٣٠٦٠٦) وعندي نسخة مصورة عليها - تتحدث عن الباب. مع أن الصفحات الأخرى بصدده غير موجودة في النسخة التي كانت تحتوي على الوصف العام للباب. ومن المحتمل جداً أن المستشرقين الذين سرقوا عدداً من الرسوم الموجودة في هذه النسخة، سرقوا ذلك المقدار أيضاً. وهذه بعض الرسوم من أجزاء الباب وزخارفه ومطرقة الباب في صورة ثعبانين يحاولان إلتهام رأس أسد وقد مدا لسانيهما الى عنقه. وقد أشار المؤلف في الورقة (٢٣٢) الى أن طريقة صنع بعض ما صنعه من الباب كان معروفاً عند "أصحاب هذه الصناعة". وقد ذكر القزويني أن الحدادين في مدينة خلاط كانوا يصنعون أقفالاً لايوجد مثلها في البلدان الأخرى[٤].

أما المقدسي فقد ذكر الموازين والدوايات (أي دوايات الحبر) التي كانت تُصنع بنصيبين، كما كانت الموازين تصنع بحرّان[٥]. وكانت الآلات الفلكية تصنع في حرّان أيضاً[٦].

الصناعات الميكانيكية

وصل إلينا من الصناعات الميكانيكية في الدولة الدوستكية، التي كانت حركتها تعتمد على الآلات المتحركة، ما يلي:

١- دولاب صنعه نصرالدولة ونصبه على نهر باطمان لضخ المياه الى مدينة (النصرية)، التي خططها هناك على ما قاله الفارقي (ص١٤٥) من تاريخه، مع إنه لم يكتب وصفاً لذلك الدولاب الذي كان يرفع مياهاً كثيرة من نهر باطمان تكفي لسد حاجة المدينة من حمامات ودور وحدائق وأحواض. ولاشك بأنه لم يكن الدولاب المعروف بـ(الناعور) الشائع ذي القدرة المحدودة الذي يدار بالحيوانات، وإلا لما إستحق الذكر، وإنما لا بد أن يكون مضخة ميكانيكية من نوع الدواليب (المضخات) العمودية الميكانيكية الموجودة في كتاب إبن رزاز الجزري.[١]

(٤) القزويني، آثار البلاد، ص٥٢٤. وتجدر الإشارة هنا الى أن إبن رزاز الجزري قد عمل قفلاً يقفل على صندوق بإثني عشر حرفاً. وقال هو عبارة عن "أربع دوائر على مربع مستطيل، ودون كل دائرة دائرة وبينهما ستة عشر خطاً، وبين الخطوط ستة عشر حرفاً تقوم مقام ثمانية وعشرين حرفاً". وقد كتب إثنتي عشرة صفحة في كيفية صنعه (ورقة ٣٢٤-٣٣٠ من نسخة أياصوفيا) وأوضحها بالرسوم. فهذا القفل الفني شبيه بأقفال الحقائب التي تغلق وتفتح بالأرقام السرية في الوقت الحاضر ولانعلم هل أن إبن رزاز كان أول مخترع لهذا النوع من الأقفال أم لا؟

(٥) أحسن التقاسيم، ص١٤٥.

(٦) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ص٣٦٢.

(١) خصص الجزري ثمان صفحات من كتابه (ورقة ٢٢٤-٢٢٨ من نسخة أياصوفيا) لشرح كيفية صنع مضخة (الدولاب) بعدة أنواع لرفع الماء الجاري من عمق عشرة أمتار أو أكثر من النهر عن طريق أنبوب وآلات ميكانيكية حيث قال: "الشكل الخامس من النوع الخامس وهو آلة ترفع نحواً من عشرين ذراعاً بدولاب من ماء جارٍ وينقسم الى=

ساعة بنكام

من المعالم الحضارية للدولة الكُردية ساعة كبيرة صنعتها في العاصمة فارقين بموجب قوانين ميكانيكية ورياضية وفلكية دقيقة. وكان وجود مثل تلك الساعة نادراً في الشرق الأوسط حتى ذلك التاريخ. لقد ذكر الفارقي في (ص١٤٥) من تاريخه أن "عمل نصرالدولة البنكام بجامع فارقين وغرم عليه من ماله وكتب عليه إسمه"، وكرر الفارقي ذكر البنكام(٢) لأهميته وذلك ثلاث مرات في تاريخه، لكنه لم يبين تاريخ صنعها ولا إسم العالم الذي صنعها. ومن المحتمل جداً أنه كان في

=فصول ثلاثة، الفصل الأول أقول أن هذا الشكل يصنع على ضربين أحدهما بأن يتخذ الدولاب وهو مدير الآلة فرجات في محور منتصب والماء يدير الفرجات كأرحاء، وهي في الطريق الأسفل من المحور، وهو يدور على سُكُرجَه على ما جرت به العادة وطرفه الأعلى يدور في حلقة ثابتة، وعلى نهاية هذا الطرف قرص مستوي الوجه وعلى حافة القرص وتد منتصب وهذا الوتد مدير آلة ترفع الماء..." الفُرجات: پروانات، مراوح. والسكرجه: وعاء معدني في أسفل الدولاب. وهذه صورة نوعين من دواليب الجزري حيث تشاهد الأجزاء فيها من العمود الحديدي والفرجات (بشّارة - پروانات) التي تدفع الماء الى أعلى والتي تكون داخل الأنبوب وقد رسم في الفصل الثاني الأنبوب (بَربَخ) الواسع من الأسفل والضيق من فتحته العليا، ليكون دفع الماء الى الخارج قوياً. إن الآبار الإرتوازية حالياً تعمل بنفس الأسلوب. أما الدولاب الذي يدير من فوق عمود الفرجات، فكان يدار بواسطة الحيوانات أو بطريقة أخرى.

(٢) لفظ بنكام على وزن (سندان) بكاف فارسية أي (بنگام) وكذا بنكان وفنكان وفنجان ومنجانه ومنتانه - أطلق على الساعات بأنواعها: الرملية، والمائية والشمسية والدورية، أي التي تعمل بالدواليب أي الآلات الميكانيكية. وإستعمل المؤلفون لفظ (بنكام) إسماً لعلم يبحث عن الآلات المقدرة للوقت (أي الساعات) أي علم الساعات. وأصل الكلمة (منگنه) أي الآلة المسننة أو غير المسننة التي تدور. بخصوص البنكام راجع، حاجي خليفة، كشف الظنون، ج١، ص٢٥٥. وطاش كبرى زاده، مفتاح السعادة، ج١، ص٣٧٨. ومحمد علي التهانوني، كشاف إصطلاحات الفنون= =ج١، ص٥٣. والدكتور مصطفى جواد، بحث بعنوان "علم البنكامات عند المسلمين في القرون الوسطى وهو علم الساعات". وقد نشر البحث بعد خمسة أيام من وفاته في جريدة الثورة (أو ملحقها) في ١٩٦٩/١٢/٢٢. وقد توفي مصطفى جواد علامة زمانه في السابع عشر من ذلك الشهر، وأصبح بحثه هذا مفتاحاً لي للبحث عن هذا الفن والبحث عن الجزري والحصول على نسخة مصورة من كتابه. ومن ثم البحث عن الفن التشكيلي في كُردستان الوسطى والبحث عن رسوم (شرفنامه) للمؤرخ والرسام الكُردي الأمير شرفخان البدليسي، التي نشرت دراستي حولها في كتاب بإسم (تابلۆكانى شەرەفنامە، الذي طبع سنة ١٩٩١ بالسويد بالكرمانجية الشمالية بالحروف اللاتينية وفي أربيل سنة ١٩٩٨ بالكرمانجية الجنوبية"، والذي أعتبر من أجود دراساتي فأنا مدين لمصطفى جواد، وقد كنت معجباً به أيما إعجاب وهو الذي قال لي: "أنا بين الأكراد والتركمان وذلك في دور التحقيق..". وكان أصله من (قره تپه) إحدى نواحي قضاء كفري الكُردي. هذا وأستعمل (منكام) بدل بنكام أيضاً والجمع (مناكيم)، راجع شمس الدين محمد بن أبي الفتح محمد الصوفي، الاعلام بشد المنكام. الذي ألفه في الساعات الرملية: نسخة مخطوطة مصورة في مكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب جامعة بغداد تحت الرقم (٤٠٦). لكي يحصل القاريء على فكرة عن الساعات القديمة، علينا بكتابة سطور قليلة بهذا الخصوص. فنقول إن الساعة المائية كانت معروفة لدى السومريين وكانوا يسمونها (دب دب)، وكانت الساعة المائية مكونة من إسطوانة مدرجة يجري منها الماء الى خزان تحتها وكمية الماء المنساب كانت هي التي تعطي مقياس الزمن وكانت موجودة لدى المصريين أيضاً. أما الساعة الشمسية (المزولة)، فكانت كالساعة الرملية قديمة. وهي عبارة عن قصبة أو عود تُغرس في سطح مستو لتعكس القصبة أو العود ظلاً يتغير بتغير مسار الشمس، فيعرف بها الوقت. أما الساعة الرملية، فكانت تعمل بإستعمال الرمل بدلاً من الماء لمعرفة ساعات الليل والنهار وبعملية مشابهة. أما مصطلح الساعة الزمانية التي تسمى «الساعة الشمسية» ايضاً، فيعني الساعة ذات الوحدة العددية الثابتة وهي (١٢) ساعة لكل من الليل والنهار بالتساوي سواء كان اليوم أطول من الليل أو بالعكس، صيفاً كان الوقت أم شتاءً، ولذلك سميت ايضاً الساعة المستوية. راجع ماجد عبدالله الشمس، مقدمة لعلم الميكانيك في الحضارة العربية، ج١ ص ٤٥-٤٨. ومرگريت روثن، علوم البابليين، ص١٠٩.



دولاب إبن رزاز

سنوات (٤١١هـ = ١٠٢٣م) حيث جدد نصر الدولة فيها عمارة الجامع الى سنة (٤٣٠هـ = ١٠٣٨-١٠٣٩م)، إذ ذكر ذلك بين حوادث هذه الفترة. ولم يذكر الفارقي أيضاً وصف لساعة (البنكام) هذه التي شاهدها مراراً في مدينته، رغم أهميتها بالنسبة لذلك العصر لندرتها في البلاد الإسلامية وغيرها. ولاشك أنها كانت ساعة كبيرة ربما كانت تعمل بالماء أو الشمع المذاب أو بواسطة آلات ميكانيكية كثيرة، وبمقاييس رياضية وفلكية أيضاً مرتبطة بحركة الشمس في درجاتها والقمر بمنازله. وربما كانت مرتبطة بالبروج الفلكية الإثني عشر في دورانها. وكل ذلك لضبط قياس الزمن في الليل والنهار والأوقات الفلكية أيضاً. وما قاله الفارقي من أن نصرالدولة "غرم عليه من ماله" يدل على أنها كلفت مبلغاً كبيراً من المال. وهذا بدوره يدل على أن الساعة كانت كبيرة ومن نوع البنكامات المعقدة، التي كانت في شكل غرفة مثل ساعة كنيسة أياصوفيا في العاصمة البيزنطية (قسطنطينية) التي صنعت قبلها، وساعة (باب جيرون) بدمشق التي صنعت بعدها، وساعة كنيسة أنطاكية التي أشار إليها الطبيب (إبن بطلان) في كتابه (دعوة الأطباء- الذي ألفه سنة ٤٥٠هـ = ١٠٥٨م)، أو أنها من نوع بعض ساعات وإختراعات العالم إبن رزاز، التي وردت أوصافها في كتابه (الجامع بين العلم والعمل في صناعة الحيل)(٣).

(٣) لكي تتكون لدى القاريء فكرة عن ساعة الدولة الدوستكية ندرج فيما يلي وصفاً لكل من ساعة كنيسة أياصوفيا وساعة باب جيرون. فالساعة الدوستكية كانت مشابهة للساعات المذكورة القريبة منها زمنياً، فالأولى أقدم من الساعدة الدوستكية، أما ساعة باب جيرون فمتأخرة عنها. كانت ساعة أياصوفيا حسب (إبن رسته أحمد بن محمد في القرن التاسع في الأعلاق النفيسة، ونقل عنه بإيجاز السيد ماجد في كتابه المذكور، ص٤٩: كان في مدخل الكنيسة مجلس وأربعة وعشرون باباً صغيراً، وكلما مضت ساعة من الـ٢٤ ساعة ينفتح أحد هذه الأبواب ثم ينغلق تلقائياً. أما ساعة باب جيرون (باب الساعات) التي صنعها محمد بن علي بن رستم الساعاتي الخراساني عام (٥٦٥هـ = ١١٦٩م) فقد شاهدها إبن جبير سنة ٥٨٠هـ=١١٨٥م ووصفها في رحلته (ص٢١٨ و٢١٩، طبعة بيروت ١٩٦٨) وكانت بالمدرسة المستنصرية ببغداد ايضاً ساعة أخرى مشابهة صنعت سنة ٦٣٣هـ= ١٢٣٥-١٢٣٦م.

ولم يشر الجزري الى ساعة فارقين، كما لم يذكر إسم الأستاذ أو الأساتذة الذين درس عليهم الميكانيك والرياضيات والفلك وكذلك فن الرسم وعلم الساعات. ولم يذكر كذلك إسم المعنيين بها عدا (يوسف الأصطرلابي) والملك الصالح محمود الأرتقي، الذي يحتمل كونه أحد تلاميذ الجزري. وكان في عهده علماء آخرون في هذا المجال، مثل الطبيب فخر الدين (محمد بن عبالسلام الماريني) المتوفي سنة (٥٩٤هـ = ١١٩٩م)(٤)، وتلميذه سديد الدين الحاني (محمد بن عمر) المعروف بإبن رقيقة وهو من سكان مدينة حاني (هێنێ)، وهي الآن مركز أحد أقضية دياربكر. فقد عمل بعض الصناعات الميكانيكية والآلات الفلكية وإخترع الة لسحب الماء الأسود والأبيض من العين. ولسديد الدين أكثر من عشر مؤلفات أكثرها في الطب، وقد سافر الى الشام وأصبح أحد أطباء المستشفى الكبير بدمشق وتوفي فيها سنة (٦٣٥هـ = ١٢٣٧م)(٥).

لقد قدم الى كُردستان عالم كبير في الرياضيات والهندسة والفلك هو (نجم الدين أحمد بن السري الهمداني)، الذي إستدعاه الأمير حسام الدين تمرتاش الأرتقي (٥١٦هـ - ٥٤٧هـ) وكان أستاذ فخرالدين المارديني وله ترجمة في (عيون التواريخ، ج١٢، ص٤٠٠) للكتبي. إن الجزري وإن لم يذكر هؤلاء لكنه أشار الى وجود ميكانيكيين مثله، وقال إنه إستفاد منهم في بعض أعماله الميكانيكية. وقد أشار إليهم في (الفصل الأول من الشكل الثاني من النوع السادس) من أواخر كتابه (ورقة ٢٣٢، من نسخة أياصوفيا). هذا ولا ندري من أين أخذت الدولة الدوستكية فكرة صنع هذه الساعة، والتي كان لها تأثير على تقدم ورواج علم الميكانيك بما فيه علم الساعات في دياربكر، وعلى الأرتقيين الذين عملوا على تقدم ذلك العلم في القرن الثاني عشر. كما كان لمستشفى تلك الدولة الكُردية في العاصمة فارقين ولمدرستها الطبية تأثير مماثل في تقدم الطب في ذلك الجزء من كُردستان خلال العهدين الدوستكي والأرتقي. ولما كانت ساعة يوسف الأصطرلابي لاتخلو من إحتمال كونها ساعة الدولة الدوستكية، وإن ثبت في يوم ما أنها ليست كذلك فهي مشابهة لها بصورة عامة على ما نتوقع لذا من الأفضل أن ندرج هنا وصفها الذي أورده الجزري في كتابه(٦) (ورقة ٥-٦ من نسخة

(٤) راجع ترجمة فخر الدين المارديني في (طبقات الأطباء، ج١، ص٢٩٩-٣٠٠) لإبن أبي أصيبعة، و(تاريخ الحكماء، ص٢٩٠-٢٩١) للقفطي. نشرت نبذة عن حياته في جريدة العراق، عدد ١٩٨٢/١١/٢٧.

(٥) لسديدالدين (إبن رقيقة) ترجمة في طبقات الأطباء (ص٧٠٦ وغيرها) وكان قد عمل مع مؤلفها إبن أبي أصيبعة في المستشفى الكبير. وإبن العماد، شذرات الذهب، ج٢، ص١٧٧. والزركلي، الأعلام، ج٨، ص٥٦. وقد نشرنا بخصوصه مقالاً في جريدة العراق عدد يوم ٢١ و٢٨ تشرين الأول ١٩٨٢.

(٦) أعتبر كتاب الجزري أكبر كتاب في الهندسة الميكانيكية في العهد الإسلامي، وفي بعض نسخه خمسمائة رسم لصناعاته. وآلاته منقولة بدقة من رسومه، لذلك أعتبرت الرسوم الموجودة في نسخ الكتاب المختلفة زمناً ونسخاً رسوم الجزري، فكأنما رسمت من قبله مباشرة وذلك عند مؤرخي الفن. فأعطوها نفس الإعتبار والقوة في دراساتهم الفنية. كما إعتبروا رسومه ورسوم مهران بن منصور بن مهران أساساً لـ(مدرسة بغداد للفن). والأفضل تسميتها بـ(مدرسة دياربكر للتصوير) في العهد الإسلامي، لكون الفنانين من سكان هذا الإقليم الكُردي. فإبن رزاز كان من مدينة الجزيرة (جزيرة إبن عمر - جزيرا بۆتان). أما مهران فكان من سكان مدينة فارقين. وقد عاش الجزري في مدينتي حصن كيفا وآمد كـ(رئيس الأعمال) لثلاثة من الأمراء الأرتقيين لمدة ثلاثين سنة أو أكثر. لقد نُشرت في الغرب أبحاث عن كتاب الجزري وتراثه، وترجمت من قبل (دونالد هل) الى اللغة الإنگليزية. وقد نشر السيد ماجد عبدالله الشمس قسماً منه=

أياصوفيا)، وذلك دون أن يذكر في أية مدينة صنعها الأصطرلابي. وكان الجزري قد شاهدها. علماً بأنه لم يشر في كتابه الى أنه قد زار بلاد الشام أو العراق أو أي بلد آخر. ولهذا فمن المعتقد بأن

=كجزء أول بعنوان (مقدمة لعلم الميكانيك في الحضارة العربية) وذلك سنة ١٩٧٧. ولا أدري هل نشر قسمه الثاني أم لا؟ لقد إعتمد المذكور على نسخة (توب قاپي) بإستنبول رقم (٣٤٧٢)، التي كتبها الرسام وتلميذ الجزري (محمد بن يوسف بن عثمان الحصكفي) الذي إنتهى من كتابتها سنة (٦٠٢هـ). وكتب في أوله : "قال الشيخ رئيس الأعمال بديع الزمان أبو العز بن إسماعيل الجزري... ". وحسب تحقيقنا فإن على هذه النسخة ختم الأمير الكُردي (شمس الدين) بن ضياء الدين الروشكي، من أجداد المؤرخ شرفخان البدليسي، الذي كان حياً سنة (٨٢٤هـ = ١٤٢١م)، مما يدل على أن المخطوطة كانت ضمن مخطوطات مكتبة أمراء بدليس، مثلما يوجد نفس الختم (الإهليلجي أو شبه البيضوي بطول ١٦ ملم) على مخطوطة (منافع الحيوان) لعبيد الله بن بختيشوع أحد أطباء الدولة الدوستكية، وقد ألفه للأمير نصرالدولة. وهي النسخة الأولى من الترجمة الفارسية والمصورة وهي نسخة (السلطان محمود غازان) من أحفاد هولاكو، الذي أمر بترجمة الكتاب الى الفارسية وتصويره من قبل عدد من الرسامين. وهذه النسخة موجودة الآن في مكتبة (مورگان) في نيويورك تحت الرقم .500 m ومن المحتمل جداً أن هاتين المخطوطتين الثمينتين كانتا من جملة آلاف الكتب التي كانت موجودة في مكتبة أمير بدليس عبدال خان بن ضياء الدين بن شرفخان المؤرخ، والتي نهبها الوالي العثماني الوحش ملك أحمد باشا سنة (١٠٦٥هـ = ١٦٥٤-١٦٥٥م)، أثناء الإطاحة بإمارة عبدال الذي وصفه أوليا چلبي في (سياحتنامه، ج٤، ص١٠٢-١٠٣) بأنه كان عالماً في سبعمائة علم وفن كالفلسفة والكيمياء والسيمياء والطب = والتصوير والخط والزخرفة والغناء والميكانيك. فكان يصنع بنفسه الساعات اليومية والشهرية والسنوية وساعات الأبراج الكبيرة والمصوته، ويصنع ساعات صغيرة تدخل في الأصبع كخاتم. وقد شاهده أوليا چلبي وشاهد = صناعاته، وذكر أنه كان له ستة وسبعون مؤلفاً. علماً أن مؤلفاته تعتبر كلها مفقودة منذ هجوم ذلك الوالي القاسي على هذا الأمير العالم والعبقري.

وتجدر الإشارة الى أن السيد ماجد عبدالله موضع إنتقاد لعنوان كتابه الحالي من إسم الجزري وكتابه. إذ كان من الواجب أن يكون العنوان بإسم (كتاب الجامع بين العلم والعمل) لإبن رزاز، لأن الكتاب عبارة عن نشر قسم من كتاب الجزري. وهو (السيد ماجد عبدالله) موضع إنتقاد كذلك لتعصبه العربي رغم كونه صابئياً وليس عربياً. فقد جرّ الجزري الى جنوب العراق وعده عراقياً من أحفاد السومريين والبابليين. حيث قال في (ص٤٥) من مقدمته ما يلي: "لا شك أن عالمنا العراقي إبن الرزاز الجزري قد قام بكل ما يستطيع من مجهود لإخراج إبداعه في الميكانيك... فإنه لم يدر بخلده أن أجداده السومريين والبابليين هم أصحاب الحق عليه بالدرجة الأولى...". وهكذا جرّ الجزري من مدينة الجزيرة وآمد (دياربكر) أي من كُردستان الى العراق. هذا في القوت الذي لا يوجد فيه دليل على أن الجزري قد رأى العراق بعينه في يوم من الأيام. فأخذ ماجد الشمس منه جنسيته الكُردية أو الكُردستانية على الأقل. ولم أجد في كتابه إسم الكُرد أو كُردستان، مع إني نبهته الى ذلك في أكثر من لقاء. وهذا تحريف للتاريخ.

وقد كتب السيد عبدالله ياشن الجزري رسالة لي في ١٩٩٩، وهو الآن مدير متحف الجزيرة ومؤلف كتاب بالتركية في تاريخ الجزيرة ذكر فيه أن عمه المرحوم الملا عبدالرحيم الوسطاني (وهو من ذرية المفكر الكُردي أحمدي خانى حسب ما كتبه وكان طري الفكر) قد عثر في سنة ١٩٥٧ على شاهد قبر بن الرزاز في (مسجد النبي نوح)، القريب من قبة (مةلايى جزيرى)، وذلك أمام الشيخ محمد قدري شيخ المسجد والكثيرين من سكان الجزيرة. وكان قد كُتب عليه "رئيس الأعمال بديع الزمان إسماعيل بن رزاز الجزري"، حسبما كتبه عبدالله ياشن. وأضاف أن شاهد القبر قد أدخل فيما بعد الى أحد الجدران مقلوباً. وقد طلبت منه إخراجه وتصويره لنا. من المحتمل أن الجزري قد أقام في أواخر حياته بالجزيرة وتوفي فيها، أو أنه توفي في مكان آخر كآمد أو حصن كيفا وأوصى بنقل جثمانه الى أقدس مكان في الجزيرة، وهو (مسجد النبي نوح) القريب من باب السور (دهرگههێ طورى) أي (باب طورعبدين) في القسم الجنوبي من المدينة، وأنه توفي سنة (٦٠٢هـ = ١٢٠٥-١٢٠٦م)، أي السنة التي إنتهى فيها من تأليف كتابه.

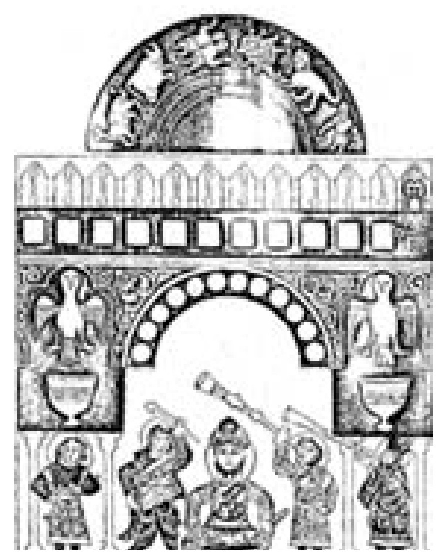
لقد أشار الجزري الى أنه علّم الآخرين فنونه، أي كان له تلاميذ، وذلك في مقدمة كتابه (ورقة ١و٢ من نسخة أيا صوفيا)، لكنه لم يذكر أسماءهم. ومن المحتمل أن الملك الصالح محمود بن نور الدين بن قره أرسلان الذي حكم من سنة (٥٩٧هـ - ٦١٩هـ = ١٢٠٠ -١٢٢٢م) كان في مقدمة هؤلاء، والذي كان الجزري رئيس الأعمال عند والده=

الأصطرلابي صنع تلك الساعة في إحدى مدن إقليم دياربكر. وقال الجزري ما نصه: "صفة صورة الساعة ومعناه:

أما الظاهر فهو بيت مرتفع عن الأرض نحو قامتين والذي يجتمع منه ما يعلم من مضي الساعات هو باب في هذا البيت طول الباب نحواً من تسعة أشبار وعرضه نحواً من خمسة أشبار ونصف. وقد سُد هذا الباب بحجاب من الخشب أو صفر، وفي أعلاه على خط مستقيم عرضاً إثنا عشر باباً، لكل باب مصراعان مطبقان من أول النهار، ودونها موازياً لها إثني عشر باباً لكل باب مصراع واحد ملون بلون واحد في أول النهار، ودون الأبواب الثاني إفريز خارج عن وجه الحجاب بعرض الإصبع وعلى أول الإفريز هلال شبيه بالدينار متى تحرك الهلال على الإفريز سار مع وجوه الأبواب الثواني الى آخر الإفريز، وفي طرفي الحجاب خسفتان كأنهما محرابان فيهما طائران باسطان أجنحتهما ثابتان على أرجلهما، وفيما بين المحرابين إثنى عشر جامة من زجاج مصفوفة بعضها الى بعض كأنهما نصف دائرة محدبها الى فوق، وأمام كل طائر قنديل ثابت على ركن زجاج، وفي كل قنديل مرآة مغلقة وفي أسفل الحجاب صور طبالين وبواقين وصناج، وفيما علا عن هذا الحجاب نصف دائرة محدبها الى فوق يجمع محيطها ستة بروج من إثنتي عشر برجاً، ودون ذلك فلك فيه شمس وهي قرص من ذهب، ودون ذلك فلك فيه قمر وهو قرص من زجاج.

وهذه الصورة وأما المعنى فإنه في أول النهار يتحرك الهلال على الإفريز ويسير سيراً منتظماً خفياً حتى يقطع بمسيره باباً ويستوي بين البابين الأول والثاني، فحينئذ ينفتح المصراعان من الباب الأول من الأبواب العليا ويخرج منه شخص على ما يختار الصانع ويقف بحاله كأنه مطلع، ثم ينقلب الباب الأول الذي قطعه الهلال بمسيره الى لون آخر، وينقض الطائران حتى يقاربا القنديلين ويطرحا من منقاريهما كرتين على المرآتين فيسمع صوتهما من بعيد، ويعود الطائران الى مقامهما وذلك عند إنقضاء (كل) ساعة. ولا يزال كذلك الى أن يبلغ الساعة السادسة، فهناك يطبل الطبالون ويبوّق البواقون ويلعب الصناج بالصنج هنية، وكذلك في الساعة التاسعة والثانية عشرة. وأما حال الأفلاك فإن مركز الشمس يكون في أول النهار على الدرجة التي فيها الشمس في ذلك اليوم على أفق المشرق، تريد الطلوع والدرجة النظيرة لها على أفق المغرب تريد الغروب. وكلما طلعت درجة من برج غابت نظيرتها، والشمس ترتفع الى نصف النهار، ثم تنخفض الى آخره ومركز الشمس حينئذ يريد

=وأخيه سگمان مدة خمس وعشرين سنة في حصن كيفا ثم في آمد، قبل أن يتولى محمود الحكم. وقد أشار الى كون الملك الصالح عالماً في الفنون والصناعات التي ضمنها كتابه. فقال أنه عندما كان يقوم بصنع بعض أعماله للملك الصالح، الذي أشار عليه بتأليف كتابه - يبدي له ملاحظات دقيقة بخصوصها. فمن المحتمل جداً أنه درس عليه. وقد أشار المؤرخون الى معرفة الملك الصالح بعلوم الفلاسفة، ومنهم إبن شداد في(الأعلاق الخطيرة، ورقة ١٢٧)، حيث قال أنه كان "متظاهراً بمذهب الفلاسفة". ولا أستبعد أن تكون للجزري رئيس أعمال الملك الصالح تأثيرات فنية أيضاً في البرج المدور المسمى (يدي قرداش)، وهو أول أو ثاني أضخم أبراج سور دياربكر الحالية، والذي وضع تصميمه (ترسيم) أي تصميم البرج الملك الصالح نفسه على ما هو مكتوب عليه، وتأثيرات كذلك في البرج المسمى (أولي بَدَن) المشابه لـ(يدي قرداش) في الرسوم الحيوانية المنقوشة عليه، المشيد من قبل نفس الملك سنة (٦٠٥هـ = ١٢٠٨م). وهما من أجمل أبراج سور دياربكر، وكان بنّاء الأول يحيى بن إبراهيم الصرفي والثاني إبراهيم بن جعفر.



الساعة

الغروب والبروج الستة، التي كانت طالعة قد غربت والستة التي كانت غاربة قد طلعت وبحسب الزمان إن كان نهار السرطان، فتكون الشمس في غاية إرتفاعها. وإن كان نهار الجدي فتكون في غاية إنخفاضها. وأما حال الليل، فإن القمر يرى في برجه ودرجاته على ما هو عليه القمر في تلك الليلة. وإن كان هلالاً فهلالاً ذاهباً الى الإمتلاء، وإن كان ممتلياً فذاهباً الى المحاق. ثم يبدو في أول الليل في أول جامة من الجامات الزجاج ضوء كالعلامة ويتزايد حتى يكمل الضوء في جامة فيكون الماضي من الليل ساعة. ثم يبدو في الجامة ويتزايد حتى يكمل الضوء في جامة، فيكون الماضي من الليل ساعة. ثم يبدو في الجامة التي تليها حتى يكمل ست جامات مضيئة، فتخدم أرباب الملاهي في الليل كخدمتهم في النهار. وكذلك في الساعة التاسعة من الليل وفي الثانية عشرة وفي آخر الليل، عند تكامل الجامات بالضوء وهذه صورة ما وصفته واضحة.

الخلاصة أن الساعة كانت كانت بشكل غرفة إرتفاعها أكثر من ثلاثة أمتار في أعلاها دائرة البروج، وهي تدور وتتحرك ببطئ بحيث يختفي كل برج منها في نهاية الشهر، لأن لكل برج شهراً. وتحت دائرة البروج فلك الشمس وتحت هذا فلك القمر، ثم يأتي إثنا عشر باباً ذا مصراعين في صف أفقي تعرف بها ساعات النهار. إذ عند تمام كل ساعة ينفتح باب ويخرج منه رجل آلي علامة لتمام الساعة، ثم يتراجع الرجل وينغلق الباب ويتحرك الرجل نحو الباب الآخر داخل الساعة. وتحت هذا الصف من الأبواب صف ثان من الأبواب ذات مصراع واحد وبلون مغاير، وتحت هذه الأبواب إفريز يتحرك عليه هلال على شكل دينار. ثم تأتي إثنتا عشرة جامة، أي نوافذ مدورة مغطاة بالزجاج خاصة بمعرفة ساعات الليل، حيث يظهر الضوء في كل منها تدريجياً. وعندما يعم الضوء النافذة

(الجامه) تكمل الساعة. وعلى كل جانب من قوس الجامات خسفة (حنيّة) في كل منها طائر أمامه قنديل عليه مرآة، يقذف الطائران عند تمام كل ساعة كرتين معدنيتين من منقارهما على المرآة فيسمع الصوت من بعيد. في القسم الأسفل من واجهة الساعة خمسة موسيقيين، وعند تمام الساعة السادسة والساعة والثانية عشرة ينفخ البواقان في بوقيهما، ويضرب الصنّاجان على صنجيهما ويضرب الطبّال على طبله ويحدث لذلك صوت يسمع من بعيد. فحركة البروج والشمس والقمر هي وفق درجاتها الفلكية اليومية، وحركة الرجل الآلي والضوء في الجامات وقذف الطائرين الكرتين وقيام الموسيقيين بأعمالهم – كلها تتم بواسطة آلات يديرها الشمع المذاب داخل هذه الساعة الكبيرة، التي صنعها أحد نوابغ كُردستان، ألا وهو يوسف الأصطرلابي وفق حسابات ميكانيكية ورياضية وفلكية دقيقة جداً. ولا فرق في كل هذا بين الشمع المذاب أو الماء في مثل هذه الساعة .

والصورة موجودة في نسخة الحصكفي من كتاب إبن رزاز وغير موجودة في نسخة أياصوفيا، وذلك لأن العديد من صور الأخيرة قد سرقت من قبل المستشرقين. وقد قمت بتجديد هذه الصورة. وقد نقلها السيد ماجد عبدالله من كتاب (قصة الوقت) لجواد الساعاتي، ولكنها طبعت مقلوبة في كتاب السيد ماجد(مقدمة في علم الميكانيك في الحضارة الإسلامية، ص١٤٨).

ساعة فارقين حسبما وصفها بسري كونيار

ذكر المؤرخ الدياربكري بسري كونيار في كتابه (DIYARBAKIR TARIHI، ج٣، ص٣١٤) أنه كانت فوق الجامع الكبير بفارقين بناية ساعة الى سنة (١٣٢٥هـ = ١٩٠٧م)، لكن الأرمن هدموها في تلك السنة وإدعوا أنها من آثارهم، ووصفها بما يلي:

«كانت فوق الجامع الكبير ساعة شمسية لها نوافذ، والمشهور أنها كانت بناية ذات إثنتي عشرة نافذة. وكانت البناية قد صنعت وفق ما كانت الشمس في الإعتدال، أي نقطة تساوي الليل والنهار. وكانت الشمس تضرب كل ساعة إحدى النوافذ، وبعد إثنتي عشرة ساعة كانت الشمس تغرب. ومن المؤسف أن الأرمن هدموا هذه البناية ذات القيمة في سنة (١٣٢٥هـ). وكان لهذه البناية بابان مفتوحان نحو الجامع ولم تكن فيها غرف، وكان في داخلها إبتداءً من الباب إفريز. وكان الجانب الشمالي مزيناً بنوافذ على شكل قناطر، وكانت النوافذ الإثنتي عشرة مفتوحة نحو الجامع. وكان في الطرف الشرقي صالون واسع مسقوف ومكانه اليوم مسطح، وكان طول الصالون (٣٠) خطوة كبيرة وعرضه (٣٠) خطوة[٧].

نلاحظ من وصف بسري كونيار ما يلي:

١– أن بسري كونيار لم ير بناية الساعة سالمة وإنما كتب وصفها حسب ما سمعه من الناس بدليل قوله "والمشهور أنها كانت بناية..."

(٧) ترجم العبارة التركية أخي الملا أحمد يوسف، الذي يجيد التركية والعربية والفارسية إضافة الى لغته الكُردية، كما ترجمها السيد آسوس هەردي أيضاً مشكوراً.

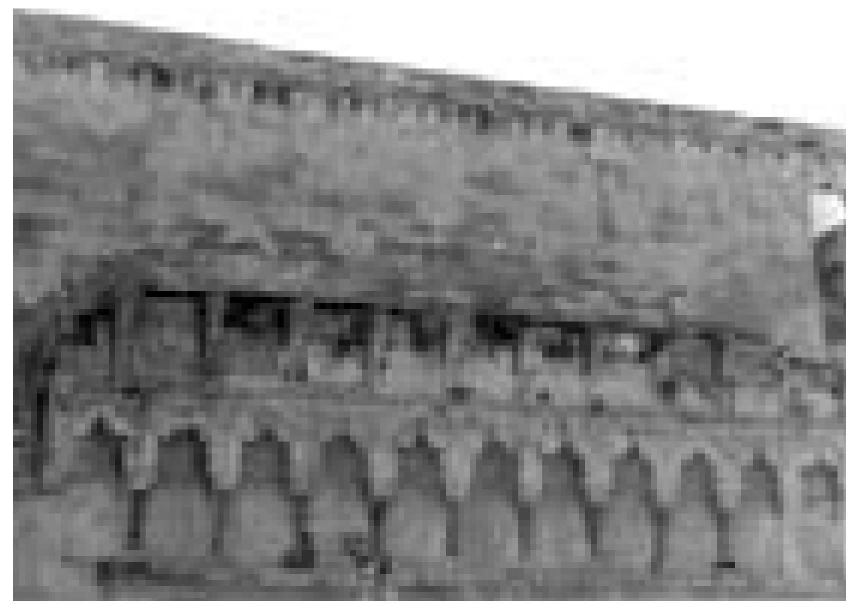
٢- كانت بناية الساعة عبارة عن غرفة واحدة أو ما يشبه غرفة، كأن تكون على شكل قبة دائرية جوفاء فيها نوافذ مفتوحة الى الجامع، بحيث أن أشعة الشمس كانت تنفذ من كل نافذة الى داخل الجامع، والجالس فيه يعلم بالساعة المعينة من تلك الأشعة، التي كانت تضرب بقعة معينة من الجامع. ومن مشاهدة الشمس من النافذة المعينة أيضاً، علماً أنه يوجد في الصورة المرقمة (٢٠٧) من الصور الثلاثة للجامع، التي أدرجها بسري كونيار في كتابه، بقايا غرفة مستطيلة غير دائرية فوق مكان ما من الجامع إهتم بها البنّاء من حيث الجمال المعماري، حيث زيّن جدارها (ولم يبق منها سوى القسم الأسفل بمقدار حوالي ٥-٦ صفوف من الأحجار بإفريز حجري بارز، وتحته إفريز آخر بارز من رؤوس الثيران، حيث نُحتت الأحجار على شكل رأس الثور. وأنا لا أستطيع أن أرجع هذا الطراز المعماري بالأصل الى أبعد من العهد الزردشتي(٨). وكانت الغرفة تطل على قسم من إفريز الأقواس الصامتة أي الخالية من النوافذ وهي على شكل قناطر. ويوجد حالياً في كل من الجانبين الشرقي والغربي من الباب الشمالي (أي في الجدار الشمالي للجامع) إفريز متكون من إثني عشر قوساً يرجح أن تكون من العهد الأرتقي، علماً أن صور بسري أُخذت حينما كان الجامع مهدماً، أي بعد تهديمه سنة (١٩٠٧) وقبل تعميره في سنة (١٩١٣) من قبل بنّاء مارديني شوه الجامع وعمل أقواس الأبواب على طراز أقواس مداخل الكنائس المسيحية التي أخذت من الفن القوطي الذي شاع في أوروپا من القرن الرابع عشر الى أواسط القرن السادس عشر، إذ لم يراع الجانب الأثري والتاريخي له إلا قليلاً. وهذه هي صورة بسري كونيار. وتشبه أقواس الإفريز المذكور أقواس المدرسة المسعودية بدياربكر وجامع قزل تپه وكلاهما من العهد الأرتقي. ويحتمل أن الغرفة المذكورة كانت الساعة، سواء الساعة الدوستكية أو ساعة شمسية صنعت في العهد الأرتقي، حيث سقط الجانب القبلي من الجامع سنة (٥٤٩هـ = ١١٥٤م) أو في التي قبلها، كما هدم نجم ألبي أقساماً أخرى منه ثم جدد بناءها، وهناك في قبة الجامع كتابة بإسمه(٩).

(٨) كانت للثور قدسية لدى الحيثيين وكذلك لدى سكان كُردستان منذ خمسة آلاف سنة على ما ظهر من التنقيبات في (تل قالينج آغا) الواقع ضمن مدينة أربيل. وللثور قدسية كذلك في الديانة الزردشتية، حيث إتخذ من جملة رموز الإله (ميترا - مهر) كالحصان والأسد والغراب الأبلق وزهرة نيلوفر وزهرة الأرخوان، لذلك جسّم المعماريون الزردشتيون هذه الإعتقادات الدينية في أعمالهم العمرانية في المعابد وغيرها. ففي الصورة الموجودة في (ص١٥٨) من (إيران في عهد الساسانيين) لكريستنسن يشاهد حجران (تمثالان) لرأس الثور في معبد شابور الزردشتي. وقد إستمر هذا التقليد في العهد الإسلامي حتى اليوم، ووصل الى أوروپا. وفي السليمانية يسمي البنّاؤون وغيرهم هذا الحجر بإسم (بەردی سەرەگا) أي حجر رأس الثور. وهو حجر عريض من الأعلى وضيق من الأسفل يدخل في منتصف أقواس مداخل الدور والشبابيك. ومن هذا المنطلق الديني نُحت مدخل كهف في وادي قرية (بيتاسى) الواقعة في جنوب زاخو على شكل رأس الثور. وفي الكهف ثلاثة قبور زردشتية صورتها في ١٩٩٤/٩/٢٠. وتوجد الصورة في (ص٤٦) من كتابي (شوێنەوارەکانی نەوێ لە شاخی سورێن). وقد إكتشفنا مئات الرسوم والتماثيل لرأس الثور في الأماكن الدينية الزردشتية المكتشفة من قبلنا، والتي لم يتم إكتشافها سابقاً. يذكر أنه حتى ثلاثينات القرن العشرين كان المعماريون الكُرد يدخلون نماذج معمارية في أعمالهم تجسد أفكاراً زردشتية كمواقد النار الزردشتية، وذلك دون أن يعلموا معانيها، بل لأن هذا التقليد الزردشتي قد وصل إليهم جيلاً بعد جيل.

(٩) في الورقة (١٠٧) من الأعلاق الخطيرة لإبن شداد ذكر لإنهدام الجانب الجنوبي من الجامع وتجديد الجامع (بل معظمه من قبل الأمير الأرتقي نجم الدين ألبي).



جامع فارقين



إفريز القناطر- من بسري كونيار



أفاريز جامع فارقين

وإن كانت الغرفة ساعة شمسية، فلا بد أن تكون مطلة على الجانب الجنوبي المواجه للشمس من الجامع. وإن كانت غير شمسية فالراجح أن تكون مطلة على الجدار الشمالي الذي فيه الباب الرئيسي. وقد قام البنّاء المارديني (لا رحمه الله) الذي يحتمل جداً أنه كان مسيحياً بتغيير حوالي ثلاثة أبواب أخرى للجامع. ويستبعد أن يكون طول الغرفة بقدر عرض الجامع البالغ (٣٠ أو ٢٥ م)، وإن كان في جدار غرفة الساعة شبابيك على شكل قناطر، فهي مشابهة لأقواس (قناطر) الإفريز الذي في الجدار الشمالي من الجامع، والذي يرجح أن تكون من العهد الأرتقي، لكونها مشابهة لتلك الموجودة في المدرسة السعودية والمدرسة الزنجيرية بدياربكر من قوس المدخل لكل منهما وكلاهما من العهد الأرتقي(١٠).

وقد قمت بتصوير الإفريز في آب ١٩٧٧ أثناء دراستي لآثار مدينة فارقين. ولايستبعد أن تكون ساعة الدولة الدوستكية قد تهدمت سنة (٥٤٨هـ أو ٥٤٩هـ)، ثم تم صناعة ساعة أخرى أثناء تعمير الجامع إستخدم فيها نفس الطراز من القناطر الباقية حالياً، وذلك بأمر من نجم الدين ألبي وكانت باقية الى سنة ١٩٠٧ أو أن ما تبقى من الغرفة كان غرفة الساعة الدوستكية.

٣- أن ما ورد من ذكر الصالون وأدرج في موضوع الساعة لا علاقة له بالساعة مطلقاً، وليس هذا الصالون (الرواق) الكبير فوق الجامع، بل كان مشيداً على الأرض في الطرف الشرقي من الجامع. ويحتمل أنها عبارة مقحمة ولعل قبلها عبارات محذوفة أي متروكة أثناء طبع الكتاب يستفاد منها

(١٠) قال شوكت بيسان أوغلو في ص٢٢٤ من كتابه DIYARBAKIR TARIHI أن في جامع علاءالدين في (قونيه) إفريز مشابه لإفريز جامع فارقين.

أن بناية الساعة كانت على القسم الشرقي من الجامع مقابل ذلك الرواق، أي أن جدارها الشرقي كان يقابل الرواق إن كانت العبارة في محلها.

ومن حيث أن بسري كونيار وهو أفضل مؤرخي دياربكر في القرن العشرين، وكتابه أفضل وأوسع من مؤلفات غيره في موضوعه – فإنه لم ير غرفة الساعة سالمة، فلا يمكن القول إذن بأن معلوماته عن الساعة دقيقة وشاملة ١٠٠٪. ولكن الأمل ليس معدوماً في الحصول على معلومات عنها في مؤلفات أخرى أقدم، وكذلك على صور. هذا مع العلم أن ناصري خسرو عندما قدم الى فارقين سنة (١٠٤٦م) أعجب بجامعها وكتب له وصفاً مسهباً في (سفرنامه)، على ما أشار إليه الشخص الذي إختصر (سفرنامه)، وأشار مختصر الكتاب الى أنه حذف ذلك الوصف، لكنه كان البنّاء المارديني عديم الذوق، حيث أبقى من الوصف ما يتعلق بمراحيض الجامع الأربعين. والنسخة المختصرة هي التي ترجمها يحيى الخشاب الى العربية وطبعها، فمن المحتمل أن يكون ناصر خسر وصف ساعة الجامع ويحتمل الحصول على ذلك في نسخة مخطوطة غير مختصرة منه في مكان ما. أما شوكت بيسان أوغلو وكذلك سليمان سافجي مؤلف (SILVA TARIHI) فلم يشيرا الى الساعة.

أخيراً، إن ساعة بنكام، التي كرر الفارقي ذكرها ثلاث مرات وقال "أن نصرالدولة غرم من ماله" أي صرف على صنعها مبلغاً كبيراً، لم تكن ساعة شمسية قليلة التكاليف، وإنما ساعة مشابهة لساعة يوسف الإسطرلابي إن لم تكن هي نفسها ومشابهة للساعات التي أشرنا إليها. وإن كانت هي التي بقي بناؤها حتى سنة ١٩٠٧ قائماً، فقد كانت معطلة عن العمل، كما يحتمل بأن مبناها لم يكن سالماً تماماً. ففسرها الناس لذلك خطأً بكونها ساعة شمسية، ولم يعلموا بحقيقتها. وإن كانت قد تهدمت سنة (٥٤٨هـ أو ٥٤٩هـ) ثم صنعت ساعة شمسية أخرى أثناء تعمير الجامع من قبل نجم الدين ألبي، فإنها غيرها بلا شك. والأرجح أنها كانت تطل على الساحة الشمالية للجامع حيث الباب الرئيسي كان في الجدار الشمالي منه.

ولا بأس ونحن بصدد هذه الساعة أن نذكر أنه كانت في كُردستان ساعة أقدم بكثير من العهد الدوستكي، ولكنها كانت ساعة شمسية (مزولة) حجرية. وهي موجودة الان بين آثار جبل (نمرود) الغربي الواقع غرب الفرات في ولاية (أديَمان)، وهي من حضارة دولة (كوماگن) الإغريقية الصغيرة هناك (٦٩ ق.م – ٧٢ ب.م)، التي خلفت آثاراً كبيرة وهذه صورتها(١١).

نشير كذلك الى ساعة (بنكام) مائية قديمة ومهمة ذات علاقة بتاريخ كُردستان، وهي ساعة قصر جنزك (شيز – تخت سليمان) (تكاب) الحالية في أقصي شرق منطقة موكري من كُردستان إيران، حيث كان هناك واحد من المعابد الثلاثة الكبرى للدولة الساسانية، وهو معبد (گوشَنْسْبْ) الزردشتي الملكي. لقد عمل الملك الساساني (كسرى) تلك الساعة في قصره هناك، وقد ذكرتها مصادر شرقية وغربية وعرفت بـ(تخت ديس). صنعت الساعة في سقف مقبب شبيه بالسماء تتحرك فيه البروج

(١١) الصورة مأخوذة من DOGHO ANADOLU BOLGESI (6). TURIZM VE TANITMA BAKANLIGI. hazairlayen ve .Basan: TICARET MATBATICILIK. T.A.S IZMIR 1968.

الفلكية والكواكب السبعة السيارة والقمر مع حركة السماء فوق الأرض. وكان ينزل من الساعة مطر رذاذ وتحدث آلاتها صوتاً كالرعد في ساعات معينة. وكان في الساعة صورة كسرى مع رجاله المقربين. وكان طول الساعة تسعين متراً وعرضها خمسة وستون وإرتفاعها سبعة أمتار ونصف، حسب أوصاف الثعالبي. وفي سنة (٦٢٤م) خرّب هرقل القصر بما فيه الساعة. والتفاصيل في (إيران في عهد الساسانيين، ص ٤٤٩-٤٥٠) لكريستنسن. وقد خصص عالم الآثار الكبير هرتسفيلد بحثاً عن هذه الساعة.

ولعل أقدم ساعة أو تقويم في كُردستان كانت الحجر البيضوي المحزز بأثني عشر حزاً وخطاً، والموجودة في الخزانة رقم (٢) من المتحف العراقي ببغداد. وقد عثر عليها في كهف شانَدر القريب من الزاب الكبير في منطقة بارزان في محافظة أربيل، وذلك أثناء التنقيبات من قبل العالم الأمريكي (سوليكي). وتاريخ السكنى في الكهف إبتدأ منذ ستين أو سبعين ألف سنة الى أحدث العهود(١٢).

لقد إعتبر عالم الآثار الأستاذ الدكتور بهنام أبو الصوف ذلك الحجر البيضوي التقويم القمري بدون تردد، وقال إن هذا التقويم قد ألقى سطوته على خياله(١٣). من المحتمل جداً أن سكان كُردستان في العصر الحجري الحديث، وخاصة سكان (جَرمو) الواقعة في منطقة السليمانية الذين عرفوا الزراعة قبل غيرهم من سكان العالم وذلك منذ تسعة آلاف سنة، عرفوا قياس الزمن والتقويم قبل غيرهم ايضاً وذلك بواسطة الدورة الزراعية. فقد قال كبير علماء الآثار العراقيين المرحوم طه باقر في موضوع (جرمو): لعل فكرة قياس الزمن والتقويم، ولاسيما التقويم الشمسي قد إستوحاها الإنسان من الدورة الزراعية. إذ يمكن قياس طول السنة الشمسية من وقت البذار الى بذار اخر، أو من حصاد الى حصاد آخر. ولعل إنسان ذلك العصر (أي العصر الحجري الحديث) إستعان في ضبط مثل هذه الدورات والمواسم وتعاقبها ومواعيدها بإقترانها، بطلوع بعض النجوم والكواكب(١٤).

التجارة

لقد حصل تقدم بارز في الحركة التجارية في كُردستان الوسطى في عهد الدولة الدوستكية وذلك للأسباب التالية:

١- إهتمام الدولة ببناء علاقات الصداقة مع دول وإمارات المنطقة والإبتعاد عن الدخول في منازعات مع جاراتها، وإتخاذها السلم والصداقة مع شعوب المنطقة الإسلامية والمسيحية أمراً إستراتيجياً لسياستها الخارجية، كما مر التفصيل في أوائل فصل العلاقات الخارجية وفي موضوع سياسة

(١٢) بخصوص هذا الحجر راجع الدكتور، فرج البصمجي، كنوز المتحف العراقي، ص١٢٧.
(١٣) راجع، ص٦٨ من (الدكتور بهنام أبو الصوف) تأليف حميد المطبعي، بغداد ١٩٩٥.
(١٤) طه باقر، مقمة في تاريخ الحضارات القديمة، ص١٩٩.

نصرالدولة السلمية في الجزء الأول. وقد أدت هذه العلاقات الى تشجيع ونمو التجارة، وأصبح بإمكان التجار الأجانب دخول البلاد الدوستكية دون أية عراقيل من الدولة ودون خوف على أموالهم من السلب والنهب.

٢- إستتباب الأمن والإستقرار في البلاد وجعل الطرق التجارية التي تربطها بالبلاد الخارجية آمنة من العابثين وقطاع الطرق. فكان التجار لايخافون أثناء تنقلهم في البلاد الدوستكية أو مرورهم بها من أعمال السلب والنهب. بينما كانوا كثيراً ما يتعرضون الى السلب والنهب في البلدان التي لاتنعم بالأمن والإستقرار، وذلك من قطاع الطرق وحتى من قبل جنود الدولة نفسها أحياناً. ففي أثناء ضعف وإنحطاط الدولة العباسية مثلاً (ربما طمع الوزير أو القائد العسكري في أرزاق الجنود، فكان الجنود يخرجون بسبب ذلك ويتعرضون للمارة ويسلبونهم أموالهم وأمتعهتهم ويسطون على قوافل التجار)(١).

ويمكن أن نلمس مدى إهتمام الدولة الدوستكية بحماية الطرق التجارية من اللصوص وقطاع الطرق والمفسدين مما أمر نصرالدولة بقتل أحد رؤساء الكُرد في دولته، حينما إعترف بأنه قتل أثناء كونه قاطع طريق في عنفوان شبابه تاجراً، بعد أن سلب منه ما معه من أموال(٢). فإقتص منه نصرالدولة لذلك التاجر المنكوب المجهول بعد مرور سنوات طويلة على قتله. كما نستدل على ذلك الإهتمام من شهادة أبي العلاء المعري، الذي مر بالبلاد الدوستكية أثناء رجوعه من بغداد وذلك حوالي سنة (٣٩٩هـ)، حيث ذكر بأنه سلك طريق الموصل وفارقين. وقد أعطانا المعري بعبارة وجيزة وصفاً دقيقاً لمدى تمتع البلاد بالأمن والسلام، وإليك نص كلام المعري: "سلكت طريق الموصل وميافارقين... ولما نزلنا بالحسنية تساوى حامل المال والرمال وقل بلاء الغادي أين قال والرائح أين عرس وبات، فلم نزل كذلك حتى بلغنا آمد. ثم عادت السبيل الى غوائلها وسدكت الرفاق بمخاوفها..."(٣).

إن قول المعري هذا يقترن بصحة ما قاله بعض المؤرخين من أن البلاد الدوستكية كانت من أكثر البلدان أمناً وإستقراراً وكانت أطيبها(٤). وإن أي بلد آخر من بلدان الشرق الأوسط آنذاك لم يبلغ مبلغ الدولة الدوستكية في توفير الحياة الآمنة المستقرة. ولاشك بأن إستتباب الأمن عامل مهم لتنشيط الحركة التجارية ودفعها الى الأمام.

٣- عدم فرض الضرائب الكثيرة أو الثقيلة على التجارة والسوق من قبل الدولة الدوستكية. إذ لم

(١) جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج٤، ص١٩٠.

(٢) محمد بن أحمد المحلي، المستطرف، ج٢، ص١٠٦: مادة الحجل (كەو) ذكر ذلك في قصة لطيفة ذكرناها في الجزء الأول ص٢٥٩-٢٦٠ تحت عنوان (الحجل يشهد).

(٣) محمد بن أحمد المحلي، المستطرف، ج٢، ص١٠٦: مادة الحجل (كەو) ذكر ذلك في قصة لطيفة ذكرناها في الجزء الأول ص٢٥٩-٢٦٠ تحت عنوان (الحجل يشهد).

(٤) إبن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٨٧.

نجد في المصادر المختلفة ما يشير الى فرض ضرائب من هذا النوع، بل ذكر الفارقي بأن نصرالدولة ألغى الكثير من الضرائب التي كانت قد فرضت على سكان مدينة دياربكر من قبل كل من عبدالبر وإبن دمنة(٥).

أما التجارة في كُردستان الوسطى في العهد الحمداني، فقد عانت من فرض الضرائب الكثيرة، إضافة الى عدم تورع الحمدانيين عن مصادرة أموال التجار كما هو معلوم من سياستهم، حتى إن سيف الدولة (ولعله من أحسن الحمدانيين سيرة) فرض ضرائب كثيرة ومختلفة على مدينتي الرقة والرافقة، وصادر سكانهما المرة تلو الأخرى بدرجة أدت الى إنحطاط المدينتين وتأخرهما من الناحيتين التجارية والإقتصادية عامة. كما إن مدينة رأس العين تأخرت كثيراً وإنحط شأنها بسبب ظلم الحمدانيين(٦).

وهناك أمثلة عديدة لا مجال لذكرها هنا. وكيف يمكن أن لاتتأخر التجارة وتنحط إذا ما دُمرت مدن عديدة في كُردستان والمناطق المتاخمة من البلاد البيرنطية مثل بلدة (تل فافان) الكُردية، التي أحرقها حسين بن حمدان وقتل سكانها بدون ذنب وهو ينهزم أمام قوات الخليفة العباسي(٧).

أما التجارة في كُردستان الوسطى خلال فترة السيطرة البويهية القصيرة، فقد ظلت تعاني من أسباب التأخر كما في السابق، منها الضرائب الثقيلة ولعل الضرائب الجديدة زادت عن الضرائب الحمدانية. فقد زادت الدولة البويهية من مقدار الضرائب على كُردستان وغيرها من البلاد الخاضعة لها وذلك: "أن عضدالدولة أحدث جبايات لم تكن ورسوم معاملات لم تعهد... وقدر على أسواق الدواب والحمير والجمال عما يباع فيها من جميع ذلك، وفعل في ضرائب الأمتعة الصادرة والواردة ما زاد فيه عن الرسوم القديمة"(٨).

٤- تشجيع التجار وتقديرهم مما يمكن أن نلاحظ هذا الإهتمام من قبل الدولة الدوستكية بسرور نصرالدولة الفائق لسماعه أن التاجر (إبن بهات) ربح في يوم واحد من الخام (٥٠٠) دينار بيزنطي. فأحضره نصراالدولة الى مجلسه وأبدى سروره وتقديره، فأهداه التاجر مبلغ الربح، فلم يتسلمه منه وأقسم كل منهما بأنه لايأخذ المبلغ. فإشترى به التاجر قرية (بني نوح) وجعلها وقفاً على حراس حصون آكل والجبابرة واليماني(٩). وقال له نصرالدولة: "إني ما أحضرتك لآخذه منك ولكن أردت أن أعلم صحة الحديث وإن في بلدي من كسب في يوم واحد خمسمائة دينار!".أما

(٥) الفارقي، ص١٢٢.

(٦) إبن حوقل، ص٢٠٠، ٢٠٣.

(٧) إبن الأثير، الكامل، ج٨، ص٣٠، حوادث سنة ٣٣٠هـ.

(٨) الروذراوي، ذيل تجارب الأمم، ص٧١.

(٩) ورد في الفارقي، ص١٦٧ (الجاترة) بينما ورد إسم هذا الحصن في بعض نسخ الفارقي الأخرى وفي مخطوطة الأعلاق الخطيرة لإبن شداد ورقة ٩٢ بإسم (الجبابرة)، وفي فتوح الشام، ج٢، ص١٦٥ بإسم (الجبابرة) أيضاً، وذلك عند البحث عن الفتح الإسلامي لمنطقة دياربكر. وكانت هذه القلاع تقع في شمال دياربكر بالقرب من منبع دجلة قرب الحدود البيزنطية. وهناك ملاحظة أخرى وهي أن الفارقي فصل بين (إبن البهات) وأبي بكر محمد بن جري، بينما إعتبرهما إبن شداد شخصاً واحداً، وأورد "إبن الشهاب" بدلاً من "إبن البهات" وهو خطأ.

نظام الدين فكان يتفقد أحوال الناس ويسأل عن أحوال الحاضرين في المدينة وأحوال الغائبين أيضاً(١٠) وبضمنهم التجار وأهل السوق. وقد شبه الفارقي في (ص٢٢١) أيام أبي علي البلخي بأيام نظام الدين من فعل الخير وأمن الناس على أموالهم وإحترامهم وإكرامهم. ولهذه الأسباب إزدهرت التجارة في ذلك الجزء من كُردستان، وأصبحت الأسواق تعج بالبضائع والأموال التجارية وإمتلأت مخازن التجار وإستغنى الناس وتظاهروا بالثروة. فقد خلف التاجر والسمسار أبو بكر بن جري في مخازنه بعد وفاته على سبيل المثال ما قيمته (٨٠) ألف دينار من الأمتعة والأقمشة. وكان المذكور تاجراً غنياً، وقد صادره نصرالدولة وأخذ منه (٤٠٠)ألف دينار. وكان هذا قد حفر قناة ماء الى فارقين على حسابه الخاص، كلفته خمسين ألف دينار(١١)، أو أكثر من هذا المبلغ بكثير. علماً أن الدينار آنذاك كان يعادل في قيمته الشرائية أكثر من خمسين ديناراً في وقتنا الحاضر. ويمكن أن نلاحظ أيضاً مما تقدم مما قاله الفارقي: "إنغمرت ميافارقين أيام نصرالدولة وقصدها الناس والتجار وجماعة من كل الأطراف"(١٢).

لاشك أن حجم الصادرات الكُردية الى الخارج قد إزداد في العصر الدوستكي، كما إزداد حجم البضائع الأجنبية الواردة الى كُردستان للإستهلاك المحلي أو للمرور بها الى بلد آخر، وإن تجاراً قدموا من الخارج للإقامة فيها لمزاولة أعمالهم التجارية في هذا البلد الأمين.

أما أهم المدن التجارية، فكانت مدينة دياربكر (آمد)، وكانت تلتقي عندها عدة طرق تجارية. وكان مما تستقبله هذه المدينة من التجارة البيزنطية ثياب الصوف والكتان الرومية على عمل الصقلي(١٣)، أي المصنوعة على الطراز المتداول في جزيرة صقلية، والتي كان التجار يوصلونها بعد ذلك الى العراق وغيره. ويمكن لنا أن نستنتج مدى حجم التبادل التجاري بين كُردستان والبلاد البيزنطية من تداول الدينار الأرمانوسي البيزنطي بكثرة في المعاملات التجارية في العهد الدوستكي، كما بينّا في موضوع النظام المالي.

لقد تقدمت مدينة دياربكر تجارياً وتوسعت أسواقها في العهد الدوستكي الى أكثر من ستين سوقاً مختلفاً على ما ذكره الدكتور أديب معوض(١٤).أما مدينة الجزيرة، فكانت مركزاً تجارياً هاماً واقعاً على طريق دجلة المائي، سواء في العهد الدوستكي أو في العهود الأخرى. وقد أشار الى موقعها التجاري العديد من المؤلفين القدامى والمحدثين منهم إبن حوقل، الذي ذكر أن: "بها تجارة دائمة لو

(١٠) الفارقي، ص١٩٩.وإبن شداد، ورقة ٩١-٩٢.

(١١) الفارقي، ص١٦٥- ١٦٨. سبب مصادرة هذا التاجر كما ذكره هو الإتهام بالتواطيء مع ملك السناسنة وكانت بينهما صداقة، ولما سُجن تم تفتيش داره فوجد فيها أسلحة كثيرة، فصودرت وأعتقل وتوفي في السجن. وصرح الفارقي بأن التهمة كات باطلة لفقها بعض حساده. راجع أيضاً مخطوطة الأعلاق الخطيرة، ورقة ٩١، نسخة مصورة في مكتبتي مصورة على نسخة مكتبة بودليان بأكسفورد.

(١٢) الفارقي، ص١٦٦.

(١٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٤٥.

(١٤) الدكتور أديب معوض، الأكراد بين الأمس واليوم، ص٤٣.

تركها السلاطين وربح مطرد لو لم يجر فيها حكم الشياطين والخوارج"(١٥).

وأضاف بأنها: "فرضة (أي محطة تجارية) لأرمينيا وبلاد الروم ونواحي ميافارقين وأرزن وتصل منها المراكب مشحونة بالتجارة كالعسل والسمن والمنّ والجبن والجور واللوز والبندق والزبيب والتين الى غير ذلك من الأنواع"(١٦). وقد أشاد إبن حوقل بأهمية الجزيرة من الناحية التجارية بإعتبارها محطةً تجارية تستقبل التجارة الأرمنية والبيزنطية وتجارة إقليم دياربكر. كما أشاد أيضاً بعمرانها وكثرة سكانها وفلاحيها والأراضي الخصبة الواقعة في شرقيها وغربيها، إضافة الى ثروتها الحيوانية وفضلها على أرزن وفارقين من الناحية المذكورة(١٧).

أما المقدسي فقد عدد هو الآخر التجارات القادمة من الجزيرة الى العراق وبضمنها الخيل الجياد(١٨). وكان يصدر من منطقة الجزيرة الملح (١٩) وأحجار الرحى (الطاحون) من النوع البازلتي الأسود. وكانت قيمة الحجر الواحد منها في العراق خمسين ديناراً أو أكثر(٢٠). علماً أن أحجار الرحى كانت تشكل مادة تجارية مربحة كانت ترد دائماً من الجزيرة بواسطة الأكلاك الى الموصل والعراق حتى فترة الحرب العالمية الأولى. وما زالت مجموعات من أحجار الرحى الجاهزة للتصدير تشاهد متروكة على شواطيء دجلة فوق الجزيرة، حيث تركت هناك عندما أقفل الطريق بسبب تأسيس الحكومة العراقية.

أما مدينة زاخو (الحسنية)، فكانت تصدر الجبن والقبج والجواجيق والشواريز والفواكه المقددة،

(١٥) إبن حوقل، ص٢٠٢. وردت فيه العبارة (وربح مضطرب) وهي خاطئة والصحيح (وربح مطرد) كما صححته.

(١٦) إبن حوقل، ص٢٠٢، ٢٠٣. إشتهرت البلاد الكُردية منذ زمن بعيد بصناعة الجبن، وكانت ولاتزال تصدر كميات كبيرة منه سنوياً الى البلدان المجاورة غير الكُردية. وكان الجبن الكُردي مشهوراً بجودته، ولهذا كان يفضل على غيره في أسواق العراق وسوريا وغيرهما. وأجود الجبن هو الذي يصنع في المناطق الباردة وخاصة مناطق الزوزان. وقد عرف قديماً جبن كوردي بإسم (الجبن الزوماني) أو (الجبن الزمي). قال ياقوت الحموي في معجم البلدان، ج٣، ص١٥٦ يُنسب الى طائفة من الكرد تعرف بزومان، ولكنه قال أيضاً: ولعله ينسب الى (زوم) من نواحي أرمينية مما يلي الموصل. والنسبة الى زوم أرجح عندي، لأن المقصود بالجبن الزوماني أو الزومي، هو الذي تصنعه القبائل الكُردية في زمومها في مناطق الزوزان الواقعة جنوب بحيرة وان الى حدود زاخو وعمادية... شمال الموصل. علماً أن لفظ (زوم) يطلقه الكُرد في كُردستان تركيا (وبضمنها ما نسميه في كتابنا هذا كُردستان الوسطى) وكذلك في بهدينان على المضارب المعينة للقبائل الكُردية في مناطق الزوزان أيام الصيف. فالزوم كان لفظاً مستعملاً منذ قرون، فمثلاً أورد ذكره إبن خرداذبه في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وذكره في القرن التالي أيضاً كل من الأصطخري والهمداني وإبن حوقل مثلاً، وذلك عند ذكرهم لكُرد إقليم فارس ولورستان الكبرى. فذكروا من زموم الكُرد هناك: زوم (زم) الكاريان وزوم البازنجان وزوم جيلويه وزوم السوران... وكان كل زوم منها عبارة عن منطقة واسعة تشمل قرى ومدناً، فمدلوله في لورستان كان يختلف سعةً عن مدلول الزوم المحدد في كُردستان الشمالية وبهدينان. راجع إبن خرداذبه، المسالك والممالك، ص٤٧. الإصطخري، مسالك الممالك، ص١١٣، ١٤٤. إبن حوقل، ص٢٤٠. الهمداني، مختصر كتاب البلدان، ص٢٠٣.

(١٧) إبن حوقل، ص٢٠٣.

(١٨) المقدسي، ص١٣٩. راجع أيضاً الدكتور فيصل السامر، الدولة الحمدانية، ج١، ص٢٤٢.

(١٩) قدامة بن جعفر، كتاب الخرج، ص٢٤٥

(٢٠) إبن حوقل، ص٢٠١.

والزبيب[٢١]. أما (معلثايا) فكانت تصدر الألبان والفحم والأعناب والفواكه الرطبة والقنّب[٢٢]. وأما مدينة بدليس ذات الممر الإستراتيجي، فقد أشاد بموقعها التجاري أكثر من واحد من المؤرخين، لأنها كانت إحدى المحطات الرئيسية التي تمر بها القوافل التجارية بين أرمينيا وبلاد الكُرج من جهة، وبلاد ما بين النهرين والشام من جهة أخرى[٢٣].

كما تربط بدليس بين بلاد الشام وأذربيجان والقفقاس، وكانت مركزاً لبعض الصناعات التي كانت تصدرها الى الخارج كالسجاد والجلود والصموغ[٢٤]. ولعلها كانت أكبر مركز لتصدير العسل. فقد أبدى الرحالة الإيراني ناصر خسرو، الذي وصل إليها في العهد الدوستكي إستغرابه من كثرة عسلها ورخص أسعاره. وقال إشترينا مائة مَن بدينار واحد، وإن بها من يجني في السنة ثلاثمائة الى أربعمائة جرة عسل[٢٥].

أما مدينة نصيبين فكانت أيضاً مدينة تجارية لوقوعها على أطول طريق تجاري بري، كان يربط بين الشرق والغرب في القرون الوسطى. كما إنها تقع اليوم على خط الترانزيت الدولي. أما العاصمة فارقين فقد أصبحت في العهد الدوستكي مركزاً تجارياً مهماً بحكم كونها عاصمة ووقوعها على طريق بدليس – دياربكر وطريق دياربكر – شرقي دجلة. فإزدهرت فيها التجارة توسعت الى درجة أنها جلبت أنظار التجار في الخارج، فقدم إليها بعض التجار وسكنوها مزاولين أعمالهم التجارية فيها، كما يظهر من كلام الفارقي السابق. لقد توسعت الأعمال في هذه المدينة ونشأت فيها طبقة من أغنياء التجار وغيرهم كإبن جري وإبن البهات وأبي الحسن أحمد بن وصيف، وكان الأخير من كبار أصحاب المحلات التجارية في سوق القماش (البز) بفارقين، ومثل القاضي أبي الحسن الآمدي ومحمد بن العبيد بن المحور[٢٦].

(٢١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٤٥. (القبج): هو الحجل وبالكُردية (كەو) وهو طائر جميل مشهور يكثر في المناطق الجبلية في كُردستان ولحمه لذيذ وصوته شجي. يربيه الكُرد لجماله وطيب صوته وإستخدامه في صيد الحجل البري، وربما تبلغ قيمة الواحد منه أكثر من ألفي دينار حالياً. ولا فرق بين القبج والحجل على عكس ما في بعض الكتب. راجع لسان العرب، إبن منظور، مادة قبج ومادة حجل. وتذكرة داود الأنطاكي، مادة حجل. (الجواجيق): جمع جاجق – جاجك)، والجاجق كلمة كوردية معناها باللهجة السورانية علك (علك مائي) يجمعه الكُرد من صمغ أشجار الحبة الخضراء (كەزوان) ويبيعون منه كميات غير قليلة سنوياً. ولكن النوع الجيد والقليل هو ما يصنع من نبات الكعوب (كەنگر–کەرەنگ) ونبات آخر، وكلا النباتين ساقيهما معظمتان يخرج منهما ماء حليبي يتجمد فيكون علكاً. ويحتمل أن يكون جواجيق جمع جاجق معرب (ژاژاك) وهو من مشتقات الحليب، حيث يجفف اللبن (دۆ) وتخلط به بعض النباتات مع فتات الجبن. (الشواريز): جمع شيراز وهو اللبن الرائب (ماست) المستخرج من مائه كما في لسان العرب والمنجد مادة (شرز). ويسميه الكُرد (شيريز، والراجح أن شيراز تعريب (شيريز – شيريش).

(٢٢) الدكتور حميد عبدالمجيد الكبيسي، أسواق بغدا الى بداية العهد البويهي، ص١٩١. تمثل معلثايا (مەلتا) دهوك الحالية، أي كانت تلك المناطق تصدر من منطقة دهوك بسهولها وجبالها. والقنب كما في المنجد نبات هندي الأصل ينتج لفيفاً متيناً صالحاً لصنع الحبال والخيوط. ويسمى بالكُردية (كندر).

(٢٣) دائرة المعارف الإسلامية، ج٣، ص٤٦٢.

(٢٤) نفس المصدر: مادة بدليس.

(٢٥) ناصر خسرو، سفرنامه، ص٤٧.

(٢٦) الفارقي، ص٩٩، ١٠٠، ١٨٢.

نظام السمسرة

كان نظام السمسرة موجوداً في الدولة الدوستكية كعامل منشط للحركة التجارية في كُردستان الوسطى. وكانت التجارة في العصر العباسي، بما فيه العصر الدوستكي، تسير وفق تنظيمات مالية معينة، ومن أهم الأنظمة التي إستخدمت في ذلك الوقت نظام السمسرة أو الدلالة، الذي كان السماسرة يحصلون من عملهم على أجور محترمة(٢٧).

وكان السمسار(٢٨)، أي الدلال والوسيط الذي يتوسط بين البائع والمشتري على إنجاز البيع. وقد أعتبرت السمسرة من الوظائف المهمة لتنشيط التجارة وإهتمت الدول والحكومات بتنظيمها وإصدار القوانين بشأنها. وقد جرت العادة أن يتخصص الدلالون كل في نوع معين من السلع، فعُرف دلال الأملاك ودلال الرقيق ودلال الأقمشة(٢٩).

إن نظام السمسرة كان قد أنشأته الدولة الدوستكية في بلادها كجزء من إهتمامها بالتجارة، بإعتبارها إحدى الدول المتقدمة في عصرها. لأن الفارقي قد ذكر أن كلاً من التاجرين أبي بكر بن جري وإبن البهات كانا سمسارين، وكانا في نفس القت تاجرين. ويمكن أن نستنتج من هذا أن الدولة الدوستكية قد أدخلت السمسرة في أيدي أشخاص من أصحاب المروءة والأخلاق، وهم أشخاص معروفون بالعدل والإلتزام بالحق، إضافة الى كونهم متعلمين ومطلعين على قسط غير قليل من الشريعة الإسلامية، ولاسيما ما يتعلق بالمعاملات والأحوال الشخصية والقضاء الجنائي . هذا بالإضافة الى معرفتهم بمعظم سكان المدينة وبأخلاقهم وغيرها من واجبات وإختصاصات العدول. راجع التفاصيل في موضوع العدالة.

أما السمسار الآخر، فهو أبو بكر محمد بن جري، والذي كان رجلاً ذا مروءة وأخلاق وورع ومحباً لأبناء بلده وخير بلاده. وخير مثال على ذلك المشروع الخيري لقناة الماء التي حفرها وأجرى الماء بها الى العاصمة فارقين، والذي كلفه أكثر من خمسين ألف دينار أي ما يقدر بمليونين ونصف مليون دينار بقوة الدينار العراقي الشرائي الحالية. ولكن مع هذا فإنه عبر بالقناة من أمام داره ولم يدخل من مائها قطرة واحدة الى منزله. وحينما سأل عن ذلك، قال حتى لايقول الناس إنما حفر القناة لأجل صالحه ومصلحته. وقد ذكره الفارقي أيضاً بـ(الشيخ أبي بكر) بسبب من مكانته الأخلاقية. وتجدر الإشارة الى أن الفارقي قد ذكر في (ص٢٧٠) إبن خليل السمسار، الذي تم القبض عليه في فارقين من قبل الملك الدقاق بن تتش السلجوقي سنة ٤٩٣ هـ، فمن المحتمل أنه أو أبوه كان سمساراً في العهد الدوستكي.

ونقول أيضاً يمكن أن نستنتج مما تقدم أنه كان من نظام السمسرة في الدولة الدوستكية أن تكون

(٢٧) الدكتور حسن أحمد، وأحمد إبراهيم، العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص٢٠٨
(٢٨) السمسار كلمة معربة من الكلمة الفارسية (سبسار) ويحتمل أن يكون أصلها آرامياً.
(٢٩)حسن الباشا، الفنون الإسلامية، ج٢، ص٥١٥.

في أيدي ذوي الأموال واليسار، لكي يتمكن السمسار من تكفل المشتري في المعاملات الضخمة ويكون محلاً للإعتماد والثقة بين البائع والمشتري كوسيط، وبهذه الصفة يتمكن من إنجاز المعاملات البيع والشراء بسرعة. وكلما إستطاع السماسرة الإسراع في تنفيذ البيع كلما كان لهم تأثير أكبر في تنشيط الحركة التجارية ودفعها الى الأمام. وهكذا تختلف السمسرة في تطبيقها المذكور عن (الدلالية) بمفهومها الشعبي الحالي الواطيء، لأنها كانت حينها وساطة بين البائع والمشتري في صفقات تجارية ضخمة، أو كانت وساطة (وكالة) أو شركة لنقل التجارة الخارجية على الأغلب حسب المصطلح الحالي في عصرنا هذا.

أما نظام الصيرفة والصكوك، فلم يصل الينا نص حول وجوده أو عدمه في الدولة الدوستكية. ويذكر بأن ذلك النظام كان موجوداً آنذاك في الدولة العباسية.

صادرات البلاد

كان ذلك الجزء من كُردستان في عهد الدولة الدوستكية وبتعبير أعم في القرون الوسطى، على ما إقتبسناه من المصادر التاريخية، يصدر منتوجاته الى البلاد الخارجية من المواد التالية:

الفواكه المجففة والجوز واللوز والدبس والحبة الخضراء (كەزوان) والسماق وكذلك مَنّ السما (گەزۆ). ومن الثروة الحيوانية كانت يصدر الأغنام والماعز والأبقار والخيول والبغال(٣٠) والصوف والجلود والدهون والجبن. وكان الصوف الكُردي في العهد الدوستكي، ولاسيما الأحمر منه، يعتبر من أجود أنواع الصوف بعد الصوف المصري. وأعتبر القبج (حجل) هو الآخر من الصادرات. ومن مواد الدباغة: العفص (مازي) و(گلور) وقشور الرمان، وكلها توجد بكثرة في كُردستان. هذا بالإضافة الى تصدير الأخشاب والفحم والقطران وعرق السوس للأغراض الصناعية والأغراض الأخرى.

ومن المصنوعات اليدوية التي كانت تدخل ضمن التصدير المنسوجات اليدوية من ثياب قطنية وصوفية وحريرية كالطيالسة الصوفية والستائر المطرزة والمزركشة المنسوجة بالذهب وكذلك المقارم والشراشف والمناديل والفرش والسبنيات(٣١). أما من المعادن فكان يتم تصدير البورق وحجر الزجاج والرصاص والزرنيخ والحديد والنحاس والجبصين وأحجار الرحى السوداء البازلتية من نوع أحجار سور دياربكر. ومن المصنوعات المعدنية الموازين ودوايات الحبر. وأخيراً أحيل القاريء الى مواضيع

(٣٠) كانت كُردستان تصدر الى الخارج كميات كبيرة من الجوز واللوز على مر العصور. فقد ذكر نيبور، الذي زار الموصل في القرن الثامن عشر: أن أكثر من ألفي قنطار من البندق والجوز واللوز ترد سنوياً من كُردستان الى الموصل، حيث تقوم الموصل بتصديرها الى حلب. راجع الديوەچی، أعلام الصناع المواصلة، ص٣٨. نقلاً عن رحلة نيبور الى العراق، ص١١٤.

(٣١) السبنيات: نوع أسود من الثياب الحريرية وهي عبارة عن أزر النساء فيها أمثال الأترج، أي موشية. راجع فيروزآبادي: قاموس المحيط، البستاني، محيط المحيط مادة (سبن) وفي لسان العرب لإبن منظور مادة (سبن) أيضاً السبنيات ثياب غليظة من الكتان. وهو إسم غير عربي، ورد فيروزآبادي على صاحب هذا القول وأكد أنها ملابس حريرية. وذكرنا في موضوع الصناعات أن السبنيات كانت تصنع بفارقين فراجع هناك.

(الزراعة، الصناعات، والمعادن) إن كان يريد الإطلاع على الأماكن المنتجة لهذه الصادرات وعلى شرح بعض مواردها والمصادر التي إعتمدنا عليها.

المستوردات

كانت الدولة الدوستكية تستورد ما يحتاج اليه شعبها من مواد التجارة العالمية كان بعضها من منتجات بلدان الشرق الأوسط وبعضها الآخر من إنتاج الصين والهند والبلاد البيزنطية وغيرها. والمواد التجارية في القرون الوسطى بضمنها العصر الدوستكي كانت تأتي بصورة عامة من البلدان التالية:

الصين: منها كان يأتي الحرير والكاغد والغضائر (الصحون الكبيرة) والفغرند والسرج واللبود والمداد والمسك والعقاقير والرقيق.

الهند: منها كانت تأتي الأحجار الكريمة والسيوف وجلود النمور والصندل الأبيض والأبنوس وجوز الهند.

إيران: ترد منها الخوذ الفارسية ومرعز الشيرازية والإبريسم والسيوف والفراء والقطن والرقيق.

الخزر: ترد منها الدروع والبيضات والمغافر والعبيد والإماء.

سوريا: كانت ترد منها المنسوجات الحريرية وزيت الزيتون والسكر والزجاج والصابون.

مصر: كان يرد منها نسيج الكتان المشهور ونسيج الصوف، وقد ذكرنا في موضوع العلاقات مع الدولة الفاطمية وصول ثياب الكتان من مصر سنوياً الى الدولة الدوستكية.

البلاد البيزنطية: ترد منها أواني الذهب والفضة والعقاقير والديباج وبراذين (نوع من الحصان) والجواري وأقفال وثياب الصوف وثياب الكتان. وكان يقدم من البلاد البيزنطية الى البلاد الإسلامية أيضاً مهندسو الماء وعلماء الزاعة وبنّاؤو الرخام والاكارة(٣٢).

ومن المواد الكتابية كانت ترد من البلاد البيزنطية الى الدوستكية الرقوق، أي الجلود المهيأة للكتابة، ففي النصف الأول من العهد الدوستكي جدد يوحنا الرابع السبريني أسقف طورعبدين الكتابة السطرنجيلية السريانية، ولهذا إحتاج المذكور الى كثير من مواد الكتابة. فأرسل بطرس إبن أخيه الى ملاطية لجلب الرقوق(٣٣). يظهر حتى ذلك العصر أن الرقوق كانت مفضلة على الكاغد في كتابة الكتب المقدسة والمهمة كالإنجيل والقرآن، بل إن الرقوق كانت تستعمل في كتابة القرآن بعد العهد الدوستكي بحوالي قرنين من الزمن أو أكثر. إذ توجد مصاحف مخطوطة على الرقوق مؤرخة بتواريخ متأخرة، هذا مع العلم بأن ملاطية كانت آنذاك تابعة للبيزنطيين.

(٣٢) إن المواد التجارية العالمية التي ذكرناها موجودة في العديد من المصادر القديمة ومنها: التبصر بالتجارة للجاحظ. والمدنية البيزنطية، ص٩٤ لرنسيمان.

(٣٣) أفرام برصوم، تاريخ طورعبدين، ص٢٣٤ . ٢٧٢.

الطرق التجارية

كانت هناك في العصر الدوستكي عدد من الطرق التجارية التي كانت تربطها بالأقطار الخارجية، بحيث أن الدولة كانت تصدر منتوجاتها الوطنية وتستورد ما تحتاجه عبر تلك الطرق الرئيسية في البلاد وهي:

طريق دجلة المائي:

لما كان نهر دجلة(٣٤) صالحاً للملاحة وطريقاً للنقل والتجارة من قبل الشعوب القديمة منذ ما يقرب

(٣٤) يقال أن إسم (دجله) آري الأصل وهو(تيز) أي سريع الجريان، وهو غير صحيح بل إنه جاء من إسه القديم (أدگنا) الذي ورد في المسماريات السومرية وفي البابلية تحول الى أدگنت أو ادگت. وهو مع إسم الفرات (في السومرية بورانون أو بوروننا وفي الأكدية بوراتي أو بوراتيم) يعود الى لغة قوم مجهولين سكنوا العراق قبل السومريين وقدموا من كردستان إذ سكن العراق وعمره أول مرة في التاريخ قوم نزحوا اليه من كُردستان في أواخر القرن السادس أو أوائل الألف الخامس قبل الميلاد. وينبع نهر دجلة وطوله حوالي ١٧١٨ كيلومتراً، من بحيرة كولجك في شمال دياربكر ويصب في خليج البصرة. وتصب في دجلة أنهار عدة كنت شخصياً قد عبرتها كلها ولي معرفة بها وأشير هنا الى الأنهار التاريخية منها: (١) نهر (أنبر) وسماه الفارقي نهر (الحو) وهو قادم من حانى وهو أول نهر يصب في دجله جنوب دياربكر. (٢) نهر باطمان (ساتيدما).(٣) نهر غرزان ويسمى أيضاً نهر رضوان وإسمه القديم (ساتيدما). (٤) نهر بوتان (الرزم) وهو الفرع الشرقي لدجلة. (٥) نهر (رِهشينه) أو نهر مشار وينبع من سفوح مصيف دهشتاميرا قرب قرية تحمل نفس الإسم، ويمر في وادي كوريشا (وادي قريش)، على ما (في الكامل، ج١٢، ص٢٠٦) الذي هزم فيه الكُرد التتر هزيمة منكرة سنة (٦٢٨ هـ)، ثم يدخل سهل مشار ويصب في دجلة عند (خاناگيراخانێ) جنوب إلتقاء فرعي دجلة، ثم يصب فيها. (٦) نهر قادم من (دێرشهو) يسمى (روسور) يمر بقرية (باسرهت) الجميلة، وهي قرية مشايخ بوتان أسرة الشيخ حسين بن الشيخ خالد الزيباري، وقرية (هۆراش) ويلتقي به فوقها ماء (وهلاتێ بكاتێ) عند النقب وهو نفق صخري في مضيق يمر فيه الطريق العام ويصب في دجله في أسفل قرية شكهفتيان في موقع (بيرى دهل)، وسماه ياقوت الحموي في (معجم البلدان): مادة دجلة: نهر (يرني) ولعل الصحيح (برني) بالباء، وهو الآن إسم لكهف مفتوح كبير وعال فوق المصب عند شكهفتيان. (٧) نهر بينات (باعيناثا) ينبع من عند قرية بينات وعوينات في جنوب شرق فندك ويصب في دجلة في غرب قرية (زێویێ) قبالة قرية (بافێ)، ثم نهر فنك. (٨) نهر (بورِی) أي (رِويسۆر) كما يسمى الآن بكلا الإسمين (وينبع من جبال گابار في بوتان) وقد سماه ياقوت الحموي بإسم (بويار) و(بوري) بمعنى المخاض ويصب فيه بالقرب من قرية (مسوري) القريبة من مدينة الجزيرة. (٩) ويصب في دجلة في جنوب الجزيرة من الشرق أيضاً نهر (نێردۆش) وإسمه القديم نهر (دۆشا) ونيردوش منحدر منه. (١٠) نهر الخابور زاخو بعد أن يلتقي به (٩) نهر (هيزل)، وتصب في دجلة من الشرق نهيرات قصيرة منها (ماء شهویێ)، وهو الذي ورد إسمه عند إبن سرابيون بإسم نهر (باسانفا) نسبة الى قرية (باسا الواقعة في جنوب (شهویێ) ومصبه يقع في غرب مصب نهر بينات. أما من الغرب فالأنهار التي تصب في دجلة كانت قليلة أو صغيرة، لذلك أهملها الجغرافيون، ومنها نهر (سقلان – سهقلانێ مهما)، الذي يصب في دجلة بالقرب من مدينة الجزيرة جنوباً. وقد ورد إسم (سقلان) هذا في المقامات الزينية لإبن صقيل الجزري في (المقامة الجزرية) في القرن الثالث عشر الميلادي، والتي حققها ونال عنها درجة الدكتوراه الأخ الأستاذ الدكتور عباس مصطفى الصالحي من بعقوبة. وفي جنوب هذا النهر وبالقرب من الحدود العراقية السورية التركية يصب فيه نهر (سَفان) من الأراضي الكردية في سورية. وأورد ذكره المسعودي في التنبيه والإشراف، ص٥٤، وقال انه ينبع من ناحية العمر وقارة و(جبل الشيطان) أو علم السلطان ويقصد به الجبل المسمى عند الكُرد الان بـ(إيلم) القريب من الحدودالجنوبية لطورعبدين في الجانب التركي والواقع وسط سهول فسيحة. وذكر المقدسي في ص١٤٤ أول نهر يصب في دجلة بإسم نهر (الذيب) ثم الرمس ثم المسوليات، ولعل الأخير هو نهر (ساتيدما) أي نهر باطمان.

لقد أبدت دائرة المعارف الإسلامية في (مادة دجلة) إهتماماً بروافد دجلة، وذلك بتحديد أسمائها ومواقعها،=

من ثلاثة آلاف سنة، ومن تلك الشعوب الآشوريون الذين خلّدوا على آثارهم المنحوتة رسوم الرموس (الأكلاك) التي تدعمها القرب المنفوخة، والتي إستخدموها في طريق دجلة المائي. ولما أنشأ الامبراطور الروماني قسطنطين في مدينة دياربكر (آمد) داراً للصناعات الحربية من العجلات والطرادات، كانت بها ترسانة عظيمة للسفن الحربية(٣٥)، مما يفيد بأن الرومان إستخدموا نهر دجلة لأعمالهم العسكرية ضد الإمبراطورية الساسانية، حيث كانوا يرسلون الجيوش الإحتياطية الخلفية الى الجنوب بإتجاه الجزيرة وكُردستان الجنوبية والعراق إضافة الى إستخدامهم النهر في التجارة.

اما في العصور الإسلامية وبضمنها العصر الدوستكي، فقد إحتفظ نهر دجلة بإهميته كطريق مائي الى العراق حتى نهاية العهد العثماني. ثم فقد أهميته بسبب قيام الدولة العراقية الحديثة وقيام الحدود بين العراق وتركيا.

لقد أشار العديد من المؤرخين الى أهمية طريق دجلة المائي من الناحية التجارية، حيث كان قسم من تجارة كُردستان الوسطى وأرمينيا والبلاد البيزنطية تمر فيه الى الموصل والعراق. وكانت مدينة الجزيرة الواقعة على ضفة دجلة محطة للتجارة المارة بهذا الطريق، وقد أشار إبن حوقل الى ذلك(٣٦).

مآصر في دجلة

بالقرب من مصب (نهر شَوي) في دجلة شمالاً وقبالة (قلعة بافي) ذات النفقين الصخريين، هناك مَآصَر في دجلة. حيث توجد على ضفته الشرقية صخرة منفردة فيها ثقب (حلقة)، مازال شائعاً بين سكان المنطقة أن الثقب كان مكاناً لربط سلسلة حديدية تمتد من الضفة الى الضفة الجنوبية المقابلة. إذ كانت السلسلة تربط هناك عند بناية غير كبيرة مشيدة بالحجر والكلس تسمى قلعة على دينوا (كەلها على دينوا). شيدت القلعة الصغيرة للإشراف على المأصر لأخذ الأعشار، أي الضريبة النهرية من

=ولكنها لم توفق ووقعت في أخطاء بصدد نهر (يرنى- روسور) ونهر (باعيناثا)، وقد رجحت أن يكون نهر (باسانفا) الذي ذكره إبن سرابيون، (نهر سفان) وهو خطأ. إذ أن الاول من روافد شرقي دجلة والثاني بعكسه. واعترفت دائرة المعارف بعدم معرفتها بمواقع الانهار المذكورة مع نهر بويار وبعدم معرفتها اسماءها الحالية. ووقع (ابن سرابيون - سهراب) في، عجائب الاقاليم، ص١٢٦، طبع ڤيينا في خطأ بصدد نهر (الذيب) ونهر (باسانفا)، حيث قال ان الاول هو نهر ارزن والثاني ياتي من ارض فارقين ويصب في دجلة قرب الجزيرة. واخذ بهذا الخطأ آخرون منهم سپاهي زاده في (اوضح المسالك، ص٣٠ مخطوط). اما الخطأ الثاني ففيما قاله من ان نهر (باسانفا) ينبع من ارض ميافارقين، ولكنه لم يخطيء في تحديد مكانه وهو كما قلنا (نهر شوى - نهر باسا). وقد اتخذت قرية باسا من قبل السلطات التركية في الثمانينات مركزاً لناحية بدلاً من (فندك). وذكر الخوارزمي ايضاً اسم نهر (الذيب) في كتابه (صورة الارض، ص١٣٠)، طبع ڤيينا، ولكنه لم يحدد موقعه، والراجح انه يقع فيما وراء دياربكر. اما الشريف الادريسي فخطأ في (نزهة المشتاق، ص٢٤٠) بصدد نهر (سربط - نهر غرزان) واعتبره بوتان (الرزم).

(٣٥) محمد أمين زكي، تاريخ الكُرد وكُردستان، ص١١٥.

(٣٦) إبن حوقل، صورة الأرض، ص٢٢٠. راجع أيضاً ريسلر، الحضارة العربية، ص١٣٤. آدم متز، الحضارة الإسلامية رفي القرن الرابع الهجري، ج٢، ص٢٩٠. الدكتور عبدالعزيز الدوري، تاريخ العراق الإقتصادي في القرن الرابع الهجري، ص١٣٨. لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص١٤٣.

الأكلاك، حيث كانت السلسلة الحديدية تشد بإرتفاع مناسب لمنع مرور الأكلاك. وبعد أخذ الضريبة كانت ترخى لتمر الأكلاك في سيرها. وكان نظام المآصر معمولاً به حتى عهد إمارة بوتان. ويحتمل أنه كان قديماً جداً ويعود الى عهد قلعة بافي، التي يرجع تاريخها الى العصر الأشكاني على أقل تقدير حسب رأيي. وقد زرت القلعة وصورتها في ١٩٧٧/٧/٧ مع تلميذي فقيد التراث الكُردي المرحوم ملا خلف رمضان البافهيى الذي أخذ الصورة فيما بعد وأرسلها اليّ. كان علي دينوا قد سيطر على المأصر متمرداً على إمارة بوتان حسب قصة شهيرة وكا من قرية (دينوا) على المرتفع الواقع جنوب دجلة وغرب (بافي). هذا وكان عند مدينة الجزيرة مآصر أيضاً مازالت بقايا سلسلتيه الحديديتين موجودة ومربوطة بسور الجزيرة في مكانين عند قلعة (برجا بهلهک). وقد ظن بعض المستشرقين أن السلسلتين هما بقايا جسر خشبي متحرك كان هناك على دجلة. ولكن الشائع عند سكان الجزيرة أنهما بقايا مأصر، ولا يذكر هؤلاء أنه كان هناك جسر متحرك. ويمكن أن تكون إحدى السلسلتين (وقد رأيتهما) للمأصر والأخرى لجسر متحرك. وكان هذا المأصر معمولاً به في عهد إمارة بوتان.



بناية المأصر

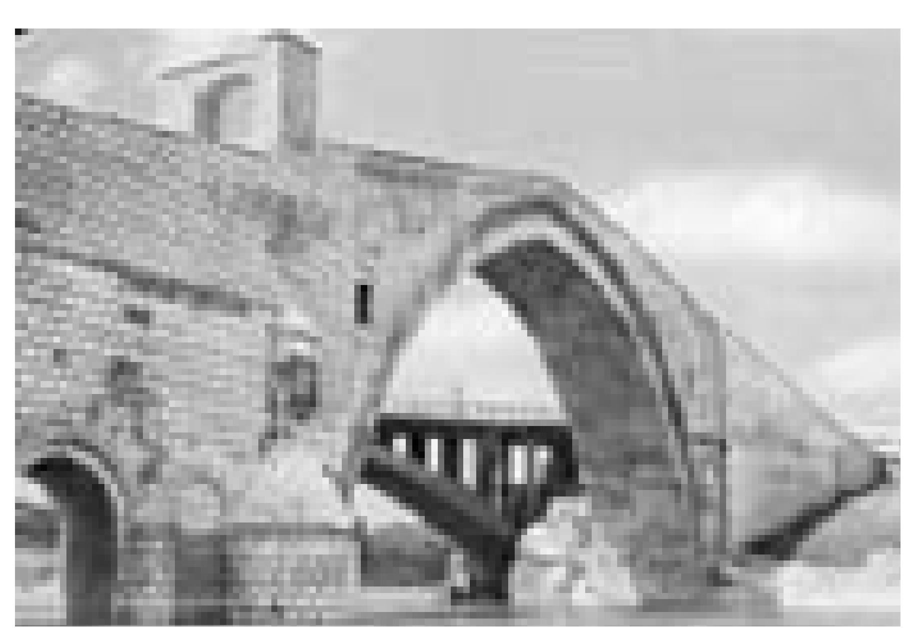
طريق شرقي دجلة

كان هناك طريق تجاري بري بمحاذاة دجلة من الجانب الشرقي يربط بين كُردستان الوسطى وأرمينية والبلاد البيزنطية، وبين العراق. وكان الطريق يأتي من آمد (دياربكر) ماراً بمنطقة بوتان (بهتان) وزاخو (حسنية) ومعلثايا (ملطا) قرب دهوك متجهاً الى الموصل. وكان فرع من ذلك الطريق يتجه من سعرد الى بدليس وخلاط وأرمينية، بينما كان الفرع الرئيسي يتجه الى مدن أرزن وفارقين وآمد. وكان هذا الطريق أضمن سلامة في العهد الدوستكي مع طريق دجلة المائي من طريق نصيبين – الموصل، لأنه كان يمر في المناطق الكُردية الى الموصل بعيداً عن نفوذ العشائر العربية وعن أعمال السلب. وقد مرّ الشاعر الكبير أبو العلاء المعرّي بهذا الطريق، فوجده في غاية الأمن كما مرّ كلامه، رغم وجود أنهار متعددة في هذا الطريق الذي يجتاز العديد من روافد دجلة، التي كانت تخلق المصاعب للقوافل التجارية وللمسافرين، خاصة أثناء إرتفاع منسوب المياه. ولكن كانت هناك جسور وقناطر وكذلك خانات على طول الطريق، ومازال بعض تلك الجسور والقناطر صالحاً لمرور المشاة، بينما هناك آثار لجسور أخرى ما زالت شاخصة. وكانت الدولة الأشكانية (الفرثية) قد أهتمت بهذا الطريق كما تدل عليه آثارها الباقية في هذا الطريق البري وطريق دجلة المائي أيضاً، أي على طرفي دجلة ومنها نفق (بافىّ) في أسفل القرية بالقرب من ضفة دجلة الجنوبية الغربية، وقلعة بافي المطلة عليها وآثار أشكانية في قرية (هيتما) المطلة على دجلة في الجانب الآخر في شمال غرب بافى وجنوب باسا. ويحتمل أنها أجرت في الطريق توسيعات مقابل قلعة بافي بالقرب من مصب ماشوي (شەوێ) في دجلة.

لقد إهتمت الدولة الدوستكية بالجسور الواقعة على روافد دجلة، فقد ذكر الفارقي أسماء سبعة جسور هي: جسر الحسنية والحميدية وتل بنان وقطنيتا وبابوذين والإبراهيمية وبرسدي. وذكر بأن الملك الدوستكي نصرالدولة وقف عليها العقارات و"غرم عليه مالاً عظيماً"(٣٧).

لانستطيع أن نحدد مواقع هذه الجسور سوى واحد منها وهو جسر (تل بنان)، الذي ذكر الفارقي أن نصرالدولة شيده على نهر ساتيدما نهر (باطمان) سنة (٤٢٣هـ = ١٠٣٢م) عند قرية تل بنان والجنينة ليعبر عليه الى مدينة النصرية. وفي ٢٢ آب ١٩٧٧ تمكنت من إكتشاف آثار هذا الجسر بين قرية (پيلەكان) على الضفة الغربية وقرية (كيرك) على الضفة الشرقية. لم يبق من الجسر شاخصاً سوى دعامة واحدة في مكان عريض جداً من النهر. أما جسر (باطمان) الحالي، الذي يعد من أروع وأشهر الجسور في كُردستان، فإنه يقع فوق مكان جسر نصرالدولة بمسافة حوالي كيلومترين أو أكثر في موضع ضيق من النهر عند قرية (مالا بادێ). وقد وصفه أوليا چلبي بإعجاب في (سياحتنامه، ج٤، ص٧٦). شيد الجسر المذكور (حسام الدين تمرتاش) بن نجم الدين إيليغازي بن أرتق سنة (٥٤٢هـ)، على ما جاء في (دياربكر تاريخي، ج٢، ص٣٤٥) لبيسان أوغلو. وفيه كتابة الجسر وعليه صورة إنسانين يحتمل أن يكونا رجلاً وامرأة. ويظهر أن جسر نصرالدولة كان قد إنهار، ولذلك

(٣٧) تاريخ الفارقي، ص١٤٣.



جسر باطمان

قام تمرتاش بتشييد هذا الجسر في موقع صخري ذي أرضية قوية شبيه بموقع وأرضية پرا دهلال (جسر حسنيه) في زاخو، آخذاً بنظر الإعتبار إنهيار الجسر الذي شيده نصرالدولة على أرضية مختلفة.

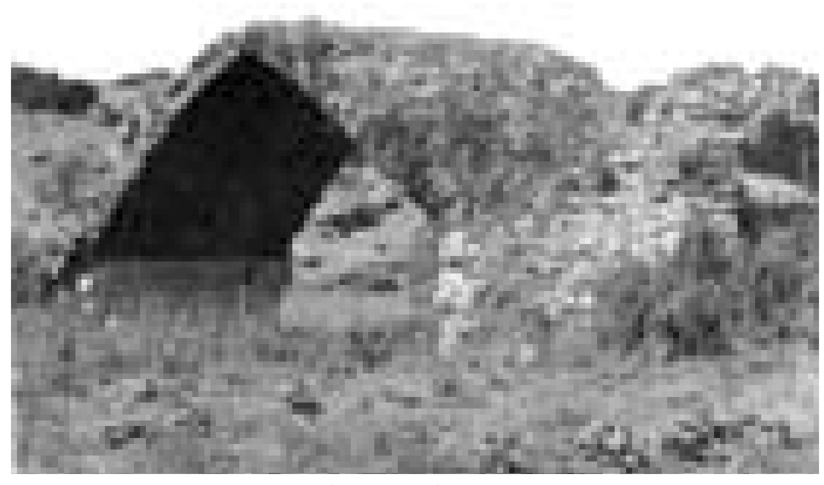
لقد ذكر الفارقي أيضاً أن نصرالدولة شيّد جسراً على نهر (الحو)، أي نهر (حانى - أنبَر) وهو أول نهر شرق مدينة دياربكر في الطريق الى فارقين(٣٨). وكان على نهر غرزان نهر (سربط) عند مدينة أرزن في العهد الدوستكي جسر(٣٩). كما يوجد على نهر (كەزەر) أي النهر القادم من بدليس جسر قديم، ويوجد آخر على نهر بوتان الفرع الشرقي لدجلة أو نهر (الرزم) حيث توجد آثار جسر قديم على عدة أرجل(٤٠) فوق تل فافان (تلانێڤ روان)، أي فوق إلتقاء الفرعين ويسمى (پرا کچکێ) أي جسر الفتاة. وفي موقع منبسط يسمى (چەمێ شەوكيا). لقد زار هذا الجسر في سنة **١٩٧٩** تلميذي المرحوم الملا خلف رمضان البافەيى بناءً على طلبي، ثم كتب لي يقول بأنه توجد آثار خمسة من

(٣٨) نفس المصدر.

(٣٩) تاريخ الفارقي، ص٧٨.

(٤٠) يقع هذا الجسر الكبير فوق تلانيف روان (تل فافان). وفي أسفل قرية (بلوەريس) بمسافة قليلة، ويقع بالقرب من قاعدته الشمالية قرية (دير غالب) ويسمى الجسر أيضاً (پراشكەستێ)، وقد تهدمت بعض أقسامه. وقد شيدت الحكومة التركية في موقع أعلاه بمسافة حوالي كيلومترين جسراً كبيراً سنة ١٩٥٦ يسمى جسر (بلوەريس) ويبلغ طوله (١٣٠) متراً. وبالقرب منه على الضفة الغربية حمام مياه كبريتية ماؤه حار. ومن الجدير بالذكر أني لم أجد لحد الآن في أي مصدر ذكراً لهذا الجسر المهم. وقد أرسلت إستفساراً حوله الى تركيا بواسطة الطالبة (بلقيس حيدر من سكان مندلي). فأجاب عليه أحد أساتذة جامعة أنقرة، بأنه شُيّد من قبل ملكشاه السلجوقي، ولم يزد على هذا شيئاً ولم يشر الى أي مصدر. وإن ثبت ذلك فيكون تشييده إما في أواخر عهد الدولة الدوستكية أو إثر سقوطها، علماً بأن الأتراك ينسبون كثيراً من الآثار الى ملكشاه وآلب أرسلان بدون دلائل مقنعة، وذلك بمجرد كونها مشيدة في القرن الحادي عشر الميلادي. والجدير بالذكر أن إسم النهر ورد في=

قواعده الحجرية وقنطرة واحدة من الطابوق. يبلغ إرتفاع القنطرة عشرة أمتار وعليها كتابة لمن قام بتعميرها وهي "عمّرها إبراهيم علي وعبدالرحمن عبدالله" مع إحتمال خطأ في قراءتها، وهذه صورته:



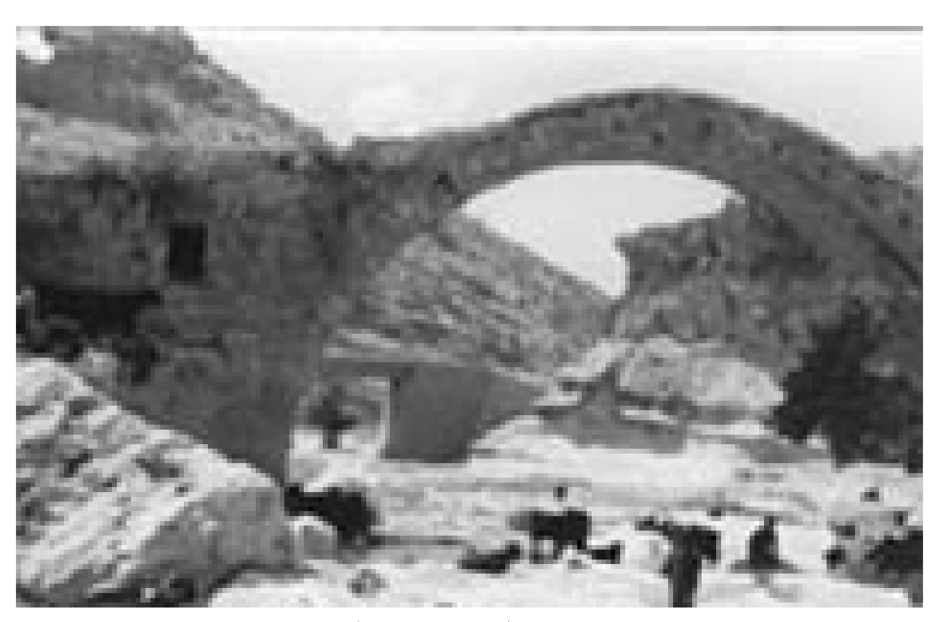
جسر (پرا کچکی)

في جنوب الجسر على الطريق آثار خان يسمى (خانا چەمێ شەوكيا) وهذه صورته:



خانا چەمی شەوكيا

=بعض المصادر (رزم) بتقديم الزاي المعجمة. والجسر كغيره من الآثار العديدة التي ستغرق بمياه سد أولوسو، وقد نشرت صورته مع صور الاثار المذكورة في مقال مسهب بخصوص غرقها وغرق مدينة (حصن كيفا) الأثرية، نشرناه في جريدة (كوردستانی نوێ) الأعداد الصادرة في ١١/٣٠ و٦ و٢٠٠٠/١٢/٧.



قنطرة (على نهر مشار)

في جنوب الموقع بمسافة حوالي (٢٠) كلم يوجد خان يسمى (خانا گيّرا خانێ) المشيد بالحجر المهندم والجص بجانبه آثار لغرفتين عهدهما أقدم. وهذا الخان الواقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة والواقع على الضفة الغربية لنهر (مشار) عند مصبه يضرب المثل بمتانته في بوتان وقياساته (١٩×٧,٥٠م)، وفي الجانب الجنوبي الشرقي للخان قنطرة (جسر) سالمة وجميلة على نهر مشار تعود الى القرون الوسطى. وفي الصفحة الشرقية من قاعدته الجنوبية غرفة قياس القنطرة (٣٣×٣,٥٠ م) وقد ألتقطت صورتها مع الخان في (١٩٧٧/٨/١٦).

وفي جنوب هذا الموقع بمسافة حوالي (٦) كلم بين قرية (چێلك) و(روسور) آثار خان قديم أيضاً يسمى (خانا كەوا) وعنده آثار مدينة كبيرة وقديمة جداً تسمى (دويڤى خريب) تمتد من ضفة دجلة الى سفح الجبل الكبير الواقع في شمالها، كما توجد آثار عديدة لمدن مندثرة على جانبي دجلة. وهذه الآثار كلها ستغرق نتيجة بناء سد (أولوسو) الذي تقيمه تركيا على نهر دجلة، بالإضافة الى منحوتة أشكانية بين (پيرێ دەل) و(چەمێ پاوان). وبالقرب من الخان شرقاً يأتي نهر (روسور) الذي ذكره ياقوت الحموي في معجم البلدان بإسم (يرني)، وعليه جسر خشبي كانت تمر عليه القوافل عند مقبرة (پيرى دەل - پير ئاڤدەل) والطاحونة المائية. ومن المحتمل جداً أنه كانت على النهر هناك قنطرة حجرية قديمة. وفي أعلى هذا الموقع بحوالي (١,٥) كلم قرية (شكەفتيان) على الضفة الشمالية للنهر، وهي عبارة عن مجموعة كهوف منها مسجدها الكهفي وعليه تاريخ (٥٥٠هـ = ١١٥٥م). وكان الطريق بين قسمي القرية يمر في نفق صخري. وصعوداً من شكفتيان بمسافة حوالي (٢) كلم

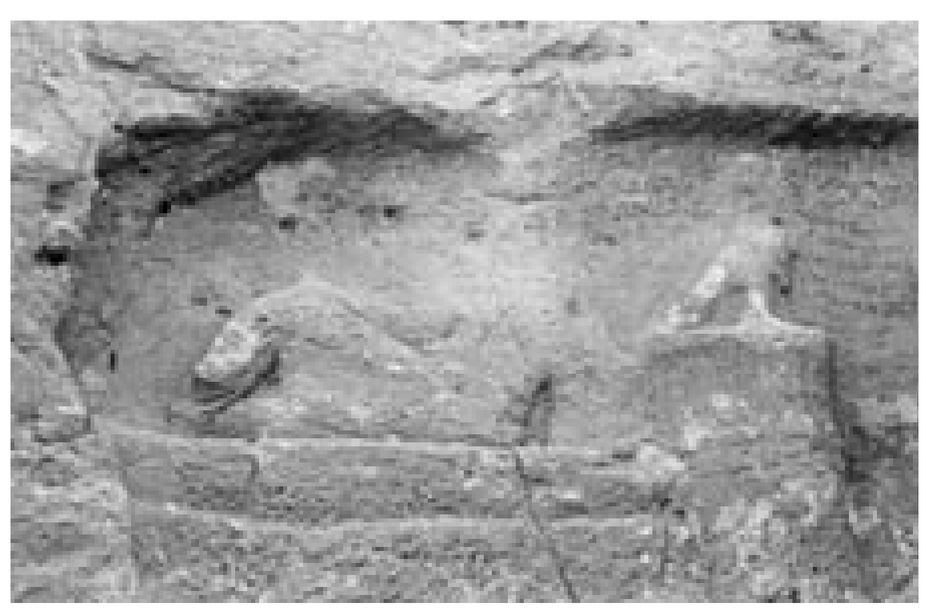
توجد قنطرة حجرية جميلة على النهر عند قرية (چەمێ گەور) الكهفية أيضاً، ولكنها غير صالحة للعبور. وتتجه تلك الطريق شرقاً الى قرية (گوينا) وتلتقي بالطريق الأشكاني في قرية (زڤنگا حاجى عەليان) وهي عبارة عن كهوف كثيرة وهي قرية جافة. وتعتمد القرية في توفير المياه على صهاريج كثيرة منحوتة في الصخور. وهي مسقط رأسي، كانت في العهد الأشكاني محطة في كُردستان (في١٢٧ ق.م-٢٢٧ ب.م) على الطريق الواقع بين مدينتي فنك (پيناكا - پنياكا) وبوتان العليا والسواحل الجنوبية لبحيرة وان وأرمينية، وذلك حسب تحقيقاتي الأثرية(٤١). إن لتاريخ مسجد شكفتيان أهمية، إذ من المحتمل أن تكون قنطرة (خاناگيّرا خانێ) وقنطرة (چەمێ گەور) من نفس الفترة التاريخية.

وبالقرب من (پيري دل) جنوباً على الضفة الصخرية لدجلة عند موقع (دەڤ تەنور) ينحدر الطريق في بقعة منحوتة في الصخر، لعلها تعود الى العهد الأشكاني حيث نحتت على الطريق أي الصفحة الشمالية منه صورة لرسم نسر على قاعدة مرتفعة مع كتابات بهلوية أشكانية. والنسر هو رمز الإلهة ميترا (ميثرا - مهر) حسب رأيي. ولم أجد لهذا الأثر الذي صورته بتاريخ ١٩٧٧/٨/١٦ ذكراً في أي مصدر. ومن سوء حظ (لايارد) عالم الآثار بأنه عبر من تلك النقطة ليلاً، ولهذا لم ير هذا الأثر المهم. فلم يذكره في كتابه (نينوى وبابل)، وذلك حوالي سنة ١٨٤٧م، وفي الصفحة التالية صورة ذلك الأثر(٤٢).

بعد هذا الأثر بحوالي (٢) كلم يأتي موقع أثري مهم آخر يسمى (چەمێ پاوان)، وكانت مدينة أو مستوطنة قديمة فيها آثار من العهد الساساني أو الأشكاني وفيها أبنية حديثة ونهير. وفي الحافة الجبلية الصخرية الشاهقة المطلة على الموقع آثار منحوتة متعددة في الصخور الى جانب بناء صغير بالحجر والجص يصعب الوصول إليه، ولعلها تقع أمام قبر صخري يعود الى العهد الأشكاني أو

(٤١) في المرتفعات الجبلية التابعة لزڤنگ أكثر من ستين موقعاً عسكرياً (قلاع) معظمها صغيرة تعود جميعها أو معظمها الى العهد الأشكاني. وفي القرية وأطرافها حوالي (٢٠٠) كهف. ولهذا فهي كعشرات القرى في بوتان تعد من القرى الكهفية. وكانت دارنا تحتوي على كهفين أحدهما فوق الآخر، والكهف الفوقاني لا سبيل إليه سوى كوة دائرية تنزل إليه من فوق جانبه الجنوبي، وفي وسطه قبر محفور في الصخر وفوق القبر في سقف الكهف حلقة. ويتضح لي الآن بأنه قبر ميثرائي في سقفه حلقة منحوتة هي حلقة العهد المثرائي (المهري) من العهد الأشكاني. وقد وجدت خلال السنوات القليلة الماضية قبوراً كثيرة من هذا الطراز. وقد عثر قبل سنتين سنة على قبر جماعي في كهف يشبه سرداباً تحت الأرض عند الصهاريج الواقعة في شمال القرية. وهناك آثار لكهريز صخري يابس وقديم، فالقرية خالية من عيون الماء ماعدا واحدة ماؤها قليل تقع وراء صهاريج القرية. كانت تعيش في القرية حوالي (١٥٠) أسرة خلال السنوات الماضية. وفي مسجد القرية عمودان حجريان في قسم المسجد الكهفي على أحدهما تاريخ لسنة (١٢٠٤هـ = ١٨٢٤-١٨٢٥م)، وهو تاريخ ما شيّد من المسجد بالحجر والجص. وقد شيد المسجد بأمر من (بدرخان) أمير بوتان، على ما هو شائع بين أهالي القرية.

(٤٢) من المحتمل أن تكون دائرة الآثار التركية قد شاهدت المنحوتة وحلت رموز كتابتها، وقد حاولت الحصول على ما لدى تلك الدائرة من المعلومات إن وجدت ولكن دون جدوى. وقد إكتشفنا في الشمال منحوتة لكتابة پهلوية أخرى منحوتة ومكتوبة في نفس الوقت بمادة سوداء، وذلك في أسفل صخرة زنتها حوالي طن مستندة الى صخرتين والمسافة بينهما حوالي (١٠٠) متر وتقع على الجانب الشرقي من الطريق الحديث بحوالي (٨٠) متراً أو أقل.



منحوتة دَف تنور

الساساني. ويقع الموقع على الضفة الشرقية لدجلة مقابل جبل (زڤنگا طورێ) المطل على دجلة من الغرب. ولابد أن يكون في (چەمێ پاوان) خان من العهد الإسلامي، وذلك في نطاق الإهتمام الكبير بطريق شرقي دجلة التجاري. وكان الطريق القديم يسير بمحاذاة دجلة ووراءه ويصل الى قرية (باسا)، ثم ينحدر ثانية، في طريق مرصوف بالحجارة، لعله لمرور العربات التي تجرها الخيول، الى ضفة دجلة. وهناك خان كما يسمى الآن وهو كهف بالجانب الشرقي من نهر شوي، وخان آخر بالقرب من مصب النهر باعيناثا وهو الآخر كهف. ويعتبر هذا الطريق هو الطريق الرئيسي والأقدم من غيره. وتتفرع منه (وربما كان ذلك في وقت متأخر بالنسبة لهذا الطريق القديم) طريق آخر بالقرب من (چەمێ پاوان) جنوباً يتجهة عبر سفوح السلسلة الجبلية الى (فندك)، التي كانت مركز ناحية تابع لقضاء (أوروه) التابع لولاية سعرد. وفي الجانب الغربي من القرية ظهرت مؤخراً آثار لبناء قديم لعلها لأحد الخانات. وكانت إحدى محطات هذا الطريق للقوافل التجارية بين الجزيرة سعرد حتى ستينيات القرن العشرين، أي قبل فتح طريق السيارات. بعد ذلك يمر الطريق في الجبل الواقع في الطرف الشمالي الغربي من نهر بينات (باعيناثا)، ويسمى ذلك الطريق (گەلى پەرپتى) الشهير. ونظراً لشدة إنحدار الصفحة الجبلية، فقد دشن الطريق بالأحجار والجدران الحجرية. ثم يعبر الطريق النهر والنفق المنحوت في الجانب الجنوبي للنهر، الذي أشرنا إليه سابقاً. ومن المحتمل جداً ان الطريق كان في القرون الوسطى يمر من (فندك) بقرية بينات (باعيناثا)، ثم ينحدر في وادي بينات العامر بالبساتين وأشجار الزيتون والصنوبر الطبيعية، حيث كان يلتقي بالطريق القديم (أو ما نسميه بالطريق الأشكاني)، الذي كان

يتجه شمالاً الى (زڤنگا حاجي عەليان) الذي أشرنا إليه سابقاً(٤٣).

بعد الخروج من وادي بينات وزيوى يدخل الطريق الى منطقة سهلية أو خفيفة التموج بين دجلة والسلسلة الجبلية حتى يصل بعد حوالي (١٢) كلم الى خرائب بلدة (فنك) القديمة وبساتين فنك الحالية الواقعة على ضفة دجلة. وتشاهد قطع من سور المدينة التي كانت في العهد الدوستكي مركزاً للإمارة البشنوية القوية. فلاشك إذاً في أنه كانت في فنك خان للقوافل ومازال قرب فندك وكذا عند مصب نهر باعيناثا في دجلة زورق بالمجاذيف اليدوية للعبور الى ضفة النهر الغربية خان ايضاً. ويمر الطريق من فنك في سفح السلسلة (سلسلة فنك وديّرا) ليعبر نهر(روسور) أيضاً أي النهر الأحمر(٤٤)، وبعد عبوره بحوالي كيلومتر أو أكثر بقليل يوجد خان شهير بإسم (خانێ بانێ خانێ) الشهير قبالة مدينة الجزيرة. وفي أسفل الجزيرة بحوالي (٢) كلم توجد بقايا جسر كبير ومهم جداً على دجلة يسمى(پرا بافت)، الذي على قاعدته الغربية صور بروج فلكية(٤٥).

بعد هذه المحطة يأتي نهر (نێردۆش)، الذي ورد إسمه في المصادر (نهر دوشا) الذي ينحدر من القسم الغربي من جبل (الجودي) ويمر بقرية (شاخ) الشهيرة، التي على صخورها سبع منحوتات

(٤٣) كان الطريق (طريق المشاة لحد الآن) يتجه شمالاً من (زڤنگ) الى قرية هرارش الواقعة على الضفة الجنوبية لـ(روسور) ويمر من شمال هرارش من نفق منحوت في المضيق الصخري الى مدينة (دهێ)، وهي مركز قضاء تابع لولاية سعرد، ومن ثم الى السواحل الجنوبية لبحيرة وان والى مدينة (وان) وأرمينيا. وبناءً على طلبي سافر تلميذي الملا خلف البافەیی الى زڤنگ لإلتقاط الصور لبناية ذات طابقين في منتصف صخرة عالية تسمى (مرێ) مشيدة بالحجر والجص، ولعلها مقبرة من العهد الساساني. وسافر الملا خلف عاشق تاريخ وتراث كُردستان، وكتب في إحدى رسائله وسجل في الدفتر(١٠) من دفاتره -التي تزيد على الأربعة آلاف صفحة- وكلها لدي الآن حسب وصيته، وكتب في وصفها في الصفحات (١٤٦-١٥٣ من الدفتر ١٠). فقال ان طولها (٢٩) متراً وفي داخلها (٤٢) درجاً وقد نُحت النفق من الداخل بصورة دائرية. ومن المحتمل أن يكون هذا الأثر من العهد الأشكاني، كما يحتمل أن تكون فيه كتابة أيضاً أو رموز.

(٤٤) ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان عند البحث عن دجلة هذا النهر بإسم (بويار) . وفوق المعبر مضيق (قەسركا گێلێ)، والذي على جانبه الغربي منحوتة فارسية من العهد الأشكاني. أقامت الدولة الأشكانية إستحكامات كثيرة، حتى إنها شيدت أسواراً على السلاسل الجبلية في بوتان وكُردستان الجنوبية، لدرء خطر الرومان ولكيلا يتكرر إنتصار كإنتصار الإسكندر المقدوني على الشرق.

(٤٥) ورد إسم هذا الجسر في المراجع التركية الحديثة بإسم (جسر يافس). شيد الجسر في موقع يتسع فيه دجله، ويربط بين منطقة بازبدا ومنطقة باقردا. ذكر أبو شامة المقدسي في كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين، ج١، ص١٣٨) أن جمال الدين الاصبهاني وزير عماد الدين زنكي، المتوفي سنة (٥٥٩هـ = ١١٦٥م)، شيد هذا الجسر بالحجر المنحوت والحديد والرصاص والكلس، إلا أنه توفي قبل إكماله وقال أنه شيد جسراً آخر على نهر (الأرباد) عند الجزيرة، أي نهر قرية أرنبات الحالية وهو سَقلانى مَمان (على ما نبهني إليه اخي الملا احمد) وأضاف انه من ابنية الوزير التي لم يرَ الناس مثلها. وكذل قاله إبن الأثير في (الكامل، ج٩، ص٨٨) و(إبن الخميس الدياربكري، تاريخ الخميس، ج٢، ص٣٦٣) وكان تشييده للجسر عندما كان وزيراً لقطب الدين الزنكي ولم يكمله بسبب إعتقاله. لقد نحت على قاعدته الغربية صور بروج فلكية مثل الحوت والأسد والجوزاء والقوس والثور مع كتابة أسمائها بالعربية. لقد زار الموقع أستاذي المرحوم السيد عبدالرحمن مفتي الجزيرة إبن السيد علي الفندكي، وذلك بناءً على طلبي وكتب لي: أنه توجد بجانب الكتابات العربية كتابة أخرى غير عربية، مما يؤيد ما قاله علماء غربيون بأن الجسر ساساني كما في دائرة المعرف الإسلامية (ج٢، ص١٨٢، طبعة دار الجيل بيروت). ومن الجدير بالذكر أن الإسكندر المقدوني عبر دجلة من هذه النقطة أو من مكان قريب منها وذلك سنة (٣٣١ ق.م).



پرا بافت

آشورية. ويحتمل أنه كانت عليها قنطرة، لأن مجراه عميق وصعب العبور في الشتاء والربيع، ثم يدخل الطريق سهل سلوپي (سهل باقردا) التاريخي الى أن يصل الى هيزل شمال غربي زاخو بـ(١٠) كلم عند آثار جسر قديم. وعند زاخو (ضمن المدينة حالياً) يوجد جسر (پرا دهلال) الشهير على نهر خابور(٤٦) ويحتمل أنه جسر الحسنية الذي وقف عليه نصر الدولة عقارات.

وبعد إجتياز ممر زاخو يدخل الطريق الى سهل سليڤاني (سهل معلثايا)، ومن المحتمل أن يكون عند قرية (باستكێ) التي تبعد عن زاخو (٢٧) كلم. كانت القرية ذات التل الأثري محطة للقوافل في عهد (نرام سين) الأكدي في الألف الثالث قبل الميلاد على ما أشرنا إليه سابقاً. ثم كان الطريق يصل بعد (٢٣) كلم الى مدينة (معلثايا – ملطا) الواقعة على الضفة الغربية من نهر دهوك، أو يمر

(٤٦) يسمى پرا دهلال الآن، وفي المراجع العربية بـ(الجسر العباسي)، وهو إسم حديث ولا علاقة له بالدولة العباسية. كان الجسر موجوداً في القرن العاشر الميلادي حسب أوصاف المقدسي له في (أحسن التقاسيم، ص١٤٧) والتفاصيل في مقالنا الخاص به والمنشور في (مجلة بين النهرين، العدد ٢٧). وقد رُبط بين أحجار الجسر من الداخل بقضبان حديدية. والجسر أصبح الآن ضمن مدينة زاخو ولازال سالماً. وقد حدث لي مؤخراً الرأي بأن الجسر يعود الى العهد الساساني، وذلك إستناداً الى طراز قوسه الكبير قليل التحدب والبيضوي والمطابق للأقواس الساسانية التي رأيت منها قوساً في قلعة جند (قهلاى جوندى) في وادي زرزي في منطقة السليمانية. وفي غرب الجسر على مسافة حوالي كيلومتر توجد آثار جسر آخر ضمن المدينة على الفرع الجنوبي للنهر، الذي يتفرع ضمن مدينة زاخو الى فرعين. وبالقرب من آثاره شرقاً جسر سالم شيدته إمارة بهدينان على ما يعرف عنه. وأن نهر الخابور يقسم مدينة زاخو الى ثلاثة أقسام، وتقع قلعة المدينة في القسم الأوسط وهي مطلة على القسم الرئيسي من النهر وهو القسم الشرقي.

بالقرب منها غرباً، حيث الطريق العام الحالي عند جسر (آلوكا). وكان الطريق القديم يطابق هذا الطريق العام من آلوكا الى الموصل (٦٤) كلم.

هكذا يظهر من الخانات والجسور المتوفرة في منطقة بوتان على طريق شرقي دجلة مدى أهمية هذا الطريق التجاري. وليست لي معرفة دقيقة مماثلة بالمناطق الأخرى من الطريق، كي أشير الى ما هناك من جسور وخانات متصلة ما عدا متفرقات منها، مثل كاروان سرا (خان) عند مدينة حصن كيفا وفندق شيده نصرالدولة مع مسجد عند قرية كيرك (تل بنان) على الطريق الجنوبي لجسر باطمان، وخانين في طرفي جسر باطمان.

طريق دياربكر- نصيبين- الموصل- كُردستان والبلدان الشرقية:

كان هذا الطريق جزءً من أطول وأهم الطرق التجارية البرية، وكان يربط بين الشرق والغرب القديمين. فكانت التجارة الشرقية ترد من سيلان والصين والهند الى أفغانستان وإيران والعراق، وتصل الى نصيبين ودارا، ثم يمر قسم منها متجهاً الى سوريا وموانيء البحر الأبيض المتوسط، بينما كان قسم آخر منه يمر بآسيا الصغرى[٤٧] وأوروپا، علماً أن الموصل لم تكن حينها تعتبر من المدن. وكانت الامبراطورية الرومانية تنازع الدولة الأشكانية (الآرية) السيطرة على طريق نصيبين والرها (أورفا)، التي هي اليوم من البلاد الكُردية.

ومن بعد الرومان توجهت أنظار البيزنطيين للسيطرة على هذه البقعة لأهميتها الإقتصادية. ونشبت لذلك حروب كثيرة، سواء بين الدولة الأشكانية الرومان أو الدولة الساسانية والبيزنطيين. "وفي القرن السادس الميلادي كان الحرير لايزال يسير براً بصفة رئيسية خلال فارس الى محطتي المكوس الامبراطوريتين عند نصيبين ودارا، ثم ينتقل الى مصانع قسطنطينية وصور وبيروت)[٤٨].

والصحيح أنهما محطتا الگمارك بين الشرق والغرب، حيث كان حرير الصين وأحجار سيلان الكريمة والسلع التجارية الأخرى تصل الى بيزنطة والغرب عبر هذا الطريق. وكانت تقع على طريق دياربكر - نصيبين مدن دارا وكفرتوثا وقصر بني نازع[٤٩]، التي كانت محطات للقوافل التجارية.

رغم أن طريق دياربكر - نصيبين كان معروفاً كطريق تجاري يربط بين الشمال والجنوب، إلا أن اهميته قد إزدادت في عهد الدولة الدوستكية (التي كانت نصيبين من أمهات مدنها لحوالي أربعين سنة)، لأنها كانت تربط بينها وبين العاصمة فارقين. وقد إزدادت أهمية طريق نصيبين - آسيا

(٤٧) آرچيبالد، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ص١٧.

(٤٨) رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص١٩٦.

(٤٩) إبن خرداذبه، المسالك والممالك، ص٩٦، عين مقدار المسافات من نصيبين الى أرزن بسبعة وثلاثين فرسخاً، ومن نصيبين الى دارا خمسة فراسخ، ثم الى كفر توثا سبعة والى قصر بني نازع ستة، ثم الى دياربكر (آمد) سبعة، ثم الى فارقين خمسة ومنها الى أرزن سبعة فراسخ. أما سكك البريد أي محطاته على هذا الطريق، فكانت إحدى عشرة سكة، تشرف عليها الدولة ومنها ثلاث بين نصيبين وكفرتوثا. وسبع محطات بين كفر توثا ودياربكر، وذلك حسبما ذكره قدامه بن جعفر في كتاب الخراج، ص٢٢٩. والجدير بالذكر أن كل ستة فراسخ مرحلة (أي مسيرة يوم واحد)، والفرسخ حوالي سبعة كيلومترات. أما الشريف الإدريسي فقد عدّ المسافة بين نصيبين ودياربكر بالأميال ومجموعها (٧٨) ميلاً. راجع كتابه نزهة المشتاق في إختراق الآفاق، ص٢٣٣.

الصغرى ماراً بالبلاد الدوستكية وبمنطقة دياربكر تحديداً، في أوقات توتر العلاقات بين الدولتين البيزنطية والفاطمية. فقد كانت الأخيرة تسيطر على طريق حلب – آسيا الصغرى في الوقت الذي كانت العلاقات متينة بين الدولتين الدوستكية والبيزنطية والطريق بينهما آمناً.

وعند إضطراب طريق أذربيجان – أرمينيا – طرابزون (وكان هو الآخر طريقاً تجارياً عالمياً) بسبب هجمات السلاجقة على أرمينيا وجنوب روسيا إزدادت أهمية طريق نصيبين، حيث تحولت التجارة العالمية الى الجنوب، أي الى سورية ومصر. ففي الوقت الذي كانت تجارة مصر مع بلاد المغرب أقل أهمية بعد سنة (١٠٥٢م)، بسبب حركات بني هلال وأسباب أخرى، ظلت علاقات مصر التجارية مستمرة مع البلاد الشرقية أي فارس والهند والصين(٥٠).

طريق دياربكر- ملاطيه- أناضول:

إزدادت أهمية هذا الطريق، الذي كان يربط بين أقليم دياربكر والبلاد البيزنطية، بسبب العلاقات الودية بين الدولة الدوستكية والبيزنطية ولإستتباب الأمن فيه. وكانت التجارة بين الدولتين تمر بهذا الطريق، وسبق أن أشرنا الى أن التجارة الواردة الى دياربكر كانت تنقل منها الى الموصل والعراق عن طريق نهر دجلة غالباً.

وكان هناك طريق آخر أقل أهمية من الأول يربط بين دياربكر بالشمال والشمال الشرقي، وكان يمر من تل جفر ومدينة شمشاط على نهر موردا (ارسناس)(٥١) الى قاليقلا أي أرضروم الى منابع نهر آراس ونهر الكر في منطقة دبيل (ديوين) والى الفرع الشمالي (قره سو). وكان هناك طريق آخر

(٥٠) آرچيبالد، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ص٣٨٩.

(٥١) شمشاط مدينة مندثرة تقع آثارها على ضفة نهر (موراد) الفرع الشرقي للفرات وذلك بين العزيز وبالو، راجع: NOREDDIN ERDIÇ OGLU, HARPUT TARIHI، ص٢٥-٢٦. ذكر كل من إبن خرداذبه والمقدسي كلاً من شمشاط وتل جفر ضمن طريق دياربكر شمال سوريا. لكن المقدسي ذكر شمشاط أيضاً ضمن طريق ملاطيه في ص١٥٠. وكذلك الإدريسي في ص٢٣٣ ولكنه ذكر سميساط مكان شمشاط، فلا ندري هل إن هناك مكان بإسم شمشاط أخرى أم لا؟ راجع مؤلفاتهم بالتسلسل: المسالك والممالك، ص٩٦. أحسن التقاسيم، ص١٤٩، نزهة المشتاق، ص٢٣٣، ٢٢٨. من الجدير بالذكر أن إبن حوقل سلك شخصياً طريقاً يربط بين فارقين وملاطية، وذكر في ص١٧٩ تفاصيل الطريق من ملاطيه الى القسطنطينية. وتقع على طريق فارقين – ملاطيه أماكن مجهولة بالنسبة إلينا لم يذكرها غيره بهذا الشكل. وقال إن المسافة من فارقين الى هتاخ مرحلة والى حصن ذي القرنين مرحلة خفيفة، والى مدينة الإدريس خمسة فراسخ، والى ضيعة القس ثلاثة فراسخ، والى مدينة هباب خمسة فراسخ، والى قرية انكليس ستة فراسخ، والى قرية كلكس ثلاثة فراسخ، والى حصن زياد (العزيز – آلازك) إربعة فراسخ عبر الفرات، والى قرية الحمام أربعة فراسخ عبر نهر القباقب، والى مدينة عرقا أربعة فراسخ والى ضيعة وادي الحجارة ووادي البقر ستة فراسخ، ثم كان الطريق يمتد في البلاد البيزنطية الى سمند أنقره... وكانت الضيعة المذكورة آخر حدود البلاد الإسلامية آنذاك، حيث البلاد البيزنطية ولكن البيزنطيين وسعوا حدودهم بعد ذلك وأثناء ضعف الحمدانيين بإتجاه إقليم دياربكر الى خط لا أستطيع أن أحدده. ولكن يفهم من كلام إبن حوقل أن مدينة الإدريس وقعت في قبضة البيزنطيين في تاريخ لاحق من سفره، وذلك موقتاً كما أظن. ويحتمل أن قرية الحمام هي مورحمام الحالية الواقعة جنوب بلدة (أركوان) بالقرب من الضفة اليمنى للفرات. إن تحديد الأماكن التي ذكرها جديرة بالإهتمام وخاصة المدن، ويحتمل أن أنكليس هي (آگل) المشهورة.

يربط دياربكر بالبلاد البيزنطية يتجه من دياربكر غرباً الى سميساط أي حصن منصور (آديَمان).

طريق دياربكر - بلاد الشام

على طول المسافة بين دياربكر وحلب كانت تقع الأماكن والمدن التالية: جرنان، بامقدا، جلاب، الرها، سروج ومنبج. وكان يتفرع طريق آخر من الرها الى الرقة ماراً بحرّان، وكان هذا الطريق على جانب كبير من الأهمية بتكملته الشرقية.

طريق دياربكر - بدليس - خلاط - أرمينيا - أذربيجان

كان هذا الطريق يربط بين البلاد الدوستكية والبلاد الشرقية وقفقاسيا، وكانت التجارة الأرمنية تصل عبر هذا الطريق الى الموصل والعراق. وكان هذا الطريق يتفرع الى فرعين عند مدخل ممر بدليس الغربي بالقرب من موقع (ويس القرني). فبينما كانت أحد فروعه تتجه نحو الغرب الى أرزن وفارقين ودياربكر، كان الفرع الآخر يتجه جنوباً الى سعرد ومدينة الجزيرة ماراً ببوتان، أي كان يتصل بطريق شرقي دجلة المار ذكره. وقد أشار العديد من المؤرخين الى أهمية طريق بدليس ومنهم القلقشندي الذي قال انه: "طريق المارة وقصاد الأبواب السلطانية الى الأردو"(٥٢)، أي أنه كان يربط بين بلاد الشام ومصر، من بلاد دولة المماليك، وبين إيران وپاكستان (الأردو)، حسب قول القلقشندي وكان كاتب الإنشاء في الديوان السلطاني بمصر مطلعاً على الطرق والبلدان.

وفضلاً عن موقع بدليس الإستراتيجي الذي جعل منها معقلاً للكُرد، فقد كانت مركزاً من مراكز التجارة بين الشرق والغرب(٥٣) حيث كانت القوافل التجارية وكذلك الحجاج القادمون من البلدان الشرقية يمرون ببدليس، الواقعة في ممر جبلي إستراتيجي للغاية يبلغ طوله حوالي (٧٠) كلم. ويبدأ الممر شرقاً من بحيرة وان وبينهما جدار لولاه لما كان للبحيرة وجود. ويمر الطريق بالقرب من مدينة بدليس في نفق صخري قديم مشهور يسمى (بەرێ زەر)(٥٤).

كان المسافرون يلاقون صعوبات جمة في هذا الطريق أيام الشتاء لكثرة تساقط الثلوج. ولهذا كان موظفوا البريد المشرفون عليه في العهد الدوستكي والعهود الأخرى، ينصبون أعمدة فيه ليهتدي بها المسافرون. وقد سلك ناصر خسرو هذا الطريق في العهد الدوستكي وتحدث عن تلك الأعمدة وفوائدها، ونزل وهو متجه من خلاط الى بدليس في (رباط كاوان سراي) وكانت الثلوج تتساقط

(٥٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٧، ص٢٧٩.

(٥٣) أحمد عطية، القاموس الإسلامي، ج١، ص٢٩.

(٥٤) تاتي إستراتيجية ممر بدليس من كونه الممر الوحيد من نوعه في منطقة واسعة من مناطق جبال طوروس، حيث لا وجود لممر مشابه الى مسافات شاسعة من تلك الجبال شمالاً وجنوباً. ويتمتع المرء فيه بمناظر خلابة حيث تعلو الممر جبال شاهقة مغطاة بالغابات الطبيعية، كما يجري في الممر السحيق نهر بدليس إضافة الى مياه العيون التي تنحدر من جوانبه. وتقع في هذا الممر مدينة (بايقان) مركز إحدى أقضية سعرد. وقد خربت تركية نفق (بەرێ زەر) جراء شق طريق للسيارات، وذلك دون مراعاة للأهمية الأثرية والتاريخية لهذا النفق.

والبرد قارصاً، وذلك في تشرين الثاني من عام ١٠٤٦م(٥٥).

وكان هذا الرباط (الخان) تحت إشراف الدولة الدوستكية، كغيره من الربط الواقعة في النقاط الحساسة من الطرق والتي شيد نصرالدولة عدداً منها، كما سيأتي في موضوع الآثار العمرانية. وكان كل رباط (خان) عادة يشتمل على غرف للمسافرين وإسطبل للدواب. وكان المكلفون بإدارته من قبل الدولة يزودون المسافرين بالطعام ودوابهم بالعلف. والرباط (الخان) الذي نزل به ناصر خسرو يقع في عقبة تطل على بحيرة وان عند بداية ممر بدليس الشرقية وكان يعرف بـ(دهشتا رهوا)، ومنه يتفرع طريق موش. ويطل على تلك العقبة (زينو) من الشمال الشرقي جبل نمرود البركاني. والموقع يعد من أشهر المواقع في كُردستان الشمالية لبردوته وكثرة ثلوجه. ويوجد في نفس الموقع حالياً رباط أي خان مع بناية للموظفين المشرفين عليه من قبل الحكومة التركية. وكان يوجد خان أو رباط في نهاية ممر بدليس (گهلی بدليس) أي مدخله الغربي بإسم رباط (أويس القرني) في العهد الدوستكي(٥٦).

الأوزان والمكاييل

الرطل والمَن كانا من الأوزان المتداولة في كُردستان الوسطى في العهد الدوستكي. وأما الرطل فلم يكن وزنه موحداً في كافة المناطق. فقد ذكر الرحالة الفارسي ناصر خسرو أن وزن الرطل المتداول في مدينة خلاط هو (٣٠٠) درهم(١)، بينما ذكر بأن وزنه في مدينة فارقين هو (٤٨٠) درهماً(٢). وعلى هذا فإن رطل خلاط كان يساوي (٤٨٠) غراماً، بينما كان رطل فارقين يساوي (٧٦٨) غراماً(٣).

(٥٥) ناصر خسرو، سفرنامه، ص٤٦.

(٥٦) ذكر ناصر خسرو هذا الرباط بإسم جامع أويس القرني، بينما ورد في بعض المصادر بإسم (رباط) وهو في الواقع رباط وجامع ومزار مشهور يقول الناس أن أويس القرني، الذي عاش في القرن الأول الهجري مدفون هناك علماً أن هناك رواية تاريخية بكون أويس توفي أو قتل في أرمينية. ولهذا فهو مزار معروف منذ قرون يزوره الناس من أماكن بعيدة، وفي سنة ١٩٧٥ قام أحد أغنياء سعرد بتجديد عمارة المسجد وبنى منارة له.

(١) مما تجدر الإشارة اليه هو أن رطل خلاط كان مطابقاً للرطل المتداول في منطقة خوي وأورميه من كُردستان الشرقية، على ما ذكره المقدسي في أحسن التقاسيم، ص٣٨٠. أما رطل بغداد فكان (١٣٠) درهماً أي أقل من رطل خلاط بكثير.

(٢) ناصر خسرو، سفرنامه، ص٤٠.

(٣) بالنظر لتكرر الأوزان والمكاييل القديمة في المصادر وعدم معرفة مقاديرها حسب الأوزان والمكاييل الحديثة ونظراً لأهمية تحديدها، فقد راجعت قواميس اللغة وكتباً أخرى للتأكد من مقدار كل منها. ثم حددتها على أساس الغرام إبتداءً من المثقال الذي يساوي (٦٩) حبة شعير متوسطة، حيث وزنت شخصياً هذا المقدار من الحبوب عند الصاغة، فبلغ غرامين كاملين وإليك تحديد بعض تلك الأوزان والمكاييل، نذكر تحديد عدد آخر منها في متن الكتاب:

مكوك: ثلاث كليجات يساوي (٥٥,٨٩٠) حبة = ١٦٢٠ غراماً

كليجه: مَن واحد وسبعة أثمان المن = ١٨٦٣٠ حبة = ٥٤٠ غراماً

المن رطلان = ٩٩٣٦ حبه = ٢٨٨ غراماً

الرطل = إثنتي عشرة أوقية = ٤٩٦٨ حبه = ١٤٤ غراماً=

أما المن فقد وجده ناصر خسرو مستعملاً أيضاً في كُردستان عند ذكره لبدليس وأرزن [٤] لكننا لانعلم مقدار (المنّين) المستعملين في بدليس وأرزن، فهل هما مستندان الى رطل خلاط أم رطل فارقين أم الى رطل آخر؟ مع ما يلاحظ من قرب بدليس من خلاط وقرب أرزن من فارقين[٥].

والـ(مَن) لازال من الأوزان المتداولة حتى الآن بين القبائل الكُردية في ذلك الجزء من كُردستان وكذلك الأوقية (وەقيه)، ولكن وزنهما الحالي أكبر بكثير من وزنهما القديم. وأما الدرهم فكان أغلب الظن متداولاً في البلاد الدوستكية مع ملاحظة إعتباره جزءً من أجزاء الرطل والمقصود بالدرهم هنا هو الوزن وليس النقود.

أما المكاييل المتداولة في الدولة الدوستكية، فلم نطلع سوى على المكيال والمكوك والكارة والجريب. وأما المكيال والمكوك، فقد أورد ذكرهما إيليا برشنايا مطران نصيبين في العهد الدوستكي، حيث ذكر في تاريخه أن في سنة (٣٩٦هـ = ١٠٠٦م) حدث غلاء في البلاد، فبلغت قيمة مكيال الحنطة درهماً واحداً وثلاثة مكاكيك من الشعير درهماً أيضاً ومكيالاً واحداً من السمسم عشرة دراهم[٦].

وبيّن كذلك بأن المكيال هو ثمانية مكاكيك، إلا انه لم يبين مقدار المكوك. ولكن المقدسي حدد قبل

=الأوقية = أستار وثلث أستار = ٤١٤٠ حبه = ١٢ غراماً

الأستار = أربعة مثاقيل ونصف = ٣١٠,٥ حبه = ٩ غرامات

المثقال = درهم وثلاثة أسباع الدرهم ٦٩ حبه = غرامان

الدرهم = ستة دوانق = ١/٢ ٣٣ حبه = ١,٦ غرام تقريباً

الدانق = قيراطان

القيراط = طسوجان

الطسوج = حبتان

وهناك مكاييل أخرى مثل المُدّ وهو رطلان بغداديان وقيل رطل وثلث الرطل، والصاع أربعة أمداد.

الجدير بالذكر أنه توجد في المراجع اللغوية خلافات بخصوص بعض ما تقدم. راجع بصدد الأوزان والمكاييل المتقدمة: الجوهري، الصحاح، ج٤، ١٠٩٦. إبن منظور، لسان العرب، مادة (رطل) و(مكوك) و(مثقال) ودانق (الصاع). والفيروزآبادي، قاموس المحيط مادة (رطل) و(مد). وراجع أيضاً أحمد بن محمد المقري، مصباح المنير، مادة : رطل ودرهم ودانق ومد. وراجع أيضاً بطرس البستاني، محيط المحيط، مادة درهم ورطل. وراجع أيضاً عبدالله البستاني، البستان، مادة درطل. والمازندراني سيد موسى، عقدة المنير، ص١٣٠ الى ص١٤٢.

(٤) ناصر خسر، ص٤٢ و٤٧.

(٥) في هامش (١١٨) من أزهار الأفكار في جواهر الأحجار للتيفاشي نقلاً من (النخب) للكرملي، أن المَن في أول وضعه كان (٧٩٤) غراماً و(٢٥) سنتيغراماً، ثم تبدل بعد ذلك حسب الزمان والمكان. ومما تجدر اللإشارة إليه هو أن (المَن) كان متداولاً في العهد السومري وكان يسمى منا (mana)، وكان مقداره (٥٠٥ غرام) كما قال الدكتور فوزي رشيد في مقاله (التجارة والصناعة قديماً...) المنشور في جريدة (الإتحاد) العراقية العدد الصادر في ١٩٨٨/٦/٥. وقال جورج كونتينو في (الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، ص١٦٢): أن المَن في بلاد الرافدين القديمة كان يسمى مانو (مينا) وكان (٦٠) شقلو وهو يساوي (١٨) أونصه.

(٦) تاريخ إيليا برشنايا، ص٨٣، مطبوع على الآلة الطابعة، أرى أن الصحيح ديناراً بدلاً من درهماً.

التاريخ المذكور بحوالي (٢١) سنة مقدار المكوك المتداول في بلاد الجزيرة (بضمنها إقليم دياربكر) بخمسة عشر رطلاً[٧]، أي بقدر رطل بغداد وهو (١٣٠) درهماً[٨]. وحدده أيضاً بأربعة أمداد بـ(مد) الجزيرة. فعلى هذا ان المكوك كان يساوي (٣١٢٠) غراماً والمكيال يساوي (٢٤٩٦٠) غراماً، أي ما يقارب (٢٥) كيلوغراماً. أما الكارة فقد ذكرها الفارقي وإبن شداد، غير انهما لم يبينا مقدارها[٩].

ولكن المقدسي ذكر ان الكارة بهذا التحديد تساوي (٤٩,٩٢٠) غراماً، بينما يساوي القفيز (٢٤٨٠) غراماً أي كيلوغرامين و(٤٨٠) غرام. وإن لم يكن هذا التحديد مطابقاً لمقدار (كارة) دياربكر في العهد الدوستكي، فهو قريب منها لما ذكر الفارقي من ان إبن دمنه كان يحمل كارة حنطة ذات يوم...[١٠].

أما الجريب فورد ذكره من قبل الفارقي وإبن شداد عندما ذكرا بأن نصرالدولة كان يوزع على الفقراء يومياً جريباً من الحنطة إيفاءً لنذر له[١١].

فعلى هذا انه يساوي الكارة اي (٤٩٩٢٠) غراماً. أما الكر، وكان اكبر المكاييل، فلاشك انه كان مكيالاً قديماً في كُردستان. وكان هذا المكيال متداولاً في العهد السومري بإسم (گور) (Gur) وكان مقداره آنذاك (٣٠٣) كيلوغرام[١٢]، وكان متداولاً في العهد الدوستكي. وقد اتفق اللغويون على ان (الكر) كان يبلغ ستين قفيزاً أي ما يساوي (٧٤٨) كيلوغراماً و(٨٠٠) غرام. وقد وجدت في بعض المصادر الحديثة بأن القفيز يساوي (١٨) كيلوغراماً والجريب (٧٢) كيلوغراماً والكر (١٠٨٠) كيلوغراماً.

يحتمل ان المكيال والمكوك اللذين أوردهما المطران إيليا متدرجان من رطل آخر غير رطل بغداد كرطل فارقين مثلاً، والذي يعتبر أثقل من رطل بغداد مع وجود إحتمال للزيادة اوالنقصان في الجريب. اذ من المحتمل ان الاوزان والمكاييل كانت تختلف في كُردستان عما هي عليه في بلد آخر. ومن المحتمل جداً ان الصاع كان متداولاً في البلاد ويعرف الصاع في كُردستان الآن بـ(فطره) وهو أربعة امداد. اما المد فكان متداولاً في اقليم الجزيرة كالقفيز على ما ذكره المقدسي ايضاً[١٣].

يحتمل أن الكتاب الذي الفه ايليا برشنايا في الموازين والمقاييس كفيل بالقاء الضوء على الاوزان والمكاييل المتداولة في كُردستان أيام الدولة الدوستكية[١٤].

(٧) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٤٥، ذكر أن رطل الجزيرة هو رطل بغداد.

(٨) في العقد المنير للمازندراني، ص١٣٠ أن الرطل العراقي (أي رطل بغداد) كان يساوي (١٣٠) درهماً، وفي المصباح المنير، مادة (رطل) أنه يساوي ١/٢ ١٢٨ درهماً وقد إعتمدنا على الأول.

(٩) الفارقي، ص٨٣. والأعلاق الخطيرة، الورقة ٨٣.

(١٠) الفارقي، ص١١٥. والأعلاق الخطيرة، الورقة ٨٩.

(١١) الفارقي، ص٨٣، كانت هذه الكمية من الحنطة من واردات قرية عطشا.

(١٢) مقال للدكتور فوزي رشيد في جريدة (الإتحاد) الصادر في ١٩٨٨/٦/٥.

(١٣) المقدسي، احسن التقاسيم، ص١٤٥.

(١٤) راجع ترجمة حياة ايليا في موضوع الحياة الثقافية: علماء مسيحيون.

اخيراً إذا القينا نظرة على أوزان النقود الدوستكية، التي ذكرناها في موضوع (العملة الدوستكية)، نرى مدى دقة الأوزان في كُردستان انذاك. إذ كان يبلغ وزن البعض من نقودها (٢,٨٨٩) غرام.

التنظيم الحرفي والأسواق

كانت الدولة الدوستكية قد نظمت الجماعات الحرفية والمهنية في جمعيات مختلفة كل واحدة منها تختص بإحدى الجماعات كالتجار والحاكة والخياطين والحدادين والصفارين والخشابين والفحامين والجصاصين والبنائين والأطباء والصاغة وبائعي المواد الغذائية والقصابين والبزازين (أي بائعي الأقمشة) وبائعي الخضراوات والفواكه. وكانت الحرف والمهن موزعة على أسواق مختصة، وكان لكل صنف سوقه المسمى بإسمه، كما كان لكل سوق موظف يشرف عليه يسمى (الشيخ) و(الرئيس) أيضاً. وإستعمل الفارقي مصطلح (مقدم) و(متقدم) و(الشيخ) لرئيس التجار علماً أن (مقدم) أو (متقدم) أستعمل لمسؤول المحلة للفتوة كما سيأتي. وكان (شيخ السوق) مرتبطاً بـ(النقيب) والنقيب مرتبطاً بـ(المحتسب). وقد ذكرنا في موضوع الحسبة واجبات المحتسب وصلاحياته. وكانت الحسبة هي النقابة العامة في العاصمة، وكانت في المدن نقابات للأصناف أي للحرف والمهن المختلفة. وعن طريق هذا التنظيم كانت الدولة تتحكم بالرقابة على الأسواق.

لقد ذكر الفارقي في (ص٧٥) من السلم التنظيمي الحرفي (شيخ سوق الطعام) في مدينة آمد (دياربكر)، وكان إسمه (عبدالبر) وهو الذي دبّر مؤامرة إغتيال الأمير أبي علي حسن بن مروان سنة (٣٨٧هـ = ٩٩٧م)(١).

وهذا دليل على وجود هذا التنظيم في الدولة الدوستكية. وكان هذا التنظيم موجوداً في الدولتين العباسية والفاطمية، وقد أخذه المسلمون من الدولتين الساسانية والبيزنطية وخاصة من الأخيرة. هذا مع العلم بأن المحتسب، كأحد الحكام من الدرجة الثانية، كان موجوداً في العهد الجمهوري الروماني قبل الميلاد(٢).

وقد ألفت عنها (أي عن الحسبة) كتب خاصة متعددة ماعدا مواضيع أخرى بخصوصها في المصادر التاريخية المتفرقة. ولو كان في تاريخ الدولة الدوستكية عدة كتب مثل تاريخ الفارقي لعلمنا منها الكثير مما نجهله عنها الآن.

إن من أهم واجبات (شيخ السوق) في التنظيم الحرفي النقابي، هو تمثيل أهل السوق في القضايا

(١) في تاريخ إيليا برشنايا المطبوع ص٢٠١، أن عبيدالله بن دمنه قتل عبدالبر يوم الإثنين الرابع من شوال سنة (٣٨٩هـ) اي في السنة التي تلت مقتل ابي علي.

(٢) راجع، مدخل الى تاريخ الرومان وأدبهم وآثارهم ص٥٦، ٥٨، ٦٠، تأليف آ. بتري.

العامة وتحديد الأسعار عند الحاجة بالتشاور مع المحتسب أو (النقيب). وكان له الحكم على أبناء صنعته والموافقة على إنتماء الشخص الى طائفته ومنحه إجازة ممارسة المهنة، إذا رآه صالحاً لذلك. إذ لم يكن للشخص حق الإنتماء وممارسة المهنة وفتح دكان له بدون إجازة من الشيخ. ويكون إنتخاب الشيخ من قبل أعضاء الحرفة وتعترف السلطة بتعيينه أو كان يعينه المحتسب. أما أصحاب الصناعات فلم يُقبل إنتماؤهم الى صنف صناعاتهم إلا بعد أن يكونوا قد تعلموا أسرار الصنعة وبعد إجتياز إختبار من قبل خبرائها. فإذا رضي الخبير بقابلية الشخص يذهب الى شيخ السوق (شيخ المهنة) والنقيب. وبعد ذلك يطلب الشيخ حضور أستاذه للتحدث معه بذلك الصدد ومناقشة الأستاذ حول قابلية ذلك الشخص، فإن رضي الأستاذ بإنتمائه الى أهل الصنعة طلب موافقة جد الشخص إن كان حياً، لأن العقد كان يتم بإسم الجد. وإذا حصلت الموافقة من الجميع يحدد يوم تقام فيه وليمة من قبل الشخص كان يحضرها أبناء تلك الصنعة. وإن كان المذكور فقيراً يساعده النقيب في إقامة الوليمة (الحفلة). وأثناء الوليمة، وبعد حصول الشخص على (العهد) أي التفويض من أستاذه بالدخول في المهنة، كانت تجري مراسيم (الشدّ)، وفيها كان النقيب يشد حزاماً أو منديلاً أو قطعة قماش حول كتفه أو وسطه أو رأسه ويعقدها بأربع عقد ولكل عقدة مراسيمها الخاصة(٣).

(٣) صباح إبراهيم الشيخلي، الأصناف في العهد العباسي، نشأتها وتطورها، ص٧٧-١٠٩ وص١٢٠-١٢٣. ذكر الشيخلي بأن العقدة الأولى هي للأستاذ (أسطه) الذي يقرأ أثناء عقدها تعريفاً للشخص مع آيات قرآنية. والعقدة الثانية هي للجد ويقرأ خلال عقدها كلاماً على التبريك مع الايات القرآنية. والعقدة الثالثة هي لل(پير) التي يعقدها النقيب والذي يقرأ خلال عقدها كلاماً متعارفاً للپير مع آيات قرانية. والعقدة الرابعة هي عقدة الإمام علي ويعقدها النقيب كذلك، ويذكر خلالها الكلام الخاص بالإمام ثم يقرأ آيات من القرآن. والعقدتان الأخيرتان أحدهما بإسم الحسن والأخرى بإسم الحسين. وأما (الپير) فهم الأنبياء. فالنبي داود پير الحدادين وإبراهيم پير البنائين ونوح پير النجارين وإدريس پير الأطباء وعيسى پير الصباغين وشعيب پير النساجين ومحمد پير التجار. ولاشك أن هذه التقاليد الموجودة في الدول الإسلامية، كانت موجودة في كُردستان أيضاً. فمثلاً كان الحدادين في مدينة السليمانية يعلمون، كما سمعت من الكثيرين منهم، أن پير مهنتهم هو النبي داود، ولذلك فالسندان شبه مقدس لديهم ويسمونه (دەزگا) ويقسمون به، ويقولون بأن سبب التقديس أو الإحترام الزائد قد نشأ من كون السندان جاء من النبي داود وورثه الحدادون منه. وفي ١٩٩٩/٩/٨ سافرت والمهندس السيد حميد ملا صادق الكويي (المنسوب الى مدينة كويه - كويسنجق) مع البناء أسطة عمر من السليمانية الى كويسنجق، حيث أنيطت بي مهمة الإشراف على ترميم قيصريتين فيها من الناحية التراثية. كنت والأسطة عمر(وأبوه اسطه عباس وجده اسطه حسن فاطمة غزالي من أفضل بنّائي السليمانية) نتحدث عما يتعلق بأعمالهم فكنت أذكر له أسماء الپير. فسبقني في القول وقال إن پيرنا نحن البنائين هو النبي إبراهيم. وأضاف أن بلدية السليمانية حتى سنة ١٩٥٨ لم تكن تسمح لأحد بممارسة مهنة البناء ما لم تكن له إجازة ممارسة المهنة من البلدية. وان رئيس البنّائين كان (معمارباشي البلدية) أي رئيس جماعة البنائين من قبل البلدية، وهو الذي كان يرشح الشخص لأن يكون بنّاءً كي تمنحه البلدية الإجازة. إذ أن (معمارباشي) كان يعني (شيخ البنائين) أو النقيب أي نقيب البنّائين. وقد أضاف السيد حميد وهو ماهر في الشؤون الإدارية أن هذا القانون لا زال موجوداً في نظام البلدية ولم تلغه الدولة العراقية، ولكنه تعرض الى الإهمال بعد إنتهاء العهد الملكي. أما تقليد (الشد) فلم يسمع به الأسطه عمر ولم أسمعه أنا من البنائين المعمرين الذين توفوا. والدولة العراقية كانت قد أخذت ذلك القانون من الدولة العثمانية التي أخذته بدورها عن الدول الإسلامية التي سبقتها. وقد وجدت إجازة من العهد العثماني بالتركية العثمانية للمرحوم حاجي محمود موتابچي بالسليمانية. بخصوص مهنة موتابچية إرثية كانت لأبيه أو جده ثم أدرج فيها إسمه أيضاً. وقد سمعت ان المرحوم الدكتور أمين موتابچي قد نشر الإجازة، وعندي نسخة مستنسخه على النسخة الأصلية لإجازة مهنة الطب الشعبي لحمه نادر الجراح بالتركية العثمانية. بخصوص الشيخ، راجع الدوري، مقدمة في الإقتصاد العربي، ص٦٨.

لقد سمى الماوردي في الأحكام السلطانية (ص٢٢٧) الشيوخ بـ(العرفاء - عرفاء الأسواق). وذكر الصابي وجود عامل على سوق الغنم وآخر على سوق البطيخ وآخر على دار القطن وآخر على سوق الرقيق وغيرها[٤].

وهكذا يتضح لنا أن إسم (الشيخ) قد تغير حسب تغير الأقاليم والفترات الزمنية. وكان من واجبات الشيخ أيضاً الإهتمام بنظافة السوق ومنع العاملين فيه من الغش وتهيئة أهل السوق للمشاركة في المناسبات والإجتماعيية، كتزيين السوق في المناسبات البهيجة وإغلاقها في المناسبات المحزنة.

كان التجار ضمن هذا التنظيم الحرفي في الدول الإسلامية يتمتعون بمكانة مرموقة، وفي مقدمة هؤلاء كان يأتي تجار البز (الأقمشة)، حيث كانوا ضمن الطبقة الخاصة حتى إنهم كانوا يشتركون في مبايعة الخلفاء الجدد. وكان هؤلاء التجار أصحاب ثقافة، حتى إن بعض المؤرخين قد ذكر بأن بعض البزازين كانوا فقهاء، ويلعبون دوراً في الحياة السياسية. وكانت السلطة تعترف بمكانتهم الإجتماعية[٥].

وكان (عبدالبر) يمتلك علماً في الفقه، على ما يتضح لنا من كلام الفارقي (ص٥٧). حيث ذكر بأنه كان يجلس كل يوم (أي في مدينة آمد) للقضاء والشهود. وذكر الفارقي من التجار (ص١٦٥-١٦٦) التاجر أبا بكر بن جري، وكان ذا مال ويسار وقد حفر قناة ماء من رأس العين الى العاصمة فارقين وصرف عليها أكثر من خمسين ألف دينار. ويفهم من كلامه أنه كان رجلاً ورعاً و(كان شيخاً مقدماً من التجار وكان سمساراً) أي شيخهم المقدم أي رئيسهم أو نقيبهم في سلم التنظيم الحرفي هذا، وكذلك وصفه لإبن بهات بالمتقدم بحيث أن كلاً منهم كان رئيس التجار أي نقيبهم في فترة ما، علماً أن الفارقي ذكر اسم التاجر (إبن البهات) ووصفه بأنه (كان متقدماً وسمساراً من جملة العدول والشهود)، أي من هيئة القضاء (المحكمة) الدائمة. وكان بحكم وظيفته ذو معرفة بالفقه الإسلامي وأحكامه وبتنظيم السجلات ومتصفاً بالعدل والأمانة. وقد ربح التاجر المذكور في يوم واحدل خمسمائة دينار بيزنطي من بيع الخام. وهو رقم كبير قلما يوجد مثيل له في التاريخ الإسلامي نظراً للقوة الشرائية الفائقة للدينار في ذلك العصر، كما ذكرنا في موضوع (العدالة) والتجارة. وقد أعطانا الفارقي في (ص١٠٠) إسم تاجر آخر من ذوي المكانة الإجتماعية المرموقة في العاصمة فارقين هو (أبو الحسن أحمد بن وصيف البزاز)، وكان من كبار تجار (سوق البَزّ) ومن جملة العدول أيضاً ومن أصحاب الثقافة كإبن البهات. ومما يدل على مكانة العدول (الشهود) الإجتماعية والمشاركة في الحياة السياسية للدولة أيضاً، هو المشاركة في تنصيب الأمراء الدوستكيين. فقد حضر التجار مراسم تنصيب نصرالدولة خلفاً لمهدالدولة بمدينة أرزن سنة (٤٠١هـ)، وحضروا مراسم تنصيب نظام الدين[٦].

(٤) حمدان الكبيسي، أسواق بغداد، ص٣٢٣.
(٥) حمدان الكبيسي، أسواق بغداد، ص٣٤٦-٣٤٧.
(٦) الفارقي، ص٩٥، ١٧٨.

رغم أنه لم تصل إلينا معلومات كثيرة عن الحركة التجارية وأسماء التجار ومقدار ثرواتهم، إلا أن الفارقي اشار في (ص١٦٦) الى توسع العاصمة فارقين السكاني في عهد نصرالدولة وتنشيط الحركة التجارية فيها، ومجيء تجار أجانب للسكن فيها وإنتشار الغنى فيها، حين قال:"وإنغمرت ميافارقين (أي إزدحمت بالسكان) وقصدها الناس والتجار من كل الأطراف وإستغني الناس في أيامه وكانت من أحسن الأيام ودولته غير الدول" أو دولته خير الدول. وقد أشرنا في بداية موضوع الحياة الإقتصادية الى كلام الطبيب إبن بطلان حول توفر الأعمال وإستغناء الناس في هذه الدولة الكُردية. ونظراً للتنظيم الحرفي في الدولة وتوسع التجارة والحرف والمهن، فإن الأسواق توسعت وتعددت بتنوعها، وكان لأصحاب كل صنف سوق خاصة بهم. وقد ذكر الفارقي أيضاً في (ص١٤١) بأن نصرالدولة بنى في مدينة النصرية (الأسواق)، حيث ذكرها بصيغة الجمع، وأن تعدد تلك الأسواق كان حسب تعدد الحرف والمهن.

وذكر الدكتور أديب معوض في كتابه (الأكراد بين الأمس واليوم، ص٤٣): أن أسواق مدينة آمد (دياربكر) في العهد الدوستكي كانت تزيد على الستين سوقاً. أما الأسواق التي إطلعت على أسمائها فهي:

١- سوق الطعام بآمد

٢- سوق البزّ في فارقين، الذي كان يتمتع بنظافة وإحترام خاص، حيث يمنع أو يُكره دخول الشخص فيه راكباً كما هو واضح من كلام الفارقي في (ص٦٦).

٣- سوق القبة في فارقين، الذي ذكره الفارقي في (١٦٥)، وقال الدكتور سوادي عبد محمد أنها كانت قيصرية (مقببة)(٧).

وقال السيد صباح إبراهيم الشيخلي، أن هذا النوع من الاسواق (أي القيصرية) أخذها المسلمون من البيزنطيين وهي منسوبة الى(قيصر) وتعني السوق الامبراطوري في الاصطلاح السوري والفلسطيني والمغربي ايضاً(٨).

وكانت سوق القبة في فارقين تقع بالقرب من الجامع الكبير من الطرف الغربي وبإتجاه الشمال قليلاً. وقد أجرى التاجر الكبير أبو بكر بن جري قناته المائية الى هذا السوق ومنها الى الجامع الكبير.

٤- سوق العطارين: وكانت تحتوي على حوانيت (صيدليات) للأدوية الطبية، وكان حانوت الطبيب أبي سالم، الذي أصبح وزيراً للأمير ناصرالدولة منصور تقع في هذه السوق(٩)، على ما قاله الفارقي في (ص٢٠٦). وقال د. سوادي ان إبن شداد سمى السوق المذكورة بـ(سوق العديم)(١٠) وكانت تحتوي على المعاجين والأشربة والسكر وما شابه ذلك.

(٧) د. سوادي، الأحوال الإجتماعية والإقتصادية في بلاد الجزيرة الفراتية، ص٣٢٤.

(٨) الشيخلي، الأصناف في العصر العباسي، تنشأتها وتطورها، ص٣٩ وهو كتاب قيّم جداً.

(٩) لفظ السوق يأتي مذكراً ومؤنثاً أيضاً.

(١٠) الدكتور سوادي، الأصول الإجتماعية والإقتصادية في الجزيرة الفراتية، ص١٣٩.

٥- سوق الخيل: وكان خاصاً ببيع وشراء الخيول، وكان يقع في المحدثة في أطراف جامع بني مروان، على ما ذكره إبن شداد(١١).

٦- سوق العجل: ذكره الطبيب إبن بطلان في (دعوة الأطباء) على ما مر ذكره في بداية موضوع الحياة الإقتصادية، ومن المحتمل أن يكون ذكرها على سبيل الكناية.

٧- العَرَصة: ذكرها الفارقي في (ص٢٤٦) وقال أن محمد بن صافي كان غلام البيع في العرصة بفارقين، والعرصة هي ميدان (مزادخانه على ما يسمى حالياً) للبيع والشراء، وهي من السوق أيضاً. وقد أورد اليونيني في (ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٢٦٢) إسم سوق (العطر) بفارقين على مانقله عنه الدكتور سوادي(١٢)، وقال بأنها كانت تحتوي على حوانيت (دكاكين) العطور والبخور واللاذن والمَحلَب(١٣).

ويحتمل أن سوق العطر هذا كان موجوداً في العهد الدوستكي، حيث قال في (ص٣٢١): "يمكن القول أن أسواق مدينة الجزيرة في القرن السادس الهجري كانت إستمراراً لأسواق القرنين الرابع والخامس الهجريين".

وفي القرون الوسطى كانت بعض الأماكن أسواقاً لأيام معينة، فقد ذكر إبن جبير في رحلته (ص١٩٤) أن سوق (دنيصر) (قزل تپه) للبيع والشراء كان في أيام السبت والأحد والخميس والجمعة. ويسمون هذا السوق الحافل الذي يجتمع فيه سكان الجهات المجاورة والقرى المتصلة بـ(بازار)، وقد وصل إبن جبير إليها يوم الخميس الثالث من ربيع الاول سنة (٥٨٠هـ = ١١٨٥/٦/١٤م). ومعلوم أن (بازار) إسم كُردي للسوق وسنذكر أن مدينة (دنيسر) من تخطيط الدولة الدوستكية حسب رأينا، كما إن الأوقات المحددة لإقامة سوقها كانت تعود الى عهدها على الأغلب.

(١١) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة (ورقة ٧٢).

(١٢) سوادي، ص٣٢٤.

(١٣) في تذكرة أولي الالباب للطبيب داود الانطاكي، أن شجرة اللاذن تشبه شجرة الرمان، ويستخرج من بذرو اللاذن طيب يسمى نوع منه بالعنبري والآخر بالخلوق. أما الخلوق كما جاء في المنجد؛ نوع من العطر أعظم أجزائه الزعفران. والمحلَب على ماجاء في تذكرة الأنطاكي شجرة تنبت في البلاد الباردة ورؤوس الجبال ويكبر كالبطم ولها أوراق مستطيلة طيبة الرائحة وهي دواء لعدة أمراض كالخفقان وضيق النفس والكبد والطحال والكلي وعسر البول والحصي.

الفصل السادس

الحياة الثقافية

الفقه- التجويد- الأدب- علماء مسيحيون- الطب- التنجيم- المكتبات- تطور الكتابة الكوفية المزخرفة- تجديد الكتابة السطرنجيلية السريانية

الحياة الثقافية

لقد شهدت الحياة الثقافية في عهد الدولة الدوستكية إزدهاراً واضحاً للثقافة لإهتمام الدولة بها وبنشر العلم ورعايتها لأهل العلم من الفقهاء والأدباء والشعراء والأطباء. وكان للهدوء والإستقرار اللذين شهدتهما البلاد والرخاء والتقدم الإقتصادي والعمراني أثر واضح في الحياة الثقافية، وكانت من العوامل القوية التي ساهمت في دفع عجلة ثقافتها. ولهذا غصت مراكز العلم في دياربكر والعاصمة فارقين والجزيرة وطانزه (طنزه) وشاتان وأرزن وبدليس وغيرها من المدن، بأهل العلم من الأساتذة والطلبة، فتخرج منها فطاحل العلماء وكبار الادباء.

وقد جلب هذا التقدم في الحياة الثقافية أنظار أساتذة وطلبة العلم من خارج البلاد، فقدم العديد منهم الى البلاد الدوستكية كأستاذ يدرس في مدارسها أو كطالب يتلقى العلم فيها. ومن الذين أشاروا الى هذه الحركة الثقافية من المؤرخين إبن الاثير الجزيري، حيث ذكر إن نصرالدولة كان:"مقصد العلماء من سائر الآفاق وكثروا ببلاده وممن قصده أبو عبدالله الكازروني، وعنه إنتشر المذهب الشافعي بدياربكر، وقصده الشعراء وأكثروا مدائحه وأجزل جوائزهم"(١). وأشار الى تلك الحركة أيضاً إبن الجوزي الذي قال: "ووفد إليه -أي الى نصرالدولة- الشعراء وسكن عنده العلماء الزهاد"(٢). وكما أشار إبن خلدون ايضاً بقوله ان نصرالدولة (قصده العلماء فمهد عنده مقامهم)(٣). وكذلك أشار الى تلك الحركة الثقافية أيضاً المؤرخان الكُرديان إبن خلكان(٤) وأبو الفداء الأيوبي(٥).

(١) إبن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٢٦.
(٢) إبن الجوزي، المنتظم، ج٨، ص٢٢٢.
(٣) إبن خلدون، العبر، ج٤، ص٣١٩.
(٤) إن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٥٧.
(٥) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج٢، ص١٨٩.

أما الفارقي، فقد ذكر من الشعراء الذين قدموا الى البلاد ومدحوا نصرالدولة: أبا الحسن التهامي وصريع الدلاء على بن عبدالواحد البغدادي. وذكر من الشعراء المقيمين في خدمته أبا الرضا إبن الظريف الفارقي، وإبن السوداوي وإبن الفطيري(٦).

أما ممن قدم من العلماء الى البلاد الدورستكية، فأبو حسن الآمدي علي بن محمد بن عبدالرحمن الحنبلي، وهو بغدادي الأصل ومؤلف كتاب (عمدة الحاضر وكفاية المسافر) في الفقة في أربعة مجلدات. قدم المذكور سنة (٤٥٠هـ = ١٠٦٨) إثر احتلال البساسيري مدينة بغداد وسكن مدينة دياربكر، ودرس بها الى أن توفي سنة (٤٦٧هـ = ١٠٧٦) في عهد الأمير نظام الدين(٧). ومنهم نصر بن إبرهيم بن نصر المقدسي مؤلف كتاب الإنتخاب الدمشقي في بضعة عشر مجلداً، درس الفقه على الكازروني والحديث على هبة الله بن سلمان بمدينة دياربكر (آمد)(٨). ومنهم الحافظ مكي بن عبدالسلام بن الحسين الرميلي، وتلقى العلم بفارقين ودياربكر وهو واحد من حفظة الحديث(٩).

أما القاضي أبو منصور بن شاذان الطوسي، فقد قدم الى فارقين وتولى القضاء بها. وكذلك القاضي إبن جرجور هبة الله الشاذي المشرقي، الذي تولى القضاء بفارقين أيضاً كما ذكرنا في موضوع القضاء.

وقدم الى البلاد الدوستكية كذلك أطباء مهرة ومن أصحاب المؤلفات الطبية العديدة، مثل الطبيب المسيحي جبرائيل بن بختيشوع، وأبي نصر التكريتي وأخيه الطبيب أبي الفضل، كما سيأتي بالتفصيل. كانت الدولة الدوستكية ترتبط بالعاصمة العباسية بغداد بعلاقات ثقافية قوية، بالإضافة الى بلاد الشام ومصر. وكان الكثير من الطلاب يتوجهون من البلاد الدوستكية الى بغداد، لإكمال دراساتهم على الغزالي وأبي إسحق الشيرازي(١٠) وإبن الصباغ وغيرهم من كبار علماء المسلمين في القرن الخامس الهجري (القرن الحادي عشر للميلاد). ولا بأس أن نذكر هنا بعضاً من ذوي الصلة القوية بتاريخ العلم في العهد الدوستكي منهم: فخر الإسلام ابو بكر الشاشي الفارقي، أحد أئمة عصره في الفقه الشافعي. ولد بفارقين ودرس الفقه بجامع فارقين على الكازروني، والقاضي أبي منصور بن شاذان الطوسي ودرس الحديث بمدينة دياربكر على قاسم بن أحمد الخياط، ثم بعد عزل أستاذه الطوسي من القضاء سنة (٤٤٩هـ = ١٠٥٧م) ورجوعه الى ايران، توجه الشاشي الى بغداد ودرس الفقه على أبي اسحاق الشيرازي وإبن الصباغ. فبرع وذاعت شهرته واصبح مدرساً في المدرسة النظامية اكبر مدارس بغداد واشهرها. وله مؤلفات عديدة منها (الشافي في شرح الشامي) في

(٦) الفارقي، ص١٤٤.

(٧) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٣، حوادث سنة ٤٦٥هـ. الزركلي، الأعلام، ج٥، ص١٤٧.

(٨) السبكي، طبقات الشافعية، ج٥، ص٣٥٢.

(٩) نفس المصدر، ج٥، ص٣٣٣.

(١٠) هو إبراهيم بن علي بن يوسف، ولد بقرية فيروزآباد من قرى شيراز سنة ٣٩٣هـ، دروس بشيراز والبصرة. كان أكبر عالم في بغداد في حينه في الفقه الشافعي، توفي سنة (٤٧٦هـ = ١٠٨٤م).

عشرين مجلداً، وله آراء فقهية تفرد بها(١١). ومن هؤلاء العلماء أيضاً الشيخ أبو الغنائم الفارقي محمد بن الفرج بن منصور(١٢). وحسن بن محمد بن أحمد الآمدي، وأبو علي الآمدي الحسين بن سعد بن الحسين اللغوي الشاعر والأديب(١٣)، وحجة الدين أبو عبدالله مروان بن علي بن سلامه بن مروان الطنزي(١٤). وإبن برهون الفارقي قاضي واسط(١٥)، ويحيى بن محمد الأرزني النحوي

(١١) هو ابو بكر بن محمد بن احمد بن الحسين الفارقي، وهو غير ابي بكر الشاشي محمد بن علي بن حامد وغير القفال الكبير محمد بن علي بن اسماعيل الشاشي، حيث ياتي ذكره بأبي بكر الشاشي القفال ايضاً. ولد الشاشي بفارقين سنة (٤٢٧هـ = ١٠٣٦م) وسمع الحديث ببغداد على يد ابي بكر الخطيب البغدادي صاحب تاريخ بغداد الكبير، وعلى القاضي ابي يعلي بن الفرّاء، كما سمع الحديث من الكازروني ايضاً. تولى التدريس في المدرسة النظامية سنة (٥٠٤هـ = ١١١٠م)، ومن مؤلفاته (حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء ويعرف بالمستظهري لأنه ألفه للخليفة العباسي المستظهر بالله والمعتمد، و(الشافي) (شرح مختصر المزني والفتاوي- مخطوط يعرف بفتاوى الشاشي) (العمدة في فروع الشافعية - مخطوط) و(تلخيص القول - مخطوط) و(الترغيب في المذهب الشافعي).

توفي الشاشي ببغداد سنة ٥٠٧هـ = ١١١٤م) ودفن مع شيخه الشيرازي وخلّف ولدين، كانا من كبار العلماء وهما أحمد وعبدالله. وقد أطرى المؤرخون في وصفه وأطنب تاج الدين السّبكي في ذكر آرائه الفقهية. وله ترجمة في معظم المصادر منها (طبقات الشافعية الكبرى للسبكي، ج٦، ص٧٢، حتى ما بعد ص٧٨. والكامل لإبن الأثير، ص٢٦٨، البداية والنهاية لإبن كثير، ج١٢، ص١٧٧-١٧٨. والأعلام للزركلي، ج٦، ص٢١٠. وطبقات الشافعية، ص٧٢ لأبي بكر بن هداية الله المصنف الگوراني الكُردي) وفي المصدر الأخير انه توفي سنة (٥٠٥هـ) وهي نفس السنة التي توفي فيها الغزالي وهو خطأ. كما ورد في بعض المصادر انه ولد سنة ٤٢٩هـ. اما نسبة (الشاشي) لهذا العالم الفارقي فلا أدري من أين أتت؟ هل إن اباه كان في الأصل من مدينة (الشاش) من بلاد ماوراء النهر أو انه إتخذها نسبة له تقليداً بالعالمين الشاشيين المذكورين اعجاباً وتيمناً بهما؟

(١٢) قدم بغداد مع أبيه بعد سنة (٤٤٠هـ = ١٠٨٤م) درس الفقه على يد الشيخ أبي إسحق الشيرازي، ثم عاد الى بلاده ثم سافر مرة أخرى الى بغداد وأكمل دراسته، وعاد فسكن مدينة الجزيرة ودرس بها. كان عالماً فاضلاً توفي على الأرجح سنة (٤٩٢هـ = ١٠٩٩م). راجع طبقات الشافعية للسبكي، ج٤، ص١٩٣.

(١٣) ولد ونشأ بمدينة آمد (دياربكر) ودرس في كُردستان، ثم قدم الى بغداد ودرس على يد القاضي أبي يعلي الفرّاء وأبي طالب بن غيلان. وسافر في طلب العلم الى بلاد الشام أيضاً، كما سافر الى إيران وسكن مدينة أصفهان وتوفي بها سنة ٤٤٤هـ = ١٠٥٢م). ذكر له ياقوت الحموي في معجم الأدباء، ج١٠، ص٦٦٦-٦٦٩ مقطوعات شعرية رقيقة منها:

وأهيف مهزوز القوام إذا إنثنى وهبّت لعذري فيه ذنب اللوائـم

بثغر كما يبدو لك الصبح باسم وشعر كما يبدو لك الليل فاحم

راجع أيضاً السيوطي، بغية الوعاة، ج١، ص٥٣١. والأعلام للزركلي، ج٢، ص٢٥٧ (الزِركلي منسوب الى قبيلة زروكي (زرقي) الكُردية في منطقة دياربكر).

(١٤) كان حجة الدين مروان من سكنة بلدة طنزي (قرية طانزه). ولد ونشأ في بوتان وكان تلميذاً في أواخر العهد الدوستكي وتلقى العلم فيها وسافر الى بغداد ودرس على يد الغزالي وأبي بكر الشاشي الفارقي وقرأ الحديث على غيرهما. بعد إكمال دراسته رجع الى بوتان وأقام في بلدة (فنك) عند أمرائها، وكان يتردد رسولاً من قبلهم الى دار الخلافة العثمانية ببغداد. كان عالماً فاضلاً ذكياً كفوءً ومقدراً. ذكر عدد من المؤرخين كالسبكي والاصبهاني والحموي انه اصبح وزيراً لعمادالدين زنكي بالموصل في اواخر حياة عمادالدين. توجد في طبقات الأطباء لابن ابي اصيبعة ترجمة حياة الطبيب. والفيلسوف ابن الصائغ الجزري قصيدة لابن الصائغ بمناسبة توليه الوزارة، كما ان لإبن الصائغ رسالة بإسم حركة العالم بمناسبة مغادرته كُردستان الى الموصل، أي نفس المناسبة. هذا وكان لإبن مروان الطانزهي قابلية على قرض الشعر وذكر له الاصبهاني مقطوعات شعرية رقيقة وعديدة ومعظمها في الحكم، منها قوله في وضع نفوذه في خدمة أقاربه:=

اللغوي الخطاط(١٦). ومن هؤلاء أيضاً أبو الحسن حمدون بن علي الهيزاني(١٧).

وفضلاً عن هذا كان علماء كُردستان يستعينون بعلماء بغداد في حل بعض المسائل المستعصية كالمسائل التي أرسلت من قبل بعض علماء فارقين الى القاضي أبي يعلي الفرّاء -محمد بن الحسين- ببغداد(١٨).

الفقه

كان الفقه الإسلامي يدرس في كُردستان في العهود السابقة، ولم يك مقصوراً على مذهب معين من المذاهب الأربعة: الحنفية والشافعية والحنبلية والمالكية، بل كان يدرّس بشكل مختلط، أي كان يتم تدريس كل من الفقه الشافعي والحنبلي والحنفي والمالكي من قبل المتمذهبين به. ولم يستقر في

=إن لم يكن جاهي لقومي نافعاً   ومالي مضمون به عن اقاربي
فلا كان ذاك الجاه والمال انه   برغمي مذخور لبعض الأجانب

ان البيت الأول غير سالم عروضياً وغير مطابق للبيت الثاني في بحره لما وقع فيه من خطأ أو خطأ، وأظن أن الصحيح (مضموناً). كانت أسرة مروان هذه أسرة علم وفضل، ويحتمل أن القاضي أبا بكر محمد بن مروان بن عبدالله الطنزي المولود سنة ٤٠٣هـ = ١٠٢١م) من نفس الأسرة. راجع عمادالدين الاصبهاني (خريدة القصر، ج٢، ص٤٠٧-٤١٥: قسم شعراء الجزيرة وفنك)، والحموي، معجم البلدان، ج٦، ص٦٢، والسبكي، طبقات الشافعية، ج٤، ص٣٠٩، وإبن الأثير، اللباب في الأنساب، ج٢، ص٢٢٤.

(١٥) ابن برهونك هو حسن بن إبراهيم بن علي بن برهون، ولد بفارقين سنة (٤٣٣هـ = ١٠٤٢م). نشأ ودرس بها وقرأ الفقه على يد الكازروني. بعد وفاة أستاذه توجه الى بغداد ودرس على أبي إسحق الشيرازي بالمدرسة النظامية وعلى إبن الصائغ. برع في الفقه وتولى القضاء بمدينة واسط، وكان قاضياً عادلاً وصريحاً في كلامه يقول الحق في وجه الأمراء ولا يعرف المساومة معهم. عُزل عن القضاء وتوفي بواسط سنة (٥٢١هـ = ١٢٨م). وصفه السبكي بأنه كان أحفظ أهل زمانه في الفقه الشافعي. راجع ابن شاكر الكتبي، عيون التواريخ، ج١٢، ص٢٧٧، وذكر له أيضاً كتاب (الفوائد على المهذب) وتاج الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج٤، ص٢٠٤. إبن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ص١٤٣. عباس القمي، الكنى والألقاب، ج٣، ص٥. المصنف الگوراني، طبقات الشافعية، ص٧٥. إسماعيل باشا بابان، هدية العارفين، ج١، ص٢٧٢. إبن الجوزي، المنتظم، ج١٠، ص٣٧. محمد أمين زكي، مشاهير الكُرد وكُردستان، ج١، ص١٧٤. الزركلي، الأعلام، ج٢، ص١٩٢. عبدالرقيب يوسف، أعلام من مشاهير الكُرد وكُردستان (مخطوط). جدير بالذكر ان بعض المؤلفين خالف في تاريخ وفاته، كما خالف السيد محمود ياسين في الإمارة المروانية، ص١٩٥ بقوله انه رجع الى آمد وتوفي بفارقين.

(١٦) كان الأرزني مليح الخط سريع الكتابة يخرج العصر يومياً الى سوق الكتب ببغداد فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب كتاب الفصيح للثعلب ثم يبيعه بنصف دينار. وكان إضافة لكونه خطاطاً إماماً في اللغة على ما وصفه ياقوت الحموي. وله تاليف باسم مختصر النحو. توفي الأرزني سنة (٤١٥هـ = ١٠٢٤م). راجع محمد طاهر الكُردي، تاريخ الخط العربي، ص٢٩٢. الزركلي، الأعلام، ج٩، ص٢٠٧. عبدالرقيب يوسف، أعلام من مشاهير الكُرد وكُردستان، مخطوط.

(١٧) إبن الأثير، اللباب مادة حيزاني.

(١٨) حل أبو يعلي المسائل الموجهة إليه من العاصمة الدوستكية في كتاب سماه (رسالة في جوابات مسائل وردت من ميافارقين). راجع الأحكام السلطانية، لأبي يعلى، مقدمة الناشر. وكان أبو يعلي اكبر علماء الحنابلة في العراق بلا منافس، ولهذا نظن ان المسائل الموجهة إليه كانت حول أمور فقهية من المذهب الحنبلي. توفي ابو يعلي سنة (٤٥٦هـ = ١٠٦٥م).

كُردستان الوسطى حتى النصف الأول من عهد الدولة الدوستكية أي مذهب منها. وفي رأيي ان كلها كانت موجودة فيها ولو على غير مستوى واحد. وقد أشار المقدسي الى وجود المذاهب الحنفية والشافعية وكذا الحنبلية بدرجة أقل في إقليم الجزيرة(١٩).

وأدخل المقدسي كل البلاد الدوستكية ضمن هذا الإقليم عدا بدليس الى أرديش وملازگر. ويحتمل أن مذهب الأوزاعي قد دخل كُردستان الوسطى أيضاً من بلاد الشام. وكان لهذا المذهب نوع من النفوذ في القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي). وقد دخلت كُردستان مذاهب فقهية أخرى قد إنقرضت مثل مذهب داود ومذهب سفيان الثوري، وكان للأخير نفوذ قوي في مدينة (دَينور) كبرى مراكز العلم في كُردستان الشرقية حينها، وذلك في القرن العاشر الميلادي على ما ذكره المقدسي(٢٠). وكان أبو بكر عبدالغفار بن عبدالرحمن الدينوري (توفي في ٤٠٥هـ = ١٠١٤م) آخر من أفتى بجامع المنصور ببغداد على مذهب سفيان الثوري(٢١).

أما كُردستان إيران وحتى شهرزور من إقليم الجبال، فكانت فيها مذاهب مختلفة لم يستقر فيها مذهب من المذاهب. وكان أهل الحديث من اذربيجان وارمينيا، وكانتا مشتملتين على جزء من البلاد الكُردية، من الحنابلة على ما هو واضح من كلام المقدسي(٢٢).

وكان شأن كُردستان الوسطى كشأن كُردستان إيران في وجود مذاهب مختلفة. هذا وكان القضاء في الدولة الدوستكية الى النصف الأول من عهدها حراً غير مقيد بأحد المذاهب، وإنما كان يسير وفق المذهب الذي يتمسك به القاضي، أو أن القاضي كان يجتهد في أحكامه، أو وفق المتمذهبين بكل واحد منها. وقد ذكر ابن شداد ان في فارقين مدرسة للحنابلة عند باب الجامع، ومدرسة للحنفية انشأها شهاب الدين غازي الأيوبي وأخرى للشافعية أنشأها ابن الفقاعي عثمان(٢٣). أما في النصف الأخير من العهد الدوستكي، فقد تغلب المذهب الشافعي وإستقر في البلاد بفضل مدرسة فارقين للفقه الشافعي، التي تزعمها أبو عبدالله محمد بن بيان بن محمد الكازروني. فإنه كما ذكره عدد من المؤرخين نشر هذا المذهب في اقليم دياربكر كما مرت الإشارة اليه (٢٤) وكان الكازروني(٢٥) العالم

(١٩) المقدسي، احسن التقاسيم، ص١٤٢.

(٢٠) نفس المصدر، ص٣٩٥.

(٢١) نفس المصدر، ص٣٩٥.

(٢٢) المقدسي، ص٣٩٤-٣٩٧.

(٢٣) مخطوطة الأعلاق الخطيرة، القسم الخاص بالجزيرة ورقة (٧٤) في الورقة (١٢٤) ورد إسم فخرالدين محمد بن الفقاعي الوزير أي وزير الملك الكامل الايوبي امير فارقين. قتل فخرالدين من قبل المغول أثناء إحتلال فارقين في ٢٣ ربيع الآخر سنة ٦٥٧هـ.

(٢٤) راجع إبن الأثير، الكامل، ج١٠، ٢٦.

(٢٥) قال السبكي ان الكازروني سكن آمد، كما ذكرناه ودرس بجامع فارقين، أي انه انتقل اليها وهو ينسب الى مدينة كازرون الواقعة في اقليم فارس، ولا نعلم متى وصل الى البلاد الدوستكية. توفي بفارقين سنة (٤٥٥هـ = ١٠٦٣م) وكان قبره ولم يزل مشهداً يزار الى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي . فقد ذكر ابو الحسن الهروي في كتابه (الإشارات الى معرفة الزيارات، ص٦٤-٦٥) ان من بين اماكن الزيارة في فارقين قبر محمد بن بيان رفيق ابي اسحاق=

الذي لايبارى في كُردستان الوسطى، فكان له أصحاب وتلاميذ ساعدوه في إستقرار المذهب الشافعي وإنتصاره. ومن كبار أصحاب الكازروني، القاضي أبو بكر بن صدقة، الذي تولى القضاء بفارقين كما ذكرنا في موضوع (القضاء). وغلبة المذهب الشافعي في كُردستان الوسطى لاتعني أن المذاهب الأخرى قد إنتهت فيها. فقد أنشئت مدرسة للحنابلة في فارقين في العهد الأيوبي. وفي رأيي أن المذهب السني الأشعري(٢٦) إستقر في كُردستان الوسطى بواسطة مدرسة فارقين للفقه الشافعي وبواسطة الكازروني وتلامذته أيضاً، حيث لم يكن مستقراً فيها قبل العهد الدوستكي. ساند الشافعيون المذهب السني الأشعري، ولهذا نجد أن إبن الأثير يستغرب من القاضي أبي الحسين بن أبي جعفر السمناني كيف انه كان حنفياً ومتعصباً في نفس الوقت للمذهب السني (الأشعري)، وكان قد أغناه بالكثير من مؤلفاته(٢٧).

ومن فقهاء الدولة الدوستكية أيضاً شيخ الإسلام أبو عبدالله بن مروان وأبو بكر محمد بن مروان بن عبدالله الطنزي(٢٨)، وعمر بن ثابت الثمانيني تلميذ النحوي الشهير ابن جني(٢٩) والشيخ أبو محمد بن المحور الفارقي، وهبة الله سليمان الآمدي، وابو عبدالله بن زيدان وابن عامر وابن مساعد، وشريف بن ابي السخاء وابو الحسن أحمد بن القاضي ابي علي البغل، وابو طاهر محمد بن الخطيب المشهور بعبدالرحيم ابن نباته الفارقي خطيب جامع فارقين، والخطيب ابو القاسم يحيى بن طاهر بن محمد بن نباته، وابن عقيل خطيب الجامع الكبير في دياربكر، وابو العلاء المتكلم قاضي نصيبين، والقاضي ابو عبدالله بن سلمه المالكي، والقاضي حسن بن منذر (ويقال انه بغدادي الأصل) وغيرهم من قضاة الدولة الدوستكية، من الذين عثرنا على معلومات عنهم ومجموعهم ثلاثة عشر قاضياً، بالاضافة الى غير هؤلاء من العلماء الأفاضل مثل الشيخ (مَمك الفنكي)(٣٠) وأحمد بن عمار بن

=الفيروزآبادي، أي أبي اسحاق الشيرازي. وقال محمد بن شاكر الكتبي في (عيون التواريخ، ج١٢، ص٢٧٧) في ترجمة ابن هربون ان الكازروني كان تلميذ المحاملي. ومن تلامذة الكازروني شيخ الاسلام الروياني عبدالواحد بن إسماعيل صاحب المؤلفات الكثيرة، وعبدالجليل بن عبدالجبار المَروزي قاضي دمشق المتوفي سنة (٤٧٦هـ = ١٠٨٤م) ونصر بن ابراهيم بن فارس الازدي وابو الغنائم عبدالرزاق العدوي وعبدالله بن الحسن بن النحاس وابو بكر الشاشي الفارقي، ونصر بن ابراهيم المقدسي وغيرهم. يظهر ان الكازروني لم يكن ميالاً الى التاليف، بل كان يصرف وقته في التدريس ولهذا لم نجد له سوى كتاب (الإبانة) في الفقه الشافعي، الذي أورد ذكره اسماعيل باشا بابان في (هدية العارفين، ج٤، ص١٢٢، ج٥، ص١٠٠).

(٢٦) هو علي بن اسماعيل بن اسحاق الاشعري المتوفي سنة (٣٢٤هـ = ٩٣٦م). كان من أئمة علم الكلام وله مؤلفات كثيرة ويقال أنها بلغت الثلاثمائة.

(٢٧) إبن الأثير، الكامل، ج٨، ص١١٩-١٢٠.

(٢٨) ذكره إبن الأثير في الكامل، ج٩، ص١٩٢. وقال ان مولد الطنزي كان في سنة ٤٠٣هـ. وقد روى الطنزي الحديث عن أبي جعفر السمناني. وذكره أيضاً ياقوت الحموي في معجم البلدان، ج٦، ص٦٢. في مادة (طنز). ويحتمل انه شيخ الإسلام ابن مروان الذي ذكره ابن الاثير بكنية ابي عبدالله في حوادث سنة (٤٤١هـ)، هو الذي أوفده نصرالدولة الى السلطان طغرل لإطلاق سراح ملك الأبخاز، وكان الامبراطور البيزنطي قد توسط بنصرالدولة لإطلاق سراحه.

(٢٩) كان من سكان قرية هەشتيان (ثماني) الواقعة في السفح الشمالي لجبل الجودي.

(٣٠) هو الشيخ محمد البشنوي المعروف بالشيخ ممك وصفه ابن الاثير في اللباب، ج١،ص١٢٨ بالشيخ الصالح وقال توفي قبيل سنة (٤٠٠هـ). ما زال قبره في فنك معروفاً خلف المضيق ومقابل القلعة من الشرق، وقد صورت قبره في=

مظفر البدليسي. راجع موضوع القضاء والخطابة. وأبي الحسن حمدون الهيزاني، وكان ممن روى عنه أبو بكر الشاشي الفارقي(٣١).

وهنا تجدر الإشارة الى أسرة فارقية إرتقى أبناؤها الى مناصب رفيعة في الدولة الفاطمية بمصر في العهد الدوستكي، وأعني بهم الوزير عبدالكريم بن عبدالحاكم بن سعيد الفارقي، الذي تجمعت في يده ثلاث وظائف مهمة هي وظيفة قاضي القضاة، وداعي الدعاة والوزارة، حيث أصبح وزيراً للخليفة المستنصر بالله(٣٢)، كذلك إرتقى الى هذه المناصب الثلاثة أخوه أحمد بن عبدالحاكم(٣٣)، علماً بأن داعي الدعاة كان يوجه الدعاة الرسميين للمذهب الإسماعيلي الشيعي ويشرف على أعمالهم. أما عبدالحاكم نفسه فكان قاضياً لطرابلس، ثم إنتقل الى مصر سنة (٤١٩هـ = ١٠٢٨م) وتولى القضاء فيها(٣٤).

إن أول من تقلد القضاء بمصر من هذه الأسرة هو مالك بن سعيد، وذلك سنة (٣٩٨هـ = ١٠٠٧م) وقد علت منزلته عند الخليفة الفاطمي(الحاكم) الى درجة لم يبلغها غيره من القضاة. وكانت لمالك سيرة حميدة وله أخبار طريفة في العدل والجود والبر ومساعدة الفقراء، وفي الحلم ورقة القلب وغيرها من مكارم الأخلاق. ورغم أن الخليفة الفاطمي اعتمد عليه كثيراً ومنحه سلطات واسعة، حيث كلفه بمهمة الإشراف على الإقطاعات الواسعة والسجلات والإشراف على كتب العمال ومراسلة دعاة الدعوة الفاطمية، الا انه قتله ظلماً سنة (٤٠٥هـ = ١٠٤١م)(٣٥).

=١٩٧٧/٧/١٣. وتسمى المقبرة التي يوجد فيها قبره بمقبرة شيخ ممك (زيارەتا شێخ مەمک). حول قبره سياج من الأحجار وفي الطرف الشمالي من قبره كهف صغير فيه محراب يسمى (خلوة شيخ ممك). لقبره إحترام زائد يزوره الناس. وقد رأيت في الكهف امتعة متروكة هناك، فلما سألت عنها، قال لي بعض سكان فنك انها لبعض عوائل القبائل الرحل (كوچەر) تركوها هناك منذ توجههم الى الزوزان حسب عادتهم لأنه مكان أمين، فقد تركوها في ذمة (شێخ مەمک) ولا يأخذ أحد منها شيئاً. وعندما يرجع أصحابها في الخريف يأخذون أمتعتهم. وكانت تسكن فنك سبع عشرة عائلة تقيم في كهوفها، بينما كانت في الماضي مدينة ذات أسوار.

(٣١) السمعاني، الأنساب ورقة(١٨٣) مخطوط في مكتبة مديرية الآثار ببغداد.

(٣٢) على بن منجب، الإشارة فيمن نال الوزارة، ص٤٨، سيرة المؤيد، ص٤٨، طبعة ١٩٤٩. الأعلام للزركلي، ج٤، ص١٧٧. ذكر ابن المنجب ان عبدالكريم تولى الوزارة سنة ٤٥٣هـ = ١٠٦١م وعزل وتوفى في السنة التالية. راجع أيضاً ابن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٦، ص٣٧٥.

(٣٣) إبن المنجب، الإشارة فيمن نال الوزارة، ص٥٠. سيرة المؤيد، ص٤٩. وإبن حجر العسقلاني، رفع الأُصر، ص٧٨. ذكر الأول انه تولى الوزارة مرتين في سنة ٤٥٥هـ ونكب وعوقب وذهب الى الشام وتوفي هناك. راجع أيضاً إبن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٦، ص٣٧٥. ٣٧٧.

(٣٤) إبن المنجب، ص٤٨. وأبو عمر أحمد بن يوسف الكندي، الولاة والقضاة، ص٤٩٦: ذيل أحمد بن عبدالرحمن بن برد. الزركلي، الأعلام، ج٤، ص٤٩. لقد ذكر العسقلاني في رفع الاصر ص٨٣-٨٥ شخصاً آخر من هذه الأسرة وهو أحمد بن عبدالكريم بن عبدالحاكم تولى القضاء والوزارة سنة ٤٥٥هـ وفوضت اليه الوزارة عدة مرات. راجع أيضاً ابن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٦، ص٣٧٥-٣٧٧.

(٣٥) الكندي، الولاة والقضاة، ص٤٩٦-٦٠٣. ذكر له العسقلاني ترجمة وافية في(رفع الأُصر) الملحق بالولاة والقضاة وذكره العسقلاني هكذا: مالك بن سعيد بن مالك. أما أحمد بن عبدالرحمن، ص٤٩٦ من (الولاة والقضاة)، فذكره بإسم مالك بن سعيد بن سعيد. وبخصوص أخبار آل الفارقي، راجع المقريزي (إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا) في الصفحات (٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٨، ٢٧٠، ٣١٢، ٣٣٣).

التجويد

لاشك أن علم التجويد(٣٦) كأحد العلوم كان يدرّس في البلاد الدوستكية، ولكن لم تصل إلينا معلومات مفصلة بصدده عدا بعض الإشارات حوله. فقد ذكر الفارقي ان الشيخ أبا البركات والد القاضي أبي المرجا (كان مقرئاً مجوّداً عالماً من أصحاب المصري الذي ورد الى ميافارقين)(٣٧)، واتى غير مرة بذكر القراء بجانب الشعراء. والقراء هم الذين يجيدون قراءة القرآن حسب قواعد التجويد ومنهم من له معرفة بالتجويد ومنهم من هو عالم في هذا المجال كأبي البركات الذي كان عالماً فاضلاً في علم التجويد وغيره. ويظهر من كلام الفارقي انه كان متضلعاً في علم التجويد وملماً بالقراءات.

ويستفاد من ذلك ان ذلك العالم المصري الذي لم يذكر الفارقي اسمه كان من علماء التجويد، قدم البلاد ودرس هذا العلم وعمل على توسعه. ونستنتج من كلمة (الأصحاب) كمصطلح يطلق على أنصار كبار العلماء والائمة، الذين يعتبر كل واحد منهم اماماً في اختصاصه ومؤسساً او متزعماً لمذهب من المذاهب يعمل على نشره او تثبيته. إذ يقال ان العالم الفلاني من اصحاب الشافعي او الاشعري او ابي اسحاق الشيرازي أو الكازروني. فمثلاً تزعم الأخير المدرسة الشافعية في كُردستان الوسطى، أي نشر المذهب الشافعي فيها، ثم تزعمها بعده القاضي ابي بكر بن صدقة. ولهذا أطلق الفارقي لفظ (الأصحاب) على أصحاب الأخير أيضاً. وفي ضوء التفسير الصادق لهذا المصطلح، نعلم أن ذلك العالم المصري تزعم مذهباً أو علماً في البلاد، وأقرب الإحتمالات عندي أنه انتزع زعامة مدرسة التجويد فيها وكان له بدون شك تلامذة ومؤيدون في مجال إختصاصه. وتشير كلمة (الأصحاب) أيضاً الى ما هناك من جدل وخلاف ومؤيدين ومعارضين.

من المحتمل ان ذلك العالم تزعم نشر وتثبيت القراءات السبع او بعضها في البلاد الكُردية، كقراءة حفص المتبعة في كُردستان الى الآن. علماً بأن مذاهب التجويد التي تسمى بـ(القراءات)، الشاذة منها او الصحيحة السبعة، مرت هي الأخرى كالمذاهب الفقهية والكلامية، بدور الخلاف والنقاش الى أن انتصرت القراءات السبع في القرن العاشر الميلادي، واعتبرت القراءات الاخرى شاذة غير شرعية. وقد ظهر في مصر إهتمام بالتجويد في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين، وألّف المصريون مؤلفات فيه(٣٨).

(٣٦) التجويد: علم يعرف به إعطاء كل حرف حقه من الصفات وغيرها كالترقيق والتفخيم والجهر والرخو والإستطالة وغيرها من صفات الحروف السبع عشرة، وغايته إتقان لفظ القرآن في القراءة والتجويد هو علم الأصوات ومخارجها.

(٣٧) الفارقي، ص، ٢٨٠. القاضي أبو المرجا هو يحيى بن الضرير كما تكرر ذكره يظهر ان البركات كان عالماً ضريراً تولى القضاء بعد سقوط الدولة الدوستكية سنة ٥٠٧هـ في دولة شاه أرمن التي أسسها في خلاط وماوراءها سگمان القطبي وهو غير القاضي ابي المرجي سعادة بن الحسين.

(٣٨) آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج١، ٢٧٤.

الأدب

لقي الأدب في الدولة الدوستكية اهتماماً غير قليل، ونقصد بالأدب الأدب العربي، حيث لم أجد شيئاً عن الادب الكُردي. ولهذا يعد بابا طاهر الهمداني أول شاعر كُردي معروف في كُردستان الشرقية بعيداً عن بلادها. وكان شأن كُردستان في الإهتمام بالادب العربي آنذاك شأن غيرها من البلدان الإسلامية غير العربية. فقد كانت العربية لغة القرآن هي لغة الثقافة في جميع تلك البلدان من الأندلس (أسپانيا) وحتى أقصى بلاد ما وراء النهر (تركمانيا) والى حدود الصين، إلا أن الأدب الفارسي كان قد بدأ في الظهور في هذه الفترة بالذات على يد الرودكي والفردوسي. ولهذه الحقيقة نحن لانستطيع ان ننتقد الدولة الدوستكية لعدم تشجيعها الادباء الكُرد على التأليف وقرض الشعر باللغة الكُردية، إذا ما نظرنا الى المسألة بمنظار ذلك العصر. وفيما يلي عدد من أدباء وشعراء الدولة الدوستكية:

المنازي

كان ابو نصر أحمد بن يوسف المنازي كاتباً بارعاً واديباً لامعاً وشاعراً رقيق الطبع، تولى ديوان الرسائل والإنشاء في الدولة الدوستكية، وكانت تلك وظيفة مهمة بمنزلة وزارة الخارجية الحالية وكان معتمداً لدى الأمير نصرالدولة، وقد أرسله مراراً في السفارة الى العاصمة البيزنطية. ذكر عدد من المؤرخين كالاصبهاني وابن كثير وياقوت الحموي، ان هذا الشاعر تولى الوزارة في الدولة بعد وفاة الوزير ابي القاسم المغربي(٣٩).

سافر المنازي الى كل من بلاد الشام والعراق وإجتمع بأبي العلاء المعري كبير شعراء عصره في كل منهما. وكان المنازي يأتي باللفظ السلس والمعنى الرقيق، وقد اعجب به ابو العلاء المعري حتى قال له (أنت أشعر من بالشام)، وذلك حينما عرض عليه مقطوعته الشعرية المعروفة(٤٠) والتي أولها:

وقانا لفحةَ الرمضاء وادٍ   سقاه مضاعف الغيث العميم

ويقال انه لما زار المعري ببغداد بعد ذلك بخمس عشرة سنة، وقرأ عليه مقطوعته الشعرية التي أولها:

لقد عرض الحمام لنا بسجَعٍ   (اذا أصغى له ركب تلاحى(٤١))

قال له المعري (ومن بالعراق)، أي انت اشعر من بالعراق عطفاً على قوله السابق (أنت اشعر من

(٣٩) الاصبهاني، خريدة القصر، ج٢، ص٣٤٨. إبن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٥٤. الحموي، معجم البلدان، ج٧، ١٦٧. إبن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ٤٤. شمس الدين سامي، قاموس الاعلام، ج٢، ص٧٦٥ باللغة التركية.

(٤٠) انشد المنازي مقطوعته الشعرية هذه في وصف وادي بُزاغا بين منبَج وحلب. وقال بعض المؤرخين كالرعيني الأندلسي قولاً مفاده ان هذه المقطوعة لحمدة بنت زياد الاندلسية. ولم يقل بهذا غيره مع ان مؤرخي الشرق متفقون جميعاً أنها للمنازي.

بالشام)، الذي كان قد قاله له قبل خمسة عشر سنة. وقد أورد هذا عدد من المؤلفين متخذين ذلك دليلاً على ذاكرة المعري الخارقة(٤٢).

ومن أشهر مقطعات المنازي الشعرية، المقطوعة التالية التي إتخذها عديد من المؤلفين مثالاً للرقة والبلاغة:

وقانا لفحة الرمضاء واد　　سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحة فحنا علينا　　حُنُوّ المرضعات على الفطيم
وأرشَفَنا على ظمأٍ زُلالاً　　ألذَّ من المُدامَةِ للنديم
يُراعي الشمس أنى قابَلَته　　فيحجُبُها ليأذَنَ للنسيم
تروع حصاهُ حالية العذارى　　فتلمسُ جانب العقدَ النَّظيم

وقال المنازي في غلام له طويل وبليد:

ولي غلام طال في دقَّةٍ　　كخط إقليدس لا عرض له
وقد تناهى عقله خفةً　　فصار كالنقطة لاجزء له

وذكر المؤرخون للمنازي ديوان شعر نادر وحاول كثيراً القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبي الحصول على نسخة منه، فلم يظفر بذلك. وأغلب الإحتمالات آن ديوانه مفقود. وكان المنازي إضافة الى كونه أديباً شاعراً، عالماً إشتغل بالتدريس أيضاً وممن درس عليه سعيد بن عبدالله بن بُندار والد الشاعر علم الدين الشاتاني. توفي المنازي في فارقين سنة ٤٣٧هـ = ١٠٤٦م) وكان من أهل منازجرد الواقعة في منطقة خربوت أو (ملازگرد) المشهورة(٤٣).

(٤١) وتمام المقطوعة:

شجى قلب الخلي فقيل غنى　　وبرَّح بالشجيّ فقيل ناحا
وكم للشوق في أحشاء صبٍّ　　إذا إندملَت أجَدَّ له جراحا
ضعيف الصبر عنك وان تقاوى　　وسكرانَ الفؤاد وإن تصاحا
كذاك بنو الهوى سكرى صحاةٍ　　كأحداق المها مرضى صحاحا

(٤٢) ممن ذكروا ذلك إبن خلكان والحموي وكذلك ابن العماد في (شذرات الذهب، ج٢، ص٢٥٩). راجع عن المنازي ايضاً شمس الدين سامي، قاموس الاعلام، ج٢، ص٧٦٥ باللغة التركية. والذهبي، العبر في خبر من غبر، ج٧، ص١٨٧. تاريخ ابن الوردي، ج١، ٣٤٩. تاريخ الفارقي، ص١٣٠. أحمد تيمور باشا، حياة المعري. الزركلي، الأعلام، ج١، ص٤٥٨. راجع أيضاً موضوع ديوان الرسائل من كتابنا هذا وكذا دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي، ج١٠، ص٢٥٣.

(٤٣) يرى بعض المؤرخين أنه من منازجرد (ملازگرد) المدينة المعروفة، أما إبن خلكان فينفي هذا ويقول بالقول الأول علماً انه توجد في المنطقة الواقعة شرق العزيز بلدة بإسم (مازگرت) وهي مركز قضاء في ولاية تونجه لي مركز ديرسيم، وزاد ابن خلكان له نسبة (السليكي) والسليك (قلعة سليك) تقع قرب بينگول (جبل جور - جبقجور) وتسمى الآن سلكان (سەلەکان) وفي شرفنامه (ص٣٤١) ذكر لقلعة سليك.

حسين بن داود الفنكي

كان الأمير حسين من الأسرة المهرانية الحاكمة في فنك، مركز الامارة البشنوية التي كانت تضم القسم الشمالي من بوتان. وكان البشنوي شاعراً مبدعاً وصفه ابن الاثير بشاعر بني مروان(٤٤)، يحتمل أنه أول شاعر كُردي نجده يفتخر ويعتز بشعبه وأمجاده من امراء فنك، اذ نجده في القصيدة التي رثى بها الأمير پاد مؤسس الدولة الدوستكية، يعتز بكونه من الكُرد البشنويين من انصار ومخلصي الدولة الدوستكية والمساهمين في تأسيسها. ويشير الى الانتصار الذي احرزه الأمير پاد في المعركة الحاسمة، التي نشبت عند قرية باجلي (باجلايا) على خابور زاخو بينه وبين قوات الدولة البويهية، حيث أشار الى أن الإنتصار كان بفضل البشنويين بقوله:

بباجلايا جلَونا عنه غُمَّتَهُ ونحن في الرّوعِ جلاّؤون للكَربِ

كما نجده يشير في إحدى قصائده الى إباء أجداده من بني مهران وشجاعتهم وكونهم لم يقبلوا الذل في يوم الأيام، فيقول في قصيدة لامية:

إن يعرف الناسُ رسمَ الذلِ في جهةٍ فالذل عند بني مِهرانَ مجهولُ

ثم يشيد بمفاخر الكُرد التي إجتمعت في أجداده فيقول:

مفاخر الكُرد في جدودي ونخوة العرب في إنتسابي(٤٥)

الأمير حسين بما أشتهر في القرون الوسطى من أن الكُرد ينتمون الى أصل عربي وبهذا يقصد في المصراع الثاني من بيته الشعري(٤٦).

هذا وقد ذكر المؤرخون ان للبشنوي ديوان شعر كبير، وكتاب الدلائل، والرسائل البشنوية. وقد بذلت من جهتي جهداً كبيراً وراجعت الكثير من المكتبات وفهارس المخطوطات، فلم أجد لمؤلفاته الثلاثة ذكراً يدل على وجودها الآن. ويظهر ان البشنوي قد جمع رسائله التي أرسلها الى أصدقائه في كُردستان وخارجها. ومما يتوقع ان من بينها رسائل رسمية ألفت بإنشائه لأمراء فنك. وأرى أن لرسائله أهمية كبيرة لو عثرنا عليها، فلاشك أنها تضم معلومات عن عصره. وله مقطوعات شعرية كثيرة في عدد من المصادر ومعظمها في التشيع، ولهذا فإن مؤرخي الشيعة إعتبروه من شعرائهم كما ذكرنا في موضوع التشيع. وقد توفي الأمير حسين البشنوي سنة (٤٦٥هـ = ١٠٧٣م) أو بعد ذلك بسبع سنوات عند بعض المؤرخين(٤٧).

(٤٤) ابن الاثير، الكامل، ج٩، ص٧٢، حوادث سنة ٣٧٣. ذكر ابن الاثير هنا ثلاثة ابيات من القصيدة التي رثي بها البشنوي الامير باد (پاد) بن دوستك ذكرناها في الجزء الأول، ص٩٣.

(٤٥) عماد الدين الاصبهاني، خريدة القصر، ج٢، ص٤٥١.

(٤٦) يتوضح الأمر أكثر حيث يقول في البيت الأخير من قصيدته اللامية:

نحن الذؤابة من كُرد بن صعصة من نسل قيس لنا في المحتد الطوَلُ

(٤٧) محمد بن علي بن شهراسوب، معالم العلماء، ص٤٢. محسن العاملي، أعيان الشيعة، ج٢٨، ص٣٣. ابن الاثير، اللبلاب في تحرير الانساب، مادة (الفنكي). آغا بزرگ الطهراني، الذريعة الى تصانيف الشيعة، ج١٠، ص٢٤٤. محمد أمين زكي، مشاهير الكُرد وكُردستان، ج١، ص١٨٦.

إبن أسد الفارقي: أدبه وإنتفاضته الشعبية

هو ابو نصر حسن بن اسد بن حسن الفارقي. كان عالماً وشاعراً كبيراً، تولى الوزارة لآخر الملوك الدوستكيين ناصر الدولة منصور في الفترة الثانية من حكمه. لُقِّب بمحي الدين وكان له الفضل في إحياء الدولة لشهور قليلة. تولى ديوان الجباية في آمد، وإثر القضاء على الدولة الدوستكية سنة (٤٧٨هـ) من قبل السلطان السلجوقي ملكشاه، تم إعتقاله من قبل السلاجقة ربما بسبب معارضته للإحتلال السلجوقي. وفي سنة (٤٨٥هـ = ١٠٩٣م) إثر وفاة ملكشاه، حدثت منازعة بين السلطان (بَركياروق) بن ملكشاه وعمه (تُتُش) الظالم وفرغت فارقين من السلطة السلجوقية. فإختلف سكان المدينة، فقد أحب بعضهم إحياء الدولة الدوستكية، بينما رفضها قسم آخر. فضبطت المدينة من قبل طبقة الأغنياء وكتبوا الى بركياروق ليرسل إليهم أحد قادته كي يسلموه المدينة. ولما يئسوا من بركياروق أرسلوا وفداً منهم الى (تُتُش)، حينما كان يحاصر نصيبين للغرض نفسه.

كان يتزعم الوفد القاضي أبو بكر بن صدقة السعردي، ولكن إبن أسد الشاعر الوطني شكّل حركة شعبية من تلامذته وشباب فارقين، فأخذ السلطة من يد الأغنياء في المدينة، بهدف النضال ضد الإحتلال الأجنبي السلجوقي وتحرير البلاد وإحياء الدولة الكُردية. وكان ناصر الدولة منصور قد وصل من قرية (حربى) الواقعة شمال بغداد التي أسكنه ملكشاه فيها الى مدينة الجزيرة وإسترجعها، وإتفق مع بني عقيل على صد زحف تتش. فطلب منه إبن أسد أن يتوجه الى فارقين ليتسلمها. فجاء ناصر الدولة وإستلمها في أول سنة ٤٨٦هـ وإتخذها عاصمة للدولة كالسابق وجعل إبن أسد وزيراً له. ولكن لم تمض على ذلك أكثر من خمسة أشهر، حتى جاء تتش وإحتل مدينة آمد ثم ميافارقين. وكان قد إحتل نصيبين وأقام فيها مذبحة فظيعة وإعتدى جيشه على شرف نسائها. ثم خلع تتش على القاضي بن صدقة السعردي وأضاف قرية قلوفح (كولفا) القريبة من فارقين الى إقطاعات القاضي، مكافاةً له على إخلاصه للحكم السلجوقي. فإختفى إبن أسد أكثر من سنة ثم ذهب الى تتش وهو في (حرّان) لكي يعفو عنه، لكن بعض الحاضرين حرضوه على قتله، فقتله تتش وذلك في سنة (٤٨٧هـ). كان إبن أسد شاعراً محبوباً لدى الجماهير فحزن عليه والي فارقين من قبل تتش الوزير الأسبق لناصر الدولة أبو طاهر الأنباري، الذي كان مخلصاً للدولة الدوستكية، وإستنكر ذلك وترك وظيفته وسار الى خربوت، ثم قتل تتش أبا طاهر مع إبنه(٤٨).

أما حركة إبن أسد الشعبية، فنستطيع تسميتها بـ(حركة الفتوة)، فهي شبيهة بأهدافها الى حد ما بـ(الفتوة) في بغداد وبحركة (الأحداث) في دمشق وحلب في العهدين العباسي والفاطمي(٤٩).

هذا عن حياة إبن أسد السياسية. أما عن حياته الأدبية، فنستنتج من كلام الفارقي بأنه تزعم مدرسة الأدب في فارقين. فقد كان من أبرز الأدباء وله شطارة وجسارة وجمع كبير من التلامذة ونفوذ

(٤٨) الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٢٢. السيوطي، بغية الوعاة، ص٢٨١. الزركلي، الأعلام، ج٢، ١٩٨.

(٤٩) راجع الفارقي، الصفحات ٢٣٢، ٢٣٦، ٢٣٨ و٢٤٠ وموضوع (الحياة الإجتماعية). والجزء الأول ص٣١٥ - ٣١٧، الطبعة الأولى. كان الوفد ماعدا القاضي يتكون من: الشيخ أبي سالم يحيى بن حسن بن محمد بن محور، والشيخ عبدالله ابن زيدان، وإبن مساعد، وإبن بلك وآخرون. أما ماذكره الفارقي من أن إحتلال تتش لفارقين كان في ربيع الأول (٤٨٦هـ)، فهو خطأ لأنه وقع بعد هذا التاريخ.=

قوي بين الشباب والطبقة الكادحة. وصفه المؤرخون بما يدل على تضلعه في اللغة العربية وقواعدها وفي فنون الأدب، فقد قال عنه ياقوت الحموي: "كان شاعراً رقيق الحواس مليح النظم متمكن من القافية كثير التجنس فلا يخلو له بيت من تصنيع وإحسان وبديع... وكان نحوياً رأساً وإماماً في الفقه يقتدى به".

ولإبن أسد من المؤلفات: كتاب ألغاز وديون شعر و(شرح اللمع الكبير) و(الإفصاح في شرح أبيات مشكلة الإعراب)، وقد عرف بكتاب المغالطات وطبع خطأ بإسم (الرماني)(٥٠)، وتوجد له قصائد ومقطوعات شعرية كثيرة في المصادر ومن شعره:

يامن حكى ثغره الدرَ النظيمَ ومن   خالُ أصداغهُ السود العناقيــدا

إعطف على مستهامٍ ضم من أسف   على هواك وفي حبل العنا قيدا

=الفتوة: في (مقدمة في الإقتصاد العربي، ص٧٨ . ٩٢) للدكتور عبدالعزيز الدوري: أن كلمة (الفتى) مرادفة لكلمة (عيّار) و(الشاطر). كان العيارون والشطار من العامة وبينهم أهل الصنايع والباعة، وكان هدفهم التجار الكبار لا الصغار. وكان لهؤلاء مبادىء أخلاقية كالمروءة والرفق بالضعفاء والفقراء وحماية النساء، وكانوا يسمون طريقتهم (الفتوة) ويعتزون بالشجاعة والكرم. وهم يرون ان الأغنياء والتجار جشعون سيطروا على المال والتجارة دون أداء حقهما وأن السلطة تحميهم. وبهذا المفهوم وجهوا حركاتهم، وكانوا يخرجون للقتال بتعبئة شبه عسكرية ولهم عرفاء ونقباء وقادة. ولهم كذلك في كل محلة (مقدم) أو (متقدم). وفي أواخر العهد السلجوقي سادت تنظيمات (الفتوة)، وكان (الناصر لدين الله) الذي أصبح فيما بعد خليفة قد دخل (الفتوة) وتدرج فيها حتى ترأسها. فوحدها وركز مقاييسها في الأخلاق والفروسية ووسعها الى سورية ومصر لتقوية الخلافة العباسية وترسيخها.

أما حركة (الأحداث) في دمشق وحلب، فقد بدأت منذ أواسط القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) الى السادس (الثاني عشر الميلادي). وكانت الحركة شبه ميليشيا شعبية إتخذت موقفاً عدائياً من السلطة الخارجية ونجحت في فرض سيطرتها وتولية رئيس منهم على المدينة، كما حصل في دمشق التي تولاها آل الصوفي بين (٤٨٨= ٥٤٨هـ)، وفي حلب (آل بديع)، وفي (آمد) الأسرة النيسانية في مطلع القرن السادس الهجري. وكانوا يسندون أحياناً أميراً ثائراً، أو يسندون الأمير المحلي، كما فعلوا مع المرداسيين في حلب. كان للأحداث تنظيمهم ولهم تنظيم من رؤساء ونقباء ومقدمين. وعندما يسيطرون على مدينة يوزعون سلطاتهم في المحلات على العيارين. وكانوا يفرضون ضريبة على الأسواق ويتولون حفظ الأمن. وكانوا على العموم يعبرون عن نظرة أهل المدينة تجاه السلطة الخارجية. وكان الغزاة الأجانب يضربون هذه الحركات الشعبية الأجتماعية، التي كانت تنشأ عند سوء الإستغلال والإضطرابات السياسية وما يرافق ذلك من فوضى.

وبخصوص بني نيسان في آمد، الذين أشار إليهم الأستاذ الدوري، نقول أنه في سنة (٤٨٨هـ) حدثت ثورة شعبية ضد الوالي السلجوقي (طغتكين) أخمدها بقوة حيث صلب بعض الثوار على ما ذكره الفارقي في (ص٢٣٩)، ثم عين أميراً تركمانياً سلجوقياً على آمد بإسم (إينال). وظلت الولاية في يد أولاد الأمير المذكور الى ان أخذها منهم صلاح الدين الأيوبي سنة (٥٧٩هـ). ولكن السيطرة كانت في يد وزراء (بني إينال) من (بني نيسان) وهم أبو علي حسن بن أحمد وكمال الدين علي وبهاء الدين مسعود (وقد تأخرت آمد في عهدهم كما سيأتي في موضوع سور دياربكر).

(٥٠) نشرت مجلة المجمع العلمي بدمشق، ج١، المجلد ٣٤ سنة ١٩٥٩رسالة لعبدالعزيز الميمي أرسله من پاكستان ذكر فيه أن خيرالدين الزركلي طبع كتاب (الإفصاح) هذا في المغرب بإسم الرماني المتوفي سنة (٣٨٨هـ)، وبعد أن قام بتحقيق ظهر له أنه كتاب إبن أسد الفارقي بدليل أنه ينقل عن الرماني وبدليل أنه توجد له وبإسمه عدة نسخ مخطوطة في عدد من المكتبات، وبهذا إرتكب الزركلي خطأً عظيماً حرم الفارقي المسكين من أنبل ما ألفه في حياته. هذا وتوجد في مكتبة مديرية الأوقاف العامة ببغداد نسخة مخطوطة من (الإفصاح) تحت الرقم ٢٩٨٦ ويتبين من مقدمتها ان إبن أسد قد ألفه لأحد المتنفذين من الأمراء المحبين لأهل العلم، ولعله أحد أمراء الأسرة الدوستكية أو أحد أمراء الدولة. وقد ورد إسم هذا الكتاب في (إيضاح المكنون، ج٢، ص٤٣، لإسماعيل پاشا بابان (شرح الأبيات المشكلة الإعراب).

وله أيضاً:

ونـــــديمة لي في الظلام وحيـــدة مـثـلي مجاهدة كمثل جهـــادي
فـــاللون لوني والدموع كـأدمعي والقـــلب قلبي والسهـاد سهـادي
لا فرق بيننا لـــو لم يكـــــــن لـــهبي خفــياً وهو مـــنه بـــاد(٥١)

لقد جمع الباحث والشاعر العراقي هلال ناجي (١١٩) قصيدة ومقطوعة شعرية لإبن أسد ونشرها مع ترجمة جيدة له في سنة ١٩٧٨ بعنوان (الحسن بن أسد الفارقي)، ومما ذكره من مؤلفاته (كتاب الحروف) و(الزبد في معرفة كل أحد) وقال أنه مات أعزباً(٥٢).

إبن الطريف الفارقي

هو أبو الرضا فضل بن منصور الطريف. كان من الشعراء المقيمين في خدمة نصر الدولة وقد وصفه كل من ابن الاثير وابن الوردي(٥٣) بالأمير الشاعر. فقد ذكر الأول بأن له ديوان شعر وشعره جيد. وذكره الفارقي بـ(القائد أبو الرضا بن الطريف)، مما يدل على أنه كان شخصية بارزة. ولإبن الطريف المقطوعة الشعرية التالية في وصف مدينة بدليس:

بدليس قد جدَدت لي صبـــوة بعد التُـــقّى والنُسك والسَّمـــت
هتـكت ستـري فـيِ هوى شـادن ومـا تحـرّجت ولا خفـــــــــت

(٥١) المقطوعتان من معجم الأدباء لياقوت الحموي، ج٣، من ص٤٧-٥٤ حيث ترجمة حياة إبن الأسد. لقد وقع بعض المؤرخين في أخطاء بصدد حياة إبن الأسد وكيفية قتله، فزعم بعضهم أنه قُتل من قبل إبن مروان، أي الأمير منصور وقلب الأحداث على عقب، والصحيح هو ما قاله الفارقي وهم أعلمهم بما آل إليه أمره. فقد ذكر الفارقي بأن إبن الأسد ذهب الى حران وكان فيها تتش فألف فيها قصيدة رنانة في مدحه (طمعاً في العفو عنه) ومن جملتها البيت التالي:

وإستحلَبتُ حلب جفني فإنهملت وبشرتني بحر القتل حرّانُ

وقيل بحر الشوق. ولما فرغ من إلقاء قصيدته أبدى تتش إعجابه الشديد به، فعرّفه به خواصه وذكروا له كيف إستولى على فارقين وسلمها الى ناصر الدولة منصور فأمر تتش بقتله. أما ذهابه الى تتش فلما أنه خاف من أنه سيقبض عليه ويقتل ولن ينجو من تتش وسيكون مصيره كمصير الوزير أبي طاهر الأنباري الذي غادر فارقين الى خربوت ليبعد عن ظلم السلاجقة.

لقد إعتمدنا بصدد هذه النبذة من حياة إبن أسد على المصادر التي أشرنا إليها الى جانب المصادر التالية: الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٢٩. إبن العماد، شذرات الذهب، ج٣، ص٣٨٠. السيوطي، بغية الوعاة في طبقات النحاة، ص٢١٨. الزركلي، الأعلام، ج٢، ١٩٨.

(٥٢) كان صديقي الأستاذ هلال محامياً ورئيساً لإتحاد الأدباء والكتاب العراقيين لعدة سنوات، وكان له حوالي خمسين مؤلفاً. لجأ الى مصر في عهد عبدالكريم قاسم، ثم عاد الى العراق. ولم يحبذ سياسة البعث، فخرج الى مصر مرة أخرى. كان قومياً يتحلى بالأفكار الديمقراطية وقد أيد منذ الستينات حق الشعب الكُردي في إنشاء دولته وفي ديوانه قصيدة بعنوان (أخي الكردي) تؤيد ذلك بصراحة.

(٥٣) ابن الاثير،، الكامل، ج٩. ص١٦. عمر ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ص٣٤٣. وقد أورد له ابن الاثير المقطوعة الشعرية التالية:

ومخطف الخصر مطبوع على صلف عشقته ودواعي البين تعشقـــــه
وكيف أطمع منه في مواصلــــــه وكل يوم لنا شمل يفرقــــــــــه=

وكنت مطوياً على عفة مظنونة يمشي بها وقتي
وإن تحاسبنا فقولي لنا من أنت يا بدليس من أنت
وأين ذا الشخص النفيس الذي يزيد في الوصف على النعت
من طبعك الجافي ومن أهله قد صرت بغداد على بخت

وقد توفي إبن الطريف سنة (٤٣٠هـ = ١٠٣٩م) أو التي بعدها(٥٤).

إبن الفطيري

كان أحد شعراء نصرالدولة وكان كاتباً للقاضي أبي الرجى في فارقين(٥٥). وقد أورد له الباخرزي(٥٦) المقطوعة الشعرية التالية:

وبهجتي يا عاذلي مقرطق جمع النحول بأسره في خصره
أسروه من أرض العدو فأصبحت نفسي أسيرة ناظريه وثغره
وحياته لولا ملاحة خده ما ذل إيماني لعزة كفره

ولم يصلنا شيء آخر من شعره، ويحتمل أن له قصيدة أو قصائد عديدة في مدح نصرالدولة وفي مناسبات عديدة، شأنه في ذلك شأن إبن الطريف وإبن السوداوي وغيرهما، ولكنها لاتزال في عداد المفقودة.

=وقد تسامح قلبي في مواصلة على السلو ولكن من يصدقه
أهابهُ وهو طلق الوجه مبتسم وكيف يُطمعُني في السيف رونقهُ

وأورد له هذه المقطوعة أيضاً ابن الجوزي في، المنتظم، ج٨، ص١٣٩. كما أورد له قصيدة مطلعها:

يا قالة الشعر قد نصحت لكم ولست أدهى من النصح

ينصحهم فيها بعدم مدح من لايستحقه وجعل الشعر تافهاً والنزول الى حضيض من الدناءة. كما ذكر إبن الصابوني المقطوعة الرقيقة التالية في (تكملة إكما الإكمال، ص٣١٠) نقلاً عن إبن الدبيثي:

تبارك من كسا خديك نوراً ومن أعطى محاسنك الكمالا
أغار إذا شربت الكأس شحاً على تلك المراشف أن تنالا
ولكن أدنها من فيك حتى ترى للشمس بالقمر إتصالاً

(٥٤) وقع خلاف بصدد وفاته، ففي الوقت الذي يرى إبن الجوزي أنه توفي سنة (٤٣٠هـ) يرى إبن الاثير ومن تبعه انه توفي في السنة التي بعدها. راجع بصدده أيضاً الفارقي، ص١٤٤. وإبن خلكان، وفيات الأعيان، ج٤، ٢١٥. وقد ورد في هذين المصدرين (إبن الطريف) بالطاء المهملة، وفي المصدرين الأولين إبن (الظريف) بالضاء المعجمة. وإعتمدنا على هذين المصدرين في الجزء الأول والطبعة الأولى من هذا الجزء الثاني، والان نعتمد على الفارقي وإبن خلكان، سيما وأن الفارقي أقرب اليه زماناً ومكاناً.

(٥٥) الفارقي، ص١٦١-١٦٢. ورد إسمه في ص١٤٤ إبن الفضيري وهو خطأ.

(٥٦) ابو الحسن علي بن حسن الباخرزي، دمية القصر وعصرة اهل العصر، ج١، ص٢١٠-٢١١. انشد المقطوعة في غلام رومي، وصفه ايضاً الباخرزي بشاعر نصرالدولة.

سدّاد بن إبراهيم الجزري

كان (الظاهر أبو النجيب) سداد شاعراً رقيق الشعر لطيف الأسلوب، وكان من سكان جزيرة بوتان (جزيرة إبن عمر). مدح بشعره الملك البويهي عضدالدولة والوزير المهلبي. توفي سنة (٤٠١هـ ١٠١١م) وأورد كل من ياقوت والكتبي(٥٧) ومن شعره في الحكم:

إذا المرء لم يرض مـا أمكنـه ... ولم يأت مـن أمـره أحسنـه
فدعـه فقد ساء تدبيـره ... سيضحـك يومـاً ويبكي سـنة

وفي (التراث العربي، ج٢، ص٣٧٧) للعلامة الدكتور مصطفى جواد أن إسمه (سدّاد) بالسين المهملة، على ما في الكتبي والصفدي ولقبه (الظاهر) بالظاء المعجمة، وقد تصحف إسمه ولقبه عند المؤرخين. فقد ذكروه بـ(شداد) بالشين المعجمة و(الطاهر) بالطاء المهملة وأضاف أن البيتين (الأولين) له وليسا لأبي العلاء المعري. وقد كتبهما إبن القارح في رسالته الى المعري ونسبهما إليه. عمّر (سدّدا) كثيراً وأدرك سيف الدولة الحمداني.

حسن بن محمد الآمدي

هو أبو علي حسن بن محمد بن أحمد من سكان مدينة دياربكر (آمد). تربى وأخذ العلوم في كُردستان أيام الدولة الدوستكية، ثم إنتقل الى العراق وإلتقى به السمعاني ببغداد حوالي سنة (٥٣٤هـ = ١١٤٠م) وكان في التسعين من عمره، وقال: انه فاضل غزير الادب والفضل قيّم بصنعة الشعر عارف باللغة. وعرض على السمعاني بعض قصائده.

ترى الآمدي يبدي الحنين في قصائده نحو وطنه ويرسل الشوق الى ربوعه الجميلة، التي قضى فيها أيام صباه وباقة من أيام شبابه. ونحن نلمس حنينه وأشواقه من الأبيات التالية، وهي من قصيدة له بديعة يفضل فيها آمد على بغداد بالعراق وعلى جَيرون بالشام، يقول فيها:

و(دياربكر) كان لي زمنـاً بهـا ... أبكار لهـو يستفيض وعـون
لا غرو أن رزقت هواك على الصبا ... تلك المعاقـل والقـباب الجـون
ياحـبذا تلك القـلاع وحبـذا ... تلك البقـاع وحبـذا لـيسون
هل أنت يا بغداد أحسن منـظراً ... أم (آمـد) السـوداء أم جـيرون(٥٨)

وهو يحيي مدينة آمد في واحدة أخرى من قصائده(٥٩) ويقول:

(٥٧) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج١١، ص٢٧٠ ومابعدها. محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٣٤٠. راجع أيضاً محمد أمين زكي، مشاهير الكُرد وكُردستان، ج١، ص٢٥٠. وقد ذكره ياقوت الحموي ومحمد أمين زكي بإسم (شداد) بالشين المعجمة وهو خطأ.

(٥٨) عماد الدين الاصبهاني، خريدة القصر، ج٢، ص٤٦١. تسمى مدينة (دياربكر) الكُردية بآمد السوداء لسواد سورها العظيم، لكونه من حجر البازلت البركاني التي قذف بها بركان جبل (قەرەزداغ- قەرەچوغ) الكبير الواقع جنوب غرب دياربكر.

(٥٩) ذكرها الاصبهاني في الخريدة، ج٢، ص٤٦١.

متى تحيا بلاد بالشـــــام أقُلْ   حُييتِ يا (آمد) السوداء من بلـــد

أبو الفرج الزهرجي

كان أبو الفرج أحد الأدباء الفضلاء وكاتباً لنصرالدولة، ورد ذكره في رسالة إبن القارح وفي رسالة الغفران لأبي العلاء المعري. كان الزهرجي السبب في تأليف كل منهما رسالته المشهورة، وبهذا أصبح كل منهما مديناً له. وكيفية ذلك أن إبن القارح إجتمع في مدينة دياربكر بأبي الفرج وتداولا في الأمور الأدبية، وناقشه الزهرجي وإبنه كما أطلعه الزهرجي على خزانة كتبه. ثم أنشأ الزهرجي رسالة أدبية في تقريظ ومدح إبن القارح ورسالة ثانية لأبي العلاء المعري سلمها الى ابن القارح ليسلمه اليه، ولكن الرسالة الأخيرة سرقها من إبن القارح رجل رافقه وهو متوجه من دياربكر الى حلب، حيث سرقها من جملة ما سرقه منه من الاشياء. فكتب إبن القارح رسالته الى أبي العلاء يعتذر منه فيما آلت إليه رسالة أبي الفرج وتطرق الى أمور أخرى(٦٠)، ووعد أبا العلاء في خاتمة رسالته أنه سيرسل اليه بعد وصول جوابه رسالة الزهرجي التي أنشأها في تقريظه ومدحه (أي مدح إبن القارح)، وذكر أن رسالته كانت من أكبر الأسباب لدخوله حلب.

أما أبو العلاء الذي ألف رسالة الغفران رداً على رسالة إبن القارح وأودعها فنون البلاغة، حتى إن الأدب العربي يعطيها مكانة سامية، وأبدى فيها أسفه على عدم وصول رسالة الزهرجي إليه، ودعا على ذلك السارق الذي وصفه بأنه: إرتكب أمراً شنيعاً وقطع من قلائد الأدب قلادة ثمينة، قاصداً بالقلادة رسالة الزهرجي(٦١).

رغم أن شيئاً من إنتاج أبي الفرج الزهرجي لم يصلنا، ولكن يفهم من فحوى رسالتي إبن القارح وأبي العلاء أنه كان من الأدباء الأفاضل ومن الكتاب البارعين، حتى عبّر أبو العلاء عن رسالته المسروقة بالقلادة الثمينة من قلائد الأدب العربي. ومن هذا يُفهم أنه كانت لأبي العلاء معرفة تامة بالزهرجي وقابليته الأدبية سواء عن طريق المراسلة أو عن طريق اللقاء. كما أن إختيار نصرالدولة إياه

(٦٠) قال إبن القارح في صدر رسالته (المطبوعة مع رسالة الغفران، ص٢٢): "كان أبو الفرج الزهرجي كاتب حضرة نصرالدولة أدام الله حراسته كتب رسالة الى أعطانيها ورسالة إليه (أي الى أبي العلاء) أدام الله تأييده إستودعنيها وسألني إيصالها الى جليل حضرته وأكون نافثها لا باعثها ومعجلها لا مؤجلها، فسرق عديلي رحلاً لي الرسالة فيه فكتبت هذه الرسالة أشكو أموري وأبث شقوتي وأطلعه على عجري وبجري. لقيت أبا الفرج الزهرجي ومعه خزانة كتبه..."

ومن الجدير بالذكر أن لقاء إبن القارح بالزهرجي كان بعد وفاة أبي القاسم المغربي وزير نصرالدولة سنة (٤١٨هـ = ١٠٢٦م) بحوالي ست سنوات، لأن أبا العلاء ألّف رسالة الغفران رداً على رسالته بست سنوات علماً ان ابن القارح قد ذهب الى فارقين سنة (٤١٧هـ) من مدينة ملطيه بناءً على طلب الوزير المغربي، وكان بينهما معرفة قديمة حيث أنه كان معلم أخويه بمصر. كما ذكر في رسالته فلا ندري هل انه ظل في كُردستان الى هذا الوقت، أي حوالي سبع سنين، أو انه غادرها ثم قدم اليها مرة ثانية، و إلتقي بالزهرجي. وفي رأيي أن الإحتمال الاول هو الاقرب. وتجدر الاشارة الى إحتمال كون الزهرجي يهودياً لأن إبن القارح قال له لما اطلعه على مكتبته: إن كتبك كلها يهودية.

(٦١) المعري، رسالة الغفران، ص٣٩٦. راجع نص كلامه بصدد أبي الفرج ودعائه على السارق وتأسفه على الرسالة المسروقة.

كاتباً له يدل على أنه كان من خيرة الكتاب. ولا ندري هل إنه هو أبو الفرج الخازن الذي ذكره إبن الجوزي أم أنه شخص آخر؟(٦٢)

وأخيراً نرى في ضوء ما تقدم، أن لرسالة الغفران ذات الشهرة العالمية إرتباطاً وثيقاً بتاريخ الدولة الدوستكية، فلولا الزهرجي لما كانت رسالة الغفران ولولاه ولولا أبو القاسم المغربي وزير نصرالدولة، لما كان هذا العمل الكوميدي العظيم من أبي العلاء أعظم أدباء عصره(٦٣).

علماء مسيحيون

لا فرق عندي وأنا أكتب تاريخ العلم في هذا الجزء كُردستان في عهد الدولة الدوستكية بين عالم كُردي وآخر غير كُردي وبين عالم مسلم وآخر غير مسلم. لأن لكل عالم عاش في هذا الجزء من البلاد الكُردية إرتباطاً عضوياً بالموضوع، ولكن بسبب عدم توفر المصادر المسيحية لدينا، ولاسيما المتعلقة بهذه الفترة، وقلة إهتمام المصادر الإسلامية بالتاريخ المسيحي ليست لدينا معلومات كثيرة بصدد العلماء المسيحيين في الدولة الدوستكية:

إيليا برشنايا النسطوري مطران نصيبين(٦٤)

كان إيليا من كبار العلماء المسيحيين ومن المؤلفين المعروفين في عصره. ولد سنة (٣٦٤هـ = ٩٧٤م) في مدينة (السن – قرديلاباد) غربي دجلة قبالة مصب الزاب الصغير في دجلة. أصبح أسقفاً لباهذرا في عام (٣٩٢م) ثم مطراناً لنصيبين عام (٣٩٩هـ = ١٠٠٩م). كان متضلعاً في علوم عديدة تشهد على ذلك مؤلفاته ومناظراته العلمية مع الوزير أبي القاسم المغربي، التي حدثت بينهما بمدينة نصيبين في سبعة أيام. وقد دوَّن إيليا كل ما دار في تلك المناظرات في كتاب عرف بإسم (مجالس إيليا) وبـ(الرسائل الجدلية) أيضاً، وكان ذلك في سنة ٤١٧هـ = ١٠٢٦م). كان إيليا شخصية محترمة في الدولة، وخاصة أنه كان أخا الطبيب زاهد العلماء منصور بن عيسى طبيب نصرالدولة ورئيس مستشفى فارقين. كان له أكثر من عشرين مؤلفاً، منها (كتاب الأزمنة) وهو يتكون من جزئين الأول في التاريخ، والثاني في الحساب والتقاويم. والقسم السرياني من الكتاب مؤلف بالسريانية

(٦٢) ذكر ابن الجوزي في (المنتظم، حوادث سنة ٤٥٥هـ): ان أبا الفرج الخازن سقى الأمير سعيد بن نصرالدولة السم فمات بدياربكر، فإقتص نظام الدين من ابي الفرج وقتله. علماً أنه ورد خطآن في كلامه بصدد وفاة الأمير سعيد وبصدد كون نظام الدين هو نصر بن سعيد، ولعل الخطأ الأخير حدث من قبل النسّاخ. ومضى في الجزء الأول من الدولة الدوستكية، ص٢٧٨ من أن سعيداً مات مسموماً من قبل جارية نقلاً عن الفارقي.

(٦٣) تاتي علاقة الوزير المغربي بالموضوع من حيث انه السبب الثاني في إرسال إبن القارح رسالته الى المعري، اذ بلغه ان المعري متذمر منه لما بلغه ان ابن القارح يذم المغربي بعد وفاته، وكانت بينهما صداقة متينة حتى إن المعري كان يتعصب للمغربي، فأراد برسالته أن يوضح له أخلاق صديقه المغربي.

(٦٤) يعرف أيضاً بإيليا ابن السنى، والأخير تعريب (برشنايا). وإسم أبيه عيسى ومعنى برشنايا ابن السن أي بلدة السن التي ولد فيها.

والعربية، وفي مكتبتي نسخة مصورة منه على مخطوطة هذا الكتاب الكبير الموجودة في المكتبة البريطانية بلندن (BRITISH LIBERARY) تحت الرقم (٧١٩٧). وقد نشر كل من كابوت وبروكس دراسة حول تاريخه هذا في باريس سنة ١٩٠٩-١٩١٠. وقام الدكتور يوسف حبي بتعريبه وطبعه مجمع اللغة السريانية ببغداد سنة ١٩٧٥ بعنوان (تاريخ إيليا برشنايا). وله كتاب آخر في الموازين والمقاييس، كتب (سوفيرا) دراسة حول هذا الكتاب ونشرها سنة (١٨٧٧) وترجمها الى الفرنسية، وتوجد نسخة كاملة منه في جوتا، كما كتب (فيدمان) تحليلاً له سنة (١٩١٦). ولإيليا مؤلفات أخرى بالسريانية والعربية(٦٥).

يوحنا ابن شوشان:

ولد في ملاطيه وإسمه يوشع الكاتب من أساتذته البطريرك يوحنا التاسع. برع ابن شوشان في العلوم اللغوية والدينية وفي الفلسفة. كان بليغاً وخطاطاً أصبح بطريركاً لليعاقبة (السريان الغربيين) في مدينة دياربكر (آمد)، التي نقل اليها مقر الكنيسة اليعقوبية من انطاكية في أواخر عهد الأمير نصرالدولة. وفي سنة (١٠٥٨م) بالذات سمي (يوحنا)، ثم اعتزل ثم اعيد الى منصبه الديني الأعلى سنة (١٠٦٣م)، وكان حسن السيرة والإدارة وعين سبعة عشر مطراناً وأسقفاً.

لإبن شوشان مؤلفات عديدة منها مقالة نقض فيها مذهب الملكيين، ورسالة علمية مجمعية الى بطريرك الأقباط، ورسالة جدلية الى جاثليق (بطريرك) الأرمن. وله أربعة قصائد في نكبة ملاطية

(٦٥) من مؤلفاته أيضاً القاموس السرياني العربي، وكتاب البرهان الصحيح في تصحيح الإيمان، والمعونة على دفع التهم، وتوجد منه نسخة مخطوطة بالسريانية بإسم (المعرفة عند دفع التهم) في مكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد تحت الرقم (٣٤٣)، وفضيلة العفة، والحكم النافعة طبع في القاهرة من قبل أحد المستشرقين وهو (بولوسبات) سنة ١٩٣٦، ورسالة في حدوث العالم، ورسالة في الصلاة، ورسالة في المواريث، ورسالة في وحدانية الخالق، ومقدمات على الأناجيل، وخمسة شكوك وأجوبتها، وفرائد الفوائد، ورسالة رد بها على رسالة لوزير نصرالدولة ابي القاسم المغربي وهي غير مجالس إيليا، وحل بعض المسائل الإنجيلية. وله مؤلفات أخرى بالسريانية بحيث أن مجموع مؤلفاته المعلومة لدينا (٢٤) مؤلفاً وأثراً علمياً. وقد ذكر البطريرك أفرام برصوم في كتابه القيم (اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والاداب السريانية، ص١٢٦): "ان لإيليا كتاب الترجمان وكانت توجد نسخة منه بخط عبديشوع أسقف (مدنية) الجزيرة سنة ١٥٤٧ في خزانة أفرام برصوم أو خزانة البطريركية اليعقوبية". ولا ندري هل انه قاموسه السرياني أو كتاب غيره.

توفي إيليا يوم الجمعة المصادف العاشر من محرم (٤٣٨هـ = ١٠٤٦م) ودفن جثمانه بجانب قبر أخيه رئيس الأطباء أبي سعيد منصور بن عيسى. من مطارنة الدولة إيشوعياب مطران نصيبين المتوفي سنة (٣٨٣هـ = ٩٩٣م) ومنهم يهبهالا الذي أسيم مطراناً لنصيبين إثر وفاة المطران إيشوعياب، وكان قبل ذلك أسقفاً لأبرشية نوهدرا، التي تشمل منطقة دهوك وزاخو. توفي يهبهالا سنة (٣٩٨هـ = ١٠٠٨م) وأصبح بعده إيليا مطراناً لنصيبين. ذكرهما إيليا في تاريخه (ص٢٠٠-٢٠٣) وذكر أيضاً (مارگربيل) أسقف (أرزن) الذي أسيم مطراناً لأربيل وآثور (أي منطقة الموصل) وذلك سنة (٤٠٣هـ = ١٠١٣م). لقد ذكر أيضاً في (ص٢٠٥) أبا الحسن بن يسرايل الكاتب النصراني الذي قتل من قبل سكان نصيبين سنة (٤٠٨هـ = ١٠١٨م) في يوم الأحد السابع عشر من جمادى الاخرة. ولم يذكر ابن شوشان سبب قتله، ولكنه قال أن الأمير أبا الفضل حسام الدولة (يقصد بدران بن المقلد العقيلي المتوفي سنة ٤٢٥هـ) غضب على سكان نصيبين وقاتلهم وقتل منهم أناساً كثيرين وصادر جماعة منهم وبدأ بعمارة قلعة نصيبين في نفس السنة، فمن المحتمل أن أبا الحسن بن يسرايل كان كاتباً لأبي الفضل أو أحد موظفيه المعتمدين.

على أيدي الأتراك السلاجقة، أي بصدد الجرائم التي إرتكبوها في هذه المدينة وذلك في سنة (١٠٥٨م)، وتوفي سنة (١٠٧٢م) في السادس من تشرين الثاني[٦٦].

علماء مسيحيون آخرون

من العلماء المسيحين أيضاً عبديشوع، الذي كان أسقفاً لثمانين (هەشتيان) وتوابعها من منطقة جبل الجودي، وذلك في سنة (٤٦٧هـ = ١٠٧٥م). وإيشوعيب أسقف الجزيرة في السنة المذكورة أيضاً[٦٧]. ويوحنا أسقف الجزيرة في أوائل القرن الربع الهجري (العاشر الميلادي)، وجبريل الشماس الذي كان أسقفاً لغرزان (أرزن) وتوابعها، والذي عُيّن مطراناً للموصل سنة (٤٠٣هـ = ١٠١٣م)[٦٨].

وفي أواخر العهد الدوستكي عين عبديشوع الجاثليق مطراناً في نصيبين وإستدعي الى بغداد في مهمة دينية، ولكنه تأخر سنتين لأنه كان في مدينة فارقين التي كانت خلال تلك المدة محاصرة بالقوات السلجوقية، وكان عبديشوع معروفاً بإبن العارض[٦٩]. من العلماء المسيحين أيضا (مار برصوما)، الذي كان من قرية الزيدية بنصيبين ودرس على المطران إيليا، ثم سافر الى مدينة دياربكر وأقام خمس سنوات في بيت النخوار بدياربكر، ثم عُين أسقفاً لمرعيثية ثمانين (هەشتيان) في أول جثلقة مار إيليا[٧٠].

وكانت أسرة النخوار أسرة مسيحية متمكنة حتى زمن الفارقي، أي النصف الأخير من القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي)، ونشأ منها إبن الخمار الذي عينه نصرالدولة كاتباً لإبنه الأمير محمد في دياربكر سنة ٤١٥هـ = ١٠٢٤م).

الطب

بجانب إهتمام الدولة الدوستكية بالحياة الإقتصادية والعمرانية، فقد إهتمت بالعلوم ومن جملتها الطب وذلك لحاجة البلاد اليه، فأكرمت الأطباء وعززت مكانتهم وشجعتهم على ممارسة مهنتهم سواء بمداواة المرضى، أو بتركيب الأدوية وتحضيرها أو بتأليف الكتب القيّمة فيه وتزويد مستشفى فارقين

(٦٦) أفرام برصوم، اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية، ص٣٦٧. واتخذ البطريرك يعقوب الثالث سنة ١٠٧٢م بداية لعهد البطريركية ابن شوشان والصحيح انها نهايته ولعل الخطأ مطبعي. راجع كتابه (الحقائق الجلية، ص٧٢). بصدد جرائم السلاجقة في ملاطيه. راجع (تاريخ الرهاوي المجهول، ص٢٣) مطبوع على الالة الكاتبة بمجمع اللغة السريانية ببغداد، ترجمة الأب پير أبونا، وفيه أن السلاجقة قتلوا عشرة آلاف شخص من ملاطية.

(٦٧) فطاركة كرسي المشرق، ص١٣٠.

(٦٨) نفس المصدر، ص١١٣.

(٦٩) نفس المصدر، ص١٢٧

(٧٠) نفس المصدر، ص١٥٣.

ومدرستها الطبية بتلك المؤلفات.

لقد دفع تشجيع الدولة للأطباء وتقديرها لهم الى توجه عدد منهم الى كُردستان والإقامة فيها. فشيدت الدولة في عهد نصرالدولة مستشفى (بيمارستان) كبيراً في عاصمتها على أحدث طراز المستشفيات في عصرها. وزودته بكافة أدوات الطب ووسائله، كما زودته بالأدوية والعقاقير المعروفة آنذاك، ووقفت على هذا المستشفى الأملاك والعقارات الكافية بسد نفقاته والكفيلة بالحفاظ على بقائه فترة من الزمن. فكانت للمستشفى بهذه الصورة ماليته الخاصة.

من المحتمل جداً أن مستشفى فارقين كان مقسماً الى أجنحة مختلفة للباطنية والعيون والكسور وغيرها، كالمستشفى العضدي في بغداد، الذي شيده الملك البويهي عضدالدولة وعين فيه (٢٤) طبيباً وكان أكبر مستشفيات عصره. ويحتمل أن الدولة الدوستكية، بحكم توسطها بين البلاد الإسلامية والبلاد البيزنطية المسيحية إستفادت من الجانبين في مجال الطب والمجالات الأخرى.

تأسيس مستشفى فارقين

ذكر الفارقي في (ص١٢٣) ان نصرالدولة بنى البيمارستان أي المستشفى سنة (٤١٤هـ) في العاصمة فارقين، ولم يزد على هذا المقدار القليل الذي لايستهان به في قيمته التاريخية. لكن الطبيب والمؤرخ المحقق -ابن ابي اصيبعة- قد خلّد لنا معلومات قيمة بخصوص تأسيسه من قبل الأمير نصرالدولة إثر شفاء إحدى بنات الملك الدوستكي من مرض شديد، وذلك على يد الطبيب الماهر زاهد العلماء، وذكر ذلك في قصة طريفة. وإليك ما قاله هذا المؤرخ على ما تحدث له الطبيب سديد الحاني الذي ذكرناه في موضوع الصناعات الميكانيكية: "وحدثني الشيخ سديدالدين بن رقيقة الطبيب سبب بناء بيمارستان ميافارقين هو ان نصرالدولة بن مروان لما مرضت ابنة له وكان يرى لها كثيراً فآلى على نفسه انها متى برئت ان يتصدق بوزنها دراهم، فلما عالجها زاهد العلماء وصلحت اشار على نصرالدولة ان يجعل جملة هذه الدراهم التي يتصدق بها تكون في بناء بيمارستان ينتفع الناس به ويكون له بذلك أجر عظيم وسمعة حسنة. قال فأمره ببناء البيمارستان وانفق عليه أموالاً كثيرة ووقف له أملاكاً تقوم بكفايته وجعل فيها من الآلات وجميع ما يحتاج اليه شيئاً كثيراً فجاء لا مزيد عليه في الجودة"(٧١).

(٧١) ابن ابي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ج٢، ص٢٥٨. اشير بهذه المناسبة الى المخطوطة (قصة إبنة ملك فارقين) كي يكون الباحث على علم بمحتوى هذه القصة ولا يظن انها قصة ابنة نصرالدولة، قصة مرضها الذي أصبح سبباً لبناء مستشفى فارقين. وجدت في كتاب رسائل أحمد تيمور الى الكرملي، جمع ونشر الأستاذ گورگيس عواد، ان العالم الكُردي الاصل احمد ابن اسماعيل باشا يخبر الاب انستاس الكرملي في احدى رسائله ان لديه مجموعة مخطوطة تضم (٣٧) قصة من بينها قصة إبن ملك ميافارقين، فظننت انها قصة ابنة نصرالدولة، وعلمت ان ذلك الكتاب او المجموعة هي الآن في مكتبة تيمور بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة تحت رقم (١٥). فأرسلت كتاباً الى الأستاذ الفاضل الدكتور محمد الشنيطي مدير دار الكتب ملتمساً منه أن يزودني بنسخة مصورة. فزودني بها مشكوراً وهي تقع في (١١) صفحة. ولما أطلعت عليها ظهر لي ان هذه القصة مروية عن اسحق النديم حكاها=

لاشك أن مستشفى فارقين هذا كان يتمتع بأهمية تاريخية وحضارية كبيرة. أما الذي أشرف على بناء المستشفى فحسب قول ابن ابي اصيبعة انه كان زاهد العلماء (أبا سعيد). أما الفارقي فعبارته غير واضحة. إذ عندما قال ان نصرالدولة بنى البيمارستان وجدد الجامع أردف ذلك بقوله: "وتولى عمارته أبو السعيد الكبير الكاتب ابن بختيشوع الخازن". فلا ندري الى أي منهما يعود ضمير الغائب في عبارته. وأخذنا بـ(القريب أولى من البعيد) فذكرنا سابقاً انه تولى تجديد الجامع. وان كان القصد بالمرجوع اليه (البيمارستان)، فإنه إلتبس بين (أبي سعيد زاهد العلماء) و(أبي السعيد بن بختيشوع)، ولذلك نرجح قول ابن ابي اصيبعة. ولكن يمكن الجمع بين الإثنين وذلك بأن جعل زاهد العلماء بانياً وإبن بختيشوع مشرفاً على البناء، خاصة إن كان ابن بختيشوع هذا الطبيب أبا سعيد عبيدالله ابن بختيشوع. ومعروف بأن اشراف طبيب على بناء المستشفى مراعاةً للجوانب الصحية في البناء أولى من إشراف غير الطبيب. هذا ويحتمل جداً أن الدولة الدوستكية أسست مستشفيات أخرى

=لهرون الرشيد وبطلة القصة هي (شمس النهار) بنت ملك ميافارقين. أما بطلها فأحمد بن علي الجوهري، الذي كان حسبما في القصة ابن احد تجار بغداد البارزين واحد النابغين سمع ان الملك قرر ان يزوج إبنته الشهيرة بجمالها وعلمها وذكائها لكل من يجيب على أسئلتها العلمية في محفل يحضره هو وكبار رجال دولته والقضاة والعلماء... ومن عجز عن حلها قتله. فيأتي بطل القصة الى فارقين ويجيب في إجتماع كبير على أسئلتها، ثم يزوجه إياها الملك ويجعله ولي عهده كما هو مفصل في القصة.

أخبرني الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى الأستاذ بجامعة الكويت في رسائله أنه توجد عدة قصص في أواخر النسخة المصورة من النسخة المخطوطة من تاريخ الفارقي التي يمتلكها. فطلبت منه تزويدي بها إن كان لها علاقة بالدولة الدوستكية او المجتمع الكُردي، ولكنه أخبرني بعدم علاقتها بهما. وكان في نيتي ان افرد موضوعاً للجانب الفولكلوري من التاريخ الدوستكي. إذ أن بعض القصص الكُردية الحية في كُردستان الآن، يعود تاريخها الى عهد الدولة الدوستكية، مثل قصة زواج الأمير أحمد بن نظام الدين في الأسر وإعطائه علامة لزوجته البيزنطية او الفرنجية عندما رجع الى كُردستان، كي تعطيها لولده الطفل اذا كبر ليعود الى كُردستان ويبحث عن والده. ولما كبر ابنه وكان قد سماه محمداً، اخذ العلامة واقبل من البلاد الافرنجية (الأوروبية) الى كُردستان ليبحث عن والده. فوجده أميراً في قلعة هتاخ، وزوجه ابوه ورزق ولدين هما الامير ابراهيم والامير حسن، وقد رآهما المؤرخ الفارقي الذي روى في (ص٢٥٣) هذه القصة الطريفة، التي نجد ما يشابهها في الأفلام السينمائية. وأصبحت قصة الأمير احمد هذه معروفة في كُردستان يتناقلونها جيلاً بعد جيل. راجع الجزء الأول، ص٣٤٥-٣٤٦. هذا علماً بأن الامير احمد الذي وصفه الفارقي بالفروسية وصاحب المقامات البطولية الشهيرة أُسر في قلعة انطاكية في الحروب الصليبية، وذلك في ٢٨ حزيران ١٠٩٨م ، إثر فشل الحملة القوية التي قادها كربوقا السلجوقي على القوات الصليبية في أنطاكية. وكان الأمير احمد قائداً لقوات القلعة المطلة عليها. ويرى ستيفن رنسيمان، ان الامير احمد كان على إتصال سابق بالقائد الصليبي بوهمند، فإستسلم له وإعتنق الديانة المسيحية. راجع كتابه، الحروب الصليبية، ج١، ص٣٥٤. وإن كان هذا صحيحاً، فإن هدف إنضمامه الى القوات الصليبية ربما كان لإحياء دولته إذا تمكنوا من إحتلال كُردستان الوسطى، علماً بأن نفوذهم وصل الى حدودها.

أما قصة (زەمبیل فرۆش) الشهيرة في كُردستان ، فهي الأخرى تعود الى عهد الدولة الدوستكية. ويتضح من القصة المطبوعة أن زەمبیل فرۆش هو الأمير سعيد بن الأمير حسن (والصحيح بن نصرالدولة). وقد ذكر بسري كونيار في ج٢، ص٣٠٨ و٣١٩ ان القصة حدثت في فارقين على ما هو مشهور بين سكانها. وقد أشرت الى هذا بموجز في الجزء الأول، ص٣٦٦، ولكني كتبت تحقيقاً مفصلاً بهذا الخصوص ترجمه الى اللغة الكُردية السيد أحمد تاقانه أحد الأدباء الكُرد ونشره في جريدة (هاوكاري) العدد(١٨٨). وفي آب صورت قلعة زمبيل فروش في فارقين حسبما يسميها السكان، وهي الجدار الشمالي من (برج الملك) الذي كان فيه قصر نصرالدولة.

في بلادها، لاسيما في المدن المهمة، ولكن لم يصل إلينا أي نص تاريخي بهذا الصدد.

إذا ألقينا نظرة على مستشفى فارقين، نجد أنه قد بقي عامراً رغم عواصف الزمن الى عهد مؤرخنا أحمد بن يوسف الفارقي. اذ وجد الأمير ابا سعيد بن الأمير حسن بن نصرالدولة راقداً فيه لمعالجة عينة، حيث أصيبت بالعمى(٧٢).

يحتمل أن المستشفى ظل عامراً الى زمن ابن ابي اصيبعة المتوفي سنة (٦٦٨هـ = ١٢٧١م)، أي حوالي ثلاثمائة سنة من تاريخ بنائه، لأنه حينما يتحدث عن هذا المستشفى لايذكر انه اتي عليه الخراب، رغم قوله أنه زار مدينة فارقين. من أسباب بقاء المستشفى عامراً بعد زوال الدولة الدوستكية بمدة طويلة، فيعود الى أوقافه التي أوقفها عليه نصرالدولة. لأن واردات أوقاف المستشفى تكفلت بسد نفقاتها والمحافظة عليها لصرفها على الترميمات وشراء الأدوية والآلات والأجهزة الطبية وطعام المرضى. كما يعتقد ان رواتب الأطباء والمستخدمين كانت تدفع من واردات أوقافه وهي مالية المستشفى الخاصة. ولما كانت ولا تزال أملاك الوقف لدى المسلمين يحرم إغتصابها وبيعها وصرف وارداتها في غير وجهها الشرعي فإنها تبقى قروناً عديدة، فيبقى بواسطتها الموقوفة عليه من المساجد والجسور والمستشفيات وغيرها. لأن تلك المنشآت كانت تُعمر بواردات تلك الأوقاف عند الحاجة. ولهذا السبب إتخذ نصرالدولة المحب للإعمار والبناء كثيراً من القرى والعقارات وقفاً على المساجد والجسور والأسوار والمدن وغيرها، حرصاً منه على بقائها زمناً طويلاً آثاراً خالدة من حضارة تلك الدولة الكُردية.

مدرسة الطب

كانت مسشفى فارقين تشتمل على جناح خاص لتدريس علم الطب مما نستطيع تسميته بـ(مدرسة الطب)، وإعتبارها لذلك أقدم مدرسة طبية في كُردستان. وقد سماها ابن ابي اصيبعة بـ(مجلس العلم). وكان الطب يدرّس في المستشفيات، كما ان علوم الفقه والحديث والتفسير والعلوم العربية وغيرها كانت تُدرَّس حتى ذلك الحين في المساجد والجوامع والرُبط. إذ لم تكن في البلاد الإسلامية مدارس مستقلة ومنفصلة عن الجوامع والمستشفيات. كما لم تكن لدى المسيحيين مدارس مستقلة عن الأديرة والكنائس. وقد أجمع المؤرخون تقريباً على أن أول من بنى المدارس في الإسلام مستقلة عن المساجد، كان نظام الملك الطوسي وزير الملك السلجوقي ألب أرسلان، ثم توزر لملكشاه وذلك في النصف الأخير من القرن الخامس الهجري. وقد أورد التاريخ ذكر مدارس محدودة قبله، كمدرسة العالم المشهور إبن فورك المتوفي سنة (٤٠٦هـ)، والمدرسة البيهقية في نيسابور نسبة الى البيهقي المحدث المشهور المتوفي سنة (٤٥٠هـ). ولكن نظام الملك يعتبر أول من بنى المدارس، لأنه شيد مدارس كثيرة في البلاد، وكان ينفق في سبيل العلم سنوياً (٦٠٠) ألف دينار(٧٣)، حتى إنه شيد

(٧٢) تاريخ الفارقي، ص١٨٥.
(٧٣) تاريخ التمدن الإسلامي، ج٣، ص١٩٦.

مدرسة في مدينة الجزيرة(٧٤) التي تعد أقدم مدرسة مستقلة بهذا المعنى في كُردستان. ويحتمل أن نظام الملك بنى تلك المدرسة أثناء قدومه الى البلاد الدوستكية مع ألب أرسلان في سنة (٤٦٣هـ = ١٠٧٣م) أو إثر القضاء على الحكم الدوستكي.

بصدد كون المستشفيات تضم قديماً مدارس الطب، نورد فيما يلي ما ذكره المؤرخ جرجي زيدان: "مارستان أوبيمارستان لفظ فارسي معناه مكان المرض ويقابله اليوم المستشفى، ولكن المارستان كانت في التمدن الإسلامي تشمل مدارس الطب والمستشفيات معاً لأنهم كانوا يعلمون الطب فيها"(٧٥). و"كان رئيس الأطباء يجلس لإلقاء درس الطب"(٧٦).

فعلى هذا كان في مستشفى فارقين مدرسة طبية يدرّس فيها الأطباء علم الطب، ومنهم زاهد العلماء رئيس المستشفى. فقد كان يلقي في المدرسة، التي عبّر عنها ابن ابي اصيبعة بـ(مجلس العلم)، المحاضرات الطبية، وقد جمع محاضراته تلك فشكلت الجزء الثاني من كتابه (الفصول والمسائل والجوابات)، الذي ألفه في فارقين. وبهذا الصدد قال إبن أبي أصيبعه: "... ولزاهد العلماء من الكتب كتاب البيمارستانات وكتاب في الفصول والمسائل والجوابات وهو جزءان، الأول يتضمن ما أثبته الحسن بن سهل مما وجد في خزانته من رقاع وكراريس وأدراج وغير ذلك من المسائل والجوابات. والجزء الثاني على جهة الفصول والمسائل وجوابات أجاب بها في مجلس العلم المقرر في البيمارستان الفارقي"(٧٧).

لاشك أن مدرسة الطب في فارقين، التي كانت ترعاها الدولة، كان لها دور في نشر الطب وتخريج الأطباء وإزدياد عددهم في كُردستان. والجدير بالذكر أن مدارس الطب في العالم الإسلامي، بما فيها مدرسة فارقين، كان التدريس فيها على منهجين، منهج نظري في المدراس الطبية ومنهج علمي للتدريب والتمريض يجتمع فيه الطلاب حول رئيس الأطباء. فيرون كيف يفحص المرضى وما يصف لهم من علاج. وإذا إجتاز الطلاب مدة الدراسة تقدموا للإمتحان ونالوا الشهادة، ولكنهم كانوا تحت رقابة الدولة في ممارستهم دائماً. أما مسألة اليمين، فقد كانت قديمة حيث كان الطبيب اليوناني أبقراط يستحلف الطلاب قبل أن يبوح لهم بأسرار الطب(٧٨). وكان هذا النهج يطبق دون شك في مدرسة فارقين الطبية.

(٧٤) ابو شامة، كتاب الروضتين في اخبار الدولتين، ج١، ص٢٥، طبع مصر ١٢٨٧هـ.
(٧٥) جرجي زيدان تاريخ التمدن الإسلامي، ج٣، ص١٩٦ وكذا قاله جاك. س. ريسلر.
(٧٦) جاك. س. ريسلر، الحضارة العربية، ص١٩٤.
(٧٧) إبن أبي أصيبعه، طبقات الأطباء، ج٢، ص٢٥٨..
(٧٨) الدكتور عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، ص٨٨، ٢٧٦.

الأطباء

لقد قام أطباء مستشفى فارقين ومدرستها الطبية بدورر فعال في مجال التأليف في علم الطب. فبجانب نشاطاتهم في معالجة المرضى ونشر الطب في البلاد، ألفوا الكتب في كيفية تحضير الأدوية وتركيبها (أقراباذين)(٧٩) وفي المستشفيات وتنظيمها. كما ألفوا الكتب في بعض الأمراض كأمراض العيون وطرق معالجتها، وفي أسماء الأمراض وإشتقاقاتها، وفي القضايا الجنسية من الناحية الصحية، وفي الطرق التمهيدية لتعلم الطب بالنسبة للطلاب، أي في أصول تعليم الطب. فقد ألف الطبيب ابن دينار كتاباً قيماً في تحضير الأدوية، وألف رئيس الأطباء زاهد العلماء كتباً في البيمارستانات وفي الطرق التمهيدية لتعلم الطب، وفي أمراض العيون وكيفية معالجتها. كما ألف الفضل بن جرير التكريتي في أسماء الأمراض وألف أخوه أبو نصر في القضايا الجنسية من الناحية الصحية وفي التاريخ والنجوم.

وأما الأطباء الذين عثرنا على أسمائهم وعلى نبذة من حياتهم وأعمالهم، والذين مارسوا الطب في الدولة الدوستكية، فكلهم مسيحيون ماعدا ابن دينار، حيث لا نستطيع البت في كونه مسيحياً لأننا لم نجد نصاً يدل على ذلك. هذا في حين أن إحتمال كون المذكور مسيحياً أكثر توقعاً من غيره، وأذكر في هذا الموضوع نبذة عن حياة كل واحد من هؤلاء الأطباء إجلالاً لهم وإكمالاً للموضوع نفسه.

جبرائيل بن بختيشوع

هو الطبيب أبو عيسى جبرائيل بن عبدالله بن بختيشوع بن جبرائيل، كان من أسرة بختيشوع السريانية الشهيرة(٨٠) في تاريخ الطب وأقدم أطباء الدولة الدوستكية الذين نعلم بهم. قدم الى البلاد الدوستكية سنة (٣٩٠هـ = ١٠٠٠م) في عهد ممهدالدولة سعيد بن مروان قبل تأسيس مستشفى فارقين. كان والده طبيباً للخليفة العباسي المقتدر. درس الطب في بغداد على يد الطبيب هرمزد وعلي بن يوسف الواسطي. برع في الطب وذاع صيته وعلت منزلته عند الملك البويهي عضدالدولة، الذي قرّبه إليه. كان من الأطباء العاملين في البيمارستان العضدي ببغداد، ولما مرض الوزير العالم (الصاحب بن عباد) في مدينة الري (طهران القديمة)، إختاره عضدالدولة من بين أطباء بغداد لإجادته اللغة الفارسية ومهارته في المعالجة، وأرسله ليداوي الوزير. وجمع إبن عباد العلماء لمناظرته، فأظهر جبرائيل تضلعاً في علم الطب بما أعجب الحاضرين، فخلع عليه وطلب منه أن يؤلف

(٧٩) ورد في دائرة المعارف الإسلامية، ج٢، ص٤٦٣، طبع طهران. أن كلمة (أقراباذين) اخذت من الكلمة السريانية (جرافاذين) وأصلها يونانية تعني الرسالة الصغيرة، وقد عرّفها عيسى بن علي بأنها رسم الأدوية أو النسك أو المجموع. والحاصل أن أقراباذين هو الكتاب المؤلف في الأدوية الطبية كما يفهم من كلام إبن أبي أصيبعه في الترجمة التالية لحياة إبن دينار. وفي كشف الظنون، ج١، ص١٣٦ ان أقراباذين لفظ يوناني بمعنى التركيب أي تركيب الأدوية وقوانينها.

(٨٠) لفظ (بَختيشوع) بفتح الباء وسكون الخاء وكسر التاء وسكون الياء، إسم سرياني بمعنى (عبدالمسيح). راجع (المساعد، ج٢، مادة «بختيشوع».

له في الطب (كُناشاً)(٨١) يختص بذكر الأمراض العارضة من الرأس الى القدم. فألف له كتاب (الكناش الصغير) في مائتي ورقة، فأجازه بما قيمته ألف دينار. عاد بعد ذلك الى بغداد في غلمان وثروة، فسُرّ بذلك عضدالدولة وخرج أطباء بغداد لإستقباله. وبعد ثلاث سنوات أرسله عضدالدولة الى بلاد الديلم لمعالجة خسروشاه، وطلب منه الأخير أن يؤلف تقريراً في كتاب عن المرض الذي أصيب به. فألف (مقالة) في ألم الدماغ بمشاركة فم المعدة والحجاب الفاصل بين آلات الغذاء وآلات التنفس.

رجع جبرائيل الى بغداد ثم سافر الى بيت المقدس وطلب منه الخليفة الفاطمي (العزيز بالله) أن يتوجه الى مصر ويقيم عنده ولكنه رفض الطلب. وكانت له رجوع وأسفار أخرى، الى أن لاطفه أخيراً ممهدالدولة. فذهب الى فارقين في سنة (٣٩٠هـ = ١٠٠٠م) حيث لقي تقديراً كبيراً هناك(٨٢)، وظل يمارس الطب في العاصمة الدوستكية الى أن توفي سنة (٣٩٣هـ = ١٠٠٢م) بعد أن بلغ من العمر خمساً وثمانين سنة، ودفن في المصلى خارج سور فارقين.

وللطبيب جبرائيل بن بختيشوع عدا المؤلفات المذكورة، مؤلف الكناش الكبير في خمس مجلدات وهو أهم مؤلفاته الطبية، وكان من المؤلفات الطبية التي إعتمد عليها الأطباء وإستفادوا منها. وله مقالة في إسقاط البدن ألفه لإبن عباد بناءً على طلبه أثناء رجوعه من عند خسروشاه، وكتاب المطابقة بين قول الأنبياء والفلاسفة، ورسالة عصب العين، ومقالة في الدم، ومقالة في الرد على اليهود، وله مقالات وآثار أخرى(٨٣).

عبيدالله بن بختيشوع

هو أبو سعيد عبيدالله إبن الطبيب جبرائيل المذكور، ولعله بعد وفاة والده لم يغادر كُردستان، بل ظل يمارس الطب في فارقين. ويحتمل أنه درس الطب على يد والده حتى أصبح من الأطباء البارزين ومن أصحاب المؤلفات العديدة. كان فاضلاً في صناعة الطب مشهوراً بجودة الأعمال متقناً لأصولها وفروعها ومن جملة المتميزين. كان جيد المعرفة بعلوم النصارى ومذاهبهم، وله عناية بالغة بصناعة الطب، وله تصانيف منها:

١- مقالة في الإختلاف بين الألبان ألفها لبعض أصدقائه سنة ٤٤٧هـ.

٢- كتاب مناقب الأطباء: ذكر شيئاً من أحوالهم ومآثرهم ألفه سنة ٤٢٣هـ.

(٨١) الكُناش، كلمة سريانية معناها المجموعة أو المذكرات سمى بعض الحكماء كتبهم بالكناش. راجع الخفاجي (شفاء الغليل، ص١٩٩).

(٨٢) ذكر القطفي قصة طريفة وقعت بين جبرائيل وممهدالدولة وخلاصتها، أنه أعطي له دواءً مسهلاً في إحدي الليالي. ولما زاره في الصباح قال ممهدالدولة ممتحناً له لم يكن للدواء أي تأثير، فقال الطبيب لابد أنه يعمل معك خمساً وعشرين مرة، ثم إعترف الممهد بتأثيره فغضب الطبيب من إمتحانه له، لأنه طبيب شهير لا يحتاج الى إمتحان فشد رحله ليغادر فارقين، فأبلغ ممهدالدولة بذلك، فجاء إليه وإعتذر منه وأعطاه بغلة ومبلغاً من النقود فقبل إعتذاره ولم يسافر.

(٨٣) إبن أبي أصيبعه، طبقات الأطباء، ص٢٠٩-٢١٤.

٣- كتاب الروضة الطبية: كتبه الى أبي الحسن محمد بن علي، وقد طبع بمصر سنة ١٩٢٧ ويقع في (٥٠) باباً مثل الجنس والفصل والجوهر والفكر والحركة والزمان والمكان و الكم والكيف وغيرها. وهذا الكتاب كما ذكره المؤلف في مقدمته مختصر لكتابه تذكرة الحاضر.

٤- كتاب التواصل الى حفظ التناسل، ألفه سنة ٤٤١هـ.

٥- رسالة الى الأستاذ أبي طاهر بن عبدالباقي المعروف بإبن قرطمين، جواباً على مسألته في الطهارة ووجوبها.

٦- رسالة في بيان وجوب حركة النفس.

٧- كتاب نوادر المسائل المقتضبة من علم الأوائل في الطب.

٨- كتاب تذكرة الحاضر وزاد المسافر.

٩- كتاب الخاص في علم الخواص.

١٠- رسالة في تاريخ حياة جالينوس حقق فيها مفصلاً فيما إختلف فيه المؤرخون بصدد حياته واعتمد على الرسالة القفطي في ترجمة حياة جالينوس.

١١- منافع الحيوان: ذكره إبن أبي أصيبعه بإسم طبائع الحيوان وخواصها ومنافعها وأضاف بأنه ألفه للأمير نصرالدولة(٨٤) وتوجد الآن نسخ عديدة من هذا الكتاب، الذي لقي الشهرة والإستحسان. وقد تمت ترجمته الى الفارسية، كما عني به المصورون في القرون الوسطى حيث يعتبر بنسخه العديدة من المخطوطات المهمة المزوقة بالرسوم، وفي مكتبتي نسخة مصورة من هذه المخطوطة(٨٥). وفي الصفحة التالية صورة الصفحة الخامسة منها وفيها يشاهد السلطان محمود غازان على عرشه وحوله خدمه، وصورة أخرى لحيوانين من (منافع الحيوان).

الجدير بالذكر أن الفارقي ذكر شخصاً بإسم أبي سعيد الكبير الكاتب بن بختيشوع الخازن(٨٦)، ولكنه لم يشر الى كونه طبيباً، ومن المحتمل أنه هو عبيدالله. وفي مخطوطة (الأعلاق الخطيرة) أبو سعيد حرث بن بختيشوع، وهو الذي بنى بيمارستان (مستشفى) فارقين(٨٧). كان عبيدالله مؤرخاً

(٨٤) إبن أبي أصيبعه، طبقات الأطباء، ص٢١٤، طبع بيروت، ١٩٦٥.

(٨٥) في مكتبتي نسخة مصورة من منافع الحيوان، والنسخة الأصلية موجودة في نيويورك بمكتبة (مورگان) تحت الرقم (M500)، والنسخة الفارسية ترجمها من العربية عبدالهادي بن محمد محمود المراغي بأمر من السلطان محمود غازان حفيد هولاكو. تقع المخطوطة في (٨٣) ورقة وتحتوي على (١٠٠) لوحة فنية لرسوم حيوانية وآدمية مختلفة عدا الزخارف. وقد قام بتصوير النسخة أكثر من رسام وعلى النسخة ختم الأمير الكُردي البدليسي شمس الدين بن ضياء الدين الروشكي وكتبت سنة ٦٧٤ أو٦٧٧ أو ٦٩٩هـ، إذ أن رقم الأحاد مشوه لا يظهر منه سوى حرف العين، والروشكي ليس مصوراً على ما أخطأت في الطبعة الأولى. وقد وصل اليّ كتاب من معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالقاهرة مرقم (٣٥١-١-١٢) بتاريخ ١٩٧٥/٨/١٧ يفيد ان اسم هذا الكتاب هو: عقد الجمان في طباع منافع الحيوان والإنسان، حيث ان لدى المعهد نسخة مخطوطة مصورة على مخطوطة دار الكتب المصرية تقع في (٨٣) ورقة ومسطرتها (١٦) سطراً ولم يأت في مقدمتها إسم أحمد بن مروان.

(٨٦) الفارقي، ص١٢٣.

(٨٧) مخطوطة الأعلاق الخطيرة، ورقة ٧٢.



السلطان محمود غازان- منافع الحيوان



حيوانان من (منافع الحيوان)

إضافة الى كونه طبيباً ماهراً، فكتابه (مناقب الأطباء) كان مصدراً مهماً في تاريخ الطب. وتتجلى لنا أهمية الكتاب من كونه أصبح مصدراً مهماً لإبن أبي أصيبعة والقفطي في تراجم كثير من الأطباء. وقد اعتبر كتابه هذا من الكتب المفقودة، ولكن ليس ببعيد العثور عليه في المستقبل. وقد توفي عبيدالله بعد سنة ٤٥٠هـ(٨٨).

زاهد العلماء

هو الطبيب أبو سعيد منصور بن عيسى النسطوري أخو المطران إيليا برشنايا الذي مر ذكره. كان طبيب نصرالدولة الذي كان يقدّره كثيراً. وكان له الفضل في تأسيس مستشفى فارقين، الذي كان رئيساً لها ولأطبائها. له من المؤلفات ماعدا (كتاب البيمارستانات)، وكتاب الفصول الذي مر ذكرهما (كتاب فيما يجب على المتعلمين لصناعة الطب تقديم علمه) وهو عبارة عن منهج لتعليم الطب، وكتاب في أمراض العين وكتاب في المنامات والرؤيا. توفي زاهد العلماء قبل سنة (٤٣٨هـ = ١٠٤٦م) ودفن في بيعة فارقين(٨٩).

إبن دينار

كان أحد أطباء مستشفى فارقين في عهد نصرالدولة. كان طبيباً صيدلانياً خبيراً في صناعة الأدوية وتحضيرها. إخترع دواءً إشتهر بـ(الشراب الديناري) إنتشر في الأقطار المجاورة على أيدي الأطباء لما لقيه من نجاح. فكانوا يستعملونه حتى زمن الطبيب المؤرخ إبن أبي أصيبعه، أي الى القرن الثالث عشر الميلادي وبعده. وكان إبن دينار قد صنع شرابه من أكثر من عشرين مادة وهو دواء لعدة أمراض. ألف إبن دينار كتاب (أقراباذين) في كيفية تحضير الأدوية أي في (علم الصيدلة). وقال المؤرخ المذكور في ترجمته وقد وجد كتابه المذكور: "... كان بميافارقين في أيام نصرالدولة بن مروان وكان فاضلاً في صناعة الطب جيد المداواة خبيراً بتأليف الأدوية، ووجدت له أقراباذيناً بديع التأليف بليغ التصنيف حسن الإختيار مرضي الإختبار. وإبن دينار هذا هو الذي ألف الشراب المنسوب اليه المعروف بالشراب الديناري المتداول إستعماله والمشهور بين الأطباء وغيرهم والمذكور في كتابه هذا..."(٩٠). وكذا قال الخفاجي وشمس الدين سامي، حيث ذكرا انه مخترع الشراب الديناري

(٨٨) راجع بصدد ترجمة حياة عبيدالله المصادر التالية: القفطي، تاريخ الحكماء الصفحات ١٢٦، ٢٥٦، ٢٦٣. حاجي خليفة، كشف الظنون، ج٢، ص١٠٩١، ١٨٣٦. أفرام برصوم، نوابغ السريان، ص٨٨. الزركلي، ج٤، ص٣٤٥. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج٥، ص٢٣٨. رفائيل بابو اسحاق، أحوال نصارى بغداد، ص٢١٣. مجلة المشرق، مجلد ١٢، حوالي ص٤٨٦. دوميلي، العلوم عند العرب، ص٢٤١. وفي إيضاح المكنون، ج٢، ص٣١١ لإسماعيل پاشا بابان: أنه توفي سنة (٤٥٠هـ) وفي ص٦٨١ توفي سنة (٤٥١هـ)

(٨٩) إبن أبي أصيبعه، طبقات الأطباء، ج٢، ص٢٥٨. إيليا مطران نصيبين، الرسائل الجدلية، الورقة الأخيرة من النسخة المخطوطة، وكذلك النسخة المنشورة في مجلة المشرق الأعداد الخمسة الأولى لسنة ١٩٢٢. أخبار فطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل لعمرو بن متي، ص٩٩. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج١٣، ص١٨. محمود ياسين، الإمارة المروانية في دياربكر والجزيرة، ص١٩٧. راجع الجزء الأول من الدولة الدوستكية، ص١٩٢، ١٩٤، ١٩٦. إسماعيل پاشا بابان، هدية العارفين، ج٢، ص٤٧٣. قال خطأً انه توفي بعد سنة ٤٦٠هـ.

(٩٠) إبن أبي أصيبعه، طبقات الأطباء، ج٢، ص٢٤٣. شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، ج٢، ص٦٢٥.

المشهور(٩١). وهكذا يتضح مما تقدم مدى مساهمة هذا الطبيب الكُردستاني الفعالة في الطب ومشاركته في هذه الخدمة البشرية، وكذلك مشاركة الدولة الدوستكية والشعب الكُردي في الحضارة الإنسانية.

أبو نصر يحيى بن جرير

كان أبو نصر يحيى بن جرير التكريتي(٩٢) أحد أطباء الدولة الدوستكية وأحد أطباء مستشفى فارقين.كان طبيباً نطاسياً له مؤلفات في عدة علوم منها الطب والتنجيم والتاريخ والرياضة البدنية، مما يدل على سعة علمه وعلو مكانته. من مؤلفاته كتاب الباه ومنافع الجماع ومضاره، ورسالة في منافع الرياضة ووجهة إستعمالها، والمختار من كتب الإختبارات الفلكية ألفه لسديدالدولة أبي الغنائم عبدالكريم(٩٣) ورتبه على فصول كثيرة(٩٤).

وله أيضاً كتاب المصباح المرشد الى الفلاح، والنجاح الهادي من التيه الى سبيل النجاة في(٥٤) فصلاً ذكر فيه معتقدات المسيحية وأسرارها وآدابها، وكان كتاباً مهماً في نظر المسيحيين. وله كتاب علم الفقه وإعتقاد أئمة النصارى، وفي دير الزعفران القريب من ماردين قوانين بيعية منسوبة إليه وله مقالة في صلب المسيح. وقد أشار أبو النصر في كتاب المصباح المرشد الى أثنين من مؤلفاته وهما

(٩١) شهاب الدين أحمد الخفاجي، شفاء الغليل، ص٩٨، ١٩٠، ١٠١. وفي ج٢، من تذكرة أولي الألباب ذكر الطبيب داود الأنطاكي ان شراب الدينار صنعه بختيشوع (الطبيب)، أي جد أسرة بختيشوع كما يفهم لكن إبن أبي أصيبعه وغيره قالوا أنه للطبيب إبن دينار، فمن المحتمل أن يكون إبن دينار أيضاً من أسرة بختيشوع. أما تركيب هذا الشراب الشهير بمفعوله، فقد ذكر داود الأنطاكي أنه يصنع من المواد التالية: أمير باريس وبزر الهندباء ومن كل عشرة وعود سوس أربعة وبزر كشوث وورد منزوع القماع وقنطريون ودقيق المصطكي ودارصيني وفوتنج وصندل ولك وزعفران وطباشير وعود هندي و(أحياناً) الرازيانج والشبث ولسان ثور والزبيب وراوند وأسارون. وذكر الأنطاكي أن هذا الشراب جيد للحمّيات والعفن وما في أعماق البدن من الأخلاط الفاسدة وضعف المعدة والكبد. وفي ذيل تذكرة أولي الألباب، ص١٧٣، وهو تأليف أحد تلامذة الأنطاكي إسمه غير معلوم ومطبوع مع التذكرة. زيادة (زهر نيلوفر) والسكر ومقدار بذر الهندبا ستون درهماً ومقدار الورد ستون درهماً أيضاً وبزركشوث خمسة عشر درهماً وخمسة أرطال سكر. وهكذا يتضح مما تقدم مدى مساهمة هذا الطبيب الكُردستاني في دفع الطب الى أمام ومشاركته في هذه الخدمة البشرية، وكذلك مشاركة الدولة الدوستكية والشعب الكُردي في الحضارة الإنسانية.

(٩٢) روي إسم أبيه حرير وحريز.

(٩٣) كان سديدالدولة ابن الوزير ابو الفضل الانباري (ابراهيم بن عبدالكريم) وأخ الوزير ابي طاهر وكلاهما من وزراء الدولة الدوستكية. ساءت أحوال سديدالدولة وأخيه بعد زوال الدولة الدوستكية، حيث اعتقل اخوه في حصن كيفا من قبل ابن جهير ولما عزل الاخير سنة (٤٧٩هـ) عن ولاية دياربكر، توجه سديدالدولة الى أصبهان واتصل بالسلطان ملكشاه فأطلق سراح أخيه. وفي سنة (٤٨٩هـ) قتل سديدالدولة في فارقين من قبل طغتكين وزير تاج الدولة تتش السلجوقي، كما قتل أخوه ابو طاهر، وذكرنا تفاصيل قتل الاخير في الجزء الأول ص٣١١-٣١٢. وسديدالدولة هذا كان والد سديدالدولة ابي عبدالله محمد الذي تقدم في الدولة العباسية واشتهر وولي ديوان الإنشاء ومات سنة (٥٥٨هـ). والراجح ان الطبيب ابا نصر الف كتابه المذكور في العهد الدوستكي، حينما كان سديدالدولة في اوج عزه.

(٩٤) إبن أبي أصيبعه، طبقات الأطباء، ج٢، ص٢٤٣. حاجي خليفه، كشف الظنمون، ج٢، ص١٦٢٤. إسماعيل پاشا بابان، هدية العارفين، ج٢، ص٥١٩. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج١٣، ص١٨٩. شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، ج٢، ٢٢٥. الزركلي، الأعلام، ج٩، ص١٦٩.

الفائق وزيج التواريخ(٩٥). كذلك ألّف أبو نصر كتاباً مهماً آخر تناول تاريخ الدولة الدوستكية أسماه (الجامع للتواريخ) الذي تضمن (تاريخ الدول والممـاليك وتاريخ بناء المدن، والحوادث المشهورة من عهد آدم الى دولة بني مروان) كما قال إبن شداد(٩٦). وقد نقل إبن العديم معلومات عن هذا التاريخ بصدد بناء مدينة حلب، وذكر أنه وجده بخط المؤلف(٩٧)، كما نقل عن (الجامع للتواريخ) أيضاً ياقوت الحموي بصدد بناء أنطيوخيا في مادة (حلب) وبصدد مدينة الرها أيضاً(٩٨). لم يعثر الباحث لويس شيخو على أي أثر لهذا التاريخ ولهذا عده من التواريخ المفقودة(٩٩).

وقد بحثت عنه (أنا) أيضاً وسألت عدداً من المكتبات في الشرق والغرب، فلم أجد له أثراً. ويتوقع أنه يستفاد منه كثيراً حين العثور عليه في مجال تاريخ الدولة الدوستكية. ولكن المثير للإستغراب أن الفارقي لم يشر في تاريخه الى تاريخ أبي نصر ومن المستبعد عدم إطلاعه عليه أو عدم سماعه به على أقل تقدير، كما أنه لم يورد لأبي نصر سوى ذكر وفاته في فارقين سنة (٤٩٧هـ = ١١٠٤م)(١٠٠). في حين ذكر إسماعيل پاشا بابان وتبعه الزركلي انه توفي في حدود (٤٧٢هـ = ١٠٨٠م)(١٠١). والجدير بالذكر أن ابا نصر كان طبيباً مسيحياً يعقوبي المذهب.

الفضل بن جرير

من أطباء الدولة الدوستكية أيضاً وهو أخو أبي نصر. كان الفضل إبن جرير من أطباء فارقين كأخيه في عهد الأمير نصرالدولة. وكان أيضاً طبيباً ماهراً وقال صاحب طبقات الأطباء في ترجمته: "أنه كثير الإطلاع في العلوم فاضلاً في صناعة الطب حسن العلاج وخدم بصناعة الطب الأمير نصرالدولة بن مروان. له من الكتب مقالة في أسماء الأمراض وإشتقاقاتها كتبها الى بعض أصدقائه وهو يوحنا بن عبدالمسيح"(١٠٢). وله أيضاً كتاب الذبائح وكتاب الفائق في التاريخ(١٠٣). يحتمل أن تاريخه هذا يتضمن قسماً غير قليل من تاريخ الدولة الدوستكية.

(٩٥) مجلة المشرق، العدد (١٠) سنة ١٩٢٢، وفيها أن نسخة مخطوطة من المصباح المرشد موجودة في مكتبة الفاتيكان- بالكرشون ٢٠٥٤- وفي مكتبة أوكسفورد، ومكتبة المتحف البريطاني- ٨١٧، ٥٧٠، ومكتبة الكلدان بدياربكر، وفي مكتبتهم بسعرد - لاأظن أن المكتبة الأخيرة لها وجود الآن. توجد نسخة من كتاب علم الفقه في رومية. كما توجد نسخة مخطوطة من المختار من كتب الإختيارات الفلكية في مكتبة متحف لندن تحت الرقم ٥٧٠٩ حسبما وصل إلينا كتاب المتحف البريطاني تاريخة ٧ آب ١٩٧٤.

(٩٦) إبن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج١، ص١٢، مطبوع.

(٩٧) إبن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ص١٥.

(٩٨) الحموي، معجم البلدان، ج١، ص٢٨٣، وج٤، ص٨٧٦.

(٩٩) مجلة المشرق، مجلد ١٢، ص٤٨٦ سنة ١٩٠٩.

(١٠٠) الفارقي، ص٢٧١.

(١٠١) إسماعيل پاشا، هدية العارفين، ج٢، ص٥١٩.

(١٠٢) طبقات الأطباء، ج٢، ص٢٤٢. مجلة المشرق، العدد ١٠ لسنة ١٩٢٢.

(١٠٣) أفرام برصوم، نوابغ السريان، ص٥.

الوزير أبو سالم الطبيب

من أطباء الدولة الدوستكية أيضاً أبو سالم الطبيب، الذي كان من أكبر الأطباء نفوذاً في الفترة الأخيرة من عصر الدولة الدوستكية، ويحتمل أنه كان رئيس الأطباء وطبيب الملك الخاص. ذكر الفارقي أن الطبيب أبا سالم المسيحي كان له دكان في سوق العطارين وتقدم لدى الأمير منصور حتى جعله وزيراً(١٠٤).

يظهر من هذا أن أبا سالم لم يكن مجرد طبيب فقط، بل كان رجلاً سياسياً ذا قابلية ولباقة، ولهذا قرّبه الملك وجعله وزريراً له وإقتنع بإخلاصه فسلم له أمر الدولة ومهمة الدفاع عنها عندما توجه الأمير الى أصفهان لدى الملك السلجوقي ملكشاه، الذي أرسل الجيوش الى كُردستان الوسطى لإحتلالها في سنة (٤٧٦هـ). وقد برهن أبو سالم حقاً على إخلاصه اللامتناهي تجاه الدولة الدوستكية، فقد دافع عن البلاد ضد الجيش السلجوقي والقوات المتحالفة معه زهاء سنتين، الى أن إحتل ذلك الجيش المدن كلها عنوة. وهكذا صمد ولم يستسلم ولم يخن الأمير والبلاد، ولا نعلم عن مصيره على أيدي المحتلين. كما لم يسلم بعد القبض عليه للمحتلين الكثير من أموال الدولة النقدية التي أخفاها وكتمها حسبما أكد عليه الفارقي، الذي طعن كثيراً في سياسته. فقد قال الفارقي أن ابا سالم حرّض الأمير منصور على عدم الإستسلام والخضوع للسلاجقة وعلى الإستمرار في مقاومتهم، مما حمله على رفض إقتراح ملكشاه بتقسيم البلاد الدوستكية بينهما والإبقاء على جزء من البلاد في يده، وذلك أثناء حصار الجيوش السلجوقية لها. ولكن مع هذا يجب أن نعلم أن الفارقي وبدافع من التعصب الديني لم يكن يحب المسيحيين.

صيدلية أبي سالم

لعل من المقبول أن نعتبر دكان الطبيب أبي سالم الموجود في سوق العطارين بفارقين، صيدلية تضم مختلف الأدوية والعقاقير الطبية بالنسبة لذلك العصر، علماً أن العقاقير كانت في القرون الوسطى تباع في (سوق العطارين) وربما كان الطبيب شريكاً مع العطار في دكانه الذي يضم الأدوية كما قال جرجي زيدان وغيره من الباحثين، الذين إعتبروا أمثال دكان إبي سالم صيدليات ولو بالشكل البدائي أو القديم، وكما يتضح كذلك من كتاب (دعوة الأطباء) للطبيب إبن بطلان الذي سنبحث عنه. ومما لا شك فيه ان ابا سالم كان يبيع العقاقير الطبية في دكانه المذكور مع العلم ان المدن الكبيرة التي كانت تضم المستشفيات (بيمارستانات) في البلاد الإسلامية كمدينة فارقين لم تكن تخلو من الصيدليات.

هذا ومن المحتمل ان يكون أبو سالم هو الطبيب الفضل بن جرير التكريتي، حيث ذكر عمادالدين الاصبهاني ان إسم أبي سالم هو الفضل النصراني وقد إلتقى بإبنه أبي الحسن عيسى بالموصل(١٠٥).

(١٠٤) الفارقي، ص٢٠٦. راجع موضوع وزارة أبي سالم الطبيب في الجزء الأول، ص٢٨٧.
(١٠٥) الاصبهاني، خريدة القصر، ج٢، ٣٤٩.

ولكن الفضل بن جرير كان يلقب بأبي سعد حسبما ورد في بعض المصادر[١٠٦].

أخيراً إن إرتقاء هذا الطبيب الى منصب الوزارة لا يخلو من الدلالة على تقدير الدولة الدوستكية للأطباء وأصحاب العلم والفضل والإعتماد عليهم وتشجيعها وإكرامها لهم وللمسيحيين ايضاً في نطاق سياستها الديمقراطية.

ابن بطلان ودعوة الأطباء

هو الطبيب ابو الحسن المختار بن حسن بن عبدون وإسمه الحقيقي (يوانيس). كان طبيباً مسيحياً من أشهر أطباء عصره، تنقل بين بغداد والشام ومصر والقسطنطينية. كان يعتبر نفسه وحيد عصره في الطب إضافة الى كونه أديباً لامعاً. ولما ذاعت شهرة (ابي الحسن علي بن رضوان) أشهر اطباء مصر، ذهب ابن بطلان من بغداد الى مناظرته. وظل هناك ثلاث سنوات ودخل في نقاشات حادة معه أسفرت تلك المناقشات والمناظرات العلمية عن تأليفه عدة كتب صغيرة أو رسائل من قبلهما وكل يرد على صاحبه. فكانت من اشهر المناظرات العلمية. ثم ذهب ابن بطلان الى العاصمة البيزنطية القسطنطينية. واسمه عند اللاتين هو: ELLUCHASEN ELIMITAR [١٠٧].

هذا ومع أننا لانستطيع أن نجزم بكونه من أحد أطباء الدولة الدوستكية، إلا أن له صله بتاريخ الطب وتاريخها فيها، وكان بينه وبين الطبيب عبيدالله بن بختيشوع صداقة متينة. دخل إبن بطلان البلاد الدوستكية وهو في طريقه من بغداد الى مصر وظل في الطريق حوالي ثلاث أو أربع سنوات حيث مكث هنا وهناك[١٠٨]. وقد نص بعض المؤرخين على دخوله إقليم دياربكر[١٠٩].

ولاشك أنه إطلع على سير الطب في البلاد الدوستكية وعاصمتها بالذات. ويحتمل جداً أنه مارس مهنة الطب فيها مدة من الزمن، فأعجبه ذلك وأعجبه إهتمام نصرالدولة بالطب وتقديره للأطباء. فجسم إعجابه هذا بتأليف كتابه الشهير (دعوة الأطباء) بإسم الأمير نصرالدولة، رغم أنه كان بعيداً عن بلاد الأمير. وبهذا يكون الكتاب بعيداً تماماً عن التملق والتزلف إذ ألف إبن بطلان الكتاب في (دير المنيح) في ضاحية العاصمة البيزنطية سنة (٤٥٠هـ = ١٠٥٨م) ألفه حسبما جاء في مقدمته على طريقة كليلة ودمنة. والكتاب في شكل أسئلة وأجوبة ومحاورات طبية ذكر فيه الأمراض المختلفة وطرق معالجتها وأسماء الأدوية وأدوات الطب المعروفة في ذلك العصر، وأورد فيه أسماء (٢٦) آلة طبية [١١٠]، إضافة الى توضيحه مسائل طبية معقدة. والكتاب في هيئة حوار خيالي دار بين طبيب

(١٠٦) مجلة المشرق، العدد العاشر لسنة ١٩٢٢. أفرام برصوم، نوابغ السريان، ص٥. رفائيل بابو اسحاق، تاريخ نصارى العراق، ص٩٣.

(١٠٧) دوميلي، العلوم عند العرب، ص٢٤١.

(١٠٨) بدأ إبن بطلان رحلته من بغداد سنة ٤٣٩هـ وقيل في التي بعدها. ووصل مصر سنة٤٤٣هـ.

(١٠٩) من هؤلاء القفطي في تاريخ الحكماء، ص٤٩٤. شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، ج٢، ص٦٠٧. رفائيل بابو اسحق، أحوال نصارى بغداد، ص٢١٨. محمود ياسين، الإمارة المروانية، ص١٩٧، وقد إعتبره الأخير من أطباء الدولة الدوستكية. راجع أيضاً بصدد ابن بطلان: إبن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ج٢، ص٩٨. وخمس رسائل لإبن بطلان البغدادي وابن رضوان المصري، طبع القاهرة ١٩٣٧. ومجلة المشرق، العدد الأول لسنة ١٩٢٢. عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي، ص٣٧٦. رفائيل بابو اسحاق، تاريخ نصارى بغداد، ص١٠٤.

بغدادي زار فارقين وآخر من فارقين في السبعين من عمره(١١١)، وذلك بأسلوب أدبي رائع. دعوة الأطباء كتاب مشهور طبع أكثر من مرة، كما تُرجم الى الفرنسية وطبع، كما شُرح من قبل علي بن هبة المعروف بإبن البردي سنة (٥٠٧هـ = ١١١٤م)(١١٢).

إبن بطلان يمدح نصرالدولة وعهده السعيد

لقد وصف ابن بطلان في مقدمة كتابه هذا الأمير نصرالدولة إبن مروان وصفاً بليغاً، مشيراً الى ما حصل في عهده من التقديم الإقتصادي والطبي بأسلوب المدح الذي يشبه الذم. فتراه يقول على لسان طبيب فارقين، وهو جالس في سوق العطارين موجهاً كلامه الى طبيب بغداد: "ماكان يموت لي مريض سابقاً إلا وقد مرض عوضه إثنان فأنا في تضاعيف ذلك في فلك من العجب والتجمل، كأنني قرواش بن المقلد أو ملك ميافارقين وآمد... وفي كل خمس سنوات يعرض وباء وموت، فمنذ ملك ابن مروان هذه الديار كسدت الصناعة وبارت البضاعة وصحت الاجساد وإنكشف الوباء عن هذه البلاد وإنقطعت علة الخوانيق وكانت قلما فارقت الحلوق وبطلت الأمراض الخريفية وكان موسماً مألوفاً معروفاً، فصرنا لا نرى مريضاً إلا في كل حين ولا نشاهد جنازة إلا في كل زمان بعيد ولانسمع صراخاً إلا في كل دهر مديد، حتى كأن اقبال الأمير قد عصب الابدان من الاسقام وحصن الاعضاء من الآلام، او كأنه من بين آل مروان قد اخذ للخلق من الدهر الامان.."(١١٣).

ثم يسترسل ابن بطلان في الكلام وينتقل للحديث عن ما شهدته كُردستان الوسطى في عهد نصرالدولة العظيم، من تقدم إقتصادي وكثرة الأعمال والقضاء على البطالة، كما مر في موضوع الحياة الإقتصادية. ولنكتف بهذا القدر من كلام الطبيب ابن بطلان، الذي لا يخلو من إعطاء القاريء فكرة عن تقدم الطب في الدولة الدوستكية. ونكرر مرة أخرى بأن تأليفه أشهر مؤلفاته بإسم الملك الكُردي نصرالدولة وهو بعيد عن بلاده، يبعد شبهة الرياء عن الكتاب وإشارة الى تقدير المؤلف لإهتمام الدولة الدوستكية بالطب والأطباء، وإعجاباً منه بخصائل نصرالدولة الحميدة وسياسته الديمقراطية، التي أدت الى تطور دولته على كافة الأصعدة.

أحمد ابن أبي الأشعث

بمناسبة بحثنا عن تاريخ الطب في كُردستان الوسطى في العصر الدوستكي، يجدر بنا أن نشير الى

(١١٠) من هذه الآلات مكاوي الطحال والرأس، مفتاح الرحم وملزم البواسير ودراقات القولنج وقمادين الجرب ورصاص التنقيل ومجرفة الأذن وصنانير السبل والظفرة وكلبات الأضراس ومخرط المناخير وقاتاطير التبويل وغيرها من الآلات التي كان يستعملها الأطباء في العمليات الجراحية وغيرها. راجع دعوة الأطباء، ص١٠.

(١١١) رغم انه اختار للمحاورة طبيبين خياليين طبيب فارقي وآخر بغدادي، إلا ان ما تطرق اليه في كتابه أشياء حقيقية عدا إسمي الطبيبين فهما خياليين. فمثلاً يقول طبيب فارقين: أنظر حسن هذا القدح فإنه حصل لي من نهب قصر الإمارة أيام الفتنة. وهذه إشارة الى مؤامرة شيروة ونهب مافي القصر من قبل سكان فارقين أثناء ثورتهم عليه كما مر بالتفصيل في الجزء الأول، ص١٤٧-١٦٤. توجد في مكتبة (أمبروزيانا) بميلانو الإيطالية نسخة مخطوطة مصورة من دعوة الأطباء تحت الرقم (A. 125) طالما حاولت الحصول على نسخة مصورة منها ولكن دون جدوى.

(١١٢) عبدالرحمن بدوي، التراث اليوناني. حاجي خليفة، كشف الظنون، ج١، ص٧٥٦.

(١١٣) دعوة الاطباء، مقدمة.

طبيب بارز ومؤلف بارع سكن بوتان (بهتان) قبيل العهد الدوستكي، الذي من المعتقد أن يكون قد ترك تأثيراً في الطب وصل الى العصر الدوستكي، وذلك عن طريق نشره الطب وتخليفه عدداً من التلاميذ، وهو الطبيب أبو جعفر أحمد بن محمد بن أبي الأشعب وأصله من بلاد فارس. فقد أقام المذكور في (قلعة برقي) التابعة للإمارة البشنوية في فنك. وهناك فرغ من تأليف كتابه (الغاذي والمغتذي) سنة (٣٤٨هـ). وقد ذكر إبن أبي أصيبعة انه كان له تلامذة كثيرون، منهم محمد بن ثوان الموصلي وأحمد البلدي. وأورد من مؤلفاته ثلاثة وثلاثين مؤلفاً ومن أعماله العلمية حوالي الخمسين. توفي في الفترة الواقعة بين (٤٦٠ و٤٧٠هـ)(١١٤).

لابد هنا أن نشير الى طبيب آخر نبغ في كوردستان وعاصر الدولة الدوستكية وهو (ماسويه) الماRديني، الذي توجه الى مصر وعمل في بلاط الخليفة الحاكم، وتوفي بها سنة ١٠١٥م. كان طبيباً ماهراً وحجة في الصيدلة وعُرف عند الغربيين بإسم (MESUE LUNIOR)(١١٥).

التنجيم

شجعت الدولة الدوستكية التنجيم أيضاً، وكان لأمرائها اعتقاد بأقوال المنجمين. فقد ذكر الفارقي أنه قدم الى البلاد في عهد نصرالدولة منجم حاذق من الهند وحكم له بمستقبل أسرته ودولته بأمور واضحة. حيث قال هذا المنجم ان الدولة ستزول على يد رجل احسنت اليه. ففكر نصرالدولة ساعة ثم رفع رأسه ونظر الى وزيره ابن جهير، وقال أين أنا من هذا(١١٦). لقد قدم هذا المنجم الشهير وإسمه (إبن عيسون) الى البلاد سنة ٤٦٣هـ. وكان من أفضل علماء النجوم، وقد قرّبه الأمير نظام الدين حتى كات يشرب معه(١١٧) دلالة على مدى تقدير الدوستكيين للمنجمين. وذكر أيضاً أنه حضر عند وفاة نظام الدين مراسم التعزية المنجمون ومن بينهم إبن عيسون الذي فتح الطالع، فوجد ان الوقت غير مناسب لتنصيب الأمير منصور الى ثلاثة أيام، فأرجيء ذلك الأمر الهام بناءً على تكهنه(١١٨). ويمكن أن نعتبر الطبيب أبو نصر التكريتي من المنجمين أيضاً لسعة معلوماته في التنجيم، حيث ألف في التنجيم والفلك كتابه (المختار من كتب الإختيارات الفلكية) كما ذكرنا(١١٩). علماً ان الكتاب

(١١٤) إبن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء، ج٢، ص٢٢٤-٢٢٨. نقلاً عن مناقب الأطباء للطبيب عبيدالله بن جبرائيل ومن مؤلفاته كتاب البرص والبهق ومداواتهما وكتابان في الصرع وكتاب في الجدري والحصبة والحميقاء، وكتاب في أمراض المعدة، وكتاب في الحيوان.

(١١٥) دوميلي، العلوم عند العرب، ص٢٤٠.

(١١٦) تاريخ الفارقي، ص١٧٢-١٧٣.

(١١٧) الفارقي، ص٢٠١.

(١١٨) نفس المصدر، ص٢٠٣. يظهر أن إبن عيسون غادركُردستان في أواخر العهد الدوستكي أو بعد سقوطها، الى مصر وتقدم عند الخليفة الفاطمي (المستعلي). ففي سنة ٤٨٩هـ كان بمصر وقد حكم المنجمون بأن طوفاناً مثل طوفان نوح سيحدث فسأل الخليفة إبن عيسون فقال أخطأ المنجمون ولكن يغرق خلق كثير في بقعة ما، ولكن الخليفة أخذ الإحتياطات للطوفان المزعوم، فأمر بأحكام المسنيات والسدود وكان الناس يتوقعون الغرق، فوصل الخبر بأن الحجاج غرقوا في واد بالحجاز بسيل عظيم. فأمن الناس وخلع الخليفة على إبن عيسون وعيّن له راتباً وذلك حسبما ذكره ابن تغرى بردى في (النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٥٨) وكما نقل عنه الدكتور بدوي عبداللطيف في حاشية، ص٢٠١ من تاريخ الفارقي.

ورد في بعض المصادر بإسم (كتاب الإختيارات في علم النجوم).

المكتبات

يظهر ان الدولة الدوستكية وفي نطاق إهتماماتها الحضارية، أبدت إهتماماً بإقامة المكتبات (خزانات الكتب) الزاخرة بمختلف الكتب، ليرتادها أهل العلم للإستفادة منها بالبحث والإستنساخ ولتكون مظهراً من مظاهر الحياة الثقافية والحضارية في البلاد. فقد كانت في كُردستان في العهد الدوستكي مكتبات كثيرة تضم الكثير من الكتب في مختلف العلوم ومنها: مكتبة دياربكر، ومكتبة جامع فارقين، وقد زودهما العالم والاديب أحمد بن يوسف المنازي كاتب ديوان الرسائل في الدولة بالكثير من الكتب. وأشار الفارقي الى هاتين المكتبتين، حيث قال أن المنازي "جمع كتباً كثيرة وقسّمها بين آمد وميافارقين وأوقفها في الخزانة في جامع ميافارقين وخزانة أخرى بجامع آمد، وهما الى الآن بآمد وميافارقين معروفة بكتب المنازي"(١). وأشار معظم المؤرخين الذين ترجموا للمنازي الى المكتبتين، ولم يختلف كلامهم عن كلام الفارقي(٢). نستنتج مما ذكره الفارقي أن جناح أو خزانة كتب المنازي ظل باقياً بإسمه حتى زمانه. ويعود ذلك الى التنظيم الذي كانت تتحلى به المكتبات في كُردستان. فبقاء خزانات الأشخاص بأسمائهم في مكان أو جناح خاص في المكتبات يعتبر جزءً من التنظيمات المكتبية، كما هو متبع الآن في المكتبات الكبيرة في الشرق والغرب. وكانت هاتان المكتبتان تؤديان وظيفة المكتبات العامة.

ونستنتج من ذلك أيضاً بأن المكتبتين ظلتا سالمتين حتى سبعينيات القرن السادس الهجري (بما أن الفارقي بدأ بتأليف تاريخه سنة ٥٧٢هـ). وإستمرت أعداد المخطوطات التي تحتويهما المكتبتان بالإزدياد بمرور الزمن. ولعل مكتبة جامع دياربكر هي التي إستولى عليها صلاح الدين الأيوبي وأخرج منها كتباً هائلة. فقد ذكر الكاتب الكُردي الأستاذ أبو زيد مصطفى السندي، أن صلاح الدين لما إستولى على دياربكر (آمد) في سنة (٥٧٩هـ = ١١٨٤م) وجد فيها مكتبة كبيرة تحوي مليوناً وأربعين ألف مجلد(٣).

(١١٩) (علم الإختيارات) علم يبحث عن أحكام كل وقت وزمان من الخير والشر وأوقات يجب الإحتراز فيها عن إبتداء الأمور، وأوقات يستحب فيها مباشرتها... وذلك بحسب كون الشمس في البروج والقمر في المنازل وما بينهما من المقابلة أو التربيع أو التسديس. وهذا العلم هو فرع من فروع علوم النجوم كما ورد في (مفتاح السعادة، ج١، ص٣٦٠، طاش كبرى زاده) وفي (كشف الظنون، ج١، ص٣٤. قال حاجي خليفة، وقد ألف في علم الإختيارات عديد من العلماء مثل بطليموس وواليس المصري وكنكه الهندي وكشيار بن لبان الجيلي وسهل بن نصر وهبة الله بن شمعون وغيرهم.

(١) الفارقي، ص١٣١.

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٤٤. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٥٤. تاريخ ابن الوردي، ج١، ص٣٤٩. الشيخ عباس القمي، الكنى والألقاب، ج٣، ص١٨٠. شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، ج٢، ص٧٦٥. فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، ج١٠، ص٢٥٣.

(٣) مجلة (پەروەردە و زانست) العدد الثاني السنة الأولى، ص٥٩، مقالة بعنوان (مێژوویێ خواندنێ) نقلاً عن ابن الأثير في (البداية والنهاية، ج١٢، ص٣١٣). وأضاف ابن كثير (وقد راجعته فيما بعد) ان صلاح الدين وهب الكتب كلها لوزيره العالم القاضي الفاضل، فإنتخب هذا منها ما حمل به سبعين حمارة. إن هذا العدد وهو (مليون وأربعين ألفاً) رقم هائل جداً لذلك يوهم بالمبالغة. ولعل ابن كثير نقل عن ابي شامة المقدسي مؤرخ الدولة الأيوبية، الذي ذكره أيضاً=

وذكـر إبن شـداد في الوقـة (٩١) مـن (الأعـلاق الخطيـرة)، أن الوزيـر أبا القـاسم المغـربي وزير نصرالدولة جعل خزانة كتبه بميافارقين وقفاً ولا زالت معروفة بخزانة المغربي حتى الآن (أي النصف الأخير من القرن الثالث عشر وقت تأليف إبن شداد لكتابه في سنة ٦٧٩هـ = ١٢٨٠م). وإن لم تكن المكتبة التي وقف هذا العالم كتبه عليها مكتبة جامع فارقين فإنها مكتبة عامة أخرى.

لم تكن المكتبات في كُردستان عبارة عن مكتبة جامع دياربكر ومكتبة جامع فارقين فقط، بل كانت هناك مكتبات أخرى في كثير من المساجد وفي الكثير من الكنائس والأديرة كانت هناك مكتبات زاخرة بالكتب الثمينة، منها مكتبة البيعة الملكية في فارقين. ومن هذه المكتبة إستفاد المؤرخ الكُردستاني أحمد بن يوسف الفارقي في وضع كتابه (تاريخ ميافارقين وآمد)، إذ كان هناك في المكتبة كتاب سرياني بإسم (التشعيث) في تاريخ بناء مدينة ميافارقين، فترجمه له أحد المسيحيين ونقل عنه معلومات بهذا الخصوص(٤).

مكتبة دير قرتمين

كانت إحدى المكتبات العامرة مكتبة دير (قرتمين) اليعقوبي في طورعبدين (طورى) شرق ماردين وكانت تضم كثيراً من الكتب من بينها كتب تاريخية. كانت المكتبة في سنة (١٠٢٠م) بإدارة الراهب مار شليمون السبريني (المنسوب الى قرية باسبرينا من طورعبدين). وقد زارها في السنة المذكورة يوحنا الرابع السبريني أسقف طورعبدين، فوجد ان الكتب والآنية المقدسة والطقوس الكنسية كاملة وسالمة. فأصدر توجيهاته بالإهتمام والمحافظة الشديدين على محتوياتها. وكان الخطاط عمانوئيل إبن أخ الأسقف قد زود تلك المكتبة بما كتبه بخطه على الرقوق ومقداره سبعون مجلداً، وأهدى عمانوئيل على ما قاله البطريك (أفرام برصوم): "الدير أي مكتبتها كتباً لا مثيل لها في العالم"(٥).

ولما زالت سعادة المسيحيين بل سعادة شعب كُردستان الوسطى كلها بسقوط الدولة الدوستكية، وأقبل عهد السلب والنهب والإضطهاد أثناء الحكم السلجوقي. تعرضت هذه المكتبة في سنة (٤٩٥هـ = ١١٠٠م) الى التدمير، عندما أغار التركمان السلاجقة على منطقة طورعبدين وأطلقوا أيديهم في السلب والنهب والقتل وأُجلي السكان الى ما وراء حصن الصور(٦).

=في كتاب الروضتين، ج٢، ص٣٩ ونقل أبو شامة ذلك عن عمادالدين الاصبهاني كاتب صلاح الدين.

(٤) تاريخ الفارقي، ص١٥ مقدمة الأستاذ الدكتور بدوي عبدالطيف نقلاً عن القسم غير المطبوع من تاريخ الفارقي.

(٥) أفرام برصوم، اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والاداب السريانية، ص٢٢.

(٦) ورد ذكر قلعة صور في عدد من المصادر وهي تقع في القسم الشمالي من منطقة طورعبدين في منطقة جبل قورس. كانت قلعة حصينة. في أوائل هذا القرن زار مدينة صور إسحق أرمله وقال أن القلعة تتوسط المدينة هي تطل على جهات قرية الأحمدي الشهيرة وقلعة قلث، وفي المدينة ثلاثة أسواق وفيها جامع شيد سنة ١١٩٥هـ وفيها منارة ذات (٣٦) درجة تعلوها قبة ذات نقوش لطيفة. وكانت فيها بيعة أن السبعة ولكنها تحولت الى جامع. كانت صو حافلة بالمسيحيين في القرن السابع الميلادي، ولكن معظمهم إعتنق الإسلام في القرن الابع عشر. راجع مجلة المشرق مجلد ١٦ سنة ١٩١٣، ص٥٧٣: سياحة في طورعبدين لأسحق أرمله. ويحتمل أن صور هي بلدة (SAVUR) وهي مركز قضاء تابع لولاية ماردين في شمالها الشرقي وبينهما حوالي (٣٠) كلم ونفوسها (٤٠٠٠) نسمة وذلك سنة ١٩٦٥. وفي حياة إنسايكلوپيديسي، ص١٣٦ لسنة ١٩٧٠ ان قلعتها تعود الى عصر الرومان.

وقد تعرض هذا الدير أيضاً لنهبهم حيث نهبوا ما فيه من التحف الثمينة وأتلفوا الكتب، حتى إن أوراق بعض الكتب الثمينة ومنها كتاب عن تاريخ الدير وصلت الى نصيبين. ولكن الرهبان بذلوا جهوداً في جمع أوراقه فجمعوها كلها عدا ورقة واحدة. ولم يجر تنظيم هذه المكتبة إلا بعد أكثر من نصف قرن، وذلك في سنة ١١٦٩م بالذات. حيث تم تنظيمها وجدد (١٧) مجلداً من كتبها بخط عمانوئيل والربان گبرييل السبريني والربان موسى الراهب الكفرسلطي[٧]. والجدير بالذكر أنه كانت في دير قرتمين مدرسة كبيرة تدرس فيها العلوم المسيحية. كما كانت في دير زقنين القريبة من دياربكر مدرسة شهيرة[٨]. ومن المكتبات المسيحية مكتبة دير مار يوحنا قورديس في مدينة دارا، وفي المتحف البريطاني مخطوطة قديمة من مخطوطات هذه المكتبة بإسم (الكتاب المنسوب الى الأريوفاغي) كان قد وقفها على هذه المكتبة لعازر مطران بغداد في القرن التاسع الميلادي[٩]، مما يدل على أن المكتبة قد أنشأت قبل العهد الدوستكي. وكان دير أتنوس في منطقة رأس العين يضم مكتبة أنشئت من قبل أثناسيول النعال مطران فارقين في أواسط القرن الثامن للميلاد. وكان هذا الدير مركزاً للعلم، حيث تخرج منه خمسة عشر أسقفاً في سنة (٤٠٧هـ = ١٠٤٢م)[١٠].

تطور الكتابة الكوفية المزخرفة في الدولة الدوستكية

إنتبه بعض المستشرقين وعلماء الآثار منذ أوائل هذا القرن الى كنز ثمين من الكتابات الكوفية الأثرية المتطورة تطوراً كبيراً في مدينة دياربكر، الموجودة على آثارها العمرانية وبالأخص سورها وجامعها الكبير (أولوجامي). وإهتم هؤلاء بدراسة هذه الكتابات لإبراز خصائص تطور الكتابات وميزاتها الفنية حسب العهود والتواريخ المختلفة ومقارنتها بالكتابات الكوفية في بقاع متباينة من العالم الإسلامي. فقد لاحظ هؤلاء من خلال دراستهم العامة، ان القرن الحادي عشر الميلادي كان عصر نضوج الكتابات الزخرفية[١]، وإن كتابات دياربكر العائدة للعهد المرواني (الدوستكي) تعد من أرقى الكتابات الكوفية المتطورة في العالم الإسلامي. وأول من جلب أنظار الباحثين الى كتابات

(٧) أفرام برصوم، تاريخ طورعبدين، ص٢٧٢، ٢٧٦. أفرام برصوم، اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم السريانية، ص٢٢. نقلاً عن مخطوطة (سفر الحياة في باسبرينا في تاريخها الكنسي)، وعن سيرة مار شمعون الخطية. والجدير بالذكر ان مكتبة دير قرتمين كانت قد أنشئت قبل العهد الدوستكي وإزداد عدد مخطوطاتها في هذا العهد وسبق وإن زودها مار شمعون الزيتوني مطران (حران) بـ(١٨٠) مجلداً.

(٨) نفس المصدر، ص١٩.

(٩) أفرام برصوم، اللؤلؤ المنثور، ص٢٥.

(١٠) نفس المصدر، ص٢٣.

(١) الخط الكوفي: يعتبر من الخطوط العربية وله عدة أقسام:(١) الكوفي البسيط الذي لا يلحقه تزويق أو تخميل أو تضفير ومادته كتابية بحتة. (٢) الكوفي المورق وتلحقه زخارف تشبه أوراق الأشجار تنبعث من الحروف القائمة والحروف المستلقية وبالأخص الحروف الأخيرة كسيقان رفيعة تحمل وريقات نباتية متنوعة الأشكال. (٣) الكوفي ذي الأرضية النباتية تستقر فيه الكتابة فوق أرضية من سيقان النباتات اللولبية وأوراقه. ويسمى الكوفي المخمل. (٤) الكوفي المضفر (هوناندي) وهو نوع من الزخارف الكتابية التي بولغ في تعقيدها الى حد يصعب معه أحياناً تمييز العناصر الزخرفية وتضفر حروف الكلمة الواحدة وأحياناً تضفر كلمتان متجاورتان أو أكثر. (٥) الكوفي الهندسي الأشكال وأقدم هذا النوع يعود الى القرن الثالث عشر الميلادي.

دياربكر (آمد) المستشرق (فان برشم) الذي زارها في أوائل القرن العشرين وألف كتابه الضخم (AMIDA). يختص الكتاب بآثار دياربكر (آمد) وفيه صور للكثير منها ولكتاباتها المزخرفة من العهد الدوستكي والعهود السابقة كالعهد السلجوقي، والذي كان في الحقيقة إمتداداً للعصر الدوستكي (المرواني) من ناحية الكتابة.

وفي سنة ١٩٢٠م قام تلميذه السويسري (فلوري) بدراسة الكتابات الكوفية في جامع دياربكر والجامع الأزهر وجامع الحاكم بالقاهرة والقيروان بتونس، وهو يرى في الأشرطة الكتابية المزخرفة في دياربكر نوعاً من أجود مبتكرات الفن الإسلامي وأروعها، وهو يبدي دهشته من إهمال مؤرخي الفنون أمر دراسة تلك الأشرطة الكتابية.

إن فلوري الذي وصفه الدكتور إبراهيم جمعه بعميد الباحثين في الكتابة الكوفية، يرى في آمد أي دياربكر أصلح مكان لدراسة فن الأشرطة الكتابية المزخرفة، إذ تتوافر فيها الشروط الواجب توفرها في الدراسة العلمية المنظمة. فهناك من الآثار المؤرخة تاريخاً دقيقاً ومن الصفات الفنية العالية ووحدة المادة الكتابية عليها ما يساعد على مثل هذه الدراسة. ويتفق فلوري مع ڤان برشم على أن النقوش المروانية والسلجوقية في آمد تعتبر من أروع المنتجات الكتابية في العالم. ويضيف الى ذلك انه لكي يدرس الإنسان أشرطة (آمد) لا بد له من دراسة الحروف الأبجدية الكوفية، التي أصبحت منذ القرن الحادي عشر الميلادي أدوات للتزويق وخضعت في تطورها لقوانين الزخرفة الإسلامية خضوعاً تاماً.

ويلاحظ فلوري أن الفن الإسلامي العربي، الذي توجد منه أمثلة طيبة في القاهرة الفاطمية، لم تنل الكتابة فيه مثل هذه الصفات الزخرفية الممتازة التي تتصف بها كتابات آمد... ثم يتناول فلوري كتابات آمد المؤرخة في سنة (٤٣٦هـ) بإسم الأمير أحمد، فيقول عنها بأنها من النوع المورق المتطور تطوراً كبيراً، ويصف حروفها ويتكلم عن الزخارف التي تلحقها، ويقارن زخارفها بزخارف جامع الحاكم، ويشير الى الزخرفة القوسية التي نراها في القوائم، ثم يحللها تحليلاً أبجدياً. ثم ينتقل الى نقش آمدي آخر مؤرخ في (٤٣٧هـ) فيه عناصر زخرفية جديدة، ويصف حروفه ويحلله تحليلاً أبجدياً. ثم ينتقل الى كتابة مؤرخة سنة (٤٤٤هـ) لاتختلف من حيث أسلوبها الكتابي عن سابقتيها ويرى فيها تطوراً في فن الزخرفة، وهو كعادته يصفها وينوه بزخارفها ويحللها تحليلاً أبجدياً. لقد أجاز فلوري لنفسه بعد هذه الدراسات أن يفرد لآمد أسلوباً كتابياً خاصاً بها(٢).

وفي سنة ١٩٢٢ تناول فلوري نوعاً من كتابات آمد يختلف بعض الشيء عما سبق ان عالجه منها وهو النوع المضفر. ولكي يتمكن فلوري من فهم كتابات دياربكر المضفرة فهماً صحيحاً ويدرسها دراسة صحيحة ويصل الى ميزاتها وخصائصها الفنية، بدأ بدراسة الكتابة الكوفية المضفرة في (راديكان) جنوب بحر قزوين في إيران المؤرخة سنة (٤٠٧هـ)، ليتخذ منها أساساً لفهم كتابات دياربكر المضفرة(٣). وستجد العديد من صورها في ملحق صور الكتاب.

(٢) الدكتور إبراهيم جمعه، دراسة في تطور الكتابات الكوفية، ص٣٣-٣٤.
(٣) الدكتور إبراهيم جمعه، ص٣٤.

الزخرفة الحيوانية

هناك صفة فنية أخرى للكتابة الدوستكية لم يتطرق اليها الباحثون وهي الزخرفة الحيوانية . فقد إستعملت الدولة الدوستكية في الزخارف الكتابية على بعض آثارها رسوم بعض الحيوانات مثل الكتابة المؤرخة سنة (٤٤٤هـ)، حيث يوجد رسم لحيوان يشبه النمر بين الزخارف النباتية على هيئة التسلّق. كما يوجد رسم لطير الهدهد(٤) وهو واضع رجليه على حرف العين من كلمة (وأربعمائة) في الكتابة المؤرخة سنة (٤٦٠هـ) الموجودة على برج مربع من سور دياربكر(٥).

وفي رأيي أن الزخرفة الحيوانية ميزة أصلية من مميزات الكتابات الدوستكية وميزة فنية مبتكرة، أدخلتها الدولة الدوستكية أول مرة في الكتابة الكوفية المزخرفة. إذ لا توجد الزخرفة الحيوانية في الكتابات الكوفية قبل العهد الدوستكي. وقد إنتقل هذا النوع من الزخرفة الى الكتابات السلجوقية الموجودة على بعض آثار دياربكر من عهد ملكشاه وذلك تقليداً وتأثراً بالكتابات الدوستكية التي شهدت تطوراً كبيراً في العهد السلجوقي. وتجدر الإشارة الى أن الدولة الدوستكية (المروانية) إستعملت الزخرفة الحيوانية على الكتابات الموجودة على نقودها أيضاً، كما مر ذكره في موضوع العملة الدوستكية.

"تعليق الصورة: بسمله... مما أمر بعمله والإنفاق عليه من ماله مولانا الأمير السيد الأجل المنصور عز الإسلام سعدالدين نصرالدولة وركن الملة ومجد الأمة شرف الأمراء أبو نصر أحمد بن مروان أطال الله بقاءه وأدام سلطانه وجري ذلك على يد القاضي أبي علي الحسن بن أحمد الآمدي في سنة أربع وأربعين وأربعمائة والبناء نصير بن سبا"(٦).

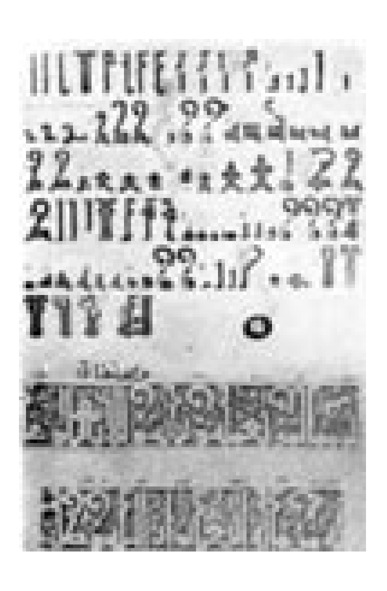
وقرر فلوري بعد دراسته للوحات دياربكر ان شرق العالم الإسلامي انتج انواعاً مختلفة من الخطوط الكوفية لم ينتج غربه مثيلاً لها(٧). أما (مارسيه) وهو أحد الباحثين في الكتابة الكوفية، الذي كتب عن الكتابات الكوفية الموجودة في شمال أفريقيا والأندلس (أسپانيا)، فأكد على أهمية كتابات دياربكر في فنها الزخرفي وقال: ان النضج الذي إنتهت إليه الكتابة حتى أصبحت فيه عاملاً زخرفياً، إنما تم وإكتمل في شرق العالم الإسلامي. وهو يشارك فلوري الرأي في ان كتابات دياربكر مثال

(٤) إن في إختيار النمر إشارة الى القوة وخفة الحركة، أما الهدهد فطائر يتمتع بنوع من التقدير والإحترام بسبب ورود ذكره في القرآن ونقله لأخبار الملكة بلقيس للنبي سليمان بن داود، كما يتعلق بإعتقادات قديمة في الطب والطب النفساني منها أن لحمه شفاء من المغص والقولنج وتخثر الدم، وحمل لسانه وريشه يورث الجاه والقبول وعظم جناحه الأيسر المثلث يعقد الألسن ويورث المحبة وتعليقه مذبوحاً على الباب يدفع السحر والنظرة، وحمل عينيه يقوي الحفظ ويذهب النسيان، وإذا لفت أظفاره وريشه في حرير أصفر ودفن تحت فراش المتباغضين تحل المحبة بينهما وما الى ذلك من كما هو مفصل في تذكرة دادو الأنطاكي، ج١، ص٢٣٤-٢٣٥.

(٥) راجع نص الكتابة وصورة الأثر في موضوع الحياة العمرانية، وراجع أيضاً الهدهد في موضوع النحت.

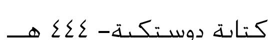
(٦) ص٢٨ من بسري كونيار DIYARBAKIR TARIKHI و VAN BERCHM / AMIDA . الصورة من المصدر الأخير. في بدائع الخط العربي ص٢٥٤ لناجي زين الدين لوحة ٩٧ صورة كتابة محللة تحليلاً أبجدياً مؤرخة بسنة ٤٤٤هـ، ذكر المؤلف انه نقلها من فلوري وان الكتابة على جامع دياربكر. وآضاف أنها من أروع المنتجات الفنية في العالم. والراجح أن هذه الكتابة هي الكتابة المذكورة على السور لا الجامع.

(٧) ناجي زين الدين، بدائع الخط العربي،ص٤٥٢.



كتابة دوستكية- ٤٢٦ هـ





كتابة دوستكية- ٤٤٤ هـ

طيب لما بلغته الكتابة من الإتقان الزخرفي(٨).

أما الدكتور زكي محمد حسن وهو أحد مؤرخي الفنون الإسلامية، فقد أشاد هو الآخر بكتابات دياربكر، وقال إن إستخدام الزخارف الكتابية كان أكثر إتقاناً في الأقطار الإسلامية منه في غربي العالم الإسلامي. وحسبنا أن أبدع تلك الكتابات يُنسب الى إيران ودياربكر(٩). وقد أشار المستشرق (ديمان) الى مدى تطور الخط الكوفي في فن الزخرفة في عهد الدولة الدوستكية والى خلو الزخرفة العباسية (سابقاً) منه(١٠).

وفعلاً كانت الكتابات العائدة للعباسيين والموجودة على سور دياربكر، من الكتابات الكوفية البسطية الخالية من الزخرفة. ومن هذا نستنتج ان التطور حصل في عهد الدولة الكُردية على أيدي أمهر الخطاطين في كُردستان. أخيراً بعد أن أقر هؤلاء الباحثون بأن الكتابات الكوفية المزخرفة في الشرق، بما فيه كُردستان، أكثر تطوراً منها في غرب العالم الإسلامي ابتداءً من مصر. وبعد ان اقرّ فلوري عميد الباحثين بتفوق الكتابات المروانية والسلجوقية في دياربكر على كتابات القاهرة، واعتبرها الباحثون من اروع النماذج وبعد ان اعتبر فلوري ان مدينة (آمد) اصلح مكان في العالم الاسلامي على الاطلاق لدراسة فن الاشرطة الكتابية... وبعد هذا كله نستطيع ان نحكم بأن الكتابات الدوستكية كانت من أرقى الكتابات الكوفية المزخرفة في العالم الإسلامي حتى ذلك العصر، وانها بلغت ارقى تطورها في كُردستان على ايدي امهر الخطاطين والرسامين في الدولة الدوستكية. وهذا

(٨) إبراهيم جمعه، ص٣٧.

(٩) زكي محمد حسن، الفنون الإيرانية في العصر الإسلامي، ص٢٧٩.

(١٠) م.س. ديمان، الفنون الإسلامية، ص١٠٠.

ايضاً اثر من آثار الحضارة الكُردية في عهد تلك الدولة، لأن الخط كما قال ابن خلدون تابع للعمران (الحضارة). وأخيراً فقد خطأ بعض هؤلاء الباحثين في نسبة نماذج من الكتابات الدوستكية الى العهد السلجوقي، أي الى السلاجقة، رغم أن التواريخ الموجودة فيها خير دليل على هذا الخطأ. وتلك النماذج الدوستكية أكثر تطوراً من كتابات العهد السلجوقي والعهود التي تلته.

تجديد الكتابة السطرنجيلية السريانية

يعتبر الخط السطرنجيلي نوعاً من أنواع الخط السرياني، وقد لقي إهتماماً من قبل المسيحيين في كُردستان في عهد الدولة الدوستكية. وكان هذا الخط قد تعرض للنسيان في طورعبدين منذ مائة سنة، إلا أن المسيحيين الذين تمتعوا بأكبر قدر من الحرية في العد الدوستكي، قاموا بتجديده وكان رائدهم في ذلك يوحنا الرابع السبريني أسقف طورعبدين في (٩٩٨هـ = ١٠٣٥م). فقد تم تجديد هذا الخط بواسطة الكتب القديمة، وشجع يوحنا أبناء أخيه على تعلمه وإجادته. فبرع منهم عمانوئيل، الذي كتب بخطه الجميل سبعين مجلداً من الترجمان البسيط (فشيطا)، والحرقلية،... (وأهدى دير قرتمين كتباً لا مثيل لها في العالم)(١١).

كما برع يحيى أخو الأسقف يوحنا الرابع في دقة الرسم والتصوير. وبذل يوحنا جهداً لتوفير مواد الكتابة، فأرسل (إبن اخيه) بطرس الى مدينة ملاطيه لجلب الرق(١٢)، أي لشراء الرقوق (الجلود الجاهزة للكتابة). وكان الرق مادة كتابية قديماً كالعظام والبردي وغيرها قبل توفر الورق. ويظهر من ذلك، أن الرقوق كانت حتى ذلك التاريخ تستعمل في الكتابة في كُردستان. ومن الخطاطين في العهد الدوستكي گبرييل أخو عمنوئيل والربان موسى الكفرسلطي والأسقف يوحنا نفسه، والراهب توما بن يوسف المدوي، وبطرس شقيق عمنوئيل، وحايا الراهب شقيقه أيضاً والراهب صلبيا (١٠١٥م)(١٣).

وقد تلقى هؤلاء الخطاطون السريان التشجيع من لدن يوحنا الرابع على تعلم الكتابة السطرنجيلية الصعبة ونشرها. وهو ما أتاح له ولتلامذته تجديد هذه الكتابة وإحيائها. ومن الخطاطين أيضاً البطريك اليعقوبي يوحنا بن شوشان (١٠٥٨-١٠٧٢م)، الذي نقل الكرسي البطريركي اليعقوبي من أنطاكية الى مدينة دياربكر في العهد الدوستكي(١٤).

(١١) توجد نسخة من الإنجيل بخط عمانوئيل في مكتبة برلين تحت الرقم (٣٠٤) ونسخة أخرى في مكتبة البطريركية اليعقوبية في دير (مار مرقس) على ما في اللؤلؤ المنثور، ص٣٦٧.

(١٢) البطريرك أغناطيوس أفرام برصوم، تاريخ طورعبدين، ص٢٣٤، ٢٧٢. ورد في اللؤلؤ المنثور لأفرام برصوم، ص٢٩ إسم الرسام المذكور (يعيش) بدلاً من (يحيى) ومن هذا يظهر أن اللفظين إنما هما الترجمة العربية لإسمه السرياني.

(١٣) أغناطيوس أفرام برصوم، تاريخ طورعبدين، ص٣٤٢. اللؤلؤ المنثور لنفس المؤلف.

(١٤) أفرام برصوم، اللؤلؤ المنثور في تاريخ الآداب والعلوم السريانية، ص٤٨٨. وفي هذا المصدر ورد بين الخطاطين القس بطرس بن الشماس آل سابا السبريني، ويوسف الملطي. وكان يوسف بارعاً في النقش والتصوير، فضلاً عن كونه شاعراً أيضاً. وفي الحقائق الجلية، ص٧٢ إتخذ البطريرك يعقوب الثالث سنة (١٠٧٢م) بداية عهد إبن شوشان لا نهايته.

الفصل السابع

فن العمارة والآثار العمرانية

لاشك أن الكثير من الآثار الدوستكية الإنشائية كالأسوار والقلاع والجسور والمساجد والخانات والقباب والدور السكنية قد إندثرت، إلا أن قسماً منها ظل شاخصاً حتى زمننا هذا لم يستطع الدهر إزالتها. ولكننا رغم ذلك لا نمتلك مادة كافية لدراسة الخصائص المعمارية للدولة الدوستكية بشكل مفصل وكذلك الخصائص المعمارية الكُردية آنذاك. فكما هو معروف إن القصور والمباني السكنية والمساجد هي التي تحتوي على تفاصيل ودقائق الفن المعماري لا الأبراج الصامتة. ولكن مع هذا وصلت إلينا بعض المعلومات بهذا الصدد. ويحتمل أقدم من تحدث ولو بإيجاز عن فن البناء والزخرفة لبني مروان (الدوستكيين)، هو المستشرق (ڤان برشم) في كتابه الضخم (AMIDA) الذي وضعه عن آثار مدينة دياربكر ونشره في أوائل هذا القرن. فقد قال حسبما نقله عنه السيد محمود ياسين، الذي لم يغفل عن التطرق الى هذا الموضوع الحيوي، مايلي:"كانت الكثير من الأبنية في زمن بني مروان محلاّة بالنقوش والزخرفة، وتفننوا في تركيب أبواب المدن... وإستخدموا الأقواس في البناء وهي مما يسمى بالأقواس المسكورة. وقد وجد قوسان مكسوران أحدهما يحيط بالآخر عند الباب المواجه للمدينة ويرتفع فوق القوس الثاني برج المدينة، أي مدينة فارقين"(١).

وإستخدمت الدولة الدوستكية من الملاط للربط بين أحجار البناء الجبس (الكلس) والجص، كما إستخدمت الحديد أيضاً في البناء لزيادة التقوية كما سنذكر لاحقاً. وإستخدمت في الريازة المعمارية الزخرفة والرسوم الحيوانية أيضاً. ولعل القصر الدوستكي (دار الإمارة)، الذي كان بأربعة طوابق، كان من أهم المباني الدوستكية المحلاة بالزخارف. وقد أشار الفارقي في (ص١٠٧) الى زخارفه حين قال إن: "نصرالدولة عمل في القصر أحسن عمل وزوّقه وأجرى في حيطانه وسقوفه الذهب وعمل فيه ما لم يُعمل". علماً بأن لفظ (التزويق) يشمل الزخارف النباتية والهندسية، وكذا الرسوم الحيوانية والآدمية معاً. لذلك يحتمل أن القصر كان مزيناً بالرسوم أيضاً. فقد إستخدمت الدولة الدوستكية رسوماً حيوانية في بعض منشآتها وقد بقي بعضها على ما سنذكر.

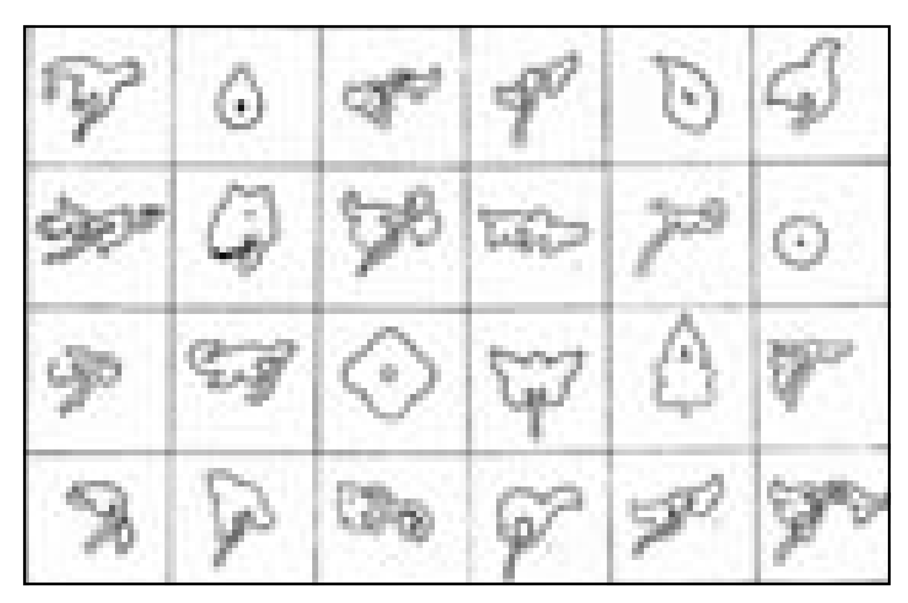
ومما لاحظنا في فن العمارة الكُردية في عهد الدولة الدوستكية هو أنها إستخدمت في جامعها بدياربكر، والمعروف حتى الان بـ(جامع بني مروان)، الأقواس المنكسرة قليلة الإنكسار. ففي مدخل الجامع قوس منكسر (مدبب) يعلوه بمقدار قوس منكسر أكبر، وقد استخدمت الاكتاف على جوانب الأبواب عند بداية الأقواس وإرتكازها. وهذه الأكتاف طالعة الى الأمام أي الى الخارج كرفوف مسطحة من فوق ومنحنية من الأسفل كرقبة حية (كوبرا)، وهذه الأكتاف كانت موجودة في حضارات سابقة وخاصة الرومانية والإغريقية.

(١) محمود ياسين، الإمارة المروانية، ص١٨٨. نقلاً عن AMIDA، ص٣٤.

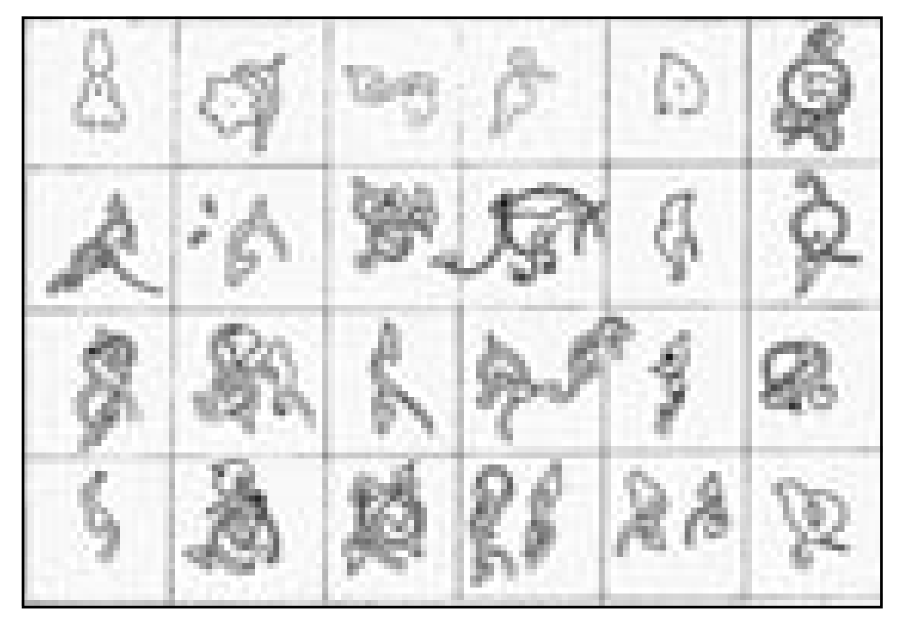
لقد إستخدمت الدولة الدوستكية أقواساً دائرية في الجامع أيضاً، حيث يوجد قوس دائري في الطابق الثاني من الجامع، ويعلو القوس قوساً آخر مشابهاً في الطابق الأسفل. والغرفة الفوقانية للجامع لها طارمة نحو الخارج يعلوها القوس المذكور وأمامها مشبك حديدي، وهي نوع من (شاذروان). أما الشبابيك فهي مستطيلة مربعة المقطع أي ذات زوايا أربعة. وإستخدمت الدولة الدوستكية نموذجاً من الريازة المعمارية وهو المخاريط الحجرية التي تسمى بالكُردية (مروله)، وهي عبارة عن حجر في صف من كل صفين من أحجار الجدار بارز الى الخارج بمقدار من مستوى الجدار، وذلك في بعض الجدران أو في زاوية بعضها، بحيث يتبادر الى ذهن الناظر أنها أدخلت في الجدار خرطاً كالمسامير. وكل حجر من هذه فوق وبإستقامة الحجر الذي يليه من نفس النوع، وهكذا يتكون عمودياً خط من (مروله) بارزة. لقد إستخدمت الدولة الدوستكية هذه الريازة في (المنظرة العتيقة) لقصر نصرالدولة، والتي تسمى الآن بـ(قلعة زمبيل فروش)، وفي البرج المخمس بفارقين وقلدتها في ذلك الإمارة الأيوبية في فارقين عند تعمير المباني. وتوجد هذه الريازة لدى دول لاحقة وخاصة الدولة العثمانية. ولا ندري هل ان الدولة الدوستكية إقتبستها من دولة أخرى أم لا؟ ومن المحتمل أن تلك الريازة هي إمتداد لفن معماري كُردي قديم يعود الى النصف الأول أو النصف الثاني من الألف قبل الميلاد. فقد إستخدمته الدولة الكاشية في العراق (١٥٣٢ أو ١٥٨٠-١١٠٦ أو ١١٥٧ ق.م)، حيث قدم الكاشيون من لُرستان وأتو معهم بهذه الريازة. فأدخلوا المخاريط الفخارية في الجدران الطينية كالمسامير وشكلوا منها نقوشاً فسيفسائية ملونة مختلفة في المعبد الكلسي (معبد إي - أنا) في الوركاء، وهو من خصائص فن العمارة الكاشية. ولا يزال الكُرد يستعملون هذا الفن، وذلك بإدخال أخشاب كالأوتاد في الجدران الحجرية عمقاً ويسمونها (مروله)، وهو فن كُردي أصيل أحبه الكُرد وخاصة في منطقة هورامان وسوران، حتى إن محمود پاشا الجاف إستعمل (مروله) خشبية في منارة جامعه في قزربات (قزل رباط) في منطقة خانقين وخلف جبل حمرين. وقد أدخل المرولة في دورة المنارة لتصبح جزءاً من مقرنصاتها، والمنارة هي الوحيدة من نوعها التي تتصف بهذه الريازة في كُردستان والعراق. أما الأخشاب الكبيرة التي تدخل في الجدران الحجرية أفقياً بين كل صفين أو أكثر، فتسمى بالكُردية (دیەک). ويستعمل النوعان لتقوية البناء وللزينة أيضاً. إن ما إستعملته الدولة الدوستكية قد جاء من طراز (مروله) ويمكن تسميتها بالمروله الحجرية، و(مروله) بكسر الميم وفتح اللام.

وإستخدمت الدولة الدوستكية الشرفات الدفاعية أيضاً في الجامع، لما انه كان ملصقاً بسور دياربكر وباب الجبل (باب خربوط)، من أبواب المدينة. والشرفات التي فوق أعالي الجامع مستطيلة مربعة المقطع. وفي وسط كل شرفة نافذة (زرّاقة) طولية لرمي السهام، وقد استعملت في بعض الأبراج مثل (البرج المرواني) زراقات طويلة ضيقة.

أما مزاريب مياه الأمطار على الجامع، فعملتها من الحجر بدلاً من الخشب، وقد شاهدنا في مدينة عقرة (ئاكرى) مجموعة من هذه المزاريب الحجرية المحفورة على السطوح. وقد إستعمل الآشوريون المزاريب الحجرية كما تشاهد في خرائب نينوى.



لوحة للزخارف الموجودة مع الكتابات الكوفية



لوحة للزخارف الموجودة مع الكتابات الكوفية

طراز السدلي

كان الطراز المعماري المسمي في العهد الإسلامي بـ(السدلي)، الذي يسميه الكُرد حالياً بـ(كەلەکی وگەلەگی)، موجوداً في العهد الدوستكي. فقد ذكر الفارقي في (ص١٧٧) أن نصرالدولة دُفن أولاً في السدلي بالقصر، ثم نُقل الى القبة التي شيدتها إبنته (ست الملك) بملاصقة جامع المحدثة بالميدان (أمام المدينة من جهة القبلة). ولا بد بأن دفن الأمير كان في أرضية الطابق الأسفل. لقد شرح الدكتور بدوي عبداللطيف (السدلي) بأنها القبة القائمة على ثلاث دعائم وهو خطأ. وذكر العلامة مصطفى جواد أن أصل اللفظ هو (سەدل) البهلوية الساسانية، ومعناها ثلاث قباب. وقد تم تعريب اللفظ الى (سدير) وهو أن تُبنى الدار بثلاث قباب متداخلة: إيوان وغرفتين كل واحدة على أحد جانبي القبة الوسطى (الأيوان). ولما كان أحد قصور الحيرة (قصر الخورنق) قصر النعمان بن المنذر مشيداً على هذا الطراز، فقد سمي بالسدير[٢] وكان (قصر الخورنق) بالحيرة ايضاً مشيداً بنفس الطراز ولهذا سمى الباحثون الأبنية المشيدة بهذا الطراز الطراز الحيري أو بـ(الحيري ذي كمين). وذكروا بأنه يتكون من قلب هو الأيوان ومن ميمنة أي الغرفة الواقعة في يمين الأيوان ومن الميسرة أي الغرفة الواقعة في يسار الديوان، ويقع باب كل من الغرفتين في داخل الأيوان. وقد أتخذ هذا الطراز على هيئة تشكيلات الحرب (القلب والميمنة والميسرة). وقد تعرض هذا الطراز الى الإهمال أكثر من (٢٣٠) عاماً، عدا إستعماله في (قصر المشتى) الأموي في الشام، الى أن أحياه الخليفة العباسي (المتوكل) إبن المعتصم (٨٤٧ -٨٦١م)، فإنتشر حتى وصل الى شمال أفريقية[٣].

وتوجد حالياً في المدن العربية العراقية والكُردية الكثير من الدور المشيدة على الطراز السدلي في كركوك وكويسنجق والموصل وبغداد والبصرة وغيرهما. لقد ظن الباحثون أن تاريخ هذا الطراز المعماري يعود الى العهد الساساني، ثم علموا بأنه كان موجوداً في العهد الفرثي (الأشكاني) الأقدم، بدليل إستخدامه في بعض مباني مدينة الحضر. أما أنا فأرجعه الى عهد الدولة الميدية بدليل أن كهف (قزقاپان) الواقع في منطقة السليمانية، الذي يعود تاريخه الى العهد الميدي، نُحت على طراز السدلي (كەلەکی). والكهف هو قبر لأحد الحكام نُحتت على واجهته صورة دكه (موقد) نار ورموز زردشتيه. وهناك أيضاً كهف مريم (شكەفتا مريەمێ) داخل مدينة ئاكرێ - عقره في منطقة بهدينان، نُحت في العهد الأشكاني (الفرثي) على الطراز السدلي. يتكون الكهف من ثلاث غرف متجهة من الجنوب الى الشمال، قياس الغرفة الوسطية والغرفتين الجانبيتين (١٢×١٥ , ٤) وإرتفاع الغرف(٣) أمتار. لكل غرفة بابها الرئيسي الخارجي مع وجود ثلاثة أبواب داخلية بين الغرف

(٢) بحث للدكتور مصطفى جواد بعنوان (الإيوان والكنيسه في العمارة الإسلامية) منشور في مجلة سومر مجلد ١٥.

(٣) بحث بهذا الخصوص للباحث الراحل ميخائيل عواد منشور في مجلة (الثقافة) المصرية العدد ١٩٩، و٢٠٠ سنة ١٩٤٢. وقد نشرنا مقالاً بالكُردية بعنوان (شێوەی کەلەکی لەهونەری ئاوەدانکردنەوەی کوردیدا) وذلك في مجلة (كاروان) العدد ٢ السنة ١٩٨٢.

الوسطى والغرفة الشرقية، وبابين بين الوسطى والغربية. وقد تبين لي للوهلة الأولى من رؤية الكهف أنه معبد زردشتي إتخذه المسيحيون بعد ذلك كنيسة لهم(٤).

لقد ذكرت الباحثة (دروثي مكاي) في كتابها (مدن العراق القديمة، ص٢٤) أن الفرثيين هم الذين نقلوا الطراز الحيري (السدلي) الى الحيرة. ويفهم من (ص٢٢) أن طاق كسرى كان على نفس الطراز ولم يبق منه سوى القسم الأوسط. وذكر فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى في (الحضر مدينة الشمس، ص٢٤٢) أن أحد معابدها قد شيد على هذا الطراز، علماً أن المعبد المذكور، ويحتمل أنهما يقصدان (معبد سميا)، قد شيد في العهد الأشكاني (الفرثي). ولم نجد لحد الآن نموذجاً أقدم من نماذج القرن السادس أو النصف الأخير من القرن السابع قبل الميلاد. و عليه فإن هذا الطراز المعماري طراز كُردي أصيل إنتشر من كُردستان الى بلدان الشرق وغيرها. أي إنطلق من كُردستان الى بلدان الشرق الأوسط، وهو الطراز الشائع الى اليوم في قرى كردستان العراق خاصة في مناطق أربيل والسليمانية وكذلك مناطق سنه وموكريان وغيرهما من مدن كردستان إيران، إلا أنه يتراجع في المدن حالياً أمام الطراز المعماري الحديث. ولكن الأحياء القديمة في المدن لا زالت تحتفظ بطراز السدلي (كەلەکی). يذكر أن هذا الطراز المعماري له نوعان المقبب والمسطح، كان الثاني شائعاً في مدن كركوك وكويسنجق وكفري. وفي سنة ١٩٩١-١٩٩٢ طرحت فكرة (بل دعوة الى) إحياء نفس الطراز في مشروع إعمار كُردستان من قبل وكالات الأمم المتحدة والمنظمات الدولية الخيرية، بعد تدمير العراق لحوالي أربعة الاف قرية. فقد أحيت المنظمات الخيرية العالمية نفس الطراز في بناء القرى الكُردية.

لقد تطور الطراز السدلي في منطقة دياربكر، حيث توجد أبنية فيها أيوانان متلاصقان بجانب كل منهما غرفة وأحياناً يلي إحدى الغرفتين أيوان ثالث تتبعه غرفة واحدة كما يشاهد في النموذج الأول في الصورة (ص٥) من كتاب سافجي لبنايات موقع برج الملك (قلعة زەمبیل فرۆش)، أي موقع دار الإمارة الدوستكية. ويشاهد النموذج الثاني في صورة مدينة (لجى - ليجة) وهي الصورة (٢٣٦) من كتاب بسري كونيار. وعندما زرت فارقين لم تكن تلك البنايات موجودة، بل كانت توجد في أماكنها دور حقيرة كما كان قسم من الموقع خالياً من الدور فلطراز السدلي تفرعات.

ولما كان قصر نصرالدولة كبيراً، فإن نواته كانت على الطراز السدلي أو كان الطراز يتكرر في أقسام القصر.

الآزِج

نوع من الفن المعماري عبارة عن البناء الذي يحمل سقفاً مقوساً. كان هذا الطراز معروفاً في كُردستان في عهد الدولة الدوستكية. فقد ذكر الفارقي أن الوزير أبا الفضل الأنباري وزير نظام الدين دُفن في أزِج كان قد شيد له غرب المسجد عند مشهد على بن أبي طالب بجبل فارقين(٥). والراجح

(٤) في أيار ١٩٩٨ زرت آثار عقرة مدة خمسة أيام وفي خريف السنة نفسها مدة ستة وأربعين يوماً وأخذت آثارها في السفرة الأخيرة (١٤٧٦) صورة فوتوغرافية وعشرين ساعة كاملة بكاميرا ڤيديو.

(٥) نفس المصدر، ص١٨٥.

أن فن الأزج في كُردستان كان أقدم من العهد الدوستكي، بإعتباره من الفنون المعمارية القديمة في الشرق الأوسط. وقد أشار العلامة مصطفى جواد الى أنه من مبتكرات السومريين(٦).

القباب

من الفنون المعمارية التي إستخدمتها الدولة الدوستكية في البناء فن القبة كقباب الأضرحة، مثل قبة الأمير علي التي شيدت على ضريحه في مدينة أرزن عند رأس الجسر، والتي دُفن فيها ممهدالدولة أيضاً، وقبة (بني مروان) في المحدثة في الجانب القبلي خارج سور فارقين والتي شيدتها (ست الملك) على ضريح والدها نصرالدولة ودُفن فيها نظام الدين أيضاً. وهناك أيضاً القبة التي شيدتها (ست الناس) على ضريح زوجها ناصرالدولة منصور في مدينة دياربكر، وقبة باب الجبل في مدينة الجزيرة، التي دُفن فيها الأمير بهرام بن نظام الدين، والقبة التي شيدها ممهدالدولة وسط (عين زعور) وتسمى الآن (أنزل – عين الزلال)، وذلك عند (باب الروم) أي باب أورفا (الباب الغربي) لمدينة آمد. وذكر إبن شداد في (الأعلاق الخطيرة، ورقة ٦٨) بأن العين المذكورة تقع خارج السور وهذا خطأ، لأنها تقع داخله في الجانب الشمالي من مسجد وجامع بالكلي.

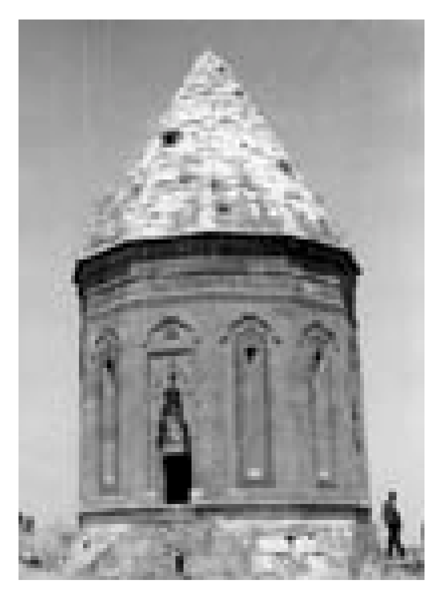
وأما شكل القباب الدوستكية، فلم تصل إلينا معلومات عنها فلانعلم لذلك هل إنها كانت بيضوية أو بصلية أو برجية أو مخروطية، كما لانعرف كذلك شكل قاعدتها مدورة كانت أم مربعة أم مثمنة الجوانب أم غير ذلك. ولاندري كذلك مدى تشابه تلك القباب مع تلك التي شيدت بعد العهد الدوستكي الموجودة في خلاط وأرضروم وولاية وان، وهي من أجمل القباب في العالم الإسلامي. وبعض تلك القباب مزخرف زخرفة بديعة جداً مثل قبة أرغن خاتون وقبة هوستا شاكر في خلاط وقبة حليمة خاتون عند مدينة وسطان وصورتها في الصفحة التالية(٧).

يحتمل أن القباب الدوستكية كانت تمثل نموذجاً للفن الكُردي في القباب، وكانت ذات صلة بالقباب الموجودة في كُردستان قبل العهد الدوستكي، مع العلم أن تاريخ تشييد القباب في كُردستان يرجع الى ما قبل الإسلام. فقد كانت الكثير من البنايات قبل الإسلام في أرمينيا (التي تشمل قسماً غير قليل من كُردستان الوسطى وبلاد ما بين النهرين وفارس...) تعلوها القباب(٨). علاوة على ذلك يرى العديد من الباحثين مثل المس بيل ورابراكوس وكذلك تامارا رايس كما ورد في (السلاجقة، ص١٧١)، أن شكل القباب المخروطية التي إعتبرت من الطراز السلجوقي مأخوذ من خيام الكُرد وبدو آسيا الوسطى، فضلاً عن أن أصل هذه القباب وجد في أرمينيا لصلته بأبراج كنائس الأرمن.

(٦) مجلة سومر العدد ٢٥. راجع أيضاً عطا الحديثي وهناء عبدالخالق، القباب المخروطية في العراق، ص٩.

(٧) تقع هذه القبة العظيمة ذات الطابقين والروعة الفنية على ساحل (بحيرة وان) مباشرة. شيدها الأمير الكُردي الهكاري عزالدين (بن مجلى بن أسدالدين بن منكلان) سنة (٧٣٦هـ = ١٣٣٥-١١٣٦م). هي أقدم من قبة أرغن خاتون التي شيدت سنة (١٣٩٧م). بين القبتين شبه كلي أو كبير في الزخرفة والسقف المخروطي والقاعدة المثمنة. والمعمار الذي بناها كان (أسد بن هاوند) الخلاطي على ما هو مكتوب فوق إحدى نوافذها. صورتها في آب ١٩٧٧.

(٨) أحمد فكري، مساجد الإسلام، ج١، مسجد قيروان، ص١٠١.



قبة حليمة خاتون

المنظرة

هي عبارة عن (كشك) عالٍ يطل على ماحوله أو على جهة من الجهات، كان الملوك يجلسون فيه للنزهة مع ندمائهم. كانت (المنظرة) موجودة في مصر أيضاً ولا شك بأنها، بسبب وظيفتها، كانت تتمتع بصفات معمارية جميلة.

لقد شيدت الدولة الدوستكية منظرتين في العاصمة فارقين. الأولى شيدها نصرالدولة، عندما شيد قصره (دار الإمارة) في موقع برج الملك كجزء من القصر أو مستقلاً عنه. وكان قد بوشر ببناء القصر في سنة (٤٠٣هـ = ١٠١٣م). ذكر الفارقي في (ص١٠٧) أن المنظرة، والتي سماها المنظرة العتيقة (لأن نظام الدين شيد منظرة جديدة) كانت تطل على الربض أي على الأراضي الواقعة في شمال المدينة بينها وبين الجبل)، فقد ذكر في (ص٢٠٤) أن نظام الدين كان جالساً فيها في إحدى الليالي المقمرة يشرب فيها ومعه (إبن عيسون). فخرج المنجم ونظر الى المدينة وعمارتها والى إشراقة سورها والى الربض وكثرة بساتينها. فقال لنظام الدين ما أحسن هذا البلد وأكثر العمارة التي فيه، ولكن الطالع يقضي أن الظلم والخراب سيستوليان عليه بعد زوال دولتك. فيُعلم من هذا بأن هذه المنظرة كانت على قوتها، لأن نظام الدين عندما كان جالساً فيها كان قد مرّ على بنائها أكثر من ستين سنة.

وفي رأيي أن جزءً من تلك (المنظرة العتيقة) لازال موجوداً حتى الآن. وهو البرج الصامت (غير المجوف) البارز عن مستوى السور الى أمام والمشيد بالحجر الأبيض، مثل باقي السور المسمى حالياً بقلعة زنبيل فروش (كەلها زەمبیل فرۆش)، الواقع بين التل في الزاوية الشمالية الشرقية من السور



قلعة زنبيل فروش

الذي كان عنده (باب الشهوة) وبين (باب الهوة) الذي عليه كتابة بإسم نصرالدولة. وهو ليس برجاً حقيقياً، وإنما هو جدار برجي وطلعة في السور نحو الخارج بمقدار عدة أمتار تطل على الربض. وهي تعتبر الآن أعلى نقطة مما تبقى من سور المدينة. ويحتمل أن إرتفاع المنظرة كان في وقته حوالي (١٥) متراً أو أكثر، ولكن قسماً من قمتها قد تهدم. وفي الجزء الأعلى منها شباك طولي، ولايوجد طريق الى قمته وتوجد عند مستوى بداية الشباك من الداخل آثار جدار سور أو بناية كانت ملتصقة به، كما يتضح من هذه الصورة التي أخذناها.

كان السكان يسمون هذه المنطقة من السور بـ(شادور) مما يحتمل أنه جاء من (شاذروان)، أي (المنظرة)، الذي يعطي معنى مشابهاً لمعنى المنظرة في إطلالتها على الجهة المقابلة. وقد نُحت وجه أحجار على مستويين، ولا يستبعد أنها جُددت في وقت ما، بحيث أن وسط الحجر أبرز من أطرافه . بحيث كوّن شكلاً مربعاً أو مستطيلاً متقدماً الى الأمام، ويوجد الطراز نفسه في أماكن أخرى من البناية أو البرج المخمس القريب من قلوفح جنوباً أي في الزاوية الجنوبية الشرقية من برج الملك وعليه كتابة بإسم نظام الدين نصر بن أحمد بن مروان، وأخرى بإسم الملك الكامل الأيوبي مؤرخة سنة (٦٤٩هـ) وفوق الكتابة صورة لأسدين بينهما (قرص الشمس). إن الأجزاء المشيدة بهذه الأحجار تعود الى ترميمات أجريت بعد العهد الأيوبي. ويحتمل أن البناية اليمنى في صورة سليمان سافجي العالية، وهي بعرض غرفة واحدة فيها شباكان في جداره الجنوبي (لم تبق الآن) - تجديد للمنظرة. علماً بأن هذا البرج (قلعة زمبيل فروش) الذي يشبه منارة مربعة لم يُبنَ لغرض دفاعي وإنما للزينة(٩)

ولايبعد كثيراً عن الزاوية الشماليه الشرقية للسور وإنما هي بقربها. والثانية، أي المنظرة الثانية، شيدها خامس الملوك الدوستكيين نظام الدين بن نصرالدولة فوق برجين صغيرين داخل باب المدينة. أي فوق الباب الخلفي لباب قلوفح (باب كولفا - دەرگەهێ كولفا) الشرقي، أي الباب الواقع في السور الثاني (السور الداخلي الذي يقع خلف السور الخارجي وخلف الباب الخارجي بخمسة أمتار ونصف). وكان قد تم تركيب مرآة كبيرة في المنظرة أقيمت للزينة. وقد أشرف على بناء هذه المنظرة وتركيب المرآة القاضي أبي الحسن أحمد بن البغل مدير المنظرة والسور، حسبما ذكره الفارقي في (ص١٠٧) وكذلك إبن شداد في (الأعلاق الخطيرة، ورقة ٧١).

شاهد ياقوت الحموي أثناء زيارته الى فارقين سنة ١٢٢٥م آثار المرآة وقال في (معجم البلدان، ج٤، ص٧٠٤) أن البرج سمي برج المرآة، لما كانت عليه مرآة عظيمة يشرق نورها إذا طلعت الشمس على ماحولها من الجبال. وأضاف إن بعضاً من ضباب الحديد لا يزال موجوداً في البرج. مما يدل على إستخدام الحديد في بناء المنظرة أو في تركيب المرآة فقط على المنظرة. وقد شاهد إبن شداد أيضاً في القرن الثالث عشر آثار الحديد في المنظرة المشتملة على المرآة. وكان هذا الباب موجوداً الى النصف الأول من القرن العشرين حيث في كتاب بيسان أوغلو (ص١٤٤) صورته في الصفحة التالية.

تشاهد على الباب غرفة حديثة نوعاً ما ذات أربعة شبابيك، شُيدت في مكان المنظرة مع بقاء عدد قليل من أحجار المنظرة في القسم الأسفل من جدار الغرفة الأيمن. ومن المحتمل أن المنظرة كانت سالمة حتى عهد إبن شداد. ولكن المرآة لم تبق الى عهده، بل لم تبق حتى الى عهد الحموي الذي شاهد المكان الذي نُصبت عليه وآثار الحديد فيه. ولم يذكر كلاهما المنظرة ولا يستبعد كونها قد رممت أو جُددت في القرون التالية أيضاً. ولاشك بأن قسماً واحداً على الأقل من المنظرة قد بقي الى أن تم

(٩) قصة زمبيل فروش (بائع السلال) من أشهر القصص الكُردية. هي قصة صوفية تدور حول أحد الأمراء الذين ترك الدنيا والثروة وأخذ يبيع السلال متجولاً في المدن الكُردية. كان المذكور شاباً جميلاً تراه زوجة أحد الأمراء في فارقين في قلعة (زەمبيل فرۆش) أي (قصر نصرالدولة) فتدعوه الى داخل القصر بحجة شراء السلال منه، ثم تراوده عن نفسها، فيأبى ويلقي بنفسه من على القلعة الشاهقة وينزل الى الأرض دون أن يتأذى.

وللقصة نص باللهجة الكرمانجية الشمالية دوّنها مرادخان البايزيدي، ولها نص بالكرمانجية الجنوبية (سۆرانی) دونها المرحوم حاجي جندي من كُرد أرمينيا. وقد ذكرها (بسري كونيار في ج٣، ص٣٠٨ و٩١) وقال إن القصة في الأصل عبارة عن فاجعة (محمد بن أبي الصقر) أحد وجهاء فارقين والمناويء لحكم الأمير أبي علي حسن بن مروان، والذي ألقاه أبو علي من على السور ومات، وذلك سنة (٣٨٤هـ = ٩٩٤م) على ماذكرناه في الجزء الأول، ص١٣٣، الطبعة الأولى. وفي جريدة (هاوكاري) العدد ١٨٨ والصادر في ١٢/ ١٠/١٩٧٣ نشرنا مقالة بخصوص جذور القصة التي حدثت في فارقين ولها علاقة بتاريخ الدولة الدوستكية. أما المكان الذي ألقي منه إبن أبي الصقر من فوق السور، فلم يكن هذا المكان لأنه يفهم من كلام الفارقي (ص٦٨) ان ذلك المكان كان برج باب المدينة أو بالقرب منه. وعند ذكر باب المدينة غير مقيد بباب دمعين- يقصد به (باب أرزن) الواقع في غرب الزاوية الجنوبية الشرقية من السور بمسافة حوالي مائة متر أو أقل. أما (باب الهوة) الذي بقرب من زمبيل فروش غرباً، فكان مسدوداً مع (باب قلوفح) في عهد أبي علي، بينما كان كل من (باب الربض) في الزاوية الشمالية الغربية و(باب باقوسي) بعيداً عن قلعة زمبيل فروش ويحتمل أن يكون المقصود (باب الربض) حيث كان الربض ينتهي بالجبل بمنبع ماء المدينة (وفيه ينابيع أخرى غير كبيرة) المكان المناسب للإحتفال بالعيد. بخصوص تلك الأبواب راجع (الفارقي، ص٨٦).



باب كولفا - المنظرة والمرآة

تشييد الغرفة المذكورة في مكانها. هذا مع العلم بأن الآثار والتراث لم يتضررا في العهود السابقة قدر الضرر الذي لحق بهما الى ستينيات القرن العشرين في بلدان الشرق الأوسط، وخاصة في بلد مثل كُردستان نتيجة لإنعدام الوعي لدى سكانها وقلة إهتمام دولها بالآثار والتراث.

ومن المؤسف أني لم أجد لهذا الباب، الذي كانت عليه المنظرة ومرآتها، أثراً سنة ١٩٧٧، لأنه قد تعرض للهدم من قبل بعض الجهلاء من السكان الذين أرادوا أن يبنوا لهم محله داراً قبيحة كقبح ضميره. ولذلك فقد فقدنا المميزات المعمارية التي كانت تتحلى بها المنظرة.

وأما جامع فارقين الكبير، فبسبب الترميمات التي أجريت عليه، ضاعت تفاصيله المعمارية العائدة للدولة الدوستكية عدا بعض التجويفات الداخلية في السقف بالقرب من النهاية الغربية منه، التي تعود الى العهد الدوستكي وكانت تستخدم لنقل صوت الإمام الى أرجاء الجامع الفسيحة. وعندما بوشر بتجديده في العهد الأرتقي جرى إحياء طراز التجويفات في الأقسام المتهدمة من الجامع للغاية نفسها. ويوجد في الجدار الشمالي وتحت إفريز المقنطرات على الأقل بابان يعودان الى ما قبل العهد الأرتقي، وهما مثيران للإهتمام معمارياً، كما ترى من صور بسري كونيار (٢٠٥-٢٠٧). ولكني لا أستطيع البت بكونهما من العهد الدوستكي، وذلك لأنهما مشابهان لباب كنيسة مريم البيزنطية في مدينة دياربكر. أما جامع نصرالدولة في دياربكر والذي مر بأدوار تعميرية عدة، فلم أتمكن من دراسته عندما رأيته، دراسة دقيقة.

وبهذه المناسبة تجدر الإشارة الى أنه نشأ في كُردستان معماريون مهرة، وتشهد على إبداعاتهم ما خلفوه من آثار رائعة من المباني والقلاع والأسوار والمساجد والقباب والمنارات والجسور وغيرها، كقلعة

بدليس وسور دياربكر والجامع الكبير وجسر باطمان والمنارة المعلقة الحجرية المشيدة على أربعة أعمدة حجرية في دياربكر، وجسر باطمان وقباب خلاط وكذلك المدرسة الياقوتية والخاتونية (جفته مناره) في أرضروم، والمدرسة الزنجيرية في ماردين، وهذه المدارس التي تزينها الزخارف البديعة وغيرها من الآثار التي تعود الى القرون الوسطى.

كما قام معماريون مهرة من كُردستان ببعض الأعمال البنائية في الخارج، وشيد هؤلاء آثاراً يعتبرها علماء الآثار ومؤرخو الفنون الإسلامية من الآثار الرائعة في فنها المعماري. ففي النصف الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي، أي في العصر الدوستكي، إستعان بدر الجمالي وزير الخليفة الفاطمي (المستعلي) بثلاثة أخوة معماريين من سكان مدينة الرها (أورفه) بإقليم دياربكر، في تجديد ثلاثة من أبواب سور القاهرة، وقد بنى كل منهم باباً منها(١٠). كما شارك بعض من سكان نصيبين في بناء الدير القبطي المعروف بالدير السرياني في وادي النطرون بمصر، والذي يزخر بالزخارف الجميلة المتأخرة عن العصر الطولوني(١١)، أي بعد القرن التاسع الميلادي. وقام الحاج منجبرتي الخلاطي بصنع منبر جامع علاء الدين في مدينة قونية عام (٥٤٠-٥٤١هـ = ١١٤٥-١١٤٦م)، ولايزال هذا المنبر قيد الإستعمال ويعتبر واحداً من الآثار الفنية، وأسم صانعه مكتوب عليه(١٢).

وفي عام ٦٢٦هـ = ١٢٢٨م) بنى خرامشاه بن مجيد الخلاطي بالإشتراك مع أحمد إبراهيم التفليسي البوابة الشمالية ذات الروعة الفنية للجامع الكبير في ديوريغي(١٣). وقام هذان البنّاءان في نفس السنة ببناء مستشفى الأمراض العقلية في نفس المدينة، وهو فريد في طراز بنائه، ولعل أحسن وصف له هو أنه زاه كثير الألوان والزينة أكثر من كونه عملاً غريباً كثير الزخرفة(١٤). لقد نشأ في خلاط كثير من المعماريين والنقّاشين، مثل قاسم بن استاذ علي ويزد بن فاتح وأصيل بن ويس وهاوند بن برگي وقاسم بن محمد(١٥).

هذا وللبنائين في ماردين وطورعبدين شهرة فائقة في مهارتهم المعمارية في تشييد القصور الحجرية، ومعظمهم من المسيحيين. وقد إشتهر منهم في الماضي هوستا حەنه (حنا) من البنائين ولاسيما بعد أن شيّد (برجا بەلەک) من قلعة الجزيرة. فأصبح هذا مضرب المثل للبنّاء الكُردستاني الماهر حتى الآن، ولذا يتردد إسمه كثيراً في الأغاني الكُردية الشعبية. أما سكان خلاط فلا زالوا يحتفظون بما إشتهر به أجدادهم أو قدماءهم من فن العمارة. ويحتمل أن سكان كُردستان تركيا إستفادوا في العمارة من الآراميين والبيزنطيين القدماء، حيث كان فن العمارة راقياً في المناطق العربية منها. ويذكر التاريخ أن الملك الساساني (قباد الأول) لما إستولى على مدينة دياربكر (آمد)

(١٠) الدكتور جمال الدين سرور، مصر في عهد الدولة الفاطمية، ص٧٨.

(١١) دكتور زكي محمد حسن، الفن الإسلامي في مصر، ص٧٢.

(١٢) تمارا رايس، السلاجقة، ص٢٢٦.

(١٣) نفس المصدر، ص٢٣٢ فيه صورة لقسمين من البوابة.

(١٤) نفس المصدر ص١٦٥، ورد هنا - كورامشاه الجيلاني الخلاطي.

(١٥) في كتاب AHLAT MEZAR TASLERI لبيهان قره مغاره لري أسماء عشرين بنّاءً ونقّاشاً من خلاط.

في أوائل القرن السادس، دخل حماماتها فأعجب كثيراً بعمارتها وتنظيمها، فأمر ببناء حمام على نفس الطراز في كل مدينة من مدن فارس(١٦).

ومن الجدير بالذكر ان الفن المعماري في كُردستان تركيا أرقى من أمثاله في باقي مناطق كُردستان. فدور الفلاحين على سبيل المثال في مناطقها، وخاصة الجبلية منها، لا تقاس بمثيلاتها في مناطق أربيل وكركوك والسليمانية، عدا منطقة هورامان، من حيث المظهر والمتانة. وكثيراً ما تجد دوراً جميلة ذات طابقين في حين أن أصحابها فلاحون صغار. ولم تكن هذه المهارة المعمارية حديثة، بل موروثة من الأجيال الغابرة. وأخيراً لم يصلنا من أسماء البنائين في العهد الدوستكي سوى عدد قليل منهم نصير بن حبيب وعبيد بن (سفجر؟) وموسى بن مزيد وأبو سعد بن (حميض؟).

الزخرفة

إستخدمت الدولة الدوستكية زخارف مختلفة في تزيين عماراتها وآثارها، ولعل القصر الدوستكي الذي شيده الأمير نصرالدولة سنة (٤٠٣هـ = ١٠١٢م) من أهم عماراتها المزخرفة. فقد أولي إهتمام كبير لزخرفته، حيث ذكر الفارقي بأن القصر زُوق وأُجري في حيطانه وسقوفه الذهب(١). أي زينت بزخارف من ذهب، كما مر من نص كلامه في موضوع فن العمارة. أما جامع العجم أي الجامع الكبير في فارقين، والذي جدد عمارته نصرالدولة، فكان يضم زخارف بديعة. أما سور مدينة دياربكر (آمد)، فلا تزال أقسام منه تضم الكثير من الزخارف الدوستكية الدقيقة في فنها، والتي بلغت أرقي مستوى في فن الزخرفة. هذه الزخارف التي أبدع فيها الفنان الكُردستاني الدوستكي هي الموجودة في الأشرطة الكتابية على عدد من أبراج وأقسام السور. وقد نالت تلك الأشرطة والأفاريز الكتابية الكوفية بزخارفها ومادتها الكتابية عناية الباحثين وفي مقدمتهم المستشرق السويسري (فلوري) وأستاذه (ڤان برشم)، حسبما ذكرناه في موضوع تطور الكتابة الكوفية.

أما الباحث (ديماند)، فقد إعتبر تلك الزخارف من فنون النحت الراقية حينما قال: "ومن حسن الحظ أن المؤرخ من تاريخ دياربكر يكشف عن مدى التطور الذي أصاب فن النحت الإسلامي وفنون الزخرفة بصورة عامة في العصر السلجوقي. فبينما جرت عادة الفنانين في العصر العباسي على كتابة الخط الكوفي على أرضية خالية من الزخرفة، فإننا نجدهم في نقوش دياربكر في عهد المروانيين (أي الدوستكيين) ينهون الحروف الكوفية بتفرعات نباتيه مورقة. وتاريخ تلك النقوش هو ٤٢٦، ٤٣٧، ٤٥٧، ٤٦٠، ٤٧٦هـ".

ثم يذكر ديماند أن السلاجقة هم من إبتكر الزخرفة الحيوانية في الكتابات الكوفية بدياربكر(٢). ولكن الباحث المذكور لا يعلم بأن السلاجقة ليسوا مبتكريها، وإنما إبتكرتها الدولة الدوستكية ومنها

(١) آدم متز، الحضارة الإسلامية، ج٢، ٢١٧.
(٢) الفارقي، ص١٠٧.
(٣) ديماند، الفنون الإسلامية، ص١٠٠.

إنتقلت الى السلاجقة في آثار دياربكر ودليلنا على ذلك الرسوم الحيوانية التي نجدها في الكتابات الدوستكية، والتي تعد دليلاً آخر على إهتمام الدولة الدوستكية بالزخرفة والنحت.

لقد كان الفنان الدوستكي موفقاً في التكثير من تنويع الزخارف وفي الإبداع الفني، ولهذا إستطعنا أن نشخّص في عدد قليل من الأشرطة الكتابية واحداً وخمسين نوعاً من أنواع الزخرفة النباتية، كما يتضح من لوحتي الزخارف، وهما منقولتان عن لوحتين للكتابات الدوستكية نشرناهما في موضوع تطور الكتابات الكوفية المزخرفة، فراجع هناك(٤).

الرسوم الحيوانية

لم يحصر الفنان الدوستكي إهتمامه بالزخرفة فقط، بل وزعه بين الزخرفة والنحت. والمقصود بالنحت هنا الرسوم الآدمية والحيوانية المنحوتة على الأحجار. ورغم إندثار العديد من الآثار والعمارات الدوستكية، إلا أننا نجد عدداً من هذه الرسوم على آثارها الباقية، وهي رسوم دقيقة تشهد على مدى دقة وبراعة الفنان الدوستكي في النحت والتصوير. وبخصوص موضوعنا (النحت)، يوجد رسم لأسد على جسر دياربكر الذي شيده الأمير نظام الدين على نهر دجلة سنة (٤٥٧هـ = ١٠٦٤م). ويمثل الرسم أسداً متجهاً لليمين رافعاً ذيله نحو ظهره ولسانه طالع كأنه يلهث. ولعل الفنان أراد عن طريق تصوير لسان الأسد خارجاً من فمه أن يرمز الى ضرورة الماء للحياة أو أن له معنى آخر. وعلى الجنب الأيمن للأسد صورة رمز يشبه مثلثين قاعدتيهما مرتبطتين بخط. وقد علّق (ماكس ڤان برشم) على هذا الرسم وتساءل عما إذا كان شعاراً للدولة الدوستكية. وأورد ڤان برشم وكذلك بسري كونيار صورة لهذا الرسم، وأشار الى وجود رسم لأسد مماثل على أحد الأبراج عند باب خربوت شيده الأمير ناصرالدولة منصور سنة ٤٧٦هـ(٥) كما ذكرنا في موضوع (شعار الدولة).

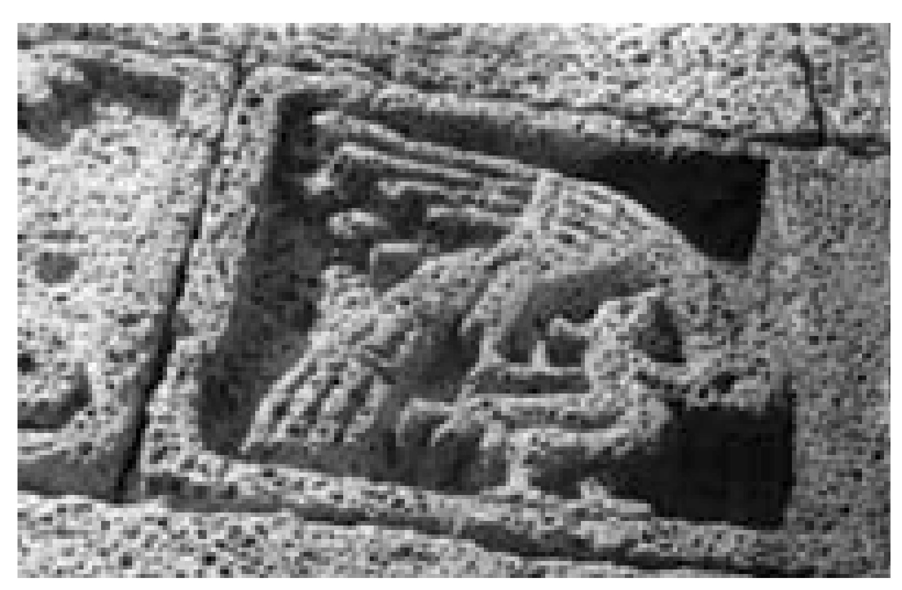
لقد وجد ڤان برشم رسوماً حيوانية من العهد الدوستكي على سور فارقين أيضاً، وقال عنها: "توجد على السور أشكال على هيئة نجمة البحر وبها خمسة فروع على بابين صغيرين (أي رأس كل فرع) رسوم على شكل عصافير وقد تركها المروانيون (الدوستكيون) فيما يسمى بـ(ركن محراب) حفراً في صخور السور". وأضاف ڤان برشم بأنها من خصائص الفن المرواني(٦).

وتوجد صورة لهدهد أيضاً في الكتابات الدوستكية على برج مربع من سور دياربكر في الشريط الكتابي المؤرخ سنة (٤٦٠هـ) من عهد نظام الدين. والهدهد في الصورة متجه نحو اليسار وقد وضع رجليه على حرف العين من كلمة (وأربعمائة) في نهاية الكتابة. ويكوّن ذلك الرسم لصغر حجمه

(٤) ساعدنا مشكوراً الفنان الكُردي دارا محمد علي الأربيلي بنقل الزخارف عن الأصل، أي عن اللوحتين اللتين تجد صورتهما في الموضوع المشار اليه، وقد بذل جهده لكي تكون طبق الأصل، ولو أن الزخارف الأصلية كانت أدق بكثير.

(٥) ص٣٤ من: Van Berchm / Amida . Besri Konyar / Diyarbakir Tarikhi.، ج٢، ص٣٤، ٣٦، والصورة نقلناها من المصدر الأخير وهي الصورة رقم (٢٥).

(٦) نفس المصدر الأخير، ص٣٤.



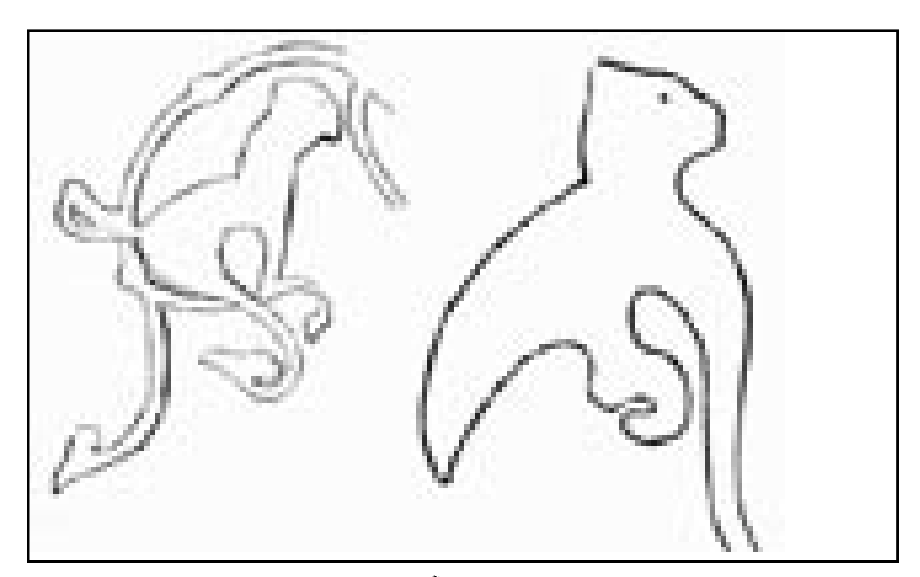
النسر والحمامة

زخرفة حيوانية للكتابة، كما أشرنا اليه في موضوع الزخرفة، وهو في غاية الإتقان والإبداع الفني. فقد إلتجأ الفنان الى مميزات عديدة لإبراز مكانة الهدهد في مجال الإعتقاد الشائع فيه من قبل المجتمع إبتداءً بالمنظور الجوي، أي إمتلاكه البعدين (أي من الجانب والفوق)، ثم أسلوب مطابقة الطبيعة وعدم الإلتجاء الى التجريد في أعضاء جسم الطير. وإختار الفنان رسم الهدهد في كتابة تضم اسم نظام الدين، ليرمز الى سياسته الحكيمة في معالجة المشاكل، مثلما كانت تعالج بالهدهد أمراض عديدة نفسية وغير نفسية.

ويوجد أيضاً رسم عصفور منحوت في كتابات دوستكية على سور دياربكر صورها ڤان برشم، ولكن تاريخها غير واضح بسبب التشويه. والرسم منحوت فوق الكلمة الثانية أو الثالثة من السطر الثاني من الكتابة، وأظن أن ڤان برشم لم يذكر هذا الرسم أيضاً(٧).

وتوجد على سور قلعة دياربكر المسماة (إيچ قلعه)، الواقعة في الضلع الشرقي من السور، كتابة كوفية من عهد الأمير نظام الدين بن نصرالدولة مؤرخة في سنة (٤٦٤هـ = ١٠٧١م). وقد نُحتت في بداية الكتابة صورة نسر وحمامه، وفيها وضع النسر رجليه على ظهرها وهو آخذ برقبتها بمنقاره ليفترسها. الصورتان تم نحتهما بدقة فنيه تشهد على مهارة الفنان، وقد صورناهما في ١٩٧٧/٨/٢١ مع صورة شريط الكتابة الطويل، وبين الكتابة نجمتان إحداهما سداية والأخرى خماسية، وفي أعلى الصفحة صورة النسر والحمامة.

(٧) رقم صورة الكتابة المذكورة في آميدا ١١:١٢، وقد عرضت الصورة على عدد من ذوي الإختصاص في مديرية الآثار العامة ببغداد لغرض قراءة الكتابة، ولكنهم لم يتمكنوا من تشخيص تاريخها.



صورة تجريدية للنمر وحيوان آخر بين زخارف الكتابات

وتجدر الإشارة الى وجود صورة للشمس مشعة في كتابة سنة (٤٣٧هـ) التي فيها إسم نصرالدولة وولده سعدالدولة أبو حسن، موجودة على أحد الأبراج الواقعة في شرقي (كچي برجو) من سور دياربكر، كما سيأتي نص الكتابة.

رسوم تجريدية

من الرسوم المنحوتة على الآثار الدوستكية أيضاً، رسم (نمر) بأسلوب تجريدي بين الزخارف النباتية اللولبية، وذلك في الكتابة المؤرخة (٤٤٤هـ) الموجدة على سور دياربكر من عهد الأمير نصرالدولة. والرسم المذكور صغير الحجم بحيث أن الباحثين لم يتمكنوا من تشخيصه من بين الزخارف، وقد رسمه الفنان بشكل تجريدي بديع بحيث تنتهي كل من يد النمر ورجله اليمنى بفرع نباتي وكذلك ذيله. وقد مزج النحات بين أعضاء جسم النمر والفروع النباتيه. ويمثل هذا الرسم أيضاً عنصراً زخرفياً حيوانياً للكتابة.

إختار الفنان النمر، لأنه رمز للقوة وخفة الحركة. ومن الجدير بالذكر أن الرسم يأتي في أوائل السطر الأول من الكتابة، التي مضت صورتها في موضوع تطور الكتابة الكوفية المزخرفة. ويوجد رسم تجريدي لحيوان آخر رأسه يشبه رأس حيوان سنوري، غير أن له جناحان ينحدر أحدهما ليتلاصق بحرف الميم من كلمة (بعمله) من السطر الأول من الكتابة المؤرخة بسنة (٤٢٦هـ)، التي أدخلنا صورتها في موضوع الكتابة الكوفية أيضاً. لقد ذكرنا في موضوع العملة الدوستكية أن نهاية بعض الحروف من كتابات النقود تنتهي برأس البط أو الوز.

لاشك أن الدولة الدوستكية قد تركت آثاراً فنية معدنية وخشبية كالأبواب والتحف. ويشير الفارقي أكثر من مرة الى باب من النحاس سماه (باب الصفر)، صنعه نصرالدولة خصيصاً لباب قصره بمدينة النصرية، التي شيدها على الضفة الشرقية لنهر باطمان، وكتب عليه إسمه مما يدل على أهمية هذا الباب في صنعه وفنه. وقد وجده الفارقي على باب جامع فارقين كما ذكرنا(٨).

ويظهر أن الصناع في كُردستان قد تفننوا في صنع الأبواب المعدنية، مثل باب كنيسة فارقين الحديدي المشبك الذي أعجب به الرحالة الفارسي ناصر خسرو، وأكد على انه لم يجد له مثيلاً في اي مكان آخر. ووجد ايضاً باباً من الحديد على أحد أبواب مدينة فارقين من جهة الغرب وأضاف ان هذا الباب يعلوه طاق حجري(٩).

تخطيط وتجديد مدن

قامت الدولة الدوستكية بإنشاء الكثير من المشاريع العمارانية في بلادها، من تخطيط مدن وبناء قصور وفنادق وخانات (الرُبط) وحمامات ومساجد وبناء المساجد والجسور، وقنوات الماء وتشييد التحصينات الدفاعية كالقلاع والأسوار. وقد حصل في عهد الدولة الدوستكية حركة عمرانية نشيطة أشار إليها الطبيب ابن بطلان بإشتغال الناس في (الرزوجار) أي العمل في البناء كما ورد ذكره في أوائل موضوع الحالة الإقتصادية.

لقد وصل الينا ذكر عدد من تخطيط وتجديد مدن كانت من معالم حضارة كُردستان الوسطى في العصر الدوستكي، منها ما ظل خالداً حتى اليوم رغم مرور ما يقرب من ألف سنة عليها، وقد أشرنا الى بعضها في مناسبات اقتضت ذلك. ومن تلك المشاريع:

مدينة النصرية

باشر الملك الدوستكي نصرالدولة ببناء مدينة له على ضفة نهر باطمان الشرقية سماها (النصرية) نسبة الى لقبه نصرالدولة أو كنيته ابي نصر. وإختار لتخطيط المدينة موقعاً يمتاز بجماله الطبيعي لاسيما وقت الربيع. وكان يقضي في كل سنة فصل الربيع في المدينة . وقد وفر في هذه المدينة أسباب العيش والرفاهية والنزهة. وقد أعجب المؤرخ الفارقي بهذه المدينة، فقال في (ص١٤١) بصدد بنائها وبناء أماكن في الطريق للإقامة فيها أثناء سفره إليها ما يلي: "... بنى نصرالدولة النصرية وأحسن عمارتها وبنى قصراً مليحاً على جانب الشط، وعمل فيها الأسواق والحمامات والدور وبنى لكل من بني عمه وأولاده دوراً وتدبرها جماعة من الناس وعمل دولاباً على الشط ورد الماء اليها وعمل

(٨) الفارقي، ص١٤١، ١٤٥.

(٩) ناصر خسرو، سفرنامه، ص٤٨. راجع أيضاً لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ص١٤٣، و١٤٠-١٤١. لعل الباب الذي يعلوه طاق حجري هو باب القصر العتيق وسمي قديماً أيضاً باب الفرح والغم، وكانت عليه منحوتتان، راجع الجزء الأول، ص٧٨، ٨٠.

البساتين والبرك... وعمل (باب الصفر) الذي هو اليوم بالجامع وركبه على باب قصره وعمل فيها كل ما يراد. وهو أنزه الأماكن وأحسنها. وكان الأمير زمان الربيع يخرج هو وأولاده وجواريه ونساؤه أجمع وأصحابه وبنو عمه الى النصرية ويقيمون بها في تلك المروج والأزهار مدة الربيع... وكان أول يوم يسيرون من المدينة الى القرية المعروفة الآن بباطري وهناك مسجد وفندق أثره باق الى الآن على النهر(١). فيقيمون يومهم ثم يصبحون فيسير في اليوم الثاني رجاله الى أسفل النهر عند (بابودين) وقد بنى الوزير فخرالدين بن جهير المسجد الذي يعرف بمسجد الشيخ الى اليوم وفندقاً وداراً وحماماً، فيقيمون يومهم ويصبحون من غدوة فيسيرون الى الجنينة فيعبرون الجسر ويقيمون بجانب الشط الشرقي وكان بنى هناك على رأس الجسر عند تل بنان مسجداً وفندقاً فيقيمون يومهم ويصبحون فيسيرون من غدوة الى النصرية ويتفرجون في الطريق على المروج والأزهار والصحارى ويقيمون بالنصرية هذا الربيع الى أن يحمى الحر ويعودون الى المدينة".

لم يحدد الفارقي وغيره تاريخ بناء النصرية، والأرجح عندي أن نصرالدولة بناها في أواخر عشرينات أو أوائل ثلاثينات القرن الخامس الهجري، أي في الفترة من (١٠٣٦-١٠٤١م). ولهذا فإن ما حددناه من تاريخ بنائها بسنة (٤٢٣هـ) في الجزء الأول من كتابنا هذا خطأ. وقد إستفسرت من العديد من سكان فارقين عن مكان النصرية وعما اذا كان هناك إسم قريب لها، وخاصة من الأستاذين الملا محمد المفتي مفتي فارقين(٢) والملا عبدالهادي إمام الجامع الكبير بفارقين وإبن العلامة الشهير الملا حسين كچك(٣) فأجابا بأنه كانت هناك بليدة بإسم (ألمدينا) كانت تقع على ضفة نهر باطمان وكانت مركزاً لناحية. ولكن جرفتها مياه نهر باطمان قبل عشرين سنة فتم إتخاذ باطمان مركزاً لتلك الناحية. ولهذا يحتمل جداً أن (ألمدينا- مدينا) كانت هي مدينة النصرية، لأنها كانت تقع في نفس البقعة أو الموقع التي كانت قد بُنيت فيها النصرية. هذا علماً بأن إسم (مدينا) قد ورد في إحدى الأغاني الكوردية بخصوص مذبحة قرية (جانو). وسألت سكان فارقين كذلك بخصوص قرية (باطري)، فقالوا أن هذا الإسم غير موجود، ولكن توجد قريتان أسفل فارقين وعلى نهرها في المنطقة التي كانت فيها (باطري)، وهما قريتا (رشو- رەشۆ) و(تربسپي- تربەسپی). فلابد إذن أن باطري

(١) ورد في نسخة من تاريخ الفارقي إسم (باطرس) بدلاً من باطري والمقصود بالنهر هنا ماء فارقين. وفي أحسن التقاسيم، ص٣١، للمقدسي، كلمة فندق وخان وتَيم ودار التجارة ألفاظ مترادفة.

(٢) كان الملا محمد المفتي عالماً فاضلاً سمعت بأنه إنتقل الى رحمة الله.

(٣) كان الملا حسين بن الملا عبدالله من سكان قرية (دەشتە دەحل) ولعلها (سەردەحل) الواقعة في غرب جزيرة بوتان. درس على العالم الشهير الملا عبدالرحمن الهوسري في (هوسەر) القريبة من الجزيرة، ودرس على الملا فتح الله الورقاني في بدليس وعلى العلامة الملا حامد السعردي من أحفاد الملا خليل السعردي، وذلك في مدينة سعرد. ونال الإجازة العلمية من الملا أحمد مفتي فارقين. أصبح الملا حسين كچك أي الملا الصغير مدرساً في فارقين، وكان من مشاهير علماء وقته. توفي بفارقين سنة ١٩٥٥. كانتولادته في (١٢٨٨هـ = ١٨٧٢م). له خمس مؤلفات (فتح الجليل في الفقه، وقد تم طبعه) وكتاب آخر في علم الكلام وآخر في علم البيان (الإستعارة) وآخر في الرد على الوهابيين والخامس شرح كتاب الملا أبو بكر ميرزا رستمي المسمى (الوردة النضارة في المجاز والإستعارة). وقد زودني بهذه المعلومات الأستاذ الملا عبدالهادي واخوه الملا مهدي أطال الله بقاءهما.

هي إحدى القريتين وقد تغير إسمها. وفي الثاني والعشرين من آب ١٩٧٧، توجهت من فارقين الى نهر باطمان(٤) محاولاً إكتشاف الطريق الذي كان يسلكه نصرالدولة الى النصرية وما على الطريق من قرى، وكذا الفنادق والخانات التي شيدها في الطريق، وإكتشاف آثار الجسر الذي بناه على نهر باطمان في هذا الطريق المتموج. فوصلت قرية بابودين (بابوزين) الباقية بإسمها القديم، والتي تقطنها حوالي (٣٥) أسرة والتي تقع على الجانب الشرقي من وادي ماء فارقين، فلم أجد هناك أية آثار للمسجد أو الفندق أو الدار أو الحمام، التي شيدها نصرالدولة هناك. وسألت سكان (بابودين) عما إذا كانت توجد في حدود القرية آثار بنايات قديمة، فأجابوا بالنفي.

ومن بابودين إتجهنا الى نهر باطمان في طريق ترابي والمسافة بينهما حوالي (٣) كلم. فمررنا بالقرب من قرية (جانو)(٥)، ولم نتمكن من الوصول الى النهر لوقوع جدول كبير على طريقنا تم حفره من النهر. فلم ندخل لذلك الى قرية (پيلەكان) الواقعة على الضفة الغربية للنهر، فرجعنا وإتجهنا شمالاً الى جسر (مالا بادى) الشهير بجسر باطمان (براتمان) التارخي العظيم. وعبرنا من فوق الجسر الحديث وإتجهنا جنوباً بموازاة النهر الي قرية (كيرك) الواقعة على الضفة الشرقية مقابل (پيلەكان) وبينهما النهر في مجراه العريض، وبين القريتين مسافة حوالي (١,٥) كلم. شاهدت آثار (جسر الجنينة) الذي بناه نصرالدولة ولم يبق منه سوى إحدى قواعده غير الكاملة أيضاً. وبالنظر لإتساع مجرى النهر هناك، فلابد بأن الجسر كان طويلاً يصل طوله الى أكثر من (٢٠٠) متر. وقد ذكر الفارقي الجسر بإسم (جسر تل بنان) مرة و(جسر الجنينة) مرة أخرى.

وقد توصلت نتيجة لهذه السفرة الى أن قرية (كێرك) المطلة على النهر وعلى رأس الجسر الشرقي، والواقعة حالياً على الطريق العام فارقين- باطمان- سعرد، هي قرية (تل بنان). أما قرية (جنينة) فيفهم من كلام الفارقي أنها لم تكن بعيدة عن ضفة النهر الغربية، فيحتمل أن تكون قرية (پيلەكان) الواقعة على هذه الضفة التي عندها تل أثري، ولم أصل إليها إن كانت موجودة آنذاك. وبخلاف ذلك فإن (جنينة) قد تكون قرية (جانو) الواقعة في التلال الصغيرة القريبة من النهر بمسافة حوالي كيلومترين مع تقارب الإسمين. ولكن ذُكر لي بأن (جانو) كان إسماً لرئيس القرية عندما كان سكانها من المسيحيين، إن لم يكن من ذكر لي ذلك متوهماً. ولا أستبعد من ناحيتي أن تكون قرية جانو في العهد الدوستكي عند موقع (پيلەكان)، حيث ضفة النهر منبسطة، ثم إبتعدت بعد ذلك بسبب أحد الفيضانات الى موقعها الحالي.

(٤) كان معي محمد الواثق وفائق يشيل والسائق محمود شمس الدين والأخيران من سكان فارقين ومن الوطنيين الكُرد.

(٥) ذكر لي بأن سكان قرية (جانۆ) كانوا مسيحيين قتلت تركيا معظمهم في إحدى حملات الإبادة ضد المسيحيين ولم ينج منهم سوى القليل. وفي كتاب (سترانێ زارگوتنا كوردايه يا تاريقى ل ١١٦-١١٨) وهو كتاب ثمين للدكتور ئورديخان جليلي، أغنية كوردية بعنوان (فەرمانە) أى (حملة إبادة) بخصوص المذبحة التي اوقعتها الدولة العثمانية في سكان (گوندێ جانۆ) وإحراق القرية بحيث لم يبق من سكانها حي عدا أطفال تشردوا في العراء. ثم تتطرق الأغنية الى مذابح المسيحيين في فارقين وبشيرى وغرزان (أرزن) مما تقشعر له الأبدان. ويرد في الأغنية أيضاً اسم السلطان عبدالحميد، مما يفهم ان المذبحة كانت في عهده، ويرد في الأغنية كذلك ذكر جندرمة (ألمدينا) الذي شاركوا في المذابح.



منظر من مدينة ماردين

وخلاصة القول ان سفرتي تلك لم تكن كافية، إذ لم أصل الى (پيلەكان) ولا الى مكان بليدة (ألمدينا)، التي لم تكن بعيدة عن (كيرك) بأكثر من عشرة كيلومترات. كما لم أتمكن من البحث عما كان عند (تل بنان) من مسجد وفندق، ولكن السفرة لم تخل رغم ذلك من فائدة.

تجديد عمارة مدينة ماردين

يظهر أن يد الإعمار والبناء قد إمتدت في عهد الدولة الدوستكية الى مناطق عديدة من البلاد. فسارت لذلك التقدم العمراني جنباً الى جنب التقدم الذي حصل في المجالات الإقتصادية والإجتماعية والثقافية وغيرها. ومن معالم هذا التقدم (مقارنةً بالعهود السابقة) تجديد بناء مدينة ماردين في عهد الأمير نصرالدولة، بعد مرور ما يقرب من سبعين سنة من عهد الدولة الدوستكية. وقد تحدث عن هذه المأثرة العمرانية الحضارية المؤرخ المفتي عبدالسلام الماردیني. فقد ذكر إن ماردين التي ظلت عامرة قريباً من مائة سنة بعد الفتح الإسلامي، إستولى عليها الخراب وخلت من سكانها حوالي ثلاثمائة سنة الى أن عمّرها الأمير المذكور، وقال الماردیني: "... ثم إن ماردين لما دخلت في قبضة الإسلام وحكم بها عامود بن مارية إمتدت عمارتها قريباً من مائة سنة ثم آلت الى الخراب وصاح على أطلالها البوم والغراب وبلدة ليس فيها أنيس إلا اليعافير والعيس وخلت عن نحو ثلاثمائة سنة حتى

إستولى على دياربكر والجزيرة رجل من الأكراد يقال له أحمد بن مروان... وكان من أهل الشجاعة والسماحة والدولة والعظمة... ثم إن المذكور شرع بتعمير بلدة ماردين وعمّر ما حولها من القرى ونقل اليها الرجال والاموال وبنى اسواقها ومساجدها وكانت عمارتها سنة ٤٤٠هـ ولم يزل يرسل اليها نوابه الى ان توفي..."(٦)

(٦) عبدالسلام الماrديني مفتي مدينة ماردين (حكام ماردين أو تاريخ ماردين، الورقة ١١٦ نسخة مخطوطة من مكتبتي كتبت في حياة المؤلف سنة ١٢٥٨هـ) وهو كتاب قيم لم يطبع لحد الان ويقع في (٣٩٤) صفحة. (ماردين) مدينة من كُردستان تركيا، وهي الان مركز ولاية يتبعها أحد عشر قضاءً وتتاخم الحدود السورية العراقية، وتعتبر هامة من الناحية الإقتصادية، حيث بلغ إنتاجها من الحنطة والشعير سنة ١٩٦٥ (١,٠٨٢,٠٠٠) طن من الحبوب ومن الزبيب وحده (١,٠٤٣,٠٠٠) طن وبلغ عدد الأغنام والماعز فيها (١,٢٩٧,٠٠) رأساً. وأما نفوس المدينة، فكان (٣١٠٠٠) نسمة. وبخصوص تاريخ هذه المدينة كانت قلعتها عامرة قبل العهد الدوستكي بحوالي تسعين سنة، وقد تحصن بها حمدان بن حمدون التغلبي جد الحمدانيين، وحاصرها الخليفة العباسي المعتضد وإحتلها سنة ٢٨١هـ = ٨٩٤م) أو التي بعدها. ولما إحتلها هدمها على ما ذكره ابن الأثير في (الكامل، ج٧، ص١٥٤). اما في القرن التالي، فقد ورد ذكرها كقلعة فقط كل من الإصطخري وابن حوقل ولم يذكرا ماردين كمدينة بينما ذكرا المدن والقصبات الواقعة في تلك المنطقة مثل نصيبين ودارا (القريبة من ماردين والتي بناها البيزنطيون في أوائل القرن السادس الميلادي)، وذكر رأس العين وكفرتوثا وغيرها. اما ابن خرداذبه وقدامه بن جعفر فقد أوردا ذكر (كورة ماردين) دون ذكر المدينة، بينما لم يورد لها المقدسي ذكراً في حين ذكر اكثر من عشرين مدينة صغيرة وكبيرة من إقليم الجزيرة. ولم أجد لها ذكراً كذلك في أخبار سيف الدولة الحمداني والروم البيزنطيين الذين وصلت بعض غاراتهم الى منطقة ماردين، ودمروا هناك مدناً مذكورة في معظم المصادر التي تطرقت الى ذكر تلك الأخبار. ومما تقدم يمكن أن نتوصل الى أن مدينة ماردين قبل العهد الدوستكي كانت عبارة عن القلعة فقط، اما المدينة التي تقع في وسط الجبل الذي فوقه القلعة الشماء، فلم تكن موجودة او عامرة وعمّرتها الدولة الدوستكية، فكانت مدينة جديدة ناشئة في النصف الأخير من عهدها ولم تكن ذات أهمية. ولم يذكرها الفارقي في عهدها، بل ذكرها بتسع سنوات من سقوط الدولة الدوستكية، أي في العهد السلجوقي. حيث قال ان واليها في سنة (٤٨٧هـ) كان يدعى (جالستري). وفي سنة (٥٨٠هـ = ١١٨٦م) ذكرها مستنسخ كتاب (صوة الأرض) لإبن حوقل في تعليق له نشر ضمن (ص٢٠٢) بإسم (ربض ماردين) بينما أطلق إسم ماردين على القلعة. حيث قال: "ماردين حصن حصين منيع ومن تحته - أي تحت القلعة - ربع عامر منغص بالسكان ضيق الأسواق وليس بين أيديهم حائل يمنعهم من النظر الى برية رأس العين والخابور وسنجار ومياههم من عيون مجرورة في قنوات وقد إستحدثوا الآن الصهاريج والبرك ليجمعوا ماء المطر حيث كثر الخلق وإزدادت العمارة - علماً ان هذا الشخص عاش في المنطقة ورأى ماردين وغيرها. ويستفاد من كلامه ان اسم ماردين لم يكن يغلب لذلك الوقت على الربض، بل على القلعة مما يدل على ان المدينة كانت حديثة وغير عامرة قبل العهد الدوستكي، أي في زمن كل من الاصطخري وابن حوقل وابن خرداذبه وقدامه وكان الناسخ بعد العهد الدوستكي. وكذلك ذكرها بإسم (ربض ماردين) كل من ياقوت الحموي والقزويني في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) وأطلقا إسم ماردين على القلعة. وقد صرح ياقوت الحموي بان بعض الناس يقولون ان ماردين حديثة وقريبة العهد من زمنه، ولكنه رفض هذا الإدعاء مستدلاً على قدمها بمجيء إسم ماردين في شعر جرير. ولا يخفى بأن ذلك القول بحداثة المدينة له قيمة رغم عدم إقتناع الحموي به، إذَ يمكن ان نجعله تعضيداً لما ذكره عبدالسلام الماrديني. وأنا اظن بأن الأمر إلتبس على ياقوت، فالمقصود بحداثة ماردين هو المدينة بينما المقصود بماردين في شعر جرير هو القلعة التي يرجع تاريخها الى عصر ما قبل الإسلام. وقد ذكر أوليا چلبي بأنها من عصر الإسكندر المقدوني وورد ذكرها في الفتوحات الإسلامية. وهناك ملاحظة أخرى وهي ان صهاريج ماردين احدث من قنواتها المائية وانها (أي الصهاريج) حُفرت في عهد مستنسخ كتاب صورة الأرض كما تقدم، أي في عهد الأرتقيين. اما القنوات فإنها حفرت على الأكثر أثناء بناء المدينة أو في السنوات الأولى من تعميرها من قبل الدولة الدوستكية. ولعلها كانت شبيهة بقنوات الماء في فارقين. وبالمقارنة يحتمل تحديد زمنها، وذلك من إختصاص علماء الآثار. ومن الجدير بالذكر ان ماردين تقدمت كثيراً بعد ان اصبحت مركزاً لإمارة أرتقية اسسها الامير نجم الدين إيلغازي بن ارتق السلجوقي سنة=

مدينة دنيسر

من المحتمل أن الدولة الدوستكية هي التي خططت مدينة (دنيسر) في سهل ماردين، وتسمى الآن (قزل تپه)، وانها بُنيت وأصبحت بلدة في عهدها إذ لم أجد لهذه المدينة ذكراً يدل على وجودها في تاريخ سابق. فمثلاً لم يورد لها ذكراً كل من ابن حوقل والمقدسي والأصطخري والهمذاني وابن خرداذبه والمسعودي، الذين عاشوا في القرن العاشر الميلادي وكانوا من خيرة البلدانيين المسلمين. كما لم يذكرها غيرهم، في حين انهم ذكروا المدن والأماكن المهمة حولها، أو التي في تلك المنطقة مثل ماردين ودارا كفرتوثا ورأس العين. وإن أول مصدر وجدنا فيه ذكراً لها كان نقود الدولة الدوستكية، اذ توجد نماذج منها مسكوكة في دنيسر بتاريخ (٤٠٨هـ = ١٠٧١م) و ٤١٠ و٤١١هـ، كما سلف في موضوع (العملة الدوستكية) في دنيسر[٧].

وحتى إذا كانت قرية قبل العهد الدوستكي، فإنها أخذت بالنهوض كمدينة في العهد الدوستكي، وأصبحت بلدة في طريق القوافل التجارية، وإن إنشاء الدولة داراً للضرب (أي لسك النقود) فيها إنما كان تشجيعاً للناس على الإقامة فيها لتصبح مدينة.

مدينة سعرد

أما مدينة (سعرد)، فقد ذكرها الفارقي في (ص٩١) بإسم قرية سعرد، وذلك في عهد ممهدالدولة. ولكنها كانت موجودة قبل الإسلام كبليدة لورود إسمها في الفتوحات الإسلامية[٨] وقد ذكر الأصطخري في (مسالك الممالك، ص٦٧) أنها مدينة صغيرة بغير سور، ولا شك بأنها قد توسعت في العهد الدوستكي.

=(٥٠٢هـ = ١١٠٨م). ولا يزال فيها الى الآن بعض من آثار الأرتقيين مثل المدرسة الخاتونية والمدرسة الزنجيرية ذات الزخارف البديعة. راجع: الاصطخري، مسالك الممالك، ص٧٣. ابن حوقل، ص١٩٤، ٢٠٢. ابن خرداذبه، مسالك الممالك، ص٩٥. قدامه بن جعفر، كتاب الخراج، ص٢٤٥ المرفق بالمسالك والممالك. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص٣٩. القزويني، آثار البلاد، ص٢٥٩. البغدادي، مراصد الإطلاع، ج٣، ص١٢١٩. الفارقي، ص٢٤٠. أوليا چلبي، سياحتنامه، ج٤، ص٥٧-٦٠. وراجع أيضاً ابن بطوطة، ص٢٣٨. القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص٣١٦.

(٧) بخصوص دنيسر راجع هامش خاص بها في موضوع (العملة الدوستكية).

(٨) قال الأب أنستاس الكرملي في (المساعد، ص٤٣) أن (دكرانكرد) هو الإسم الأقدم لمدينة آمد، ولكن محققي الكتاب الأستاذ گورگيس عواد وعبدالحميد العلوچي علقا على ذلك بأن چمبر ذكر ان (دكرانكرد - دكرانجرد)(سعرد)، ولكن (لهمان) قال انها فارقين وإن (دگران) ملك أرمينيا (الأشكاني) هو الذي بنى مدينة (دكرانكرد) وعاش نحو (١٤٠-٥٥ ق.م). وينسب الى سعرد مجموعة من العلماء منهم إبراهيم بن لقمان وأصله من (معدن) في منطقة (شيّروا) التابعة لسعرد وكان على ما في(تاريخ ابن الفرات، ج٨، ص١٨٦) كاتباً على عرصة الغلة بمدينة آمد في عهد الملك الكامل الأيوبي، وقد تولى الوزارة بمصر للملك سيف الدين قلاوون، وتوفي سنة (٦٩٣هـ).(١١) الفارقي، ص١٤٢-١٤٣.

مدينة ساسون

أما مدينة (ساسون - غاب الجوز)، وهي الآن مركز قضاء تابع لسعرد وفي شمالها الغربي بمسافة سبعين كيلومتراً، فلا أستبعد أن تكون من بناء هذه الدولة الكُردية أيضاً. فقد ذكر الفارقي في (ص١٦٨) أن نصرالدولة شيد على حدود السناسنة (الأرمن) (الحصن الجديد)، وغرم عليه من ماله وأصبح حداً وسداً في وجوه السناسنة. وإنهم أي السناسنة إنحصروا بعمارته عن البلد، أي البلاد الدوستكية. ولكنه لم يبين تاريخ بناء المدينة. أما ابن شداد فقد ذكر في (الورقة ٩١) بأن الملك الكامل بن شهاب الدين غازي الأيوبي تفاوض مع التتر (المغول)، الذين حاصروا فارقين في سنة (٦٥٨هـ)، على أن يعطيهم (قلعة السناسنة) مقابل فكهم الحصار عن عاصمته فارقين. فقبل المغول وذهبوا الى قلعة السناسنة فلم يسلمها إليهم. ويستفاد من كلام هؤلاء المؤرخين أن القلعة كانت مهمة، ومن كلام الأخير يتضح بأنها لم تكن قلعة على قمم إحدى الجبال فحسب، بل كانت بلدة أيضاً عوضها الملك الكامل عن فارقين وكان لها وال. فهذه القلعة (البلدة - بلدة ساسون) في رأيي هي الحصن المهم الذي شيده نصرالدولة، وقد جرت الإشارة اليه في موضوع (العلاقات مع الشعب الأرمني) وموضوع (الحياة البشرية: العرب).

مشاريع عمرانية أخرى

ومن مشاريع الدولة الدوستكية تشييد مستشفى فارقين وتجديد جامعها الكبير، والذي أقامت فيه الساعة (البنكام)، وتشييد منارة جامع الربض[٩]، الذي سمي ايضاً (جامع بني مروان) مما لايستبعد أن واحداً من ملوكهم هو الذي شيده بالأصل خارج سور العاصمة، وتجديد جامع المحدثة نفسه[١٠]، وبناء فندق ودار وحمام ومسجد عند قرية باطري[١١]، وحمام أو حمامي العقبة وآخر في صحراء شورجان عند الينبوع[١٢]. وقد أنجزت هذه المشاريع في عهد نصرالدولة.

تشييد دار الإمارة

كانت دار الإمارة، أي مقر الحكومة في عهد كل من الأمير باد (پاد) وأبي علي وممهدالدولة (قصر بني حمدان)، الذي شيده سيف الدولة الحمداني قرب الزاوية الجنوبية الغربية من سور المدينة، بالقرب

(٩) الفارقي، ص١٢٣. كان بناؤها في سنة (٤١٤هـ = ١٠٢٣م). راجع أيضاً موضوع الطب والفن المعماري والزخرفة في كتابنا هذا.

(١٠) الفارقي، ص١٣٨، كان تجديد هذا الجامع في ٤٢٣هـ = ١٠٣١م). والأعلاق الخطيرة ورقة ٧٢ و٩٠.

(١١) الفارقي، ص ١٤٢-١٤٣.

(١٢) نفس المصدر، ص١٦٤. راجع أيضاً الأعلاق الخطيرة، ورقة ٧٢ في المخطوطة ان في رأس سوق الخيل بالمحدثة جامع يعرف بجامع بني مروان، وفيها أيضاً ذكر ثلاثة عشر حماماً في فارقين وحولها. صحراء الشورجان غير معلومة لدينا.

من (برج علي بن وهب). وفي سنة (٤٠١هـ = ١٠١١م) تعرض الى الهدم من قبل سكان فارقين الثائرين على(شيروه بن مه م)، بعد قتله للأمير ممهدالدولة في أوائل السنة المذكورة في قلعة هَتاخ (ايتاخ)، كما مر بالتفصيل في الجزء الأول. وبعد القضاء على فتنة شيروه في أواخر تلك السنة، فكر نصرالدولة في تجديد قصر بني حمدان (القصر العتيق) ليكون دار الإمارة ليسكن فيه. ولكن البعض إقترح عليه أن يعمر القلعة التي على التل (الواقع بالقرب من الجامع الكبير من الشمال الغربي الذي كان أمراء سليڤان بنو عليه مقر إمارتهم في القرن الثالث عشر أو بعده وعليه الآن دار أشرف بگ من سلالة أمراء سليڤان). ولكن الوزير خواجه أبا القاسم الاصفهاني اقترح عليه بناء قصره، أي دار الإمارة، في موقع (برج الملك) الذي كانت فيه القلعة الرئيسية لفارقين في شتى عهودها، وذلك لكونه أعلى قسم في المدينة. وكان في الزاوية الشمالية الشرقية (تل)، شيد عليه مخطط المدينة بمساعدة الرومان الطبيب السرياني (ماروثا الفارقي) المتوفي حوالي سنة (٤٢١هـ) قلعة، فكانت أصل المدينة وعند التل شاهدت آثار باب مسدود، وهو أقدم أبواب المدينة والمسمى (باب الشهوة). وكان للموقع سوره الخاص.

لقد ذكر الفارقي في (ص١٠٧) أن نصرالدولة فرح عندما قال له الوزير: "الذي عندي ان تبني (اي القصر) ملاصق برج الملك وهو موضع عال يحكم على البلد جميعه واعلم انك ان بنيت في البلد كان برج الملك منفرداً يحكم من فيه مستقلاً دون المدينة ولايُقدر عليه وإن بنيت في هذا الموضع انضاف برج الملك والباب الى القصر وكانت تحت حكمك ومن جملة القصر". وبوشر في بناء القصر في أول سنة (٤٠٣هـ = ١٠١٣م) "فعمره أحسن عمارة وغرم عليه مالاً عظيماً وبنى المنظرة العتيقة المطلة على الربض وغرس بستان القصر... وقيل كان موضعها وموضع دار السيدة بيعة كبيرة ونقل مشاهدها الى بيعة الملكية وعمل في القصر أحسن العمل وزوقه وأجرى في حيطانه وسقوفه الذهب وعمل فيه ما لم يعمل مثله". وأضاف الفارقي أن نصرالدولة فرغ من بناء القصر في ذي الحجة، أي الأخير من نفس السنة بثلاثة أيام قبل عيد الأضحى. وذكر أيضاً أنه حفر قناة ماء من رأس العين (أي من سەرەكانى)، وهو الينبوع الكبير الواقع خلف المدينة وتحت الجبل وذلك بحوالي كيلومتر واحد بإستقامة باب الربض، وأجرى الماء الى القصر وأحواضه وبستانه(١).

ولا ندري ما المقصود بالباب، هل كان باب الشهوة أو (باب الهوة) الذي كان يقع في غرب باب الشهوة في السور الكبير والزاوية الغربية من موقع برج الملك، أو هل كان باب (قلوفح - كولفا) الواقع في القسم الشرقي من السور. وكانت الأبواب الثلاثة تؤدي الى برج الملك، وكان الأخير مسدوداً حتى عهد ممهدالدولة. أما باب الشهوة، فلم أجد إشارة الى كونه كان مفتوحاً أيضاً، فمن المحتمل ان المقصود به (باب الهوة) الذي عليه كتابة تجديدية لنصرالدولة.

أما البستان الذي غرسه نصرالدولة، فكان يقع أمام القصر بإتجاه الجنوب، وكان قسم منه أو معظمه

(١) أشار الدكتور عبداللطيف عوض في الهامش الى انه ورد في إحدى نسخ الفارقي وفي (الأعلاق الخطيرة) (مخطوطة مارش) انه كان للقصر حمامان.

موجوداً حتى سنة ١٩٧٧ بين السور شمالاً والشارع الرئيس في المدينة والممتد من الشرق الى الغرب جنوباً(٢).

شيد نصرالدولة القصر بثلاثة طوابق وزاد عليه ابنه نظام الدين طبقة رابعة اثناء حكمه. ولاشك بأن القصر كانت له ملحقات أنشأ بعضها فيما بعد لكي يتسع لأفراد اسرته. فقد ولد لنصرالدولة أكثر من أربعين ولداً وكان يمتلك مئات الجواري عدا الخدم والحراس. ولم يذكر الفارقي سوى دار واحدة شيدها بعد القصر لزوجته (السيدة) بنت أمير الموصل (قرواش بن المقلد) العقيلي.

لقد ذكرنا ان هندسة القصر كانت على الطراز السدلي (كەلەكى) الكُردي الأصيل، وكانت له ثلاثة أبواب. وذكر اسم الباب الشرقي في (ص١٤٩) وقال كان نصرالدولة يركب من على الصفة ويسير في القصر ويخرج من الباب الشرقي ويمضي حيث أراد. وكانت هذه عادته إلا أنه غضب مرة من إبن عمه (مرزبان بن بلاشو)(٣)، فخرج بنفسه الى باب الدرجة برأسها بباب القصر ونزل وركب البغلة من أسفلها وخرج من القصر. أي انه لم ينزل من تلك الدرجة منذ أربعين سنة من بنائه. وقد وجد ابن شداد عندما زار فارقين سنة (٦٧٥هـ = ١٢٥٩م) القصر ووصفه بأنه "قصر عظيم كان دار السلطنة"، ووجد اسم نصرالدولة على الباب الوسطاني للقصر(على ما في الورقة ٧٣). أما الباب الثالث، فلعله كان في الجهة الغربية من القصر مما يدل على أنه كان باقياً الى آخر عهد الإمارة الأيوبية في فارقين.

فالقصر كان دار الإمارة في العهد السلجوقي والأرتقي والأيوبي ولاندري متى تهدم كلياً أو جزئياً، ولكن نعلم أن مركز الحكم في المدينة في العهد العثماني كان في نفس المكان. وفي كتاب سليمان سافجي، المتوفي سنة (١٩٤٥م)، صورة قديمة لنفس المكان الذي اشتهر بـ(قلعة زمبيل فروش) بدل (برج الملك) منذ عدة قرون. وتشاهد في الصورة هناك أربعة بنايات في إستقامة واحدة وملاصقة للسور الشمالي، أو منفصلة عنه بقليل وأمامها البستان. وقد وصفنا بعضاً من تلك البنايات في موضوع (السدلي). لقد وجدت في مكان القصر جدار عرضة حوالي مترين يمتد من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي بمحاذاة تل برج الملك وقلعة زمبيل فروش، وهو حسب رأيي جدار القصر أو سوره الخاص.

لاشك بأن تلك الأبنية أو على الاقل ثلاثة منها قد شيدت على أنقاض قصر نصرالدولة، أو انها تجديدات وترميمات له جرت كلما دعت الى ذلك الحاجة خلال أكثر من ثمانمائة سنة بعد العهد الدوستكي. ومن المحتمل جداً أن تلك الأبنية تحمل الطراز المعماري للقصر وأقسامه، أو فيها بعض جوانبه الهندسية وعلى الأخص البنايات الثانية والثالثة والأولى.

عندما زرت فارقين سنة ١٩٧٧ لم تكن تلك الأبنية موجودة، بل هناك بيوت حقيرة جديدة متناثرة،

(٢) فتح قائممقام فارقين إبراهيم بگ هذا الشارع سنة (١٣٤١هـ = ١٩٢٢-١٩٢٣).

(٣) (بلاش) كان إسماً لخمسة من الملوك الأشكانين وملك ساساني واحد ويكتب (ولفاش) أيضاً. حكم بلاش الأول (٥١-٧٨/٧٧م) ويعلم من إسم (بلاشۆ) بن (كك - كەک - کەکۆ). ان هذا الاسم كان متداولاً في كوردستان حتى العهد الدوستكي.



جدار من دار الإمارة

ولست أدري سبب إزالة تلك الأبنية الجميلة. وقد أضرّ سكان فارقين بالسور وأبراجه وجلبوا الكثير من أحجاره وشيدوا بها دورهم. ومن الجدير بالذكر أيضاً أن في مخطط گبرييل الموجود في (ص١٤٣) من كتاب بيسان أوغلو إشارة الى بناءين فخمين في برج الملك بالقرب من السور.

قنوات المياه لدار الإمارة وللمدينة

جرى في عهد نصرالدولة أيضاً حفر ثلاث قنوات ماء للعاصمة فارقين. ففي حوالي سنة (٤٠٥هـ = ١٠١٤م) حفر نصرالدولة قناة ماء وأتى بها من خارج المدينة الى قصره في برج الملك. كما حفر قناة أخرى وجاء بها الى وسط الربض من الجانب الشرقي الى تحت برج الملك الى باب الهوة الى أحد برجي باب قلوفح، ومن تحت البرج أدخل القناة الى المدينة، ووزع ماءها في قنوات فرعية للمدينة(٤).

أما القناة الثالثة فكانت قناة ابن جري، التي تبرع بحفرها التاجر ابو بكر بن جري وسماها الفارقي قناة الجامع. وقد حفرها ابن جري من منبع نهر فارقين (عين حنبوص) وضم اليها مياه عيون أخرى إليها، وجاء بالقناة من الجانب الغربي الى السور وأدخلها الى المدينة عبر بستان الفصيل ونقب السور بعد أن أذن له الأمير. ومضى بها في الفصيل الى ما بين السورين، وأجراها الى المدينة عند الينبوع. ومضى بها في وسط المدينة وزقاق القتيل، وعبر بها الى باب داره فوق القبة ولم يأخذ منها الى داره

(٤) نفس المصدر، ص١٦٤.

قطرة. ودخل بها الى سوق القبة والى الجامع، وعمل التسع أنابيب (أي صنابير أو حنفيات) ووزع الماء في مرافق الجامع وحماماته. لقد أشاد الفارقي بأهمية هذه القناة، فقال انه حصل للبلد بها فائدة كبيرة. والقنوات الثلاث تم شقها من رأس العين (عين حنباص). كما أشار الفارقي الى قناة حفرها سيف الدولة الحمداني لقصره خاصة (قصر بني حمدان) من الجهة الغربية للمدينة. أما تكاليف قناة ابن جري الى حدود السور، فكانت خمسين ألف دينار(٥).

كما صنع نصرالدولة مصنعاً (صهريجاً – سەرداو – بن تەبەق) في بستان الرئيس على بن منصور بن كەک (علماً أن هذا البستان مازال بستاناً لم يتغير وضعه) عند برج علي بن وهب (وأمام باب الفرح والغم بالقرب من الزاوية الجنوبية الغربية من السور حيث البساتين حالياً) الى أن ظهر فيه الماء وأحسن عمارته وغرم عليه ومالاً كبيراً. وأضاف الفارقي أنه لم ير أحسن من بنائه ولا أحكم منه، وتولى عمارته الوزير ابن جهير(٦). كانت المصانع تبلط قيعانها بالأحجار والجص وكذلك جدرانها على العموم كي لاتتسرب مياهها، ووجدنا في كردستان أحواضاً يرجع تاريخها الى حوالى ألفي سنة.

المباني الدينية

في سنة (٤١٤هـ = ١٠٢٥م) جدد نصرالدولة الجامع الكبير في العاصمة فارقين، الذي كان يمتاز بفن معماري جميل على ما يتضح من نسخة سفرنامة ناصر خسرو المعربة والمطبوعة، والتي حذف منها الكاتب النسخة الخطية أوصاف الجامع الذي ذكرها بالتفصيل ناصر خسرو، الذي شاهدها وأعجب بها.

يقع الجامع الكبير الذي يسمى (جامع عجم وجامع صلاح الدين) يقع في وسط المدينة، ويمر أمامه حالياً الشارع الرئيسي في المدينة والممتد من الشرق الى الغرب. للجامع بابان جنوبي وشمالي، ومساحته (٦٠×٣٠م) أو (٦٠×٢٥م) وكان موجوداً في القرن التاسع الميلادي. فقد ذكر إبن شداد في (الأعلاق الخطيرة، ورقة ٧٢ و٧٧) أن أحمد عيسى بن الشيخ أمير ميافارقين بنى منارة الجامع وإسمه مكتوب في لوح حفر سنة (٢٧٣هـ = ٨٨٦ –٨٨٧م). وفي الورقة (٧٧) ذكر ان اسم المبارك بن ميمون مكتوب على لوح حجري في المقصورة الغربية للجامع. علماً ان المبارك تولى إقليم دياربكر من قبل الخليفة العباسي (المقتدر) سنة (٢٩٥–٣٢٠هـ = ٩٠٧–٩٣٢م). وقد أشار ابن شداد الى انه نقل معلوماته عن الفارقي.

لاتُعرف سنة تشييد الجامع ومن الذي شيده أولاً. فقد قال بسري كونيار بإحتمال كونه كنيسة في الأصل وهذا الرأي راجح، لكون عدد من أبوابه القديمة (التي تُرى في صور بسري كونيار) مشابهة لباب كنيسة مريم في دياربكر، والموجودة صورها في بيسان أوغلو (ص١٠٣) وهي من العهد البيزنطي في الجدار الشمالي، الذي فيه تلك الأبواب ثلاثة أدوار. وقد جدده نصرالدولة سنة

(٥) الفارقي، ص١٦٤–١٦٥. راجع أيضاً مخطوطة الأعلاق الخطيرة، ورقة ٧٢، ٩٠.

(٦) نفس المصدر، ١٦٨. في مختار الصحاح والمنجد (المصنع) ماهو كحوض يجمع فيه ماء المطر.

(٤١٤هـ) وأشرف على التجديد كاتبه أبو سعيد الكبير بن بختيشوع الخازن. ثم إنهدم الجانب القبلي منه في العهد الأرتقي، فجدد معظمه الأمير حسام الدين ألبي تمرتاش، حيث توجد كتابة بإسمه في قبة الجامع[١] ولا أثر للمنارة. كما توجد فيه، أي الجامع، خمس كتابات من عهد الأمير الايوبي شهاب الدين غازي بن الملك العادل ابن أيوب، إحداها في القبة والأخرى في الجدار الجنوبي الشرقي، حيث عمل هناك محراباً جميلاً بتاريخ (٦٢٤هـ = ١٢٢٧م[٢]).

ولحسن الحظ، فإن هذه الأقسام لم تتلف وتتغير بعد ترميمات عام ١٩١٣م، التي أجراها بنّاء مارديني شوه هذا الجامع المهم عمارة وتاريخاً، كما أشرنا الى ذلك في موضوع (ساعة بنكام). وقد لاحظنا من إحدى صور بسري كونيار الثلاثة التي أخذت عندما كان الجامع مهدماً (وهي الصورة ٣٠٦ في كتابه)، وجود حفر صغيرة دائرية على بعض الأحجار المتناثرة. يذكر بأن تلك الحفر خاصة بقطع حديدية كانت قد إستخدمت في الربط بين حجر وآخر للتقوية. وهذا الأسلوب كان موجوداً في العهد الساساني، حيث استخدم في (بت خانه) في (پيكولي) الواقع في السفح الجنوبي من سلسلة قرداغ من كوردستان العراق. ومن المحتمل جداً أن تلك الأحجار تعود الى أعمال الترميمات التي أجراها نصرالدولة للجامع، بنفس الطريقة التي إستخدمها بها نظام الدين في تجديد باب قلوفح، كما سيأتي ذكره. راجع صور الجامع في موضوع (ساعة بنكام).

أما في مدينة دياربكر، فقد بنى نصرالدولة في سنة (٤٤٧هـ = ١٠٥٥م) مسجداً ملاصقاً للجانب الأيسر (حينما تدخل المدينة) من باب خربوت (باب الجبل). ومازال يسمى بـ(جامع بني مروان). وكان قسم من هذا المسجد قد تهدم فيما كانت دائرة الإطفاء تشغل قسماً آخر، أي ما تبقي منه حتى عام ١٩٦٣. وقد شاهدت المسجد في آب ١٩٧٧وكان الناس يصلون فيه. للمسجد وكان ذا طابقين رغم أنه لم يكن من المساجد الكبيرة،. لقد تولى الإشراف على بنائه الوزير إبن جهير. وعلى المسجد الكتابة التالية:

(إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين. بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تطوع بعمله (وبنائه والإنفاق) اليه تقر(با) الى الله تعالى ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم مولانا (الأمير السيد) الأجل المؤيد المنصور عز الإسلام سعدالدين نصرالدولة وركن الملة ومجد الأمة شرف الأمراء أ(بو) نصر أحمد بن مروان أطال الله في العز الدائـ (م) بقاه وجز(ا له؟) سلطانه وذلة (؟) أعدائه وجرى ذلك «على

(١) قال ابن شداد في الواقة (١٠٧): "أن في ليلة الإثنين ثاني عشر من شهر ربيع الأول من سنة ٥٤٨هـ = ١١٥٣م إنهدم الجامع ووقع مكان المنبر والأروقة فهدم حسام الدين تمرتاش الأرتقي الباقي منه، ثم أمر يتجديده". وفي الورقة (٧٣) قال: "وسقط من الجامع الجبهة القبلية في ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة فعمر جديداً". وفي قول ابن شداد تناقض في السنة التي إنهدم فيها الجامع كما خطأ في قوله أن حسام الدين تمرتاش هو الذي جدد الجامع وفي السنة التي توفي فيها حين قال أن تمرتاش توفي سنة (٥٤٨هـ). لأن الصحيح أنه توفي في السنة التي قبلها. وقد تولى الإمارة ابنه نجم الدين ألبي سنة (٥٤٧هـ)، الذي جدد الجامع. ويوجد الان نص كتابي برسم المذكور في القبة في (ج١، ص٣٢٦ من كتاب شوكت بيسان أوغلو) المؤلف في تاريخ دياربكر، والكتابة خالية من التاريخ، علماً أنه لم يعمر القبة بأكملها بدليل وجود قسم أقدم في القبة يعود الى العهد الدوستكي. والقبة كبيرة تستند على ثمانية أعمدة وهي مثمنة الأضلاع.

(٢) الكلمة نقلت خطأ ولعل الصحيح (و أذلّ).



المسجد قبل الترميم- من بيسان أوغلو

يدي... الأجل ابو نصر محمد بن محمد بن جهير أدام الله مكانه في ذو الحجة سنة سبع وأربعين وأربعمائة) وقد قامت تركيا بترميم الجامع(٣).

تجدر الإشارة الى انه توجد بجانب المسجد الشمالي كتابة ورسوم رومانية على السور. وقد ذكر ابن شداد في (الأعلاق الخطيرة، ورقة ٩٠) أن جامع الربض(٤). قد تهدم فجدده نصرالدولة وبنى منارته سنة ٤١٤هـ. أما الفارقي فقد ذكر في (ص١٢٣) بناء المنارة فقط، علماً أن الربض هو الأرض المنبسطة الواقعة بين مدينة فارقين والجبل.(٥)

وذكر إبن شداد انه في نفس السنة بنى (جامع المحدثة) ووقف عليه الأوقاف. والمحدثة هي الضاحية الجنوبية لفارقين، وهناك منارة أيوبية مربعة يحتمل أنها شيدت لهذا الجامع، الذي لم يبق منه أثر اليوم. وقد أشرنا في موضوع بناء (النصرية) الى ان نصرالدولة بنى في كل من قرى باطري

(٣) الكتابة والصورة من بيسان أوغلو، ص٢٢٤-٢٢٥.

(٤) ورد في الأعلاق الخطيرة (جامع الراضي) سهواً أو خطأً من الناسخ. وهذا الجامع غير (مسجد الصخرة) الذي ذكره الفارقي في (ص٢٥١) أنه كان يقع تحت الجبل وغير مسجد رأس العين، أي كان المسجد في الأراضي الواقعة بين المدينة والجبل وتبلغ مسافتها كيلومتراً عرضاً، ثلاثة مساجد وقد ذكر ناصر خسرو في (سفرنامه، ص٤١) أن صلاة الجمعة تقام في جامع الربض. وذكر الهروي في (الإشارات الى مواقع الزيارات، ص٦٤-٦٥) طبعة دمشق ثمانية مساجد في فارقين كانت تتمتع بقدسية خاصة، يزورها الناس لإشتهارها بكونها مشيدة من قبل صحابة الرسول (ص) وهي: مسجد خزيمه، مسجد إبراهيم، مسجد الخنادق، مسجد ياسين، مسجد أبي خالد، مسجد حرملة،، مسجد على بن أبي طالب، مسجد عتري، وذكر ايضاً إسم مسجد الصخرة. ومن المحتمل أن بعضاً منها كان يقع خارج المدينة لأن مشهد (مسجد) على بن ابي طالب كان يقع في الجبل. ويظهر ان هذه المساجد كانت أقدم من العهد الدوستكي، علماً أن علي بن ابي بكر الهروي ذكرها بعد عهدها لأنه توفي سنة (٦١١هـ = ١٢١٦م).

(٥) أتى إبن شداد على ذكر ينبوعين في الربض بإسم (عين جوزه) و(عين حفيرة) في وسطه، وقال أن الأخير يدخل مدينة فارقين ويدير اربعة أرجاء في داخل البلد (ورقة ٧٤).



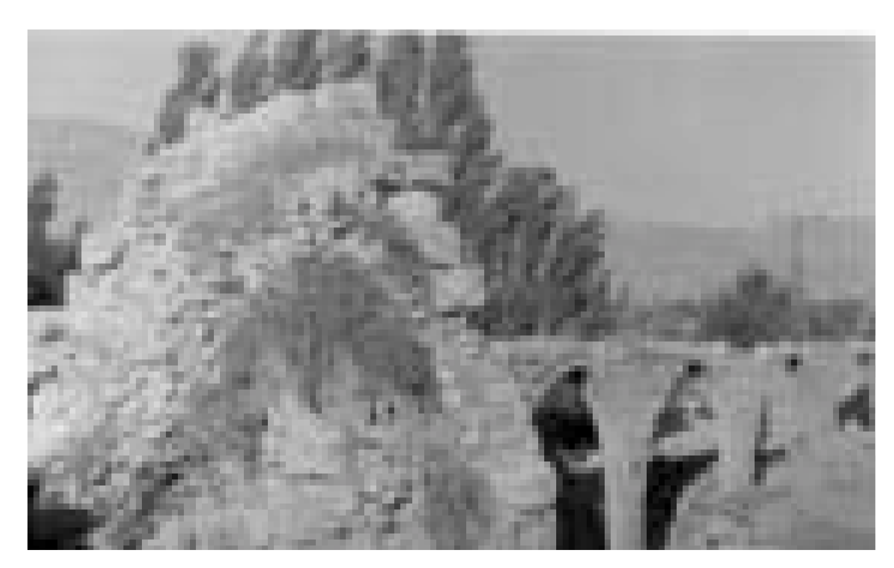
المسجد بعد الترميم- المؤلف

وبابوزين وتل بنان مسجداً. ولاشك ان الدولة الدوستكية بنت مساجداً في المدن أخرى، إذ لا يمكن أن تكون (النصرية) خالية من مسجد، ولكن مع هذا لم ترد الى ذلك إشارة.

والجدير بالذكر هنا هو قول ابن شداد في (الأعلاق الخطيرة، ورقة ٧٤) ان في فارقين ما يناهز المائتي مسجد، منها (مسجد الدكة). ويفهم من (الورقة ٧٢) أن المسجد المذكور كان قريباً من (باب الهوة)، وقد وجدنا آثاره في غرب هذا الباب عند السور مباشرة. والدكة كان موقعاً مطلاً على (الخندق الذي في مكانه الحالي بساتين) علماً أن الدكة هي شريط ضيق و مسطح من الأرض يقع غرب قلعة زمبيل فروش أكثر إرتفاعاً عن موقع الخندق. وفي الصفحة التالية صورة المسجد.

لا بأس هنا أن نشير الى الجامع الكبير لآمد وهو أهم جامع في كوردستان بزخارفه وأعمدته الحجرية، ونقول انه كان موجوداً في عهد نصرالدولة. فقد وصفه ناصر خسرو في (سفرنامه عند البحث عن آمد في ص٨-١٠) بما يلي: "ومسجدها الجامع من الحجر الأسود وليس مثله متانة وإحكاماً، وقد أقيم في وسطه مائتي عمود قطعة واحدة وفوق هذه الأعمدة عقود من الحجر وقد نصبت فوقها أعمدة أقصر من تلك وجميع أسقف المسجد على هيئة الجملون وقد كملت نجارة ونقارة ونقشاً ودهناً". وقد أشار الى الحوض الحجري في ساحته والذي يتدفق منه الماء من أنبوب في وسطه.

وفي عهد ملكشاه جرى ترميم المسجد من قبل عميدالدولة ابن فخرالدين ابن جهير سنة (٤٨٤هـ). وعلى المقصورة الشرقية والغربية كتابات من عهد بني إينال سنة (٥١١ و٥١٨ و٥٥٥هـ. وكان البنّاء في السنة الأخيرة (هبة الله الكركاني). المسجد المذكور كان في الأصل كنيسة بإسم (سانت توما) أو كنيسة توما، على ما جاء في كتاب بيسان أوغلو، ج١، ص٢٧١-٢٧٥ وبسري كونيار، ج٢، ص٥١.



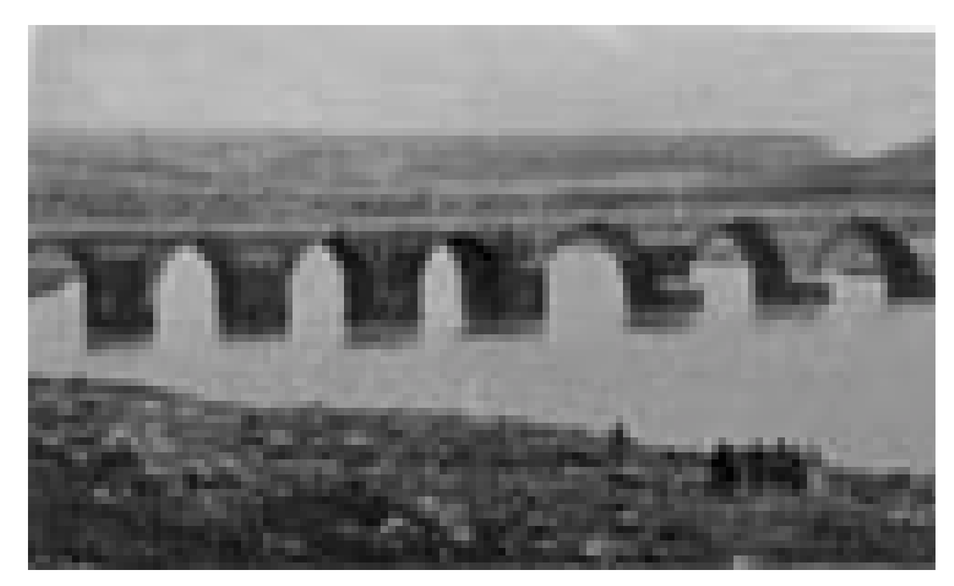
مسجد الدكة

الجسور

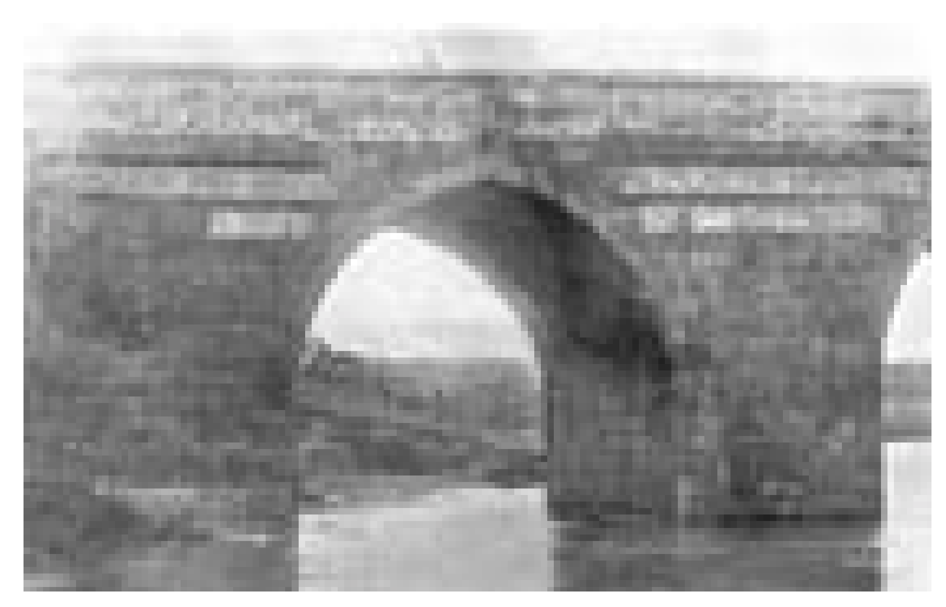
نظراً لوجود أنهار كثيرة في البلاد الدوستكية الجبلية بصورة عامة، وبسبب هطول الأمطار وسقوط الثلوج الكثيرة، فقد كانت أنهار البلاد تفيض في فصلي الشتاء والربيع وتخلق متاعب كثيرة للسكان وللقوافل في عبورها. ولهذا دشنت الدولة الدوستكية جسوراً وقناطر عديدة ومنها: الجسر الكبير الذي شيده نصرالدولة على نهر باطمان (أحد الروافد الرئيسية لنهر دجلة) الذي مر ذكره. وفي سنة (٤٣١هـ = ١٠٣٩م) بنى نصرالدولة جسراً على نهر (الحو) وهو نهر أنبر (عەنبار)، وهو أول نهر الى الشرق من مدينة آمد (دياربكر) كما ذكرنا.

وقد ذكر الفارقي في (ص١٣٤) أسماء سبعة جسور، فقال: "وقف نصرالدولة على جسر الحسنية والحميدية وتل بنان وقطنيتا وبابوزين والإبراهيمية وبرسدي وغرم عليه مالاً عظيماً"(١). لاشك ان

(١) ذكر الدكتور بدوي عبداللطيف في هامش (ص١٤٣) من تاريخ الفارقي الذي نشره هو أن أسماء الجسور حسب العبارة المذكورة مأخوذة من نسخة (ب) من تاريخ الفارقي، بينما وردت أسماؤها في (النسخة أ) كما يلي: "على جسر الجنينة وتل بنان الحسنية، وتل بنان والإبراهيمية وبابوزين وبرشردي وقطنيتا". وفي الأعلاق الخطيرة ورقة، ٧٣ ورقة٩١: بنى (أي نصرالدولة) جسر الحسينية على تل بنان ان هذه الأماكن غير معلومة لدينا ما عدا تل بنان وبابوزين، علماً انه توجد حالياً (گوندي ابراهيم) في ناحية (مالاّ بادى) التي تقع فيها (گوندى جانۆ) وبابودين و(كێرک) وپيلەكان وقرية بإسم (حسنيكان) في نفس الناحية، و(حسێنيان) في ناحية بشنك وبابوزين هي بابودين. وجسر تل بنان في ناحية مالابادي و(حسێنيک) في قضاء (لجێ). وجسر تل بنان والجنينة هو واحد.



الجسر – من ڤان برسم



مقطع من الجسر

عبارته تعرضت للإرتباك والخطأ ولايدري أن الضمير في (وغرم عليه) يرجع الى أي من الجسور. ولعل الصحيح (عليها) أي غرم على الجسور المذكورة كلها. وإن كان كذلك يكون هو مشيد تلك الجسور، لأن كلمة (غرم عليه) تستعمل عادة لشيء بناه الغريم لا الواقف. كما إن الشخص (بصورة عامة) يقف الأملاك على ما شيده هو عدا المباني الدينية. فمن المحتمل لذلك أن تكون هذه الجسور من إنشاء نصرالدولة، ومن بينها جسر تل بنان الذي شيده هو. وإن كان المقصود مجرد الوقف يحتمل جداً أن يكون جسر الحسنية جسر مدينة زاخو (حسنيه) المسمى (پرا دەلال) الذي كان موجوداً قبل العهد الدوستكي.

وفي سنة (٤٥٧هـ -١٠٦٥م) شيّد الأمير نظام الدين نصر بن نصرالدولة الجسر الكبير الموجود حالياً على نهر دجلة عند مدينة دياربكر، وهو على إحدى عشرة قاعدة وعليه الكتابة الكوفية التالية مع صورة الأسد.

والكتابة على الحجارة البيضاء: "مما أمر بعمله والانفاق؟ عليه مولانا؟ الأمير؟ الأجل؟ السيد(...) نظام الدين مؤيدالدولة (... بن) عز الإسلام أطال الله بقاءه وأعز نصره ودبر هداه إبتغاء ثواب الله وطلب رحمته في (...) وجرى أكثر ذلك على يد (...) القاضي أبي الحسن عبدالواحد سنة سبع وخمسين وأربعمائة والبناء عبيد؟ بن سمحر؟"

المنشآت الدفاعية

لقد قامت الدولة الكُردية ببناء منشات وتحصينات دفاعية تكون لها ولسكانها درعاً أثناء الحروب والإعتداءات الأجنبية، كالقلاع والحصون والأسوار والأبراج. ونظراً لما تعرضت له البلاد خلال العهد الحمداني من غارات بيزنطية متكررة، فقد تهدم الكثير من أسوار وقلاع المدن علاوة على تداعي بعضها وإحتياجه الى الترميم أو التجديد. فإضطرت الدولة الدوستكية بعد تأسيسها الى تقوية دفاعات البلاد العسكرية، حتى إن المؤيد في الدين الشيرازي داعي الدعاة الفاطمي، الذي كان يدير ثورة ضخمة ضد الدولة العباسية، أشار في رسالته الى نصرالدولة كيف إن بلاده منيعة فيها "الحصون التي هي من أمهات الحصون" وإنها "البلاد المعمورة المأهولة"، كما أشرنا الى ذلك في موضوع العلاقات مع الدولة الفاطمية. وقد ذكرنا في الجزء الأول كيف أن الملك السلجوقي (الب أرسلان) لما وصل الى آمد في عهد نظام الدين إستغرب من مناعة سورها، فأخذ يضع يده علي السور ويمسح بها صدره. وبفضل تقوية الدولة لسور فارقين أصبح من اقوى الاسوار وصمد جيشها في فارقين سنتين امام القوات السلجوقية، وهي مدة لم تصمد أمامها مدينة أخرى ولم تقاوم تلك المقاومة الطويلة. كما ان الملك الايوبي الشجاع (الكامل) قاوم المغول بسبب مناعة سور المدينة أيضاً سنتين(١).

(١) ذكر ابن شداد في الأعلاق الخطيرة - القسم الخاص بالجزيرة من المخطوط الذي نشير اليه كثيراً (ورقة ١١٩-١٢١) تفاصيل ايفاده من قبل الملك الناصر الايوبي من دمشق الى فارقين للصلح بين الملك الكامل والمغول في سنة ٦٥٧٠هـ = ١٢٥٩م)، وكان المغول يحاصرونها، وذكر بعضاً من صور المقاومة البطولية للملك الكامل وسقوط المدينة في الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة (٦٥٨هـ) وأسر الملك الكامل وإحضاره بين يدي هولاكو. وذكر إبن شداد كيف إنه قال لهولاكو: "من أنت حتى أتحمل مشقة رؤية وجهك انت ما لك قول ولا دين ولا امانة بل خارجيّ يجب عليّ قتالك وانا=

كانت المنشآت الدفاعية من أهم الضروريات، لهذا وقفت الدولة قرى وعقارات على الأسوار والقلاع كوسيلة من وسائل بقائها، ولكي يتم صرف وارداتها على ترميمها وحراستها. ولا شك أن ملوك الدولة الكوردية شيدوا القلاع وحصنوها. إلا أننا لم نطلع على المعلومات بهذا الصدد سوى ما يتعلق منها بالحصن الذي شيده نصرالدولة على حدود السناسنة (الأرمن).

سور فارقين وأبوابه

اتخذ سور فارقين شكلاً مستطيلاً وفي بعض المراجع الحديثة(٢) أن طوله من الشرق الى الغرب (٦٠٠) متر، ومن الشمال الى الجنوب (٥٠٠) متراً. كان السور مشيداً بالحجر الابيض والجص، وهو عبارة عن سورين: الأمامي (الخارجي)، والداخلي (الخلفي) وهو اعلى واهم من الاول. وبين السورين فراغ يسمى فصيلاً عرضه (٥،٥) متر، وهو في ذلك مشابه لسور قسطنطينية (استنبول) البيزنطي. كان السور الأمامي هو الخط الدفاعي الأول للسور الكبير الخلفي. وتجدر الإشارة الى أن اسم (الفصيل) يطلق على السور الامامي ايضاً. اما عرض جدار السور اي (ثخنه) فيبلغ متران، وابراج السور كما قال ناصر خسرو الذي زار فارقين في عهد نصرالدولة: بين كل خمسين ذراعاً أي حوالي (٣٠) متراً برج. أما ابن شداد فقد قال في (الورقة ٧٣): عندما زرتها كان للسور إثنان وأربعون برجاً ذوات شرفات. مع العلم أن موقع المدينة لا يتمتع بمناعة طبيعية، فموقعها منبسط مع تموج خفيف. ولم يبق من السور سوى نتوءات في القسم الشرقي من وبالقرب من الزاوية الجنوبية الشرقية.

أما أبواب السور فكانت ثمانية وهي:

١- باب قلوفح (باب كولفا) وكولفا الآن قرية قريبة من المدينة من ناحية الشرق. وسمي بالباب الجديد وباب المرآة ايضاً. وسمي ايضاً بباب الفرج أو باب الفرح (بالحاء المهملة) وهو الباب الشرقي لوقوعه في القسم الشرقي من السور بين برجين صغيرين. كان الباب موجوداً في السورين أحدهما أمام الآخر، وقد شُيِّد الخلفي منهما، الذي كانت عليه المنظرة والمرآة نظام الدين بعد سنة (٤٥٨هـ = ١٠٦٦م) على ما قاله الفارقي في (ص١٩٨-١٩٩) (راجع صورته في موضوع فن العمارة). اما الباب الامامي الواقع في السور الخارجي (الفصيل)، فهو والباب الخلفي عموماً متماثلان طرازاً عدا إختلافهما في الجزء الاعلى من المدخل. فالباب الخلفي كان معقوداً دائرياً كعقادة جسر لكي يحمل

=خير منك". فقال هولاكو بأي شيء انت خير مني؟ فقال لأنني أؤمن بالله وبرسوله ولي دين وامانة فإن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء وكان لنا من عدن الى تبريز فذهب منا ذلك وكذلك يفعل الله بك اذا اراد يرسل عليك من يقتلك ويسبي ذريتك ولا يترك من عسكرك احداً. فقال له: "كلامك اكبر منك لأنك من السلاطين الصغار". ثم وكزه (أي هولاكو) بسيف كان بيده فخرق بطنه وأمر سولجق فضرب عنقه وبعث برأسه الى الشام...". وفي بعض المصادر ان هولاكو قال له أنت من ابناء السلاطين العظام او من السلاطين العظام بدل (الصغار). وذكر ان المغول ابادوا سكان فارقين ولم يبق منهم سوى سبعة انفس.

(٢) راجع شوكت بيسان أوغلو، ص١٤٣ من Diyarbakir Tarikhi .

بناية المنظرة. أما الأمامي فهو مستطيل، وقد جدد عمارة الأخير الملك الأشرف الأيوبي (موسى بن الملك العادل الذي دخلت فارقين تحت حكمه من ٦٠٧-٦١٧هـ = ١٢١٠-١٢٢٠م). وعندما زرت المدينة سنة ١٩٧٧ لم يبق من كتابة الملك الأشرف سوى ما يقل عن ثلاثة احجار وهي:

١- (الأ) شرف العالم العادل

٢- بن أيوب ناصر أمير المؤمنين

٣- المحترم سابق الدين (بفا)

اما في عهد سليمان سافجي اي في الثلاثينات، فكان قد بقي منها مقدار أكثر(٣). لقد سقط من الباب تاريخ الكتابة. علماً ان كتابته بخط الثلث المزخرف وتقع فوق الباب وتحتها وفوق الباب ايضاً كتابة على حجر واحد تحمل اسم البنّاء وهي " عمل ابي العلاء بن أبي الفتح"(٤).

سعة الباب (٧٧ . ٢م) وعرض جداره (أي ثخنه) (٣٨ . ١). على المدخل حجر واحد طوله أكثر من ثلاثة أمتار، ويعلم من الحجر الثاني الذي على يسار الكتابة الاخيرة، ان هذا الحجر كان موجوداً قبل عهد الملك الأشرف، وذلك بدليل وجود حفرتين صغيرتين عليه كان قد ادخل فيهما حديدان لربط الحجر بحجر آخر. وقد وضع البنّاء ابو العلاء هذا الحجر في تعميره للباب بشكل مقلوب خطأً (أو لسبب ما كأن تكون على وجهه كتابة من عهد نظام الدين وهذا احتمال قوي)، كما قام بتغيير وضعيته الافقية الاصلية في البناء السابق الى وضعية عمودية في تعميره مع عدد من الاحجار الاخرى، بضمنها الحجر الذي عليه اسمه هو. و من هذا نستدل على ان نظام الدين قد بنى أو جدد هذا الباب الامامي من باب قلوفح ايضاً، لأنه كان قد استخدم الحديد في الباب الخلفي، الذي رأي كل من الحموي وابن شداد آثار الحديد فيه. وهذا دليل على ان الدولة الدوستكية قد استعملت الحديد في الربط بين الاحجار في بعض بناياتها، منها على الأغلب الجامع الكبير بفارقين (كما نوهنا عنه في موضوع المباني الدينية). والمقصود هنا قطعة او (وصلة) حديدية قطرها حوالي (٣) سنتمتر إستخدمت لتقوية البناء. وإذا ما دققنا النظر في الباب، سيتجلى لنا بأن ترميم الملك الأشرف شمل المدخل والقسم الأعلى من البرجين. ففي البرج الأيمن بقيت أربعة أحجار وفي الأيسر عدد من الأحجار في صفين من ترميمه. أما الباقي منهما، فهو من عهد نظام الدين، ونلاحظ ذلك من نحت الأحجار. وقد إستعمل البنّاء ابو العلاء عدداً من الأحجار القديمة، حتى ان الحجر الذي يحمل اسمه كان قديماً. وفيما يلي صورتان للباب وكتابته أخذناهما أثناء زيارتنا لفارقين.

يظهر في الصورة برج اسطواني كبير في السور الداخلي (الخلفي)، وهو البرج الشمالي من برجي

(٣) قرأ الكتابة سليمان سافجي على ما في (ص٤٢) من كتابة على النحو الآتي:
"... المعروف قديما بباب المرآة والان بباب الفرج مولانا السلطان الملك الأشرف العادل المؤيد المظفر المنصور (...) ابو الفتح ابن مولانا السلطان الملك العادل ابي بكر ايوب ناصر أمير المؤمنين اعز الله انصاره...... الخطيب الحسيب شمس الدين ابي المعالي المفضل ابن جعفر ابن نباته وهمة الحاج الأجل المحترم سابق الذكر"، والصحيح (سابق الدين).

(٤) في كل من كتاب بسري كونيار وبيسان أوغلو نص الكتابة.



باب قلوفح



كتابة باب قلوفح



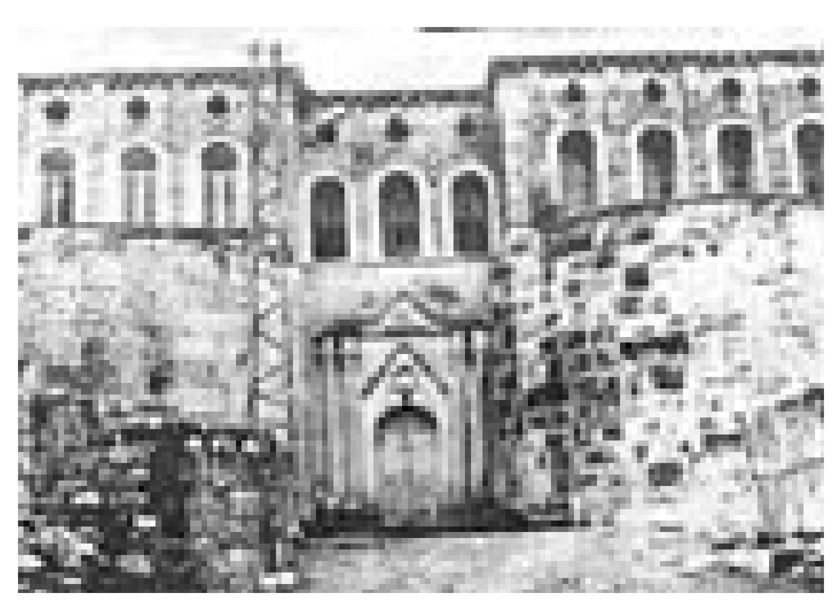
باب الجبل

الطبالين. وكان هذا البرج يقع في الجنب الشمالي للباب الخلفي، الذي كانت عليه كل من المنظرة والمرآة، والذي تهدم وبنيت في مكانه دار حقيرة. وعلى البرج كتابة لنجم الدين آلب الأرتقي سنة (٥٦١هـ). وتجدر الإشارة الى أنه ونتيجة لقيام أحد السكان بحفر أساس لدار كان يعتزم بناءها، ظهرت بناية ذات أعمدة حجرية مهمة كانت مطمورة، وذلك عند الباب من الطرف الشمالي الشرقي خارج السور.

٢- (باب الشهوة): كان يقع عند الزاوية الشمالية الشرقية من السور. وقد رأينا آثاره عند تل برج الملك. وكان مسدوداً منذ زمن بعيد وكان يتحكم في قسم من السور شمالاً وجنوباً.

٣- باب الجبل: سمي (باب الهُوّة) أيضاً. ومن قول ابن شداد يتضح لنا بأن التسمية حدثت في العهد الحمداني. يقع الباب في غرب باب الشهوة بالقرب من قلعة زمبيل فروش غرباً. وكان يقع في النهاية الشمالية الغربية من قصر نصرالدولة، وينفتح على القصر. بقي من الباب الجانب الشرقي، الذي عليه كتابة بتاريخ (٤٠٥هـ) بإسم نصرالدولة، حيث جدده كما سيأتي في نص الكتابة. وكان هذا الباب هو الباب الشمالي للمدينة وأمامه مباشرة من الخارج (الدكة) ثم (الخندق)، وكان يواجه الربض، وكان يقابل باب الجبل باب أرزن في القسم الجنوبي الشرقي من السور. وهذه صورته.

٤- باب الربض: كان يقع في الزاوية الشمالية الغربية من السور مباشرة، وعلى جانبي مدخله



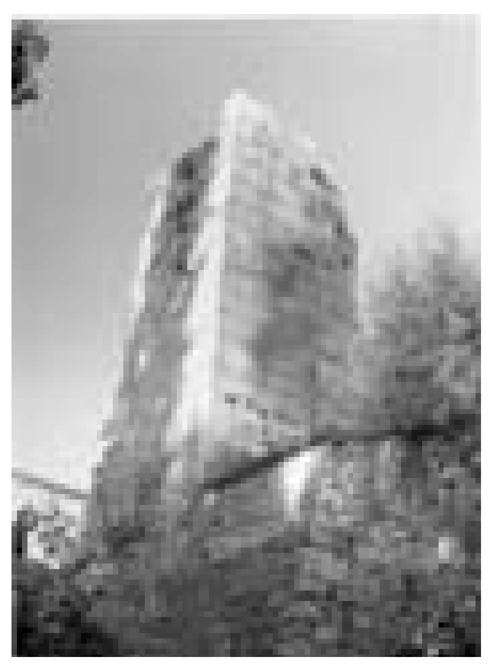
باب الربض

حالياً برجان صغيران. كان من أهم أبواب المدينة ويواجه شمالاً المنبع الرئيس لفارقين (رأس العين – عين حنباص). وكان يتحكم في السور من جهتين، شمالاً وغرباً. إحتل السلاجقة المدينة من هذا الباب، وقد شخصته وهو الآن سالم وهو مدخل دار صادق بگ من أحفاد أمراء سليڤان (أمراء فارقين)(٥). وأعلاه صورة الباب المذكور. وبالقرب من هذا الباب كتابة جميلة جداً لصلاح الدين الأيوبي(٦)، وكتابة أيضاً للملك الكامل الأيوبي، وفي جنوبه بمسافة أبعد بقايا برج شاهق هذه صورتها.

٥- باب الفرح والغم: سمي بـ(باب باقوسي) أيضاً، وباقوسي قرية في غربي المدينة. سمي أيضاً بـ(باب القصر العتيق). وهو الباب الغربي للمدينة ويقع بالقرب من الركن الجنوبي الغربي من السور من الجهة الشمالية. مازالت آثاره واضحة للعيان في السور الخارجي وقد صورناه. أما الصورتان الموجودتان عنده فلم أجد لهما أثراً. كانت الصورة الأولى لرجل يلعب بيديه، والثانية لرجل على رأسه صخرة، ولهذا سمي بباب الفرح والغم. وهو الباب الذي رأى ناصر خسرو عليه باباً حديدياً مشبكاً

(٥) ذكر ابن شداد في الأعلاق الخطيرة (ورقة ٧٣)، ان الخندق المحفور حول المدينة كان عبارة عن برك فُصل بينها بمقاطع يأتي ماؤها من عين حنباص، أي أن الخندق كان يملأ بالماء. وقال في (ورقة ٧٢) أيضاً أن سيف الدولة شرع بحفر الخندق حينما إستولى على المدينة.

(٦) أخذ صلاح الدين فارقين من الأرتقيين في ٢٩ جمادى الأولى سنة ٥٨١هـ وحضرها هو بنفسه كما جاء في (ص٨٩، النوادر السلطانية لإبن شداد الموصلي) ولكنه إستولى على مدينة دياربكر سنة (٥٧٩هـ) ومات أثناء ذلك. فأكملت اخته جميلة حفره. وفي مكان الخندق حالياً بساتين.



بقايا البرج جنوب باب الربض



باب باقوسي

وأعجب به. ولعله أحد البابين الحديديين اللذين كانا موجودين قبل عهد سيف الدولة الحمداني، إلا أنه عمل على تقويتهما، كما قال ابن شداد في (الورقة ٧٢). وكانت هناك آثار باب صغير عند هذا الباب قرب زاوية السور (برج علي بن وهب)، وقد شاهدنا له أثراً قليلاً، بالقرب من أثر البرج شمالاً وفي جنوب باب الفرح والغم، أي عند ضلع السور تقريباً.

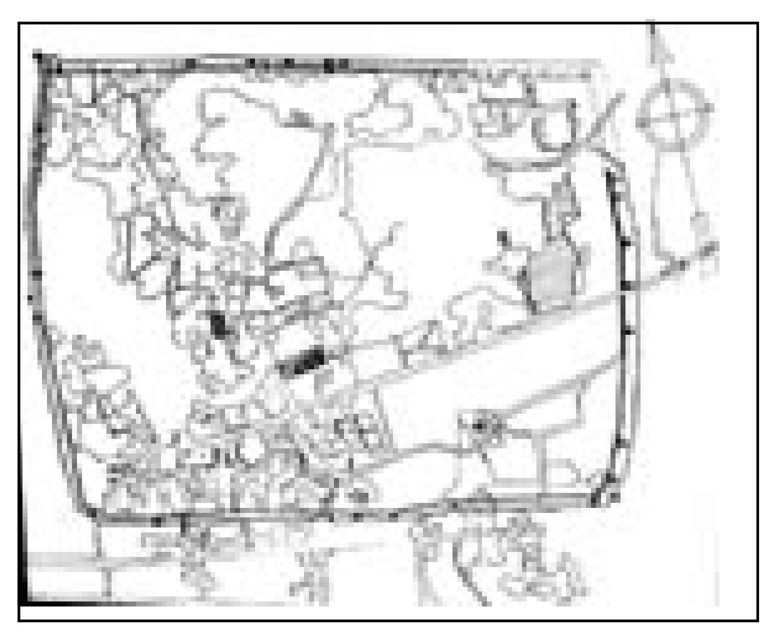
٦- باب الميدان: كان يقع بالقرب من الزاوية الجنوبية الغربية للسور، حيث كان هناك قصر سيف الدولة الحمداني، الذي شيّد الناس في موضعه دوراً لهم، ولذلك لم أستطع تحديد مكانه بدقة. سمي هذا الباب بباب الميدان فتحه سيف الدولة لقصره ولم يكن له باب يقابله في الفصيل أي السور الأمامي، بل كان الطريق يخرج منه فيما بين السورين الى باب الفرح والغم. توجد تحت مكان السور في القسم الجنوبي الغربي غرب (العقبة)، أي الوادي الضحل الذي تجري فيه المياه القذرة للمدينة، ينبوع – فوقه آثار باب في السور، ولست أدري هل كان باب الميدان أو أنه من نوع الأبواب الصغيرة في السور الخارجي، وأمام الينبوع بعض البساتين.

٧- باب كان في أسفل العقبة، وكان يؤدي الى المحدثة وهناك الآن بساتين.

٨- باب أرزن- باب المحدثة- باب الخنازير: كان في ١٩٧٧ سالماً بصورة عامة. يقع في غرب الركن الجنوبي الشرقي من السور بحوالي مائة متر، ثم أخبرني بعض الناس أنه تهدم. وكان الباب الرئيسي للمدينة وورد إسمه مراراً في تاريخ الفارقي بإسم (باب المدينة) فقط. وقد ذكر في (ص٨٦) ان ممهدالدولة بناه من جديد سنة (٣٩٦هـ = ١٠٠٥-١٠٠٦م) إثر إنهدامه وكان باب الربض وباب باقوسي مفتوحين، واثناء تجديده فتح باب قلوفح. وبعد ان اكمل بناءه سد الابواب الثلاثة وكانت الاخرى مسدودة ايضاً، فبقي باب ارزن وحده مفتوحاً من بين كافة الابواب.

وذكر ابن شداد في (الورقة ٧٢) انه كانت هناك عدا الابواب الثمانية الكبيرة ابواب صغيرة في السور الخارجي (الفصيل) خاصة بالعمل كنقل مواد الانشاء الى المدينة ومنها.

اما السوران فإن قسماً كبيراً منهما قد ازيل، وخاصة السور الداخلي الكبير، من قبل السكان بصورة عامة. حيث نقلوا احجارهما لبناء دورهم وكذلك أبراجهما، بينما ابقوا احياناً أجزاءهما السفلى واتخذوهما أسساً لدورهم وهي تشاهد الآن تحت جدرانهما. وماعدا السور الخارجي (الامامي) الغربي، فإن معظم القسم الاسفل منه مازال سالماً مع مسنداته حافظت عليه البساتين، لأنه اصبح الجدار الشرقي لها ودعت مصلحة الجهلاء لإبقائه، علماً ان بساتين المدينة الكثيرة تقع بصورة عامة في غرب المدينة. اما السور الجنوبي، فقد ازيل وشيد مكانه او على الاجزاء السفلى منه الدور، عدا الجزء القريب من الزاوية الجنوبية الشرقية. اما السور الشرقي فبقي منه جزء بالقرب من تلك الزاوية ايضاً مع عدة ابراج. اما السور الشمالي، فقد ازيل ماعدا حوالي مائة متر او اكثر من الجهة الشمالية الشرقية. وكان وضع السور، أي السورين في عهد (گبرييل) عندما زار المدينة سنة ١٩٣٢ أحسن نوعاً ما من سنة ١٩٧٧، كما يتضح ذلك من مخططه الموجود في (ص١٤٣) من كتاب بيسان أوغلو.



مخطط گبرييل للسور

وكانت هذه أبواب سور المدينة الأصلية، أما القسم الشمالي منها (الربض) والقسم الجنوبي (المحدثة – الميدان)، فكانا خارجين عن السور وإعتبرهما قسمين من المدينة كونها توسعت في العهد الدوستكي الذي توسعت فيه حركة الإعمار والبناء. وهي كما قال الفارقي في (ص١٦٦) إنغمرت أي إمتلأت بالسكان في عهد نصرالدولة وقصدها الناس والتجار من كل الأطراف. بينما ذكر ابن حوقل في (ص٢٠٣) مايعلم منه ان فارقين كانت قبل العهد الدوستكي قليلة المنازل والسكان. حيث قال ان مدينة الجزيرة وافرة السكان "وليست كأرزن وميافارقين من خلو المنازل". وقد حصل ذلك التوسع شمالاً وجنوباً فأصبح كل من الربض والمحدثة كمدينة. ولما زار ناصر خسرو فارقين في السنة السادسة والستين من العهد الدوستكي، ذكر في (سفرنامه، ص٤١) ان في الربض (كاروان سراها) أي خانات وأسواق وحمامات وكل ما ينبغي لهذه المدينة من مهمات(٧).

وبالنسبة لما ذكره من سور المحدثة، لم أجد ذلك في مصدر آخر. أما بالنسبة لسوقها، فمن جملة أسواقها كان هناك سوق خاص ببيع وشراء الخيل وسمي لذلك بسوق الخيل وكان يقع في طرف الجامع.

(٧) ذكر ابن شداد في الورقة (٧٢) أسماء حمامات فارقين والربض والمحدثة وهي: حمام القاضي بجانب الجامع وحمام سعيد تحت القصر وحمام العقبة وحمام الحطابين وحمام الآزج والحمام الجديد وحمام خزيمه أنشأها ابن الفقاعي وفي المحدثة حمامان، وفي الربض حمامان هما حمام جوزة وحمام حنباص. وكانت هذه موجودة في عهده وسبق وأن ذكرنا انه كان للقصر حمامين. وذكر الفاررقي ان في العقبة (داخل المدينة) حمامين، وفي (ص٢٦٩) ذكر الفارقي إسم (حمام ابن موسك) أي الرئيس ابي عبدالله بن موسك بن محمد بن كك. وكان الحمام ملاصقاً لداره بفارقين.

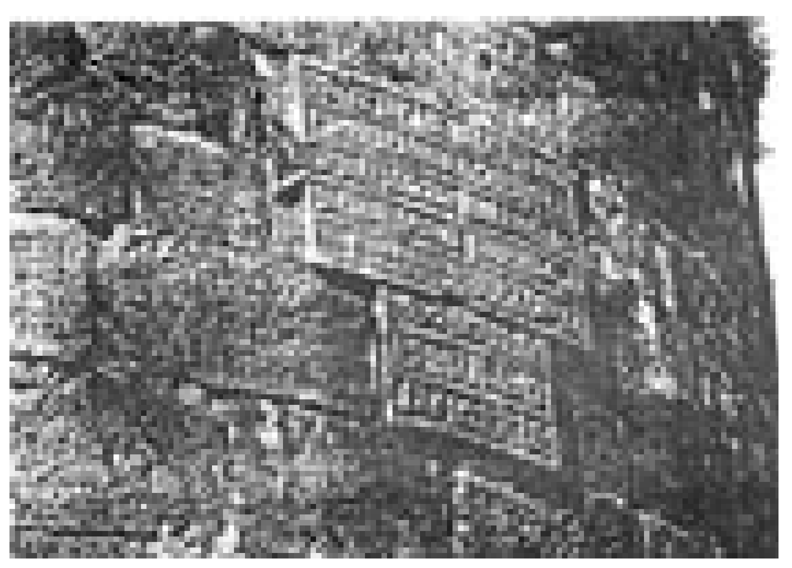
أما بالنسبة للربض، فكان له مسجدان آخران، ويمكن القول بأن فارقين كانت تتكون في العهد الدوستكي من ثلاث مدن كانت أكبر بكثير مما شاهدتها عليه في سنة ١٩٧٧. حيث كانت محصورة في حدود السور عدا جزء قليل من حدود الجانب الجنوبي الشرقي من السور. أما المحدثة والربض، فكانا خاليين من المباني السكنية ويتألفان من الأراضي الزراعية للبساتين والحبوب. أما الضاحية الشرقية (الميدان)، فكانت أيضاً خالية من المباني ويحتمل أنه كان فيها قليل من المباني في العهد الدوستكي والأيوبي، وقد شيد فيه الأمير شهاب الدين غازي بن الملك العادل الأيوبي جَوسَقاً (كوشكا).

بناءً على ما تقدم كانت فارقين في العهد الدوستكي تقدر بحوالي ضعفي حجمها في عام ١٩٧٧. ونظراً لكون عدد سكانها في (١٩٦٥) كان يبلغ (١٢،٢٠٠) ألف نسمة حسب الإحصاء الرسمي، وفي عام (١٩٧٧) بـ(١٨) ألفاً، فيمكن إذن تقدير عدد سكانها في العهد الدوستكي بحوالي (٣٥) ألف نسمة، وهو عدد غير قليل بالنسبة الى حجم المدن في ذلك العصر.

كتابات فارقين

ذكر الفارقي في (ص١٦٣) أن سور ميافارقين مسك نفسه في جميع هذه الدول وإنهدم منه أقرب شيء وبقي الى ولاية بني مروان، فإستهدم فيه مواضع كثيرة. فبنى منها الأمير ابو الفوارس بن دوستك أخو (باد) بعضها، وبنى الأمير منصور الممهد مواضع كثيرة، وقد وجد اسمه على أكثر من خمسين موضعاً من السور كان قد رممه. وبنى ابو علي مواضع كثيرة واسمه عليها، وبنى نصرالدولة ونظام الدين مواضع كثيرة من ابرجة وبدانات وغيرها وعمرت احسن عمارة. وقال عددت في السور من ظاهره ما بناه نصرالدوالة وعليه إسمه، فكان تسع مواضع وقيل عشرين موضعاً. وعددت من باطن السور فكان نيفاً وثلاثين موضعاً ووقف على السور القرايا وغيرها. وذكر إبن شداد ان نظام الدين زاد على إرتفاع سور فارقين وآمد. لقد أشار الشاعر (المتنبي) في إحدى قصائده الى ما أصاب سوري المدينة من ضعف وهزال بحيث "ترق لميافارقين وترحم". وذلك في العهد الحمداني كما مضى في الجزء الأول(ص٨٠).

لقد عمرت الدولة الكُردية حتى عهد نصرالدولة مايزيد على مائتي موضع من السور وعمّرتها بصورة جيدة، بحيث أن ناصر خسرو أعجب بمتانته وبأبراجها ذات الشرفات "بحيث تقول ان يد بناء ماهر قد أكملها اليوم". ولكن من المؤسف ان الكتابات الدوستكية الكثيرة التي شاهدها الفارقي لم يبق منها الى ثلاثنيات القرن العشرين سوى سبع كتابات فقط. حيث لم يجد مؤرخو دياربكر أكثر منها. علماً أن كتابات الدولة الدوستكية في فارقين ودياربكر كانت كوفية. وتلك الكتابات هي:



كتابة مهد الدولة سنة ٣٩١ هـ (الكتابة الأولى)

الكتابة الأولى:

لمهدالدولة بتاريخ (٣٩١هـ = ١٠٠١م) وكان تقع على برج مدور شمال القلعة، اي في القسم الشرقي من سور فارقين وهذا نصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. امر بعمله الأمير المنصور ممهدالدولة ابو منصور مولى امير المؤمنين اطال الله بقاءه في سنة احدى وتسعين وثلثمائة وانفق عليه من خاص ماله ابتغاء وجه الله عزوجل(٨).

الكتابة الثانية:

تقع على باب الجبل (باب الهوة) وهي بإسم نصرالدولة، حيث عمّر الباب سنة (٤٠٥هـ = ١٠١٤-١٠١٥م). والكتابة سبعة سطور على الجانب الشرقي من الباب حيث لم يبق للجانب الغربي وجود وقد صورتها وقرأتها على النحو الآتي:

١- بسم الله الرحمن الرحيم لا اله

٢- إلا الملك الحق المبين وصلى الله

(٨) نقل الكتابة بيسان اوغلو (ص٢٣٣) من البرت گبرييل الذي نقلها من ماكس ڤان برشم ويحتمل انها زالت من الوجود بعد ذلك لذلك لم يرها سليمان سافجي.



كتابة باب الجبل

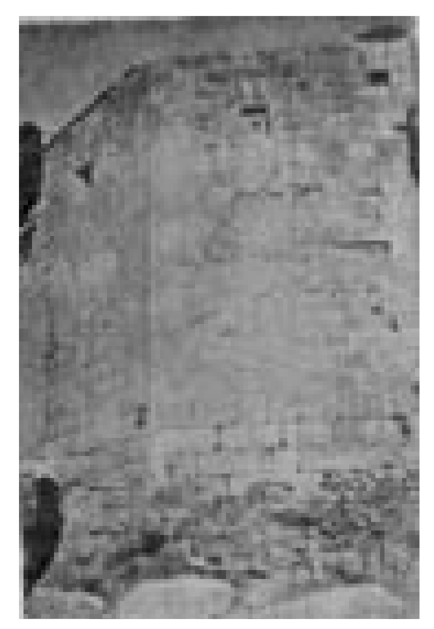
٣- على محمد وآله وسلم تسليما
٤- مما أمر بعمله الأمير السيد الاجل
٥- نصرالدولة ابو نصر مولى امير
٦- المؤمنين اطال الله بقاءه وعز نصره
٧- في سنة خمس وأربعمائة حسبي الله(٩).

الكتابة الثالثة:

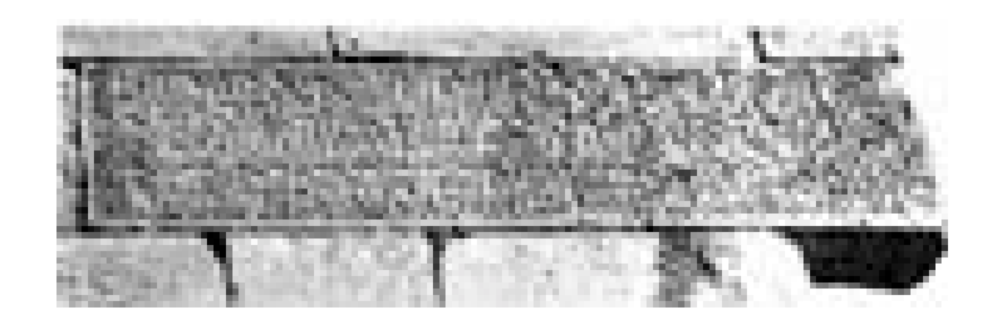
وهي بإسم نصرالدولة وبتاريخ (٤١٦هـ = ١٠٢٥م). نقلها أولاً ڤان برشم ثم نقلها عنه گبريل، وأخذها عن الأخير بيسان أوغلو (ص٢٣٤)، ولم يذكرها سليمان سافجي وقد تلف قسم من الكتابة ولم يذكر بيسان موقعها وهذا نصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم لا إله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم امر بعمارة هذا...

(٩) سليمان سافجي ص٢٢ من Silvan Tarihi ورد فيه (الملك) بدل (الأمير)، وهو خطأ كما جاء بدلاً من (امير المؤمنين) (المنصور المؤمنين) وهو خطأ أيضاً. وقال سافجي ان الكتابة تقع عند موقع (شادور) وكذلك قال بيسان أوغلو في (ص٢٣٣)، ويحتمل ان معناه (دور الشاه). فلا ندري هل المقصود قصر نصرالدولة بحيث أطلق الكُرد هذا الإسم عليه في وقت ما أو لا؟ أو هل أنه محرف (شاذروان) على لسان العامة؟ وهل إن المقصود آنذاك بالشاذروان (شادور) المنظرة (منظرة نصرالدولة القريبة من هناك)؟ أو هل ان (شادور) مخفف من (شادور) الفارسية بعنى تخت الشاه؟ وقصد بذلك تخت نصرالدولة وقصره، لأن هذا الباب كان يؤدي الي القصر وكان عند الزاوية الشمالية الغربية منه.



البرج المخمس



الكتابة الرابعة: على سور فارقين للملك الكامل -٦٤٩ هـ

الأمير السيد الاجل نصرالدولة اختيار(؟) الملة (؟)... دام (؟) سلطانه وجرى ذلك... القاضي ابي... الحسن بن محمد... في سنة ست عشرة وأربعمائة[١٠].

الكتابة الرابعة:

وتقع على برج مخمس الأضلاع في القسم الشرقي من السور في جنوب باب قلوفح (كولفا). والكتابة على الجدار الجنوبي منه حيث شيده أو رممه الأمير نظام الدين سنة (٤٦٤هـ = ١٠٧١-١٠٧٢م)، علماً ان على الجدار الجنوبي الشرقي منه كتابة بإسم الملك الكامل الأيوبي تحت صورة أسدين بينهما قرص للشمس . الكتابة بتاريخ (٦٤٩هـ) حيث عمّر البرج. وقد وردت الكتابة في بيسان أوغلو (ص٢٣٥).

وفي سليمان سافجي (ص٢٣-٢٤) إيضاح مع تصحيح خطأ معلوم:

١- بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله محمد رسول الله

٢- مما امر بعمله مولانا الأمير السيد الاجل المؤيد المنصور جمال الاسلام نظام الدين

٣- نصيرالدولة[١١] كهف الأمة عز الملوك سلطان الأمراء ابي القسم نصر بن عز الاسلام نصرالدولة اطال الله بقاه وادام سلطانه

٤- في سنة أربع وستين وأربعمائة.

الكتابة الخامسة:

كانت على موقع من السور الداخلي شمال باب قلوفح وهي بإسم نظام الدين وبتاريخ (٤٧٢هـ = ١٠٧٩-١٠٨٠م). ذكرها سليمان سافجي (ص٢٤) وأشار الى ان بدايات الكتابة فقدت. وهذا نصها مع تصحيح ما ورد فيها من أخطاء نتيجة قراءتها بصورة غير دقيقة:

"ادام الله سلطانه في وزارة الاجل الأعز زعيم الدولة[١٢]أبي طاهر سلامة[١٣] ابن (الانباري؟)[١٤] وبنظر القاضي ابو الحسن محمد ابن الحسن في سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة.

ومن الجدير بالذكر أن القاضي ابا الحسن أحمد هو القاضي ابي علي الحسن بن علي بن البغل الآمدي، والذي تولى إدارة السور كما ذكرنا في موضوع (إدارة السور)، علاوة على توليه إدارة الوقف، وذلك سنة (٤٦٨هـ).

(١٠) يحتمل أن هذا القاضي هو الشيخ ابو محمد الحسن بن محمد بن المحور من بيت المحور الشهير في فارقين، الذي عينه نصرالدولة عندما تولى الحكم مديراً للأوقاف، كما ذكرنا في موضوع الأوقاف.

(١١) ورد في المصدرين (نصرالدولة) والصحيح (نصير الدولة).

(١٢) ورد في المصدرين المذكورين (سليمان) والصحيح (سلامة).

(١٣) كتب اللقب خطأ وغير واضح والصحيح (زعيم الدولة).

(١٤) كتب (ابن جهير) وهو خطأ، لأن سلامة كان إبن ابي الفضل ابراهيم بن عبدالكريم الأنباري وعرف بـ(ابن الانباري)، والتفاصيل في موضوع (الوزارة)، وقد أصبح كل منهما وزيراً لنظام الدين.

الكتابة السادسة:

كانت تقع في القسم الشمالي من السور بالقرب من دار صادق بگ (باب الربض) على حجر (٥٠×٦٠ سم)، وقد سقط بعض منها على ما ذكره سافجي ونسبها الى الحمدانيين متوهماً أن ناصرالدولة بن نظام الدين من الحمدانيين. وهذا نص الكتابة حسبما جاء في (ص١٧) من كتابه:

١- الأمير الأجل المؤيد
٢- علم الدين ناصرالدولة فخر الأمة
٣- الملة[١٥] تاج الملوك شرف الأمراء ابو العـ...
٤- لي[١٦] بن نظام الدين اطال الله.

الكتابة السابعة:

كان تقع عند مرقد الشيخ خليل على ما قاله سافجي[١٧] وهي بإسم ناصراالدولة وعدّها أيضاً من جملة الكتابات الحمدانية متوهماً، ولم يذكر نص الكتابة ولا تاريخها، ولكنه أتى بصورتها وهي ثلاثة أسطر في بدايتها البسملة. ويظهر انه سقط بعضها وذكر أنها لنفس ناصرلدولة المذكور، أي ناصرالدولة (منصور) بن نظام الدين آخر الأمراء الدوستكيين. وأخيراً إن زيارتي الى فارقين لمدة ثلاثة أيام كانت غير وافية، ولكنها لم تخل من فائدة، لأن معرفة مخطط المدينة يحتاج الى مدة طويلة.

مخطط فارقين على ما وضعناه

سور دياربكر وأبراجها وكتاباتها

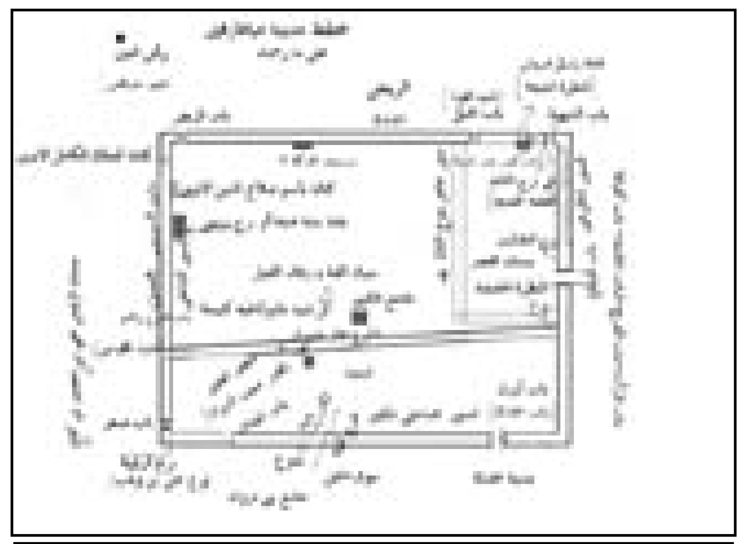
كان سور دياربكر (آمد) المشيد بحجر البازلت الأسود أقوى أسوار المدن في الشرق الأوسط[١]. وقد وصفه المؤرخون والسواح بإعجاب، منهم ناصر خسرو الذي قال: لقد رأيت كثيراً من المدن والقلاع في أطراف العالم وفي بلاد العرب والعجم والهند والترك. ولكن لم أر قط مثل مدينة آمد في أي

(١٥) العبارة غير سليمة ولابد أن تكون قبل (الملة) كلمة.

(١٦) أو أبو العلاء.

(١٧) كتاب سليمان سافجي ورغم حجمه الصغير المتكون من ستين صفحة كتاب قيم. ففيه من كتابات فارقين ما لم يتطرق اليها كل من بسري كونيار وبيسان أوغلو، وطبع سنة ١٩٥٦، أي بعد وفاته في سنة ١٩٤٥. ولد سافجي في مدينة دياربكر (١٣٠٧هـ = ١٨٨٩-١٨٩٠م)، وكان معلماً وله كتاب الفه في دياربكر، وكتاب آخر بخصوص مدينة دياربكر، وقد ترجم المذكور كتاب (شرفنامه) الى التركية؟ وكان يجيد العربية والفارسية.

(١) قال عادل تكن في ص٧ من كتابه الصغير (DIYARBAKIR) أن سور دياربكر أقوى وأهم سور في العالم بعد سور الصين.





مخطط سور وأبراج آمد

مكان على وجه الأرض، ولها سوران. وأضاف أن لسورها أربعة أبواب، وعليها أبواب من الحديد لا خشب فيها. وللسور الخارجي أيضاً أبواب من الحديد، والأبواب في السورين متخالفة بمسافة تبلغ خمسة عشر ذراعاً، وإرتفاع السور الخارجي عشرة أذرع ومن فوقه شرفات(٢).

هذا مع العلم بأن المذكور زار المدينة سنة (١٠٤٦م) في عهد الدولة الدوستكية. وكنا قد ذكرنا سابقاً ان الملك السلجوقي آلب أرسلان لما شاهد سورها إستغرب منه، فأخذ يضع يده عليه ويمسح بها صدره متبركاً به. طول السور من الشرق الى الغرب (١٧٠٠) متر، ومن الشمال الى الجنوب (١٣٠٠) متر، ويبلغ طوله الكلي (٦) كلم. إرتفاع السور حالياً (٨-١٢) متراً وعرضه (٣-٥) متراً. عدد أبوابه أربعة وهي في كل جهة باب: ففي الشرق باب دجلة (باب الماء - الباب الجديد)، وفي الغرب باب الروم (باب حلب)، وفي الشمال باب الجبل (باب خربوط)، وفي الجنوب باب التل (باب ماردين).

وللسور إثنان وثمانون برجاً، إرتفاع بعضها حالياً أكثر من عشرين متراً. ولم يتم إستخدام الملاط بين أحجار السور والأبراج، سواء كان من الجص أو أية مادة أخرى، وإنما شيد فيما يسمى بالإصطلاح المعماري الكُردي (وشكه كەلەک - هيشکەبەر) أي الحجر الأصم (حجر اللاش).

إن أول من شيد هذا السور هو الإمبراطور الروماني (جونستانتيوس) سنة (٣٤٩م)، أما القلعة الواقعة في منطقة صخرية عالية، فهي تطل على دجلة والواقعة في الضلع الشرقي من جزء الشمال، فأقدم من السور وقيل أنها تعود الى عهد الحوريين(٣)، أي أواسط الألف الثاني قبل الميلاد.

ولحسن الحظ أن السور مازال سالماً بأبراجه، ولعلها أسلم مدينة في الشرق الأوسط من هذه الناحية. وعلى السور كتابات رومانية وكتابات لدول وإمارات إسلامية، مختلفة تتضمن أسماء الملوك والأمراء وأحياناً أسماء المهندسين والبنّائين(٤)، وعلى السور رسوم حيوانية ونقوش. فدياربكر بسورها وأبراجها ومبانيها وأبراجها ومبانيها الأثرية الكثيرة تشبه متحفاً زاخراً لا يشبع الطرف من رؤيتها،

(٢) أضاف أن في داخل المدينة في عدة أماكن سلالم ليتيسر الصعود الى السور. وقد بُنيت قلعة على قمة كل برج وعلى بعد مائة ذراع (أي حوالي خمسين متراً) برج نصف دائرته ثمانون ذراعاً (أي حوالي أربعين متراً أو أكثر، لأن الذراع نصف متر وهناك ذراع أطول). وسمى ناصر خسرو الباب الشمالي (باب الأرمن)، والجنوبي (باب التل). وقال في وسط المدينة عين ماء تكفي لإدارة خمس طواحين. وفي المدينة أشجار وبساتين. راجع (سفرنامه ص٨-١٠).

(٣) راجع بيسان أوغلو، ص١٣٤ من دياربكر تاريخي.

(٤) ورد في كتابات آمد اسم المهندس احمد بن جميل الآمدي في كتابات عدة وكذا اسم شجاع الدين المقدم جعفر بن محمود الحلبي حيث كتب "ترسيم..." أي بتخطيط وهندسة جعفر. فيعتبر لذلك مهندساً معمارياً ورد اسمه في كتابة بتاريخ ٦٢٥هـ و٦٣٤هـ، وكذلك الملك الصالح ابو الفتح محمود بن محمد بن قره أرسلان الأمير الأرتقي، حيث كتب على واحد من أكبر أبراج آمد (وهو برج يدي قرداش) انه بترسيمه. علماً أن ابن رزاز الجزري قد ألف كتابه لهذا الأمير. كان الأمير محمود مولعاً او محباً للفنون وعالماً بالهندسة الميكانيكية ايضاً ورساماً. أما البنّاء فكان يحيى بن ابراهيم الصرفي. ووردت أسماء هؤلاء البنائين في كتابات آمد: نصير بن حبيب في كتابة لنصرالدولة بتاريخ ٤٣٧هـ وموسى بن مزيد ٤٦٤هـ و٤٦٥هـ وعبيد بن (سفحر) ٤٥٧هـ، وابو سعيد بن حمص أو حميض في ٤٧٦هـ، ومحمد بن سلامة الرهاوي ٤٨١هـ و٤٨٢هـ و٤٨٥هـ، وهبة الله الكركاني ٥٥٠هـ و٥٥٩هـ وابراهيم بن جعفر ٦٠٥هـ، ويحيى بن ابراهيم الصرفي وعيسى بن درهم وأبو درهم ٥٩٥هـ عمل مع شجاع الدين جعفر بن محمود الحلبي وعثمان بن طاكاك(٦٢٠هـ) وغلام جعفر المذكور ومسعود ٦٢٠ هـ عمل مع (المهندس) جعفر وابو الفرج عمل مع جعفر ايضاً، سنة ٦٣٤ هـ، ويحتمل ان البناء ابراهيم كان ابنه.

ولها المقام الأول بين مدن كُردستان وهي أكبرها، ويبلغ عدد سكانها الآن حوالي (٢) مليون نسمة.

لقد إهتمت الدولة الكُردية بترميم ما ضعف من سور دياربكر وأبراجه، كما إن نظام الدين زاد في إرتفاع السور. وقال الفارقي في (ص٨٣) أن (ابن دمنة) زاد في إرتفاع السور قامة، وكان هذا وصهره عبدالبر قد حكما المدينة بعد إغتيال عبدالبر للأمير أبي علي الحسن بن مروان في أواخر (٣٨٦هـ = ٩٩٦م) كما ذكرنا في الجزء الأول. ثم خضع عبدالبر لممهدالدولة، فكان حكمهم من قبل الدولة الى سنة (٤١٢هـ). وفي الورقة (٦٩) قال ابن شداد ان الفصيل، اي السور الأمامي شيد من قبل ابن دمنة ثم أزاله الملك الكامل الأيوبي، ولم أجد ذلك في مصدر آخر(٥).

لقد تقدمت المدينة أيضاً في عهد الدولة الدوستكية، ولكنها سرعان ما تأخرت بعد زوالها بشهادة من كاتب نسخة (صورة الأرض) لإبن حوقل المخطوطة التي طبعت بتعليقاته. فقد قال في (ص٢٠١): أنه دخلها سنة (٥٣٦هـ) "ولم يكن بها إلا بقايا رمق... فلم يزل بها جور بني نيسان وكثرة الإضطهاد والإجحاف والمصادرات والتضييق عليهم... فألجأهم ذلك الى التشتت عن الأوطان فخربت بيوتهم... فلم يبق بأسواقها حانوت معمور...". ولاشك أن الدولة الدوستكية قد رممت عشرات الأماكن وكتبت عليها. ولكن لم تبق من كتابتها على السور والأبراج سوى أربع عشرة كتابة، وفيما يلي تلك الأماكن والكتابات:

١- في سنة (٣٨٦هـ = ٩٩٦م)، عمّر الأمير أبو علي الحسن بن مروان (باب الجبل) وكتب عليه ما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، مما أمر بعمله الأمير المنصور ابوعلي الحسن بن مروان اعز الله نصره سنة ست وثمانين وثلثمائة"(٦).

٢- كتابة على برج في الجنوب الشرقي من السور وهي عبارة عن سطرين مكتوبين على الحجر الأبيض، وهي بتاريخ (٤٢٦هـ) وفي الصفحة التالية صورة للبرج.

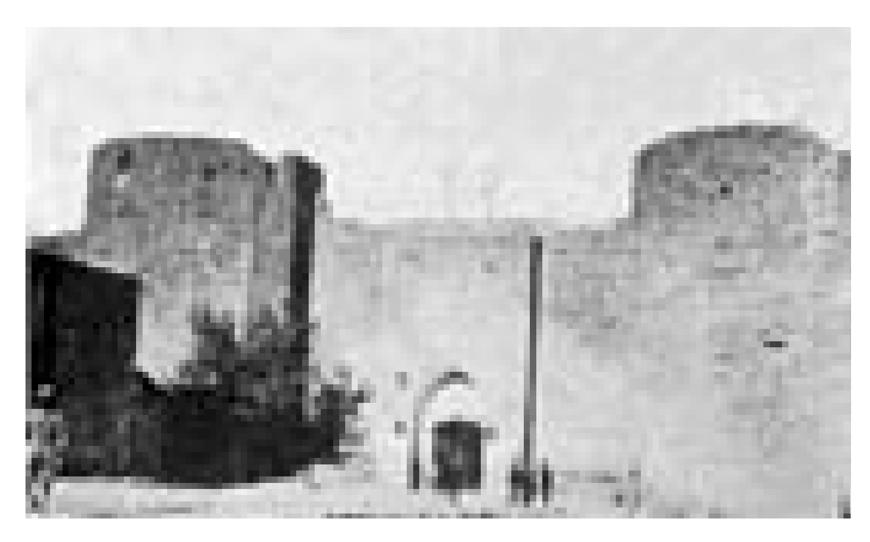
ونص الكتابة على ما جاء في بيسان أوغلو (ص٢٢٦) وبسري كونيار(ج٢، ص٢٤) هي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، مما أمر عمله الأمير السيد الأجل المؤيد المنصور عز الإسلام سعدالدين نصرالدولة ركن الملة مجد الأمة شرف الأمراء ابو نصر أحمد بن مروان اطال الله بقاه وادام سلطانه شهور سنة ست وعشرين وأربعمائة وحسبي الله ونعم الوكيل".

٣- كتابة لنصرالدولة على باب (كچي برجو - KEÇI BURÇU) المشيد على صخرة عالية في الزاوية

(٥) ذكر الفارقي في (ص٨٢) من تاريخه تاريخ آمد وميافارقين، أن ابا طاهر يوسف بن دمنة شيد القصر على دجلة والسلسلة في شرقي البلد، وأحكم عمارته وفتح له باباً من القصر الى دجله وسماه (باب الهوة). ولم يذكر انه بنى السور الأمامي (الفصيل). وذكر إيليا برشنايا في تاريخه (المخطوط) (ص٨٣) هذا القصر بإسم قلعة، وذلك بعد أن حاولت جماعة قتله سنة (٣٨٦هـ)، ثم قتل سنة (٤٠٢هـ). بينما ذكر الفارقي ان قتله كان في سنة (٤١٥هـ). وذكره إيليا بإسم عبدالله بن دمنة وذكر انه إستولى على آمد عندما قتل عبدالبر يوم الإثنين الرابع من شوال سنة (٣٨٩هـ). (ففي ص٢٠١ من النسخة المطبوعة يُعتمد على معلومات إيليا أكثر من الفارقي، لأن تلك الأحداث وقعت في عهده وقد فرغ من تأليف تاريخه هذا - كتاب الأزمنة - سنة ١٠١٨م).

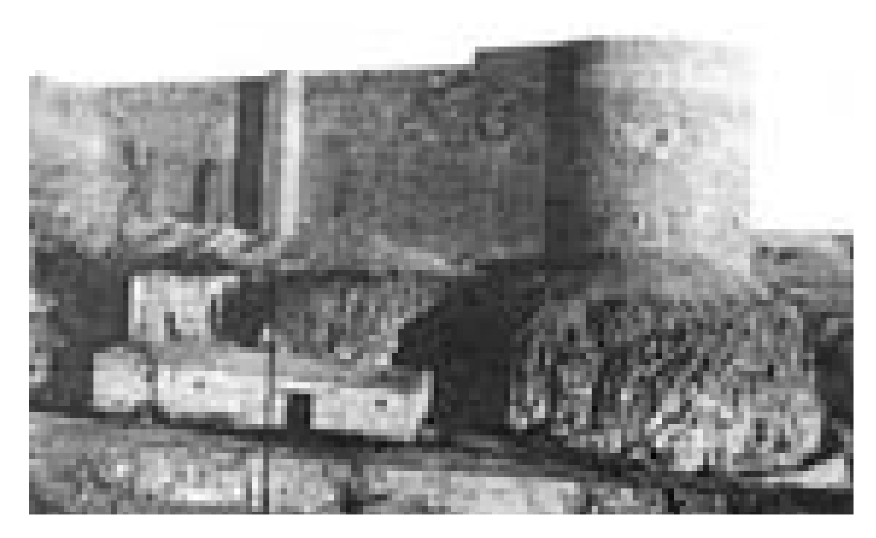
(٦) بيسان أوغلو، ص٢٢٦ من Diyarbakir Tarikhi ، لم يذكرها بسري كونيار.



باب الجبل بآمد



برج في دياربكر



كـجـي برجـو - بيسـان أوغـلـو

الجنوبيـة الشـرقيـة من السـور، وقد طلع البرج عن مسـتوى السـور الى أمام وله بذلك منظر جـميـل ومـهـيب. لايقل البـرج في داخله عن طابقين جـدده أو رممه نصـرالدولة سنة (٤٣٧هـ = ١٠٤٥-١٠٤٦م)، وهو من أشهر أبراج دياربكر ويقع في شرق باب ماردين وبينهما برجان. وفي آب ١٩٧٧ عندما زرت آثار دياربكر، كان البرج تحت الترميم وقيل لي أن الحكومة تتخذه متحفاً، وكانت تحت البرج رحى مائية. وقد مضى نص الكتابة في موضوع الجباية فراجع هناك.

٤- كتابة على مربع برج يقع في شرقي (كچي برجو)، وبينهما أربعة أبراج، عليه كتابة كوفية مزخرفة مؤرخة بسنة (٤٣٧هـ = ١٠٤٥-١٠٤٦م)، وهي تحمل إسم نصرالدولة وابنه سعدالدولة محمد والي المدينة.

وفي العشرين من آب سنة ١٩٧٧ صورت البرج وقرأت كتابته التالية:

"بسم الله الرحمن الرحيم مما امر بعمله وبنائه والانفاق عليه إبتغاء ثواب الله وطلب رحمته مولانا الأمير السيد الآجل المنصور عز الإسلام سعدالدين نصرالدولة وركن الملة ومجد الأمة شرف الأمراء ابو نصر أحمد بن مروان في ولاية ولده الأمير سعدالدولة ابو الحسن محمد اطال الله بقاءهما وأيد ملكهما وجري ذلك على يد القاضي ابي علي الحسن بن علي بن أحمد الآمدي سنة سبع وثلاثين وأربعمائة والبناء نصير حبيب"(٧).

لم أتمكن من قراءة إسم والد البنّاء آنذاك، ولذلك أخذت الإسم "حبيب" من بيسان أوغلو، والآن

(٧) توجد في ڤان برشم أيضاً في (ص٢٦)، وفي بيسان أوغلو (ص٢٢٨) وفي بسري كونيار(ج٢، ص٢٨). في الأول والأخير "نصير بن سبأ" وهو غير صحيح. وبخصوص سعد الدولة ابو الحسن محمد راجع كتابنا (ج١، ص٢٤٤). في المصدر الأول انه البرج الثامن من (كچي برجو) ولا بد أن يكون أحدنا خاطئاً.

وبعد التدقيق في صورة الكتابة أؤيد انه حبيب وليس (سبا ؟).

وتجدر الإشارة الى ان هناك هناك صورة منحوتة لقرص الشمس فوق كلمة (سبع).

٥- كتابة على برج مربع وهو الأول أو الثالث ويقع شرق (كچي برجو) وهي بإسم نصرالدولة بتاريخ (٤٤٤هـ). تولى الإشراف على بنائه القاضي ابو علي المعروف بـ(ابن البغل) قاضي آمد الذي ذكرناه في موضوع (القضاء). وقد قرأت الكتابة على النحو التالي:

"بسم الله الرحمن الرحيم. مما أمر بعمله وبنائه والانفاق عليه من ماله مولانا الأمير السيد الأجلّ المنصور عز الإسلام سعدالدين نصرالدولة وركن الملة ومجد الأمة شرف الأمراء ابو نصر أحمد بن مروان اطال الله بقاه وادام سلطانه وجرى ذلك على يدي القاضي ابي علي الحسن بن علي بن أحمد الآمدي في سنة أربع وأربعين وأربعمائة والبناء نصير حبيب"(٨).

وفي الركن الغربي من البرج (ركن محراب) جميل عبارة عن قطعة حجرية واحدة إرتفاعه عن الأرض أكثر من متر واحد، وقد نحت في جانبيه عمودان صغيران. أما القسم الأعلى داخل المحراب، فمقسم الى خمسة فصوص كزخرفة هندسية وفوقه زخارف. وفي الزاوية العليا الشرقية من المحراب (ركن محراب) نحتت عليه صورة حمامة وفي الزاوية الغربية المقابلة صورة نسر، علماً انه نحتت صورة نسر وحمامة عند بداية كتابة بإسم نظام الدين بتاريخ (٤٦٤ هـ) على قلعة دياربكر نحتهما أدق من نحت النسر والحمامة هنا. وتوجد على الحاشية السفلى من المحراب كتابة بخط كوفي بسيط أو بين الكوفي والنسخ هي "الحمد لله وسلام على"(٩).

ولانعلم هل إن هذا النقش (ركن محراب) من الفن الدوستكي أم لا؟ ولكن البت في ذلك إنما يكون بعد التدقيق في الأبراج للتأكد من وحدة البناء. هذا مع العلم بأن الكتابة الموجودة عليه لاتشبه الكتابة الدوستكية. لذلك يحتمل أن يكون من العهد العباسي.

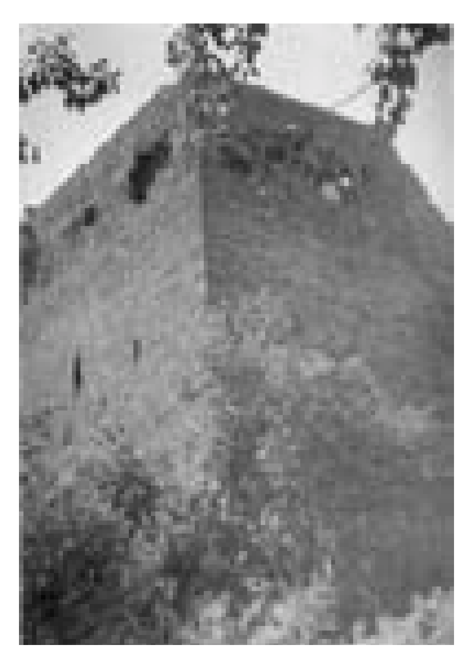
وفي الركن الشرقي ركن محراب آخر مشابه، لكنه خال من رسم الطائرين وعلى حاشيته ثلاث كلمات الوسطى إسم (الله)، وذلك في الصف الخامس من حجارة البرج. وفي نفس الركن في الصف الثاني عبارة من كلمة إو (كلمتين) تشبه إسم (يوسف). وإن كان ما نقوله صحيحاً فلعله إسم (ابو طاهر يوسف ابن دمنة)، الذي مر ذكره في بداية هذا الموضوع، وفي الركن الغربي حجر مماثل. وفي وسط هذا البرج أيضاً وفوق الكتابة الدوستكية (المروانية) في الصف السابع حجر عليه نقش مروحي في نصف دائرة وعلى جانبيه إسم (الله) بخط النسخ، وفي وسط البرج وبإرتفاع حوالي مترين رسم ثور أو بقرة.

(٨) الكتابة موجودة في كل من بسري كونيار ج٢، ص٢٨ وبيسان اوغلو، ص٢٢٨. وفي الأول أيضاً كتب (سبا ؟) مع وضع علامة الإستفهام. الكلمة غير صحيحة والصحيح (حبيب). وفي الأخير انه البرج الثالث، ولكني سجلته بالبرج الأول في شرق (كچي برجو). والصورة الكاملة من كونيار.

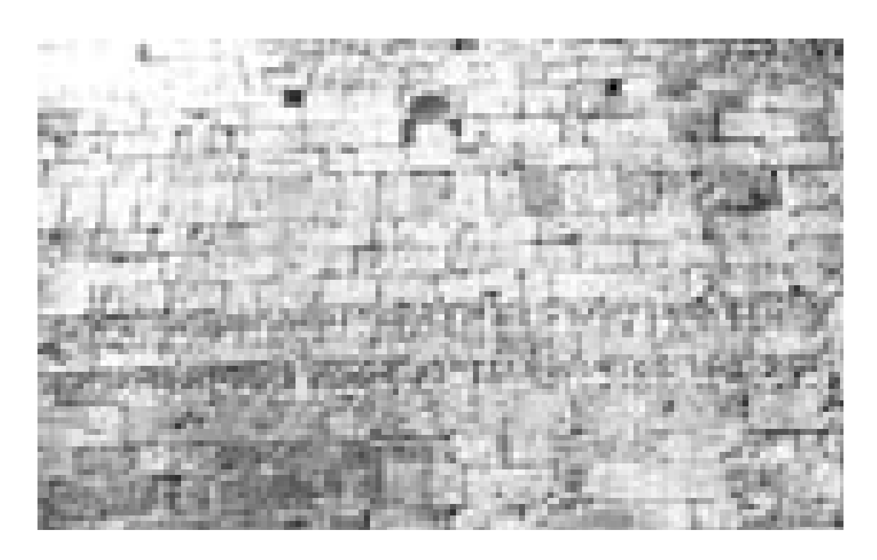
(٩) باقي العبارة تالف بسبب كسر الطبقة العليا من الحجر، ولعل التالف اسم (محمد) فقط وتنتهي الكتابة بـ(سلام على) ولم يكتب إسم (محمد) لوضوح المقصد، مثلما تنتهي الكتابة بكلمة (وصلى) على بعض النقود.



مقطع من كتابة سنة ٤٣٧ هـ



برج سنة ٤٤٤ هـ



مقطع من كتابة برج سنة ٤٤٤ هـ



كتابة لنصرالدولة على باب خربوت



كتابة برج سنة ٤٤٤ هـ

والجدير بالذكر أنه توجد على أحد الأبراج الواقعة غرب باب ماردين ثلاثة محاريب قريبة الشبه بمحاريب برجنا هذا. وفي كتاب بيسان أوغلو (ص١٧١) صورة محراب (يسمى في العمارة بركن محراب) على البرج الواقع في يمين (باب الجبل)، الذي فوقه كتابات للخليفة العباسي (المقتدر بالله جعفر)، وهو من عمل المهندس أحمد بن جميل الآمدي. ويحتمل ان تكون محاريب هذا البرج من عهد المقتدر، علماً بأنه توجد على بعض نقوده صورته وهو راكب عجلاً كرمز للقوة(١٠). وعلى هذا البرج رسم ثور أو بقرة. يذكر ان صنع المحاريب كان موجوداً في الحضرات القديمة، ومنها الحضارة السومرية، وفي الكهوف والمعابد الزردشتية الصخرية الكثيرة المكتشفة من قبلنا في (عقره - ئاكرێ وسلسلتها الجبلية نماذج من المحاريب المختلفة وفي النفق الصخري لمعبد (شكەفتا چار ستوين) الزردشتي بالقرب من دهوك الذي إكتشفته في ١٩٩٥/٥/٢٥) ركن محراب ايضاً.

٦- كتابة في داخل باب خربوط بإسم الأمير نصرالدولة الذي عمّره، ولكن سقطت منها عبارات ومنها تاريخها . وقد ذكر تلك الكتابة كل من ڤان برشم (ص٣٠) وبسري كونيار (ج٢، ص٢٩)، أي أن الكتابة كانت باقية الى عهدهما قبل أن تزيل الحكومة التركية هذا الباب. وقد صور ڤان برشم هذه الصورة للباب المذكور.

وقد ورد في المصدر الثاني (أي في كونيار) خطأ لعله مطبعي وهي كلمة (اليه) بدلاً من (عليه)

(١٠) توجد صورته في (ص١٣٧) من (النقود الإسلامية) للدكتور محمد باقر الحسيني، وقال انه نقد إعلامي سيء (ومحفوظ في المتحف العراقي).

في عبارة (... والانفاق عليه). وفيما يلي نص الكتابة:

"بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تطوع بعمله وبنائه والانفاق عليه تقرباً الى الله تعالى والى نبيه محمد صلى الله عليه مولانا (الأمير السيد؟) الأجلّ المؤيد المنصور عز الإسلام سعدالدين نصرالدولة وركن الملة ومجد الأمة شرف الأمراء...

٧- على باب خربوط آية قرآنية بنفس خط الكتابة السابقة لنصرالدولة. أشار اليها بسري كونيار في (ج٢، ص٣٠) ولم ينقلها، ولكن أدرج صورتها في الكتابة وهي المرقمة (٢٠).

٨- كتابة على برج مدور يقع في الطرف الأيسر من (جفته قاپي) وليس بينهما برج آخر. كانت عليه كتابة دوستكية بقي منها التاريخ فقط، وهو بدوره ناقص أيضاً وهو عبارة عن "في سنة أربع و... أربعمائة".

٩- كتابة على برج بين باب أورفا وباب خربوط (باب الجبل) سقطت منها عبارات وكانت في أربعة سطور. وهذا نصها على ما جاءت في بيسان أوغلو (ص٢٢٩): "... جمال الإسلام نظام الدين ونصير[١١] الدولة... السيد الاجل كافي الدولة ابو... بن عز الإسلام اطال الله بقاه... سنة خمسين وأربعمائة"[١٢].

١٠- كتابة البرج المرواني: وهي كتابة على البرج الشاهق، وهو أطول أبراج المدينة والذي يقدر إرتفاعه حالياً بـ(٢٢) متراً، وقد بقي منه الآن إثنان وسبعون صفاً من أحجار البناء. يقع البرج في جنوب باب دجلة (باب الماء) الشرقي. وهو البرج الثاني أو الثالث حالياً في جنوب الباب وبإتجاه (كچي برجو)، كما انه يقع في بدايات القسم الجنوبي من السور[١٣].

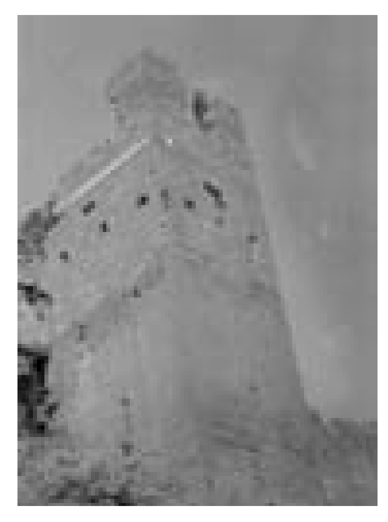
وفي سنة (٤٦٠هـ) شيد الملك الكُردي نظام الدين ذو السياسة العادلة هذا البرج المربع من أساسه وأوصله الى إرتفاع يزيد على إرتفاعه الحالي، لكي يصل الى مستوى السور إرتفاعاً ويعلو عليه، وذلك لأنه شيد تحت السور على أرضية شديدة الإنحدار بإتجاه دجلة، فهو لذلك خارج عن مستوى السور بمقدار وهو جدار ساند للسور صَمَد لا جوف له في معظم هيكله. وهناك في قسمه الأعلى برج

(١١) كتب (نصرالدولة) والصحيح (نصرالدولة).

(١٢) نقل التاريخ بشكل خاطيء لأن الكتابة لنظام الدين، الذي تولى الملك سنة (٤٥٣هـ) إثر وفاة والده نصرالدولة في التاسع والعشرين من شوال في السنة المذكورة.

(١٣) وصلت الى البرج وشاهدت في لفحة هجير من شهر آب منفرداً قادماً من الأبراج الشرقية، فوجدت نفسي بتلك القامة القصيرة كأني أقف بخشوع أمام هيكل الأمير (پاد) الضخم وقوة عزيمته وعلو همته، على ما عرّفه التاريخ لنا. وبينما كنت نشواناً بتصوير البرج وقراءة كتابته الصعبة العالية، خرجت علي مجموعة من أطفال دياربكر من شقوق السور كالزنابير الهائجة وطفقوا يرشقونني بالحجارة رشق السهام. فخفت أن يشجوا رأسي ويكسروا آلة تصويري، فكلما أصعد إليهم مطارداً يهربون، وكلما أنزل الى أسفل البرج يرجعون فيرشقون بحجارتهم ويرجمون - صانهم الله من عدو بقر في الماضي بطون جداتهم وقطع رؤوس جدودهم - وستصبح هذه الذكرى البهيجة مدمعة لمقلتي متى أدركتني شيخوخة أقعدتني عن التجوال بين آثار كوردستان الحضارية يوم لاينفع التمني والتشكي حسبما ذكره شاعر بلغ من الكبر عتياً وأمسى للشيب شكيّا! حينما قال:

ليت الشباب يعود يوماً　　فأخبره بما فعل المشيب



البرج المرواني

باسق عتيد لايكلّ طرف الناظر اليه، وهو يبدو في أسفله مثل عصفور بالنظر لضخامته ومهابته.

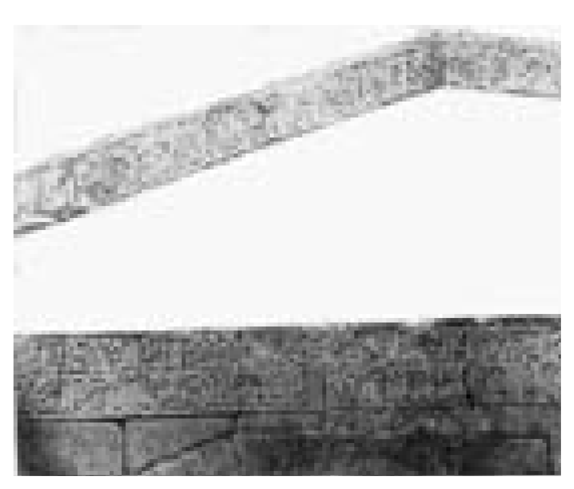
وتتجلى من البرج ما لايقل عن ثلاثة أدوار تعميرية. وعلى صدر البرج على الحجر الأبيض سطران من أجمل أنواع الكتابة الكوفية المزهرة، ولكني لم أتمكن سوى من قراءة السطر الأول فقط، وذلك نظراً لضيق الوقت ولعلمي بكونها موجودة في كتاب (بسري كونيار، ج٢، ص٣٥). ثم وجدت تلك الكتابات في كتاب بيسان أوغلو (ص٢٢٩) الذي ذكر بأن البرج يسمى (يقصد من قبل سكان دياربكر) بالبرج المرواني (مرواني برجو). وأشار الى هذه الكتابة أيضاً الدكتور حسن الباشا في الفنون الإسلامية، ج١، ص١٢٥. وجاء بها ڤان برشم في (آميدا، ص٣٥). وفيما يلي نص الكتابة:

١- بسم الله... ما أمر بعمله الأمير الأجل السيد نظام الدين مؤيد الدولة وفخر الأمة عز الملوك ابو القسم نصر.

٢- بن عز الإسلام اطال الله بقاه وأعز نصره على يدي القاضي أبي الحسن عبدالواحد بن محمد في سنة ستين وأربعمائة.

١١- كتابة على سور قلعة دياربكر (إيچ قلعة) بتاريخ (٤٦٤هـ = ١٠٧١م). تقع الكتابة على الطرف الخارجي للقسم الشرقي من سور القلعة المطل على عين ماء ينبع ماؤها من تحت الصخرة التي شيد عليها السور. وكانت القلعة عندما زرتها مقراً للحامية العسكرية في دياربكر.

وفي بداية الكتابة صورة نسر وحمامة سبق ذكرهما، والصورة على الحجر الواقع قبل بداية الكتابة مباشرة. والكتابة ماعدا التاريخ في سطر واحد طويل طوله حوالي عشرة أمتار وهي برسم نظام الدين. وأما التاريخ ففي سطر مستقل منفصل على صدر جدار (ساند) طالع نحو الأمام وبنفس الإستقامة.



كتابة البرج المرواني

ونص الكتابة حسبما قرأتها بالإستفادة من بيسان أوغلو هي كالآتي:

١- "مما(١٤) أمر بعمله الأمير السيد الأجل جمال الإسلام نظام الدين مؤيد الدولة عز الملوك ابو القسم نصر بن عز الإسلام اطال الله بقاءه وأعز نصره وذلك بنظر الوزير الأجل الأعز الكامل زعيم الدولة أبي طاهر سلامة بن إبراهيم ادام الله أيامه وجرى ذلك على يدي القاضي ابي الحسن عبدالواحد بن محمد بن عبدالواحد في سنة

٢- أربع وستين وأربعمائة والبناء موسى بن مزيد".

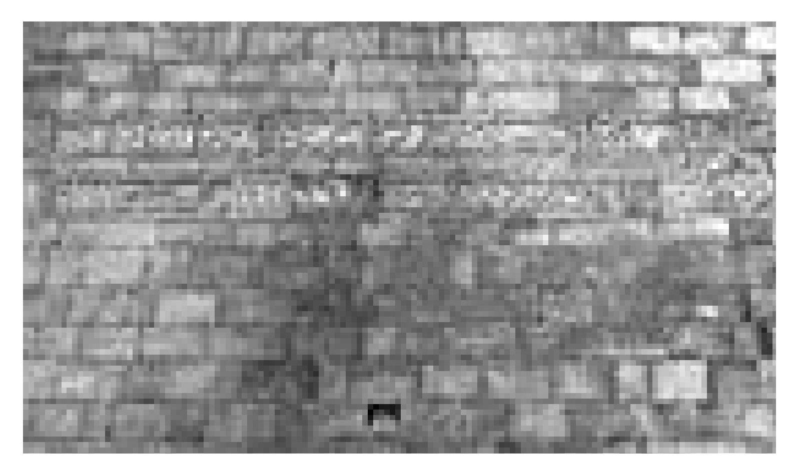
والجدير بالذكر انه توجد نجمة بعد كلمة (بقاه) ونجمة ثانية بعد كلمة (القاضي).

١٢- كتابة مؤرخة بسنة (٤٦٥هـ) على (تك قاپي)، وهو الباب الصغير الواقع بين باب خربوط وباب أورفا. على يمين الباب كتابة للملك الكامل الأيوبي بتاريخ سنة (٦٣٤هـ) والكتابة كوفية من النوع المسمى بالكوفي البسيط. وقد قرأتها على النحو الآتي:

"بسم الله الرحمن الرحيم. مما أمر بعمله جمال الإسلام نظام الدين عز الملوك أبو القسم نصر بن عز الإسلام اطال الله بقاه بنظر الوزير الأجل زعيم الدولة ابي طاهر سلامة بن ابراهيم أدام الله أيامه (وجرى ذلك؟) على يدي القاضي ابي الحسن عبدالواحد بن محمد سنة خمس وستين وأربعمائة والبناء موسى بن مزيد(١٥).

(١٤) في بيسان اوغلو (ص٢٣١) ورد (ما أمر) وهو خطأ، وأخذنا لفظ (زعيم) في (زعيم الدولة) من هذا المصدر مع إسم البنّاء واسم والده. وأشار هذا المؤلف الى أن النص موجود في كتاب سليمان سافجي. أما بسري كونيار فلم يذكرها، وقد أشار إليها حسن الباشا في (ص١٢٥) من كتابه.

(١٥) النص موجود في بيسان أوغلو (ص٢٣٢). أخذت منه العبارة الواقعة بين (بقاه) وبين (جرى ذلك؟) وليست فيه عبارة (وجرى ذلك) التي نقلتها مع شك في صحة قراءة النص، والنص غير موجود في كتاب بسري كونيار.



كتابة إيج قلعة



كتابة تك قاپي بإسم نظام الدين

١٣- كتابة على برج كبير كان يقع بالقرب من موقع باب الجبل جنوباً، وأظن أنه كان ذا أربعة طوابق وسداسي الأركان وقد صورناه. والكتابة على الحجر الأسود في الركن الشرقي من البرج. ويسمى البرج بـ(تەک برجۆ) أي البرج المنفرد، لأنه بقي وحيداً بعد أن أزالت الحكومة التركية باب الجبل مع بعض الأبراج. والكتابة هي للأمير ناصرالدولة آخر أمراء الدولة الدوستكية ومؤرخة بسنة (٤٧٦هـ = ١٠٨٣م). ونص الكتابة كما جاء في كتاب ڤان برشم (آميدا) (ص٣٦) هي:

"بسم الله الرحمن الرحيم. مما أمر بعمله والانفاق عليه من ماله الأمير السيد الأجل المنصور سيف الإسلام علم الدين ناصرالدولة تاج الملوك شرف الأمراء ابي المظفر منصور ابن نظام الدين اعز الله نصره وجرى ذلك على يدي القاضي ابي نصر محمد بن عبدالواحد في شهور سنة ست وسبعين وأربعمائة والبنّاء ابو سعيد بن حمص".(١٦)

١٤- على نفس البرج كتابة أخرى بقيت منها هذه الكلمات على ما جاء في بيسان أوغلو (ص٢٣): "... سيف الإسلام علم الدين ناصرالدولة ابو المظفر منصور... " وعلى هذا البرج صورة أسد من عهد الأمير منصور كما مر ذكرها.

(١٦) الكتابة الموجودة في كتاب بسري كونيار (ج٢،ص٣٦) وكتاب بيسان أوغلو (ص٢٣٢) اسم والد البناء في الأول (حمص) بدون ياء وفي الثاني (حميص) بالياء، علماً أنه أصبح في الأخير بالصاد المهملة ضاداً معجمة لخطأ مطبعي. كما ان إسم البناء كتب فيهما (سعد) وبالنسبة للأول لاشك انه خطأ مطبعي، لأنه كتبه (سعيد) في الإملاء اللاتيني التركي.



برج بقرب باب خربوط



كتابة برج بقرب باب خربوط

((إضافات))

⋆ لفظة پاد

في الجزء الأول من كتابنا هذا (ص٣١-٣٥) كتبت بخصوص إسم مؤسس الدولة الدوستكية، مشيراً الى جملة من المصادر كان من بينها (النجوم الزاهرة، ج٤، ص١٤٥) و(ج٥، ص١٠٥ لإبن تغرى بردى، النسخة الخطية المصورة في الكتب المصرية)، حيث ضبط المؤلف إسم (پاد) بالباء المفخمة (غير العربية) أي (پ) بثلاث نقاط، فعند المؤلف ان الإسم هو (پاد). وكذلك ضبطه الشيخ عبدالوهاب النجار في تعليق له في هامش (ص١٢١، ج٧، من الكامل في التاريخ لإبن الأثير، طبعة مصر، ١٣٥٣هـ) حيث كتب أن اللفظ (بباء موحدة مفخمة وذال معجمة)، بحيث يصير الإسم (پاذ). ومعروف أن حرف (پ) غير العربي يكتب في الرسم العربي على شكل (ب) بنقطة واحدة. ولهذا نجد اللفظ كتب بشكل (باد) في المصادر العربية.

لم يستقر رأيي آنذاك على صيغة (پاد) حسبما ضبطه كل من إبن تغرى بردى والشيخ عبدالوهاب النجار، بل كتبت في (ص٣٣) ما يلي: "تظل رواية «پاد» مفتوحة للبحث والتعقيب". علماً أن عدداً من المؤرخين ذكروا ان (باد) لقب لهذا الأمير، أما إسمه فـ(حسين - حسين بن دوستك) وكنيته (ابو عبدالله أو ابو شجاع)، ومن هؤلاء المؤرخين الروذراوي محمد بن حسين المتوفي سنة (٤٨٨هـ) الذي عاصر الدولة الدوستكية وأصبح مدة وزيراً في الدولة العباسية، وذلك في كتابه (ذيل تجارب الأمم، ص٨٤)، والفارقي في (ص٥١) حيث قال: "وإنما لقبوه باد" لكنه كتب ان إسمه (الحسين بن دوستك) مرة، وكتب مرة أخرى أن (الحسين) كان أخاه، وإبن تغرى بردى أيضاً.

ومنذ أن نشر الجزء الأول سنة ١٩٧٢ فكرت مراراً في هذه المسألة وحاولت معرفة معنى لفظ (باد)، فوجدت في دائرة المعارف الإسلامية مادة (پادشاه) أن كلمة (پاد) تتصل بالكلمة السنسكريتية (پاتس) ومعناها سيد أو زوج ومؤنثها (پاتي)، والكلمة اليونانية (π∂TVIa) والكلمة اللاتينية (POTNS). وكان لقب (پادشاه) مقصوراً على الملك ومعناه السيد الملك. ومن الجدير بالذكر أن إسم (پاتي) للزوجة لايزال متداولاً في بوتان، حيث يقول الزوج لزوجته أحياناً "پتێ"، ولكن بعض النسوة كن يغضبن من مناداتهن بـ(پتێ) من قبل أزواجهن. واللفظة المذكورة في سبيلها الى الإنقراض، إن لم يجر الإعتناء بها في نطاق إحياء اللغة الكُردية، وخاصة الألفاظ النادرة.

في القاموس الفارسي (برهان قانع) لمحمد كريم التبريزي: ان (پاد) تأتي بمعنى حارس ومحافظ وحاكم وكبير وصاحب جلاله وعقل ومعرفة (أورنك) وتخت (سرير العرش). وفي القاموس الفارسي (فرهنگ عميد): أن (پاد) و(پات) بمعنى الحارس والمحافظ والكبير وصاحب الجلالة والتخت السلطاني. وفي (قاموس تركي) لشمس الدين سامي مادة (پاد) أن پادشاه بمعنى الحاكم الكبير.

يتضح مما سبق، أن كلمة (پاد - پات) كلمة آرية قديمة تقرب من معنى الملك، أو انها بنفس المعنى، ولهذا فإن إثنين من الأمراء الأرمن تلقبا بلقب (پات) وهما (سمباط) من الأسرة البگرادونية، والأمير (وَرَزتيروتس). حيث تلقب الإثنان بلقب (پاتكانيان) كما قال (كريستنس في هامش ص٣٩٤ من، إيران في عهد الساسانيين). وإن كان المقصود بسمبات (سمبات الأول) ابن آشوت، الذي عاش بين القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، فمن المحتمل أن الأمير الكُردي (پاد) أدرك أواخر عهده. وان كان المقصود هو سمباط الثاني (٩٧٧-٩٨٨) فإن الأمير پاد عاصره تماماً. ولعل هذا الأمير الكُردي أخذ فكرة التلقب بـ(پاد- پات) من هذين الأميرين أو من سمباط بالذات، لأن عهد (ورزتيروس) غير معروف بالنسبة لي.

وبناءً على ما تقدم، فقد إستقر رأيي على ان اللفظ هنا هو (پاد) بالباء المفخمة وحده، بدلاً من (پادشاه). وعندما أرادوا تعظيم الملك أكثر تم دمج اللفظتين پاد وشاه في لقب واحد، فجاء (پادشاه) الى الوجود.

في ٢٠٠٠/٥/٢٧ زرت الدكتور فريدون جنيدي، وقد قدم الى السليمانية، وهو زردشتي وعالم في الآوستا والديانة الزردشتية والپهلوية. وأفادني مشكوراً بأن لفظة (پاد) في آوستا (پائيتي) وفي الپهلوية الساسانية (پات) وفي الفارسية (پاد) وفي العربية (باد). وقال أن اللفظ بمعني (نگهبان) أي الحامي والمحافظ. وجاء في آوستا (پات خُشَثْرَ) بمعنى حارس ومحافظ البلاد أو محافظ المدينة، لأن (خُشَثْرَ) تأتي بمعنى البلد وبمعنى المدينة أيضاً.

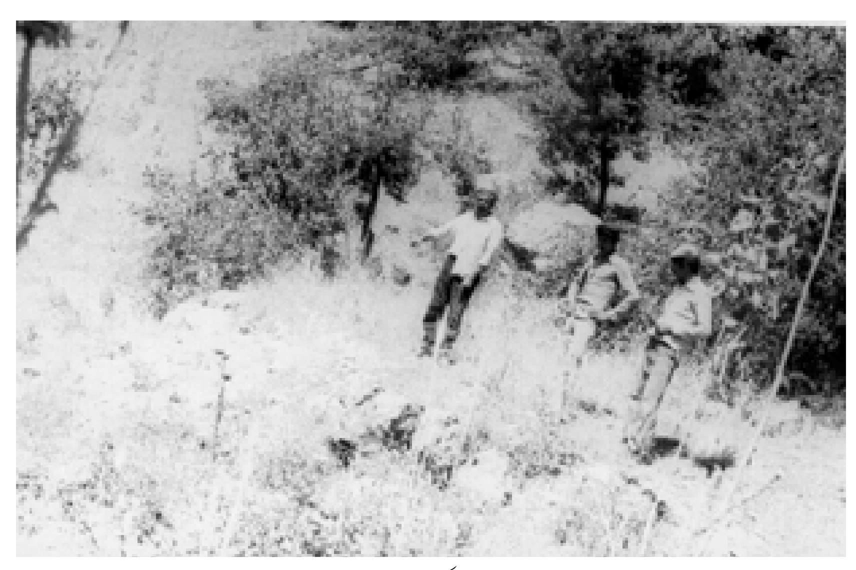
⋆ قرية كورماس (كرماص)

في الرابع عشر من آب ١٩٧٧، توجهت من مدينة سعرد الى قرية بني مروان قرية كورماس (كرماص) التي تقع في منطقة شيروان (شيروا) وهي منطقة شديدة التموج عموماً قليلة الواردات. كان رفيقي في الرحلة أخي (محمد الواثق). تقع كورماس على سفح جبل (كوران) وتحدها من الشرق القرى التالية: قرية (بابێ) وعندها في جبل (كوران) (قلعة باي) الوارد إسمها في (شرفنامه) والمصادر الأخرى، تتكون قرية (باي) من حوالي أربعين أسرة. وتحدها من الغرب قرية (كەلمخ) ومن الشمال قرية (ئەنوين) ومن الجنوب قرية (كێڤەر). تتكون (كورماس) من ثلاثة وثلاثين أسرة، وتنقسم القرية الى ثلاث أقسام منفصلة. منها بيوت بگوات كورماس على موقع مرتفع من جهة الشمال الشرقي.

للقرية بساتين كثيرة. ولما وصلنا إليها إجتمع حولنا مجموعة من رجال القرية، فألقيت عليهم مجموعة من الأسئلة، فلم يعلموا شيئاً عن مروان وأبنائه الحكام و(پاد) ودوستك وجبال (باحسمى). فقال أحدهم في بستاني رحى (طاحونة قديمة). فقلت ما إسمها؟ فقال (ئاشێ مەروان) أي (رحى مروان). فأخذني سرور عظيم مشوب بالدهشة. فقد كان غرضي العثور على الرحى الذي كان لمروان بن (كك) بن مروان والد الجيل الأول من أمراء الدولة الدوستكية، حيث قال الفارقي في (ص٦٠) انه



قرية كـورماس



ئاشـي مَروانان

"كان لمروان طاحونة يشغلها وكانوا رؤساء كرماص ومقدموها". فسرنا بسرعة الى بستانه القريب الواقع على الطريق الجنوبي للقرية. فشاهدت آثار بناية مشيدة بالحجر والجص ملصقة بالأرض، أي لم تبق منها معالم بارزة. فإستغربت جداً، كيف أن سكان القرية إحتفظوا جيلاً بعد جيل منذ أكثر من ألف سنة بإسم هذه الطاحونة (ئاشێ مەروان)، التي خلدت إسم مروان. فصورتها وتبركت بها، لأنها أقدم آثار أسرة (بني مروان)، ولكن لم الإستغراب؟ ففي كُردستان اليوم الكثير من الأماكن التي بقيت بأسمائها منذ أربعة آلاف سنة وأكثر. ولكن إسم جبال (باحسمێ) العالية في شرق وشمال شرق كورماس، والبعيدة عنها بمسافة منها، الفاصلة بين منطقة شيروان ومنطقة هيزان (خيزان)، والتي قال الفارق ان الأمير باد بن الحسين بن دوستك "خرج من جبال باحسمي وهي ولاية حيزان والمعدن"- فقد تغير إسم تلك الجبال الى اسم (گەرزەڤيل GERZEVIL)، بينما ظلت بليدة (معدن) وهي الآن قرية، وقد ورد إسمها في الفتوحات الإسلامية، ظلت محتفظة بإسمها حتى اليوم. وهي تقع في جبل (گەرزەڤيل) في شمال بلدة كوفرا (كفرا - شيروان) الواقعة شمال كورماس، وهي مركز قضاء شيروان من أقضية ولاية سعرد. لقد إندثر إسم (حاربُخت) إسم قبيلة باد، وحل محلها إسم (شێروا- شيروان) وإن الشطر الأخير من إسم القبيلة هو نفس إسم (بُخت- بختان- بهتان- بۆتان)، ومازال سكان منطقة (شيروا) يقولون بالأصل الواحد،أي أن الجميع بختيون. إذن فإن منطقة بوتان منطقة تمتد من خابور زاخو الى قرب وادي بدليس. وفي شرفنامه موضوع بخصوص إمارة شيروان، التي كان مركزها (كفرا) التي تشعبت الى شعبة (كرنى) و(إيرون). والجدير بالذكر أن في جنوب حصن كيفا قرية بإسم (گوندێ مەروانێ)، أي القرية المنسوبة الى مروان، وهي تبعد عن دجلة غرباً بحوالي سبعة كيلومترات، ويحتمل أنها تحمل إسم بني مروان إن كانت من أملاكهم أثناء فترة حكمهم.

⋆ عشيرة دوستكي

هي من عشائر بهدينان الكبيرة تقيم في شمال دهوك وحتى المشارف الجنوبية لوادي (سپنه)، الذي تحده من الشمال سلسلة جبل متينا. وكان رئيسها سعيد بگ ثم إبنه ديوالي يقيمان في دهوك. وعندما صدر الجزء الأول من كتابنا هذا، سمعت بأن بعضاً من أبناء هذه العشيرة إنتقدوني لعدم الإشارة الى أن هذه العشيرة هي قبيلة باد وبني مروان وإنها تحمل إسمهم. ثم سألت أكثر من مرة عن عدد أبناء هذه القبيلة، فأكدوا لي بأن القبيلة قدمت من منطقة دياربكر في زمن غير معلوم الى منطقة دهوك كما هو معلوم بين أبنائها، ولاسيما المسنين منهم. ومن المعلوم أن إسمها الغالب الآن هو (دوسكي) بدون تاء، ولكن تسمى أيضاً (دوستكي) بالتاء، حتى إن الشهيد الملا أنور المائي ذكرهم بإسم (دوستكي) بالتاء في كتابه (الأكراد في بهدينان). فلايستبعد لذلك أن تكون لهذه القبيلة صلة بالدولة الدوستكية أي بأمرائها، كأن تكون تركت جماعة من أبناء وأحفاد الأسرة المروانية منطقة فارقين مع أناس مقربين منهم وتابعين لهم (وخاصة المنتمين الى قبيلتهم الأصلية ممن لهم دور أكثر في مقاومة السلاجقة) في مدينة فارقين وأطرافها، وهاجر هؤلاء الى بهدينان إثر زوال دولتهم مبتعدين عن إضطهاد السلاجقة الغزاة المحتلين.

المصادر

المخطوطات باللغة العربية:

١- إبن شداد الحلبي عزالدين أبو عبدالله محمد بن علي بن إبراهيم. توفي سنة (٦٨٤هـ = ١٢٨٥-١٢٨٦م): الأعلاق الخطيرة في ذكر الشام والجزيرة: القسم الخاص بالجزيرة، مخطوط بمكتبة بودليان الرقم (٣٣٣) المعروفة سابقاً بمخطوطة (مارش) بخط الأمير الكُردي سليمان بن غازي بن محمد الأيوبي أمير حصن كيفا وذلك سنة (٧٨٩هـ) ويقع في (١٤٢) ورقة.

٢- إيليا برشنايا النسطوري، توفي سنة (١٠٧٤م)، مجالس إيليا، مخطوط في مكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد الرقم (١٠٦٨) في (٦٧) ورقة مسطرتها (١٧) سطراً من الحجم المتوسط.

٣- الحلبي ابن الملا أحمد بن محمد بن علي، ملخص تاريخ الإسلام الكبير للذهبي، مخطوط في مكتبة مديرية الأوقاف العامة ببغداد تحت رقم (٥٨٩٠).

٤- الخزرجي، ابو العباس إسماعيل بن العباس الغساني (ت ٨٠٣هـ)، العسجد المسبوك في سيرة الخلفاء والملوك، مخطوط في مكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد. كان الكتاب يسجل بإسم الخزرجي، جمال الدين علي بن حسن، ولكن أثبت السيد شاكر محمود أنه لأبي العباس هذا وذلك في دراسة عن الخزرجي نال عليها درجة الماجستير من جامعة بغداد.

٥- سپاهي زاده محمد بن علي (ت ٩٩٧هـ)، أوضح المسالك الى معرفة البلدان والممالك، مخطوط في مكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد الرقم (٤٢٩)، وقع المؤلف في أخطاء كثيرة.

٦- السمعاني عبدالكريم بن محمد (ت٥٦٢هـ)، الأنساب، نسخة مخطوطة في مكتبة مديرية الآثار العامة ببغداد والكتاب مطبوع أيضاً.

٧- الصوفي شمس الدين محمد بن ابي الفتح، الأعلام بشد المنكام، مخطوط في مكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد الرقم (٤٠٦).

٨- عبدالرقيب يوسف، أعلام الكُرد وكُردسان، مخطوط.

٩- عبدالرقيب يوسف، منهج البحث لكتابة تاريخ المدن، مخطوط فرغت من تأليفه سنة ١٩٧٤.

١٠- عزيز بطرس (توفي بعد سنة ١٩٦١)، الرعاة الكلدان، تاريخ كنسي، مخطوط بمكتبة الدراسات العليا بجامعة بغداد (١٨) كراسة صغيرة الرقم (٢٦١-٢٧٩).

١١- قصة إبنة ملك فارقين، مؤلفها مجهول، مخطوطة ضمن مجموعة مخطوطة موجودة بدار الكتب

والوثائق القوميـة بالقاهرة: الخزانة التيمورية الرقم (١٥)، نسخة مصورة منها في مكتبتي هدية من الأستاذ الدكتور محمود الشنيطي مدير دار الكتب، المخطوطة تقع في ست ورقات تتكون كل صفحة من (١٢) سطراً.

١٢- الجزري بديع الزمان إسماعيل بن الرزاز القرن (٦هـ = ١٢م)، الجامع بين العلم والعمل النافع في الحيل، نسخة مصورة حصلت عليها من معهد المخطوطات بالقاهرة تقع في (٤٩٦) صفحة.

١٣- المارديني، عبدالسلام مفتي ماردين في القرن التاسع عشر، تاريخ ماردين، نسخة مصورة منه في مكتبتي كُتبت النسخة في حياة المؤلف سنة ١٢٥٨ هـ، وهي تقع في ٣٩٤٠) صفحة.

١٤- مشيحا زخا، تاريخ قديم لكنيسة أربيل، ألف في القرن السادس الميلادي بالسريانية وترجمها الى العربية مطران زاخو عزيز بطرس: نسخة بخط إبن المترجم بطرس عزيز مهداة الى گورگيس عواد وعندي نسخة مصورة عليها.

المطبوعات باللغة العربية:

١٥- آ. بتزي، مدخل الى تاريخ الرومان وأدبهم وآثارهم، ترجمة الدكتور يوئيل يوسف عزيز، بغداد سنة ١٩٧٧.

١٦- آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبدالهادي، الطبعة الثانية ١٩٦٧.

١٧- آرثر كريستنسن، إيران في عهد الساسانيين، ترجمه من الفرنسية يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٥٧.

١٨- آغا بزرگ الطهراني، الذريعة الى تصانيف الشيعة، الطبعة الأولى.

١٩- الآلوسي، أبو الثناء محمود، نشوة المدام في العودة الى دار السلام، الطبعة الأولى.

٢٠- إبراهيم جمعة، دراسة في تطور الكتابات الكوفية على الأحجار في مصر في القرون الخمسة الأولى للهجرة، نال عنها درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة سنة ١٩٤٣، طبع سنة ١٩٦٩.

٢١- إبن أبي أصيبعة أحمد بن القاسم (ت ٦٦٨هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت ١٩٦٥.

٢٢- إبن أيبك، ابو بكر بن عبدالله (القرن ٨هـ)، كنز الدرر وجامع الغرر.

٢٣- ابن الأثير، أبو الحسن عزالدين على بن عبدالكريم الجزري (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، طبعات مختلفة.

٢٤- ابن الأثير، اللباب في الأنساب، الطبعة الأولى.

٢٥- ابن الأثير، تاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، الطبعة الأولى.

٢٦- ابن بطريق، أفتيشيوس سعيد بن بطريق الأنطاكي (القرن الخامس الهجري) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، بيروت ١٩٠٩.

٢٧- إبن بطلان، المختار بن حسن بن عبدون يوانيس الطبيب (توفي بعد سنة ٤٥٠هـ)، دعوة الأطباء، طبع بمصر سنة ١٩٠١.

٢٨- ابن بطوطة، ابو عبدالله محمد بن إبراهيم (ت ٧٧٩هـ) رحلة ابن بطوطة. طبع بيروت ١٩٦٠.

٢٩- ابن جبير، ابو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي ٠ت ٦١٤هـ)، رحلة ابن جبير، بيروت ١٩٦٨.

٣٠- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن (ت ٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، حيدرآباد ١٣٥٨هـ.

٣١- ابن حجر، العسقلاني أحمد بن علي (ت ٨٥٢ هـ)، رفع الإصر عن قضاة مصر، طبع ١٩٥٧.
٣٢- ابن حوقل، ابو القاسم محمد بن علي النصيبي فرغ من كتابه سنة (٣٧٢ هـ = ٩٨٢م أو بعدها)، صورة الأرض. طبع ليدن ١٩٣٨، وطبع بيروت مكتبة الحياة.
٣٣- ابن خرداذبه، ابو القاسم عبيدالله بن عبدالله (القرن ٣ هـ)، المسالك والممالك، طبع ليدن ١٩٨٩م.
٣٤- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨هـ)، العبر وديوان المبتدأ والخبر، طبعة بيروت ١٩٥٦.
٣٥- ابن خلدون، المقدمة، طبعة القاهرة.
٣٦- ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد الأربيلي (ت ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، طبعة مصر ١٩٤٨.
٣٧- ابن خميس، الدياربكري حسين بن محمد (ت ٩٦٦هـ)، تاريخ الخميس، الطبعة الأولى.
٣٨- ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن ايدمر، الإنتصار بواسطة عقد الأمصار، الطبعة الأولى.
٣٩- ابن سعيد المغربي، علي بن موسى (٦١٠-٦٨٥هـ)، كتاب الجغرافيا، بيروت ١٩٧٠.
٤٠- ابن شاكر الكتبي، محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ)، عيون التواريخ، ج١٢، تحقيق الدكتور فيصل السامر ونبيل عبدالمنعم داود، بغداد ١٩٧٧.
٤١- ابن شحنة، محمد بن محمد (٨٩٠ هـ = ١٤٨٥م)، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، الطبعة الأولى.
٤٢- ابن شداد، يوسف بن رافع الموصلي (ت ٦٣٢هـ = ١٢٣٤م)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. إختصار محمد درويش، طبع دمشق ١٩٧٩.
٤٣- ابن شهراشوب، رشيدالدين ابو جعفر محمد بن علي (ت ٥٨٨هـ = ١١٩٢م)، معالم العلماء، طبع النجف ١٩٦١.
٤٤- ابن الصابوني، جمال الدين محمد بن علي (ت٦٨٠هـ)، تكملة إكمال الكمال
٤٥- ابن الصيقل الجزري، معد بن رجب بن نصرالله (ت ٧٠١هـ)، المقامات الزينية: خمسون مقامة نال عليها درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة سنة ١٩٧٤ الدكتور عباس مصطفى الصالحي من بعقوبة.
٤٦- ابن الطقطقي، محمد بن علي بن طباطبا (ت ٧٠٩هـ)، الفخري في الآداب السلطانية، طبع مصر ١٩٢٧.
٤٧- ابن العبري، ابو الفرج گريگوريوس الملطي (ت ٦٨٥هـ)، تاريخ مختصر الدول. بيروت ١٩٥٨.

٤٨- ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد (ت ٦٦٠هـ)، زبدة الحلب في تاريخ حلب، دمشق ١٩٥١.
٤٩- ابن العماد الحنبلي، ابو الفرج عبدالحي بن العماد (ت ١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة ١٩٥٠.
- ابن قتيبة الدينوري، عبدالله بن مسلم (القرن ٣ هـ = ٩م)، المعارف، طبع مصر ١٩٣٤.
٥٠- ابن القلانسي، حمزة بن أسد (ت ٥٥٥ هـ)، ذيل تاريخ دمشق، بيروت ١٩٠٨.
٥١- ابن كثير الحافظ، ابو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية في التاريخ، ١٤ جزءً.
٥٢- ابن المستوفي، المبارك بن أحمد الأربيلي، تاريخ إربل، تحقيق ونشر سامي بن السيد خماس الصقار، سنة ١٩٨٠.
٥٣- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ)، لسان العرب، الطبعة الأولى.
٥٤- ابن نباته الفارقي، عبدالرحيم، خطب إبن نباته.
٥٥- ابن نباته المصري، ديوان شعره.
٥٦- ابن واصل، محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب.
٥٧- ابن الوردي، زين الدين عمر (ت ٧٤٩هـ)، تاريخ ابن الوردي.
٥٨- ابو حنيفة الدينوري، أحمد بن وَنَنْد، القطعة المطبوعة من الجزء الخامس من كتاب النبات، طبعة ليدن والجزء الثالث، طبع في لبنان بتحقيق المشرفين برنهارد لفين. توفي الدينوري على الراجح سنة (٢٨٢هـ).
٥٩- ابو سالم، محمد بن طلحة النصيبي (ت ٦٥٢هـ)، العقد الفريد للملك السعيد. طبع ١٣١٠هـ.
٦٠- ابو شامة المقدسي، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥ هـ)، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، القاهرة ١٢٨٧ هـ.
٦١- ابو عبدالله بن الازرق، بدائع السلك في طبائع الملك. تحقيق الدكتور علي سامي النشار، بغداد ١٩٧٧.
٦٢- ابو العلاء المعري، أحمد بن عبدالله بن سليمان (ت ٤٤٩ هـ)، رسائل ابي العلاء، منشورات دار القاموس الحديث، بيروت.
٦٣- ابو العلاء المعري، رسالة الغفران. تحقيق الدكتورة بنت الشاطيء، الطبعة الثانية مصر.
٦٤- ابو العلاء المعري، لزوم ما لايلزم، بيروت ١٩٦١.

٦٥- ابو الفداء، عمادالدين إسماعيل بن علي الأيوبي (ت٧٣٢هـ)، المختصر في أخبار البشر، طبع بيروت.
٦٦- ابو الفداء، تقويم البلدان، طبع پاريس ١٨٤٠م.
٦٧- ابو القاسم الزياتي (ت ١٨٠٩م)، الترجمات الكبرى في أخبار المعمورة براً وبحرا، طبع ١٩٦٩.
٦٨- ابو يعلي، محمد بن حسين الفرّاء (ت ٤٥٨هـ)، الأحكام السلطانية، تحقيق محمد حامد، القاهرة ١٩٣٨.
٦٩- أحمد تيمور بن اسماعيل بن أحمد تيمور (ت ١٩٣٠م)، التصوير عند العرب، الطبعة الأولى.
٧٠- أحمد تيمور، حياة المعري.
٧١- الدكتور أحمد السعيد، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، طبعة دار المعارف بمصر، ١٩٧٢.
٧٢- أحمد عطية، القاموس الإسلامي، القاهرة ١٩٦٦.
٧٣- أحمد فكري، مسجد القيروان، طبع ١٩٣٦.
٧٤- أحمد ممدوح حمدي، معدات التجميل في متحف الفن الإسلامي بالقاهرة، طبع ١٩٥٥.
٧٥- الإدريسي، محمد بن عبدالله (ت٥٦٠ هـ = ٨٨٩م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، لم يشر الى مكان الطبع.
٧٦- إدوار غالب، الموسوعة في علوم الطبيعة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.
٧٧- أديب معوض، الأكراد بين الأمس واليوم، الطبعة الأولى.
٧٨- أدي شير ابرهينا، المطران الشقلاوي (قتل ١٩١٥م)، تاريخ كلدو وآشور، الطبعة الأولى.
٧٩- آرشيبالد، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ترجمة أحمد عيسى ومحمد شفيق غربال، الطبعة الأولى.
٨٠- أ. س. ترتون، أهل الذمة في الإسلام، ترجمة حسن شلبي، طبع القاهرة.
٨١- اسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ)، كتاب العصا، مطبوع ضمن مجموعة من الكتب الصغيرة في كتاب سمي بـ(نوادر المخطوطات)، القاهرة ١٩٥١.
٨٢- اسامة بن منقذ، كتاب الإعتبار، الطبعة الأولى.
٨٣- إستاجيان، تاريخ الأمة الأرمنية.
٨٤- إسماعيل پاشا بابان بن محمد أمين بن مير سليم الكُردي، هدية العارفين، الطبعة الأولى.

٨٥- إسماعيل پاشا بابان، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، طبع طهران سنة ١٩٦٧.
٨٦- الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل، مؤسس المذهب السني الأشعري (ت ٣٣٠هـ)، مقالات الإسلاميين، طبع القاهرة ١٩٥٠.
٨٧- الاصبهاني، عمادالدين محمد بن محمد (ت ٥٩٤هـ)، خريدة القصر وجريدة أهل العصر، طبع دمشق.
٨٨- الاصبهاني (عمادالدين)، تاريخ دولة آل سلجوق: إختصار الفتح بن علي بن محمد البنداري، طبعة دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٧٨.
٨٩- الأصطخري، ابو إسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي (ت ٣٤١ هـ)، أقاليم البلدان، الطبعة الأولى.
٩٠- الأصطخري، مسالك الممالك، صبعة ليدن، ١٩٢٧.
٩١- أفرام برصوم، سويريوس بطريرك أنطاكية وسائر المشرق (١٨٨٧-١٩٥٧م)، تاريخ طورعبدين، ألفه بالسريانية وترجمه الى العربية تلميذه گريفوريوس يوسف بهنام مطران بغداد والبصرة سنة ١٩٦٣.
٩٢- أفرام برصوم، اللؤلؤ المنثور في تاريخ العلوم والآداب السريانية، طبع حمص ١٩٤٣.
٩٣- أفرام برصوم، نوابغ السريان في اللغة العربية الفصحى، الطبعة الأولى.
٩٤- أفرام برصوم، المورد العذب في موجز تاريخ الكنيسة، طبع حمص ١٩٥٣.
٩٥- أنستاس ماري الكرملي، المساعد، تحقيق گورگيس عواد وعبدالحميد العلوچي، بغداد ١٩٧٦.
٩٦- ألبير أبونا، تاريخ الكنيسة الشرقية، موصل ١٩٧٣.
٩٧- ألبير أبونا، آداب اللغة الآرامية، بيروت ١٩٧٠.
٩٨- أندريه بارو، بلاد آشور، ترجمة الدكتور عيسى سلمان وسليم طه التكريتي، طبعة بغداد ١٩٨٠.
٩٩- أنور المائي، الأكراد في بهدينان، الطبعة الثانية، دهوك ١٩٩٩.
١٠٠- إيشو مالك خليل، الآشوريون في التاريخ، ألفه بالإنگليزية وترجمه سليم واكيم، بيروت ١٩٦٢.
١٠١- إيليا برشنايا النسطوري (ت ٤٣٨هـ = ١٠٤٧م)، تاريخ إيليا برشنايا، ترجمة الدكتور يوسف حبي عن السريانية، نشره مجمع اللغة السريانية ببغداد سنة ١٩٧٥.
١٠٢- باخرزي، ابو الحسن علي بن حسن (ت ٤٦٧هـ)، دمية القصر وعصرة أهل العصر، طبع بغداد ١٩٧١.

١٠٣- پاكستاني، المقدم عبدالواحد، الأكراد وبلادهم بتقديم الرئيس الپاكستاني الأسبق أيوب خان، ألفه بالإنگليزية وترجمه الى العربية عبدالسميع سراج الدين، طبع ١٩٧٠.

١٠٤- البستاني، عبدالله، البستان في اللغة.

١٠٥- البستاني، بطرس، دائرة معارف البستاني، الطبعة الأولى.

١٠٦- البستاني، محيط المحيط.

١٠٧- بطرس نصري، ذخيرة الأذهان في تواريخ المشارق والمغارب السريان، طبع ١٩٠٥.

١٠٨- البلاذري، فتوح البلدان.

١٠٩- بنيامين بن الربى يونه الأندلسي، قام برحلته من (٥٦١-٥٦٩هـ)، رحلة بنيامين، ترجمها من العبرية عزرا حداد، بغداد ١٩٤٥.

١١٠- پول آميل، تاريخ أرمينيا، تعريب شكري علاوي، طبع بيروت.

١١١- تاريخ الرهاوي المجهول، عرّبه ألبير أبونا، مطبوع بالآلة الكاتبة بمجمع اللغة السريانية ببغداد.

١١٢- تاريخ السعردي لمؤلف مجهول وجده المطران أدي شير مخطوطاً بين مخطوطات مدينة سعرد ونشره في پاريس عام ١٩٠٧. ألف بعد سنة ٢١٧ هـ.

١١٣- تامارا رايس، السلاجقة، ترجمة لطفي الخوري وإبراهيم الداقوقي، طبع بغداد ١٩٦٨.

١١٤- توفيق اليوزبكي، الوزارة ونشأتها وتطورها في الدولة العباسية. طبع ١٩٧٠.

١١٥- التيفاشي، أحمد بن يوسف (ت ٦٥١ هـ = ١٢٥٢م)، أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، طبعة الهيئة المصرية العامة ١٩٧٧.

١١٦- الجاحظ، عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ)، التبصر بالتجارة، الطبعة الأولى.

١١٧- جاك. س. ريسلر، الحضارة والعربية، ترجمة غنيم عبدون، طبع مصر.

١١٨- جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، القاهرة ١٩١٤-١٩٣١.

١١٩- جهشياري، ابو عبدالله محمد بن عبدوس (ت ٣٣١هـ)، كتاب الوزراء والكتّاب، الطبعة الأولى بالقاهرة.

١٢٠- جورج كونتينو، الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، ترجمة سليم طه التكريتي وبرهان التكريتي ١٩٧٩.

١٢١- الجوهري، الصحاح.

١٢٢- حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، الطبعة الثالثة، المطبعة الإسلامية بطهران ١٩٦٧.

١٢٣- حبيب زيات، الخزانة الشرقية، الجزء الثاني، بيروت ١٩٧٣.
١٢٤- حسن إبراهيم وعلى إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، طبع ١٩٣٩.
١٢٥- حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي، طبع ١٩٣٥.
١٢٦- حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم شريف، العالم الإسلامي في العصرالعباسي، فرغا منه سنة ١٩٦٦، طبع دار الفكر العربي.
١٢٧- حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ثلاثة أجزاء، الطبعة الأولى.
١٢٨- حمدان عبدالمجيد الكبيسي، أسواق بغداد حتى بداية العهد البويهي، بغداد ١٩٧٩.
١٢٩- حميد المطبعي، د. بهنام أبو الصوف، بغداد ١٩٩٥.
١٣٠- خاشع المعاضيدي، دولة بني عقيل في الموصل، رسالة ماجستير من جامعة القاهرة، طبع بغداد ١٩٦٨.
١٣١- الخزرجي، جمال الدين علي بن حسن (ت ٨١٢هـ)، العقود اللؤلؤية في الدولة الرسولية، الطبعة الأولى.
١٣٢- خمس رسائل لإبن بطلان وإبن رضوان، طبع القاهرة ١٩٣٧.
١٣٣- خوارزمي، محمد بن موسى، صور الأقاليم، طبع ڤيينا ١٩٢٦.
١٣٤- دائرة المعارف الإسلامية، طبع القاهرة وطبع طهران.
١٣٥- داود الأنطاكي، (بن عمر) (ت ١٠٠٨هـ)، تذكرة أولي الألباب الجامع للعجب العجاب، طبع مصر ١٩٥٢.
١٣٦- دروثي مكاي، مدن العراق القديمة، ترجمة يوسف يعقوب مسكوني، طبع ١٩٦١.
١٣٧- دوميبلي، العلوم عند العرب ترجمة عبدالحليم النجار والدكتور محمد يوسف، الطبعة الأولى ١٩٦٢.
١٣٨- دي لاسي أوليري، علوم اليونان وسبل إنتقالها الى العرب، طبع ١٩٦٢.
١٣٩- ديماند، الفنون الإسلامية، ترجمة أحمد محمد عيسى، طبع دار المعارف.
١٤٠- الذهبي، شمس الدين ابو عبدلله محمد بن أحمد الفارقي (ت ٧٤٨هـ)، العبر في أخبار من غَبَر، المجلد التاسع، طبع الكويت.
١٤١- الذهبي، دول الإسلام، طبع ١٣٣٧هـ.
١٤٢- الرحبي، عبدالعزيز بن محمد، فقه الملوك ومفتاح الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج. بغداد ١٩٧٣.

١٤٣- رفائيل بابو إسحق، أحوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية، الطبعة الأولى.
١٤٤- رفائيل بابو إسحق، تاريخ نصارى العراق، بغداد ١٩٤٨.
١٤٥- الروذراوي، أبو شجاع محمد بن الحسين (ت ٤٨٨هـ)، ذيل تجارب الأمم، طبع مصر ١٩١٦.
١٤٦- ريسلر: الحضارة العربية.
١٤٧- زامبارو، معجم الأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي، طبع مصر ١٩٥٢.
١٤٨- الزركلي، الأعلام، الطبعة الأولى.
١٤٩- زكي محمد حسن، الفن الإسلامي في مصر، طبع ١٩٠٣.
١٥٠- زكي محمد حسن، الفنون الإيرانية في العصر العباسي، طبع ١٩٤٠.
١٥١- زينفون، رحلة العشرة آلاف عبر كُردستان، ترجمة صلاح سعدالله، طبع ١٩٧٣.
١٥٢- زيني دحلان، الفتوحات الإسلامية.
١٥٣- الدكتور سامي سعيد الأحمد، اليزيدية، أحوالهم ومعتقداتهم، بغداد ١٩٧١.
١٥٤- سبط إبن الجوزي، يوسف بن قزأوغلي (ت ٦٥٤ هـ)، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، طبع ١٩٥٢.
١٥٥- السبكي، تاج الدين عبدالوهاب بن علي (ت ٧٧١هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، طبع ١٩٦٤.
١٥٦- ستيڤن رنسيمان، المدنية البيزنطية: الحروب الصليبية، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي، طبع ١٩٦٥.
١٥٧- سعيد الديوه چي، تاريخ الموصل، الجزء الأول، طبع سنة ١٩٨٢.
١٥٨- سعيد الديوه چي، أعلام صناعة المواصلة، طبع ١٩٧٠.
١٥٩- سعيد الديوه چي، الموصل في العهد الأتابكي، الطبعة الأولى.
١٦٠- سعيد الديوه چي، اليزيدية، طبعة ١٩٨٧٣.
١٦١- سهراب، إبن سرابيون، عجائب الأقاليم السبعة الى نهاية العمارة، ڤيينا ١٩٢٩.
١٦٢- الدكتور سوادي عبد محمد، الأحوال الإجتماعية والإقتصادية في بلاد الجزيرة العربية خلال القرن السادس الهجري- الثاني عشر الميلادي، بغداد ١٩٨٩.
١٦٣- سيتون لويد، آثار بلاد الرافدين، ترجمة الدكتور سامي سعيد الأحمد، بغداد ١٩٨٠.
١٦٤- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن، لب الألباب في تحرير الأنساب، إعادة طبع بالأوفسيت من قبلة مكتبة المثنى في بغداد.

١٦٥- السيوطي، بغية الوعاة في طبقات النحاة، الطبعة الأولى.
١٦٦- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبدالكريم (ت ٥٤٨هـ)، الملل والنحل.
١٦٧- صباح إبراهيم سعيد الشيخلي، الأصناف في العصر العباسي، نشأتها وتطورها. بغداد ١٩٧٥.
١٦٨- الدكتور صبحي انور رشيد، الآلات الموسيقية في العصور الإسلامية، طبع بغداد ١٩٧٦.
١٦٩- الدكتور صبحي انور رشيد، تاريخ الآلات الموسيقية في العراق القديم، بيروت ١٩٧٠.
١٧٠- صديق الدملوجي، اليزيدية، الطبعة الأولى ١٩٤٩.
١٧١- صفي الدين البغدادي، عبدالمؤمن (ت ٧٣٩هـ)، مراصد الإطلاع.
١٧٢- طاش كبرى زاده، أحمد بن مصطفى (ت٩٦٨هـ)، مفتاح السعادة، طبع ١٩٦١.
١٧٣- طه باقر وفؤاد سفر، المرشد الى مواطن الآثار رالحضارة، الطبعة الأولى، بغداد.
١٧٤- طه الهاشمي، مفصل جغرافية العراق، الطبعة الأولى.
١٧٥- العاملي، السيد محسن أمين، أعيان الشيعة، الطبعة الأولى.
١٧٦- عباس العزاوي، تاريخ الضرائب العراقية من صدر الإسلام الى آخر العهد العثماني، بغداد ١٩٥٩.
١٧٧- عباس القيمي، الكنى والألقاب، الطبعة الأولى.
١٧٨- عبدالرحمن بدوي، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، دراسات لكبار المستشرقين، ترجمها ونشرها سنة ١٩٤٠.
١٧٩- عبدالرزاق الحسني، اليزيديون في حاضرهم وماضيهم، الطبعة السادسة.
١٨٠- الدكتور عبدالعزيز الدوري، تاريخ العراق الإقتصادي في القرن الرابع الهجري.
١٨١- الدكتور عبدالعزيز الدوري، مقدمة في تاريخ الإقتصاد العربي، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧٨.
١٨٢- عطا الحديثي وهناء عبدالخالق، القباب المخروطية في العراق.
١٨٣- علي أمير، مختصر تاريخ العرب.
١٨٤- علي بن المنجب، الإشارة فيمن نال الوزارة.
١٨٥- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، طبع ١٩٦١.
١٨٦- عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، طبع دار العلم للملايين.
١٨٧- عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي الى أيام إبن خلدون، طبع ١٩٦٢.

١٨٨- العمري، القاضي شهاب الدين المعروف بإبن فضل الله العمري (أحمد يحيى بن فضل الله ت١٣٤٩ هـ)، التعريف بالمصطلح الشريف، الطبعة الأولى.
١٨٩- العمري، القاضي شهاب الدين... مسالك الأبصار، الطبعة الأولى.
١٩٠- العيني، بدرالدين محمود بن أحمد (ت ٨٥٥هـ)، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، شيخ محمودي، القاهرة ١٩٥٩.
١٩١- الفارقي، أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق، تاريخ الفارقي (تاريخ ميافارقين وآمد) بدأ بتأليفه سنة ٥٧٢ هـ. حقق القسم الأخير ونال عليه درجة الدكتوراه ونشره الدكتور بدوي عبداللطيف عوض، طلع القاهرة ١٩٥٩.
١٩٢- فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى، الحضر مدينة الشمس، طبع ١٩٧٤.
١٩٣- فريال داود المختار، المنسوجات العراقية الإسلامية من الفتح العربي الى سقوط الخلافة العباسية. بغداد ١٩٥٩.
١٩٤- الدكتور فرج صبحي، كنوز المتحف العراقي، بغداد ١٩٧٢.
١٩٥- فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، ١٩٢٣-١٩٥٩.
١٩٦- ڤنديداد: من الكتب الزردشتية من العهد الفرثي، ترجمه من الفرنسية الدكتور داود الچلبي الموصلي، الطبعة الأولى.
١٩٧- فيروزآبادي، محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ)، قاموس المحيط، الطبعة الثالثة.
١٩٨- الدكتور فيصل السامر، الدولة الحمدانية في الموصل، طبغ بغداد ١٩٧٠.
١٩٩- قدامة بن جعفر (ت ٣٢٠هـ)، كتاب الخراج مطبوع مع المسالك والممالك لإبن خرداذبه. طبع ليدن ١٨٨٩م.
٢٠٠- القزويني، زكريا بن محمد (القرن الثالث عشر الميلادي)، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ١٩٦٠.
٢٠١- القفطي، جمال الدين علي بن يوسف (ت ٦٤٦هـ)، تاريخ الحكماء، طبع لايبزگ ١٩٠٣.
٢٠٢- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن يوسف (ت٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الطبعة الأولى.
٢٠٣- كاريل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، بيروت ١٩٦٥.
٢٠٤- الكتبي، محمد بن شاكر (ت ٧٦٤هـ)، فوات الوفيات، مطبعة السعادة.
٢٠٥- الكندي المصري، محمد بن يوسف (ت ٣٥٥هـ)، الولاة والقضاة، ذيل.

٢٠٦- كونراد برويسر، المباني الأثرية في شمال بلاد الرافدين في العصور المسيحية القديمة والإسلامية، ترجمة علي يحيى منصور، بغداد ١٩٨١.
٢٠٧- لانجر، موسوعة تاريخ العالم.
٢٠٨- لسترنج بدان، الخلافة الشرقية، ترجمة بشير فرنسيس وگورگيس عواد، طبع ١٩٥٤.
٢٠٩- لومون، تاريخ الكنيسة، ترجمة الخوري يوسف داود، طبع ١٨٧٣م.
٢١٠- ليو أوبنهايم، بلاد مابين النهرين، ترجمة سعدي فيصل عبدالرزاق.
٢١١- ماجد عبدالله شمس، مقدمة في علم الميكانيك في الحضارة العربية، بغداد ١٩٧٧.
٢١٢- ماري بن سليمان، تاريخ فطاركة كرسي المشرق (كتاب المجدل)، الطبعة الأولى.
٢١٣- ماريوس كانا، نخب تاريخية وأدبية جامعة لأخبار سيف الدولة، طبع ١٩٣٤.
٢١٤- المازندراني، السيد موسى، العقد المنير فيما يتعلق بالدراهم والدنانير، طبع النجف ١٩٦١.
٢١٥- الماوردي، قاضي القضاة ابو الحسن علي بن محمد (ت ٤٥٠ هـ)، الأحكام السطانية والولايات الدينية، بيروت ١٩٧٨.
٢١٦- المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي (ت ٤٧٠هـ)، سيرة المؤيد، القاهرة ١٩٤٩.
٢١٧- محفوظ محمد عمر، إمارة بهدينان العباسية، طبع ١٩٦٩.
٢١٨- المحلي، محمد بن أحمد، المستطرف، الطبعة الأولى، ترجمة محمد
٢١٩- محمد أمين زكي، خلاصة تاريخ الكُرد وكُردستان، علي عوني، الطبعة الثانية، بغداد ١٩٦١.
٢٢٠- محمد أمين زكي، الدول والإمارات الكُردية، ترجمة علي عوني، القاهرة ١٩٤٥.
٢٢١- محمد أمين زكي، مشاهير الكُرد وكُردستان، طبع ١٩٤٥-١٩٤٧.
٢٢٢- محمد باقر الحسيني، النقود الإسلامية، الموسوعة الصغيرة (١٦٨)، بغداد ١٩٨٥.
٢٢٣- محمد توفيق وردي، نماذج من التراث الشعبي الكُردي، الطبعة الأولى.
٢٢٤- محمد جمال الدين سرور، سياسة الفاطميين الخارجية، الطبعة الأولى.
٢٢٥- محمد مغنيه، الشيعة والتشيع، طبع بيروت.
٢٢٦- محمد حسن الزبيدي، العراق في العصر البويهي، القاهرة ١٩٦٩.
٢٢٧- محمد الخضري، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، الطبعة الأولى.
٢٢٨- محمد سليم الجندي، تاريخ معرة النعمان، طبع ١٩٦٣.
٢٢٩- محمد طاهر الكُردي، تاريخ الخط العربي وآدابه، الطبعة الأولى.
٢٣٠- محمد عبدالعزيز مرزق، الفن الإسلامي: تاريخه وحضارته. طبع ١٩٦٥.

٢٣١- محمد علي التهانوني، كشاف إصطلاحات الفنون، طبع أستنبول.
٢٣٢- محمود ياسين التكريتي، الإمارة المروانية في دياربكر والجزيرة، رسالة ماجستير من جامعة بغداد ١٩٧١.
٢٣٣- المسعودي علي بن الحسن (ت ٣٤٦هـ)، التنبيه والإشراف، طبع بيروت ١٩٦٥.
٢٣٤- المسعودي، مروج الذهب، طبع مطبعة السعادة وطبع مطبعة دار الرجاء بمصر.
٢٣٥- مشيحا زخا، أحوال كنيسة أربيل (القرن السادس الميلادي)، مخطوطة سريانية ناقصة ترجمها المطران بطرس عزيز الى العربية ونشرها في أعداد من مجلة النجم منها العدد ٩ في ٢٥ آب ١٩٢٩.
٢٣٦- الدكتور مصطفى جواد، في التراث العربي، تقديم وإخراج محمد جميل شلش وعبدالحميد العلوه چي، بغداد ١٩٧٩.
٢٣٧- مصطفى غالب، تاريخ الدعوة الإسلامية، طبع دمشق.
٢٣٨- المصنف الگوراني، أبو بكر بن هداية الله الكُردي (ت ١٠٤١هـ)، طبقات الشافعية، الطبعة الأولى.
٢٣٩- المقدسي، محمد بن أحمد بن أبي بكر، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع ليدن ١٩٠٦، دون المقدسي معلوماته سنة (٣٧٥هـ = ٩٨٥م).
٢٤٠- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ١٤٤١م)، إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق الدكتور محمد حلمي، القاهرة، ١٩٧١.
٢٤١- المقريزي، الذهب المسبوك فيمن حج من الملوك، الطبعة الأولى.
٢٤٢- المقري، أحمد بن محمد، مصباح المنير.
٢٤٣- المناوي، محمد حمدي، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، الطبعة الأولى.
٢٤٤- المنجد.
٢٤٥- مهرجان أفرام وحنين، من مطبوعات مجمع اللغة السريانية، بغداد ١٩٧٤.
٢٤٦- الموسوعة العربية الميسرة، الطبعة الأولى.
٢٤٧- ميجر سون، رحلة متنكر في بلاد ما بين النهرين وكُردستان، ترجمة فؤاد جميل، الطبعة الأولى و١٩٧٠.
٢٤٨- ميخائيل عواد، صفحة مشرقة من حضارة بغداد في العصر العباسي، طبع ١٩٨١.
٢٤٩- مينورسكي، الأكراد، ترجمة الدكتور معروف خزنه دار، الطبعة الأولى.

٢٥٠- ناجي زين الدين، بدائع الخط العربي، الطبعة الأولى.
٢٥١- ناجي معروف، المدخل الى الحضارة العربية، الطبعة الأولى.
٢٥٢- ناصر خسرو، (القرن الحادي عشر الميلادي)، سفرنامه، ترجمه من الفارسية يحيى الخشاب، طبع بيروت.
٢٥٣- نوبختي، حسن بن موسى (القرن ٣هـ = ٩م)، فرق الشيعة، طبع النجف ١٩٥١.
٢٥٤- نورمان بينز، الإمبراطورية البيزنطية.
٢٥٥- الهروي، ابو الحسن على بن ابي بكر (ت ٦١١هـ)، الإشارات الى معرفة الزيارات، طبع دمشق ١٩٥٣.
٢٥٦- هلال ناجي، الحسن بن أسد الفارقي، بغداد ١٩٧٨.
٢٥٧- الهمداني، ابو بكر أحمد بن محمد المعروف بإبن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، طبع بريل ١٣٠٢هـ.
٢٥٨- الواقدي، أبو عبدالله محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ)، فتوح الشام، طبع دار الجيل، بيروت.
٢٥٩- ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة الدكتور زكي نجيب، القاهرة ١٩٦٥.
٢٦٠- ياقوت الحموي الرومي، شهاب الدين أبو عبدالله (ت ٦٢٦هـ = ١٢٢٩م)، معجم الأدباء أو إرشاد الأديب، طبع ١٩٦٥.
٢٦١- ياقوت الحموي، معجم البلدان، طبعات مختلفة.
٢٦٢- يعقوب الثالث، بطريرك أنطاكية وسائر المشرق، الحقائق الجلية في الابحاث التاريخية والأدبية والفلسفية، طبع ١٩٧٢.
٢٦٣- يوسف زكريا، الموسيقى العربية.

المصادر باللغة الكُردية:

٢٦٤- أحمدێ خانێ(مەم وزین) طبع هەولێر ١٩٦٨.

٢٦٥- الدكتور أورديخانی جليلی سترانێ گوتنا كوردايه تاريقييێ: چاپی كۆڕی زانیاری كورد، بەغدا ١٩٧٧).

٢٦٦- بهمن كريمی، لورستان، ترجمة خالد رسول من الفارسية الى الكُردية، ونشره في ١٩٩٥.

٢٦٧- جميل الروژبیانی (مێژووی حەسنەوەیهی وعەییاری)، بغداد ١٩٩٦.

٢٦٨- جميل الروژبیانی (چوار دەوڵەتی كورد)، هەولێر سنه ٢٠٠٠.

٢٦٩- حسين حزنی موكريانی (ديريكی پێشكەوتن) چاپی يەكەم.

٢٧٠- حسين حزنی موكريانی (كوردستانی موكريان) چاپی يەكەم.

٢٧١- خدر سليمان (گوندياتی)، بغداد ١٩٨٥.

٢٧٢- خدر سليمان (ئێزيدياتی)، بغداد ١٩٧٩.

٢٧٣- عبدالرقيب يوسف (گەشتەكی ئەركيۆلۆجی دكوردستانا باكوردا) باللغة الكوردية، مخطوط.

٢٧٤- مەلا عبدالكريمی مدرس (بنەماڵەی زانیاران)، ١٩٨٤.

٢٧٥- مەلای جزيری (أحمد) (ديوانا مەلايێ جزيری)، طبع هەولێر ١٩٦٤.

المصادر باللغة الفارسية:

٢٧٦- إبن البلخي، فارسنامه، طبع كمبردج ١٩٢١.

٢٧٧- أحمد كسروي، شهرياران كمنام، الطبعة الأولى.

٢٧٨- رشيد ياسمي، كرد وپيرستكي نژاد أو.

٢٧٩- سعيد نفيسي، تاريخ تمدن إيان ساساني، طهران ١٣٣١ شمسي.

٢٨٠- شرفخان البدليسي، شرفنامه، طبعة القاهرة.

٢٨١- شرفخان البدليسي، النسخة الأولى بخط المؤلف نسخة مصورة على النسخة التي بمكتبة بودليان برقم (٣١٢).

٢٨٢- علي اكبر، تاريخ إسلام، طهران ١٩٣٥.

٢٨٣- علي اكبر وقائع نگار، حديقهء ناصريه: نشر محمد رؤوف توكلي، ١٣٦٤ شمسي.

٢٨٤- المستوفي القزويني، حمد الله بن أبي بكر (ت بحدود ٧٥٠هـ)، نزهة القلوب في المسالك والممالك، طبعة ليدن ١٩١٣.

٢٨٥- محمد أمين هەورامی، فەرهەنگی ئیریەن ڤاچ.

٢٨٦- محمد كريم، برهان جامع، قاموس فارسي طبع في تبريز سنة ١٢٦٠هـ.

٢٨٧- مسعود گلزاری، كرمانشان، كردستان، طبع طهران، مطبعه بهمن.

٢٨٨- هاشم رضا، آوستا، طبع ١٣٦٣ شمسى.

٢٨٩- يونس مرواريد، مراغه، طبع ١٣٦٠ قمرى.

المصادر باللغة التركية:

٢٩٠- إسماعيل غالب، مسكوكات قديمه إسلامية قتالوغي، صدر قبل الحرب العالمية الأولى.

٢٩١- أوليا چلبي، محمد ظلي بن درويش (القرن ١١ الهجري = ١٧ الميلادي)، سياحتنامه، الطبعة الأولى ١٣١٤هـ.

٢٩٢- لن پول، دول إسلامية، ترجمة الى التركية خليل أدهم، طبع إستنبول ١٩٢٧.

٢٩٣- ADIL TEKIN : DIYARBAKIR , Istanbul

٢٩٤- Beyhan Karamagarleri : AHLAT, mezartasleri. Ankara 199

٢٩٥- دائرة المعارف الإسلامية. ISLAM ANSIKLOPEDISI

٢٩٦- REMAZAN BALIN / DIYARBAKIR TARIHI

٢٩٧- HANNA DOLAPONU / DEYR - EL - UMUR TARIKHI, 1971

٢٩٨- HAYAT ANSIKLOPEDISI

٢٩٩- BESRI KUNYAR / DIARBAKIR TARIHI ULUS BASMEVI, 1936

٣٠٠- HAYAT TURKIYE ANSIKLOPEDISI , 1970 ISTANBUL

٣٠١- HUSEIN SARAG OGHLU / TURKIYE ÇUGRAFYASI UZERINE ETUDLER: DOGO ANADULU: CILT: MAARIF BBAS-IMIVI, ISTANBUL 1965

٣٠٢- REUF SEYMEN / ÇUGRAFYA DESLERI: ORTA: 111. ISTANBUL 1964

٣٠٣- سليمان سافجي، SILVAN TARIHI, DIYARBAKIR , 1956

٣٠٤- Sevket Beysanoghlu / Anitleri Vekitabeleri ILE. DIYARBAKIR TARIHI, I. ciLD 1987.

٣٠٥- Turikiye Ensiklopidisi

المصادر باللغة الإنكليزية:

٣٠٦- GERTUDE LOWTHIAN BELL / AMURATH TO AMURATH, LONDON, 1911

٣٠٧- D.R. BARNETT / ASSYRIAN PALACE RELIEFE. LONDON

٣٠٨- STANLEY LANE POOLE / ADDITIONS TO THE ORIENTAL COLLECTION

المصادر باللغة الفرنسية:

٣٠٩- Max Van Berchem/ AMIDA, Paris 1910

المصادر باللغة السريانية:

٣١٠- إيليا برشنايا، كتاب الأزمنة بالسريانية، مخطوط، نسخة المتحف البريطاني الرقم (٧١٩٧)، لديّ نسخة مصورة منها تقع في (٢٨١) صفحة. ترجم المواضيع المذكورة مشكوراً الأب الخوري أفرام جرجيس نائب مطرانية بغداد للسريان الأرثوذوكس. ثم عربه الدكتور يوسف حبي ونشره مجمع اللغة السريانية في بغداد سنة ١٩٧٥.

المجلات باللغة الكُردية

٣١١- پەروەردە وزانست، مجلة مديرية الدرسات الكُردية في بغداد، العدد الثاني، السنة الأولى.

٣١٢- مجلة هەزار ميرد، العدد الثالث، سنة ١٩٩٨.

المجلات باللغة العربية

٣١٣- مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد ٢٠.

٣١٤- مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد ٤٣، الجزء الأول، سنة ١٩٥٩.

٣١٥- مجلة المشرق، لصاحبها يونس شيخو، أعداد مختلفة.

٣١٦- المورد، تصدرها وزارة الثقافة والإعلام العراقية، مجلد عدد ٤، سنة ١٩٧٥.

٣١٧- مجلة بين النهرين، يصدرها المركز الثقافي الآشوري في دهوك، العدد ٩، سنة ١٩٩٥.

فهرس